

# الجسد المضيف

رواية



ستيفاني ماير

مؤلفة سلسلة توايلايت




ستيفاني ماير

# الجسد المضيف

الكتاب
**الجسد المضيف**
تأليف
**ستيفاني ماير**
ترجمة
**الحارث محمد النبهان**
الطبعة
الأولى، 2011
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-518-5

الناشر
**المركز الثقافي العربي**
**الدار البيضاء - المغرب**
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 - 0522 307651
فاكس: 305726 - 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
**بيروت - لبنان**
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 - 352826 01
فاكس: 343701 1 - 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

نُشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع سما للنشر

ستيفاني ماير

# الجسد المضيف

روايـة

ترجمة: الحارث محمد النبهان

إلى أمي كاندي

لأنهـا علّمتني أن الحب هو الجزء الأفضـل في كل قصة.

# سؤال

جسدي
أنت بيتي
أنت حصاني
أنت كلبي
ماذا أفعل
عندما تنهار؟

أين أنام
ماذا أمتطي
ماذا أصطاد؟

أين أستطيع الذهاب
من غير مَطيّتي؟
كل شيء ينبض بالتوق والسرعة
فكيف أعرف
في الأجمة التي أمامي
هل يكمن خطر أم كنز؟
عندما ودّعني جسدي
مات الكلب المتألق

كيف يكون الأمر
إن استلقيت في السماء
من غير سقف أو باب
ومن غير ريح تقوم مقام العين؟

عندما يكون غطائي غيمة
فكيف أستطيع الاختباء؟

ماي سوينسون

# تمهيد

# زرع

كان اسم المعالج فوردز ديبووتر. ولأنه كان روحاً فقد كان بطبيعته يجمع كل الأشياء الحسنة: كان شفوقاً صبوراً صادقاً فاضلاً مليئاً بالحب. كان القلق إحساساً غير معتاد لدى فوردز ديبووتر. وكان شعور الانزعاج أكثر ندرة عنده. لكن، بما أن فوردز ديبووتر يعيش في جسد بشري فقد كان الشعور بالانزعاج أمراً لا مفر منه أحياناً.

وعندما راحت وشوشات الطلاب تئز في الزاوية البعيدة من غرفة العمليات كان يشد على شفتيه حتى تصيرا خطاً مستقيماً. يبدو هذا التعبير غريباً على فم غالباً ما يكون باسماً.

رأى مساعده دارن تلك التكشيرة فربّت على كتفه وقال بصوت هادئ: «إنهم يشعرون بالفضول فحسب يا فوردز».

«ليست عملية الزرع أمراً يحمل أي إثارة أو تحدٍّ. تستطيع أي روح في الشارع أن تؤدي هذه العملية عند الضرورة. ليس لديهم شيء يتعلمونه من مراقبة العملية اليوم». فوجئ فوردز بسماع تلك الحدة تشوب صوته الهادئ اللطيف في العادة.

قال دارن: «لم تسبق لهم رؤية بشري كبير!».

رفع فوردز حاجبه متعجباً: «وهل هم عاجزون عن رؤية وجوههم؟ أليست لديهم مرايا؟».

«أنت تعرف قصدي. بشري بري. بشري ما زال من غير روح. واحد من المتمرّدين».

نظر فوردز إلى جسد الفتاة الغائبة عن الوعي ممدداً على طاولة العمليات. كانت مقلوبة على وجهها. غمر الإشفاق قلبه عندما تذكّر حالة جسدها المحطم عندما أحضرها الباحثون إلى مركز العلاج. ما أشد الألم الذي عانته.

كانت الآن في أحسن حالٍ طبعاً. شفيت تماماً. لقد اهتم فوردز بهذا.

تمتم فوردز قائلاً لدارن: «إنها تبدو مثل أي واحد منا تماماً! إن لنا وجوهاً بشرية كلنا. وعندما تستيقظ ستكون واحدة منا أيضاً».

«الأمر مثير بالنسبة للطلاب، هذا كل شيء».

«إن الروح التي نزرعها فيها اليوم تستحق احتراماً أكثر من الجلوس هناك والنظر إلى الجسد المضيف بهذه الطريقة. إن لديها الكثير مما ستتعامل معه أثناء تأقلمها. ليس من الإنصاف أن نجعلها تتعرض لهذا كله». لم يكن فوردز يعلق على نظر الطلاب إلى الجسد بكلماته هذه. وقد سمع تلك النبرة الحادة تعود إلى صوته.

ربت دارن عليه من جديد: «سيكون الأمر على أحسن حال. إن الباحثة في حاجة إلى معلومات، و. . .».

عند سماعه كلمة باحثة، ألقى فوردز صوب دارن نظرة لا يمكن وصفها إلا بأنها نظرة انزعاج. رفّت عينا دارن حين لاحظ هذه النظرة.

اعتذر فوردز على الفور: «أنا آسف! لم أقصد أن يكون ردّ فعلي سلبياً إلى هذا الحد. كل ما في الأمر هو أنني خائف على هذه الروح».

انتقلت عيناه إلى وعاء التبريد المستقر فوق قاعدته بجانب طاولة العمليات. كان ضوء المصباح ثابتاً أحمر اللون مشيراً إلى أن الروح موجودة في الوعاء وإلى أنها في حالة سبات.

قال دارن مهدئاً فوردز: «لقد تم اختيار هذه الروح خصيصاً لهذه المهمة. إنها استثنائية بين بني جنسنا. وأكثر قوة من معظمنا. إن

الحيوات التي عاشتها تدل على ذلك. وأظن أنها ستكون مستعدة للتطوع من أجل هذه المهمة، لو أمكننا سؤالها».

«من منا يمتنع عن التطوع إذا طُلب منه ذلك من أجل الخير الأعلى؟ لكن، هل تلك هي القضية هنا؟ هل تجري خدمة الخير الأعلى بهذا الشكل؟ ليست المسألة مسألة استعدادها، بل هي مسألة الحق في مطالبة أي روح بأن تتحمل هذا».

كان الطلاب يتحدثون أيضاً عن الروح التي في حالة سبات. وكان فوردز قادراً على سماع وشوشاتهم على نحو واضح. كانت أصواتهم ترتفع الآن وتزداد قوة مع ازدياد إثارتهم.

«لقد عاشت في ستة كواكب».

«سمعت أنها عاشت في سبعة».

«سمعت أنها لم تعش مرتين في جسد مضيف من الجنس نفسه».

«هل هذا معقول؟».

«لقد كانت كل شيء تقريباً. زهرة ودباً وعنكبوتاً. . .».

«وعشبة بحرية، وخفاشاً».

«بل كانت تنيناً أيضاً!».

«لا أصدق هذا. . . لم تعش في سبعة كواكب».

«على الأقل سبعة. لقد بدأت على كوكب أوريجين».

«حقاً؟ على كوكب أوريجين؟».

قاطعهم فوردز: «هدوء من فضلكم! إذا كنتم غير قادرين على مراقبة العملية بصمت وانتباه فسوف أضطر إلى إخراجكم».

خجل الطلاب الستة، صمتوا جميعاً وأشاح كل منهم بنظره بعيداً عن زملائه.

«دعنا نبدأ يا دارن».

كان كل شيء محضَّراً. وكانت الأدوية اللازمة موضوعة بجانب الفتاة البشرية. كان شعرها الطويل الأسود مضموماً تحت غطاء الرأس الخاص

بغرفة العمليات كاشفاً عن رقبتها الرشيقة. إنها نائمة نوماً عميقاً تحت التخدير. كان تنفسها بطيئاً. ولم يكن يظهر على جلدها الذي لوَّحته الشمس أثر. للحادث.

«ابدأ إزالة التجميد الآن من فضلك يا دارن».

كان المساعد ذو الشعر الشائب واقفاً إلى جانب وعاء التبريد ويده مستقرة على المقبض. حرر قفل الأمان وأنزل المقبض إلى الأسفل. بدأ المصباح الأحمر في قمة الأسطوانة ينبض ثم ازداد نبضه سرعة مع مرور الثواني. كان لونه يتغير أيضاً.

كان فوردز يركّز انتباهه على الجسد غير الواعي. غرس المشرط في الجلد عند أسفل جمجمة الفتاة بحركة دقيقة صغيرة ثم رش على الجرح الدواء الذي يوقف النزيف قبل أن يقوم بتوسيع الشق. راح فوردز ينقب بحركة رقيقة تحت عضلات الرقبة محاذراً إصابتها بأي أذى. كان يكشف العظام الشاحبة في قمة العمود الفقري.

أبلغه دارن: «الروح جاهزة يا فوردز»

«وأنا جاهز أيضاً. هاتها».

شَعَرَ فوردز بوجود دارن عند مرفقه. وعرف دون أن ينظر أن مساعده مستعد وأنه قد مد يده صوبه منتظراً. إنهما يعملان معاً منذ سنوات كثيرة. حافظ فوردز على الجرح مفتوحاً وهمس قائلاً: «ضعها في مكانها».

ظهرت يد دارن. وظهر في يده اللمعان الفضي لروح استيقظت الآن.

لم يسبق لفوردز أبداً أن شاهد روحاً عارية من غير أن يدهشه جمالها.

كانت الروح مشعة تحت الإضاءة الساطعة في غرفة العمليات. كانت أكثر تألقاً من أدوات الجراحة الفضية في يديه. كانت تتلوّى وتتماوج مثل شريط حي. كانت تتمطط سعيدة بتحررها من وعاء التبريد. وكانت استطالاتها الكثيرة، ألف استطالة تقريباً، متجمّعة كما لو أنها شعرٌ فضي

شاحب اللون. كانت الأرواح جميلة كلها، لكن هذه الروح بدت ذات جمال خاص في عين فوردز ديبووتر.

ما كان وحيداً في ردّ فعله هذا فقد سمع شهقة دارن الخفيفة وسمع همسات الإعجاب صادرة عن الطلاب.

وبرفق، وضع دارن ذلك المخلوق اللامع الصغير داخل الفتحة التي صنعها فوردز في الرقبة البشرية. انزلقت الروح بنعومة في هذه الفتحة متكيفة برشاقة مع تلك التفاصيل التشريحية الغريبة عليها. شعر فوردز بالإعجاب لمدى مهارتها في احتلال بيتها الجديد. مضت استطالاتها بإحكام إلى مكانها حول المراكز العصبية. استطال بعضها وتغلغل عميقاً إلى حيث لم يكن فوردز قادراً على الرؤية. تغلغلت الاستطالات إلى الأسفل وإلى الأعلى صوب الدماغ والأعصاب البصرية والقنوات السمعية. كانت شديدة السرعة. شديدة الإحكام في حركاتها. سرعان ما غاب أكثر ذلك الجسم اللامع عن الأنظار ولم يبق ظاهراً منه إلا جزء صغير.

همس لها: «أحسنتِ!» كان عارفاً أنها لا تستطيع سماعه، فالفتاة البشرية هي صاحبة الأذنين، وهي ما زالت في نومها العميق تحت التخدير.

كان إنهاء العمل أمراً اعتيادياً. نظف فوردز الجرح ورش عليه الترياق الذي أغلق الجرح من فوق الروح ثم وضع المسحوق المزيل للندبات فوق الخط الذي ظل ظاهراً على رقبة الفتاة.

قال مساعده: «عمل متقن، كالعادة!». كان فوردز لسبب ما عاجزاً عن سبر غور هذا الرجل الذي لم يغير اسم مضيفه، دارن.

تنهد فوردز: «أنا آسف على عمل هذا اليوم»

«أنت تقوم بواجبك فقط، بصفتك معالجاً».

«إنها الحالة النادرة التي يسبب فيها العلاج الأذى».

بدأ دارن ينظف طاولة العمليات. بدا أنه لا يعرف كيف يجيب على كلمات فوردز. راح ينظر قلقاً إلى جسد الفتاة البشرية الراقد تحت

التخدير. كان يعرف أن هذا السلام الذي تنعم به الآن سوف يتحطم سريعاً فور استيقاظها. سوف تحتمل تلك الروح البريئة التي وضعوها في جسدها منذ قليل كل الرعب الذي رافق نهاية هذه الفتاة الشابة.

انحنى فوردز فوق الجسد البشري وهمس في أذنه راجياً أن تتمكن الروح التي في داخله من سماعه الآن: «حظاً طيباً أيتها الجوّالة، حظاً طيباً. كم أتمنى لو أنك لم تكوني في حاجة إلى الحظ الطيب».

## الفصل الأول

# ذكريات

كنت أعرف أن الأمر سيبدأ من النهاية وأن النهاية ستبدو مثل الموت في هاتين العينين. لقد حذروني.

ليست هاتان العينان. عيناي. عيناي أنا. هذه هي أنا الآن.

كانت اللغة التي وجدت نفسي أستخدمها لغة غريبة لكنها كانت ذات معنى. كانت لغة عمياء صلبة منقطعة تسير على نحو متصل. إنها لغة عاجزة إلى حد غير معقول بالمقارنة مع لغات كثيرة استخدمتها من قبل، لكنها أفلحت في تحقيق الانسياب والتعبير. إنها جميلة أحياناً. إنها لغتي الآن. لغتي الأم.

بكل ما لدى جنسنا من غريزة استطعت أن أغرس نفسي في مركز تفكير هذا الجسد غرساً محكماً. أوثقت نفسي على نحو لا ينفصم بكل نَفَسٍ من أنفاسه وبكل مركز لرد الفعل. ما عاد هذا الجسد كياناً منفصلاً عني. إنه أنا.

إنه ليس «الجسد»، بل جسدي أنا.

أحسست بالتخدير يزول تدريجياً وأحسست بالصحو يحل محله. أعددت نفسي لهجوم الذكرى الأولى التي هي آخر الذكريات حقاً. آخر اللحظات التي عاشها هذا الجسد، ذكرى النهاية. لقد حذروني كثيراً مما سيحدث الآن. سوف تكون المشاعر البشرية أقوى وأكثر حيوية من مشاعر بقية الأجناس التي كنتها من قبل. وقد حاولت إعداد نفسي.

جاءت اللحظة. لكن، كما حذروني، لم تكن شيئاً يمكن الاستعداد له أبداً.

جاءت تلك اللحظة حادة الألوان مجلجلة الصوت. أحسست بالبرد على جلدها وبالألم يتغلغل في أطرافها، يحرقها. كان في فمها طعم معدني قاسٍ. وكان ذلك الإحساس الجديد، الحاسة الخامسة التي لم تكن لدي من قبل، الحاسة التي تلتقط تلك الدقائق من الهواء وتحولها إلى رسائل ومَسرّاتٍ وإنذاراتٍ غريبة في عقلها. إنها حاسة الشم. الروائح. كانت هذه الأحاسيس مربكة مشتتة بالنسبة لي، لكن ليس بالنسبة لذكرياتها. ما كان لدى الذكرى وقت من أجل التوقف عند جِدة حاسة الشم. كانت ذكرى خوف فقط.

أمسك الخوف بها مثل ملزمة. كان يقود تلك الأطراف المخدرة الخرقاء إلى الأمام لكنه كان يعوق حركتها في الوقت عينه. ما كانت تستطيع أن تفعل شيئاً إلا أن تهرب. أن تجري.

لقد فشلتُ.

تلك الذكرى التي ما كانت لي كانت قوية واضحة إلى حد مخيف فتجاوزت سيطرتي. تجاوزت استطالاتي وتجاوزت معرفتي بأنها لم تكن إلا ذكرى وبأنها لم تكن من ذكرياتي أنا. ابتلعني الجحيم الذي كان آخر دقيقة في حياتها، كنت أنا هي، وكنا نجري.

الظلمة شديدة. لا أستطيع الرؤية. لا أستطيع رؤية الأرض. لا أستطيع رؤية يدي الممتدتين أمامي. كنت أركض عمياء محاولة سماع صوت المطاردة التي أشعر بها خلفي، لكن صوت نبضي كان شديد الارتفاع خلف أذني، كان يحجب كل شيء آخر.

برد شديد. لا يجوز أن أهتم بهذا الآن، لكنه يؤلمني. أشعر ببرد شديد.

كان الإحساس بتدفق الهواء في أنفها مزعجاً. سيئاً. رائحة سيئة. وللحظة واحدة، أبعدني هذا الانزعاج فحررني من الذكرى. لكنها كانت ثانية واحدة فقط ثم شدتني الذكرى من جديد فامتلأت عيناي بدموع الرعب.

لقد ضعت، لقد ضعنا. انتهى الأمر.

إنهم خلفي تماماً الآن. قريبون جداً وأصواتهم مرتفعة. اسمع وقع خطوات كثيرة! إنني وحدي. لقد فشلت.

الباحثون ينادونني. تتقلص معدتي عند سماع أصواتهم. سوف يصيبني الغثيان.

قالت إحداهم كاذبة: «لا بأس، لا بأس». إنها تحاول تهدئتي. تحاول إبطائي. كان صوتها مضطرباً بفعل لهاثها.

صاح آخر محذراً: «انتبهي!».

صاح آخر يرجوني: «لا تؤذي نفسك!». كان صوتاً عميقاً مليئاً بالاهتمام والقلق.

القلق!

اندفعت الحرارة عاصفة في عروقي وكادت الكراهية العنيفة تخنقني.

لم أشعر في حياتي كلها بإحساس يعادل هذا الإحساس قوة. ولمدة ثانية أخرى أبعدني نفوري عن الذكرى. أبعدني قليلاً!. اخترق أذني عويل ثاقب مرتفع وانفجر في رأسي. أحسست أن هذا الصوت يجرح مجاري التنفس في جسدي. وأحسست ألماً خفيفاً في حنجرتي.

شرح لي جسدي: «هذا صراخ... أنت تصرخين».

تجمدت مصدومة وانقطع الصوت فجأة.

ما كانت هذه ذكرى.

جسدي. كانت تفكر! تتحدث معي!

لكن الذاكرة كانت أقوى في تلك اللحظة، أقوى من دهشتي.

صاحوا من خلفي: «من فضلك! ثمة خطر أمامك».

الخطر خلفي لا أمامي! هكذا صرخت مجيبة في ذهني. لكني رأيت ما يقصدونه بكلامهم. رأيت حزمة ضعيفة من الضوء آتية من حيث لا أدري. كانت تشع في نهاية القاعة. هذا ليس جداراً ولا باباً مقفلاً. ليس النهاية المسدودة التي كنت أخشاها وأتوقعها. إنه ثقب أسود.

إنه بئر المصعد. مهجور، فارغ، ملعون، مثل هذا البناء. بناء كان مكان اختباء ذات مرة، فصار الآن قبراً.

اجتاحتني موجة من الارتياح ورحت أجري إلى الأمام. ثمة مخرج. لا سبيل إلى البقاء على قيد الحياة، لكنه قد يكون سبيلاً للفوز عليهم.

لا، لا، لا! كانت هذه أفكاري أنا، كلها. كافحت حتى أنتزع نفسي منها، لكننا كنا معاً. قفزنا معاً من على حافة الموت.

صارت الصرخات أكثر يأساً: «من فضلك!».

أشعر برغبة في الضحك عندما أعرف أنني سريعة بالقدر الكافي. أتخيل أيديهم ممتدة نحوي لا تبعد عني إلا سنتيمترات قليلة. لكن سرعتي كافية بالقدر الذي يلزمني. لم أتوقف لحظة عندما انتهت الأرض تحت قدمي. قفز الثقب وارتفع حتى يلاقي قفزتي الذهنية.

ابتلعني الفراغ. وتقاذفت ساقاي في الهواء من غير جدوى. أمسكت قبضتاي الهواء، تشبثتا به باحثتين عن أي شيء صلب. هبت نفحات البرد تلاقيني مثل رياح الإعصار.

سمعت الصدمة قبل أن أحسّها... اختفت الريح...

ثم صار الألم في كل مكان... الألم هو كل شيء.

اجعلوا هذا الألم يتوقف.

لم تكن القفزة مرتفعة بالقدر الكافي. هكذا همست لنفسي من قلب المي.

متى ينتهي الألم؟... متى؟

ابتلعت الظلمة يأسي وعذابي. كنت أشعر بالضعف، وبالامتنان لأن الذكرى وقفت عند هذه النقطة النهائية. أخذت الظلمة كل شيء، وصرتُ حرة. استنشقت الهواء حتى أهدئ نفسي. هكذا هي عادة هذا الجسد. جسدي أنا.

لكن اللون اندفع عائداً وارتدّت الذكرى وغمرتني من جديد.

صحت مذعورة: «لا!». خفتُ البرد والألم. خفتُ الخوف نفسه.

لكنها لم تكن تلك الذكرى الأولى نفسها. كانت ذكرى داخل ذكرى. ذكرى أخيرة، مثل آخر جرعة من الهواء. لكنها كانت أشد قوة من الأولى. لا أدري كيف.

أخذت الظلمة كل شيء إلا هذا: صورة وجه.

كان الوجه غريباً بالنسبة لي مثلما كانت ستبدو غريبة تلك المجسات المتماوجة التي لا وجه لها في آخر جسد حللت فيه في عيني هذا الجسد الجديد. لقد رأيت هذا النوع من الوجوه في الصور التي جعلوني أراها حتى أستعد لهذا العالم. كان صعباً تمييز واحدهم من بقيتهم. كانت رؤية الفروق الصغيرة في اللون والشكل صعبة لكنها كانت العلامات الوحيدة التي تدل على كل واحد منها. إنهم متشابهون كثيراً، كلهم. أنف بارز من تلك الكرة عند منتصفها وعينان من فوق وفم من تحت وأذنان على الجانبين. ومجموعة من الحواس مركزة في مكان واحد، عدا حاسة اللمس. جلد يغطي العظام وشعر ينمو في قمة الرأس ويشكل خطين كثيفين غريبين فوق العينين. كان لبعضهم شعر على الذقن. وكان هؤلاء ذكوراً دائماً. أما ألوانهم فكانت تتراوح ضمن درجات اللون البني، من لون القشدة الشاحب حتى البني الداكن الذي يقارب السواد. أما غير ذلك، فكيف يمكن معرفة واحدهم وتمييزه من الآخرين؟

لكني كنت سأعرف هذا الوجه من بين مليون وجه.

كان وجهاً مستطيلاً حاد الاستطالة، وكان شكل العظام واضحاً من تحت الجلد. أما لونه فكان بنياً ذهبياً خفيفاً. وكان لون الشعر أكثر دكنة

بقليل من لون الجلد ما عدا خصلات أخف لوناً تضيئه. ما كان الشعر يغطي غير قمة الرأس، والخطين الغريبين فوق العينين. كان لون حدقتي العينين المدورتين في محيطهما الأبيض داكناً أكثر من لون الشعر، لكن نوراً كان يلمع فيهما. وكان حول العينين خطوط صغيرة في الجلد. أخبرتني ذكرياتها أن هذه الخطوط كانت بسبب الابتسام وبسبب تضيّق العينين بفعل توهج ضوء الشمس.

لا أعرف معيار الجمال عند هؤلاء الغرباء، لكنني عرفت أن هذا الوجه كان جميلاً. أردت أن أستمر في النظر إليه. وفور إدراكي هذه الرغبة اختفى الوجه.

«إنه لي!». هكذا قالت أفكار الغريبة التي لا ينبغي أن تكون موجودة.

جمدتني الدهشة من جديد. يجب ألا يكون هنا أحد غيري. لكن تلك الفكرة كانت شديدة القوة.. شديدة الإدراك!

مستحيل! إنها ما تزال هنا.. كيف؟ هذه أنا الآن.

قلت أوبخها: «إنه لي!». كانت القوة والسلطة ظاهرتين في كلماتي. «كل شيء لي أنا».

تساءلتُ عندما قاطعت الأصوات أفكاري: «إذاً، لماذا أرد عليها؟»

## الفصل الثاني

# استراق السمع

كانت الأصوات قريبة هادئة. ورغم أنني لم أنتبه إليها إلى الآن فقد كان واضحاً أنها ماضية في حوار هامس.

قال أحدهم: «أخشى أن هذا الأمر كثيرٌ عليها». كان صوتاً عميقاً هادئاً. إنه صوت رجل. «كثيرٌ على أي شخص. كل هذا العنف!». كانت نبرة صوته توحي بانزعاج شديد.

قال صوت حاد أكثر ارتفاعاً، صوت أنثوي: «لم تصرخ إلا مرة واحدة». قالت هذا بنوع من السرور كأنها تفوز في النقاش.

قال الرجل موافقاً: «أعرف هذا! إنها قوية جداً. أصيب غيرها أكثر منها لأسباب أقل بكثير».

«أنا واثقة من أنها ستكون بخير كما قلت لك».

ظهرت حدة في صوت الرجل: «لعلك أخطأت اختيار مهنتك». إنها نبرة تهكّم. هكذا أسمتها ذاكرتي. «لعلك كنت تصبحين معالجة شافية، مثلي!».

أطلقت المرأة صوتاً يوحي بالسرور. إنه صوت الضحك: «أشكّ في ذلك. نحن الباحثين نفضل نوعاً مختلفاً من التشخيص».

كان جسدي يعرف هذه الكلمة، هذا اللقب: الباحثون. جعلت هذه الكلمة رعدة من الخوف تسري في ظهري. إنه رد فعل باقٍ من الحياة الماضية. ما من سبب يجعلني أخشى الباحثين بطبيعة الحال.

قال الرجل وما زال صوته محمَّلاً بالانزعاج: «أتساءل أحياناً إن كان من يعملون في مهنتك قد أصيبوا بعدوى بشرية. إن العنف جزء من اختياركم في الحياة. فهل بقي فيكم قدر من الطبع الأصلي لأجسادكم بحيث يجعلكم تستمتعون بالرعب؟».

فاجأني هذا الاتهام، هذه النبرة. كان هذا الحوار أشبه. بجدل. شيء يألفه جسد مضيفتي لكني لم أعرفه من قبل.

اتخذت المرأة موقفاً دفاعياً: «نحن لا نختار العنف. إننا نواجهه عندما يتعين علينا ذلك. وهذا أمر جيد بالنسبة لكم لأن لدى بعضنا القوة الكافية لتحمّل هذه الأشياء المزعجة. لولا عملنا لما عشتم في سلام».

«ذات يوم ستصبح مهنتك شيئاً من الماضي، هكذا أظن».

«إن الدليل على أنك مخطئ راقد هنا أمامنا على السرير».

«فتاة بشرية واحدة، وحيدة غير مسلحة! نعم، يا لها من خطر على سلامنا».

أطلقت المرأة أنفاساً ثقيلة. إنها زفرات: «لكن من أين أتت؟ كيف ظهرت في وسط شيكاغو، المدينة التي تحضّرت منذ زمن بعيد، المدينة البعيدة مئات الأميال عن أي نشاط للمتمردين؟ هل نجحت في تحقيق ذلك وحدها؟».

كانت تلقي هذه الأسئلة من غير أن يبدو عليها أنها تنتظر إجابة، كما لو أنها ألقت هذه الأسئلة مرات كثيرة من قبل.

قال الرجل: «هذه مشكلتك لا مشكلتي! مهمتي هي مساعدة هذه الروح على التلاؤم مع مضيفها الجديد من غير ألم ومعاناة غير ضروريين. وأنت موجودة هنا من أجل التشويش على عملي».

ما زلت أصحو ببطء وأحاول التأقلم مع عالم الحواس الجديد هذا؛ لكني فهمت الآن فقط أنني كنت موضوع الحديث. أنا هي الروح التي عنها يتحدثون. كان هذا معنى جديداً للكلمة، كلمة كانت تعني أشياء

أخرى كثيرة لدى مضيفتي. نحن نتخذ اسماً مختلفاً في كل كوكب. روح. . ! أظن أنه وصف كافٍ. القوة غير المرئية التي تقود الجسد.

«إن للإجابة عن أسئلتي أهمية لا تقل عن أهمية مسؤولياتك تجاه الروح».

«هذا خاضع للنقاش».

سمعتُ صوت حركة. وفجأة، صار صوت المرأة همساً: «متى تبدأ استجاباتها؟ لا بد أن التخدير على وشك الزوال الآن».

«عندما تصبح مستعدة. دعيها تأخذ وقتها. إن من حقها أن تتعامل مع الوضع بالطريقة التي تراها أكثر راحة بالنسبة لها. تصوري صدمة استيقاظها. داخل جسد مضيف متمرد أصيب أثناء محاولة الهرب إصابة وصلت به إلى شفير الموت! لا يجوز أن يتعرض أحد لهذه المعاناة في أوقات السلم!». اشتد صوته مع ازدياد انفعاله.

صار صوت المرأة مسترضياً الآن: «إنها قوية. انظر كم كان أداؤها جيداً تجاه الذكرى الأولى، الذكرى الأسوأ. لا نعرف ما الذي كانت تتوقعه. لكنها تمكنت من التعامل معه».

تمتم الرجل: «لماذا يكون عليها أن تعاني؟». لكن الظاهر أنه لم يكن يتوقع إجابة.

لكن المرأة أجابت: «إذا أردنا الحصول على المعلومات فنحن في حاجة إلى. . ».

«أنت التي تستخدمين كلمة حاجة. أما أنا فأستخدم كلمة نريد».

تابعت المرأة كلامها كأنه لم يقاطعها: «إذاً، على أحد ما أن يتحمل الانزعاج. وأظن، مما أعرفه عن هذه الروح، أنها كانت ستقبل التحدي لو كانت لدينا طريقة لسؤالها. ماذا تسميها؟».

ظل الرجل صامتاً لحظات طويلة. أما المرأة فانتظرت.

أجاب من غير رغبة أخيراً: «جَوَّالة».

قالت: «اسم مناسب! ليس لدي إحصاءات رسمية. لكن لا بد أنها واحدة من قليلين، أو لعلها الوحيدة التي تجوّلت إلى هذا الحد. نعم، سوف يناسبها اسم جوالة ريثما تختار اسماً جديداً لنفسها».

لم يقل الرجل شيئاً.

«يمكنها طبعاً أن تأخذ اسم مضيفتها. لم نجد في السجلات ما يطابق بصمات أصابعها أو بصمة عينها. لا أعرف ما كان اسمها».

تمتم الرجل: «لا، لن تتخذ اسماً بشرياً».

كانت إجابتها تصالحية: «كل امرئ يجد ما يريحه بطريقته».

«سوف تحتاج هذه الجَوَّالة إلى الراحة أكثر من غيرها. هذا بفضل أسلوبك في البحث».

سمعت أصواتاً حادة. وقع أقدام، صوت الحذاء على الأرضية القاسية. وعندما تحدثت المرأة من جديد جاء صوتها من الطرف البعيد من الغرفة.

قالت: «لو كنت موجوداً في الفترة الأولى من هذا الاحتلال لعانيت كثيراً ولكانت ردود أفعالك سيئة».

«لعل ردود أفعالك إزاء السلم سيئة أيضاً».

ضحكت المرأة، لكن ضحكتها كانت كاذبة. ما كان فيها أي سرور حقيقي. بدا لي أن عقلي قد تكيف جيداً مع عملية استنتاج المعاني الحقيقية من نبرات الصوت.

«ليست لديك صورة واضحة عما تتضمّنه مهنتي. إن فيها ساعات طويلة من الانكباب على الملفات والخرائط. عمل مكتبي في أكثره. ليس فيه الكثير من الصدام والعنف كما تظن».

«قبل عشرة أيام كنت تحملين أسلحة قاتلة من أجل الإيقاع بهذا الجسد».

«أؤكد لك أنها حالة استثنائية وليست قاعدة. لا تنس أن هذه

الأسلحة التي تثير القرف في نفسك تُوجه إلى بني جنسنا كلما تخلينا نحن الباحثين عن الحيطة الكافية. إن البشر يقتلوننا بسعادة كلما تمكنوا من ذلك. إن من وقعوا ضحية هذه الكراهية يعتبروننا أبطالاً».

«أنت تتحدثين كما لو أن الحرب ما زالت مستمرة».

«ثمة حرب مستمرة حتى تنتهي جميع بقايا الجنس البشري».

كان وقع هذه الكلمات قوياً في أذني وكان لجسدي رد فعل عليها. أحسست بتسارع تنفسي وسمعت صوت قلبي أعلى من المعتاد. وإلى جانب السرير الذي أرقد عليه سَجَّلت الآلة هذا الازدياد بأن أصدرت طنيناً مكتوماً. لكن المعالج والباحثة كانا منغمسين في خلافهما إلى درجة جعلتهما لا يلاحظان ذلك.

«لكنها حرب يجب أن يدرك البشر أنهم خسروها منذ زمن بعيد. إننا نفوقهم عدداً. بكم؟ مليون إلى واحد؟ أظن أنك تعرفين».

«تقول تقديراتنا إن الفارق أكبر من هذا. أكبر قليلاً لصالحنا». هكذا أقرت المرأة من غير رغبة.

بدا المعالج راضياً بالوصول إلى هذه النتيجة. ساد الصمت بعض الوقت.

استفدت من الوقت الفارغ حتى أُقيّم وضعي. لقد اتضحت لي أمور كثيرة.

أنا في مركز معالجة أتعافى من عملية زرع شديدة الصعوبة. وأنا واثقة من أن الجسد الذي يستضيفني الآن قد شفي تماماً قبل أن يُقدَّم لي. لو كان المضيف معطوباً لتخلصوا منه.

رحت أفكر في الآراء المتعارضة التي سمعتها من المعالج والباحثة. كان المعالج محقاً. طبقاً للمعلومات التي أعطيت لي قبل أن أختار المجيء إلى هنا. لقد انتهت الأعمال العدائية بيننا وبين الجيوب القليلة الباقية من البشر. كان الكوكب المدعو باسم الأرض ينعم بالسلام

والصفاء، تماماً كما يبدو منظره من الفضاء، أزرق اللون مخضراً مضيافاً ملفعاً بأبخرته البيضاء غير المؤذية. إن الانسجام يعمّه الآن. هكذا هو أسلوب الروح.

لكن الشجار الشفهي بين المعالج والباحثة كان غريباً. كان عدوانياً على نحو غير طبيعي لدى بني جنسنا. أيمكن أن تكون صحيحة تلك الإشاعات المهموسة التي كانت تتحرك مثل الأمواج من خلال أفكار الـ. الـ.

تشتت انتباهي عندما رحت أحاول العثور على اسم جنس آخر جسد مُضيف حللت فيه. لقد كان لنا اسم، أنا متأكدة. لكنني لم أعد قادرة على تذكر الكلمة بعد أن انفصلت عن مضيفي السابق. كنا نستخدم لغة أكثر بساطة من هذه اللغة. أكثر بساطة بكثير. لغة صامتة من الأفكار التي تصل بيننا جميعاً ضمن عقل واحد كبير. هذا شيء ضروري عندما تكون جذور المرء مغروسة إلى الأبد في التربة السوداء الرطبة.

أستطيع الآن وصف ذلك الجنس بلغتي البشرية الجديدة. كنا نعيش في قاع محيط كبير يغطي سطح عالمنا كله. عالم كان له اسم أيضاً لكنني نسيته بدوره. كان لكل منا مئة ذراع وعلى كل ذراع ألف عين. وهكذا، عندما تتصل أفكارنا، لا تفوتنا رؤية أي شيء في تلك المياه الممتدة على مسافات بعيدة. ما كان لدينا حاجة إلى الصوت، لذلك ما كنا نسمع أصواتاً. كنا نتذوق طعم المياه، ومن خلال نظرنا كنا نعرف كل ما نحن في حاجة إلى معرفته. كنا نتذوق الشموس المرتفعة مسافات بعيدة فوق الماء وكنا نحوّل مذاقها إلى غذاء لنا.

أستطيع الوصف لكني لا أستطيع تحديد الاسم. تحسّرت على المعرفة المفقودة ثم عدت بتفكيري إلى الحديث الذي سمعته.

إن الأرواح لا تقول إلا الحقيقة. . هذه هي القاعدة. إن لدى الباحثين مقتضيات خاصة بمهنتهم طبعاً، أما بين الأرواح فما من سبب أبداً للكذب. ومع لغة الأفكار لدى نوعي السابق كان الكذب مستحيلاً حتى لو

أردنا أن نكذب. لكننا، ونحن ثابتون في أماكننا، كنا نقص على أنفسنا قصصاً حتى نخفف الضجر. كانت رواية القصص من أكثر المواهب احتراماً لأنها مفيدة للجميع.

وفي بعض الأحيان كانت الحقيقة تختلط بالخيال على نحو شامل بحيث يصبح تذكر الحقيقة صعباً، رغم أننا لم نكن نكذب.

وعندما كنا نفكر في الكوكب الجديد. الأرض، الكوكب الجاف المتنوع المليء بكل هذا العنف، وبسكانه المدمِّرين، كنا شبه عاجزين عن تخيلهم. كان رعبنا يطغى على إثارتنا أحياناً. كانت القصص تنتشر سريعاً. قصص عن موضوع مثير جديد: الحروب. الحروب! على جنسنا أن يحارب! كانت الأخبار تأتينا صحيحة في البداية لكنها سرعان ما تمتلئ بتفاصيل خيالية. وعندما كانت القصص تتعارض مع المعلومات الرسمية التي أطلبها كنت أميل إلى تصديق الأخبار الأولى بطبيعة الحال.

لكن ثمة همساً عن هذا: عن مضيفين من البشر أقوياء إلى درجة أجبرت الأرواح المزروعة على تركهم. وعن مضيفين كان التغلب على عقولهم غير ممكن. وعن أرواح أخذت شخصية الجسد بدلاً من أن يأخذ الجسد شخصيتها. قصص. إشاعات. جنون.

لكن هذا ما بدا مجرد اتهامات من جانب المعالج.

صرفت هذه الأفكار عني. أظن أن معنى اعتراضه هذا كامن في عدم الارتياح الذي يشعر به أكثرنا تجاه مهنة الباحثين. من عساه يختار حياة كلها نزاع ومطاردة؟ من عساه ينجذب إلى مهنة تعقّب الأرواح الرافضة والإمساك بها؟ من عساه يملك القدرة على مواجهة عنف هذا النوع من المخلوقات، هؤلاء البشر العدوانيين الذين يقتلون بكل هذه السهولة، بكل هذه اللامبالاة؟ هنا، على هذا الكوكب، صار الباحثون.. ميليشيا.
أسعفني عقلي الجديد بهذه الكلمة التي تصف الصورة غير المألوفة. كان أكثرنا يرى أن الأرواح الأقل تمدناً، الأقل تطوراً، الأرواح الأدنى بيننا، هي من ينجذب إلى مهنة الباحثين.

لكن الباحثين اكتسبوا مكانة جديدة على الأرض. لم يسبق أبداً من قبل أن خرج أي احتلال عن خطته إلى هذا الحد. لم يسبق من قبل أن تحوَّل إلى معركة دموية عنيفة. ولم يحدث من قبل أن جرت التضحية بهذا العدد الكبير من الأرواح. وقف الباحثون مثل درع جبار فكانت الأرواح في هذا العالم مدينة لهم ثلاث مرات: من أجل الأمان بعد الفوضى، ومن أجل مغامرتهم بالتعرض للموت النهائي. مغامرة كانوا يواجهونها طوعاً في كل يوم، ومن أجل الأجساد الجديدة التي واصلوا توفيرها.

أما الآن، فالظاهر أن هذا العرفان قد بدأ يتلاشى بعد أن صار الخطر من الماضي. وبالنسبة لهذه الباحثة على الأقل، ما كان هذا التغير أمراً ساراً.

لا يصعب عليَّ تخيل الأسئلة التي تريد طرحها. ومع أن المعالج كان يحاول منحي أقصى وقت ممكن حتى أتلاءم مع الجسد الجديد فقد كنت أعرف أنني سأفعل كل ما أستطيعه لمساعدة الباحثة. إن حسّ المواطَنة أمر لا يعلو عليه شيء عند جميع الأرواح.

وهكذا استنشقت نفساً عميقاً حتى أحضِّر نفسي. سجَّلَ الجهاز هذه الحركة. أعرف أنني كنت أماطل قليلاً. أكره الاعتراف بهذا، لكنني كنت خائفة. فحتى أحصل على المعلومات التي تريدها الباحثة لا بد لي من التنقيب في الذكريات العنيفة التي جعلتني أصرخ فزعاً. وأكثر من هذا، كنت خائفة من الصوت الذي سمعته عالياً مدوياً في رأسي. لكنه كان صامتاً الآن كما يجب أن يكون. إنه مجرد ذكرى، أيضاً.

لا يجوز لي أن أخاف. إنهم يدعونني باسم الجوالة الآن. وقد حصلت على هذا الاسم عن جدارة.

ومع نَفَسٍ عميق آخر، غُصْتُ في الذكريات التي تخيفني. واجهتها مباشرة وأنا أشد على أسناني.

استطعت أن أتجاوز النهاية. لم تستطع السيطرة عليّ الآن.

تقدمت سريعاً، وجريت في الظلمة من جديد. كنت أئنّ محاوِلةً عدم السقوط. وسرعان ما انتهى الأمر.

بعد أن تجاوزت ذلك الحادث صار سهلاً عليّ أن أعوم عبر أشياء وأماكن أقل إخافة وأن أبحث عن المعلومات المطلوبة. رأيت كيف أتت الفتاة إلى هذه المدينة الباردة. أتت في الليل تقود سيارة مسروقة عادية المظهر. مشت في شوارع شيكاغو تحت جنح الظلام مرتجفة في معطفها.

كانت تقوم بالبحث هي أيضاً. وكان ثمة آخرون مثلها هنا، أو هكذا كانت ترجو. شخص واحد على وجه التحديد. صديق. لا، قريب. ليس أختها. بل ابنة عمتها.

صار توارد الكلمات بطيئاً ثم ازداد بطئاً. لم أفهم السبب في البداية. هل نسيت؟ هل ضاعت المعلومات بسبب الإصابة التي كادت تؤدي بالفتاة إلى الموت؟ كافحت حتى أفكر تفكيراً واضحاً. كان هذا الإحساس غير مألوف. هل ما زال جسدي مخدراً؟ كنت أشعر بالاستيقاظ الكافي، لكن عقلي كان يبحث من غير جدوى عن الإجابات التي أريدها.

جرَّبت أسلوباً جديداً في البحث أملاً في إجابات أكثر وضوحاً. ماذا كان هدفها؟ كانت تريد العثور على. شارون. لقد اصطدت هذا الاسم. وكانا سوف.

اصطدمتُ بجدار.

صارت ذكرياتي فارغة. صارت لا شيء. حاولت الالتفاف حول الجدار لكنني لم أستطع العثور على حافة الخلاء. كان الأمر كما لو أن المعلومات التي أبحث عنها قد أزيلت بممحاة.

كما لو أن هذا الدماغ قد أصيب بأذى.

اجتاحني الغضب، حاراً. شرساً. تنهدت وقد فاجأني رد الفعل غير المتوقع. لقد سمعت من قبل عن عدم الاستقرار العاطفي عند هذه

الأجساد البشرية، لكن هذا كان يفوق قدرتي على التوقع. عشت ثماني مرات، لكني لم أعرف مشاعر تهزني بهذه القوة.

أحسست بالدم ينبض في رقبتي. ينبض خلف أذني. شددت قبضتي.

سجلت الآلات التي بجواري تسارع أنفاسي. حدث رد فعل في الغرفة: الصوت الحاد لحذاء الباحثة التي اقتربت مني والذي اختلط بصوت أكثر هدوءاً لا بد أنه صادر عن المعالج.

قال صوت أنثوي: «أهلاً بك في الأرض أيتها الجوالة».

## الفصل الثالث

# مقاومة

همهم المعالج قائلاً: «لن تعرف اسمها الجديد».

شتت انتباهي إحساس جديد. شيء يبعث السرور، تغيرٌ في الجو عندما وقفت الباحثة بالقرب مني.

إنها رائحة. أدركت هذا. شيء مختلف عن الغرفة المعقمة عديمة الرائحة. قال لي عقلي الجديد إنها رائحة عطر. رائحة أزهار. غنية.

سألتني الباحثة مقاطعة أفكاري: «هل تستطيعين سماعي؟ هل أنت صاحية؟».

قال المعالج بصوت أكثر نعومة مما كان يستخدمه من قبل: «اخذي ما يلزمك من وقت».

لم أفتح عينيّ. لم أرغب في ترك انتباهي يتشتت من جديد. كان عقلي يعطيني الكلمات التي تلزمني، وكان يدلني على طبقة الصوت التي عليّ استخدامها حتى أنقل ما لا أستطيع قوله من غير كلمات كثيرة.

«هل تم زرعي في جسد مضيف معطوب من أجل تحصلي على المعلومات التي تلزمك أيتها الباحثة؟».

صدرت عنها شهقة. مفاجئة وغضب ممتزجين. ولمس جلدي شيء دافئ. غطى يدي.

قال الرجل يطمئنني: «بالطبع لا، أيتها الجوالة. حتى الباحثون يتوقفون أمام بعض الأشياء».

زفرت الباحثة من جديد. بل فحّت، هكذا صححت لي ذاكرتي.

«إذن، لماذا لا يعمل هذا العقل الجديد على نحو صحيح؟».

ساد الصمت لحظة.

قالت الباحثة: «كانت نتائج الفحوصات ممتازة». ما كانت كلماتها مطمئنة، بل مجادلة. هل تنوي العراك معي أيضاً؟ «لقد شفي الجسد شفاء تاماً».

«من محاولة الانتحار التي اقتربت كثيراً من النجاح!». كانت نبرة صوتي متصلبة، ما زالت غاضبة. ما كنت معتادة على الغضب. كان استيعاب ذلك صعباً.

«كان كل شيء في أحسن حال. . ».

قاطعها المعالج فسألني: «ما المشكلة؟ من الواضح أنك صرت قادرة على الكلام».

«إنها الذاكرة. كنت أحاول معرفة ما تريد الباحثة الحصول عليه».

حدث تغيير رغم أنني لم أسمع صوتاً. انفرج الجو الذي توتر بفعل اتهاماتي. عجبت كيف توصلت إلى معرفة هذا. كان لدي إحساس غريب بأنني كنت أتلقى شيئاً يتجاوز ما تزودني به الحواس الخمس. شيء يكاد يشبه إحساساً بأن ثمة حاسة أخرى، على الحواف، حاسة غير مسيطر عليها تماماً. هل هو الحدس؟ إنها الكلمة الصحيحة تقريباً. هل يحتاج أي مخلوق إلى أكثر من خمس حواس؟

تنحنحت الباحثة لكن المعالج هو من أجابني.

قال: «آه! لا تقلقي بشأن بعض الجوانب الجزئية في الذاكرة. بعض الصعوبات. هذا شيء لم يكن متوقعاً تماماً لكنه غير مفاجئ أيضاً بالنظر إلى ما حدث».

«لا أفهم قصدك».

«كان هذا الجسد المضيف جزءاً من المقاومة البشرية». ظهرت مسحة من الإثارة في صوت الباحثة الآن. «هؤلاء البشر الذين أدركوا

وجودنا قبل إدخال الروح فيهم يكونون أصعب من غيرهم. وهذه واحدة منهم. ما زالت تقاوم».

حلت لحظة من الصمت. كانا ينتظران ردَّ فعلي.

تقاوم؟ هل تسد مضيفتي الطريق في وجهي؟ فاجأتني حرارة الغضب من جديد.

سألت بصوت مشوَّه لأنني كنت أشد على أسناني: «هل تم وصلي على نحو صحيح؟».

قال المعالج: «نعم. تم وصل ثمانمئة وسبع وعشرين نقطة على نحو صحيح في أماكنها المثلى».

إن هذا العقل الجديد يستخدم من قدراتي قدراً أكبر مما استخدمه أي مضيف من قبل، إنه لا يترك إلا مئة وإحدى وثمانين استطالة غير مستخدمة. لعل كثرة أماكن الاتصال هي السبب في شدة حيوية المشاعر.

قررت أن أفتح عينيَّ. أحسست بحاجة إلى التأكد مرة ثانية مما قاله المعالج والتأكد من صحة عمل بقية جسدي.

ضوء. متألق، مؤلم. أغمضت عيني من جديد. كان آخر ضوء رأيته من قبل آتياً عبر مئة قامة من مياه المحيط. لكن هاتين العينين أكثر تألقاً. إنهما قادرتان على التعامل مع هذا الضوء. فتحتهما فتحة صغيرة وأبقيت تلك الفتحة مغطاة بالأهداب.

«هل تريدين أن أطفئ النور؟».

«لا أيها المعالج. سوف أعتاد الضوء»

قال: «ممتاز!». أدركت أن استحسانه كان موجهاً إلى استخدامي صيغة الملكية في كلمة «عيناي».

انتظر الاثنان هادئين ريثما فتحت عينيَّ جيداً.

أدرك عقلي أن الغرفة كانت غرفة عادية في مركز طبي. مستشفى. كانت ألواح السقف بيضاء مع نقاط داكنة قليلاً. وكانت المصابيح مستطيلة في مثل حجم الألواح. كانت موزعة على مسافات منتظمة. كان لون

الجدران أخضر خفيفاً. إنه لون مهدئ، لكنه لون المرض أيضاً. سرعان ما كوّنت رأياً: إنه اختيار سيّئ للون.

كان الناس الواقفون أمامي أكثر إثارة للاهتمام من الغرفة. رنّت كلمة «طبيب» في عقلي فور وقوع عيني على المعالج. كان مرتدياً ثياباً خضراء مزرقة فضفاضة تترك ذراعيه عاريتين. إنها ملابس العمليات الجراحية. كان ثمة شعر على وجهه، لون غريب دعته ذاكرتي بالأحمر.

أحمر! عشت في ثلاثة عوالم منذ رأيت هذا اللون آخر مرة، أو منذ رأيت أياً من الألوان القريبة منه. لكن المسحة الذهبية في هذا اللون ملأتني بالحنين.

كان وجهه بشرياً عادياً بالنسبة لي، لكن المعرفة المخزونة في ذاكرتي استخدمت كلمة «الطيف».

صدر عن الباحثة صوت تنفس يوحي بنفاد الصبر فتحوّل انتباهي إليها.

كانت صغيرة الحجم جداً. ولو أنها ظلت هادئة لاحتجت إلى وقت أطول لملاحظة وجودها إلى جانب المعالج. لم يكن مظهرها يجذب العين. كانت سواداً في تلك الغرفة المتألقة. كانت ترتدي السواد من ذقنها حتى معصميها. بدلة محافظة تحتها قميص ذو ياقة ضيقة. وكان شعرها أسود اللون أيضاً، يصل حتى ذقنها ماراً من خلف أذنيها. كان لون جلدها قاتماً بالمقارنة مع لون جلد المعالج. كان زيتوني اللون.

كانت الفوارق الضئيلة في تعابير البشر صغيرة إلى حد يجعل قراءتها صعبة حقاً. استطاعت ذاكرتي تحديد اسم النظرة على وجه المرأة. قسوة. كان حاجباها الأسودان معقوفين قليلاً فوق عينين فيهما شيء من الجحوظ. كان هذا يشكل نمطاً مألوفاً. أعرفه. ليس هو الغضب تماماً، بل التوتر. الانزعاج.

سألت ناظرة إلى المعالج من جديد: «هل يحدث هذا كثيراً؟».

أجابني: «ليس كثيراً! على أي حال لم يعد يتوفر لدينا الآن إلا

القليل جداً من المضيفين الكبار. أما الصغار منهم فهم مطواعون تماماً. لكنك قلت سابقاً إنك تفضلين أن تحلّي في جسد مضيف كبير. . .».

«نعم».

«تكون معظم الطلبات عكس ذلك. إن حياة الإنسان أقصر بكثير مما أنت معتادة عليه».

«أعرف جميع هذه الحقائق أيها المعالج. هل سبق لك التعامل مع هذه. . . المقاومة بنفسك من قبل؟».

«بنفسي. . . مرة واحدة فقط».

«أخبرني بتفاصيل القصة». توقفت قليلاً. «من فضلك». أضفتُ ذلك شاعرة بأن جملتي جاءت بلهجة آمرة تنقصها اللباقة.

تنهد المعالج.

بدأت الباحثة تربت بأصابعها على ذراعها علامة على نفاد الصبر. ما كانت تطيق انتظاراً حتى تحصل على مرادها.

بدأ المعالج يقول: «حدث هذا منذ أربع سنوات. طلبت الروح التي نتحدث عنها أن تكون في جسد مضيف كبير ذكر. وكان أول مضيف توفر لدينا جسداً بشرياً كان يعيش في أحد جيوب المقاومة منذ أوائل سنوات الاحتلال. وكان هذا البشري. . . يعرف ما الذي سيحدث عندما نمسك به».

«تماماً مثلما كانت مضيفتي تعرف»

«نعم، صحيح». تنحنح ثم قال: «كانت تلك الحياة الثانية للروح، لا أكثر. لقد جاءت من العالم الأعمى».

سألته وأنا أميل برأسي جانباً: «العالم الأعمى؟».

«آسف. أنت لا تعرفين الأسماء التي نستخدمها. كان ذلك العالم مكاناً من الأماكن التي حللت فيها، أليس كذلك؟» أخرج جهازاً من جيبه، كمبيوتر، وراح يبحث بسرعة: «نعم، إنه كوكبك السابع. في القطاع الواحد والثمانين».

«نعم. بعض من عاشوا فيه يفضلون اسم العالم المغني».

أومأت برأسي بحركة بطيئة. كنت أفضل هذا الاسم.

تمتمت الباحثة: «وأما بعض من لم يذهبوا إليه فيدعونه كوكب الخفافيش».

استدرت بنظري إليها أحسست أن عينيَّ تتقلصان عندما استحضَرَ عقلي صورة ذلك الزاحف الطيار البشع الذي ذَكَرَتْه.

قال المعالج بلطف: «أظن أنك لم تعيشي هناك أيتها الباحثة. كنا نسمي تلك الروح الأغنية المنطلقة في بادئ الأمر. كان ذلك الاسم ترجمة تقريبية لمعنى اسمها الأصلي عندما كانت في العالم المغني. لكنها سرعان ما اختارت اتخاذ اسم المضيف. كيفن. لقد كان مقرراً له أن يعمل في مجال الموسيقى بالنظر إلى خلفيته السابقة، لكنه قال إنه يشعر براحة أكبر في الاستمرار في عمل مضيفه السابق الذي كان ميكانيكياً. كانت هذه العلائم مقلقة بعض الشيء في نظر من كان مكلفاً بإراحته من الناحية النفسية، لكنها ظلت ضمن الحدود الطبيعية المقبولة.

ثم بدأ كيفن يشتكي من فقدانه الوعي فترات من الزمن. لقد أعادوه إليّ فأجريت اختبارات شاملة للتأكد من عدم وجود عيوب خفية في دماغ الجسد المضيف. وخلال تلك الاختبارات لاحظ عدد كبير من المعالجين وجود اختلافات في سلوكه وشخصيته. وعندما سألناه عن هذا زعم أنه لا يتذكر شيئاً عن بعض الأقوال والأفعال. تابعنا مراقبته بمعونة المكلف بإراحته من الناحية النفسية فاكتشفنا أخيراً أن المضيف كان يسيطر على جسد كيفن من وقت لآخر».

اتسعت عيناي بفعل الدهشة: «يسيطر؟ دون أن تعرف الروح بهذا؟ هل استعاد المضيف الجسد؟».

«نعم للأسف. لم تكن لدى كيفن قوة كافية للتغلب على مضيفه».

لم تكن قوته كافية.

أيظنون أنني ضعيفة أيضاً؟ هل أنا ضعيفة فلا أستطيع إجبار هذا العقل على الخضوع؟ بل أنا أضعف من ذلك لأن أفكارها الحية ظلت موجودة في رأسي حيث يجب ألا يكون شيء إلا ذاكرتي. لطالما اعتبرت نفسي قوية. جعلتني فكرة الضعف أرتعد وأنكمش. جعلتني أشعر بالعار.

تابع المعالج: «حدثت أحداث فتم اتخاذ قرار. . ».

«أي أحداث؟».

أطرق المعالج برأسه من دون إجابة.

سألته مجدداً: «أي أحداث؟ أليس من حقي أن أعرف».

تنهد المعالج: «هذا من حقك! قام كيفن. . بمهاجمة إحدى المعالجات عندما لم. . يكن في حالة طبيعية. لقد أفقدها الوعي بلكمة من يده ثم وجد مشرطاً في جيبها. ثم وجدناه فاقد الوعي. لقد حاول المضيف اقتلاع الروح من جسده بذلك المشرط».

مرت لحظة قبل أن أستطيع الكلام. ثم لم يخرج صوتي إلا همساً: «ماذا حدث لهما؟».

«لحسن الحظ لم يتمكن المضيف من البقاء واعياً مدة كافية لإحداث أذى حقيقي. تمت إعادة زرع كيفن في مضيف صغير هذه المرة. وأما حالة المضيف المشاغب فكانت سيئة. لذلك تقرر عدم العمل على شفائه.

يبلغ كيفن من العمر سبعة أعوام الآن. وهو طبيعي تماماً. . باستثناء أنه احتفظ باسم كيفن. إن من يرعونه الآن حريصون تماماً على إسماعه الموسيقى باستمرار، والأمر يسير على نحو جيد. . » أضيفت الكلمات الأخيرة كما لو أنها أخبار طيبة. . كأنها أخبار تستطيع إخفاء بقية الحكاية على نحو ما.

«لماذا؟» سعلت قليلاً حتى أستطيع رفع صوتي. «لماذا لم يجر نشر هذه المعلومات؟».

تدخلت الباحثة: «الواقع أن هذا مذكور بوضوح شديد. ففي

إعلانات التوظيف يَرِدُ أن السيطرة على ما بقي من المضيفين البشر الكبار تمثل تحدياً أكبر بكثير من السيطرة على جسد مضيف طفل. ونحن ننصح دائماً بالمضيفين الصغار».

همست: «إن قصة كيفن لا تندرج تحت عنوان التحدي».

«نعم. لقد فضلتِ تجاهل التوصيات». مدت يديها إلى الأمام في إيماءة مصالحة عندما رأت جسدي يتوتر جاعلاً القماش القاسي على السرير الضيق يفرقع بصوت منخفض من تحتي. «لست ألومك. إن مرحلة الطفولة مضجرة إلى أقصى حد. ومن الواضح أنك لست روحاً عادية. كل ما لدي يدل على أنك قادرة على التعامل مع هذا الوضع. هذا ليس أكثر من جسد مضيف جديد بالنسبة لك. وأنا واثقة من قدرتك على السيطرة الكاملة عليه خلال فترة قصيرة».

عند هذه النقطة فوجئت بأن الباحثة كان لديها الصبر الكافي للانتظار. بل حتى لانتظار تأقلمي مع مضيفي. أحسست بخيبة أملها لقلة المعلومات التي استطعت الحصول عليها، وهذا ما جعلني أشعر من جديد بشعور الغضب الذي ما عرفته من قبل.

سألتها: «ألم يخطر في بالك أنك قادرة على استخلاص المعلومات بأن تحلّي في هذا الجسد بنفسك؟».

تجمدت ثم قالت: «لست ممن ينسحبون».

ارتفعت أنظاري إلى المعالج على نحو تلقائي فقال موضحاً: «هذا اسم جديد نطلقه على من لا يكملون المدة في أجساد مضيفيهم».

أومأت برأسي وقد فهمت. إن لدينا اسماً لهذا الشيء في العوالم الأخرى. إن من ينسحبون غير محترمين في أي مكان. لهذا توقفت عن الضغط على الباحثة وأعطيتها ما عرفته من معلومات.

«اسمها ميلاني سترايدر. ولدت في البوكرك في نيومكسيكو. وقد كانت في لوس أنجلوس عندما علمت بالاحتلال فاختبأت في البراري عدة سنوات قبل أن تعثر على. هممم. آسفة، سوف أحاول في وقت

لاحق. كان عمرها عشرين عاماً. وقد قادت السيارة إلى شيكاغو قادمة من. . » هززت رأسي. «كانت هناك مراحل كثيرة. لم تعش هذه المراحل كلها وحيدة. كانت السيارة مسروقة. كانت تبحث عن فتاة اسمها شارون. كان لديها سبب يجعلها تعتقد أنها ما تزال بشرية. لكنها لم تعثر على أحد ولم تتصل بأحد قبل ضبطها. لكن. . » رحت أكافح وأقاتل ضد جدار فارغ آخر. «أظن. لست متأكدة. أظن أنها تركت رسالة. في مكان ما».

سألتني الباحثة بإلحاح: «إذاً فقد توقعت أن يبحث أحد عنها»

«نعم. سوف. يفتقدونها. إذا لم تذهب إلى موعدها مع. . » شددت على أسناني. صرت أكافح على نحو حقيقي الآن. كان الجدار الذي أمامي أسود اللون وما كنت أعرف مدى سماكته. كنت أصدم به. بدأ العرق ينضح من جبهتي. المعالج والباحثة كانا في حالة صمت تام. كانا يفسحان لي مجالاً للتركيز

أحاول التفكير في شيء آخر. الأصوات المرتفعة غير المألوفة يطلقها المحرك، ذلك الاندفاع الصاخب للأدرينالين كلما اقتربت أضواء سيارة أخرى على الطريق. رأيت هذا دون أن يعوقني شيء. تركت الذكريات تسير بي، تركتها تمر بشوارع المدينة الباردة تحت ظلمة الليل، تركتها تشق طريقها إلى البناء الذي وجدوني فيه.

لست أنا من وجدوها. إنها هي. ارتعد جسدي.

بدأ المعالج يقول: «لا تستعجلي. . »

أسكتته الباحثة.

تركت عقلي يتلمس رعب الاكتشاف، حرقة الكراهية تجاه الباحثين، كراهية طغت على كل ما عداها. كان الكره شراً؛ كان ألماً. لم أكد أستطيع احتمال الإحساس به. لكني تركته يأخذ مجراه أملاً في أن يشوّش المقاومة، ويضعف الدفاع.

رحت أراقبها بانتباه بينما كانت تحاول الاختباء ثم عرفت أنها لم تستطع ذلك. رسالة خربشتها بقلم رصاص مكسور على قطعة من الورق المرمي في الطريق. ودسّتها سريعاً تحت أحد الأبواب. لم يكن أي باب. لم يكن باباً، ليس على التعين.

«إنه الباب الخامس في الممر الخامس في الطابق الخامس. إن نقطة اتصالها هناك».

ظهر في يد الباحثة هاتف صغير وراحت تتحدث في الهاتف سريعاً.

تابعت أقول: «كان يُفترض أن يكون المبنى آمناً. كانوا يعرفون أنه مُصادر. هي لا تعرف كيف اكتُشف أمرها. هل قبضوا على شارون؟».

سَرَت في جسدي موجة من الرعب جعلت جلد ذراعي يقشعرّ.

لم أكن صاحبة هذا السؤال!

لم أكن صاحبة هذا السؤال، لكنه خرج تلقائياً من بين شفتي كما لو أنه من عندي. لم تلاحظ الباحثة أي شيء غير طبيعي.

أجابت: «هي ابنة عمتها؟ لا، لم يجدوا أي بشري آخر». قالت هذا فشعرت بجسدي يسترخي مرتاحاً لكلماتها. «تم ضبط صاحبة هذا الجسد أثناء دخولها إلى المبنى. كان المواطنون يعرفون أن هذا المبنى مصادر. لذلك فقد شعر أحدهم بالقلق عندما شاهدها تدخله واتصل بنا فراقبنا البناء لنرى إن كنا نستطيع الإمساك بأكثر من واحد ثم اقتحمنا البناء عندما بدا ذلك الأمر مستبعداً. هل تستطيعين معرفة مكان الموعد؟».

حاولت ذلك.

ذكريات كثيرة، معظمها ملوّن وحادّ. رأيت مئة مكان لم أزر أي منها من قبل، وسمعت أسماءها للمرة الأولى. منزل في لوس أنجلوس محاط بأشجار مشذّبة. مرج في غابة وفيه خيمة ونار بالقرب من وينسلو في أريزونا. شاطئ صخري مهجور في المكسيك. كهف يحجب المطر الغزير مدخله في مكان ما في أوريغون. خيام وأكواخ ومغاور. ومع مرور

الوقت صارت الأسماء أقل تحديداً. لم تكن تعرف أسماء أماكن إقامتها. ما كانت مهتمة بالأسماء!

صار اسمي جوّالة الآن. وقد كانت ذكرياتها تلائم هذا الاسم مثلما تلائمه ذكرياتي أنا الفارق بيننا هو أن تجولي كان باختياري. أما هي فإن هذه اللمحات من الذكرى كانت دائماً مجللة بخوف الطريدة. ما كانت تتجول. كانت تفر هاربة.

حاولت عدم الإحساس بالإشفاق عليها. بل رحت أحاول التركيز على الذكريات. ما كنت في حاجة إلى معرفة مكان وجودها من قبل. كنت أريد معرفة وجهتها. رحت أفتش في الصور المتصلة بكلمة شيكاغو، لكنها كلها بدت صوراً عشوائية. وسّعت شبكة البحث فأحسست بقلقها من ذلك.

أين؟ حاولت الإصرار فشعرت بالجدار ينتصب أمامي من جديد.

قلت لاهثة: «خارج المدينة. في البرية. منتزه حكومي بعيد عن الأماكن المأهولة. إنه مكان لم تذهب إليه من قبل لكنها تعرف كيف تصل إليه».

سألتني الباحثة: «متى؟».

جاءت الإجابة تلقائية: «قريباً جداً. كم مضى عليّ من الوقت هنا؟».

قال المعالج: «تركنا جسد المضيفة تسعة أيام حتى يشفى. حتى نكون واثقين تماماً من شفائها. أما عملية الزرع فجرت اليوم. إنه اليوم العاشر».

عشرة أيام. اجتاحت جسدي موجة من الراحة.

قلت: «تأخر الوقت كثيراً. فيما يخص الموعد. والرسالة». استطعت أن أحس بردّ فعل مضيفتي على هذا. أحسست به بقوة شديدة. كانت المضيفة. سعيدة. سمحت للكلمات التي فكرت بها بالخروج عبر شفتي حتى أعرف منها شيئاً. «لن يكون هناك».

سألت الباحثة: «من؟».

انتصب الجدار الأسود مجدداً بقوة أكبر من أي قوة استخدمتها مضيفتي من قبل. لكنها تأخرت جزءاً صغيراً من الثانية.

ومن جديد، ملأ ذلك الوجه عقلي. وجه جميل لوّحته الشمس. عيناه متوهجتان. إنه الوجه الذي أثار في داخلي فرحة غريبة عميقة عندما رحت أنظر إليه في عقلي.

صحيح أن الجدار انتصب في مكانه مع شعور شرير بالكراهية، لكن ذلك لم يكن سريعاً بالقدر الكافي.

أجبت: «اسمه جارد». وبسرعة شديدة، كما لو أن الكلمات جاءت مني أنا، نطقت شفتاي بالفكرة التي ما كانت فكرتي أنا: «جارد في أمان الآن».

## الفصل الرابع

# حلم

لا يعقل هذا الحر كله في هذا الظلام، ولا يعقل هذا الظلام كله في هذا الحر. أحدهما في غير مكانه.

كنت جائمة في الظلمة خلف أجمة صغيرة لا تكاد تسترني وكنت أتعرق كل الماء الباقي في جسدي. مرت خمس عشرة دقيقة منذ مغادرة السيارة المرآب. لم يظهر أي ضوء في البيت. الباب الخارجي مفتوح سنتمترات قليلة حتى يسمح لجهاز التكييف بالعمل. أكاد أستطيع الإحساس بالهواء الرطب البارد يندفع عبر الباب الشبكي. ليته يستطيع الوصول إلي هنا.

قرقعت معدتي، فشددت عضلات بطني حتى أُسكِتَ هذا الصوت. إن الهدوء شديد هنا إلى درجة تجعل الهمس ينتقل مسافة بعيدة.

ما أشد جوعي!

ثمة حاجة أخرى اقوى من حاجتي... معدة جائعة أخرى مختبئة بأمان بعيداً في الظلمة... منتظرة وحدها في ذلك الكهف الذي هو بيتنا المؤقت. مكان فوضوي ملؤه الحجارة البركانية. ما عساه يفعل إذا لم أرجع إليه؟ إني أتعرض لضغوط الأمومة كلها من غير معرفة الأمومة وخبرتها. أشعر بالعجز الشديد. جيمي جائع.

ما من منازل أخرى بالقرب من هذا المنزل. إنني أراقب منذ أن كانت الشمس مرتفعة حارة في السماء، ولا أظن أن في البيت كلباً أيضاً.

نهضت متحررة من جلستي المتعبة فصرخت عضلات ساقي محتجة، لكني بقيت على انحنائي محاولة أن أظل أقصر من الأجمة التي تخفيني. الممر الموصل إلى الباب مفروش برمل ناعم، ممر شاحب في ضوء النجوم. لا أسمع أصوات سيارات على الطريق.

أعرف ماذا سيكتشفان عندما يعودان... هذان الوحشان اللذان يبدوان مثل زوج لطيف في أوائل الخمسينات. سوف يعرفان تماماً ما أنا، وسوف يبدأ البحث فوراً. وعليّ أن أكون قد ابتعدت كثيراً. آمل حقاً أن يكونا قد ذهبا لقضاء الليلة في البلدة. أظن أن اليوم هو الجمعة. إنهم يقلدون عاداتنا تماماً ومن الصعب أن يرى المرء أي فرق... هكذا انتصروا علينا.

لا يرتفع سور فناء البيت أكثر من الخصر. تجاوزته بسهولة من غير صوت. الفناء مفروش بالحصى وهذا ما يجعلني مضطرة إلى المشي الحذر حتى لا أترك أثراً عليه. وصلت إلى باب المنزل.

النوافذ الخارجية مفتوحة. ضوء النجوم كافٍ لرؤية الغرف التي تبدو خالية من أي حركة. يبدو أن سكان البيت متقشفون. هذا جيد لأنه يجعل اختفاء أي شخص في المنزل أمراً صعباً. لكن هذا لا يترك لي مكاناً للاختباء أيضاً. لكن إذا وصل الأمر إلى حد الحاجة إلى الاختباء، فإن الوقت يكون متأخراً على أي حال.

فتحت الباب الشبكي أولاً ثم فتحت الباب الزجاجي. انفتح البابان من غير صوت. وضعت قدمي بحذر على بلاط المنزل، لكن هذه الحركة كانت بفعل التعود لا أكثر. لا أحد ينتظرني هنا.

بدا الهواء البارد مثل نعيم الجنة.

المطبخ إلى اليسار. أستطيع رؤية تألق الغرانيت.

أنزلت حقيبتي القماشية عن كتفي وبدأت بالبراد. أحسست بالقلق لحظة واحدة عندما أضاء مصباح البراد بسبب فتح الباب، لكني وجدت المفتاح ووضعت إصبعي عليه حتى يظل المصباح مطفأ. عميت عيناي

بسبب هذا الضوء لكني لا أملك الوقت الكافي لأجعلهما ترتاحان. تابعت عملي تلمساً.

حليب، وشرائح جبن، وبقايا طعام في علبة بلاستيكية. آمل أنها بقايا وجبة الدجاج والأرز التي رأيتهما يطبخانها من أجل العشاء. سوف نأكلها الليلة.

عصير، وكيس من التفاح، وجزر. سوف تظل كلها في حالة جيدة حتى الصباح.

أسرعت إلى مخزن المؤونة. أريد أشياء يمكنها البقاء مدة أطول.

أستطيع الرؤية على نحو أفضل الآن. رحت أجمع كل ما أستطيع حمله. يا سلام، إنها حلوى بشرائح الشوكولاته. أموت رغبة في فتحها الآن. لكني أشد على أسناني وأتجاهل تقلصات معدتي الفارغة.

سرعان ما صارت حقيبتي ثقيلة جداً. سوف يكفينا هذا أسبوعاً فقط، حتى إذا اقتصدنا. لا أشعر برغبة في الاقتصاد بل برغبة في ابتلاع هذا الطعام كله. دسست بعض المواد المعلبة في جيوبي.

ثم أسرعت إلى المغسلة فملأت المطرة بالماء ثم وضعت رأسي تحت الماء ورحت أشرب. أصدر الماء أصواتاً غريبة عندما اصطدم بمعدتي الفارغة.

بدأت أشعر بالخوف الآن بعد أن انتهت المهمة. أريد أن أكون خارج هذا المكان. المدنية خطر قاتل.

رحت أنظر إلى الأرض منتبهة أثناء خروجي، محاذرة التعثر بسبب ثقل الحقيبة. وهذا ما جعلني لا أرى الشبح الأسود عند المدخل حتى صرت عند الباب. سمعت كلماته في اللحظة نفسها التي أفلتت عندها من فمي صرخة خوف غبية. استدرت حتى أهرب من الباب الأمامي آملة أن يكون غير موصد.

لم أكد أتحرك خطوتين حتى أمسكت بكتفي كفّان قاسيتان خشنتان

جذبتاني إلى جسده. إنه جسد كبير، أكثر قوة من أن يكون جسد امرأة. أثبت الصوت الخشن صحة هذا.

هددني: «سوف تموتين إذا صدر عنك صوت». فوجئت عندما شعرت بشيء مدبب حاد يضغط على جلد رقبتي.

لا افهم هذا. يفترض ألا يعطيني أي خيار. من هو هذا الوحش؟ لم أسمع بأحد منهم يخرق الأنظمة. أجبته بالطريقة الوحيدة التي أستطيع الإجابة بها.

قلت عبر أسناني المطبقة: «اقتلني... اقتلني. لا أريد أن أكون طفيلياً قذراً!».

انتظرت طعنة السكين. أحسست بالألم في قلبي. كان لكل نبضة اسم... جيمي، جيمي، جيمي. ما الذي سيحدث لك الآن؟

«ذكية». هكذا تمتم الرجل لكنه بدا كأنه لا يتحدث معي. «لا بد أنها باحثة. وهذا يعني فخاً. كيف عرفوا؟». ابتعدت السكين الفولاذية عن حنجرتي لتحل محلها يد صلبة كالحديد.

لا أكاد أستطيع التنفس تحت هذه القبضة.

سألني وهو يزيد الضغط على رقبتي: «أين البقية؟».

قلت بصعوبة: «أنا وحدي!». لا أستطيع أن أقوده إلى جيمي. ماذا سيفعل جيمي عندما لا أعود؟ إنه جائع!

ضربته على بطنه بمرفقي فآلمني ذلك حقاً. كانت عضلات بطنه صلبة كالحديد، مثل يده. هذا غريب جداً. لا توجد عضلات من هذا النوع إلا عند من يعملون أعمالاً شاقة أو عند المهووسين بتنمية عضلاتهم. ليس الطفيليون هذا ولا ذاك.

لم يتأثر بضربتي، بل لم يتأثر تنفسه أيضاً. كنت يائسة... ضربته بكعبي فوق منتصف قدمه. فاجأته هذه الحركة فترنح قليلاً. أفلتّ منه لكنه أمسك حقيبتي وشدني إليه من جديد. عادت يده تمسك برقبتي.

للسلام!».

كانت كلماته مجنونة. كنت أظن الغرباء متماثلين جميعاً. أظن أن لديهم مجانين أيضاً.

حاولت أن افك يده عن رقبتي. خمشت أظافري ذراعه، لكن هذا لم ينفع إلا في زيادة شدة قبضته على رقبتي.

«سوف أقتلك يا لصة الأجساد الحقيرة. لست أمزح».

«اقتلني إذاً».

شهق فجأة فتساءلت إن كان احد أطرافي قد اصابه. لم أشعر باي الم جديد.

ترك ذراعي وأمسك بشعري. لا بد أنه سيذبحني الآن. سوف يقطع حنجرتي. رحت أنتظر السكين.

لكن القبضة الممسكة برقبتي تراخت ثم احسست بأصابعه تبحث في مؤخرة رقبتي... كانت قاسية حارة على جلدي.

قال هامساً: «مستحيل».

سقط شيء على الأرض مصدراً صوت اصطدام. هل أسقط السكين؟ حاولت التفكير في وسيلة تجعلني أحصل على هذه السكين. ربما إذا سقطت! لم تعد اليد الممسكة برقبتي مشدودة إلى حد يمنعني من الإفلات. أظن أنني أستطيع الوصول إلى حيث سقطت السكين.

أدارني على نحو مفاجئ. صدر صوت ثم صدر ضوء أعمى عيني اليسرى. شهقت وحاولت تلقائياً أن أبتعد عن الضوء. اشتدت يده على شعري. انتقل الضوء إلى عيني اليمنى.

قال هامساً: «لا أصدق هذا... أنت ما زلت بشرية».

امسكت كفاه بوجهي من الجانبين. وقبل أن أستطيع أن أسحب نفسي بعيداً عنه أطبقت شفتاه بقوة على شفتيّ.

تجمدت لحظة واحدة. لم يقبّلني أحد في حياتي كلها. لم أعرف قبلة حقيقية. لم أعرف إلا قبلات والدي على خدي وجبهتي، منذ سنوات بعيدة. إنه شيء لم يخطر في بالي أنني سأشعر به. لكني لست واثقة من هذا الشعور. ثمة خوف كثير، رعب كثير، توتر كثير.

ثنيت ساقي إلى الأعلى فضربته بركبتي.

أطلق صرخة ألم مخنوقة... صرت حرة. وبدلاً من الجري صوب الباب الرئيسي من جديد كما يجب أن يتوقع اندفعت من تحت ذراعه وخرجت من الباب المفتوح. أظن أنني أستطيع أن أسبقه في الجري... حتى مع ثقل حقيبتي. لقد انطلقت قبله... وهو ما زال يصدر أصواتاً متألمة. أعرف أين أذهب... لن أترك خلفي أثراً يستطيع رؤيته في الظلام. لم يسقط الطعام مني، وهذا أمر جيد.

صرخ من خلفي: «انتظري!».

«اخرس». هكذا قلت له في نفسي... لكني لم أصدر صوتاً.

إنه يجري خلفي. أستطيع سماع صوته مقترباً مني: «لست واحداً منهم!».

بالتأكيد. ظلت عيناي مثبتتين على الرمل... تابعت اندفاعي. كان والدي يقول إنني أجري بسرعة الفهد. كنت الأسرع في فريقي الرياضي، وفي مباريات الولاية أيضاً، قبل أن ينتهي العالم.

ما زال يصرخ بصوت مرتفع: «استمعي إليّ! انظري! سوف أبرهن لك. فقط توقفي وانظري إليّ».

لن أفعل هذا. انحرفت عن الممر واندفعت عبر الأجمات الصغيرة.

«لم أكن أظن أن أحداً منا بقي! أرجوك، يجب أن أتحدث معك!».

فاجأني صوته... إنه قريب جداً.

«آسف لأنني قبّلتك! كان هذا غباء مني! إنني وحيد منذ زمن بعيد جداً!».

«اخرس!». لم أقل هذه الكلمة بصوت مرتفع لكني عرفت أنه سمعها.

إنه يزداد اقتراباً. لم يستطع أحد أن يلحق بي من قبل. أرغمت ساقيّ على الاندفاع بسرعة أكبر.

ازداد لهاثه عندما زاد سرعته، مثلي.

اصطدم شيء كبير بظهري فسقطت على الأرض. دخل التراب في فمي... ثبتني على الأرض ثقل كبير... لا أكاد أستطيع التنفس.

قال لاهثاً: «انتظري... دقيقة... فقط».

أزاح وزنه عني وقلبني. جلس فوق صدري مثبتاً ذراعيّ بساقيه. إنه يسحق الطعام. زمجرت محاولة الإفلات من تحته.

قال: «انظري، انظري، انظري!» وأخرج أسطوانة صغيرة من جيبه ثم أدار قمتها. انطلق منها شعاع من الضوء.

وجه المصباح إلى وجهه.

جعل الضوء جلده يبدو أصفر اللون. رأيت وجنتين بارزتين وأنفاً طويلاً رقيقاً وذقناً مربعة. كانت شفتاه مبتسمتين، لكني رأيت أنهما أكثر امتلاءً مما تكون شفاه الرجال عادة. كان لون حاجبيه وأهداب عينيه مبيضاً بفعل الشمس.

لكن، ليس هذا ما يريد مني رؤيته.

عيناه، كانتا واضحتين تحت هذا الضوء، وكانتا تتألقان بشيء بشري. راح ينقل الضوء من عين إلى أخرى.

«هل رأيت؟ هل رأيت؟ أنا مثلك تماماً».

«دعني أرى رقبتك». كان صوتي محملاً بالشك. لم أسمح لنفسي إلا بأن أعتبر الأمر خدعة. لا أعرف الهدف من هذا، لكن المؤكد أن الأمر كله خدعة. ما عاد لدي أمل أبداً.

اعوجّت شفتاه: «طيب... هذا لن يكون شيئاً مساعداً. ألا تكفي العينان؟ تعرفين الآن أنني لست واحداً منهم».

«لماذا لا تجعلني أرى رقبتك؟».

قال معترفاً: «لأن لدي ندبة فيها».

حاولت الإفلات منه مجدداً لكن يده ثبّتت كتفيَ إلى الأرض.

قال موضحاً: «لقد صنعتها بنفسي. وأظن أنني نجحت في هذا رغم أنها تؤلمني كثيراً. ليس لدي ذلك الشعر الجميل حتى أغطي رقبتي به. تساعدني هذه الندبة على الاختلاط بهم».

«انهض عني».

تردد، ثم نهض على قدميه بحركة يسيرة. لم يستخدم يديه للنهوض. مد لي إحدى يديه ليساعدني.

«لا تهربي أرجوك. ولا... لا ترفسيني ثانية».

لم أتحرك. أعرف أنه يستطيع الإمساك بي إذا حاولت الهرب.

همست: «من أنت؟».

ابتسم ابتسامة عريضة: «اسمي جارد هاو. لم أتكلم مع مخلوق بشري آخر منذ أكثر من سنتين. لذلك أعرف أنني أبدو... مجنوناً بعض الشيء في نظرك. اغفري لي ذلك من فضلك وقولي لي اسمك».

همست: «اسمي ميلاني».

«ميلاني». كرر من بعدي. «لا أستطيع التعبير عن مدى سروري بمقابلتك».

امسكت بحقيبتي من دون أن أبعد عنه نظري. مد يده صوبي بحركة بطيئة.

أمسكت بيده.

لم أعرف أنني صدقته حقاً إلا عندما رأيت يدي تلتف حول يده طوعاً.

ساعدني على النهوض ثم لم يترك يدي بعد نهوضي.

سألته بحذر: «ماذا الآن؟».

«لا نستطيع البقاء هنا زمناً طويلاً. هل تعودين معي إلى المنزل؟ لقد تركت حقيبتي هناك. لقد آلمتني ضربتك حقاً».

هززت رأسي.

يبدو أنه يشعر بمدى هشاشتي ومدى قربي من الانهيار.

سألني بصوت رقيق: «إذاً؟ هل تنتظرينني هنا؟ سوف أعود سريعاً جداً. دعيني أحضر مزيداً من الطعام من أجلنا».

«من أجلنا؟».

«وهل تظنين حقاً أنني يمكن أن أتركك تختفين؟ سوف ألحق بك حتى إذا منعتني من ذلك».

ما كنت أريد الاختفاء عنه.

«أنا...» كيف يمكنني ألا أثق ثقة كاملة ببشري مثلي؟ إننا أسرة واحدة... نحن جزءان من مجموعة منقرضة. «ليس لدي وقت». طريقي بعيد... جيمي ينتظرني.

«أنت لست وحيدة إذاً». بدا عدم التصديق على وجهه للمرة الأولى.

«إنه أخي. إنه في التاسعة فقط. وهو يخاف كثيراً عندما أذهب. عليّ أن أسير نصف الليل حتى أعود إليه. لن يعرف إن كانوا قد أمسكوا بي. وهو جائع كثيراً». قرقعت معدتي مجدداً كما لو أنها تؤكد كلامي.

عادت الابتسامة إلى وجه جارد، أكثر تألقاً من قبل: «هل يناسبك أن أقوم بإيصالك؟».

ردّدت من بعده: «إيصالي؟».

«سوف أعقد معك اتفاقاً. تنتظرين هنا ريثما أجمع مزيداً من الطعام. وسوف آخذك بسيارتي أينما شئت. هذا أسرع من الجري... أسرع حتى من جريك أنت».

«هل لديك سيارة؟».

«طبعاً. وهل تظنين أنني جئت إلى هنا مشياً؟».

فكرت في الساعات الست التي أمضيتها في طريقي إلى هنا فظهر العبوس على جبهتي.

قال واعداً: «سوف نعود إلى أخيك في وقت قصير جداً. لا تتحركي من هنا... موافقة؟».

أومات براسي.

«كلي شيئاً، أرجوك. لا أريد أن تفضح معدتك أمرنا». ابتسم فضاقت عيناه وانتشرت خطوط في جلده عند زواياها. نبض قلبي بقوة... عرفت أنني سأنتظره هنا حتى لو غاب الليل كله.

ما زال يمسك يدي. افلتها ببطء لكن عينيه لم تفارقا عينيّ. رجع خطوة إلى الخلف ثم توقف.

قال راجياً: «أرجوك، لا تضربيني». انحنى إلى الأمام ممسكاً بذقني. قبّلني من جديد. أحسست بالقبلة هذه المرة. شفتاه أنعم من يديه... إنهما حارتان... حتى في هذا الليل الصحراوي الحار. طار سرب من الفراشات في معدتي فسرق مني أنفاسي. امتدت يداي إليه تلقائياً. لمست جلد وجنتيه الحار، ولمست الشعر الخشن على رقبته. مرت أصابعي على خط من الجلد المتقرّح. حافة مرتفعة قليلاً عند أسفل خط الشعر.

صرخت.

استيقظت. كان العرق يغطيني. وحتى قبل أن أستيقظ تماماً، كانت أصابعي قد مضت إلى مؤخرة رقبتي تتحسس الخط القصير الباقي بعد العملية. كان ذلك الخط الوردي الخفيف غير محسوس تقريباً. لقد أعطى الدواء الشافي مفعوله.

أما ندوب جارد التي شفيت على نحو سيّئ فكانت تمويهاً رديئاً.

أشعلت الضوء بجانب السرير منتظرة أن يهدأ تنفسي. كانت عروقي مليئة بالأدرينالين بفعل هذا الحلم الواقعي.

حلم جديد، لكنه في جوهره شديد الشبه بالأحلام الأخرى التي ظلت تغزوني في الأشهر الأخيرة.

لا، ليس حلماً. لا بد أنه ذكرى.

ما زلت أشعر بحرارة شفتي جارد على شفتيّ. امتدت يداي من غير

إذن مني. راحتا تتلمسان الملاءات المجعدة باحثتين عن شيء لم تعثرا عليه.

آلمني قلبي عندما عادت يداي خائبتين وسقطتا على السرير فارغتين مخدرتين.

حاولت إبعاد الدموع من عيني. لا أعرف كم أستطيع احتمال المزيد من هذا. كيف يستطيع أحد أن يستمر في الحياة في هذا العالم مع هذه الأجساد التي لا تقبل ذكرياتها البقاء في الماضي حيث يجب أن تكون. ما عدت أستطيع معرفة ما أشعر به بعد الآن مع وجود هذه المشاعر التي كانت قوية جداً.

سوف أكون مرهقة غداً. لكني أحسست أن النوم بعيد عني وعرفت أن ساعات ستمر قبل أن أسترخي. ربما أقوم بواجبي وأتخلص من الأمر. قد يساعدني هذا على تخليص عقلي من أشياء لا أريد التفكير فيها.

نهضت من السرير وسرت إلى الكمبيوتر الموضوع وحيداً على طاولة المكتب. انتظرت بضع ثوانٍ ريثما أضاءت الشاشة ثم انتظرت ثواني أخرى ريثما فتحت البريد الإلكتروني. ما كان العثور على عنوان الباحثة صعباً. ليس لدي إلا أربعة عناوين: الباحثة والمعالج ورب عملي الجديد، وزوجته. معالِجتي النفسية.

**كان ثمة بشري آخر مع مضيفتي ميلاني سترايدر.**

كتبت هذا من دون أن أهتم بتوجيه أي تحية.

**اسمه جيمي سترايدر. إنه شقيقها.**

مرت لحظة خوف. كنت أصارع حتى لا تسيطر عليّ. لم أدرك وجود الصبي من قبل. طوال الوقت. لا لأنه غير مهم عندها بل لأنها كانت تحميه بقوة أكثر من جميع الأسرار التي استطعت اكتشافها. هل لديها أسرار أخرى بهذا الحجم؟ بهذه الأهمية؟ أسرار مقدسة حرصَتْ

على إخفائها حتى عن أحلامي! هل هي قوية إلى هذا الحد؟ كانت أصابعي ترتجف عندما رحت أكمل كتابة المعلومات.

**أظن أنه مراهق الآن. لعله بلغ الثالثة عشرة. كانا يعيشان في مخيم مؤقت أظن أنه يقع شمال بلدة «كيف كريك» في أريزونا. كان هذا منذ عدة سنوات. لكنكم تستطيعون مقارنة الخطوط التي تذكرتها من قبل مع الخريطة. سوف أخبركم بأي شيء جديد أحصل عليه.**

أرسلت الرسالة. وفور ذهابها شعرت بالرعب يجتاحني.

لا! ليس جيمي!

كان صوتها في رأسي واضحاً كما لو أنني تكلمت بصوت مرتفع. ارتجفت خوفاً.

حتى عندما كنت أصارع الخوف مما يحدث كنت تحت وطأة رغبة مجنونة في إرسال رسالة أخرى إلى الباحثة أعتذر فيها عن إرسال أحلامي غير المعقولة. أردت أن أخبرها أنني كنت شبه نائمة وأن أطلب منها عدم الاهتمام بالرسالة الغبية التي وصلتها مني.

ما كانت هذه رغبتي أنا.

أطفأت الكمبيوتر.

«اكرهك». زمجر الصوت في رأسي.

قلت بحدة: «إذاً، ربما كان عليك الذهاب». جعلني صوتي عندما أجبتها بهذه الكلمات أرتجف خوفاً من جديد.

لم تتحدث معي منذ اللحظات الأولى لوجودي هنا. لا شك في أنها تزداد قوة. انسابت دموع القنوط والشعور بالذل من عيني عندما خطرت لي تلك الفكرة.

عدت إلى سريري ووضعت الوسادة فوق وجهي محاولة عدم التفكير في أي شيء.

## الفصل الخامس

# لا راحة

«أهلاً أيتها الجوّالة! اجلسي واعتبري البيت بيتك».

وقفت مترددة بباب مكتب المعالجة النفسية، قدمٌ إلى الأمام وأخرى إلى الوراء.

ابتسمتْ. حركة صغيرة عند زاويتي فمها. صارت قراءة تعابير الوجوه أكثر سهولة الآن، فبعد أشهر من الخبرة صارت تلك الحركات الصغيرة لعضلات الوجه مألوفة عندي. استطعت رؤية أن المعالجة النفسية تجد ترددي مسلياً. وفي الوقت نفسه استطعت رؤية انزعاجها لأنني ما زلت أجد صعوبة في القدوم إليها.

ومع تنهيدة تصميم مسموعة، دخلتُ الغرفة الصغيرة المغمورة بالضوء وجلست في مكاني المعتاد. المقعد الأحمر المنفوخ الأكثر بعداً عن مكان جلوسها.

رأيتها تشد على شفتيها.

وحتى أتجنب نظراتها المحدقة، رحت أنظر عبر النوافذ المفتوحة. إلى الغيوم تتحرك حاجبة الشمس. هبّت نسمة خفيفة من نسيم البحر المالح فأشاعت طراوة في الغرفة.

«إذاً أيتها الجوالة! مر وقت غير قليل منذ مجيئك آخر مرة لرؤيتي».

قابلت نظراتها بنظرة إحساس بالذنب: «لقد تركت لك رسالة بشأن موعدنا الأخير. كان عندي طالب في حاجة إلى بعض الوقت مني. .».

ابتسمت ابتسامتها الصغيرة من جديد: «نعم، أعرف هذا. تلقيت رسالتك».

كانت جذابة بالنسبة إلى سنها، مثل البشر. لقد تركت لون شعرها الشائب على طبيعته. كان ناعماً أميل إلى البياض منه إلى اللون الفضي طويلاً مربوطاً إلى الخلف كذيل الحصان. كانت عيناها بلون أخضر غريب لم أر له شبيهاً عند غيرها

أحسست أنها تنتظر إجابة مني فقلت: «آسفة».

«لا بأس. أنا أفهمك. يصعب عليك المجيء إلى هنا. أنت تتمنّين لو أن مجيئك لم يكن ضرورياً. لم يكن هذا الأمر ضرورياً لك من قبل. وهذا يخيفك».

أطرقت ورحت أنظر إلى الأرض الخشبية: «نعم، يا معالجتي».

«ألم أطلب منك أن تدعوني باسمي، كاثي؟».

«صحيح. يا كاثي».

أطلقت ضحكة خفيفة: «أنت لا تشعرين بالراحة في استخدام الأسماء البشرية، أليس كذلك أيتها الجوالة؟».

«هذا صحيح. وإذا أردت الصدق. أشعر بأن هذا نوع من الاستسلام».

رفعت رأسي فرأيتها تومئ برأسها بحركة بطيئة: «أستطيع أن أفهم ما الذي يجعلك أنت خاصة تشعرين بهذا الشعور».

ابتلعت ريقي بصوت مسموع عندما قالت ذلك ثم رحت أحدق في الأرض من جديد.

قالت كاثي مقترحة: «دعينا نتحدث في شيء أسهل الآن. هل ما زلت مسرورة بعملك؟».

«نعم». كان هذا أسهل فعلاً. «لقد بدأت فصلاً جديداً. كنت أخشى أن يكون هذا صعباً مضجراً، إعادة المادة نفسها من جديد، لكنه ليس

مضجراً حتى الآن. عندما تكون أمامك آذان جديدة تصبح القصة جديدة أيضاً».

«أسمع أخباراً طيبة عنك من كورت. وهو يقول إنك من المدرسين المفَضَّلين عند الطلاب في الجامعة».

أحسست بحرارة في وجنتي عندما سمعت هذا المديح: «يسعدني أن أسمع هذا. كيف هو شريكك؟».

«كورت في حالة ممتازة، شكراً لك. إن مضيفنا في حالة جسدية ممتازة بالنسبة لهذا العمر. أظن أننا سنعيش سنوات قادمة كثيرة».

كان لدي فضول لأعرف إن كانت تعتزم البقاء في هذا العالم، إن كانت تود الانتقال إلى جسد مضيف بشري آخر عندما يأتي أجل هذا الجسد، أو إن كانت تريد المغادرة. لكني ما أردت طرح أسئلة تنقلنا إلى أحاديث صعبة.

بدلاً من ذلك قلت: «أنا أستمتع بالتدريس. إنه شبيه بعض الشبه بعملي عندما كنت عشبة بحرية. هذا ما يجعله أسهل من أي عمل آخر غير مألوف. أنا مدينة لكورت لأنه طلبني».

ابتسمت كاثي ابتسامة دافئة: «إنهم محظوظون لأنك موجودة. هل تعرفين كم هو نادر أن يجدوا مدرّسة تاريخ لديها خبرة ولو في كوكبين اثنين؟ لكنك عشت في جميع الكواكب تقريباً، بل في أوريجين أيضاً! ما من مدرسة في هذه الأرض لا ترغب في سرقتك منا. إن كورت عاكف على وضع الخطط التي تجعلك مشغولة باستمرار حتى لا تفكري في الانتقال».

ابتسمت كاثي ثم استنشقت نفساً عميقاً. خبت ابتسامتها: «مر زمن طويل من دون أن تأتي لرؤيتي. كنت أتساءل إن كانت مشاكلك قد حُلَّت. ثم خطر في بالي أن سبب عدم مجيئك هو أن هذه المشاكل ازدادت سوءاً».

ظللت مطرقة الرأس أحدِّق في يدي ولم أقل شيئاً.

كانت يداي مسمرَّتين قليلاً. لون لم يكن ليتلاشى سواء تعرضت يداي للشمس أم لم تتعرضا لها. وكان خط داكن صغير يمتد على جلد يدي فوق معصمي الأيسر تماماً. كانت أظافري قصيرة فأنا أكره الأظافر الطويلة. يزعجني ملمسها عندما تصيب جلدي من غير قصد. كانت أصابعي طويلة رقيقة. ومن شأن الأظافر أن تزيدها طولاً فتعطيها منظراً غريباً. حتى بالنسبة لمخلوق بشري.

تنحنحت كاثي بعد دقيقة: «أظن أن حدسي كان صحيحاً».

«كاثي». لفظت اسمها ببطء ثم توقفت. «لماذا احتفظت باسمك البشري؟ هل يشعرك هذا. بالراحة؟ أقصد. بالراحة مع مضيفك؟» كنت أود طرح هذا السؤال فيما يخص كورت أيضاً، لكنه سؤال شخصي إلى حد كبير. لا يجوز لي أن أطرحه إلا على كورت نفسه. لا يصح أن أطرحه حتى على شريكته. بل شعرت بشيء من القلق. فلعل سؤالي لكاثي لم يكن سؤالاً مهذباً. لكنها ضحكت.

«لا، أبداً أيتها الجوالة. ألم أقل لك هذا من قبل؟ ربما لم أقل هذا لأن عملي هو أن أستمع لا أن أتحدث. لا يحتاج معظم من أتحدث إليهم إلى التشجيع الذي يلزمك. هل تعرفين أنني كنت من بين أولى الدفعات التي أتت إلى الأرض قبل أن يكون لدى البشر فكرة عن أننا موجودون هنا؟ كان لديّ جيران من البشر. وكان علينا، أنا وكورت، أن نتقمص حياة مضيفينا سنوات كثيرة. وحتى بعد أن أكملنا استيطان المناطق المجاورة لم نكن مطمئنين تماماً إلى عدم وجود بشر بالقرب منا. وهكذا صرت كاثي. كما أن ترجمة اسمي السابق تبلغ أربع عشرة كلمة لا يمكن اختصارها بطريقة مقبولة». ابتسمت كاثي فانعكس ضوء الشمس القادم من النافذة عن عينيها وألقى انعكاسهما الأخضر متراقصاً على الجدار. وللحظة، تألقت حدقتا عينيها الزمرديتين.

لم أكن أتصور أبداً أن هذه المرأة الناعمة الدافئة كانت جزءاً من خط الهجوم الأول. اقتضى الأمر دقيقة من الزمن حتى أستوعب ذلك. حدقت

فيها وقد أحسست بالدهشة والمفاجأة. وفجأة شعرت بمزيد من الاحترام تجاهها. ما كنت أنظر إلى المعالجين النفسيين نظرة جدية، وما كنت في حاجة إلى أحد منهم قبل الآن. إنهم من أجل من يعانون، من أجل الضعفاء. يخجلني أن أكون هنا. جعلتني هذه المعرفة الجديدة بتاريخ كاثي أشعر بألفة تجاهها. إنها تفهم القوة.

سألتها: «هل أزعجك التظاهر بأنك واحدة منهم؟».

«لا، أبداً! ما كان الاعتياد على هذا المضيف أمراً سهلاً. كانت فيه أشياء جديدة كثيرة، وكمية ضخمة من الأحاسيس. كان تقليد نمط حياته يكاد يتجاوز طاقتي في البداية».

«وماذا عن كورت؟ لقد اخترت البقاء مع زوج مضيفتك. حتى بعد أن تم حسم الوضع».

كان هذا السؤال أكثر تحديداً، وقد التقطت كاثي ذلك على الفور. تحركت في مقعدها، رفعت ساقيها ثم طوتهما تحتها. واستغرقت في التفكير محدقة في نقطة فوق رأسي ثم أجابتني:

«نعم، لقد اخترت كورت. وهو اختارني أيضاً. كان الأمر مصادفة في البداية. تنفيذ مهمة لا أكثر. لكننا تقاربنا كثيراً بطبيعة الحال لأننا أمضينا كل هذا الوقت معاً. كان لكورت معارف كثر باعتباره رئيس الجامعة. وكان بيتنا مركزاً لعمليات زرع الأرواح. وكنا نستقبل كثيراً من الناس. كان البشر يأتون إلى بيتنا فيرحل أبناء جنسنا. كان يجب أن يجري كل شيء بسرعة وهدوء فأنت تعرفين مقدار العنف الذي يمكن أن يمارسه هؤلاء المضيفون. كنا نعيش يومنا عارفين دائماً أننا يمكن أن نواجه موتنا النهائي في أي لحظة. كان في حياتنا إثارة دائمة وكثير من الخوف.

كان هذا كله سبب قيام هذه الرابطة بيننا فقررنا أن نبقى معاً حتى عندما انتهت ضرورة المحافظة على السرية. يمكنني أن أكذب عليك وأن أهدئ مخاوفك بأن أقول لك إن هذا هو السبب. لكن. . .» هزت رأسها ثم بدا عليها ارتياح أكبر في جلستها. أحسست بعينيها تخترقانني. «عبر

ألوف السنين، لم يتمكن البشر من فهم الحب. إلى أي حد هو شيء جسدي، وإلى أي حد هو شيء عقلي! ما مقدار المصادفة فيه وما دور القدر؟ ما الذي يجعل شخصين متوافقين إلى أقصى حد يفشلان ويجعل شخصين غير متوافقين إطلاقاً ينجحان ويستمران؟ لست أعرف الإجابة الآن بأفضل مما عرفها البشر! الحب. هو الحب. بكل بساطة. وقد كانت مضيفتي تحب مضيف كورت ثم لم يمت هذا الحب عندما تغيرت ملكية العقلين».

راحت تنظر إليّ نظرة متمعّنة وظهر عليها عبوس خفيف عندما تحجّرت في مقعدي.

قالت: «ما زالت ميلاني تحنّ إلى جارد»

أحسست برأسي يومئ بالإيجاب من غير أن أتعمّد هذه الحركة.

«وما زلت أنت تحنّين إليه».

أغمضت عينيّ.

«هل الأحلام مستمرة؟».

غمغمت: «كل ليلة».

جاءني صوتها ناعماً مقنعاً: «حدثيني عنها».

«لا أحب التفكير فيها».

«أعرف. حاولي، فقد يساعدك هذا».

«كيف؟ كيف يساعدني إخبارك أنني أرى وجهه كلما أغمضت عينيّ؟ أو أنني أستيقظ وأبكي عندما لا أراه في منامي؟ أو أن الذكريات قوية إلى درجة تجعلني عاجزة عن الفصل بين ذكرياتها وذكرياتي أنا؟».

توقفت فجأة وشددت على أسناني.

أخرجت كاثي منديلاً أبيض من جيبها وقدمته لي. وعندما لم أتحرك نهضت وسارت نحوي ثم أسقطته في حضني. جلست على مسند مقعدي وانتظرت.

بقيتُ مصرة على صمتي نصف دقيقة، ثم التقطت المنديل بحركة عصبية ومسحت عيني: «أكره هذا».

«يبكي الجميع خلال السنة الأولى. إن هذه المشاعر صعبة جداً. كلنا أطفال بعض الشيء سواء قبلنا هذا أو لم نقبله. كنت أبكي كلما رأيت الغروب الجميل. وكان طعم زبدة الفول السوداني يجعلني أبكي أحياناً».

ربّتت على رأسي ثم مرّرت أصابعها برفق عبر خصلة الشعر التي أدسها خلف أذني دائماً.

أومأت برأسها وقالت: «ما أجمل شعرك! كلما رأيتك لاحظت أن شعرك أقصر من قبل. لماذا تقصّرين شعرك؟».

كانت الدموع في عينيّ فلم أشعر أن لدي كرامة باقية أدافع عنها. لماذا أزعم أن العناية به تكون أسهل إذا كان قصيراً، كما أفعل عادة؟ إنني هنا لكي أعترف ولكي أحصل على العون. ربما أحصل على العون.

«إن هذا يزعجها فهي تحب الشعر الطويل»

لم تظهر عليها الدهشة كما كنت أتوقع. كانت كاثي بارعة في عملها. جاءني ردّ فعلها بعد ثانية واحدة وكانت مضطربة قليلاً.

«أنت. هي. هل ما زال لها كل هذا. الحضور؟».

خرجت الحقيقة المخيفة من بين شفتي: «عندما تريد ذلك! إن تاريخنا يضجرها! غالباً ما تكون نائمة أثناء عملي. لكنها موجودة دائماً. أشعر أحياناً بأنها موجودة بقدر وجودي أنا». صار صوتي أشبه بالهمس عندما وصلت إلى آخر كلماتي.

سألتني كاثي بخوف: «يا جوالة. لماذا لم تخبريني أن الوضع على هذه الدرجة من السوء؟ منذ متى بلغ الأمر هذا الحد؟».

«الوضع يزداد سوءاً. فبدلاً من تلاشيها أجدها تزداد قوة. لم يبلغ الأمر مقدار ما بلغته حالة كيفن... تحدثنا عن كيفن، هل تذكرينه؟ لم تستطع السيطرة عليّ حتى الآن. وهي لن تستطيع السيطرة. لن أسمح بحدوث هذا!» ارتفعت نبرة صوتي.

قالت تطمئنني: «لن يحدث هذا طبعاً لن يحدث طبعاً. لكن، إذا كنت تعيسة إلى هذا الحد فلماذا لم تخبريني من قبل؟ علينا أن نأخذك إلى أحد المعالجين».

مرّت لحظة كاملة قبل أن أفهم معنى كلامها. كنت مشتتة تماماً.

«أحد المعالجين؟ هل تريدين مني التغيير؟».

«لن ينظر أحد نظرة سوء إلى هذا الخيار أيتها الجوالة. إنه خيار مفهوم. إذا كان المضيف معطوباً. .».

«إذا كان المضيف معطوباً؟ لكنها ليست معطوبة. أنا هي المعطوبة. أنا ضعيفة جداً إزاء هذا العالم!». سقط رأسي بين يديّ واجتاحني شعور بالمهانة. وراحت دموع جديدة تنبع من عينيّ.

استقرت ذراع كاثي على كتفي. كنت أكافح من أجل السيطرة على مشاعري فلم أبتعد عنها رغم أن حركتها تلك بدت حميمية أكثر مما ينبغي.

كان هذا يزعج ميلاني أيضاً. لم تكن تحب أن تحتضنها تلك الغريبة.

طبيعي أن ميلاني كانت حاضرة تماماً في هذه اللحظة، وكانت مسرورة إلى حد لا يطاق عندما اعترفت بقوتها أخيراً. كانت سعيدة. يكون ضبطها أكثر صعوبة دائماً عندما أصبح مشتتة عاطفياً على هذا النحو.

حاولت تهدئة نفسي حتى أتمكن من إلزامها مكانها.

«أنت التي تحتلين مكاني». كانت فكرتها هذه خافتة لكنها مسموعة رغم ذلك. كم يتدهور الوضع ويزداد سوءاً! إن لديها من القوة الآن ما يسمح لها بالحديث معي متى شاءت. كان الوضع سيئاً. لا يقل سوءاً عما كان عليه في لحظة الوعي الأولى.

«اذهبي عني. إنه مكاني أنا الآن».

«أبداً».

هذا».

«مممم. . .».

«أصغي إليّ. أنت قوية. أنت قوية إلى حد مفاجئ. إن أبناء جنسنا متشابهون إلى حد كبير، لكنك تتجاوزين المتوسط كثيراً. أنت شجاعة إلى حد يدهشني. كما أن حيواتك السابقة تشهد على هذا».

قد تشهد حيواتي السابقة على هذا. لكن ماذا عن هذه الحياة؟ أين هي قوتي الآن؟

تابعت كاثي: «إن البشر أكثر اتصافاً بالصفة الفردية منا نحن. وهم ليسوا متساوين من هذه الناحية. بعضهم أقوى من بعض. أظن فعلاً أنهم لو وضعوا أحداً غيرك في هذا المضيف لمزقته ميلاني خلال أيام قليلة. لعل هذه مصادفة. ولعله القدر! لكن يبدو لي أن الأقوى من بني جنسنا حلّ في جسد الأقوى من بني جنسهم».

«ليس هذا الكلام في صالح جنسنا، ألا ترين هذا؟».

أدركت كاثي قصدي: «إنها لا تتغلب عليك يا جوالة. أنت هي الفتاة اللطيفة الجالسة إلى جواري. أما هي فليست أكثر من ظل في زاوية من زوايا عقلك».

«إنها تتكلم معي يا كاثي. وهي ما زالت تملك أفكارها الخاصة. وما زال لديها أسرار تكتمها عني».

«لكنها لا تتحدث باسمك، أليس كذلك؟ أشك في قدرتي على قول ما قلته لي لو كنت مكانك».

لم أجبها. كنت أشعر بتعاسة شديدة.

«أظن أن عليك التفكير في إعادة الزرع».

«كاثي، قلت لي قبل قليل إنها قادرة على سحق أي روح أخرى تحل فيها. لا أعرف إن كنت أصدِّق هذا. بل لعلك تحاولين الآن القيام بعملك لإراحتي. لكن، إذا كانت على هذه الدرجة من القوة فهل يكون من العدل

في شيء إعطاؤها شخصاً غيري لمجرد أنني لا أستطيع إخضاعها. من تختارين ليحل محلي فيها؟»

«لم أقل هذا حتى أريحك يا عزيزتي».

«ماذا إذاً؟ . . .».

«لا أظن أن هذه المضيفة ستعتبر ملائمة لأن يحل فيها أحد آخر».

«أوه!».

سرت في ظهري ارتعادة خوف. لم أكن الوحيدة التي فوجئت بهذه الفكرة.

نشطتني هذه الفكرة على الفور. لم أكن ممن ينسحبون. كنت أنتظر، خلال دورات الشمس الطويلة حول كوكبي الأخير، عالم الأعشاب البحرية كما يسمونه هنا. صحيح أن مدة البقاء مربوطة إلى جذوري بدأت تنتهي قبل أن أتوقع انتهاءها بزمن طويل. وصحيح أن حياة الأعشاب البحرية تقاس بالقرون في هذا الكوكب. لكني لم أنسحب قبل أن تنتهي حياة مضيفي. إن الانسحاب إهدار للحياة. إنه أمر خاطئ. جاحد. إنه مخالف لجوهر وجودنا نحن الأرواح. إننا نجعل عوالمنا أماكن أفضل؛ وهذا أمر جوهري، وإلا لما كنا نستحقها.

لكننا لسنا ممن يهدرون الحياة. لقد جعلنا كل ما سيطرنا عليه في حالة أفضل. صار أكثر جمالاً وأكثر سلاماً. كان البشر أجلافاً منفلتين. كان بعضهم يقتل البعض الآخر، وكان هذا يتكرر كثيراً إلى حد جعل القتل جزءاً مقبولاً من الحياة عندهم. كانت صنوف التعذيب التي اخترعوها خلال القرون القليلة التي شهدت بقاءهم أمراً فظيعاً في نظري. ما كنت قادرة حتى على احتمال المقابلات الرسمية الجافة! دارت حروب في كل قارة تقريباً. تم تشريع القتل وجرى الأمر به وتنفيذه. أما من كانوا يعيشون في أمم مسالمة فقد كانوا يشيحون بوجوههم بعيداً حتى لا يروا أبناء جنسهم الآخرين يموتون جوعاً على أعتابهم. ما كان لديهم توزيع عادل لخيرات كوكبهم الوفيرة. والأفظع من هذا كله هو أن أبناءهم.

الجيل التالي، الذين كاد بنو جنسي يعبدونهم بسبب قدراتهم المتميزة. كانوا كثيراً ما يقعون ضحية جرائم فظيعة. ما كانت تلك الجرائم ترتكب على أيدي غرباء بل على أيدي من يعهد إليهم برعايتهم. صارت الكرة الأرضية كلها في خطر عظيم بسبب لامبالاة البشر وبسبب أخطائهم النابعة من جشعهم. لا يستطيع أحد المقارنة بين ما كان وما صار هنا الآن من دون أن يعترف بأن الأرض صارت مكاناً أفضل. بفضلنا نحن.

«لقد قتلتم جنسنا كله وها أنتم الآن تهنئون أنفسكم على حسن صنيعكم».

شددت على قبضتيّ.

قلت أذكِّرها بالحقيقة: «أستطيع أن أجعلهم يتخلصون منك».

«هيا إذاً... اجعلي قتلي أمراً رسمياً».

كنت أحاول خديعتها، لكنها كانت تحاول خداعي أيضاً.

آه، إنها تعتقد أنها تريد الموت. ألم تلق بنفسها في بئر المصعد؟ لكن ذلك كان في لحظة الرعب من الهزيمة. أما التفكير في ذلك تفكيراً هادئاً عندما يكون المرء جالساً في كرسي مريح فهو شيء مختلف تماماً. كنت أشعر بتدفق الأدرينالين الذي حرضته مخاوفها. كان يندفع في أطرافي عندما فكرت في الانتقال إلى جسد أكثر طاعة.

كم يكون لطيفاً أن أعود وحيدة من جديد. أن يكون عقلي لي أنا وحدي. هذا الكوكب جميل من نواحٍ جديدة كثيرة. سيكون أمراً رائعاً إذا تمكنت من الاستمتاع به من دون أنْ يزعجني هذا الشيء الغاضب الذي كان يجب ألا يبقى معي على هذا النحو.

تململت ميلاني في خفايا عقلي عندما حاولت التفكير في الأمر منطقياً. ربّما عليّ أن أنسحب.

لكن تلك الكلمات نفسها جعلتني أجفل. أنا، الجَوَّالة، أنسحب! أنسحب؟ أأقبل بالفشل وأبدأ المحاولة من جديد مع مضيف ضعيف لا يسبب أي مشاكل؟

هززت رأسي. ما كنت أطيق التفكير في هذا. ثم إن هذا الجسد جسدي أنا. لقد اعتدت الإحساس به وأحببت طريقة حركة عضلاته فوق عظامه... أحببت انحناء مفاصله وعمل أوتاره. صرت أعرف صورته في المرآة. ذلك الجلد المسمرّ بسبب الشمس، وعظام الوجه الحادة المرتفعة، والشعر البني، واللون البني الأخضر في عيني. إنه أنا!

إنني أريد نفسي. ولن أقبل تدمير ما هو لي.

## الفصل السادس

# ملاحقة

بدأ النور يخفت خارج النافذة. لقد استطال هذا اليوم كثيراً. هذا اليوم الحار أكثر مما هو مُعتاد في شهر آذار (مارس). استطال كما لو أنه لا يريد أن ينتهي وأن يطلق سراحي.

رحت أعصر المنديل الأبيض وأفتله بين يدي: «كاثي! لابد أن لديك أعمالاً أخرى. ولا بد أن كورت يبحث عنك».

«سوف يفهم».

«لا أستطيع البقاء هنا من غير نهاية. ونحن لا نقترب أكثر من الحصول على إجابة».

«ليس الاستعجال من طبعي. أنت مصممة على رفض فكرة الانتقال إلى مضيف جديد. . ».

«نعم».

«إذاً، سوف يستغرق التعامل مع هذا المضيف بعض الوقت».

شددت على أسناني بقنوط.

«وسوف يسير الأمر على نحو أكثر سرعة وسهولة إذا حصلتِ على بعض العون».

«أعدك بأن أحدد مواعيدي معك على نحو أفضل».

«ليس هذا ما أقصده تماماً، لكني آمل أن تفعلي ذلك».

«هل تقصدين أن أحصل على مساعدة. من أحد غيرك؟» أرعبتني فكرة أن أعيش بؤس هذا اليوم مرة أخرى مع شخص غريب. «أنا واثقة

من أنك لا تقلّين براعة وتأهيلاً عن أي معالج نفسي آخر».

عدلت جلستها في كرسيها ثم تمطت وقالت: «لم أقصد معالجاً نفسياً آخر. ما عدد أصدقائك يا جوالة؟».

«هل تقصدين الناس الذين معي في العمل؟ أرى بعض المدرسين الآخرين كل يوم تقريباً. وأتحدث مع كثير من الطلاب أيضاً. .».

«خارج المدرسة؟».

رحت أحدق فيها بنظرة فارغة.

«إن مضيفينا البشريين في حاجة إلى التفاعل. أنت غير معتادة على الوحدة يا عزيزتي. كنت تشاركين كوكباً كاملاً جميع أفكاره. . .».

«لم نكن نتجول كثيراً». بدت هذه المحاولة للمزاح باهتة مسطحة.

ابتسمتْ ابتسامة خفيفة ثم مضت تقول: «أنت تعانين كثيراً في التعامل مع مشكلتك إلى حد أنك لا تركزين على شيء آخر. لعل من الأفضل عدم التركيز عليها إلى هذه الدرجة. تقولين إن ميلاني تصاب بالملل أثناء الدروس. وإنها تكون أميل إلى النوم: لعلك إذا بنيت بعض العلاقات مع زملائك فسوف يكون الأمر مملاً في نظرها أيضاً».

شددت على شفتي ورحت أفكر بعمق. أما ميلاني التي أتعبها هذا اليوم الطويل فبدت غير متحمّسة للفكرة.

أومأت كاثي برأسها: «نعم. انخرطي في الحياة بدل البقاء معها».

«هذا يبدو معقولاً».

«ثم لدينا أيضاً الدوافع الجسدية التي تملكها هذه الأجسام. لم أر أو أسمع عن شيء يماثلها من قبل. كانت غريزة التكاثر من أصعب الأمور التي تعاملنا معها وكان علينا أن نهزمها، نحن أبناء الموجة الأولى. صدقيني، البشر يدركونها عندما لا ندركها نحن». ابتسمت كاثي وبدا في عينيها أنها تذكرت شيئاً قديماً. وعندما لم يظهر عليَّ ردّ الفعل الذي كانت تتوقعه تنهدت وقالت بصبر نافد: «أوه! هيا يا جوالة! لا بد أنك لاحظت ذلك».

غمغمت: «نعم، طبعاً. لقد أخبرتك عن الأحلام». راحت ميلاني تتحرك قلقة.

«لا، لست أقصد الذكريات وحدها. ألم تصادفي شخصاً استجاب له جسدك في حياتك الحالية. على المستوى الكيميائي تماماً؟».

فكرت في سؤالها: «لا أظن. لم ألاحظ شيئاً من هذا».

قالت كاثي بصوت جاف: «ثقي بي، سوف تلاحظين». هزت رأسها وتابعت: «ربما عليك أن تفتحي عينيك وتنظري من حولك، من أجل هذا تحديداً. قد يكون هذا جيداً بالنسبة لك».

انكمش جسدي لتلك الفكرة. وانتبهت إلى أن قرف ميلاني منها انعكس في ردّ فعلي.

قرأت كاثي تعبير وجهي: «لا تسمحي لها بأن تتحكم في تفاعلك مع أبناء جنسك يا جوالة لا تدعيها تسيطر عليك».

شعرت بالغضب. انتظرت لحظة قبل أن أجيبها. كنت أكبح الغضب الذي لم أستطع الاعتياد عليه حتى الآن.

«إنها لا تسيطر عليّ».

رفعت كاثي حاجبها.

اشتد الغضب. أحسست بتصلب في حنجرتي: «لا يبدو عليك أنك شديدة البعد عن شريك حياتك الحالي. هل كان هذا اختياراً مسيطَراً عليه؟».

تجاهلت كاثي غضبي وراحت تفكر في سؤالي تفكيراً عميقاً. قالت أخيراً: «ربما. من الصعب أن أعرف ذلك. لكنك أوضحت فكرتك». أمسكت بخيط في قميصها ثم، كما لو أنها أدركت أنها تتجنب نظراتي، شبكت يديها بعزم وتصميم ونصبت كتفيها. «لا يعرف أحد مقدار ما يأتي من المضيف! وكما قلت لك من قبل أظن أن الوقت سيحمل الإجابة. ربما تتراجع مضيفتك ويصيبها الصمت تدريجياً فتسمح لك باختيار شخص

آخر غير جارد، أو. . ربما أن الباحثين ماهرون جداً. وهم يبحثون عنه، وقد تتذكرين شيئاً يساعدهم في العثور عليه».

لم أستطع التحرك في حين كان عقلي يستوعب معنى كلامها ببطء. لعلها لم تلاحظ أنني تجمدت في مكاني.

«لعلهم يجدون حبيب ميلاني. عند ذلك تستطيعان العيش معاً. إذا كانت مشاعره ملتهبة مثل مشاعرها فسوف تكون الروح الجديدة منجذبة إليك أيضاً».

«لا!». لا أعرف من الذي صرخ. لعلها أنا. كان الخوف يملأني أيضاً.

نهضت واقفة على قدميّ. كنت أرتجف. اندفعت من عينيّ دموع غريبة. ارتجفت يداي وشددت قبضتيّ.

«ما بك يا جوالة؟».

لكني استدرت وخرجت جرياً من الباب. كنت أحاول كبت الكلمات التي لم تستطع الخروج من فمي. كلمات لا يمكن أن تكون كلماتي أنا. كلمات لا معنى لها إن لم تكن كلماتها هي، لكنها كانت تبدو كأنها كلماتي. لا يمكن أن تكون كلماتي. لا يمكن قولها.

«هذا يقتله! هذا يجعله يكف عن الوجود! لا اريد احداً آخر. اريد جارد. لا أريد غريباً في جسده! لا يعني الجسد شيئاً من دونه».

سمعت كاثي تناديني لكني اندفعت صوب الطريق.

لا يبعد بيتي كثيراً عن مكتبها، لكن الظلمة التي خيمت على الشوارع شوشتني. تجاوزت بناءين قبل أن أدرك أنني كنت أجري في الاتجاه الخاطئ.

كان الناس ينظرون إليّ. ما كنت أجري كما يجري من يريدون التريض. كنت أهرب. لكن أحداً لم يزعجني؛ كانوا يحولون أنظارهم بعيداً عني، تأدباً. لا بد أنهم فهموا أنني جديدة على هذا الجسد المضيف، وأنني أتصرف كما يتصرف الأطفال.

أبطأت. صار الجري أقرب إلى المشي. سمعت صوت قدميَّ تضربان الرصيف سريعاً جداً كأنهما تحاولان محاكاة وقع أغنية صاخبة. لا، ما كان هذا يشبه صوت الطبل. كان صوتاً شديد الغضب. شيئاً مثل العنف. صوتاً يشبه الضرب. ارتعدت لتلك الفكرة المخيفة.

رأيت المصباح مضيئاً فوق باب شقتي. اجتزت المسافة بسرعة. لكني لم أعبر الشارع.

أحسست بالغثيان. تذكرت شعور الرغبة في التقيؤ، رغم أن هذا لم يصبني من قبل. اجتمعت الرطوبة الباردة على جبهتي، مثل قطرات الندى. وكان ذلك الصوت الفارغ يدوي في أذني. كنت واثقة من أنني موشكة على التقيؤ فعلاً.

كان إلى جانب الرصيف مساحة من العشب. وكان ثمة منطقة من العشب المجزوز حول مصباح الشارع. ما كان لدي وقت للبحث عن مكان أفضل. سرتُ مترنّحة حتى عمود المصباح وأمسكته حتى لا أقع. كان هذا الغثيان يصيبني بالدوار.

نعم، لا بد أنني موشكة على التقيؤ.

«أهذه أنت أيتها الجوالة؟ هل أنت مريضة؟».

كان التركيز مستحيلاً على هذا الصوت الذي بدا لي مألوفاً على نحو غامض. لكنه جعل الأمر أسوأ من قبل لأنني أدركت وجود من رآني عندما انحنيت فوق النباتات وأفرغت محتويات معدتي.

سألني الصوت: «من هو طبيبك هنا؟» بدا الصوت بعيداً جداً قادماً عبر الطنين الذي ملأ أذنيّ. لمسَتْ يدٌ ظهري المنحني: «هل أنت في حاجة إلى الإسعاف؟».

سعلت مرتين وهززت رأسي. كنت واثقة من أن الأمر انتهى، فقد أفرغت معدتي.

قلت وأنا أنهض معتمدة على عمود المصباح: «لست مريضة»، ونظرت لأعرف من الذي رآني في لحظة الخزي هذه.

رأيت تلك الباحثة من شيكاغو وفي يدها هاتفها الخلوي. كانت تحاول تقرير الجهة التي يجب أن تتصل معها. نظرت إليها نظرة طويلة ثم انحنيت من جديد. سواء كانت معدتي فارغة أم لم تكن فارغة. إنها آخر شخص أريد رؤيته الآن.

لكن، عندما راحت معدتي تتقلص من غير طائل، أدركت أن ثمة سبباً لوجودها هنا.

لا، لا!. آه. لا لا لا لا لا لا!

سألتها لاهثة. سرق الخوف والغثيان الجزء الأكبر من صوتي: «لماذا أنت هنا؟ ما الذي حدث؟». كانت كلمات المعالجة النفسية المزعجة تدوي في رأسي.

حدقت في القبضتين الممسكتين بياقة الباحثة. حدقت ثانيتين قبل أن أدرك أنهما قبضتا يديّ.

قالت والغضب واضح في صوتها: «توقفي!». كان صوتها مرتعشاً.

كنت أهزها.

انفتحت قبضتاي. غطيت وجهي بيدي وهمست: «اعذريني! أنا آسفة. لم أكن أعرف ما أفعله».

حدقت الباحثة في وجهي بنظرة عابسة ثم أصلحت وضع سترتها: «أنت لست بخير، وأظن أنني أفزعتك».

همست: «ما كنت أتوقع رؤيتك. لماذا أنت هنا؟».

«دعيني آخذك إلى أي مركز طبي قبل أن نتحدث. إذا كنت مصابة بالانفلونزا فلا بد من شفائك منها. لا معنى للسماح لها بإضعاف جسدك».

«لست مصابة بالانفلونزا. لست مريضة».

«هل تناولت طعاماً فاسداً؟ عليك الإبلاغ عن مصدره».

كان عواؤها مزعجاً إلى أقصى حد: «لم أتناول طعاماً فاسداً. أنا في صحة جيدة».

«لماذا لا تراجعين طبيباً؟ سيجري لك فحصاً سريعاً. عليك عدم

إهمال الجسد المضيف. إنه سلوك غير مسؤول، خاصة عندما تكون الرعاية الصحية سهلة وفعالة إلى هذا الحد».

استنشقت نفساً عميقاً. قاومت رغبتي الشديدة في هزها من جديد. كانت أقصر مني بمقدار الرأس. سوف أفوز في هذا العراك.

عراك؟ استدرت مبتعدة عنها وسرت مسرعة صوب منزلي. كنت مستثارة العواطف إلى حد خطير. وكنت في حاجة إلى استعادة هدوئي قبل أن أفعل شيئاً لا يغتفر.

«انتظري يا جوالة! الطبيب. . .».

قلت من غير أن ألتفت: «لست في حاجة إلى طبيب. كان ذلك مجرد. . . اضطراب في المشاعر. أنا بخير الآن».

لم تجبني الباحثة. تساءلت عما يمكن أن تكون قد فهمته من استجابتي. كنت أسمع وقع خطواتها. . . الكعب العالي. . . عرفت أنها تسير خلفي فتركت الباب مفتوحاً لأنني أدركت أنها ستتبعني إلى داخل البيت. مضيت إلى المغسلة وملأت كوباً من الماء. انتظرتني بصبر ريثما غسلت فمي جيداً. وعندما انتهيت، انحنيت محدقة في المغسلة.

سرعان ما أصابها الملل.

«إذاً، يا جوالة. . . هل ما زلت تستخدمين هذا الاسم؟ لست أقصد إزعاجك باستخدامه».

لم أنظر إليها: «مازلت أستخدمه».

«هذا مثير للاهتمام. ظننت أنك ستختارين اسماً بنفسك».

«لقد اخترت. اخترت اسم جوالة».

صار واضحاً بالنسبة لي منذ فترة طويلة أن الذنب في ذلك الشجار اللفظي الذي سمعته في يومي الأول عند استيقاظي في المركز العلاجي كان ذنب هذه الباحثة. إنها أكثر الأرواح التي واجهتها في حيواتي التسع كلها ميلاً إلى المواجهة. كان معالجي الأول، فوردز ديبووتر، شخصاً هادئاً لطيفاً حكيماً، حتى إذا قورن بغيره من الأرواح. لكنه لم يتمكن رغم

ذلك من عدم الرد عليها. جعلتني هذه الفكرة أكثر ارتياحاً لاستجابتي نحوها.

استدرت لأواجهها. كانت جالسة على الأريكة الصغيرة، جالسة على نحو مريح كما لو أنها جاءت في زيارة طويلة. كان وجهها يحمل تعبير الرضا عن النفس، وكانت عيناها الجاحظتان مسرورتين. قاومت رغبتي في العبوس.

سألتها مجدداً: «لماذا أنت هنا؟» كان صوتي رتيباً، مضبوطاً. لن أفقد سيطرتي على نفسي مرة أخرى أمام هذه المرأة.

«مضى وقت طويل لم أسمع منك شيئاً خلاله ففكرت في المرور عليك شخصياً. ما زلنا لا نحقق تقدماً في القضية».

شددت قبضتي تحت حافة المنضدة التي خلفي، لكنني أفلحت في عدم السماح لارتياحي العارم بالظهور في صوتي.

«يبدو هذا. حماسة شديدة منك. كما أنني أرسلت لك رسالة في الليلة الماضية».

قطبت حاجبيها على طريقتها، تلك الطريقة التي تجعلها تبدو منزعجة غاضبة معاً كما لو أنك أنت السبب في غضبها، لا هي. أخرجت كمبيوترها الصغير الذي بحجم الكف ولمست الشاشة عدة مرات.

قالت بصوت متصلب: «أوه! لم أتفقد بريدي اليوم».

ظلت هادئة أثناء قراءتها رسالتي التي كتبتها لها.

قلت: «أرسلتها باكراً جداً في الصباح. كنت نصف نائمة آنذاك. لا أعرف مقدار الذكرى أو مقدار الحلم في ما كتبت، أو لعلني كتبت الرسالة في نومي».

أكملت هذه الكلمات، كلمات ميلاني، خرجت بسهولة من فمي. بل إنني أضفت ضحكة صغيرة من عندي في نهايتها. كان هذا كذباً من جانبي. كان سلوكاً مخجلاً. لكنني لن أسمح للباحثة بأن تعرف أنني أضعف من مضيفتي.

للمرة الأولى لم تكن ميلاني سعيدة بالتغلب عليّ. كانت تشعر بارتياح شديد، وبامتنان شديد ما كنت أشعر به. امتنان لأنني لم أخنها. امتنان لشدة ضعفي.

تمتمت الباحثة: «هذا مثير للاهتمام. بشري آخر طليق». هزت رأسها. «ما زال السلام يفلت من قبضتنا». لم يبدُ عليها الانزعاج لهذه الفكرة، فكرة مدى هشاشة السلام. بل الظاهر أن الفكرة أعجبتها في واقع الأمر.

عضضت بقوة على شفتي. كانت ميلاني شديدة الرغبة في إضافة إنكار آخر.. في القول إن الصبي كان مجرد جزء من الحلم. قلت لها: «لا تكوني غبية. سيكون هذا مكشوفاً تماماً». قلت هذا لأنني أعرف الطبع الحرون للباحثة التي يمكنها أن تضعني مع ميلاني على جانب واحد من المشاجرة.

«اكرهها». كانت همسة ميلاني حادة، مؤلمة كأنها جرح.

«أعرف هذا، أعرف هذا». ليتني أستطيع إنكار أن لدي الشعور نفسه تجاه الباحثة. كانت الكراهية شعوراً لا يغتفر. لكن الباحثة كانت.. من الصعب كثيراً أن يحبها المرء. مستحيل.

قاطعت الباحثة هذا الحوار الداخلي: «إذاً، باستثناء الموقع الجديد الذي علينا معاينته، ليس لديك ما تساعديننا به فيما يخص خرائط الطرق!».

أحسست بجسدي يستجيب لنبرتها المنتقدة: «لم أقل أبداً إنها خطوط أو خريطة طريق. كان هذا افتراضك أنت. ليس لدي شيء جديد».

طقطقت بلسانها ثلاث مرات: «لكنك قلت إنها اتجاهات».

«هذا ما أظنه. لكني لم أحصل على شيء جديد».

«لم لا؟ ألم تتغلبي على مضيفتك البشرية حتى الآن؟» أطلقت ضحكة مرتفعة. إنها تسخر مني.

أدرت لها ظهري ورحت أركز على تهدئة نفسي. حاولت التظاهر بأنها ليست موجودة هناك. التظاهر بأنني وحدي في هذا المطبخ. أنظر من النافذة إلى تلك الرقعة من سماء الليل، إلى النجوم الثلاثة المتألقة التي كنت أراها.

نعم، وحيدة كما هو شأني دائماً.

بينما كنت أنظر إلى تلك النقاط الثلاث في الظلمة لمعت في رأسي تلك الخطوط التي رأيتها مرات ومرات. رأيتها في أحلامي وفي ذكرياتي المتكسرة. رأيتها تتبين في لحظات غريبة لا جامع بينها.

الأول: منحنى خشن غير حاد، ثم انعطاف حاد إلى الشمال، ثم انعطاف معاكس آخر ثم انحناءة إلى جهة الشمال من جديد لكن لمسافة أطول، ثم انحدار حاد صوب الجنوب ينتهي بانعطاف جديد واسع.

الثاني: طريق متعرج فيه أربع رجعات إلى الخلف ثم انعطاف حاد على نحو غريب، كأنه انكسار.

والثالث: موجة سلسة يقطعها دوران مفاجئ مثل إصبع طويل يشير إلى الشمال، وإلى الخلف.

شيء غير مفهوم كأنه عديم المعنى. لكني كنت أعرف أنه مهم عند ميلاني. عرفت هذا منذ البداية نفسها. كانت تحمي هذا السر بضراوة تفوق ضراوتها في حماية كل ما عداه باستثناء الصبي، شقيقها. ما كانت عندي فكرة عن وجوده حتى رأيته في حلمي الليلة الماضية. أتساءل، ما الذي كسرها! لعلها تبوح لي بمزيد من أسرارها مع ازدياد صوتها ارتفاعاً في رأسي.

لعلها تنزلق فتخطئ أيضاً. سوف أرى عند ذلك معنى هذه الخطوط الغريبة. أعرف أن لها معنى. أعرف أنها تقود إلى مكان ما.

وفي تلك اللحظة، مع أصداء ضحكة الباحثة معلقة في الهواء حتى الآن، أدركت سبب أهمية هذه الخطوط.

إنها تؤدي إلى جارد طبعاً. إلى كل من جارد وجيمي. أين يمكن أن

تؤدي غير ذلك؟ الآن فقط رأيت أن أحداً منهم لم يسلك هذه الطرق من قبل. هذه الخطوط لغز بالنسبة لها كما هي لغز بالنسبة لي، إلى أن.

كان انسدال الجدار بطيئاً هذه المرة. كانت مشتتة الذهن. كان انتباهها مشدوداً إلى الباحثة أكثر مما انشدّ انتباهي أنا. كانت مضطربة لسماع الصوت الذي خلفي. عند ذلك فقط أدركت أن الباحثة تقترب مني.

تنهدت الباحثة: «كنت أتوقع منك أكثر من هذا. لقد بدا سجلُّك واعداً!».

«يؤسفني أنك لم تكوني حرة حتى تتولي المهمة بنفسك. وأنا واثقة من أنك لو تعاملت مع هذه المضيفة المتمردة لكان الأمر نوعاً من اللعب بالنسبة لك». لم أستدر لأنظر إليها. ظل صوتي ثابتاً.

نشقت بأنفها: «كانت الموجات الأولى مشبعة بالتحديات، حتى من دون وجود روح متمردة».

«نعم. لقد عشت بنفسي شيئاً من هذا».

قالت ساخرة: «هل كانت الأعشاب البحرية صعبة الترويض؟ هل كانت تستطيع الفرار؟»

حافظت على هدوء صوتي: «ما كان لدينا مشاكل في القطب الجنوبي. أما القطب الشمالي فكان، بطبيعة الحال، شيئاً آخر. لقد أسيء التعامل معه إلى حد كبير لقد فقدنا الغابة كلها». ظهر الحزن في كلماتي. أغلق ألف كائن واعٍ مدرك عيونهم إلى الأبد مفضّلين ذلك على القبول بنا. لقد جعلت أوراقَها تتجعد ممتنعة عن استقبال أشعة الشمس حتى ماتت جوعاً.

همست ميلاني: «حسناً فعلوا!» لم ألمس حقداً في صوتها. لم ألمس إلا الموافقة والتحبيذ. إلا تحية تلك المأساة في ذاكرتي.

«كانت تلك خسارة كبرى». تركت ألم تلك المعرفة وعذابها. إحساس تلك الألوف المحتضرة. الإحساس الذي هزنا كلنا لمعاناة الغابة الشقيقة. تركت ذلك الألم ينداح في رأسي.

«ما كان أمامهم إلا الموت... في الحالتين».

نطقت الباحثة فرحت أحاول التركيز على محادثة واحدة فقط.

ظهر عدم الارتياح في صوتها: «نعم. لقد كان التنفيذ سيئاً».

«لا يبالغ المرء أبداً مهما كان حذراً حريصاً أثناء التصرف بالسلطة. كان البعض أقل حذراً مما يجب».

لم تجبني. أحسست بها تتراجع عدة خطوات إلى الخلف. يعرف الجميع أن سوء التصرف الذي أدى إلى هذا الانتحار الجماعي كان من جانب الباحثين الذين قللوا من شأن قدرة الأعشاب البحرية على الهرب لأنها عاجزة عن الحركة. لقد تصرفوا على نحو مستهتر وبدأوا الاستيطان الأول قبل أن تصير لدينا أعداد كافية من أجل التمثل الكامل. وعندما أدركوا ما كانت أعشاب البحر قادرة عليه، ما كانت مستعدة لفعله، كان الوقت قد تأخر. كانت الدفعة التالية من الأرواح المجمدة بعيدة جداً. وقبل أن تصل، كانت الغابة الشمالية قد ضاعت.

واجهتُ الباحثة الآن. كان لدي فضول لمعرفة أثر كلماتي عليها. بدت غير متأثرة. كانت تنظر إلى بياض الجدار الفارغ في الجهة المقابلة من الغرفة.

قلتُ بحدّة، محاوِلةً جعل الانصراف يبدو واضحاً: «آسفة لأني لم أستطع مساعدتك أكثر من ذلك». كنت أريد أن أبقى وحدي من جديد.

«بل وحدنا». تدخلت ميلاني. تنهدت. إنها مشبعة بنفسها الآن: «ما كان عليك تجشم عناء المجيء إلى هنا».

قالت الباحثة مبتسمة رافعة كتفيها: «إنه عملي. وأنت المهمة الوحيدة عندي. وإلى أن نجد البقية، يمكن أن أبقى شديدة القرب منك وأن آمل في شيء من الحظ».

## الفصل السابع

# مواجهة

«تفضل أيها الوجه الناظر إلى الشمس!» هكذا قلت شاعرة بالامتنان لتلك اليد التي ارتفعت فقاطعت محاضرتي. ما كنت مرتاحة خلف المنبر بقدر ما كنت أشعر بالارتياح عادة. كانت قوتي الكبرى، إمكانياتي الحقيقية الوحيدة، تتمثل في تجاربي الشخصية التي كنت أستند إليها في التعليم. أما جسد المضيف فما كان لديه إلا معرفة قليلة بالتعليم. لقد كانت فارّة طريدة منذ بداية مراهقتها. كان هذا تاريخ العالم الأول الذي أقوم بتدريسه في هذا الفصل من غير ذكريات أستند إليها. لا بد أن طلابي يشعرون بهذا الفارق ويعانون بسببه.

«تؤسفني مقاطعتك. . » توقف الرجل ذو الشعر الشائب لحظة، محاولاً صياغة سؤاله: «لست واثقاً من أنني أفهم جيداً. هل يقوم آكلو النار. بهضم الدخان الصادر عن احتراق الأزهار التي تمشي؟ مثلما يُهضَم الطعام؟» كان يحاول كتم الرعب في صوته. ما كان يحق لأي روح الحكم على روح أخرى. لقد كان يعيش في كوكب الزهور فلم أشعر بأي مفاجأة إزاء ردّ فعله الشديد على مصير شكل مماثل من أشكال الحياة على كوكب آخر.

كان يدهشني دائماً كيف تنغمس بعض الأرواح في شؤون الكوكب الذي تسكن فيه وتتجاهل بقية الكون. لكن، لنكن عادلين، لعل الوجه الناظر إلى الشمس كان في حالة سبات عندما شاعت الأخبار السيئة عن عالم النار.

«نعم، إنهم يتلقون العناصر الغذائية الرئيسية من هذا الدخان. وهنا تكمن المعضلة الأساسية ومفارقة عالم النار. وهنا يكمن سبب عدم إغلاق هذا العالم رغم توفر الزمن الكافي لاستيطانه كله. ثمة أيضاً نسبة عالية من عمليات الانتقال فيه.

عندما تم اكتشاف عالم النار، توجه الظن في البداية إلى أن الجنس المهيمن فيه، آكلو النار، هو شكل الحياة العاقلة الوحيد في ذلك الكوكب. ما كان آكلو النار يعتبرون الأزهار التي تمشي أنداداً لهم. إنه نوع من التحامل والتكبر الثقافي بحيث مرت فترة، حتى بعد الموجة الأولى من الاستيطان، قبل أن تدرك الأرواح أنها تقوم بقتل كائنات عاقلة. ومنذ ذلك الوقت، صب علماء عالم النار اهتمامهم وجهدهم على إيجاد بديل غذائي لآكلي النار. تم نقل العناكب إلى هناك من أجل المساعدة. لكن ثمة سنين ضوئية بين الكواكب. وعندما يتم التغلب على هذه العقبة. سيكون هذا قريباً. ثمة أمل في استيعاب الأزهار التي تمشي أيضاً. وفي انتظار ذلك تم حذف جزء كبير من الوحشية من هذه المعادلة: مثلاً، الجزء المتعلق بحرقها على قيد الحياة؛ وجوانب أخرى أيضاً».

«كيف يمكنهم. .» سكت الوجه الناظر إلى الشمس غير قادر على إنهاء جملته.

أكمل صوت آخر فكرة الوجه الناظر إلى الشمس.

«يبدو هذا نظاماً بيئياً شديد القسوة. لماذا لم يُترك الكوكب؟».

«جرت مناقشة ذلك بطبيعة الحال يا روبرت. لكننا لا نهجر الكواكب بسهولة. ثمة أرواح كثيرة تعتبر عالم النار موطناً لها. ولن يجري اقتلاعها منه رغم إرادتها» أشحت بوجهي ناظرة إلى دفتري، محاولة إنهاء هذا النقاش الجانبي.

«لكن هذه بربرية!».

كان روبرت، من الناحية الجسدية، أصغر سناً من معظم الطلاب. كانت سنه أقرب إلى سني في الحقيقة. لكنه كان طفلاً من ناحية أخرى

أكثر أهمية. كانت الأرض أول عالم يعرفه. وكانت أمه من سكان الأرض أيضاً قبل أن تقدم نفسها للأمومة. والظاهر أن منظوره كان أضيق من منظور غيره من الأرواح الأكبر سناً أو التي سبق لها السفر بين الكواكب. تساءلت كيف يمكن أن يكون الأمر عندما يولد المرء في خضم المشاعر والانفعالات الطاغية لدى هؤلاء المضيفين من غير سابق خبرة في التوازن. سيكون العثور على الموضوعية صعباً! حاولت أن أتذكر هذا وأن أكون صبورة في الإجابة.

«إن كل عالم تجربة فريدة في حد ذاتها. وإذا لم يكن المرء قد عاش على ذلك الكوكب فمن المستحيل أن يفهم الأمر حقاً. . .».

قاطعني: «لكنك لم تعيشي في عالم النار. لو عشت هناك لكان شعورك مماثلاً. إلا إذا كان لديك سبب آخر جعلك تمتنعين عن الذهاب إلى ذلك الكوكب. لقد عشت في جميع الأماكن الأخرى تقريباً».

«إن اختيار الكوكب مسألة شخصية إلى حد كبير، إنها قرار خاص يا روبرت. وهذا ما سوف تعيشه ذات يوم». كانت نبرة صوتي تنبئ بإغلاق الموضوع نهائياً.

«لماذا لا تخبرينهم؟ أنت تعتبرين هذا أمراً بربرياً... قاسياً... خاطئاً. وهذه مفارقة واضحة إذا أردت رأيي... أنت لم تسأليني عن رأيي أبداً. ما المشكلة؟ هل تخجلين من اتفاقك مع روبرت في الرأي؟ هل تخجلين من كونه إنساناً أكثر من غيره؟».

صارت ميلاني لا تطاق بعد أن وجدت صوتها. كيف يمكنني التركيز على عملي عندما تدوّي أفكارها في رأسي طوال الوقت؟

تحرك ظل قاتم في المقعد الذي خلف روبرت.

إنها الباحثة تجلس هادئة في ملابسها السوداء المعتادة. كانت منحنية إلى الأمام، مهتمة للمرة الأولى بموضوع الحديث.

قاومت رغبتي في توجيه نظرة عابسة إليها. لم أكن أريد أن يخطئ روبرت الذي يبدو عليه الإحراج أصلاً فيظن أن العبوس موجّه إليه.

احتجّت ميلاني. كانت تتمنى ألا أقاوم. كان تعقّب الباحثة كل خطوة من خطواتي درساً مفيداً لميلاني. كانت تظن من قبل أنها لا يمكن أن تكره شيئاً أو أحداً أكثر مما تكرهني.

قلت مرتاحة: «كاد وقت الدرس ينتهي. يسرني إبلاغكم أن لدينا ضيفاً سوف يحدثنا يوم الثلاثاء القادم وسوف يكون قادراً على تعويض جهلي بهذا الموضوع. إن النار اللطيفة وافد جديد إلى هذا الكوكب، وسوف يأتي ليحدثنا عن تجربته الشخصية في عالم النار. أعرف أنكم ستُظهرون معه كل اللباقة التي أظهرتموها تجاهي، وستُظهرون احترامكم لحداثة سن مضيفه أيضاً. شكراً لكم».

انصرف الطلاب ببطء. أمضى أكثرهم دقيقة في الحديث مع غيره ريثما يجمع حوائجه. خطر في بالي ما قالته لي كاثي عن الصداقة، لكني لم أشعر بأي رغبة في الانضمام إلى أحد منهم. إنهم غرباء!

أهكذا أشعر؟ أم هذا ما تشعر به ميلاني؟ صعب أن أعرف. ربما كنت غير اجتماعية بطبيعتي. أظن أن تاريخي الشخصي يؤيد هذه النظرية. لم تسبق لي إقامة ارتباط يبلغ من القوة حداً يجعلني أبقى في الكوكب الواحد أكثر من حياة واحدة.

لاحظت روبرت والوجه الناظر إلى الشمس يتمهلان عند باب غرفة الصف. كانا منغمسين في حديث بدا لي حاراً متوتراً. أظن أنني أعرف موضوع الحديث.

«إن قصص عالم النار تثير الرعب».

ألقيت نظرة سريعة.

كانت الباحثة واقفة عند مرفقي. كانت هذه المرأة في العادة تعلن عن قدومها عبر النقرات السريعة لحذائها القاسي على الأرض. نظرت إلى الأسفل فرأيت أنها تنتعل حذاء رياضياً. لكنه أسود اللون طبعاً. كانت تبدو أصغر حجماً بسبب عدم انتعال الكعب العالي.

قلت بصوت بارد: «ليس هذا بالموضوع المفضل عندي. أفضل أن تكون لي خبرة شخصية أقدّمها للآخرين».

«كانت ردود أفعال الطلاب قوية».

«نعم».

نظرتْ إليّ نظرة ترقُّب كأنها تنتظر المزيد. جمعتُ أوراقي واستدرت لأضعها في حقيبتي.

«وقد بدت عليك استجابة لذلك أيضاً».

وضعت الأوراق في الحقيبة بعناية وحرص دون أن أستدير: «أعجب لأنك لم تجيبي عن السؤال بنفسك».

حل صمت قصير بينما كانت تنتظر إجابتي. لكني لم أجبها.

«إذاً.. لماذا لم تجيبي على السؤال؟».

استدرت من غير أن أخفي نفاد الصبر الذي ظهر على وجهي: «لأنه لم يكن متصلاً بموضوع الدرس، ولأن على روبرت أن يتعلم حسن التصرف، ولأن هذا الأمر ليس من شأن أحد غيري».

علّقت حقيبتي على كتفي واتجهت صوب الباب. ظلت خلفي. كانت تسرع خطاها حتى لا تتأخر عني. سرنا عبر الممر صامتتين. لم تتكلم الباحثة إلى أن صرنا في الخارج حيث كانت شمس بعد الظهر تضيء ذرات الغبار المعلقة في الهواء المالح.

«هل تظنين أنك سوف تستقرين ذات يوم أيتها الجوالة؟ لعلك تستقرين على هذا الكوكب؟ يبدو أنك أحبت هذه.. المشاعر».

أدركتُ الإهانة المضمرة في نبرة صوتها. لم أكن واثقة من أنها أرادت إهانتي، لكن من الواضح أنها أهانتني فعلاً. تحركت ميلاني منزعجة.

«لا أظن أنني افهمك جيداً».

«أخبريني شيئاً أيتها الجوالة. هل تشفقين عليهم؟».

سألتها بصوت خال من التعبير: «من هم؟ الأزهار التي تمشي؟».

«لا، البشر».

توقفت عن السير. فتوقفت بجانبي. كنا على مسافة قصيرة من منزلي. وكنت أسرع آملة في التخلص منها رغم ضعف هذا الاحتمال. لا بد أنها ستدعو نفسها إلى الدخول معي. لكن سؤالها فاجأني.

«البشر؟».

«نعم. هل تشفقين عليهم؟».

«ألا تشفقين عليهم أنت؟».

«لا لقد كانوا جنساً وحشياً. يدهشني كيف استطاعوا الاستمرار كل هذه الفترة».

«لم يكونوا سيئين كلهم».

«كانت الوحشية نزوعاً راسخاً في جيناتهم. كانت جزءاً من جنسهم. لكنك تشفقين عليهم كما أرى».

«ألا تظنين أنها خسارة كبيرة؟» أشرت بيدي إلى ما هو حولنا. كنا واقفتين في حديقة صغيرة بين مهجعين غطاهما اللبلاب. كانت خضرة اللبلاب الداكنة بهجة للعين، خاصة على خلفية لون القرميد القديم الأحمر الباهت. كان الهواء ذهبياً وناعماً. وكانت رائحة المحيط تضفي نكهة مالحة على أريج الأزهار الحلو العسلي. وكان النسيم يداعب جلد ذراعي العارية. «أنت لم تري شيئاً بهذه الحيوية في أي حياة سابقة. ألا تشعرين بالانزعاج ممن سلبهم هذا؟» ظلّ تعبير وجهها بارداً ولم تتأثر. حاولت جذبها إلى الكلام. حاولت جعلها تفكر في وجهة نظر أخرى. «ما الكواكب التي عشت فيها من قبل؟».

ترددت ثم شدت كتفيها: «لم أعش في أي كوكب. لم أعش إلا على الأرض».

أدهشني هذا. إنها طفلة. مثل روبرت: «كوكب واحد فقط؟ هل اخترت أن تكوني باحثة منذ حياتك الأولى؟».

أومأت برأسها وقد ظهر عليها العناد.

«لا بأس. لا بأس، هذا شأنك». بدأت السير من جديد. لعلها ترد لي الجميل إذا رأتني أحترم خصوصياتها.

«لقد تحدثت مع معالجتك النفسية».

«بل لعلها لا ترد لك الجميل»، هكذا قالت ميلاني لي بنبرة لاذعة.

قلت لاهثة: «ماذا؟».

«فهمت أنك تعانين مشاكل أخرى غير مشكلة الوصول إلى المعلومات التي تلزمني. هل فكرت في مسألة المحاولة في جسد مضيف آخر أكثر طاعة؟ لقد اقترحت عليك المعالجة النفسية هذا الأمر، أليس كذلك؟».

«لا يجوز لكاثي أن تخبرك شيئاً».

ظهر السرور والارتياح على وجه الباحثة: «لم تكن مضطرة إلى الإجابة عن أسئلتي. إنني شديدة المهارة في قراءة تعابير الوجه البشري. وأنا قادرة على فهم تلك التعابير عندما يضرب سؤالي على وتر حساس».

«كيف تجرؤين؟ إن العلاقة بين الروح ومعالجها النفسي. . .».

«علاقة مقدسة، نعم؛ أعرف هذه النظرية. لكن الظاهر أن وسائل التحقيق المقبولة غير ناجحة في حالتك. لا بد لي من الإبداع».

«أتظنين أنني أخفي عنك شيئاً؟» سألتها غاضبة. كنت أكثر غضباً من أن أستطيع إخفاء التوتر في صوتي «وتظنين أنني قلت لمعالجتي النفسية الأشياء التي أخفيها عنك؟».

لم يثرها غضبي. لعلها معتادة على ردود أفعال من هذا النوع. بسبب شخصيتها الغريبة.

«لا أظن أنك تقولين لي كل ما تعرفينه. لكنني لا أظن أنك تجتهدين في البحث كما ينبغي. لا تجتهدين بقدر ما تستطيعين. لقد رأيت هذا من قبل. إنك تزدادين تعاطفاً مع مضيفتك. وأنت تسمحين

لذكرياتها بأن تسيطر على رغباتك الخاصة على نحو غير واعٍ. لعل الوقت قد تأخر كثيراً عند هذه النقطة. وأظن أنك ستكونين مرتاحة أكثر إذا انتقلت إلى جسد آخر. ولعل حظاً أفضل يواتي روحاً غيرك مع هذا الجسد».

صرخت: «ها! سوف تأكلها ميلاني حية!».

تجمدت تعابير وجهها.

لم يكن لديها أي فكرة، مهما يكن ما استنتجته من حديثها مع كاثي. كانت تظن أن تأثير ميلاني نابع من الذكريات، أي أنه كان تأثيراً غير واعٍ.

«أستغرب كثيراً أن تتحدثي عنها بصيغة الحاضر».

تجاهلت ذلك محاولة التظاهر بأنني لم أرتكب أي غلط: «إذا كنت تظنين أن روحاً غيري قادرة على تحقيق نتائج أفضل فيما يخص أسرارها فأنت مخطئة».

«لدينا طريقة واحدة للتأكد من ذلك».

سألتها وقد تجمَّد صوتي لشدة انزعاجي: «هل تفكرين في روح محددة؟».

ابتسمت: «لقد نلت إذناً بأن أحاول. لن يستغرق هذا زمناً طويلاً. وسوف يحتفظون بهذا الجسد المضيف من أجلي».

كان عليّ أن أتنفس بعمق. كنت أرتجف، وكان الكره يملأ ميلاني حتى خانتها الكلمات. كانت فكرة وجود الباحثة في داخلي، حتى مع معرفتي بأنني لن أكون هنا، فكرة مقيتة جعلتني أشعر بعودة الغثيان الذي أصابني الأسبوع الماضي.

«من سوء حظ تحقيقك أنني لست ممن ينسحبون».

ضاقت عيناها: «لا بأس، من المؤكد أن هذا يجعلني مصرة على هذه المهمة. لم أحب مادة التاريخ في يوم من الأيام، لكن الظاهر الآن أنني سأمارس تدريس التاريخ طوال فصل دراسي كامل».

قلت أذكرها. كافحت حتى أحافظ على صوتي هادئاً: «قلت قبل قليل إنك ترجّحين أن الوقت قد تأخر على الحصول على شيء من ذكرياتها. لماذا لا تعودين إلى حيث كنت؟».

رفعت كتفيها وابتسمت ابتسامة صغيرة: «أنا واثقة من أن الوقت قد تأخر كثيراً. من أجل الحصول على المعلومات طوعاً. لكن، إذا لم تتعاوني معي. فقد تقودني هي إلى المعلومات».

«تقودك؟».

«عندما تسيطر عليك تصبح حالك مثل ذلك الضعيف. المدعو كيفن. ألا تذكرينه؟ الشخص الذي هاجم المعالج؟».

حدقت إليها بعينين متسعتين. كان منخراي يرتجفان.

«نعم، الأرجح أن المسألة مسألة وقت. لم تخبرك معالجتك النفسية بالأرقام الإحصائية، أليس كذلك؟ حسنٌ، حتى إذا أخبرتك فهي لا تملك آخر المعلومات التي توصلنا إليها. إن نسبة النجاح على المدى البعيد في الأوضاع الشبيهة بوضعك. أي عندما يبدأ الإنسان المضيف بالمقاومة. لا تتجاوز عشرين في المئة. هل كانت لديك فكرة عن مدى سوء الوضع؟ إنهم يغيرون المعلومات المقدمة إلى من يعتزمون الاستيطان على الأرض. سوف يتم التوقف عن تقديم مضيفين بالغين. إن المخاطرة كبيرة جداً. ونحن نفقد أرواحاً. لن يطول الوقت قبل أن تبدأ الحديث معك، الحديث من خلالك، السيطرة على قراراتك».

لم أكن قد تحركت إطلاقاً ولم ترتخ أي عضلة من عضلاتي. اقتربت الباحثة ووقفت على أصابع قدميها حتى يصير وجهها قبالة وجهي. صار صوتها منخفضاً ناعماً في محاولة لإقناعي: «هل هذا ما ترغبين فيه أيتها الجوالة؟ أن تخسري؟ أن تذوي؟ أن يطغى عليك وعي آخر؟ أن تصبحي مثل أي جسد مضيف؟».

لم أستطع التنفس.

«الأمر يزداد سوءاً. وأنت لن تعودي أنت بعد الآن. سوف تهزمك، وسوف تختفين. قد يتدخل أحد. وقد يقومون بإخراجك منها كما حصل مع كيفن. وسوف تصيرين طفلة اسمها ميلاني تحب اللعب بالسيارات بدلاً من تأليف الموسيقى. .».

همست: «هل قلت إن نسبة النجاح لا تتجاوز عشرين في المئة؟».

أومأت برأسها محاولة كبت ابتسامتها: «أنت تخسرين نفسك أيتها الجوالة. وأما تلك الكواكب التي عشت فيها، تلك الخبرة التي اجتمعت لديك، فسوف تذهب كلها عبثاً. رأيت في ملفك أن لديك استعداداً للأمومة. إذا قدمت نفسك لكي تصبحي أماً فلن يتم إهدار تلك الخبرة إهداراً تاماً. لماذا تفرّطين في حق نفسك؟ هل فكرت في الأمومة؟».

انتفضت مبتعدة عنها. كان وجهي ملتهباً.

قالت بسرعة وقد ازداد وجهها اسمراراً: «آسفة. كان هذا قلة تهذيب مني. أرجو أن تنسي ما قلته».

«أنا ذاهبة إلى بيتي. لا تلحقي بي».

«عليّ اللحاق بك أيتها الجوالة. هذا عملي».

«لماذا تهتمين هذا الاهتمام كله بحفنة صغيرة من البشر الباقين؟ لماذا؟ كيف تستطيعين تبرير عملك بعد الآن؟ نحن منتصرون! لقد حان وقت انضمامك إلى المجتمع، حتى تفعلي شيئاً منتجاً ذا قيمة».

لم تؤثر فيها أسئلتي. اتهاماتي المضمرة: «يحل الموت حيثما لامست أطراف عالمهم أطراف عالمنا» قالت هذه الكلمات بصوت مسالم. وللحظة واحدة، لمحت شخصاً آخر في وجهها. فوجئت عندما أدركت عمق قناعتها بما تفعله. كان جزء مني يظن أنها لم تختر مهنتها إلا بسبب ميل فيها إلى العنف. تابعت تقول: «إذا ضاعت روح واحدة بسبب جارد أو جيمي. فهذا كثير جداً. إن عملي مبرر إلى أن يحل السلام الكامل في هذا الكوكب. ما دام فيه أشخاص من أمثال جارد فإن جنسنا

في حاجة إلى أمثالي لحمايته. وما دام في هذا العالم أمثال ميلاني يقودون أرواحاً من أنوفها. .».

أدرت ظهري ودخلت شقتي بخطوات سريعة من شأنها أن تجبرها على الجري إذا أرادت اللحاق بي.

صاحت من خلفي: «لا تخسري نفسك أيتها الجوالة. إن الوقت ينفد منك». توقفت لحظة ثم صاحت بصوت أكثر ارتفاعاً: «أخبريني عندما يكون علي أن أخاطبك باسم ميلاني!».

خبا صوتها مع ازدياد المسافة بيننا. كنت أعرف أنها ستتبعني بخطواتها القصيرة طوال هذا الأسبوع المزعج. رؤية وجهها خلف وجوه الطلاب في الصف وسماع خطواتها من خلفي على الطريق كل يوم. كان هذا كله لا شيء إذا قورن بما سيحدث. سوف تجعل حياتي بائسة.

أحسست بميلاني تقفز بعنف داخل جمجمتي.

«دعينا نوقع بها. قولي للمسؤولين عنها إنها فعلت أشياء غير مقبولة. قولي إنها هاجمتنا. ليس لديهم إلا كلامنا مقابل كلامها...».

قلت أذكّرها. كنت شبه حزينة لأنني لا أستطيع اللجوء إلى هذه الوسائل: «لا وجود في عالمنا لمن هم أعلى رتبة بالمعنى الذي تتحدثين عنه. يعمل الجميع معاً... متساوين. ثمة مسؤولون لدينا، لكن من أجل الحفاظ على ترتيب المعلومات فقط. وثمة مجالس تتخذ القرارات فيما يخص هذه المعلومات. لكنهم لن يبعدوها عن أي مهمة تريد القيام بها. هل تفهمين؟ إن الأمر مثل...».

«لست أبالي بهذا الأمر إذا كان لا يساعدنا! أعرف... فلنقتلها!».

احتلت رأسي صورة. صورة يديّ تحيطان بعنق الباحثة. تشدان عليه.

قلت لها: «هذا هو بالضبط ما جعل بني جنسي في موقع أفضل لتولي مسؤولية هذا الكوكب».

«كفاك تظاهراً! أنت تستمتعين بهذا قدر استمتاعي به». عادت الصورة إلى رأسي. كان وجه الباحثة يتحول إلى لون أزرق في مخيلتنا، لكن موجة كبيرة من السرور كانت ترافق الصورة هذه المرة.

قلت: «هذه أنت، لا أنا». كان قولي صحيحاً؛ لقد أفزعتني الصورة. لكن قولي نفسه كان قريباً من الكذب إلى حد فظيع كنت سأكون سعيدة إلى أقصى حد بعدم رؤية الباحثة من جديد.

«ماذا نفعل الآن؟ لن أستسلم. ولن تستسلمي. كما أن تلك الباحثة الملعونة لن تستسلم أيضاً!»

لم أجبها بشيء. ما كانت لدي إجابة جاهزة.

حل الهدوء في رأسي لحظة وجيزة. كان هذا لطيفاً. ليت هذا الصمت يستمر! لكن للحصول على السلام لا يوجد إلا طريق واحد. هل أنا مستعدة لدفع الثمن؟ هل أمامي خيار بعد الآن؟ هدأت ميلاني تدريجياً. ومع اجتيازي الباب الأمامي وقيامي بإقفاله للمرة الأولى في هذه الحياة. اختراعات بشرية لا محل لها في عالم مسالم. صارت أفكارها متأملة.

«لم أفكر من قبل في كيفية استمرار بني جنسكم. لم أدرك أن الأمر يسير على هذا النحو».

«نحن نتعامل مع هذا الأمر بجدية شديدة... يمكنك أن تتصوري ذلك. شكراً لاهتمامك». لم يبدُ عليها أي انزعاج بسبب نبرة السخرية في تفكيري.

كانت تواصل التفكير في اكتشافها هذا بينما شغلتُ الكمبيوتر وبدأت البحث عن الرحلات الجوية. مرت لحظة قبل أن تنتبه لما كنت أفعله.

«أين تذهبين؟». ظهر في عبارتها شيء من الخوف. أحسست بها تنقِّب في رأسي... كانت لمساتها مثل لمسات ريشات صغيرة. كانت تبحث عن أي شيء أخفيه عنها.

قررت أن أريحها من مشقة البحث: «سوف أطير إلى شيكاغو».

صار خوفها واضحاً الآن: «لماذا؟».

«سوف أذهب لرؤية المعالج. لا أثق بهذه الباحثة! أريد التحدث إليه قبل أن أتخذ قراري».

حل صمت قصير قبل أن تتكلم من جديد.

«اتخاذ قرارك بقتلي؟».

«نعم... إنه كذلك».

## الفصل الثامن

# حب

«أأنت خائفة من الطيران؟». كان صوت الباحثة مليئاً بعدم التصديق، بل كان أميل إلى السخرية أيضاً. «لقد سافرت عبر الفضاء البعيد ثماني مرات، وأنت خائفة الآن من ركوب الطائرة حتى توكسون في أريزونا!».

«أولاً، أنا لست خائفة. ثانياً، عندما كنت أسافر في الفضاء البعيد لم أكن أعي مكان وجودي وعياً واضحاً، ولم أكن أعي أنني مخزنة في وعاء تبريد. وثالثاً، إن هذا الجسد المضيف يصاب بالغثيان عند ركوب الطائرة».

اتسعت عينا الباحثة وعلاهما تعبير من القرف: «خذي بعض الدواء إذاً! ماذا كنت تفعلين لو لم يكن المعالج فوردز انتقل إلى سانت ماري؟ هل كنت تقودين السيارة حتى شيكاغو؟».

«لا لكن، بما أن خيار الذهاب بالسيارة منطقي في هذه الحالة فإنني سوف أذهب بالسيارة. وسوف يكون أمراً لطيفاً أن أرى بعضاً من هذا العالم. يمكن للصحراء أن تكون مدهشة. .».

«إن الصحراء مملة إلى حد الموت».

«. ثم إنني لست في عجلة من أمري. لدي أشياء كثيرة أفكر فيها، وسوف أكون سعيدة بقضاء بعض الوقت وحدي». نظرت إليها نظرة حادة كما لو أنني أشدد على الكلمة الأخيرة في عبارتي.

«لست أفهم الغرض من زيارة معالجك القديم. ثمة معالجون مؤهلون جيداً هنا».

«إنني أرتاح للمعالج فوردز. فهو لديه خبرة واسعة، وأنا غير واثقة من أنني أتلقى هنا جميع المعلومات التي أحتاج إليها». رميتها بنظرة أخرى ذات مغزى.

«ليس لديك وقت يسمح لك بالتصرّف على مهل أيتها الجوالة. إنني أعرف هذه العلامات»

«اعذريني إذا كنت أعتبر معارفك غير مهمة. أعرف عن السلوك البشري ما يكفي للتعرف على حالات التلاعب».

راحت تحدق صوبي غاضبة.

كنت أضع في السيارة المستأجرة بعض الأشياء التي خططت لأخذها معي. كانت لدي ملابس تكفيني مدة أسبوع من دون أن أضطر إلى الغسيل. إضافة إلى اللوازم الصحية الضرورية. صحيح أنني لم أكن أحمل الكثير، لكن ما تركته خلفي كان أقل مما حملت. كان ما تراكم عندي من الممتلكات الشخصية قليلاً جداً. وبعد هذه الشهور كلها في شقتي الصغيرة كانت الجدران ما تزال عارية وكانت الرفوف ما تزال خالية. لعلي ما كنت أعتزم الاستقرار هنا!

كانت الباحثة تقف كأنها مزروعة على الرصيف قرب الشاحنة المفتوحة. وكانت ترميني بأسئلة وتعليقات سامة كلما كنت على مسافة تسمح لي بسماع صوتها. على الأقل كنت مرتاحة لاعتقادي أن فراغ صبرها لن يسمح لها بملاحقتي على الطريق. سوف تركب الطائرة إلى توكسون مثلما كانت تأمل في إقناعي بأن أفعل أيضاً. كان عدم ذهابها معي راحة عظيمة. كنت أتخيلها تنضم إليّ كلما توقفت من أجل الراحة والطعام. أتخيلها واقفة تنتظرني خارج المرحاض في محطة الوقود. وأتخيل أسئلتها التي لا تنتهي تنتظرني كلما توقفت سيارتي عند إشارة المرور. ارتجفت لتلك الفكرة. إذا كان من شأن جسد جديد أن يحررني من هذه الباحثة. أوه. هذا إغراء حقيقي!

كان لدي خيار آخر أيضاً. كان في وسعي أن أهجر هذا العالم كله

معلنة فشلي ثم أنتقل إلى الكوكب العاشر. أستطيع العمل على نسيان هذه التجربة كلها. وسوف تكون الأرض مجرد هفوة صغيرة قصيرة الزمن في سجلي الذي لا تشوبه شائبة غير هذه التجربة.

لكن، أين أذهب؟ أأذهب إلى كوكب حللت فيه من قبل؟ كان الكوكب المغني أحد خياراتي المفضّلة لكنه كان يعني التخلي عن بصري. يعني أن أكون عمياء! إن كوكب الزهور جميل أيضاً. لكن أشكال الحياة القائمة على الكلوروفيل ليس لديها إلا مجال ضيق من المشاعر. وسوف أشعر ببطء شديد بعد الإيقاع الحار لهذا المكان البشري.

أأذهب إلى كوكب جديد؟ كان ثمة فتوحات لكواكب جديدة. وهنا على الأرض كانوا يدعون المضيفين الجدد باسم الدلافين بسبب الافتقار إلى شيء أفضل للمقارنة، رغم أنهم يشبهون حشرات طائرة أكثر مما يشبهون تلك الثدييات البحرية. إنه جنس عالي التطور. وهو متحرك بالتأكيد، لكني بعد إقامتي الطويلة مع أعشاب البحر كانت فكرة إقامتي في كوكب مائي آخر فكرة منفِّرة بالنسبة لي.

لا، ثمة الكثير مما لم أكتشفه بعد في هذا الكوكب. لم يسبق أن اجتذبني أي مكان في الكون الذي نعرفه قدرما اجتذبني هذا الفناء الأخضر الظليل الصغير في هذا الشارع الهادئ. لقد اجتذبني أيضاً سحر سماء الصحراء الصافية. تلك السماء التي لم أرها من قبل إلا في ذكريات ميلاني.

لم تكن ميلاني تطلعني على رأيها في آرائي هذه. إنها هادئة جداً منذ قراري بالذهاب بحثاً عن فوردز ديبووتر، معالجي الأول. لم أكن واثقة مما قد يعنيه الانفصال. لعلها تحاول أن تبدو أقل خطورة.. أقل عبثاً! أم لعلها تستعد لغزو الباحثين! لعلها تستعد للموت! أم لعلها تستعد لمقاتلتي! لعلها تستعد لتولي زمام الأمر كله! مهما تكن خطتها، فقد ظلت تنأى بنفسها عني. كانت الآن مجرد حضور باهت حذر في مؤخرة رأسي.

قمت بآخر رحلة لي في داخل البيت باحثة عن أي شيء منسي. بدت الشقة فارغة. ما كان فيها إلا الأثاث الرئيسي الذي تركه المستأجر الأخير خلفه قبل مجيئي. كانت أطباق الطعام نفسها ما تزال موجودة في الخزانة، الوسائد على السرير، والمصابيح على الطاولات. إذا لم أعد، فلن يكون لدى المستأجر الجديد الكثير من المتاع الذي لا بد له من إزالته.

رنّ الهاتف لحظة كنت أهمّ بالخروج من الباب. عدت حتى أجيب لكنني تأخرت. كنت قد جهزت المجيب الآلي حتى يرد على المكالمة منذ الرنّة الأولى. أعرف ما يسمعه المتصل: إنه تفسيري الغامض الذي يقول إنني لن أكون هنا بقية هذا الفصل الدراسي وإن دروسي ملغاة حتى يتمكنوا من العثور على بديل يحل محلي. لم أقدم أي سبب لغيابي. نظرت إلى الساعة الموضوعة فوق جهاز التلفزيون. لم تكن تتجاوز الثامنة صباحاً إلا قليلاً. لا بد أنه كورت على الهاتف. بعد أن تلقى رسالتي الإلكترونية التي أرسلتها إليه الليلة الماضية والتي ما كانت تحمل تفاصيل تزيد عما في الرسالة الهاتفية إلا قليلاً. شعرت بالذنب لأنني لم أنجز تنفيذ التزامي تجاه كورت... كأنني أنسحب فعلاً! لعل هذه الخطوة، هذا الانسحاب، كانت مقدمة لقراري التالي. لعاري الكبير. ما كانت هذه الفكرة مريحة. وهذا ما جعلني غير راغبة في الإصغاء إلى الرسالة التي تم تسجيلها على جهاز الهاتف رغم أنني لم أكن أستعجل الذهاب في حقيقة الأمر.

نظرت في الشقة الفارغة مرة أخرى. لم أشعر أنني تركت شيئاً خلفي... لم يكن عندي ولع بهذه الغرف. كان لدي إحساس غريب بأن هذا العالم. لا ميلاني وحدها، بل هذا الكوكب كله. لم يكن يريدني، بصرف النظر عن مدى رغبتي فيه. كان يبدو لي أنني لم أستطع مد جذوري هنا. ابتسمت ابتسامة قلقة عندما خطرت فكرة الجذور ببالي. ليس هذا الشعور إلا تطيّراً سخيفاً من جانبي.

لم أكن قبل الآن أعيش في جسد مضيف قادر على التطير إنه إحساس مثير للاهتمام. شيء يشبه معرفتك بأنك مراقب من غير أن تستطيع العثور على من يراقبك. كان هذا الشعور يُولّد عندي إحساساً بالقشعريرة في مؤخرة رقبتي.

أغلقت الباب بإحكام من خلفي لكنني لم ألمس الأقفال العتيقة. لن يعبث أحد بهذا المكان إلى أن أعود أو إلى أن يحل فيه شخص جديد غيري.

صعدت إلى السيارة من غير أن ألقي نظرة على الباحثة. لم أكن معتادة على قيادة السيارة، ولم تكن ميلاني معتادة على قيادتها أيضاً. وهذا ما جعلني عصبية بعض الشيء. لكنني كنت واثقة من قدرتي على اعتياد الأمر سريعاً.

أدرت المحرك فانحنت الباحثة صوب النافذة المقابلة وقالت: «سوف أكون بانتظارك في توكسون».

قلت: «لا شك عندي في هذا».

عثرت على مفتاح رفع الزجاج في اللوحة التي على الباب بجانبي. حاولت إخفاء ابتسامتي عندما ضغطت على المفتاح حتى أرفع الزجاج فقفزت الباحثة مرتدة إلى الخلف.

قالت وهي ترفع صوتها، بل تكاد تصيح حتى أتمكن من سماعها رغم ضجيج المحرك ورغم إغلاق النافذة: «ربما. ربما أحاول قيادة السيارة مثلك. وفي هذه الحالة ربما أراك على الطريق».

ابتسمت لي ورفعت كتفيها.

إنها تقول هذا لإزعاجي فقط. حاولت عدم إظهار نجاحها في إزعاجي. ركزت نظري على الطريق أمامي وأقلعت بالسيارة بحذر.

كان العثور على الطريق سهلاً. وبعد ذلك ما كان عليّ إلا أن أتبع الإشارات حتى أصل إلى سان دييغو. لكن سرعان ما اختفت الإشارات وما عاد عندي شيء أنتبه إليه. ما عاد أمامي مجال للانعطاف في أي

طريق غير صحيح. سأصل إلى توكسون بعد ثماني ساعات. ما كان هذا وقتاً طويلاً بالقدر الكافي. ربما أبيت ليلتي في إحدى البلدات الصغيرة الواقعة على الطريق. لو كنت أستطيع التأكد من أن الباحثة قد سبقتني، من أنها تنتظرني فارغة الصبر بدلاً من اللحاق بي، فسوف يكون توقفي تأخيراً لطيفاً!

وجدت نفسي أُكثِر النظر في المرآة الخلفية باحثة عن أي دليل على ملاحقتها. كنت أقود السيارة أبطأ من الجميع غير راغبة في الوصول إلى وجهتي. كانت السيارات الأخرى تتجاوزني طوال الوقت. لم أتعرف على أي وجه من الوجوه التي كانت تتجاوزني. ما كان عليّ أن أسمح لمزاح الباحثة بإزعاجي. من المؤكد أنها لا تملك صبراً يسمح لها بالسفر البطيء. لكنني. واصلت النظر في المرآة بحثاً عنها.

سبق لي أن ذهبت غرباً صوب المحيط. ذهبت شمالاً وجنوباً على امتداد ساحل كاليفورنيا الجميل. لكني لم أذهب شرقاً على الإطلاق. سرعان ما صارت المدنيّة خلفي. وسرعان ما أحاطت بي تلال جرداء وصخور كانت العلامات الوحيدة في براري الصحراء الخالية.

كان البعد عن المدنية يبعث الراحة والاسترخاء في نفسي. وهذا ما أثار قلقي. لا يجوز لي أن أجد الوحدة أمراً لطيفاً. إن الأرواح اجتماعية بطبعها. إننا نعيش ونعمل وننمو معاً، في تناغم وانسجام. إننا متماثلون جميعاً: مسالمون، ودودون، صادقون! فلماذا أشعر بارتياح أكبر عندما أبتعد عن بني جنسي؟ هل هي ميلاني من جعلني على هذا النحو؟

بحثت عن ميلاني لكنني وجدتها بعيدة عني. كانت تحلم في مؤخرة رأسي.

كان هذا أحسن أوضاعها منذ أن بدأت تتحدث معي من جديد.

مرت الأميال سريعاً. كانت الصخور القاسية القاتمة والسهوب المغبرة المملوءة بالنباتات الصحراوية تطير برتابة لا تنقطع.

أدركت أنني أقود السيارة بسرعة أكبر مما أريد. لا شيء يشغل ذهني

هنا وهذا ما جعلني أجد صعوبة في التباطؤ. رحت أتساءل عما جعل الصحراء أكثر غنى بالألوان في ذكريات ميلاني. أكثر إغراءً. تركت عقلي يسير مع عقلها محاولة أن أرى ما هو خاص في هذا المكان الخالي.

لكنها ما كانت ترى تلك الأرض الميتة المحيطة بنا. كانت تحلم بصحراء أخرى غير هذه. صحراء حمراء اللون فيها وديان. مكان سحري. لم تكن تحاول إبعادي عن هذه الذكريات. بل الواقع أنها بدت غير منتبهة لوجودي تقريباً. رحت أسأل نفسي من جديد عن معنى مفارقتها. لم أر لديها أي فكرة لمهاجمتي. بدا وضعها أشبه بمن يستعد لمواجهة النهاية.

كانت تعيش في مكان أكثر سعادة في ذكرياتها كما لو أنها تودِّع الحياة. إنه مكان لم تسمح لي برؤيته قبل اليوم.

كان ثمة كوخ صغير، مسكن بدائي محشور ضمن فتحة في الصخر الرملي الأحمر. وكان قريباً إلى حد الخطر من خط فيضان الماء في ذلك الوادي. إنه مكان لا يخطر في البال، بعيد عن أي درب أو ممر، مكان مبني ضمن ما بدا لي موقعاً لا معنى له! مكان خشن قاسٍ، مكان يخلو من كل وسائل التكنولوجيا الحديثة. كانت تتذكر كيف ضحكت لرؤية المغسلة التي كان على المرء أن يضخ الماء إليها حتى يسحبه من تحت الأرض.

قال جارد: «لا وجود للأنابيب». كانت الغضون بين عينيه تزداد عمقاً عندما يتقارب حاجباه. بدا عليه القلق بسبب ضحكاتي. هل هو خائف من أنني لا أحب المكان؟ «لا شيء هنا يمكن اقتفاء أثره، لا دليل على أننا كنا هنا».

قلت بسرعة: «إنني أحبه. إنه أشبه بفيلم قديم... إنه ممتاز».

اتسعت الابتسامة التي لا تفارق وجهه أبداً... إنه يبتسم حتى في

أثناء نومه: «إنهم لا يخبرونك عن أسوأ الأشياء في الأفلام. تعالي سوف أريك مكان المرحاض».

سمعت ضحكات جيمي تتردد في الوادي الضيق عندما كان يجري أمامنا فيسبقنا. كان شعره الأسود يتقافز مع تقافز جسمه. إنه يتقافز طوال الوقت الآن... هذا الصبي الصغير الذي لوّحت الشمس جلده. لم أدرك من قبل مقدار العبء الذي تحمله هاتان الكتفان الضيّقتان. إنه سعيد جداً مع جارد. لقد اختفى تعبير القلق من وجهه وحلت الابتسامات محله. إننا أفضل حالاً مما كنت أتوقع.

«من الذي بنى هذا المكان؟».

«بناه أبي وأشقائي الكبار. كنت أساعدهم، بل أعيقهم في الواقع... قليلاً! كان والدي يحب الابتعاد عن كل شيء. وما كان يعبأ بأسباب الراحة كثيراً. وما كان منشغل البال بالبحث عمن يملك هذه الأرض، كما لم يكلف نفسه عناء الحصول على ترخيص أو أي شيء من هذه الأمور». ضحك جارد ملقياً رأسه إلى الخلف. تراقصت أشعة الشمس في خصلات شعره الشقراء. «لا وجود لهذا المكان من الوجهة الرسمية. شيء مناسب، أليس كذلك؟» ومن دون أن يبدو عليه أي تفكير في الأمر، مد يده فأمسك بيدي.

أحسست جلدي يحترق حيث لمسه. هذا جيد جداً، أفضل من جيد، لكنه يبعث ألماً غريباً في صدري.

إنه يحرص دائماً على لمسي بهذه الطريقة. يبدو في حاجة دائمة إلى الاطمئنان على استمرار وجودي هنا.

هل يدرك ما يفعله هذا بي؟ ذلك الضغط البسيط من كف يده الحار على يدي؟ ترى هل يسرع نبض قلبه مثلما يسرع نبضي؟ أم هو سعيد فقط لأنه لم يعد وحيداً؟

راح يؤرجح ذراعينا عندما كنا نسير تحت صف قصير من الأشجار الصحراوية ممشوقة القوام. كانت خضرة الأشجار شديدة

الحيوية على تلك الخلفية الحمراء حتى إنها راحت تضلل عيني وتجعل تركيزي يتشتت. إنه سعيد هنا... أسعد من أي مكان آخر. أشعر بالسعادة أيضاً. ما زال هذا الشعور غير مألوفاً عندي.

لم يقبّلني منذ تلك الليلة الأولى.... عندما صرخت لحظة عثوري على تلك الندبة في رقبته. أليس راغباً في تقبيلي من جديد؟ هل عليّ أن أقبّله؟ ماذا لو كان لا يحب ذلك؟

نظر إليّ ثم ابتسم. صارت الخطوط المحيطة بعينيه أثلاماً صغيرة. هل هو وسيم حقاً كما أراه، أم أن هذا بسبب كونه الشخص الوحيد الباقي في العالم كله إضافة إلى جيمي... وإضافة إليّ أنا؟

لا، لا أظن ذلك. إنه جميل حقاً.

سألني: «فيمَ تفكرين يا ميلاني؟ يبدو عليك التركيز على شيء شديد الأهمية». راح يضحك.

رفعت كتفي فسمعت قرقعة معدتي: «المكان جميل هنا».

راح ينظر من حولنا: «نعم. لكن، أليس موطن المرء جميلاً دائماً؟».

«موطن». رددت تلك الكلمة من بعده بصوت هادئ. «موطن».

«موطنك أنت أيضاً، إذا أردت ذلك».

«أريد ذلك». بدا لي أن كل المسافات التي مشيتها في الماضي، في السنوات الماضية الثلاث، كانت متجهة إلى هذا المكان. ما كنت راغبة في مغادرته أبداً رغم معرفتي أن علينا أن نغادره. إن الطعام لا ينمو على الأشجار. لا ينمو على أشجار الصحراء على أقل تقدير!

شد على يدي فقفز قلبي من جديد مصطدماً بأضلاعي. إنها أشبه بالألم... هذه السعادة!

أحسست بشيء غير واضح عندما تجاوزت ميلاني هذه النقطة ومضت قدماً. راحت أفكارها ترقص عبر ذلك اليوم الحار ولم تتوقف إلى أن مرت ساعات على غروب الشمس خلف جدران ذلك الوادي. مضيت

وحيدة. كنت شبه منومة مغناطيسياً بفعل الطريق الذي لا نهاية له. الطريق الذي راح يمتد أمامي. وتلك الأجمات الصحراوية اليابسة التي تطير بتماثل يخدر الذهن.

استرقت النظر إلى غرفة النوم الضيقة الصغيرة. كان الفراش الكبير لا يبعد إلا سنتمترات قليلة عن الجدار الحجري الخشن الذي يحف به من الجانبين.

منحني هذا إحساساً غنياً بالفرحة لرؤية جيمي نائماً على فراش حقيقي... لرؤية رأسه مرتاحاً على وسادة طرية. كانت ذراعاه وساقاه الطويلتان ممتدة كلها. لم تترك لي إلا حيزاً ضيقاً أنام فيه. إن جيمي أكبر كثيراً في الواقع مما اعتدت النظر إليه في عقلي. كاد يبلغ العاشرة من عمره. وسرعان ما يكف عن كونه طفلاً. لكنه سيظل دائماً طفلاً في نظري.

كان تنفس جيمي منتظماً... إنه يغط في نوم عميق. ما كان في أحلامه أثر للخوف... في هذه اللحظة على الأقل.

أغلقت الباب بهدوء وعدت إلى حيث كان جارد في انتظاري.

همست: «شكراً لك». همست رغم معرفتي أن صراخي بهاتين الكلمتين لن يوقظ جيمي الآن. «هذا سيئ. هذا الفراش قصير جداً عليك. ربما كان عليك تقاسم الفراش مع جيمي».

ضحك جارد: «ميلاني، لست أقصر مني إلا بسنتمترات قليلة. نامي وارتاحي، لمرة واحدة على الأقل. عندما أذهب في المرة القادمة سأسرق لنفسي فراشاً أو شيئاً من هذا القبيل».

لا أحب هذا... لأسباب كثيرة. هل سيذهب قريباً؟ هل يأخذنا معه عندما يذهب؟ وهل يعتبر هذه المهمة مهمة دائمة بالنسبة له؟

وضع ذراعه على كتفي وشدني إلى جانبه. اقتربت منه رغم أن حرارة ملامسته جعلت قلبي يؤلمني من جديد.

سألني: «لماذا تعبسين؟».

«متى سيكون عليك... متى سيكون علينا أن نغادر من جديد؟».

رفع كتفيه: «لقد سرنا مسافة طويلة. ربما نبقى هنا عدة أشهر. أستطيع القيام ببعض الغارات القصيرة إذا كنت تريدين البقاء في مكان واحد بعض الوقت. أنا واثق من أنك تعبت من الجري المستمر».

وافقته: «نعم، لقد تعبت». استنشقت نفساً عميقاً حتى أستجمع شجاعتي: «لكن إذا ذهبت فسوف أذهب أيضاً».

شدني إليه بقوة أكبر: «عليّ أن أعترف... أفضّل أن يكون الأمر هكذا. إن فكرة الابتعاد عنك...» ضحك بهدوء. «هل يبدو جنوناً مني القول إنني أفضّل الموت على ذلك؟ هل هذه مبالغة؟».

«لا، أعرف ما تقصده».

لا بد أنه يشعر كما أشعر. أتراه يقول هذه الكلمات لو كان يعتبرني مجرد بشري آخر، لو كان لا يراني امرأة؟

أدركت أن هذه هي المرة الأولى التي نكون وحدنا حقاً منذ ليلة لقائنا. إنها المرة الأولى التي يكون الباب مغلقاً بيننا وبين جيمي النائم. لقد بقينا مستيقظين عدة ليالٍ... كنا نتحدث همساً... كنا نحكي قصصنا... القصص السعيدة والقصص المخيفة، لكن رأس جيمي النائم كان في حضني دائماً. إن ذلك الباب البسيط المغلق الآن يجعل أنفاسي أسرع من المعتاد.

«لا أظن أنك في حاجة إلى العثور على فراش جديد... ليس بعد».

أحسست بعينيه تنظران إليّ، متسائلتين، لكنني لم أكن قادرة على مواجهتهما. أشعر بالإحراج الآن، لكن الوقت تأخر. لقد نطقت بتلك الكلمات.

«سوف نبقى هنا حتى ينتهي ما لدينا من طعام، فلا تقلقي. لقد نمت في الماضي على أشياء أسوأ من هذا الفراش البائس».

قلت وأنا ما أزال مطرقة الرأس: «ليس هذا ما كنت أقصده».

«نامي في الفراش يا ميلاني. لا يزعجني هذا».

«ليس هذا قصدي أيضاً». كان صوتي هامساً. «قصدت أن هذا الفراش الصغير كافٍ بالنسبة لجيمي. لن يصبح صغيراً عليه قبل انقضاء وقت طويل. يمكنني تقاسم الفراش الكبير معك».

حل صمت قصير. أردت أن أرفع نظري إليه، أن أقرأ تعبير وجهه، لكني كنت خائفة جداً. ماذا لو استاء من كلامي؟ كيف أتحمل هذا؟ هل يجعلني أذهب من هنا؟

أحسست بأصابعه الصلبة ترفع ذقني إلى الأعلى. قفز قلبي عندما التقت أعيننا.

«ميلاني، أنا...» اختفت الابتسامة من وجهه هذه المرة.

حاولت إبعاد نظري لكنه ظل ممسكاً بذقني حتى لا تفلت عيناي من عينيه. ألا يشعر بالنار التي بين جسده وجسدي؟ هل أشعر بهذا وحدي؟ كيف يمكن أن يكون هذا شعوري وحدي؟ أشعر أن شمساً مربوطة بيننا... بكل حرارتها... مضغوطة مثل وردة بين دفتي كتاب سميك... وردة تحرق ورق الكتاب. هل يبدو هذا الشعور شيئاً آخر بالنسبة له؟ شيئاً سيئاً؟

بعد لحظة استدار رأسه. إنه من يشيح بوجهه الآن... ما زال ممسكاً ذقني بأصابعه. كان صوته هادئاً: «لست مدينة لي بذلك يا ميلاني. لست مدينة لي بأي شيء على الإطلاق».

أحسست بصعوبة في ابتلاع ريقي: «لست أقول... لم أقصد أنني أحسّ نفسي مدينة لك. و... لا يجوز لك أن تحس بذلك أيضاً. انسَ أنني قلت أي شيء».

«صعب أن أنسى يا ميلاني».

تنهد... ثم وددت لو أختفي! وددت لو أستسلم... وددت لو يستولي الغزاة على عقلي إن كان ذلك يمكن أن يريحني من هذا الاضطراب الفظيع. وددت لو أبيع المستقبل كله مقابل الدقيقتين الأخيرتين... أي شيء!

أخذ جارد نفساً عميقاً. راح يحدق في الأرض. كانت عيناه جامدتين، وكذلك كان وجهه: «ميلاني، ليس من الضروري أن يكون الأمر على ذلك النحو. ليس لمجرد أننا موجودان معاً، ليس لمجرد أننا آخر رجل وامرأة على وجه الأرض...» راح يكافح باحثاً عن الكلمات. كان ذلك شيئاً لا أظن أنني رأيته يفعله من قبل. «لا يعني هذا أنك مضطرة لفعل شيء لا تريدين فعله. لست ذلك النوع من الرجال... لست مضطرة إلى...».

بدا شديد الاضطراب والانزعاج. ما زال عابساً مشيحاً بوجهه عني. وجدت نفسي أتكلم رغم معرفتي أن ذلك كان خاطئاً حتى قبل أن أبدأ الكلام: «ليس هذا ما كنت أقصده. لست أتكلم عن الاضطرار أو عن الواجب. ولست أظن أنك ذلك النوع من الرجال. لا. طبعاً لا. الأمر هو...».

الأمر هو أنني أحبه. شددت على أسناني قبل أن أفلح في إذلال نفسي أكثر مما فعلت. عليّ أن أعض لساني الآن قبل أن أدمر كل شيء.

سألني: «ماذا...؟».

حاولت هز رأسي لكنه ما زال ممسكاً بذقني بين أصابعه المحكمة.

«ماذا يا ميلاني؟».

أفلتّ من قبضته وهززت رأسي بعنف.

مال مقترباً مني. صار وجهه مختلفاً على نحو مفاجئ. رأيت في تعبير وجهه نزاعاً جديداً لم أدركه. ورغم أنني لم أفهمه على نحو كامل فقد محا ذلك التعبير إحساسي بالرفض. ذلك الإحساس الذي جعلني أشعر بوخز في عيني.

تمتم يقول: «تحدّثي معي... أرجوك!». أحسست بأنفاسه عند خدي... مرت لحظات كثيرة قبل أن أتمكن من التفكير.

جعلتني عيناه أنسى أنني فضلت الموت قبل قليل، أنسى أنني أردت ألا أتكلم أبداً.

همست: «لو كان لي أن أختار اي شخص، اي شخص على الإطلاق، لأكون معه في كوكب صحراوي مهجور، لكان ذلك الشخص هو أنت». ازدادت حرارة الشمس بيننا. «أريد أن أكون معك دائماً. لا أن أتكلم إليك... فحسب! عندما تلمسني...» تجرأت فجعلت أصابعي تمسد جلد ذراعه الحار فأحسست أن اللهب ينبثق من أطراف تلك الأصابع الآن. اشتد ضغط ذراعه من حولي. هل يشعر بهذه النار؟ «لا أريدك أن تتوقف». اريد ان أكون أكثر تحديداً، لكنني لا أستطيع العثور على الكلمات. هذا يكفي! يكفي أنني استطعت الاعتراف بهذا القدر. «إن كنت لا تشعر بمثل شعوري فأنا أفهم ذلك. لعل الأمر ليس نفسه بالنسبة لك. لا بأس». إنها أكاذيب!

تنهَّد في أذني: «آه يا ميلاني». شد وجهي فصار مقابل وجهه.

في شفتيه مزيد من اللهب. لهب أشد ضراوة مما كان قبله. لهب مضطرم. لم أعرف ما الذي كنت أفعله، لكن ذلك لم يبدُ مهماً إطلاقاً. صارت كفه على شعري... أوشك قلبي على الانفجار. لا أستطيع التنفس. لا أريد أن أتنفس!

لكن شفتيه تحركتا صوب أذني. أمسك وجهي عندما حاولت العثور عليه من جديد.

«إنها أعجوبة... أكثر من أعجوبة... عندما وجدتك يا ميلاني. الآن، في هذه اللحظة، إذا أتيح لي الاختيار بين عودة العالم كما كان وبين وجودك معي لما كنت قادراً على التخلي عنك. لن أستطيع ذلك حتى من أجل إنقاذ خمسة مليارات إنسان».

«هذا غير صحيح!».

«غير صحيح إطلاقاً، لكنه حقيقي».

همست: «جارد!». حاولت الوصول إلى شفتيه من جديد. لكنه ابتعد عني، كأنه يريد أن يقول شيئاً. ماذا يمكن أن يقال أكثر من هذا؟

«لكن...».

«لكن؟» كيف يمكن أن توجد كلمة لكن الآن؟ ما الذي يمكن أن يأتي بعد هذه النار كلها فيبدأ بكلمة لكن؟

«لكن، أنت في السابعة عشرة يا ميلاني. وأنا في السادسة والعشرين».

«ما علاقة هذا بأي شيء؟».

لم يجبني. راحت يداه تمسدان ذراعي بحركة بطيئة... راحتا تنثران النار فوق ذراعي.

«لا بد أنك تحاول خداعي». ملت إلى الخلف باحثة عن وجهه. «هل يشغل توافق العمر بالك بعد أن تجاوزنا نهاية العالم؟».

بلع ريقه بصوت مرتفع قبل أن يتكلم: «ثمة سبب لأكثر ما يتفق عليه الناس يا ميلاني. سوف يشعرني هذا بأنني شخص سيّئ، كأنني شخص يستغل الظروف. ما زلت فتية جداً».

«ما عاد أحد فتياً على الإطلاق! كل من عاش وبقي بعد هذا كله صار عجوزاً».

ظهر طيف ابتسامة عند زاوية فمه: «لعلك محقة! لكننا لسنا مضطرين إلى الاستعجال في هذا الأمر».

سألت بإلحاح: «وما هي أسباب الانتظار؟».

تردد لحظة طويلة... كان يفكر: «ثمة سبب واحد على الأقل. ثمة أمور... عملية لا بد لنا من التفكير فيها».

هل يبحث عن شيء يلهيني به؟ يحاول إيقافي به؟ هذا ما يبدو! رفعت حاجبي. لا أصدق المنعطف الذي مضى فيه حديثنا. إذا كان راغباً فيّ حقاً، فهذا كلام لا معنى له.

راح يشرح لي متردداً: «انظري!». تحت الاسمرار العميق الذي يعلو جلده بفعل الشمس... بدا انه يحمرُّ خجلاً: «عندما كنت أجهِّز هذا المكان، ما كنت أخطط لاستقبال... ضيوف. ما اقصده هو...» ثم اتت بقية جملته مندفعة «كانت موانع الحمل شيئاً لم يخطر في بالي».

تغضن جبيني: «أوه!».

اختفت الابتسامة من وجهه وحلّت محلها لمحة من الغضب للحظة قصيرة. كانت شيئاً لم أره في وجهه من قبل. جعلته يبدو خطيراً على نحو ما... على نحو لم أتصوّره قادراً عليه.

«لا اريد أن أجلب طفلاً إلى هذا العالم».

غاصت كلماته في عقلي. انكمش جسمي عندما فكرت في طفل ضئيل بريء يفتح عينيه في هذا المكان. يكفيني سوءاً أن أنظر إلى عيني جيمي، أن أعرف ما الذي ستجلبه هذه الحياة له، حتى في أفضل الظروف التي يمكن توقعها.

عاد جارد إلى طبيعته على نحو مفاجئ. عاد جارد من جديد! تغضّن جلد وجهه حول عينيه: «هذا إضافة إلى أن لدينا وقتاً كثيراً حتى... حتى نفكر في الأمر». توقف من جديد، فشككت. «هل تدركين كم هو قليل... قليل جداً... الوقت الذي مر على وجودنا معاً؟ إنها أربعة أسابيع منذ وجد أحدنا الآخر».

أدهشني هذا: «غير ممكن».

«تسعة وعشرون يوماً... إنني أحصيها!».

عدت بتفكيري إلى الوراء. يستحيل ألا تكون إلا تسعة وعشرين يوماً منذ غيّر جارد حياتنا. أحس أننا موجودون مع جارد منذ سنتين... ثلاث سنوات... ربما.

قال جارد من جديد: «لدينا وقت كثير».

انتابني ذعر مفاجئ... شيء مثل إنذار غير متوقع جعلني غير قادرة على الكلام لوقت كثير. راح جارد يراقب تغير تعبير وجهي... يراقب عينيّ الخائفتين.

«أنت لا تعرف ذلك». عاد ذلك القنوط الذي خفّت وطأته عندما وجدني... عاد فأصابني مثل ضربة سوط: «أنت لا تعرف كم سيتاح لنا من الوقت. أنت لا تعرف إن كان لدينا أشهر أو أيام أو ساعات».

أطلق جارد ضحكة دافئة ومس بشفتيه ذلك المكان المتوتر حيث التقى حاجباي: «لا تقلقي يا ميلاني. إن العجائب لا تحدث على ذلك النحو. لن أفقدك أبداً. لن أدعك أبداً تبتعدين عني».

أعادتني ميلاني إلى الواقع. إلى ذلك الطريق الضيق الممتد أمامي عبر صحراء أريزونا. الطريق الذي تشويه شمس الظهيرة الحادة. أعادتني من دون أن أختار العودة. رحت أحدّق في الفراغ الذي أمامي وأحسست بذلك الفراغ في داخلي.

أطلقت أفكارها تنهيدة خافتة في رأسي: «أنت لا تعرفين أبداً كم بقي لي من الوقت».

كانت الدموع التي ذرفتُها تخصُّنا كلتينا. معاً.

## الفصل التاسع

# اكتشاف

قدت السيارة مسرعة على الطريق رقم (I-100). صارت الشمس خلفي. ما كنت أرى أشياء كثيرة. إلا الخطوط الصفراء والبيضاء على الرصيف، ولافتة خضراء كبيرة تشير في اتجاه الشرق. كنت في عجلة من أمري الآن.

لكني لا أدري تحديداً ما الذي كنت أسرع من أجله. كنت أسرع للخلاص من هذا كله، كما أعتقد. للخلاص من الألم، من الحزن، من التوجّع من أجل الحب اليائس الضائع. هل يعني هذا أنني كنت أستعجل الخلاص من هذا الجسد؟ لم أستطع التفكير في أي إجابة أخرى. ما زلت مصممة على طرح أسئلتي على المعالج، لكني أحسست أن القرار قد اتخذ. جبانة! منسحبة! رحت أختبر هذه الكلمات في ذهني محاولة التآلف معها.

لو استطعت إيجاد طريقة لأبقيت ميلاني بعيدة عن متناول الباحثة. سيكون هذا شديد الصعوبة. لا، بل هو مستحيل.

سوف أحاول.

وعدتها بهذا، لكنها ما كانت تصغي. ما زالت نائمة. قلت في نفسي إنها استسلمت. الآن، بعد أن تأخر الوقت على الاستسلام!

حاولت إفراغ رأسي من صورة الوادي الأحمر التي تملأ ذهنها، لكني كنت هناك أيضاً. مهما حاولت رؤية تلك السيارات التي تجتازني مسرعة، والطائرات التي تنزلق هابطة صوب المطار، والغيوم القليلة

البيضاء التي تسوقها الريح من فوقي، ما كنت قادرة على التحرر من أحلامها تحرراً كاملاً. تذكرت وجه جارد من ألف زاوية وزاوية. ورأيت جيمي يكبر، لكنه ظل جلداً على عظم. تألّمت لكليهما. كان الألم أكثر حاداً. كان جارحاً عنيفاً. كان غير محتمل. عليّ الخروج من هذا كله!

قدت السيارة على نحو شبه أعمى عبر الطريق المجاني الضيق. كانت الصحراء أكثر رتابة وموتاً من أي وقت مضى. كانت أكثر انبساطاً وأكثر خلواً من الألوان. سوف أصل إلى توكسون قبل وقت العشاء بزمن طويل. العشاء! لم آكل شيئاً طوال هذا اليوم. قرقعت معدتي عندما أدركت ذلك. سوف تكون الباحثة في انتظاري هناك. تشنجت معدتي وسرعان ما حل الغثيان محل الإحساس بالجوع. وبحركة تلقائية خففتُ قدمي ضغطها على دواسة الوقود.

راجعت الخريطة التي بسطتها على المقعد المجاور. سأصل قريباً إلى نقطة في مكان اسمه قمة بيكاشو. ربما أقف فأتناول شيئاً من الطعام هناك. ربما أؤجل رؤية الباحثة بضع لحظات ثمينة.

عندما لفظت في ذهني هذا الاسم غير المألوف، قمة بيكاشو، أحسست بردّ فعل متوتر غريب تصدر عن ميلاني. لم أفهم ردّ فعلها. هل كانت هنا ذات يوم؟ بحثت عن أي ذكرى، عن مشهد. أو عن رائحة توافق هذا الاسم، لكني لم أجد شيئاً. قمة بيكاشو. من جديد، أحسست بوخزة الاهتمام الذي كانت ميلاني تحاول كبته. ما معنى هاتين الكلمتين عندها؟ تراجعت ميلاني إلى ذكرياتٍ بعيدة. تجنّبتني.

أثار هذا الأمر فضولي. زدت سرعة السيارة قليلاً لعل مشهد المكان يثير ذكرياتها

رأيت قمة جبل تقف وحيدة منفردة. لم تكن كبيرة بالمقاييس المعتادة، لكنها كانت مشرفة على تلال منخفضة خشنة أكثر قرباً إلى الطريق. كان شكلها قد بدأ في التكوّن عند خط الأفق. كان لها شكل

مميز غير مألوف. وكانت ميلاني تراقبها بينما رحنا نقترب منها. كانت تتظاهر بعدم الاكتراث لمرآها.

لماذا تتظاهر بعدم الاكتراث رغم اهتمامها الواضح بها؟ فوجئت بقوّتها عندما حاولت فهم الأمر. لم أستطع رؤية أي طريق يفضي إلى ما خلف ذلك الجدار العازل القديم الخالي من أي فتحة. بدا لي الجدار أكثر سماكة الآن، الجدار الذي ظننته قد زال تقريباً.

حاولت تجاهلها، ما كنت أود التفكير في ذلك. في أنها تزداد قوة. بدلاً من ذلك، رحت أنظر إلى قمة الجبل متابعة خطوطها على خلفية السماء الشاحبة الحارة. كان في هذه القمة شيء مألوف، شيء أعرفه، لكني كنت متأكدة من أن أحداً منا لم يكن هنا من قبل.

وعلى نحو يكاد يكون محاولة منها لإلهائي، فاجأتني ميلاني بذكرى حية. ذكرى عن جارد.

كنت أرتجف في سترتي وأمعن النظر لأرى توهج الشمس الخافت يكاد يتلاشى خلف الأشجار الكثيفة الخشنة. قلت لنفسي إن الجو ليس بارداً بقدر ما أظن. كل ما في الأمر هو أن جسدي غير معتاد عليه.

لم تجفلني اليدان اللتان استقرتا على كتفي فجأة رغم خوفي من هذا المكان غير المألوف. لم أسمع وقع خطواته المقتربة، لكن هذا الوزن على كتفي مألوف تماماً.

«ما أسهل أن يتسلل المرء فيفاجئك!».

ظهرت الابتسامة في صوته، حتى في هذا الوقت.

قلت من دون أن ألتفت: «رأيتك قادماً قبل أن تخطو خطوتك الأولى. إن لدي عينين في مؤخرة رأسي».

داعبتْ أصابعه الدافئة وجهي من صدغي حتى ذقني... كانت تنثر النار على جلدي.

همس في أذني: «تبدين مثل حورية مختبئة بين هذه الأشجار.

واحدة من الحوريات، جميلة جداً إلى حد يجعلها خيالية».

«علينا أن نغرس مزيداً من الأشجار حول هذا الكوخ».

ضحك فجعلني صوت ضحكته أغمض عينيّ وجعل شفتيّ تبتسمان.

قال: «هذا غير ضروري فأنت تبدين مثل الحورية دائماً».

«هذا ما يقوله آخر رجل على الأرض لآخر امرأة على الأرض عشية فراقهما».

تلاشت ابتسامتي مع كلماتي هذه. لا يمكن للابتسامات أن تستمر اليوم.

تنهد. كانت أنفاسه على خدي دافئة بالمقارنة مع هواء الغابة البارد.

«ربما يكره جيمي هذه الفكرة».

«ما زال جيمي صبياً. أرجوك، أرجوك حافظ على سلامته».

قال مقترحاً: «سأعرض عليك صفقة: حافظي على سلامتك وسوف أبذل كل ما أستطيع للمحافظة على سلامته. أما بغير هذا فنحن لسنا متفقين على شيء».

إنها نكتة لا أكثر. لكني لا أستطيع تقبلها بسهولة. ما من ضمانات عندما نفترق. قلت مصرّة: «حافظ عليه مهما حدث».

«لن يحدث شيء فلا تقلقي». كانت هذه الكلمات من غير معنى تقريباً. كانت جهداً ضائعاً. لكني أحب سماع صوته مهما تكن الكلمات.

«لا بأس!».

أدارني فجعلني أواجهه فأسندت جبيني إلى صدره. لا أعرف بأي شيء يمكنني تشبيه رائحته. إنها رائحته هو، رائحة فريدة مثل فرادة رائحة صمغ الصنوبر أو مطر الصحراء.

قال يعدني: «لن يفقد أحدنا الآخر. سوف أجدك من جديد... دائماً». وبما أنه جارد فهو لا يستطيع المحافظة على الجدية التامة أكثر من لحظات قليلة. «مهما اختبأت فسوف أعثر عليك فأنا ماهر في لعبة الاختباء والبحث».

«وهل تعدَ لي حتى العشرة؟».

«نعم، لكن لا تسترقي النظر».

غمغمت: «اتفقنا». كنت أحاول إخفاء الدموع في صوتي.

«لا تخافي. سوف تكونين بخير. أنت قوية، أنت سريعة، وأنت ذكية أيضاً». إنه يحاول إقناع نفسه أيضاً.

لماذا أتركه؟ إن احتمال بقاء شارون بشرية حتى اليوم ضعيف جداً.

لكني عندما رأيت وجهها في الأخبار تأكدت من الأمر تماماً.

كانت تلك غارة عادية، واحدة من آلاف الغارات. وكالمعتاد، عندما كنا نشعر بالقدر الكافي من العزلة ومن الأمان كنا نشغل التلفزيون أثناء إفراغ محتويات البراد وغرفة المؤونة. من أجل معرفة أحوال الطقس على الأقل فما من شيء مسلٍّ في التقارير المملة حتى الموت التي تقول إن كل شيء على ما يرام... تلك التقارير التي يعتبرها الطفيليون نشرة أخبار. كان شعرها هو ما لفت انتباهي... تلك النفحة من اللون الأحمر العميق، شبه الوردي... ذلك اللون الذي لم أره عند أحد غيرها.

ما زلت أرى تلك النظرة على وجهها عندما راحت تختلس النظر إلى الكاميرا من زاوية عينها. تلك النظرة التي تقول: أحاول أن أكون غير مرئية... لا تروني! كانت تسير بخطوة أقل بطئاً مما يجب... وكانت تبذل جهداً كبيراً للمحافظة على مشيتها العادية... كانت تحاول يائسة أن تذوب بين الجموع.

لن يشعر أحد من سارقي الأجساد بتلك الحاجة لديها.

ما الذي تفعله شارون عندما تتجول وهي ما تزال بشرية في مدينة كبيرة مثل شيكاغو؟ هل هناك أحد غيرها؟ لم تبد لي محاولة العثور عليها مسألة اختيار في حقيقة الأمر. قد يكون في المدينة بشر غيرها، ولا بد لنا من تحديد مكان وجودهم.

كان عليّ أن أذهب وحدي. سوف تهرب شارون من أي شخص، إلا

مني أنا. سوف تهرب مني أيضاً، لكنها قد تتوقف لحظة وتسمح لي بتفسير الأمر لها. أنا واثقة من أنني أعرف مكان اختبائها السري.

سألته بصوت جامد: «وماذا عنك؟». لست واثقة من قدرتي الجسدية على احتمال هذا الفراق الوشيك. «هل ستحافظ على سلامتك؟».

«لا تستطيع الجنة، ولا يستطيع الجحيم، إبعادي عنك يا ميلاني».

ومن غير أن تتيح لي ميلاني فرصة ألتقط فيها أنفاسي أو أمسح الدموع من عيني، رمتني بذكرى أخرى.

جيمي يتكور تحت ذراعي. لا يتسع له المكان كما كان يتسع قبل فترة. كان عليه الآن أن يطوي جسمه، لكن أطرافه الطويلة ظلت بارزة في زوايا حادة. لقد بدأت ذراعاه تتصلبان وتظهر العضلات فيهما، لكنه طفل في هذه اللحظة، طفل مرتجف يكاد يطلب الأمان. إن جارد يضع الأشياء في السيارة. ما كان جيمي ليسمح بظهور هذا الخوف لو كان جارد موجوداً. يريد جيمي أن يكون شجاعاً... أن يكون مثل جارد.

همس لي: «أنا خائف».

قبّلت شعره الأسود بلون الليل. حتى هنا، بين الأشجار الحادة التي تفوح برائحة الصمغ، كانت رائحة شعره رائحة غبار وشمس. أحسست أنه جزء مني وأن فراقنا سيمزّق جلدي في موضع اتصالنا.

كان عليّ أن أبدو شجاعة سواء كنت أشعر بالشجاعة أو لا: «سوف تكون بخير مع جارد».

«أعرف هذا، لكنني خائف عليك. خائف من احتمال عدم عودتك. مثل أبي».

ارتعشت. عندما لم يعد أبي (لقد عاد في واقع الأمر، لكنه عاد حتى يرشد الباحثين إلينا) شعرت بأكبر خوف، بأكبر رعب، بأكبر ألم، في حياتي. هل أفعل بجيمي كما فعل أبي بنا؟

«سوف أعود. سوف أعود دائماً».

قال من جديد: «أنا خائف».

أما أنا، فعليّ أن أكون شجاعة.

«أعدك بأن كل شيء سيكون على أحسن ما يرام. سوف أعود. أعدك بهذا. أنت تعرف أنني لا أخلف وعدي يا جيمي. لا أخلف وعداً قطعته لك».

خفّ ارتجافه. إنه يصدقني... يثق بي.

ثم أتتني ذكرى أخرى:

أستطيع سماعهم في الطابق الذي تحتي. سوف يعثرون عليّ بعد دقائق، بعد ثوانٍ. كتبت كلمات على ورقة قذرة ممزقة من جريدة. كلمات غير مقروءة تقريباً. لكنه سوف يفهمها إذا وجد هذه الرسالة:

لم تكن سرعتي كافية. أحبك وأحب جيمي. لا تذهب إلى البيت.

لم يكفني أنني حطّمت قلبيهما... لقد حرمتهما الملجأ أيضاً. أتخيل كوخنا الصغير في الوادي، أتخيله مهجوراً، كما يجب أن يبقى من الآن فصاعداً. أتخيله قبراً إذا لم يهجراه. أرى جسدي يرشد الباحثين إليه. وأرى وجهي مبتسماً عندما نمسك بهما هناك...

«هذا يكفي»، قلتها بصوت مرتفع وأنا أتلوى تحت سياط الألم. «هذا يكفي! لقد فهمتك. وأنا أيضاً لا أستطيع العيش من دونهما الآن. هل يجعلك هذا سعيدة؟ إنه لا يترك لي خيارات كثيرة، ألا تفهمين؟ إنه خيار وحيد. أن أتخلص منك! هل تريدين أن تحل الباحثة محلي في جسدك؟ يا للقرف!». أرعبتني تلك الفكرة كأن الباحثة ستتخذ من جسدي أنا مضيفاً لها.

قالت ميلاني بنعومة: ثمة خيار آخر.

سألتها بتهكم واضح: «حقاً؟ دعيني أراه إذاً».

انظري لتري.

كنت أواصل التحديق في قمة الجبل. كانت تلك القمة مهيمنة على المشهد كله. كانت اندفاعاً مفاجئاً للصخور المحاطة بأرض مستوية. لكن ميلاني جعلت عينيَّ تنظران إلى الأفق البعيد تحاولان رؤية قمة من شعبتين غير متساويتين.

انعطاف بسيط، ثم انعطاف حاد إلى الشمال، ثم انعطاف مفاجئ آخر إلى الجهة الأخرى، ثم درب متعرج يعود إلى الشمال بمسافة أطول، ثم ذلك الانحدار الجنوبي الشديد الذي ينتهي بمنعطف ضحل آخر.

لم يكن ذلك شمالاً ولا جنوباً كما كنت أراه في ذكرياتها. لقد كان صعوداً وهبوطاً.

رأيت الخطوط الرئيسية لقمة جبل.

إنها الخطوط المؤدية إلى جارد وجيمي. كان هذا هو الخط الأول، نقطة البدء.

أستطيع العثور عليهما.

صححت ميلاني قولي: «نستطيع العثور عليهما فأنت لا تعرفين الاتجاهات كلها. لم أعطك كل شيء، تماماً مثلما فعلت في ما يخص الكوخ».

«لست أفهم هذا. إلى أين يذهب هذا الطريق؟ وكيف يرشدنا الجبل؟». راحت نبضات قلبي تزداد سرعة عندما فكرت في الأمر: جارد قريب من هنا. جيمي في متناول يدي.

جعلتني ميلاني أرى الإجابة. من ذكرياتها!

«إنها مجرد خطوط. ليس العم جيب إلا معتوهاً عجوزاً. إنه معتوه مثل بقية أفراد أسرة أبي». حاولتُ انتزاع الكتاب من بين يدي جارد لكنه لم يعبأ بمحاولاتي بل لم يكد يلاحظها.

«هل هو معتوه مثل والدة شارون؟» ما زال يدرس خطوط قلم

الرصاص السوداء التي تشوّه غلاف ألبوم الصور العتيق. إنه الشيء الوحيد الذي لم أفقده خلال هذا الهرب كله. صرت أرى الآن قيمة عاطفية حتى في ما تركه العم جيب أثناء زيارته الأخيرة.

«فهمت هذا». إن كانت شارون حية، فذلك لأن أمها، العمة ماغي المجنونة، كانت تستطيع منح العم جيب لقب أكثر الأقارب جنوناً. لم يتأثر أبي بهذا الجنون إلا قليلاً. لم يكن لديه مخبأ سري في الفناء الخلفي أو في اي مكان آخر. أما البقية، إخوته وأخته، العمة ماغي والعم جيب والعم غاي، فكانوا شديدي التعلق بنظرية المؤامرة. لقد مات غاي قبل أن يختفي الآخرون أثناء الغزو. مات في حادث سيارة عادي جداً، عادي إلى درجة جعلت ماغي وجيب عاجزين عن تخيل وجود مؤامرة وراء ذلك.

كان أبي يشير إليهم دائماً بكلمة المجانين. وكان يقول مثلاً: «أظن أن الوقت قد حان لزيارة المجانين». عند ذلك تصدر امي أنيناً. كان أنينها هو ما جعل تلك الزيارات نادرة للغاية.

وفي واحدة من تلك الزيارات النادرة إلى شيكاغو، أخذتني شارون إلى وكر أمها. لقد أمسكت بنا... فهي تضع فخاخاً في كل مكان. تلقت شارون تعنيفاً شديداً. ومع أن العمة ماغي جعلتني أُقسم أن أكتم السر فقد كان عندي إحساس يقول إنها ستبني لنفسها مكاناً جديداً.

لكنني أتذكر المكان الأول. أتصور شارون هناك الآن تعيش حياة الطريدة في قلب مدينة معادية. علينا أن نجدها وأن نجلبها لتعيش معنا.

قاطعني جارد: «أولئك المعتوهون هم المرشحون للبقاء في هذه الظروف. الناس الذين كانوا يرون شبح الطغيان.. شبح الأخ الاكبر... عندما لم يكن موجوداً... الناس الذين كان لديهم شك في بقية بني البشر حتى قبل أن تصبح بقية بني البشر خطراً عليهم... الناس الذين كانت لديهم أماكن اختباء جاهزة». ما زال جارد يدرس الخطوط المرسومة. ثم صار صوته ثقيلاً: «الناس الذين هم مثل أبي. لو اختبأ أبي واشقائي بدلاً من أن يقاتلوا... إذاً لكانوا هنا الآن».

قلت بصوت رقيق بعد أن أحسست الألم في كلماته: «لا بأس، أنا متفقة مع النظرية. لكن هذه الخطوط لا تعني شيئاً».

«قولي لي مرة ثانية ما قاله عندما كان يرسم هذه الخطوط».

تنهدت: «كانا يتجادلان... والدي والعم جيب. كان عمي يحاول إقناعه بأن ثمة أمراً غير صحيح ويطلب منه عدم الثقة بأي شخص. ضحك أبي مبدّداً كل مخاوف شقيقه. أمسك عمي بألبوم الصور وبدأ يرسم، بل يحفر هذه الخطوط على غلافه بقلم الرصاص. جن جنون أبي وقال إن أمي ستغضب. فقال له عمي: لقد طلبت منكم والدة ليندا أن تأتوا جميعاً لزيارتها، أليس كذلك؟ شيء غريب... طلب مفاجئ! وقد انزعجت قليلاً عندما أتت ليندا وحدها؟ أقول لك الحقيقة يا أخي... لا أظن أن ليندا ستهتم بأي شيء عندما تعود. أوه... ربما تحاول تقليد ذلك، لكنك ستكون قادراً على إدراك الفرق. لم يبدُ لكلام عمي أي معنى في ذلك الوقت، لكن ما قاله أزعج أبي حقاً. لقد طرد عمي من البيت. ما كان عمي يريد الذهاب في البداية فقد ظل يحذرنا من الانتظار حتى يفوت الأوان. لقد أمسك بكتفي وشدني إلى جانبه قائلاً: لا تسمحي لهم بالنيل منك يا حبيبتي. ثم همس لي: اتّبعي هذه الخطوط. ابدئي عند البداية ثم اتّبعي الخطوط. إن عمك جيب يحتفظ بمكان آمن من أجلك. وعند ذلك قذف به أبي خارج الباب».

أومأ جارد برأسه شارد الذهن... ما زال يدرس الخطوط: «البداية... البداية... لا بد أن لهذه الكلمة معنى».

«هل لها معنى حقاً؟ إنها خربشة لا أكثر يا جارد. إنها لا تشبه الخريطة، بل هي خطوط غير متصلة أصلاً».

«لكن ثمة شيئاً في الخط الأول رغم ذلك. فيه شيء مألوف. أكاد أقسم أنني رأيته في مكان ما قبل الآن».

تنهدت: «لعله أخبر العمة ماغي. لعلها تعرف الاتجاهات على نحو أفضل».

قال جارد: «ربما». ثم واصل التحديق في خربشات العم جيب.

جرّتني هذه الذكرى إلى الخلف في الزمن، إلى ذكرى أكثر قدماً بكثير، ذكرى أفلتت منها زمناً طويلاً. فوجئت عندما أدركت أنها لم تجمع هذه الذكريات معاً، الذكريات القديمة والذكريات الجديدة، إلا في وقت متأخر. بعد أن أتيت أنا. كان هذا السبب الذي سمح لتلك الخطوط بالانزلاق عبر رقابتها الحريصة رغم أنها من أهم أسرارها. كان هذا لأنها لم تكتشف الأمر إلا في وقت متأخر.

في هذه الذكرى القديمة المشوشة رأيت ميلاني جالسة في حضن والدها. وكان ذلك الألبوم نفسه مفتوحاً بين يديها. ما كان مشوهاً في ذلك الوقت. كانت يداها صغيرتين وأصابعها منتفخة قليلاً مثل أصابع جميع الصغار. غريب جداً أن تتذكر طفولتها في هذا الجسد!

كان الألبوم مفتوحاً على الصفحة الأولى.

سالني والدي مشيراً إلى صورة رمادية عتيقة في رأس الصفحة: «هل تتذكرين هذا المكان؟». بدت الصورة أرق من بقية الصور، كأنها مهترئة، بدت مسطحة كثيراً لأن جد جدي هو من التقطها.

أجبته مكررة ما علموني إياه: «إنه المكان الذي جئنا منه، نحن آل سترايدر».

«صحيح. إنها مزرعة سترايدر القديمة. لقد ذهبنا إليها ذات مرة، لكني أراهن أنك لا تتذكرين ذلك. أظن أن عمرك كان ثمانية عشر شهراً». ضحك أبي. «إنه طريق سترايدر منذ البداية...».

ثم جاءت ذكرى الصورة نفسها. صورة نظرت إليها ميلاني آلاف المرات من دون أن تراها حقاً. كانت باللونين الأبيض والأسود، وكانت باهتة، رمادية. كان فيها بيت خشبي صغير بعيد عند الناحية الأخرى من ذلك الحقل الصحراوي. وفي المقدمة ظهر سياج خشبي، وظهر أيضاً

عدد من الخيول بين السياج والبيت. ثم، خلف ذلك كله، ظهر شكل حاد مألوف.

وكان في الصورة أيضاً كلمات مكتوبة بقلم الرصاص عند حافة الصورة العليا البيضاء:

مزرعة سترايدر، 1904، في الظلال الصباحية لـ...

قلت بصوت هادئ: «قمة بيكاشو»

سوف يتمكن من استنتاج ذلك أيضاً حتى إذا لم يجدا شارون أبداً. أعرف أن جارد سيتمكن من حل اللغز. إنه أذكى مني، ثم إن لديه الصورة. لعله رأى الإجابة قبل أن أراها. لعله الآن قريب جداً مني...

جعلتها هذه الفكرة تمتلئ شوقاً وحنيناً وإثارة فزال الجدار الذي نصبته. زال تماماً.

رأيت الرحلة كلها الآن. رأيتها مع جارد وجيمي يجتازون البلاد متنقلين في الليل دائماً في سيارتهم المسروقة التي لا تثير الشبهات. استغرقت الرحلة عدة أسابيع. رأيت المكان الذي تركتهم فيه. في مستودع للأخشاب خارج المدينة. مكان شديد الاختلاف عن الصحراء الخالية التي اعتادوا العيش فيها. بدت الغابة الباردة التي سيختبئ فيها جارد وجيمي أكثر أماناً على نحو ما. لأن أغصانها كانت كثيفة تخفي ما خلفها عكس نباتات الصحراء التي لا تكاد تخفي شيئاً. لكن الغابة كانت أكثر خطورة أيضاً بسبب روائحها وأصواتها التي لم يألفاها.

ثم جاء الفراق. كان ذكرى مؤلمة تجاوزناها معاً، مرتعشتين. ثم جاء البناء المهجور الذي اختبأت فيه لتراقب المنزل المقابل منتظرة فرصتها. هناك، كانت تأمل العثور على شارون المختفية داخل الجدران أو في القبو السري.

قالت ميلاني: «ما كان يجوز أن أسمح لك برؤية هذا». كان خفوت صوتها الصامت في رأسي يوحي بشدة تعبها. لقد أرهقها هجوم

الذكريات، أرهقها الإقناع والقسر. «سوف تخبرينهم كيف يعثرون عليها. وسوف تقتلينها أيضاً».

قلت بصوت مرتفع: «نعم. عليّ أن أقوم بواجبي».

تمتمت بصوت ناعس: «لماذا؟ ما السعادة التي يجلبها ذلك لنفسك؟».

لم أقل شيئاً لأنني ما كنت أريد مجادلتها.

صار الجبل أكبر من قبل. صار أمامنا مباشرة. وسوف يصبح فوقنا بعد قليل. رأيت متجراً صغيراً قرب موقف للسيارات ورأيت مطعماً للوجبات السريعة وبجانبه مساحة إسمنتية. إنه مكان لوقوف البيوت المتحركة. كان عدد من يسكنون هنا قليلاً في هذه الفترة، لأن حرارة الصيف القادمة تجعل المكان غير مريح.

ماذا الآن؟ هل أتوقف من أجل وجبة غداء متأخرة. عشاء مبكر؟ هل أملأ خزان الوقود وأتابع طريقي إلى توكسون حتى أكشف المعلومات الجديدة أمام الباحثة؟

كانت الفكرة منفرة إلى حد جعلني أضغط فكيّ ضغطاً عنيفاً تحسباً للتقلص الشديد في معدتي. ضغطت على المكابح على نحو تلقائي فتوقفت السيارة وسط الطريق. كنت محظوظة؛ لم تكن خلفي سيارة وإلا لاصطدمت بي. وما كان على الطريق سائقون حتى يتوقفوا عارضين خدماتهم ومبدين اهتمامهم. كان الطريق فارغاً في هذه اللحظة. وكانت الشمس تجلد الرصيف بحرارتها فتجعله يتوهج، بل يختفي في بعض الأماكن.

لا يجوز أن أعتبر الأمر خيانة. إنه متابعة لمسيري الصحيح الملائم! ما كان في لغتنا الأولى، لغة الروح التي كنا نستخدمها وحدها في كوكبنا الأصلي، أي كلمة تقابل كلمة خيانة أو خائن. بل ما كان فيها كلمة تقابل كلمة ولاء! فلولا وجود المعنى المعاكس لما كان لكلمة الولاء نفسها أي معنى.

لكني أحسست بشعور كير بالذنب لمجرد تذكّري الباحثة. من الخطأ أن أعطيها ما أعرفه. هل هو خطأ حقاً؟ كيف؟ إذا توقفت هنا فأصغيت إلى الاقتراحات المغرية التي تعرضها مضيفتي فسوف أكون خائنة حقاً. هذا مستحيل. فأنا روح.

لكني كنت أعرف أيضاً أنني راغبة. راغبة بقوة أكثر من قوة أي شيء. أكثر من كل ما رغبت فيه في أي حياة عشتها من قبل. كانت صورة وجه جارد ترقص خلف أهدابي عندما أغلقتها لحظة أمام توهج الشمس. ما كانت هذه من ذكريات ميلاني الآن، بل هي ذكرياتي عن ذكرياتها! إنها لا ترغمني على شيء الآن. لا أكاد أستطيع الإحساس بوجودها في رأسي. إنها تنتظر. تنتظرني حتى أتخذ قراري.

لا أستطيع فصل نفسي عن رغبات هذا الجسد. إنه أنا. إنه أنا أكثر مما يفترض فيه أن يكون. هل هي رغبتي أنا أم رغبة هذا الجسد؟ وهل لهذا التفريق أي معنى بعد الآن؟

وفي مرآة السيارة الخلفية، رأيت التماع الشمس على زجاج سيارة بعيدة.

نقلت قدمي إلى دواسة الوقود وسرت ببطء حتى وصلت إلى المتجر الصغير القابع في ظل الجبل. ليس أمامي إلا شيء واحد أفعله.

## الفصل العاشر

# انعطاف

رن الجرس معلناً دخول زبون جديد إلى المتجر. تحركتُ شاعرة بالذنب وأخفيت رأسي خلف رف السلع التي كنا نتفحصها.

نصحتني ميلاني: «كُفّي عن تمثيل دور المجرمة».

أجبتها: «لست أمثّل».

أحسست بالبرد في راحتي يديّ المجللتين بالعرق. أحسست بالبرد رغم حرارة الغرفة. كانت الواجهة الواسعة تسمح بدخول مقدار كبير من أشعة الشمس، مقدار أكبر من استطاعة المكيف الذي يعمل بأقصى طاقته.

سألتها: «أي واحدة؟».

أجابتني: «أكبر واحدة».

أمسكت بالسلة القماشية، السلة الكبرى بين السلتين الموجودتين. بدت السلة قادرة على استيعاب أكثر مما أستطيع حمله. ثم سرت إلى الزاوية حيث اصطفت عبوات المياه على الرفوف.

قالت مقررة: «نستطيع حمل ثلاثة غالونات. تكفينا هذه الكمية ثلاثة أيام من البحث».

أخذتُ نفساً عميقاً محاولة القول لنفسي إنني لا أعتزم المضي في هذا الأمر. إنني أحاول الحصول على مزيد من المعلومات. لا أكثر. وعندما تكتمل المعلومات سأبحث عن أحد ما. عن أحد الباحثين، شخص يكون أقل عدوانية من الباحثة المكلفة بمتابعة أمري. ثم أعطيه

المعلومات كلها. إنني أحاول الحصول على المعلومات الكاملة. هكذا حدثت نفسي.

كانت محاولتي الخرقاء للكذب على نفسي بائسة إلى حد جعل ميلاني لا تُبدي أي اهتمام بها. لم تقلقها أبداً. لا بد أن الوقت تأخر كثيراً، تماماً كما أنذرتني الباحثة. ربما كان عليّ أن أذهب إلى شيكاغو بالطائرة.

زمجرت ميلاني: «هل تأخر الوقت كثيراً؟ هذا أملي! لا أستطيع أن أجعلك تفعلين شيئاً لا تريدين فعله. لا أستطيع حتى أن أرفع يدي!» كانت أفكارها أنيناً قانطاً.

نظرت إلى يدي المستندة إلى فخذي بدلاً من أن تمتد إلى عبوات الماء كما تريد ميلاني مني. أحسست بنفاد صبرها. برغبتها شبه اليائسة في أن تتحرك من جديد. أحسست برغبتها في الفرار من جديد كما أنني ما كنت إلا انقطاعاً عابراً لحياتها المعتادة. فصلاً غريباً من فصول حياتها صار خلفها الآن.

سمعت في رأسي صوتاً يشبه نخرة احتقار. ثم عادت تستحثني: «هيا، دعينا ننطلق! سوف يحل الظلام قريباً».

تنهدتُ وسحبتُ عبوة ماء كبيرة عن الرف. كادت تسقط من يدي لولا تمكني من الإمساك بها عند حافة الرف السفلي. أحسست بذراعي تنخلع من مكانها.

قلت بصوت مسموع: «هل تمزحين معي؟».

«اخرسي!».

«عفواً؟». قالها رجل قصير. إنه الزبون الجديد الواقف الآن عند الطرف الآخر من الممر.

غمغمت دون أن أكترث لنظراته المتسائلة: «آه. لا شيء. هذه العبوة أثقل مما توقعت».

قال: «هل تريدين مساعدة؟».

أجبته مسرعة: «لا، لا سوف آخذ عبوة أصغر».

عاد الرجل إلى اختيار كيس من رقائق البطاطا.

قالت ميلاني مؤكدة: «لا، لن تأخذي عبوة أصغر. لقد حملت فيما مضى أحمالاً أثقل من هذا الحمل». ثم أضافت كأنها تريد إزعاجي: «أم أنك جعلتنا أكثر ضعفاً أيتها الجوالة!».

أجبتها دونما انتباه، كأنني فوجئت باستخدامها اسمي للمرة الأولى: «آسفة!».

«احملي الوزن بساقيك».

حملت عبوة الماء بصعوبة. ما المسافة التي يفترض بي أن أحمل هذه العبوة خلالها؟ أفلحت في الوصول بها إلى باب المتجر. أسندت وزن العبوة إلى حافة المنضدة فشعرت بارتياح كبير. وضعت السلة فوق العبوة ووضعت فيها صندوقاً من الشوكولاته ولفافة من المعجنات وكيساً من رقائق البطاطا. تناولته من أقرب الرفوف.

«الماء أكثر أهمية من الطعام في الصحراء. ونحن لا نستطيع أن نحمل كثيراً...».

قاطعتها: «إنني جائعة، وهذه الأشياء خفيفة الوزن».

قالت: إنه ظهرك أنت». ثم أمرتني: «هاتي خريطة».

تناولت الخريطة التي طلبتها. خريطة طبوغرافية للمنطقة كانت موضوعة على الطاولة مع عدد من الخرائط. ما كان طلب الخريطة إلا إكمالاً لتمثيليتها.

كان المحاسب رجلاً أبيض الشعر حاضر الابتسامة. نظر إلى أسعار الأشياء التي أخذتها وسألني بصوت عذب: «هل أنت ذاهبة في رحلة؟».

«إن الجبال رائعة الجمال».

قال مشيراً بيده: «إن الطريق الذي يصعد الجبل يبدأ من هناك. . .».

قلت له مستعجلة: «سوف أعثر عليه». وسحبت ذلك الحمل الثقيل عن الطاولة.

«عودي قبل أن يحل الظلام يا حلوتي. قد تضيعين في الجبل».

«سأعود».

كانت ميلاني تفكر في أشياء قبيحة عن هذا الرجل اللطيف.

ذكّرتها: «لقد كان لطيفاً. وهو مهتم براحتي وسلامتي».

قالت بنبرة لاذعة: «انت بائسة. الم يخبرك احد أن عليك عدم التكلم مع الغرباء؟».

شعرت بوخزة ذنب عميقة عندما أجبتها: «ما من غرباء بين بني جنسنا».

غيّرت الموضوع وقالت: «لا أستطيع الاعتياد على عدم دفع ثمن مشترياتي. ما الهدف إذاً من تحققه من أسعارها؟».

«من أجل ضبط الكميات فقط. هل يفترض بهذا الرجل أن يتذكر كل ما أخذناه عندما يطلب بضاعة جديدة؟ ثم، ما فائدة المال عندما يكون الجميع صادقين؟». توقفت قليلاً وقد شعرت بالذنب مجدداً. شعرت به بقوة كبيرة. كان ذلك مؤلماً. «الجميع إلا انا طبعاً!».

ابتعدت ميلاني عن مشاعري هذه وقد أقلقها عمقها. أقلقها احتمال أن أغيّر رأيي من جديد. لكنها راحت تركز على رغبتها الشديدة في الانطلاق والابتعاد عن هذا المكان. في التحرك صوب هدفها. نالني شيء من قلقها واستعجالها فتحركت أسرع من قبل.

حملت الأشياء إلى السيارة ووضعتها على الأرض أمام المقعد الذي بجانبي.

«دعيني أساعدك».

فوجئت عندما رأيت الشخص الآخر في المتجر حاملاً كيساً بلاستيكياً في يده. كان واقفاً بالقرب مني.

أفلحت في القول أخيراً: «آه. شكراً!» كان نبض قلبي يدوي في أذني.

انتظرنا. كانت ميلاني متوترة كأنها تريد الفرار. انتظرنا ريثما وضع الرجل مشترياتنا في كيس ثم وضع الكيس في السيارة.

«لا شيء يدعو إلى الخوف. إنه يحاول أن يكون لطيفاً أيضاً».

ظلت ميلاني تراقبه قلقة.

قلت مجدداً عندما أغلق الرجل باب السيارة: «شكراً لك».

«أهلاً وسهلاً».

سار الرجل حتى سيارته من دون أن يلتفت صوبنا من جديد. جلست في مقعدي وأمسكت بكيس رقائق البطاطا.

قالت ميلاني: «انظري إلى الخريطة. وانتظري حتى يذهب الرجل».

قلت لها: «لا أحد يراقبنا». لكنني تنهدت وفتحت الخريطة ورحت ألهتم رقائق البطاطا بيد واحدة. لعل من المستحسن حقاً أن تكون لدينا فكرة عن المكان الذي نتوجه إليه.

سألتها: «إلى أين نذهب؟ لقد وجدنا نقطة البداية... فماذا الآن؟».

أمرتني: «انظري من حولك. إذا استطعنا رؤية الجانب الجنوبي من القمة من هنا فسوف نحاول الوصول إليه».

«إذا استطعنا رؤية ماذا؟!».

وضعت ميلاني الصورة في ذاكرتي من جديد: خط متعرج ضيق فيه أربعة انحناءات حادة ثم فيه شكل منكسر تماماً. الآن رأيته كما ينبغي. إنه سلسلة من أربع قمم جبلية ثم تأتي القمة الخامسة التي تبدو مكسورة.

مسحت خط الأفق بنظري من الشرق إلى الغرب مروراً بالأفق الشمالي. كان الأمر شديد السهولة حتى بدا زائفاً رغم أني لم أستطع تكوين الصورة كلها إلا بعد رؤية الجبال التي تشكل خط الأفق الشمالي.

قالت ميلاني بصوت يشبه الغناء لشدة الإثارة: «هذا هو، فلننطلق!».

إنها تطلب مني الخروج من السيارة. تطلب مني الترجل والسير على الأقدام.

هززت رأسي وانحنيت فوق الخريطة من جديد. كان الجبل شديد البعد. بعيداً إلى درجة جعلتني غير قادرة على تقدير المسافة. ستحيل أن أمشي خارج ساحة الوقوف هذه وأن أذهب إلى الصحراء الخالية. إلا إذا لم يكن أمامي خيار آخر

قلت لها: «فلنكن عاقلتين». مررت بإصبعي على امتداد شريط ضيق مرسوم على الخريطة. إنه طريق من غير اسم يمتد من الطريق المعبد بعد عدة أميال إلى الشرق ثم يسير في اتجاه سلسلة القمم الجبلية.

قالت موافقة: «طبعاً. هذا أفضل لأنه أسرع».

عثرنا على الدرب من دون صعوبة. كانت مجرد منبسط ترابي يخترق تلك النباتات المتفرقة ولا يتسع لأكثر من سيارة واحدة. انتابني حساس بأن هذا الطريق سوف يختفي بسبب عدم استخدامه. سوف تنمو عليه النباتات. لو كان في منطقة أخرى فيها مزيد من النبات النضر المختلف عن نباتات الصحراء التي تحتاج إلى قرون من الزمن حتى تستعيد عافيتها بعد أن تدوسها السيارة. كانت سلسلة حديدية صدئة تعترض اطريق. كانت مثبتة إلى عمود خشبي وملفوفة من غير إحكام على عمود خشبي آخر في الناحية الثانية. تحركت سريعاً ففككت السلسلة الحديدية وجعلتها تنزلق حتى قاعدة العمود ثم أسرعت إلى سيارتي آملة ألا يتوقف أحد عارضاً مساعدتي. كان الطريق العام خالياً عندما قدت السيارة في الطريق الترابية ثم عدت إلى العمود لأرفع السلسلة من جديد.

شعرنا بالارتياح عندما اختفى الرصيف من خلفنا. كنت سعيدة لأنني لن أجد شخصاً آخر أكذب عليه. سواء بالكلمات أو بالصمت! أشعر بالتخفف من هذا العبء عندما أكون وحدي.

كانت ميلاني مرتاحة تماماً هنا، وسط هذا العدم! كانت تعرف أسماء جميع النباتات الشوكية من حولنا. وكانت تدمدم بأسمائها لنفسها. تحيّي النباتات كأنها صديقاتها.

بعيداً عن الطريق العام، بعيداً عن المدنية الخطرة، بدت الصحراء كأنها اكتسبت حياة جديدة في عيني ميلاني. صحيح أنها كانت مسرورة بسرعة السيارة التي كانت تهتز اهتزازات عنيفة لأنها غير معدّة للسيرة على الطرق الوعرة (هذا ما كانت السيارة تذكّرني به مع كل اصطدام بالأرض)، لكنها كانت تتلهف للسير على قدميها. تتلهف للوصول إلى الأمان في هذه الصحراء التي تحميها

من الأرجح أن علينا أن نبدأ السير قريباً. لم أكن أحب هذا، لكن الوقت جاء فشككت في أن يفلح استمرارنا في السيارة في إرضائها. أستطيع الإحساس بالرغبة الحقيقية الكامنة تحت السطح. إنها الرغبة في الحرية. الرغبة في أن يتحرك جسدها وفق الإيقاع المألوف لخطواتها الواسعة. في أن يتحرك جسدها لا يقوده شيء غير إرادتها. وللحظة قصيرة سمحت لنفسي بأن أرى ذلك السجن الذي هو الحياة من غير جسد. السجن الذي هو أن تكون الروح محمولة داخل جسد آخر لكنها غير قادرة على التأثير في شكله. أن تكون عالقة فيه. أن تكون معدومة الخيارات.

ارتعدت ثم عدت إلى التركيز على الأرض الوعرة. كنت أحاول تخطي ذلك الخوف، تلك الشفقة. لم يسبق لي أن جعلني أي مضيف آخر أحمل هذا الإحساس بالذنب بسبب حقيقتي. طبعاً، لم يسبق لأحد من المضيفين أن بقي موجوداً. واعياً مدركاً. حتى يتذمر من الوضع.

صارت الشمس قريبة من قمم التلال الغربية عندما نشب أول خلاف بيننا. راحت الظلال الطويلة ترسم أشكالاً غريبة على الطريق جاعلة تجنب الحجارة وأكوام التراب أمراً صعباً.

«إنه هناك!». هكذا صاحت ميلاني عندما رأينا المَعلِم الثاني إلى جهة الشرق: انحناءة سلسة من الصخور تقطعها على نحو مفاجئ شجرة صحراوية نحيلة تندفع إلى الأعلى مثل إصبع تشير إلى السماء.

كانت ميلاني مصرّة على الانعطاف فوراً بصرف النظر عما يمكن أن يصيب السيارة.

قلت لها: «ربما يتعين علينا أن نجتاز الطريق كله حتى نصل إلى ذلك المَعلِم الأول». كان الطريق الترابي يواصل تعرجه في الاتجاه الصحيح إلى حد ما. كنت خائفة من مغادرته. كيف أستطيع العثور على طريق العودة إلى المدنية من غير هذا الطريق؟ ألن أعود؟

تذكرت الباحثة عند هذه اللحظة، عندما لامست الشمس خط الأفق الغربي المتعرج. ماذا يمكن أن تظن إذا لم أصل إلى توكسون؟ داهمتني نوبة سرور جعلتني أضحك بصوت مرتفع. كانت ميلاني مستمتعة أيضاً بصورة الباحثة المنزعجة الغاضبة. كم تحتاج من الوقت حتى تعود إلى سان دييغو لترى إن كان الأمر كله خدعة من أجل التخلص منها؟ ثم، ما الذي يمكن أن تفعله عندما تجد أنني لست هناك؟ عندما تجد أنني لست في أي مكان؟

ما كنت أستطيع تكوين تصور واضح عن مكان وجودي في تلك اللحظة.

قالت ميلاني بإصرار: «انظري إلى هذا المسيل الجاف الذي حفرته المياه. إنه يتسع لمرور السيارة... دعينا نتبعه».

«لست واثقة من أن علينا الذهاب في هذا الاتجاه منذ الآن».

«سوف يحل الظلام قريباً وسيكون علينا أن نتوقف. إنك تهدرين الوقت!». هكذا كانت تصرخ صامتة في غمرة انزعاجها

«ربما أوفر الوقت إذا اتضح أنني على حق. كما أن الوقت وقتي أنا. أليس كذلك؟».

لم تجبني بالكلمات. أحسست بها تمتد داخل عقلي.    تجعله يقبل الانعطاف.

«أنا من يفعل هذا. لذلك، فسوف أفعله بطريقتي». هكذا أجابتني ميلاني غاضبة من غير كلمات.

«لماذا لا تجعلينني أرى بقية الخطوط؟ يمكننا أن نعرف إن كنا نستطيع رؤية شيء منها قبل أن يحل الظلام».

قالت بحدة: «لا. سوف أفعل ذلك بطريقتي».

«أنت تتصرفين كالأطفال».

رفضت أن تجيبني من جديد. أما أنا فتابعت السير صوب القمم الأربع الحادة.

عندما اختفت الشمس خلف التلال خيّم الليل في المكان على نحو مفاجئ. قبل لحظة واحدة كان لون الشمس البرتقالي يغمر الصحراء، ثم حل السواد. أبطأت قليلاً وراحت أصابعي تبحث عن مفتاح مصابيح السيارة.

همست ميلاني بصوت كالفحيح: «هل فقدت عقلك؟ هل لديك فكرة عن المسافة التي تمكن رؤية ضوء السيارة منها؟».

«إذاً، ماذا نفعل الآن؟».

«عسى أن يكون مقعد السيارة قابلاً للارتداد إلى الخلف... أن يكون ملائماً للنوم!».

تركت المحرك دائراً وحاولت أن أفكر في خيارات أخرى غير النوم في السيارة وسط هذا الخواء الأسود، وسط ليل الصحراء. انتظرتني ميلاني بصبر عارفة أنني لن أجد خياراً آخر.

«هذا جنون. انت تعرفين ذلك». أوقفت السيارة وأطفأت المحرك. «الأمر جنون كله. لا يمكن ان نجد أحداً هنا. لن نجد شيئاً. وسوف نضيع في هذه المحاولة التي لا أمل فيها». كان لدي إحساس مجرد بالخطر. بخطر ما نحن ماضون إليه. بخطر التجول في هذا البحر من دون خطة بديلة، من دون طريق للعودة. كنت أعرف أن ميلاني تدرك الخطر بوضوح أكبر، لكنها كانت تبعد هذه التفاصيل عن ذهنها.

لم تردّ على اتهاماتي. أعرف أنها تفضل التجوال وحيدة في الصحراء

طوال ما بقي لها من حياة على العودة إلى الحياة التي كنت أعيشها. إنها تفضل ذلك، حتى من دون الخطر الذي تمثله الباحثة.

أرجعت المقعد إلى الخلف إلى أقصى حد ممكن. ما كان مريحاً أبداً. أشك في قدرتي على النوم. لكني كنت أبعد أشياء كثيرة عن ذهني ولا أسمح له بالتفكير فيها. كانت ميلاني صامتة أيضاً.

أغمضت عينيّ فلم أجد فارقاً كبيراً بين ظلمة إغماضهما وظلمة الليل الذي لا قمر فيه. غبت عن الوعي، غفوت، بسهولة لم أتوقعها.

## الفصل الحادي عشر

# جفاف

«لا بأس! لقد كنت محقة، لقد كنت محقة!». قلت هذه الكلمات بصوت مرتفع. ما كان حولي أحد حتى يسمع هذه الكلمات.

وما كانت ميلاني تقولي لي «لقد قلت لك هذا». ما كانت تقولها بهذه الكثرة من الكلمات. لكني أحسست اتهاماً في صمتها.

ما زلت غير راغبة في مغادرة السيارة رغم عدم فائدتها لي الآن. عندما نفذ الوقود تركت السيارة تجري بقوة اندفاعها حتى انحدرت في أخدود ضحل، مجرى مائي حفرته الأمطار الأخيرة. والآن رحت أحدق عبر زجاج السيارة الأمامي. أحدق في السهل الواسع الخالي فأشعر بالألم يقرص معدتي.

«علينا أن نتحرك أيتها الجوالة. سوف يزداد الجو حرارة».

لو لم أهدر أكثر من ربع خزان الوقود مندفعة. معاندة. حتى سفح القمة التي كانت هي العلامة الثانية. هناك لم أجد إلا أنني صرت عاجزة عن رؤية القمة الثالثة من تلك النقطة فصار عليّ أن أعود أدراجي إلى حيث كنت.. لو لم أفعل ذلك لكنا استطعنا المضي بالسيارة مسافة أبعد. أبعد كثيراً. على امتداد هذا المنحدر الرملي. نسير حتى نصبح أقرب إلى هدفنا التالي. لكن، بفضلي. كنا مضطرتين الآن إلى اجتياز هذه المسافة على الأقدام.

حملت عبوات المياه فوضعتها واحدة بعد الأخرى في حقيبة الظهر. كانت حركاتي بطيئة على نحو لا لزوم له. وببطء مماثل وضعت في الحقيبة

ما بقي معي من قطع الشوكولاته. في أثناء ذلك كله كانت ميلاني تتألم راجية مني الإسراع. جعل نفاد صبرها التفكير صعباً عليّ. جعل تركيزي على أي شيء صعباً. تركيزي على. على ما سوف يحدث لنا الآن.

«هيا، هيا، هيا!» ظلت تستحثني حتى خرجت أخيراً من السيارة بحركة متيبسة غريبة. آلمني ظهري عندما نصبت قامتي. كان الألم ناجماً عن النوم في وضعية منحنية على مقعد السيارة في الليلة الماضية. ما كان ناجماً عن وزن الحقيبة التي حملتها على ظهري الآن، فقد بدت في هذا الوضع أخف مما كانت عندما حملتها بيدي.

قالت تأمرني: «عليك تغطية السيارة الآن». رأيتني في ذهنها أقتطع أغصاناً شائكة من شجيرات الصبار القريبة وأضعها فوق سقف السيارة الفضي.

«لماذا؟».

أحسست من نبرة صوتها أنها تعتبرني شديدة الغباء لأنني لم أفهم قصدها: «حتى لا يعثر أحد علينا».

«لكن، ماذا لو كنت أريد أن يعثر أحد علينا؟ ماذا إن لم نجد هنا غير الحرارة والتراب؟ ما من سبيل لدينا حتى نعود إلى البيت!».

«البيت؟» هكذا سألتني وهي تلقي في ذهني صوراً لا بهجة فيها: الشقة الخاوية في سان دييغو، وتعبير وجه الباحثة المقيت، وتلك النقطة التي تشير إلى موقع توكسون على الخريطة. ثم لمحة أكثر سعادة رأيت فيها ذلك الوادي الأحمر الذي جاء الآن بمحض المصادفة. «أين هو البيت؟»

أدرت ظهري إلى السيارة متجاهلة نصيحتها. لقد مضيت بعيداً جداً حتى هذه النقطة. لا أريد أن أفقد أي أمل في العودة. لعل أحداً يجد السيارة، ثم يجدني. أستطيع بسهولة وبصدق أن أشرح لمن ينقذني ما الذي أفعله هنا. لقد ضعت. لقد ضللت سبيلي. فقدت سيطرتي. أضعت عقلي.

سرت على مجرى السيل أول الأمر. تركت جسدي يتخذ مشيته العادية بإيقاع خطواتها الطويلة. ما هكذا كنت أمشي على الأرصفة من البيت إلى الجامعة ثم من الجامعة إلى البيت. ما كان هذا مشيي أنا على الإطلاق. لكنه كان مناسباً للأرض الوعرة هنا، وكان يدفعني بانسيابية إلى الأمام وبسرعة فاجأتني حتى اعتدتها.

تساءلت عندما كنت أمضي أبعد فأبعد في خلاء الصحراء: «ماذا لو أنني لم أتخذ هذا الطريق؟ ماذا لو كان المعالج فوردز ما يزال في شيكاغو؟ ماذا لو أن طريقي لم يجعلنا نقترب منهما إلى هذه الدرجة؟ إنه ذلك الاستعجال، ذلك الجاذب. فكرة إمكانية وجود جارد وجيمي هنا. في مكان ما في هذه الصحراء الخاوية. تلك الفكرة هي ما جعلني عاجزة عن مقاومة هذا السهل الذي لا إحساس فيه».

وافقتني ميلاني: «لست واثقة. أظن أنني لو كنت مكانك لواصلت المحاولة. لكني كنت خائفة عندما كانت الأرواح الأخرى قريبة مني. ما زلت خائفة. يمكن لثقتي بك أن تقتلهما... كليهما».

ارتعدنا معاً لتلك الفكرة.

«لكن، أن أكون هنا... قريبة إلى هذا الحد... يبدو لي أنه عليّ أن أحاول. أرجوك...» صارت ترجوني فجأة، تتوسل إليّ، ما كان في أفكارها أثر للكراهية. «أرجوك، لا تستخدمي هذا من أجل إيذائهما... أرجوك!».

«لست أريد هذا... لست أدري إن كنت قادرة على إيذائهما. أفضل أن...».

ماذا؟ أفضل أن أقتل نفسي! أفضّل ذلك على تسليم بشريين متمردين إلى الباحثين!

ارتعدنا معاً لتلك الفكرة من جديد، لكن استيائي من الفكرة أراحها. وقد أخافني ذلك أكثر مما هدّأ مخاوفها.

عندما بدأ مجرى السيل ينعطف بعيداً إلى الأمام. صوب الشمال،

اقترحت ميلاني أن ننسى هذا الدرب المترب السهل وأن نسير في خط مباشر حتى العلامة الثلاثة. تلك المجموعة الصخرية الناتئة إلى الشرق التي بدت مثل إصبع تشير إلى السماء الخالية من الغيوم.

ما كنت راغبة في ترك مجرى السيل. تماماً كما قاومت فكرة ترك السيارة. أستطيع أن أسير عائدة على امتداد مجرى السيل حتى الطريق. وأن أسير على امتداد الطريق عائدة حتى الطريق العام. إنها أميال وأميال. وقد يستغرقني هذا أياماً لكني ما إن أخطو خطوة خارج مجرى السيل هذا حتى أكون قد ضعت نهائياً.

«تحلّي بالإيمان أيتها الجوالة! سوف نجد العم جيب أو... سوف يجدنا».

«إذا كان ما زال حياً». قلت هذه الكلمات وأنا أتنهد وأخرج عن خط سيري البسيط لأسير بين النباتات الصحراوية التي كانت تمتد متماثلة في كل اتجاه من حولي. «ليس الإيمان بالمفهوم المألوف عندي. لا أظن أنني أعرف معنى الإيمان».

«فلتكن الثقة إذاً!».

قلت ضاحكة: «الثقة بماذا؟ فيك؟».

أحرق الهواء الصحراوي الحار حنجرتي عندما استنشقته بعد هذه الكلمات.

قالت: «فكري فقط. ربما نعثر عليهم هذه الليلة». كانت تحاول تغير الموضوع.

كان الحنين يخصنا نحن الاثنتين. جاءت صورتان، وجهان، وجه رجل ووجه فتى، جاءت الصورتان إلى ذكرياتنا معاً. عندها سرت بخطوات أسرع. ما كنت أعرف إن كان هذا بفعل الأمر الذي أصدر إليّ أم بفعل حركتي الذاتية.

ازدادت حرارة الجو. ثم ازدادت حرارة الجو. ثم ازدادت حرارة

الجو أيضاً. لبّد العرق شعري. ألصقه إلى جمجمتي. وجعل قميصي الأصفر الباهت يلتصق بجسمي على نحو مزعج كلما تحركت. وعندما جاء بعد الظهر راحت نفحات حارقة من الريح تهب في وجهي. تسفعه بالرمال. جفف الهواء الجاف عرقي وملأ شعري بالرمل وأزال التصاق قميصي بجسدي. كان الهواء شديداً وكان محملاً بشيء مثل الملح الجاف. لكني واصلت السير.

كنت أشرب الماء بتواتر أكبر مما كانت ميلاني موافقة عليه. كانت تلومني على كل رشفة ماء. تهددني بأننا سنكون في حاجة أشد إليه يوم غد. لكني أعطيتها الكثير حتى الآن وما عدت في مزاج يسمح لي بالإصغاء إليها. كنت أشرب كلما عطشت. كنت عطشى طوال الوقت!

واصلت ساقاي التحرك إلى الأمام من غير تفكير من جانبي. كان صوت خطواتي على التراب نوعاً من الموسيقى في خلفية المشهد، موسيقى خفيضة الصوت، رتيبة.

ما كان أمامي شيء أراه. كل شجيرة صحراوية معوجة يابسة تبدو مثل الشجيرة التي بعدها، مثلها تماماً. جعلني ذلك التجانس الفارغ أدخل نوعاً من الخدر. ما كنت مدركة حقاً إلا لأشكال تلك الجبال الشبحية على خلفية السماء الشاحبة التي لا لون لها. كنت أقرأ خطوطها العامة كل بضع خطوات، حتى حفظتها عن ظهر قلب وصرت قادرة على رسمها مغمضة العينين.

بدا المشهد جامداً في مكانه. كنت أواصل التلفّت من حولي باحثة عن العلامة الرابعة. قمة مقببة الشكل لكن جزءاً منها مفقود، إنه شكل مجوف كأنه مقطوع من جانب القبة. لم تجعلني ميلاني أرى هذا الشكل حتى صباح اليوم. كنت أرجو أن تكون هذه العلامة الرابعة آخر العلامات. سوف يكون حظنا وافراً إن تمكنا من الوصول إليها. لكن إحساساً خفياً كان يخبرني أن ميلاني ما زالت تخفي شيئاً عني وأن نهاية رحلتنا كانت بعيدة إلى حد المستحيل.

أكلت قطع الشوكولاته بعد الظهر. لم أدرك أنني أتيت عليها كلها إلى أن انتهيت من قضم القطعة الأخيرة.

عندما غابت الشمس حل الليل بمثل سرعة حلوله يوم أمس. كانت ميلاني مستعدة، فقد كانت تبحث من حولنا عن مكان من أجل التوقف.

قالت لي: «هنا! علينا أن نظل بعيدتين عن النباتات الشوكية قدر الإمكان. انت تتحركين في نومك كثيراً».

رحت أنظر إلى الصبار مستعينة بما بقي من ضوء النهار. كانت تملأ سطوحه إبر كثيفة بيضاء بلون العظام. كانت تبدو أشبه بالفرو. ارتجفت: «اتريدين مني أن أنام على الأرض؟ اتريدين ان انام هنا؟»

أحست ميلاني برعبي فرقَّت نبرة صوتها: «وهل ترين خياراً آخر؟ انظري!... هذا أفضل من النوم في السيارة. الأرض مستوية على الأقل. والحر شديد إلى درجة تمنع الهوام السامة من الانجذاب إلى حرارة جسدك. و... ».

سألتها بصوت مرتفع: «الهوام؟... الهوام؟».

رأيت في ذكرياتها صوراً موجزة سريعة، مزعجة، لحشرات مخيفة المنظر ولثعابين ملتفّة.

«لا تقلقي!». راحت تحاول تهدئتي عندما توتر جسمي. عندما وقفت على أصابع قدميّ محاولة الابتعاد قدر ما أستطيع عما قد يكون مختبئاً في الرمل من تحتي. راحت عيناي تجوسان الظلمة باحثتين عن مهرب. «لن يزعجك شيء إلا إذا أزعجته أنت اولاً. ثم إنك اكبر حجماً من اي شيء هنا». مرت في ذهني لمحة أخرى من الذكريات. رأيت هذه المرة حيواناً مفترساً متوسط الحجم. نوعاً من القطط البرية.

«رائع!». قلتها بصوت كالأنين. هبط جسمي إلى الأرض فجلست القرفصاء مع أني ما زلت خائفة من الأرض السوداء التي تحتي. «أتقتلني حيوانات برية؟ من كان يظن أن الأمر سينتهي على هذا النحو من. من التفاهة؟ كم هذا غريب؟ لو قتلني ذلك الوحش ذو المخالب في كوكب

الضباب لكان هذا نهاية مشرِّفة على أقل تقدير. إنها نهاية مشرفة أن يقتلني وحش من ذلك الحجم».

جعلتني نبرة صوت ميلاني عندما أجابتني أتخيلها وقد جحظت عيناها استغراباً: «كفي عن التصرف كالأطفال الصغار! لن يأكلك شيء هنا... والآن استلقي على الأرض وخذي قسطاً من الراحة. سيكون الغد أصعب من اليوم».

زمجرت قائلة: «شكراً على هذه الأخبار الطيبة!». كانت ميلاني تتحول إلى شيء أشبه بطاغية. جعلني هذا أفكر في مَثَلٍ بشري يقول: اسمح له أن يأخذ شبراً فيأخذ متراً! لكني كنت أكثر تعباً وإعياءً مما كنت أتصور، فبمجرد استلقائي على الأرض غير راغبة، كان من المستحيل عدم الاستسلام إلى النوم على تلك الأرض الترابية. عدم إغماض عيني.

لم تمض دقائق بعد أن أغمضت عيني. هكذا بدا لي. حتى جاء الفجر. جاء ساطعاً إلى حد يعمي العينين. جاء حاراً منذ بدايته، حاراً إلى حد جعل جسمي يتعرق على الفور. كان جسمي معفراً بالغبار عندما استيقظت. وكانت ذراعي اليمنى فاقدة كل إحساس لأنها كانت تحتي وأنا نائمة. نفضت ما علق بثيابي ثم مددت يدي إلى حقيبتي حتى أشرب بعض الماء.

ما كانت ميلاني موافقة على شرب الماء منذ الآن، لكني تجاهلتها. نظرت إلى الزجاجة نصف الفارغة التي شربت منها آخر مرة ثم رحت أنظر إلى الزجاجات الفارغة والمليئة حتى أدركت حقيقة الوضع.

انتابني إحساس مؤلم بالخطر. بدأت العد. عددت الزجاجات مرتين. كان عدد الزجاجات الفارغة يزيد باثنتين على عدد الزجاجات الملأى. لقد شربت حتى الآن أكثر من نصف ما لدينا من احتياطي الماء.

«قلت لك إنك تشربين أكثر مما ينبغي».

لم أجبها لكني جذبت الحقيبة إليّ من دون أن أشرب. كان إحساسي بفمي مرعباً. كان جافاً. مليئاً بالرمل. كان طعمه كريهاً. حاولت

تجاهل هذا كله. حاولت التوقف عن جعل لساني الخشن مثل المبرد يحتك بأسناني الجافة. بدأت السير.

كان ألم الجوع في معدتي أصعب تجاهلاً من ألم الجفاف في فمي عندما علت الشمس وصارت أكثر حرارة وأكثر ارتفاعاً من فوقي. كانت معدتي تتقلص تقلصات منتظمة متوقّعة وجبات الطعام التي لم تصلها. وعندما جاء بعد الظهر تحوّل الجوع من إحساس مزعج إلى ألم مستمر.

راحت ميلاني تذكّرني: «هذا لا شيء. لقد عرفنا جوعاً أشد من هذا».

قلت كأني أردّ عليها: نعم! لقد عرفتِ جوعاً أشد من هذا. ما كنت راغبة الآن في سماع قصص عن قوة احتمالها.

جاءت الأخبار الطيبة عندما بدأ اليأس يتسرب إلى نفسي.

عندما أدرت رأسي ناحية الأفق بتلك الحركة الروتينية غير المتحمسة رأيت شكل القبة الناتئ يقفز وسط خط الأفق الشمالي. خط القمم الجبلية الصغيرة. ما كان ذلك الجزء المفقود من القبة يظهر إلا مثل ثلم صغير. من حيث كنت أقف.

«صارت قريبة!» وافقتني ميلاني. كانت مسرورة مثلي بأننا كنا نحقق بعض التقدم. استدرت صوب الشمال مسرعة. صارت خطواتي أكثر اتساعاً. «واصلي البحث عن العلامة التالية». تذكرت ميلاني تفصيلاً آخر فرحت أمسح الأفق بنظري رغم معرفتي أن بدء البحث منذ الآن مبكر جداً.

لا بد أن تكون العلامة الخامسة في جهة الشرق. شمالاً، ثم شرقاً، ثم شمالاً من جديد. هكذا يقول الرسم.

جعلتني حماسة العثور على هذه النقطة الجديدة أتحرك. أستمر في الحركة. رغم تزايد الإعياء في ساقيّ. كانت ميلاني تستحثني، وتشجعني عندما أبطئ، وكانت تفكر في جارد وفي جيمي عندما يستبد بي اليأس. كان تقدمي ثابتاً مستقراً. وكنت أنتظر موافقة ميلاني على كل

رشفة ماء رغم شعوري بذلك الحريق في حلقي.

عليّ الاعتراف بأنني كنت فخورة بنفسي لما أكتسب من قوّة. وعندما ظهر الطريق أمامي من جديد بدا الأمر كأنه جائزة لي. كان الطريق يمضي متعرجاً صوب الشمال. في ذلك الاتجاه الذي اتخذته من قبل، لكن ميلاني كانت متشككة.

قالت بإلحاح: «لا يعجبني مظهر هذا الطريق».

كان الطريق لا يعدو خطاً باهتاً يمضي عبر السهل. ما كان يميزه عما حوله إلا نعومة ترابه وانعدام النباتات فيه. كانت آثار عجلات قديمة ظاهرة على الطريق.

قلت لها: «عندما يمضي الطريق في اتجاه خاطئ فسوف نتركه». لقد بدأت السير في هذا الطريق. «هذا أسهل من السير عبر الصبار... أسهل من تحاشي النباتات الشوكية».

لم تجبني ميلاني لكن عدم ارتياحها جعلني أخاف بعض الشيء. تابعت البحث عن العلامة التالية التي يجب أن تكون على شكل حرف M. قمتان بركانيتان متماثلتان. لكني رحت أيضاً أراقب الصحراء من حولي بانتباه أكثر من ذي قبل.

وبما أنني كنت أكثر انتباهاً الآن فقد لاحظت ذلك النتوء الرمادي في البعيد قبل أن أستطيع تبيّن ماهيته بزمن طويل. هل يخدعني نظري يا ترى؟ رمشت بعينيّ في محاولة لإبعاد الغبار الذي جللهما. بدا لون هذا الشيء غريباً مختلفاً عن لون الصخور. وبدا شكله أكثر صلابة من أن يكون شكل شجرة. رحت أحدق في ضوء الشمس الساطعة وأحاول التخمين.

عند ذلك رمشت بعينيّ من جديد فتبين لي فجأة أن هذا النتوء لم يكن إلا شكل بناء من صنع الإنسان. كان أقرب مما تصورت. كان شيئاً يشبه بيتاً أو مبنى. وكان صغيراً لوّحت عوامل الطبيعة لونه فصار رمادياً كالحاً.

اجتاحتني موجة الرعب المفاجئة التي داهمت ميلاني فجعلتني أترنح وأخرج عن الطريق فأدوس على النباتات الصحراوية.

قلت لها: «مهلك! لا بد أنه منزل مهجور».

«وكيف تعرفين هذا؟!». كانت تشدني إلى الخلف بقوة كبيرة إلى درجة جعلتني مضطرة إلى بذل تركيز شديد على خطواتي قبل أن أستطيع دفعها إلى الأمام.

«ومن عساه يعيش هنا؟ نحن الأرواح لا نعيش إلا ضمن مجتمع!». أدركت الحدة في ملاحظتي هذه وعرفت أنها كانت بسبب مكان وقوفي. كنت، عملياً ومجازاً، ضائعة في اللامكان. لماذا لم أعد أنتمي إلى مجتمع الأرواح؟ ولماذا أشعر كما لو أنني لست. لست راغبة في الانتماء إلى هذا المجتمع؟ هل كنت حقاً جزءاً من الجماعة التي هي جماعتي، أم أن عدم انتمائي إليها هو السبب في تحولي المستمر من حياة إلى أخرى؟ هل كان وضعي شاذاً طوال الوقت أم أن هذا شيء حدث بسبب تأثير ميلاني؟ هل غيّرني هذا الكوكب؟ أم أنه كشفني على حقيقتي؟

ما كان لدى ميلاني وقت من أجل أزمتي الشخصية هذه. كانت تريد مني أن أبتعد عن ذلك البيت في أسرع وقت ممكن. كانت أفكارها تسوطني. تدفعني بعيداً عن أفكاري.

أمرتها محاولة تركيز تفكيري. محاولة فصل أفكاري عن أفكارها: «اهدئي! إن كان أحد أو شيء يعيش هنا، فلا بد أنه بشري! ثقي بي الآن. ليس بين الأرواح من يمكن أن يعيش هنا. لعله عمك جيب...».

رفضت ميلاني تلك الفكرة رفضاً حاداً: «لا أحد يستطيع البقاء على قيد الحياة في مكان مكشوف على هذا النحو. لا بد أن بني جنسك قد فتشوا جميع البيوت تفتيشاً شاملاً. لقد فر من يعيش هنا أو صار واحداً منكم. أما العم جيب فلا بد أنه تدبر لنفسه مكان اختباء أفضل».

قلت: «إذا كان من يعيش هنا قد صار واحداً منا فقد غادر هذا المكان بكل تأكيد. لا أحد يعيش على هذا النحو إلا البشر...» توقفت

فجأة.. خفت فجأة. أنا أيضاً.

«ماذا؟». كان ردّ فعلها على خوفي قوياً. لقد جمدنا في مكاننا. راحت تنقب في أفكاري بحثاً عن شيء شاهدته فأخافني.

لكني لم أكن قد رأيت أي شيء جديد: «ميلاني! ماذا لو كان البشر يعيشون هنا؟ بشر غير العم جيب وغير جارد وجيمي! ماذا لو وجدنا أحداً غيرهم؟».

استوعبت فكرتي ببطء وراحت تفكر فيها مرة بعد مرة: «أنت محقة! سوف يقتلوننا على الفور بطبيعة الحال».

حاولت ابتلاع ريقي. حاولت ابتلاع طعم الرعب من فمي الجاف.

«لن يكون هنا أحد غيرهم. كيف يمكن أن يكون هنا أحد غيرهم؟ إن بني جنسكم دقيقون في عملهم. لن يفلت منهم إلا شخص مختبئ أصلاً. إذاً، فلنذهب ولنتفقد المنزل. أنت واثقة من عدم وجود أحد من بني جنسكم فيه. وأنا واثقة من عدم وجود أحد من بني جنسنا أيضاً. لعلنا نعثر فيه على شيء مفيد، شيء نستطيع استخدامه سلاحاً».

ارتعدت عندما جاءتني صور سكاكين حادة وأدوات معدنية طويلة يمكن تحويلها إلى هراوات. «لا أريد أسلحة!».

«أف! يا للقرف! كيف تمكنت هذه المخلوقات الرخوة من هزيمتنا؟».

«بالحيلة وبالتفوق العددي. إن أي واحد منكم، حتى من يكون في عمر الشباب مثلك، أكثر خطراً مئة مرة من أي واحد منا. لكنكم مثل حشرة ضلت سبيلها إلى عش النمل. ثمة ملايين منا.. يعملون كلهم معاً في انسجام كامل من أجل صالحنا».

ومن جديد، عندما تحدثت عن وحدة بني جنسنا، شعرت بموجة من الخوف والتشوش. من أنا؟

رحنا نحاول الاختباء خلف النباتات الصحراوية أثناء اقترابنا من

المنزل الصغير. إنه منزل. كوخ صغير على كتف الطريق من غير إشارة تفسِّر معنى وجوده هنا. كان سبب وجوده هنا لغزاً. ليس في هذه البقعة شيء إلا الحرارة والخواء.

لم نر أي شيء يشير إلى أن البيت مأهول، أو إلى أنه كان مأهولاً منذ فترة قريبة. كان البيت من غير باب. وكانت أجزاء من ألواح زجاجية قليلة تغطي بعض النوافذ. وكان الغبار مكوماً عند العتبة. متسرّباً إلى البيت. بدت الجدران الرمادية التي لوّحتها عوامل الطقس مائلة بفعل الريح. كما لو أن الريح هنا تهبّ دائماً من جهة واحدة.

كنت قادرة على السيطرة على قلقي عندما ولجت مدخل المنزل بخطوة مترددة؛ لا بد أننا وحدنا هنا، تماماً مثلما كنا طوال هذا اليوم واليوم الذي قبله.

كان الظل الذي يعد به مدخل المنزل هو ما شدني إلى الأمام. كانت جاذبيته تغلب مخاوفي. ما زلت أحاول الإصغاء، لكن قدميَّ راحتا تتحركان إلى الأمام بخطوات سريعة واثقة. دخلت الباب مندفعة وتحركت سريعاً صوب أحد الجدران حتى أجعله من خلف ظهري. كان هذا سلوكاً غريزياً. إنه ناتج عن حياة التشرد التي عاشتها ميلاني. توقفت متجمدة هناك خائفة بفعل العمى المؤقت الذي داهمني. وقفت أنتظر اعتياد عيني على الرؤية في الظل.

كان الكوخ الصغير خاوياً كما توقعنا. ما كان في داخله شيء يدل على وجود أحد، تماماً مثلما استنتجنا من الخارج. رأيت طاولة مكسورة تقف مائلة على قائمتين اثنتين في وسط الغرفة. وكان إلى جانبها كرسي معدني صدئ. وكانت ثغرات كبيرة في السجادة الكالحة المهترئة تكشف عن أرضية إسمنتية تحتها. وكان مطبخ صغير موجوداً عند جدار تلك الغرفة. رأيت فيه حوضاً معدنياً صدئاً وصفاً من الخزائن الصغيرة. كان بعضها من غير أبواب. ورأيت براداً صغيراً مفتوح الباب كاشفاً عن داخله الفارغ الأسود. وعند الجدار الآخر رأيت أريكة من غير وسائد. وفوق

تلك الأريكة رأيت على الجدار صورة صغيرة ذات إطار، صورة كلاب تلعب البوكر.

فكرت ميلاني: «يا للمنزل الأليف!». صارت مرتاحة الآن فبدت السخرية في صوتها. «إن فيه من الزينة أكثر من شقتك!».

لكني كنت قد اندفعت صوب صنبور الماء.

أضافت ميلاني متهكمة أيضاً: «انت تحلمين!».

من العبث طبعاً أن يكون في هذا المنزل مياه جارية. أن تكون المياه ممدودة إلى هذا المكان النائي. كانت الأرواح تحسن إدارة هذه الأشياء إلى حد يجعل إمكانية إهمالها هذا الأمر أمراً مستحيلاً. لكن، ما زال عليّ أن أدير الصنبور حتى أتأكد. أن أدير مقبضيه العتيقين. انكسر أحد المقبضين في يدي فقد أكله الصدأ كله.

استدرت صوب الخزائن الصغيرة. ركعت فوق تلك السجادة المهترئة لأنظر بإمعان داخل الخزائن. مال جسدي إلى الخلف عندما فتحت الخزانة. خفت أن يكون فيها بعض حيوانات الصحراء السامة. كانت الخزانة الأولى فارغة من غير ظهر. رأيت من خلالها ألواح الجدار الخارجي الخشبية. كانت الثانية من غير باب لكني رأيت فيها كومة من الجرائد القديمة التي جللها الغبار. أخرجت واحدة منها وقد انتابني الفضول. نفضت الغبار عنها وقرأت تاريخها.

قلت: «إنها من زمن البشر!». هل أنا في حاجة إلى قراءة التاريخ حتى أعرف هذا.

«رجل يحرق ابنته ذات السنوات الثلاث حتى الموت». قرأت هذا العنوان المدوي الذي رأيت تحته صورة لطفلة شقراء ملائكية الوجه. ما كانت تلك الصفحة الأولى. ما كانت القصة المرعبة المروية هنا تستحق أن تكون على الصفحة الأولى! وتحت الصورة الأولى رأيت صورة وجه رجل مطلوب لأنه قتل زوجته وطفليه قبل سنتين من صدور هذه الجريدة. كان الخبر يتحدث عن مشاهدة هذا الرجل في المكسيك. وثمة خبر آخر

عن مقتل شخصين وجرح ثلاثة في حادث سير تحت تأثير السُكْر ثم خبر آخر عن حادثة احتيال وعن تحقيق في جريمة قتل محتملة كامنة وراء انتحار مصرفي محلي بارز. ثم أيضاً خبر عن اعتراف مشكوك فيه أدى إلى إطلاق سراح مجرم اعترف سابقاً باعتدائه على الأطفال. ثم خير آخر عن حيوانات منزلية أليفة وجدت مذبوحة في صندوق القمامة.

اقشعر بدني فرميت الجريدة بعيدة عني. وعدت أبحث في الخزانة المظلمة.

فكرت ميلاني بصوت هادئ: «هذه استثناءات! إنها ليست القاعدة». كانت تحاول منع الرعب الذي انتابني الآن لقراءة هذه الأشياء من التسرب إلى ذكرياتها. ذكرياتها عن تلك الأيام. كانت تحاول منعه من إحيائها من جديد.

«أترين الآن كيف استنتجنا أن في وسعنا أن ندير الأمور بشكل أفضل؟ أترين كيف افترضنا أنكم لا تستحقون ما يضمه هذا الكوكب من أشياء رائعة؟».

كانت إجابتها لاذعة: «إن كنتم تريدون تنظيف هذا الكوكب فلماذا لم تعمدوا إلى تفجيره كله؟».

«بصرف النظر عن كتّاب الخيال العلمي عندكم فإننا لا نملك التكنولوجيا اللازمة».

لم تجد ميلاني هذه النكتة مضحكة على الإطلاق.

أضفت: «فضلاً عن أن هذا من شأنه أن يكون خسارة... فكوكبكم لطيف حقاً! باستثناء هذه الصحراء المقيتة طبعاً». قالت مفكرة في أخبار الجريدة البائسة من جديد: «أتعرفين أن هذا هو ما جعلنا ندرك وجودكم؟ عندما صارت أخبار المساء تتحدث كلها عن قصص في مصلحة المجتمع... وعندما صار المجرمون والمنحرفون يقفون صفوفاً أمام المستشفيات النفسية من أجل تسليم أنفسهم طوعاً... وعندما تحوّل كل شيء إلى صورة مثالية... كان ذلك وقت بدأتم التدخل في حياتنا».

قلت بصوت جاف مسموع مستديرة صوب الخزانة التالية: «يا للتغير الهائل!».

شددت الباب فوجدت المؤونة.

صحت: «مكسرات!». وأمسكت بعلبة المكسرات المغبرة، نصف المهشمة. رأيت علبة أخرى من خلفها. بدت إحدى العلبتين كأن أحداً داسها صحت من جديد: «بسكويت!»

قالت ميلاني مشيرة، بإصبع تخيلته في عقلي، إلى ثلاثة زجاجات مغبرة في قعر الخزانة: «انظري!».

سألتها وأنا أهمّ بفتح علبة المكسرات: «إنه سائل تنظيف. فما حاجتك إلى سائل التنظيف؟ هل تريدين رميه في وجه أحد حتى يحرق عينيه؟ أم تريدين ضرب أحد على رأسه بزجاجة من هذه الزجاجات؟».

يا لفرحتي! كانت المكسرات ما زالت محفوظة ضمن الأغلفة البلاستيكية رغم تهشمها مزقت أحد هذه الأغلفة وصببت الفتات في فمي كله. ابتلعته دون مضغ تقريباً. كنت أتلهف وصول الفتات إلى معدتي الفارغة.

أمرتني ميلاني: «افتحي إحدى الزجاجات وشمّي ما فيها! هكذا كان والدي يخزن بعض المياه في المرآب. إن البقايا البسيطة لمادة التنظيف تحفظ الماء فتمنع تكاثر الجراثيم والديدان فيه».

قلت لها: «دقيقة واحدة فقط». انتهيت من ابتلاع محتويات الغلاف الأول من المكسرات وبدأت بالثاني. كانت مالحة، مالحة جداً، لكنها كانت مثل العسل مقارنة بالطعم الكريه الذي في فمي. وعندما فرغت من التهام الغلاف الثالث بدأت أنتبه إلى أن الملح راح يحرق شفتي المتشققتين وزوايا فمي.

أمسكت بإحدى الزجاجات آملة أن تكون ميلاني على حق. أحسست بذراعي ضعيفتين. رخوتين. كانتا شبه عاجزتين عن حمل

الزجاجة. أقلقنا هذا الضعف. أقلقنا معاً! ما مدى تدهور حالتنا؟ كم ستتمكن من الاستمرار بعد الآن؟

كان غطاء الزجاجة محكماً. هل ذاب في مكانه فالتصق بالزجاج يا ترى؟ أخيراً أفلحت في إدارته قليلاً باستخدام أسناني. شممت فتحة الزجاجة بحذر. ما كنت أريد أن أفقد الوعي بسبب أبخرة المادة المنظفة. كانت رائحة المادة الكيميائية ضعيفة جداً. شممت بعمق أكبر. إنه ماء. إنه ماء بكل تأكيد! إنه ماء عكر، راكد، لكنه ماء رغم كل شيء. أخذت منه رشفة صغيرة. إنه لا يشبه مياه ينبوع جبلي، لكنه رطب. بدأت أشرب.

حذرتني ميلاني: «مهلك... مهلك!». كنت مضطرة إلى موافقتها. لقد أسعفني حظي فعثرت على هذا الكنز، لكن من العبث أن أبدده هكذا. كما أنني في حاجة الآن إلى أكل شيء صلب بعد أن خفّت حرقة الملح في فمي. استدرت إلى علبة البسكويت ولعقت فتات ثلاث قطع محطمة.

كانت الخزانة الأخيرة فارغة.

بمجرد أن هدأت قرصات الجوع قليلاً، بدأ نفاد صبر ميلاني يتسرب إلى أفكاري. لم أشعر برغبة في المقاومة هذه المرة. أسرعت فوضعت مؤونتي الجديدة في الحقيبة. أخرجت زجاجات المياه الفارغة من الحقيبة حتى أفسح مكاناً للزجاجات الجديدة. كانت قوارير مادة التنظيف ثقيلة. لكن ثقلها كان ثقلاً مريحاً لنفسي. يعني وجود هذا الثقل أنني لن أستلقي على أرض الصحراء لأنام جائعة ظمأى هذه الليلة. بدأت طاقة السكّر الذي أكلته تسري في عروقي فقفزت خارجة إلى ضوء النهار الساطع من جديد.

## الفصل الثاني عشر

# فشل

«هذا مستحيل! لقد أخطأت! هذا غير صحيح! لا يمكن أن يكون هو!».

رحت أحدق في البعيد وقد أصابني عدم التصديق بالغثيان. سرعان ما تحوّل غثياني إلى خوف.

أكلت كل ما بقي من البسكويت منذ صباح الأمس. وبعد ظهر أمس وجدت أن القمة المزدوجة قد صارت في اتجاه الشرق من جديد. لقد أعطتني ميلاني ما قالت إنه آخر علامة يجب أن نعثر عليها. جعلني ذلك الخبر في فرحة شبه هستيرية. وفي الليلة الماضية شربت آخر ما بقي عندي من الماء. إن هذا يومنا الرابع هنا.

كان هذا الصباح ذكرى ضبابية عن شمس تعمي الأبصار. وعن أمل يائس. كان الوقت ينفد سريعاً. وكنت قد فتشت خط الأفق كله بحثاً عن العلامة الأخيرة. فتشت عنها بخوف متزايد. لم أستطع رؤيتها حيث يجب أن تكون. كان خط الأفق الممتد الطويل مملوءاً بالقمم من الجانبين. قمم تقف مثل الحرس. لا بد للقمة التي أبحث عنها من الظهور هنا. كانت الجبال المرئية إلى الشرق وإلى الشمال مليئة بقمم صغيرة مدببة. لكني لم أستطع رؤية تلك القمة الناتئة المستوية مختبئة بين تلك القمم الصغيرة.

توقفت وقت الضحى حتى أنال قسطاً من الراحة. كانت الشمس ما

تزال في جهة الشرق، في عيني. أحسست بضعف شديد أخافني. بدأت كل عضلة في جسدي تؤلمني، لكنه ما كان ذلك الألم الذي أحسسته طوال وقت المشي. كنت أحس بألم الإجهاد، وكنت أحس أيضاً بالألم الناتج عن النوم على الأرض القاسية. لكن هذين الألمين كانا مختلفين عن الألم الجديد الذي أحسه الآن. كان جسدي يموت. وكان هذا الألم احتجاج من عضلاتي على تعذيبها المستمر. أدركت الآن أنني ما عدت أستطيع المضي أبعد من ذلك.

أدرت ظهري إلى الشرق حتى أبعد الشمس عن عيني لحظة واحدة.

عندئذ رأيتها! رأيت تلك القمة المستوية. قمة لا تخطئها العين وسط القمم المدببة المحيطة بها. هناك كانت. هناك كانت بعيدة جداً في الغرب. كانت بعيدة إلى حد جعلها تبدو مثل شيء طافٍ فوق السراب. مثل شيء يعوم. يحوم فوق الصحراء مثل غيمة قاتمة. كانت كل خطوة خطوناها متجهة في الاتجاه الخاطئ! كانت العلامة الأخيرة أكثر بعداً إلى الغرب مما تخيلنا طوال رحلتنا.

همست لنفسي من جديد: «مستحيل».

كانت ميلاني جامدة داخل رأسي. جامدة من غير تفكير. فارغة. كانت تحاول يائسة رفض هذا الإدراك الجديد. انتظرتها. وكانت عيناي تتابعان تفاصيل ذلك الشكل المألوف إلى حد لا يمكن إنكاره. ظللت أنظر إلى تلك القمة حتى داهمني ثقل مفاجئ. ثقل إدراكها تلك الحقيقة ويأسها. فسقطت على ركبتي. تردد إحساسها الصامت بالهزيمة في رأسي فأضاف ألماً جديداً إلى ألمي. تقطعت أنفاسي. بدأت أنشج نشيجاً من غير صوت. من غير دموع. صارت الشمس فوق رأسي. تغلغلت حرارتها عميقاً في ظلمة شعري.

صار ظلي دائرة صغيرة من تحتي عندما استعدت السيطرة على نفسي. نهضت على قدميّ من جديد. والألم يعتصرني. كانت حصيّات حادة صغيرة قد انغرست في ركبتيّ عندما سقطت على الأرض.

لم أعبأ بنفضها عني. بدأت السير صوب القمة الطافية التي تسخر مني. تسخر مني من ناحية الغرب.. بعيدة عني.

أخيراً، لا أدري حقاً لماذا فعلت ذلك، بدأت أمشي من جديد. كنت أعرف شيئاً واحداً: أنا من يتحرك الآن. إنها ليست ميلاني. كانت ميلاني الآن صغيرة جداً في عقلي. كبسولة صغيرة من الألم ملتفة بإحكام حول نفسها. لا أستطيع انتظار عون منها هذه اللحظة.

كانت خطواتي بطيئة جداً على تلك الأرض الجرداء.

تمتمت لنفسي: «لقد كان معتوهاً عجوزاً غريب الأطوار!». هز صدري ارتعاد مفاجئ وانبعث من حنجرتي سعال جاف متقطع. استمر ذلك السعال المتخشب، لكني لم أدرك أنني أضحك إلى أن بدأت الدموع تحرق عيني الجافتين.

«لم يكن. لم يكن أي شيء هنا. أبداً أبداً!». هكذا رحت أهمس بين نوبات الضحك الهستيري. رحت أترنح في سيري كما لو أنني سكرى. كانت آثار خطواتي تسير من خلفي في خط غير منتظم.

انبعثت ميلاني من بؤسها. خرجت حتى تدافع عن إيمانها الذي ما زالت متعلقة به: «لا! لا بد أنني أخطأت أو شيء من هذا القبيل. أنا المخطئة!».

صرت أضحك منها الآن. امتصت الريح الحارقة صوت ضحكاتي.

فكرت ميلاني محاولة شد انتباهي بعيداً عن النكتة المأساوية: «انتظري! انتظري! أنت لا تظنين... أقصد... هل تظنين أنهما يمكن أن يكونا قد حاولا مثلنا؟».

قطع ذعرها المفاجئ ضحكاتي. اختنقت في ذلك الهواء الحار، وراح صبري ينتفض بسبب نوبة الهستيريا التي مرت بي. وعندما صرت قادرة على التنفس من جديد كانت آثار ضحكاتي السوداء قد اختفت. راحت عيناي تجوسان خواء الصحراء بحركة غريزية. كانتا تبحثان عن أي شيء يشير إلى أنني ما كنت الوحيدة التي تفقد حياتها على هذا النحو.

كان السهل خاوياً تماماً من حولي، لكنني ما استطعت إيقاف بحثي المجنون عن. بقايا بشرية.

«لا، بالطبع لا». كانت ميلاني تهدئ مخاوفها. «إن جارد ذكي جداً! لن يأتي أبداً إلى هنا غير مستعد لهذه الرحلة، مثلما فعلنا! لن يعرض جيمي إلى الخطر أبداً!»

قلت لها آملة أن أستطيع تصديق هذه الحقيقة: «أنا واثقة من أنك محقة. أنا واثقة من أن أحداً غيرنا، في هذا الكون كله، لا يمكن أن يكون في مثل غبائنا. ولعله أيضاً لم يأت إلى هنا أبداً. لعله لم يستطع تفسير الخريطة. ليتك لم تستطيعي تفسيرها أنت أيضاً».

واصلت قدماي الحركة إلى الأمام. كنت غير واعية لحركتهما تقريباً. كان تحركي غير ذي معنى بالنظر إلى المسافة النائية التي لا تزال أمامنا. حتى لو وصلنا بأعجوبة من الأعاجيب إلى سفح تلك القمة. فماذا بعد ذلك؟ كنت واثقة ثقة مطلقة من عدم وجود أي شيء هناك! ما كان أحد ينتظرنا هناك حتى ينقذنا

قلت: «سوف نموت». فوجئت بعدم وجود أي خوف في صوتي الجاف. كانت تلك حقيقة مثل أي حقيقة أخرى. الشمس حارة، الصحراء جافة. ونحن سوف نموت.

قالت ميلاني بصوت هادئ أيضاً: «نعم». كان قبول هذا الموت أكثر سهولة عليها من قبول فكرة أن الجنون هو وحده ما كان يقود خطواتنا.

«ألا يزعجك ذلك؟».

فكرت قليلاً قبل أن تجيبني: «لقد حاولت... وأنا أموت أثناء المحاولة على الأقل! لقد فزت. لم أخنهما. لم أتسبب في أذيتهما. لقد فعلت كل ما في وسعي للعثور عليهما. لقد حاولت حفظ وعدي... وعدي بأن أموت من أجلهما».

أحصيت تسع عشرة خطوة قبل أن أستطيع الإجابة. تسع عشرة خطوة خرقاء عبثية على تلك الأرض.

تساءلت في نفسي: «ما الذي أموت من أجله أنا؟». عاد ذلك الشعور الواخز يحرق مجاري الدمع في عيني. «أظن أنني أموت لأنني ضعت. أليس هذا صحيحاً؟ أهذا هو السبب؟»

أحصيت أربعاً وثلاثين خطوة قبل أن تجيب عن سؤالي.

كانت أفكارها بطيئة: «لا، لست أظن هذا. أظن... أظن أنك ربما... أظن أنك تموتين حتى تصبحي بشرية». كدت أرى ابتسامة في أفكارها عندما سمعت ذلك المعنى المزدوج السخيف في عبارتها. «بعد كل تلك الكواكب التي عشت فيها وبعد كل تلك الأجساد المضيفة التي تركتها من خلفك... وجدت أخيراً المكان والجسد اللذين تريدين الموت فيهما. أظن أنك وجدت موطنك أيتها الجوالة!».

عشر خطوات.

ما عاد عندي طاقة حتى أفتح شفتي من جديد: «إذاً، من المؤسف جداً أنني لن أبقى هنا زمناً أطول».

ما كنت واثقة من إجابتها. لعلها كانت تحاول رفع روحي المعنوية. لعلها خدعتني فجرّتني حتى تموت هي هنا. لقد فازت؛ إنها لم تختف أبداً.

بدأت خطواتي تتهاوى. صرخت عضلاتي طالبة الرأفة، كأن لدي وسيلة أريحها بها. أظن أنني كنت سأتوقف عند تلك النقطة تماماً، لكن ميلاني كانت أقوى مني، كعهدها دائماً.

أستطيع أن أشعر بها الآن، لا في رأسي فحسب بل في أطرافي أيضاً. استطالت خطواتي. وصارت مشيتي أكثر استقامة. كانت تجر جسدي نصف الميت إلى الأمام بقوة الإرادة وحدها، صوب الهدف المستحيل.

كان في هذا الصراع العبثي متعة غير متوقعة. وكما كنت أحس بها كانت تحس بجسدي أيضاً. بل هو جسدنا الآن. أسلّم ضعفي قياده لها. أما هي فكانت مسرورة بحرية تحريك ذراعينا وساقينا إلى الأمام مهما تكن

تلك الحركة عديمة الجدوى. كانت متعتها كامنة في قدرتها على الوجود من جديد. بل إن ألم الموت البطيء الذي بدأناه كان باهتاً بالمقارنة مع متعتها هذه.

سألتني فيما كنا نمشي قدماً صوب النهاية: «ما الذي يوجد هناك في رأيك؟ ما الذي سنراه بعد أن نموت؟».

«لا شيء». كانت هذه الكلمة فارغة قاسية قاطعة. «ثمة سبب لتسميتنا هذا الموت الموت النهائي».

«ألا تؤمن الأرواح بالحياة الأخرى؟».

«نحن نعيش حياتنا مرة بعد مرة. وأي شيء أكثر من هذا سيكون... أكثر مما يحق لنا توقعه. إننا نموت موتاً صغيراً كلما تركنا مضيفاً. ثم نعيش من جديد في مضيف آخر. وعندما أموت هنا سيكون هذا موتي الأخير».

ساد صمت طويل فيما راحت خطواتنا تتحرك إلى الأمام ببطء متزايد.

سألتها أخيراً: «وماذا عنك؟ أما زلت مؤمنة بوجود شيء بعد الموت، حتى بعد هذا كله؟» راحت أفكاري تجول في ذكرياتها عن نهاية عالم البشر.

«يبدو أن ثمة أشياء لا يمكن أن تموت».

كان وجهاهما قريبين واضحين في ذهننا. وكان الحب الذي نشعر به تجاه جارد وجيمي يبدو دائماً. أبدياً. في تلك اللحظة تساءلت ما إذا كان الموت يملك ما يكفي من القوة لإنهاء شيء على هذا القدر من الحدة والحيوية. لعل هذا الحب قادر على الاستمرار في العيش معها في مكان خيالي له بوابات لؤلؤية. لكن، ليس معي أنا.

هل أشعر بالراحة إذا تحررت من الأمر كله؟ ما كنت متأكدة من هذا. بدا الأمر كأنه جزء من ماهيتي الآن.

لم نستطع الاستمرار أكثر من ساعات قليلة. وما عادت القوة الذهنية

الهائلة لدى ميلاني قادرة على طلب المزيد من جسدنا المتهالك. ما عدنا قادرتين على الرؤية تقريباً. وكأننا صرنا غير قادرتين على العثور على الأوكسجين في الهواء الجاف الذي نستنشقه ثم نبصقه من جديد. جعل الألم حشرجات خشنة تخرج من بين شفتينا.

قلت لها مناكفة. بضعف. بينما كنا نترنح صوب غصن جاف يعلو أقداماً قليلة فوق أجمة صحراوية منخفضة: «أظن أنك لم تعرفي شيئاً في مثل هذا السوء من قبل». كنا راغبتين في الوصول إلى شذرات الظل الواهية قبل أن نسقط إلى الأرض.

«لا، لم أعرف شيئاً في مثل هذا السوء».

بلغنا هدفنا. بسطت الشجرة الميتة ظلها الباهت فوقنا. تهاوت ساقانا من تحتنا. حبونا على أربع. ما كنا نريد سقوط الشمس على وجهنا من جديد. استدار وجهنا إلى ناحية من تلقاء ذاته باحثاً عن الهواء الحارق. ورحنا نحدق في التراب الذي ما عاد يبعد إلا سنتمترات قليلة عن أنفنا. رحنا نصغي إلى لهاث أنفاسنا.

وبعد وقت، وقت طويل أو قصير، لم نكن ندري، أغمضنا عينينا. كانت أجفاننا حمراء. كانت متوهجة من الداخل. ما كنا قادرتين على الإحساس بالظل الواهي من فوقنا؛ لعله ما عاد يغطينا الآن.

سألتها: «كم مر من الوقت؟».

«لست أدري، لم أمت من قبل».

«لعلها ساعة! أو أكثر».

«لست أستطيع التخمين أكثر منك».

«أين هي الحيوانات المفترسة؟ أين هي الآن عندما صرنا في حاجة إلى واحد منها؟».

«لعل الحظ يحالفنا... لعل حيواناً مفترساً أو شيئاً من هذا القبيل يمر بنا...» راحت أفكارها تتالى من غير انسجام.

كان هذا آخر حديث بيننا. صار التركيز اللازم لصياغة الكلمات شديد الصعوبة. وكان الألم أكثر مما توقعنا. كانت عضلات جسدنا كله تجأر محتجة. تتقلص وتنتفض محاربة موتها.

لكننا لم نحارب. كنا ننتظر! كانت أفكارنا تنتقل من ذكرى إلى أخرى من غير نهج محدد. وفي لحظات صحونا القليلة الباقية كنا نهمهم أغنية في رأسنا. كانت هي الأغنية التي اعتدنا استخدامها لتهدئة جيمي عندما تكون الأرض التي ينام عليها شديدة القساوة، أو عندما يكون الجو شديد البرودة، أو عندما يمنعه خوفه من النوم. كنا نشعر بضغط رأسه عند ذلك التجويف الواقع تحت كتفنا. ونشعر بشكل ظهره تحت ذراعنا. ثم بدا لنا أن رأسنا كان متوسداً كتفاً أكثر رحابة واتساعاً. وبدا لنا أن أغنية أخرى جديدة تهدئنا.

استحالت أجفاننا سوداء، لكن هذا ما كان بفعل الموت. لقد حل الليل، وهذا ما أحزننا. فمن دون حرارة النهار يمكن أن نعيش زمناً أطول!

استمر الظلام واستمر الصمت مسافة لا وقت لها. ثم ظهر صوت.

لم يفعل الصوت إلا أن نبّهنا. ما كنا واثقتين من سماع صوت فعلاً. لعلنا تخيلناه. لعله حيوان مفترس! هل نريد حيواناً مفترساً؟ لم نكن ندري. غرقنا من جديد في سلسلة أفكارنا فنسينا ذلك الصوت.

هزّنا شيء ما! راح يجذب ذراعينا الخدرتين. يشدّهما. ما كنا نستطيع صياغة كلمات نعبّر فيها عن رغبتنا في أن يكون الأمر فيها سريعاً الآن، لكن هذا كان أملنا. رحنا ننتظر انغراس الأنياب فينا. لكن الجذب صار دفعاً الآن. شعرنا بوجهنا ينقلب إلى الأعلى، صوب السماء.

لقد انصب فوق وجهنا. رَطِباً، بارداً، مستحيلاً. راح يقطر فوق عينينا غاسلاً التراب عنهما. رفرفت عينانا. رفرفتا بسبب هذه القطرات.

ما كنا نبالي بالحرقة في عينينا. اندفعت ذقننا إلى الأعلى باحثة بحثاً

يائساً. انفتح فمنا وانغلق بضعف أعمى. كنا مثل طير خرج الآن من البيضة.

ظننا أننا سمعنا شخصاً يتنهد.

عند ذلك تدفق الماء في فمنا. رحنا نبتلع الماء. نشرق به. انقطع الماء عندما شرقنا فامتدت يدانا الضعيفتان مطالبتين به. سمعنا صوت ضربات ثقيلة على ظهرنا. استمرت الضربات حتى استعدنا القدرة على التنفس من جديد. لكن يدينا واصلتا التشبث بالهواء باحثتين عن الماء.

كنا واثقتين من أننا سمعنا شخصاً يتنهد هذه المرة.

ضغط شيء على شفتينا المشققتين ثم تدفق الماء من جديد. رحنا نمتص الماء محاذرتين أن نشرق به هذه المرة. ما كان هذا لأننا خائفتين من الاختناق بل لأننا ما كنا نريد ابتعاد الماء عنا.

شربنا حتى انتفخ بطننا حتى آلمنا. توقف تدفق الماء فجأر صوتنا خشناً. محتجاً. انضغطت فوهة أخرى على شفتينا فرحنا نعبّ الماء محمومتين حتى فرغ الماء من جديد.

سوف تنفجر معدتنا إن شربنا جرعة ماء إضافية واحدة. لكننا رحنا نرمش بعينينا محاولتين تركيز بصرنا. محاولتين معرفة ما إذا كنا نستطيع نيل المزيد من الماء. كان الظلام دامساً. ما كنا نرى نجماً واحداً في السماء. رفرفت عينانا من جديد وأدركنا أن تلك الظلمة كانت أقرب إلينا بكثير من السماء. كان جسد يحوم فوقنا. جسد أكثر سواداً من الليل.

سمعنا صوتاً منخفضاً لقماش يحتك بقماش، وسمعنا صرير الرمل تحت حذاء. انحنى ذلك الجسد مبتعداً عنا وسمعنا صوتاً حاداً. صوت سحّاب. صوت كان مصمّاً في هدوء الليل المطلق.

انطلق ضوء مثل نصل السكين فجرح عينينا. صدر عنا أنين محتج على ذلك الألم وطارت يدانا تغطيان عينينا المغمضتين.

كان الضوء شديداً حارقاً، حتى من خلف جفنينا المغمضين. اختفى الضوء ثم أحسسنا بهواء تنهيدة أخرى يضرب وجهنا.

فتحنا عينينا محاذرتين. كنا الآن أكثر عمى من ذي قبل. كان ذلك الشخص جالساً بهدوء شديد. لم يقل أي شيء! بدأنا نحس توتر اللحظة، لكنها بدت بعيدة كل البعد. خارج نفسينا. كان صعباً أن نبالي الآن بأي شيء إلا بالماء في بطننا وباحتمال العثور على مزيد من الماء. رحنا نحاول التركيز. لنرى ما الذي أنقذنا.

كان أول شيء استطعنا تمييزه بعد دقائق من رفرفة العينين شكل بياض كثيف ينسدل من وجه مظلم. كان ذلك البياض مشعاً بمليون شذرة شاحبة في ذلك الليل. وعندما أدركنا أن هذا البياض كان لحية شائبة. مثل لحية سانتا كلوز. هكذا خطر في بالنا على نحو فوضوي. أسرعت ذاكرتنا فأسعفتنا ببقية تفاصيل هذا الوجه. كان كل شيء يقع في مكانه الصحيح: الأنف الكبير ذو الرأس المفلطح، والوجنتان العريضتان، والحاجبان الأبيضان الكثيفان، وعينان منغرستان عميقاً في جلد متغضن. ما كنا نستطيع رؤية أكثر من ملامح واهية لكل تفصيل من هذه التفاصيل، لكنا عرفنا كيف يمكن لهذه التفاصيل أن تبدو عندما ينيرها الضياء.

صرخنا مدهوشتين: «العم جيب! لقد وجدتنا!».

عندما نطقنا اسمه، نهض العم جيب الجالس قبالتنا وقال: «لا بأس الآن». جلب صوته الأجش مئة ذكرى أخرى. «لا بأس الآن، إليك خيارة مخللة».

## الفصل الثالث عشر

# حكم

«أهما هنا؟» نطقنا هاتين الكلمتين بصوت مخنوق. اندفعت الكلمات من فمنا كما لو أن الماء الذي دخل رئتينا منذ حين قد عاد فخرج منهما. كان هذا السؤال يختصر كل ما يهمنا، بعد الماء. «هل نجحا في الوصول إلى هنا؟».

سألنا العم جيب: «من هما؟» كان وجهه مستحيل القراءة في تلك الظلمة.

همسنا بصوت حارق كأنه صياح: «جيمي وجارد! كان جارد مع جيمي. شقيقنا! هل هما هنا؟ هل جاءا؟ هل عثرت عليهما أيضاً؟».

أجابنا العم جيب من غير توقف.

«لا». كان جوابه حاسماً قاطعاً وما كان فيه شفقة. ما كان فيه إحساس على الإطلاق.

همسنا: «لا». ما كنا نردد صدى كلمته. كنا الآن نحتج على إعادة حياتنا إلينا. ما الغرض من هذا؟ أغمضنا عينينا من جديد ورحنا نصغي إلى الألم في جسدنا. تركنا ذلك الألم يجلو الألم الذي في عقلنا.

قال العم جيب بعد لحظة: «انظري! لدي. لدي أمر آخر أهتم به الآن. نالي قسطاً من الراحة، وسوف أعود من أجلك».

لم ندرك المعنى في كلماته. سمعنا صوت تلك الكلمات فقط. ظلت عينانا مغمضتين. سمعنا وقع خطواته تبتعد هادئة. ما كنا قادرتين على معرفة الاتجاه الذي مضى فيه. ما كنا نهتم أصلاً!

لقد ذهبا. ما عاد أمامنا سبيل إلى العثور عليهما. ما عاد لدينا أمل! اختفى جارد وجيمي. إن الاختفاء شيء يعرفان كيف يفعلانه على نحو جيد جداً. لن نعثر عليهما من جديد.

جاءنا النعاس بفعل الماء وبفعل هواء الليل البارد. ما كنا راغبتين في هذا النعاس. انقلبنا على وجهنا حتى ندفنه في الرمل من جديد. كنا متعبتين كثيراً، تجاوزنا حد الإعياء وغرقنا في حالة أكثر عمقاً. أكثر إيلاماً نستطيع أن ننام بالتأكيد. ليس علينا إلا أن نكف عن التفكير. هذا أمر نستطيعه.

كففنا عن التفكير.

وعندما استيقظنا كان الليل مستمراً، لكن الفجر كان يلوح من خلف الأفق الشرقي. كان خط الجبال البعيد مكللاً بلون أحمر كالح. أحسسنا طعم الغبار في فمنا. كنا واثقتين في البداية من أن ظهور العم جيب ما كان إلا حلماً. نعم، ما كان إلا حلماً.

صار رأسنا أكثر صفاء هذا الصباح. سرعان ما لاحظنا شكلاً غريباً عند خدنا الأيمن. شيء ما كان حجراً. وما كان صباراً. لمسنا هذا الشيء فوجدناه صلباً ناعماً. دفعناه بيدنا فسمعنا صوت الماء اللذيذ يتلاطم في داخله.

كان العم جيب حقيقياً! وقد ترك لنا مطرة ماء.

جلسنا بحذر. فوجئنا عندما لم ينكسر جسدنا مثل عصا جففتها الريح. كنا في حال أحسن في واقع الأمر. لا بد أن الماء الذي شربناه قد تمكن من الوصول إلى بعض أجزاء جسدنا. لا بد أن هذا أثر الماء. كان الألم خفيفاً؛ وللمرة الأولى منذ فترة طويلة، شعرنا بالجوع من جديد.

كانت أصابعنا متصلبة خرقاء عندما حللنا غطاء المطرة. ما كانت مليئة كلها، لكننا وجدنا فيها من الماء ما يكفي لتوسعة جدران معدتنا من جديد. لا بد أن معدتنا قد انكمشت. شربنا الماء كله. لقد انتهى زمن الاقتصاد.

أسقطنا المطرة المعدنية على الرمل فانبعث صوت اصطدام مكتوم في الصمت الذي يسبق الفجر. صرنا صاحيتين تماماً في هذه اللحظة. تنهدنا. كنا نفضل انعدام الوعي. سقط رأسنا بين يدينا. ماذا الآن؟

سمعنا صوتاً غاضباً يسأل من مسافة قريبة خلفنا: «كيف تعطيها الماء يا جيب؟».

تحركنا نهضنا على ركبتينا. اضطرب قلبنا وانفجر وعينا شظايا عندما رأينا ما رأيناه.

رأينا ثمانية من البشر واقفين في نصف دائرة من حولنا. كانوا واقفين حول تلك الشجرة التي كنت راكعة تحتها. لا مجال للشك في أنهم من البشر. لم أر من قبل وجوهاً شوهتها هذه التعابير إلى ذلك الحد. لم أرها لدى بني جنسي على الأقل. كان الكره يشوه شكل شفاههم، يجعلها ملتوية، يجعلها تكشف عن أسنان مطبقة من خلفها. مثل أسنان الحيوانات البرية. كانت حواجبهم منحدرة فوق عيونهم التي تشتعل فيها نار الغضب.

كانوا ستة رجال وامرأتين، وكان بعضهم شديد الضخامة. كان أكثرهم أكبر حجماً مني. أحسست بالدم يهرب من وجهي عندما أدركت سبب وضعيات أيديهم الغريبة أمام أجسادهم. كان كل منهم ممسكاً شيئاً في يده. إنهم يحملون الأسلحة. كان بعضهم يحمل نصالاً بضع نصال قصيرة كالتي كنت أستخدمها في مطبخي، وبعض نصال طويلة. كان أحدها ضخماً مرعباً! لا عمل لهذه النصال في أي مطبخ. زودتني ميلاني بالكلمة المناسبة: إنه سيف.

كان الآخرون يحملون قضباناً طويلة. كان بعض هذه القضبان معدنياً وبعضها كان خشبياً. إنها هراوات.

رأيت العم جيب واقفاً في وسطهم. وكان في يده شيء لم أره من قبل إلا في ذكريات ميلاني. شيء يشبه سكيناً كبيراً. إنها بندقية.

رأيت الرعب في هذا المشهد كله، لكن ميلاني رأت فيه أعجوبة من

الأعاجيب. كان ذهنها يحاول تخيل عددهم. ثمانية بشر أحياء! كانت تظن أن جيب موجود هنا وحده، أو مع اثنين آخرين في أحسن الأحوال. لقد امتلأت فرحة لرؤية هذا العدد الكبير من بني جنسها على قيد الحياة.

قلت لها: «انت حمقاء! انظري إليهم! ألا ترينهم؟».

أرغمتها على رؤية الأمر من منظوري أنا: أرغمتها على رؤية تلك الأشكال المهددة بالخطر في سراويلها الزرقاء وقمصانها القطنية الخفيفة التي جعلها الغبار بنية اللون. لعلهم كانوا بشراً. خطرت هذه الكلمة في ذهنها. ذات مرة، لكنهم كانوا شيئاً آخر في هذه اللحظة. كانوا برابرة. وحوشاً. كانوا محدِّقين بنا. . متشوِّقين إلى الدم.

قرأت حكماً بالموت في كل زوج من تلك الأعين.

رأت ميلاني هذا كله فاعترفت كارهة بأنني كنت على حق. في هذه اللحظة كان بشرها المحبوبون في أسوأ أحوالهم. تماماً مثلما تحدثت تلك الصحيفة التي عثرنا عليها في الكوخ المهجور. كنا ننظر الآن إلى مجموعة من القتلة.

كان ينبغي أن نتحلى بحكمة أكبر؛ كان ينبغي أن نموت منذ الأمس!

ما الذي جعل العم جيب يبقينا حيتين حتى نواجه هذا؟ سَرَت في جسدي رعشة عندما خطرت هذه الفكرة في بالي. لقد سبق لي الاطلاع على تاريخ فظائع بني البشر. ما كنت أطيق القراءة عنها. ربما كان عليّ التعمق فيها أكثر! أعرف أن ثمة أسباباً تجعل البشر يبقون على حياة أعدائهم. لفترة وجيزة. يُبْقون عليها من أجل أشياء يريدونها من عقولهم. أو من أجسادهم.

انبثق ذلك في ذهني على الفور. بطبيعة الحال. ذلك السر الذي يريدونه مني. السر الذي لا أستطيع إخبارهم به أبداً. أبداً! مهما فعلوا بي. سيكون عليّ أن أقتل نفسي أولاً

لم أسمح لميلاني برؤية السر الذي كنت أصونه. كنت أستخدم دفاعاتها ضدها فأقيم جداراً في رأسي يخفي السر خلفه. يخبئ هذا

السر الذي لم أفكر فيه منذ أن جرى زرعي في هذا الجسم حتى هذه اللحظة. ما كان لدي سبب يدعوني إلى التفكير فيه من قبل.

ما كانت ميلاني تلاحظ شيئاً على الجانب الآخر من الجدار. ما كانت تبذل أي جهد للنفاذ خلاله. إن أمامها الآن أشياء راهنة ملحّة تتجاوز أهميتها حقيقة أنها لم تكن الشخص الوحيد الذي يخفي معلومات عن الآخر.

أَيَهُمّ حقاً أن أحمي سري منها؟ ما كنت قوية مثلها؛ ما كان لدي شك في قدرتها على تحمّل التعذيب. كم أستطيع احتمال الألم قبل أن أعطيهم كل ما يريدون؟

اضطربت معدتي. كان الانتحار خياراً كريهاً مرفوضاً. وكان أسوأ لأنه سيكون جريمة قتل أيضاً. سوف تكون ميلاني جزءاً من أي تعذيب أو موت. سوف أنتظر حتى لا يبقى أمامي أي خيار على الإطلاق.

«لا، إنهم لا يستطيعون ذلك. لن يسمح لهم العم جيب بإيذائي ابداً».

قلت أذكّرها: «إن العم جيب لا يدري شيئاً عن وجودك هنا».

«أخبريه إذاً!».

رحت أمعن النظر في وجه الرجل العجوز. منعتني لحيته البيضاء الكثيفة من رؤية شكل فمه، لكني لم أر غضباً محترقاً في عينيه كما رأيت في أعين الآخرين. ومن زاوية عيني رأيت عدداً من الرجال ينقلون نظراتهم بينه وبيني. كانوا ينتظرون أن يجيب عن السؤال الذي نبهني إلى وجودهم في البداية. كان العم جيب ينظر صوبي متجاهلاً إياهم.

«لا أستطيع إخباره يا ميلاني، لن يصدقني. وإذا ظنوا أنني اكذب عليهم فسوف يعتقدون أنني واحدة من الباحثين. لا بد أنهم خاضوا من التجارب ما يكفيهم لمعرفة أن أحداً لن يكذب عليهم كذبة من هذا النوع إلا إذا كان باحثاً... أن أحداً لن يخبرهم قصة مصممة من أجل الاندساس بينهم إلا إذا كان أحد الباحثين».

أدركت ميلاني صواب ما قلته لها على الفور. جعلتها كلمة باحثين تنكمش على نفسها كراهية. كانت تعرف أن ردّ فعل هؤلاء الغرباء سيكون مماثلاً لردّ فعلها.

«لا اهمية لهذا على أي حال. انا روح... وهذا كافٍ بالنسبة إليهم».

صدر صوت قرف عن أحد الرجال. عن الرجل الذي يحمل السيف. كان الأضخم بينهم. أسود الشعر أزرق العينين. كان جلده أشقر اللون على نحو غريب. بصق على الأرض. تقدم خطوة إلى الأمام رافعاً سيفه الطويل بحركة بطيئة.

الموت السريع أفضل من الموت البطيء! من الأفضل أن تقتلنا هذه اليد القاسية بدلاً من أن أجعل يديّ تقتلاني. هذا أفضل لأنني لن أموت مخلوقة عنيفة. ولن أكون مسؤولة عن سفك دم ميلاني ولا دمي أنا.

صدرت عن جيب كلمات متمهلة: «تمهل يا كَايل!». خرجت كلماته كأنها كلمات عادية، لكن الرجل الضخم توقف. كشر غاضباً واستدار يواجه عم ميلاني.

«لماذا؟ قلت لنا إنك تأكدت! إنها واحدة منهم».

عرفت هذا الصوت. إنه الصوت نفسه الذي سأل جيب عن سبب إعطائنا الماء.

«صحيح، نعم، إنها منهم بكل تأكيد. لكن الأمر معقد بعض الشيء».

«كيف؟» طرح هذا السؤال رجل آخر. كان واقفاً خلف كَايل الضخم. وكان شديد الشبه به، كأنهما أخوان.

«ألا ترى أن هذه ابنة أخي أيضاً؟».

قال كَايل بصوت خال من التعبير: «لم تعد ابنة أخيك». بصق على الأرض من جديد وخطا صوبي خطوة متمهِّلة جديدة. كان السيف جاهزاً في يده. رأيت من حركة كتفيه المستعدتين للضرب أن الكلمات لم تعد قادرة على إيقافه. أغمضت عينيّ.

سمعتُ صوت تكتين معدنيتين حادتين وسمعت صوت شهقة. انفتحت عيناي من جديد.

«قلت لك أن تتوقف يا كَايل». ما زال صوت العم جيب غير متوتر، لكن يديه الآن صارتا قابضتين على البندقية الطويلة بإحكام أكبر. كانت ماسورتها متجهة إلى ظهر كَايل. تجمد كَايل في مكانه، على بعد خطوات قليلة مني. تعلق سيفه في الهواء فوق كتفه. ظل من غير حركة.

قال شقيقه باستياء واضح: «جيب! ما الذي تفعله؟».

«ابتعد عن الفتاة يا كَايل».

أدار كَايل ظهره لنا ملتفتاً نحو جيب بحركة غاضبة: «هذه ليست فتاة يا جيب!».

ابتسم جيب. لكن البندقية ظلت ثابتة بين يديه. ظلت موجهة صوب كَايل: «ثمة أشياء لا بد من مناقشتها».

سمعتُ صوت امرأة يقول مقترحاً: «ربما يتمكن الطبيب من معرفة شيء منها».

انكمشتُ عندما سمعت هذه الكلمات. عندما لمحت فيها أسوأ مخاوفي. عندما دعاني جيب ابنة أخيه منذ لحظة أضاءت شعلة من الأمل في داخلي. يا للحماقة! أأتوقع رحمة؟ غباء مني أن أفكر في هذا، حتى لثانية واحدة. سيكون الموت الرحمة الوحيدة التي أستطيع انتظارها من هذه الكائنات.

نظرتُ إلى المرأة التي تكلمت. فوجئتُ عندما رأيت أنها لا تقل عن جيب عمراً، وربما أكبر منه. كان لون شعرها رمادياً داكناً. لم يكن أبيض. لعل هذا ما منعني من ملاحظة عمرها من قبل. كانت التجاعيد تكسو وجهها كله.. وكانت كلها منحدرة في خطوط غاضبة.. إلى الأسفل. لكنني رأيت شيئاً مألوفاً في القسمات التي تبيّنتها خلف تلك الخطوط الغاضبة.

أقامت ميلاني الصلة اللازمة بين هذا الوجه العتيق وبين وجه آخر أكثر نعومة في ذاكرتها.

«عمتي ماغي! أأنت هنا؟ كيف؟ وهل شارون. . .» كانت هذه كلمات ميلاني لكنها خرجت من فمي. لم أتمكن من إيقافها. لقد زادتها شراكتنا الطويلة في الصحراء قوة على قوة. أو لعلها زادتني ضعفاً! أو لعل الأمر كان بسبب إفراطي في التركيز انتظاراً للضربة القاضية التي تقتلني. كنت أستعد لموتنا. أما ميلاني فكانت سعيدة باجتماع شمل العائلة.

لم تكمل ميلاني أسئلتها. اندفعت المرأة العجوز بحركة سريعة لا تتناسب مع مظهرها الهش. لم ترفع اليد التي تحمل الهراوة السوداء. كانت تلك هي اليد التي أراقبها. وهذا ما منعني من رؤية يدها الأخرى ترتفع ثم تصفعني صفعة قوية على وجهي.

ارتد رأسي إلى الخلف ثم عاد إلى الأمام. صفعتني من جديد.

«لن تخدعينا أيتها الطفيلية! نعرف كيفية عملكم. ونعرف كم تبلغ براعتكم في تقليدنا».

أحسست طعم دم في فمي.

قلت أوبخ ميلاني: «لا تفعلي هذا مرة ثانية. قلت لك إنهم سيفكرون على هذا النحو».

كانت صدمة ميلاني شديدة. لم تجبني.

قال جيب بصوت مهدئ: «مهلاً يا ماغي!».

«لا تقل لي مهلاً يا ماغي أيها الأحمق العجوز! لعلها قادت فريقاً منهم إلينا في هذا المكان». تراجعت مبتعدة عني. كانت عيناها تنظران إليّ كأنني حية ملتفة مستعدة للوثب. وقفت خلف أخيها.

أجابها جيب: «لست أرى أحداً منهم». ثم صاح بصوت مرتفع: «هاي!» فوجئت بهذه الصيحة فارتجفت. لم أكن وحيدة في ارتجافي. راح جيب يلوّح بيده اليسرى فوق رأسه. ما زالت يده اليمنى قابضة على البندقية. «نحن هنا!».

«اسكت»، زمجرت ماغي ضاربة شقيقها على صدره. أعرف أنها قوية حقاً، لكن جيب لم يهتز.

«إنها وحيدة يا ماغي! كانت شبه ميتة عندما عثرت عليها. ما زالت حالتها بائسة إلى الآن. إن حشرات أم أربع وأربعين هذه لا تضحي بحياتها على هذا النحو. لو أنها منهم لجاؤوا إليها أسرع مما جئت أنا. فلتكن ما تكون. إنها وحيدة!».

رأيت في ذهني صورة تلك الحشرة الطويلة كثيرة الأرجل، لكنني لم أعرف ما الرابط بيني وبينها.

ترجمت لي ميلاني: «إنه يتحدث عنك انت». وضعت في ذهني صورة تلك الحشرة البشعة إلى جانب الصورة التي في ذاكرتي. صورة روح فضية جميلة. لم أر تشابهاً بين الصورتين.

تساءلت ميلاني شاردة الذهن: «عجباً! كيف يعرف شكلك؟». كانت صورة الروح التي في ذكرياتي جديدة بالنسبة لها.

ما كان عندي وقت أضيعه في الحديث معها. كان جيب يمشي صوبنا الآن، وكان الآخرون يقتربون من خلفه. امتدت يد كَايل إلى كتف جيب. كان مستعداً لإيقافه، أو لإزاحته عن طريقه، لم أكن أدري.

وضع جيب البندقية في يده اليسرى ومد يده اليمنى صوبي. راقبت تلك اليد حذرة، منتظرة ضربة منها.

قال يستحثني بصوت لطيف: «هيا! لو كنت أستطيع حملك كل تلك المسافة لحملتك الليلة الماضية. عليك أن تسيري مسافة أخرى».

صاح كَايل: «لا!».

قال جيب: «سوف آخذها معي». وللمرة الأولى سمعت في صوته نبرة خشونة. ومن تحت لحيته انطبق فكاه بحركة معاندة.

قالت ماغي محتجة: «جيب!».

«إن المكان لي يا ماغي! وسوف أفعل ما أريد».

صاحت من جديد: «يا للأحمق العجوز!».

انحنى جيب وأمسك بيدي حيث كانت منقبضة على فخذي. جذبني فأوقفني على قدمي. ما كانت حركته فظة؛ كانت توحي باستعجاله فحسب! لكن، أليس هذا أسوأ أنواع القسوة؟ أليس هذا إطالة لحياتي من أجل أسباب يضمرها في نفسه؟

ترنحت غير قادرة على الثبات. ما كنت أشعر بقدميَّ على نحو جيد. أحسست بوخزات مثل وخزات الإبر عندما تدفق الدم هابطاً إلى قدميّ.

صدرت من خلفه همهمات غير موافقة. جاءت هذه الهمهمات من عدة أفواه.

قال لي بصوت ما زال لطيفاً: «لا بأس، مهما كنت. فلنذهب من هنا قبل أن يداهمنا الحر».

وضع الشخص الذي لا بد أنه شقيق كَايل. وضع يده على ذراع جيب.

«لا تستطيع جعلها تعرف مكان عيشنا يا جيب».

قالت ماغي بصوت خشن: «أظن أن هذا الأمر غير مهم! لن تسنح لها فرصة لإخبار أحد عنا».

تنهد جيب وفك عن عنقه عصابة قماشية. كانت مختبئة تحت لحيته.

قال مدمدماً: «هذا سخف». لكنه طوى تلك العصابة القماشية القذرة المتخشبة بفعل العرق الجاف.

كنت هادئة تماماً عندما وضع العصابة على عينيّ. كنت أقاوم الرعب الذي اجتاحني عندما لم أعد قادرة على رؤية أعدائي.

ما عدت قادرة على الرؤية، لكنني أعرف أن جيب هو من وضع يده على ظهري حتى يقودني. لن يكون أحد من الآخرين لطيفاً معي إلى هذا الحد.

بدأنا السير صوب الشمال، هكذا أظن. لم يتحدث أحد في البداية.

لم أكن أسمع إلا صوت الرمل ينطحن تحت قدميّ. كانت الأرض مستوية، لكني كنت أتعثر على قدمي الخدرتين. مرة بعد مرة. كان جيب صبوراً. وكانت يده التي تقودني حنونة حقاً.

أحسست بالشمس ترتفع في كبد السماء أثناء سيرنا. كان بعض الخطوات أسرع من بعضها الآخر. سبقتنا تلك الخطوات حتى صار سماعها صعباً. بدا لي أن أقلية منهم ظلت مع جيب ومعي. لا بد أنني لا أبدو في أعينهم في حاجة إلى حراسة. كنت ضعيفة بفعل الجوع. وكنت أتمايل مع كل خطوة من خطواتي. وكان رأسي فارغاً. دوار.

«لا أظن أنك تنوي إخباره، أليس كذلك؟».

كان هذا صوت ماغي. جاءني من مسافة خطوات قليلة خلفي. أحسست اتهاماً في صوتها.

أجابها جيب: «من حقه أن يعرف». عادت نبرة العناد إلى صوته.

«ليس ما تفعله لطيفاً يا جيب!».

«ليست الحياة لطيفة يا ماغي».

كان من الصعب عليّ تبيّن الأكثر رعباً بين هذين الاثنين. هل هو جيب. الذي بدا شديد الحرص على حفظ حياتي؟ أم هي ماغي التي اقترحت اللجوء إلى الطبيب منذ البداية. فكرة مخيفة ملأتني برعب غريزي أشبه بالغثيان. كانت ماغي أكثر ميلاً إلى العنف من أخيها.

سرنا صامتين عدة ساعات. وعندما انهارت ساقاي أخيراً جعلني جيب أجلس على الأرض ووضع مطرة الماء على شفتي كما فعل في الليلة الماضية.

قال لي: «عندما تصبحين مستعدة لاستئناف السير. أخبريني». بدا صوته لطيفاً رغم معرفتي أن هذا اللطف كاذب.

سمعت زفرة نافدة الصبر.

سأل صوت رجل: «لماذا تفعل هذا يا جيب؟». سمعت هذا الصوت

من قبل؛ إنه واحد من الشقيقين. «هل تفعل هذا من أجل الطبيب؟ كان في وسعك أن تقول هذا لكَايل. ما كان عليك توجيه البندقية إليه».

همهم جيب: «كثيراً ما يكون كَايل في حاجة إلى توجيه البندقية إليه».

تابع الرجل يقول: «أرجوك، قل لي أن هذا ليس عطفاً. بعد كل ما رأيته. . .».

«إذا كنت لم أتعلم العطف بعد كل ما رأيته، فلن أكون شخصاً ذا قيمة. لكن لا، ليس الأمر عطفاً. لو كان لدي كثير من العطف على هذه المخلوقة البائسة لتركتها تموت».

ارتجفت في ذلك الهواء الحار مثل حرارة الفرن.

سأله شقيق كَايل: «ماذا إذاً؟».

ساد صمت طويل ثم أحسست يد جيب تلمس يدي. أمسكت بيده. كنت في حاجة إلى عونه حتى أقف من جديد. أحسست بيده الأخرى تسند ظهري. بدأت السير من جديد.

قال جيب بصوت منخفض: «إنه الفضول!».

لم يجبه أحد.

مشينا. رحت أتبين بعض الحقائق المؤكدة. أولاً، لم أكن الروح الأولى التي يقبضون عليها. ثمة نهج متّبع هنا. لقد حاول هذا «الطبيب»، الحصول على الإجابة من أرواح أخرى قبلي.

ثانياً، كانت محاولات الطبيب فاشلة. لو أن أي روح من قبلي حاولت تحمّل تعذيب بني البشر بدلاً من الانتحار لما كانوا في حاجة إليّ الآن! إذاً، لكان موتي سريعاً. رحيماً!

يا للغرابة! ما كنت قادرة على جعل نفسي آمل في نهاية سريعة رغم ذلك كله، وما كنت قادرة على محاولة جعلهم يعجلون بتلك النهاية. لن يكون هذا صعباً، حتى من غير أن أقوم بالأمر بنفسي. لن أكون في حاجة إلا إلى الكذب عليهم. أن أتظاهر بأنني واحدة من الباحثين، وأن أقول

لهم إن زملائي يتعقبون أثري الآن. أن أتشدق. وأن أهدد. أو يمكن أن أخبرهم الحقيقة وحدها. يمكن أن أخبرهم أن ميلاني تعيش في داخلي وأنها هي من أحضرني إلى هنا.

سيرون في كلامي كذبة أخرى. سيرون فيه كذبة محبوكة تصعب مقاومتها. كذبة تقول إن البشري قادر على الاستمرار في العيش بعد زرع الروح فيه. كذبة يكون تصديقها شديد الإغراء بالنسبة لهم. كذبة محبوكة خبيثة. كذبة تجعلهم يصدقون أنني باحثة. يصدقون ذلك بقوة أكبر مما لو ادعيت ذلك بنفسي. سوف يفترضون وجود فخ. فيتخلصون مني. ثم يذهبون باحثين عن مكان جديد للاختباء. مكان شديد البعد عن هنا.

وافقتني ميلاني: «لعلك محقة! هذا ما أفعله لو كنت في مكانهم».

لكني ما كنت أعيش الألم بعد. لذلك كان صعباً أن أتصور أي شكل من أشكال الانتحار. كانت غريزة البقاء عندي تبقي شفتي مغلقتين. ومضت في رأسي ذكرى جلستي الأخيرة مع معالجتي النفسية. زمن متمدّ جداً إلى حد جعله يبدو منتمياً إلى كوكب آخر. لقد تحدتني ميلاني أن أقتلها. كان هذا أشبه باندفاع انتحاري، لكنه ما كان إلا خدعة. تذكرت الآن كم يكون تأمل الموت صعباً عندما يكون المرء جالساً على كرسي مريح.

تمنينا الموت، أنا وميلاني، ليلة أمس. لكن الموت ما كان يبعد عنا إلا سنتمترات قليلة في ذلك الوقت. الأمر مختلف الآن فأنا واقفة على قدمي من جديد.

همست ميلاني: «وأنا لا أريد الموت أيضاً! لكن، لعلك مخطئة! ولعل هذا ليس هو سبب إبقائهم على حياتنا. لا أفهم لماذا...» ما كانت تريد تخيل الأشياء التي قد يفعلونها بنا. لا بد أنها قادرة على تخيلها أكثر مني.

«ماذا يمكن أن تكون تلك الإجابة التي يريدونها منك؟ التي يريدونها بهذه الشدة؟».

«لن أبوح بالسر أبداً! لن أبوح لك ولا لأي بشري آخر».

إنه اعتراف جريء! لكنني لم أكن أعيش الألم بعد.

مرت ساعة أخرى وصارت الشمس عموديّة فوقنا. صارت حرارتها مثل تاج من نار فوق شعري. عند ذلك تغير صوت الخطوات تحوّل صوت الخطوات التي تطحن الرمل بصوت خافت لا يكاد يسمع من أمامي فصار صوتاً مختلفاً. تحوّل إلى صدى. ما زالت قدما جيب تدوسان الرمل مثل قدميّ، لكن أحداً يسير أمامنا وصل إلى أرض مختلفة.

حذرني جيب: «انتبهي الآن! انتبهي لرأسك».

ترددت غير عارفة من أي شيء أنتبه أو كيف أنتبه من دون عينين. تركت يده ظهري وضغطت رأسي إلى الأسفل. تخبرني أن عليّ الانحناء. انحنيت إلى الأمام. كانت رقبتي متيبسة.

قادني جيب إلى الأمام من جديد فسمعت أقدامنا تصدر صوتاً هو صوت الخطوات ذات الصدى نفسه. ما كانت الأرض طرية مثل الرمل، وما كانت سائبة مثل الحصى والحجارة. إنها أرض مستوية صلبة من تحت قدمي.

اختفت الشمس من فوق رأسي. ما عدت أحس بها تحرق جلدي أو تلفح شعري.

خطوت خطوة أخرى فلامس وجهي هواء جديد. ما كان ذلك نسيماً! إنه هواء راكد. تحركت داخلة فيه. اختفت ريح الصحراء الجافة. كان الهواء هنا ساكناً. أكثر برودة. كان فيه أثر من رطوبة. رطوبة مثل الندى كنت قادرة على شمها وعلى تذوقها.

كانت في ذهني أسئلة كثيرة، وفي ذهن ميلاني أيضاً. كنت تود طرح أسئلتها، لكنني بقيت صامتة. ما من شيء يمكن أن أقوله أو أن تقوله يستطيع مساعدتنا الآن.

قال لي جيب: «لا بأس! يمكنك أن ترفعي رأسك الآن».

رفعت رأسي بحركة بطيئة.

أدركت عدم وجود ضوء هنا رغم وجود العصابة على عينيّ. كانت حواف العصابة التي تحجب عينيّ سوداء تماماً. سمعت الآخرين من خلفنا ينقلون أقدامهم بصبر نافد. ينتظرون تقدمنا إلى الأمام.

قال جيب: «من هذا الطريق». صار يقودني من جديد. كان الصدى يجيب وقع أقدامنا من مكان قريب، لا بد أن المكان الذي نحن فيه ضيق جداً. وجدت نفسي أحني رأسي بحركة غريزية من جديد.

مضينا بضع خطوات إلى الأمام ثم انعطفنا انعطافاً حاداً بدا مثل عودة إلى الوراء، إلى حيث أتينا. بدأت الأرض تنحدر بنا. اشتد الانحدار مع كل خطوة فأعطاني جيب يده الخشنة حتى يمنع سقوطي. لا أدري كم من الوقت أمضيت في الانزلاق وفي تلمّس طريقي داخل تلك الظلمة. لعل الوقت بدا أطول من حقيقته بسبب رعبي.

انعطفنا مرة جديدة ثم بدأت الأرض ترتفع بنا. كان خدر ساقي وتخشبهما قد بلغ أشده عندما صار صعود الطريق قاسياً. كان على جيب أن يجرني تقريباً في ذلك الطريق. صار الهواء أكثر رطوبة ثم ازداد رطوبة مع تقدمنا. لكن الظلمة لم تتغير. ما كنت أسمع صوتاً غير وقع أقدامنا ووقع أقدام الأشخاص القريبين من خلفنا.

استوى الممر من جديد وراح ينعطف ويتلوى مثل ثعبان.

أخيراً، أخيراً، رأيت توهج الضوء عند حواف العصابة وفي أسفلها. تمنيت لو تنزلق هذه العصابة عن عينيّ لأنني كنت شديدة الخوف من إنزالها بنفسي. أحسست أنني لن أكون شديدة الخوف إلى هذه الدرجة إذا استطعت رؤية المكان وإذا استطعت رؤية الأشخاص الذين معي.

جاءت الأصوات مع مجيء الضوء. إنه ضجيج غريب. صوت متقطع منخفض. بدا أشبه بصوت شلال ماء.

ازداد الصوت ارتفاعاً مع تقدمنا إلى الأمام وكلما اقتربنا منه أكثر قلّ شبهه بصوت الماء. كانت فيه تلاوين كثيرة، نبرات منخفضة وأخرى

مرتفعة تختلط كلها ويتردد صداها. لو لم يكن شديد الاضطراب إلى هذا الحد فلعله كان يمكن أن يشبه نسخة منفرة عن تلك الموسيقى المستمرة التي كنت أسمعها وأغنيها على الكوكب المغني. كانت ظلمة العصابة على عينيّ مناسبة لهذه الذكرى. ذكرى العمى.

أدركت ميلاني معنى هذا الصوت قبلي. لم أكن قد سمعت صوتاً مثله من قبل لأنني لم أكن مع بشر من قبل.

قالت ميلاني: «إنه جدل دائر بين أشخاص. يبدو كان عدداً كبيراً من الأشخاص يتجادلون».

لقد جذبها هذا الصوت. هل ثمة مزيد من الناس إذاً؟ كان وجود ثمانية أشخاص بشريين مفاجأة لي ولها. ما هو هذا المكان؟

أحسست يداً تلمس مؤخرة رقبتي فابتعدت عنها.

قال جيب: «اهدئي الآن». ثم أزال العصابة عن عيني.

راحت عيناي ترفرفان بحركة بطيئة فبدأت الظلال التي من حولي تتخذ أشكالاً مفهومة: جدران خشنة غير مستوية؛ وسقف مقبب؛ وأرض متربة داستها أقدام كثيرة. إننا في كهف طبيعي تحت الأرض. لا يمكن أن يكون هذا المكان شديد العمق. أظن أننا صعدنا في دربنا أكثر مما هبطنا.

كان لون الجدران الحجرية والسقف المقبب بنياً ضارباً إلى الزرقة. وكانت الجدران كلها مرصعة بثقوب ضحلة تشبه ثقوب الجبن السويسري. كانت حواف الثقوب المنخفضة متآكلة غير حادة، أما حواف الثقوب المرتفعة فكانت أكثر وضوحاً. كانت تبدو أكثر حدة أيضاً.

إن الضوء آتٍ من فتحة مستديرة واقعة أمامنا. كان شكلها قريباً من أشكال الثقوب الأخرى المنتشرة على جدران الكهف وسقفه، لكنها أكبر حجماً. إنها مدخل هذا الكهف. أو هي معبر إلى مكان أكثر ضوءاً.

كانت ميلاني تواقة إلى معرفة المزيد. مسحورة بفكرة وجود مزيد من البشر. أما أنا فكنت مترددة لأن القلق انتابني فجأة من أن يكون العمى أفضل من الرؤية في هذه الحالة.

تنهد جيب وتمتم قائلاً: «آسف». قالها بصوت شديد الانخفاض إلى حد كنت واثقة معه من أن أحداً لم يسمعها غيري.

حاولت ابتلاع ريقي لكني لم أستطع. بدأ رأسي يدور. لكن هذا يمكن أن يكون بسبب جوعي. كانت يداي ترتجفان مثل أوراق الأشجار في مهب الريح عندما دفعني جيب عبر تلك الفتحة الكبيرة.

انفتح ذلك النفق على غرفة كبيرة مترامية الأبعاد إلى حد جعلني لا أصدق عينيّ. كان سقفها شديد الضياء. شديد الارتفاع. كان أشبه بسماء صناعيّة. حاولت أن أرى ما يضيئها، لكن الضوء كان شديداً فآلم عيني.

توقعت أن يزداد صوت الجدل ارتفاعاً، لكنه هدأ فجأة في ذلك الكهف الفسيح.

كان لون الأرض كالحاً بالمقارنة مع السقف البراق البعيد جداً إلى الأعلى. مضت لحظات حتى تمكنت عيناي من إدراك ما حولهما من أشكال.

إنه جمع من الناس! ما من كلمة أخرى تصفهم. رأيت جمعاً من الناس واقفين ساكنين في أماكنهن. صامتين. محدقين كلهم صوبي بتلك العيون الحارقة المليئة بتعابير الكراهية. العيون نفسها التي رأيتها وقت الفجر.

كانت دهشة ميلاني شديدة إلى حد جعلها عاجزة عن فعل أي شيء إلا العد! عشرة، خمسة عشر، عشرون. خمسة وعشرون. ستة وعشرون. سبعة وعشرون. ما كنت أبالي بعددهم. حاولت أن أخبرها إلى أي مدى هذا أمر قليل الأهميّة. لا حاجة لعشرين شخص منهم من أجل قتلي. من أجل قتلنا. حاولت أن أجعلها ترى مدى حَرَاجة موقفنا، لكنها كانت في مكان لا تصله إنذاراتي في تلك اللحظة. كانت ضائعة في هذا العالم البشري الذي لم تكن تجرؤ على الحلم بوجوده.

تقدم رجل من ذلك الحشد فاتجهت عيناي صوب يديه أول الأمر باحثين عن سلاح يحمله. كانت قبضتا يديه مشدودتين، لكنهما خاليتان من أي خطر آخر. من أي سلاح. ألفت عيناي ذلك الضوء الباهر بعض الألفة فميزتا لون الجلد الملوَّح بالشمس، ثم عرفتا ذلك الرجل.

كاد الألم المفاجئ يخنقني. دوخني. رفعت عيني إلى وجه الرجل.

## الفصل الرابع عشر

# خلاف

كان هذا كثيراً جداً علينا نحن الاثنتين. كان كثيراً علينا أن نراه هنا الآن بعد أن كدنا نقبل فكرة استحالة رؤيته من جديد، بعد اعتقادنا أننا فقدانه إلى الأبد. جعلني هذا أتجمد في مكاني، جعلني غير قادرة على إبداء أي ردّ فعل. وددت النظر إلى العم جيب حتى أفهم سبب إجابته التي حطمت قلبي في الصحراء، لكني لم أستطع تحريك عينيّ. رحت أحدق في وجه جارد، غير فاهمة شيئاً.

كان ردّ فعل ميلاني مختلفاً.

صاحت: «جارد». قالت هذه الكلمة عبر حنجرتي الجافة فخرجت منها مثل صرير واهٍ.

دفعتني ميلاني إلى الأمام، تماماً مثلما كانت تدفعني إلى الأمام في الصحراء. . سيطرت على جسدي المتجمد. لكنها كانت تفعل هذا بالقوة وحدها هذه المرة.

لم أستطع إيقافها بالسرعة الكافية.

اندفعت إلى الأمام رافعة ذراعيَّ. مدّتهما صوبه. صحت بها محذرة، لكنها ما كانت مصغية إليّ. ما كانت مدركة وجودي نفسه في تلك اللحظة. لم يحاول أحد إيقافها عندما مضت مترنحة إليه. لم يحاول أحد إيقافها إلا أنا. صارت على بعد سنتمترات منه لكنها لم تر حتى الآن ما كنت أراه. لم تر كيف تغير وجهه خلال شهور الفراق الطويلة، كيف قسا هذا الوجه، كيف صارت خطوطه في غير اتجاهها الأول الآن. لم تر

كيف أن الابتسامة العفوية التي تتذكرها ما عادت تلائم هذا الوجه الجديد. لم تر في حياتها وجهه يتحول إلى وجه مظلم خَطِرٍ إلا مرة واحدة. وما كان ذلك التعبير في وجهه يومذاك شيئاً إذا ما قورن بما هو عليه الآن. لم تر هذا كله، أو لعلها ما كانت مبالية به.

كانت يده أطول من يدها.

قبل أن تتمكن ميلاني من جعل أصابعي تلمس جارد اندفعت ذراعه فصفع وجهي بظهر يده. كانت الضربة شديدة جعلت قدميّ ترتفعان عن الأرض قبل أن يصطدم رأسي بالأرض الصلبة. سمعت صوت ارتطام بقية جسدي بالأرض، صوت اصطدام خافت، لكنني لم أشعر به. غامت عيناي وتردد صوت مجلجل في أذني. رحت أقاوم الدوار الذي كاد يفقدني الوعي.

همست لها: «أنت حمقاء! أنت حمقاء! قلت لك ألا تفعلي هذا».

«جارد هنا! جارد حي! جارد هنا!». كانت تهذي. تغني تلك الكلمات كأنها كلمات أغنية.

حاولت استعادة تركيز عيني لكن الضياء في ذلك السقف الغريب كان يعمي بصري. أدرت رأسي مبتعدة عن ذلك الضوء ثم كتمت بكائي عندما جعلتني تلك الحركة أحس الألم حراباً تطعن وجهي.

إنني الآن شبه عاجزة عن تحمّل ألم هذه الصفعة العفوية وحدها، فما الأمل في قدرتي على تحمّل تعذيب مكثف محسوب؟

سمعت وقع خطوات من خلفي. تحركت عيناي غريزياً لتجدا مصدر الخطر فرأيت العم جيب واقفاً فوقي. كانت يده نصف ممدودة صوبي لكنه تردد. أشاح بوجهه. رفعت رأسي سنتمترات قليلة كاتمة أنّة أخرى. حاولت أن أرى ما كان يراه.

كان جارد ماشياً صوبنا. وكان وجهه شبيهاً بوجوه أولئك البرابرة في الصحراء، لكنه كان جميلاً في غضبه. لم يكن مرعباً مثل وجوههم. توقف قلبي ثم راح يخفق من غير انتظام. كم أنا مضحكة! ما أهمية

جماله الآن؟ ما أهمية حبي له؟ هل من أهمية لهذا عندما يكون موشكاً على قتلي؟

رحت أنظر إلى ذلك التعبير القاتل في وجهه وجَهِدْت لأرى بصيص أمل في أن ينتصر غضبه على تعقله، لكن الرغبة الحقيقية في الموت أفلتت مني.

اشتبكت نظرات جارد وجيب لحظة طويلة. كان فك جارد يتوتر ثم يسترخي ثم يتوتر ثم يسترخي. أما وجه جيب فكان هادئاً. انتهت تلك المواجهة الصامتة عندما أطلق جارد زفرة غاضبة وتراجع خطوة إلى الخلف. مد جيب يده إليّ ووضع ذراعه من حول ظهري حتى يجذبني إلى الأعلى. كان رأسي يدور. يؤلمني. تخبّطت معدتي. لو أنها لم تكن فارغة منذ أيام لأفرغت ما بجوفها الآن. أحسست أن قدميّ لا تلمسان الأرض. ترنحت وأوشكت على السقوط إلى الأمام فثبّتني جيب في مكاني ثم أمسك بمرفقي حتى يبقيني واقفة.

كان جارد يراقب هذا كله بتكشيرة كشفت عن أسنانه. ظلت ميلاني تحاول التحرك صوبه من جديد... كأنها حمقاء. لكني كنت قد تجاوزت صدمة رؤيته هنا. كنت الآن أقل حماقة منها. لن تفلح في اختراقي من جديد. حبستها خلف كل حاجز استطعت خلقه في عقلي.

«اهدئي! اهدئي فقط! ألا ترين أنه يكرهني؟ كل ما تقولينه يمكن أن ينقلب ضدنا الآن. نحن ميتتان!».

راحت تهدل في رأسي: «لكن جارد حي... جارد هنا».

انتهى الهدوء في الكهف. جاءت الهمسات من كل ناحية، جاءت كلها معاً، كأن ثمة شيئاً لم أنتبه إليه. لم أستطع تمييز أي معنى في هذا الهمس الخافت.

اندفعت عيناي تنظران إلى ما وراء هذه الجمهرة من البشر. كانوا بالغين جميعاً. لم أجد بينهم شخصاً أصغر حجماً. أصغر سناً! آلمني قلبي لهذا الغياب. راحت ميلاني تكافح حتى تطرح سؤالاً لكني

أسكتها بحزم. لا شيء نراه هنا، لا شيء إلا الغضب والكراهية على وجوه هؤلاء الغرباء. لا شيء إلا الغضب والكراهية على وجه جارد.

استمر هذا حتى شق رجل آخر طريقه عبر الجمع المتهامس. كان طويلاً رشيقاً، كانت عظامه أكثر بروزاً تحت جلده من عظام الآخرين. كان شعره ممشطاً إلى الخلف، لعله بني قاتم أو بني فاتح. لعله أشقر! وعلى غرار شعره وجسده الطويل، كانت قسمات وجهه نحيلة غير بارزة. ما كان وجهه يوحي بأي غضب، ولعل هذا هو السبب الذي جعل عينيَّ تتعلقان به.

تنحى الآخرون مفسحين طريقاً لهذا الرجل ذي المظهر المتواضع كما لو أنه صاحب مكانة متميزة بينهم. جارد وحده لم يكترث له؛ ظل في مكانه. كان يحدّق فيَّ وحدي. دار الرجل الطويل من حوله. بدا كأنه لا يلاحظ هذه العقبة الواقفة في طريقه إلا كما يلاحظ المرء كومة من الحجارة تعترض سبيله.

قال الرجل بصوت مرح على نحو غريب: «لا بأس! لا بأس!» قالها أثناء استدارته حول جارد. وقف قبالتي: «إنني هنا! ما الذي لدينا؟»

أجابه صوت العمة ماغي. ظهرت واقفة عند مرفقه: «وجدها جيب في الصحراء. لقد كانت ابنة أخينا ميلاني والظاهر أنها وصلت إلى هنا باستخدام تعليمات أعطاها إياها جيب منذ زمن بعيد». قالت هذا وألقت صوب جيب نظرة توبيخ.

همهم الرجل الهزيل الطويل: «هممم!» كانت عيناه تنظران إليّ نظرة أشبه بالإعجاب. كم هذا غريب. بدا عليه كأنه معجب بما يراه. لم أستطع تفسير هذا.

ابتعدت عيناي عنه متجهتين إلى امرأة أخرى، امرأة شابة أخرى كانت واقفة إلى جانبه تنظر إليّ. كانت يدها مستريحة على ذراعه. شد لون شعرها الحيوي أنظاري.

صرخت ميلاني: «شارون!».

رأت ابنة عم ميلاني أنني عرفتها. رأت ذلك في عينيّ فكست القسوة تعابير وجهها.

دفعت ميلاني بخشونة إلى مؤخرة عقلي: «هششش! اسكتي».

قال الرجل مومئاً برأسه من جديد: «هممم!». مد يده صوب وجهي وبدا عليه أنه فوجئ عندما أجفلت مبتعدة عنه واقتربت من جيب.

قال الرجل الطويل مبتسماً ابتسامة تشجيع صغيرة: «لا بأس عليك! لا أريد إيذاءك».

ثم مدّ يده صوب وجهي من جديد. انكمشت مقتربة من جيب كما فعلت من قبل لكن جيب مد ذراعه ودفعني إلى الأمام قليلاً. لمس الرجل الطويل وجهي تحت أذني تقريباً. كانت أصابعه أكثر رقة مما توقعت. أدار الرجل وجهي جانباً. أحسست بأصابعه تتلمس الخط الذي على مؤخرة رقبتي فأدركت أنه يتفحص الندبة الباقية بعد عملية الزرع.

رحت أراقب وجه جارد من زاوية عيني. كان ما يفعله الرجل مزعجاً له. أظن أنني أعرف السبب. أعرف كم يكره هذا الخط الدقيق الوردي على رقبتي.

عبس وجه جارد لكنني فوجئت عندما رأيت بعض الغضب يزول من تعابير وجهه. انعقد حاجباه. جعله هذا يبدو حائراً!

أنزل الرجل الطويل يده وتراجع خطوة إلى الخلف مبتعداً عني. كانت شفتاه مشدودتين. أضاء في عينيه شيء من التحدي.

«الظاهر أن صحتها على ما يرام باستثناء ما أصابها من إجهاد وجفاف وسوء تغذية في الآونة الأخيرة. أعتقد أنكم أعطيتموها القدر الكافي من الماء بحيث لن يعرقل الجفاف عملنا. لا بأس إذاً!». قامت يداه بحركة غريبة غير واعية، كأنه يغسلهما. «فلنبدأ!».

عند ذلك فهمت الترابط بين كلماته وبين الفحص الذي أجراه على رقبتي. هذا الرجل الذي يبدو لطيفاً، الذي وعدني بعدم إيذائي، هو الطبيب.

أطلق العم جيب زفرة ثقيلة وأغمض عينيه.

مد الطبيب لي يده. يدعوني لأن أضع يدي فيها. شددت قبضتيَّ خلف ظهري. راح ينظر إليّ من جديد متأملاً الرعب الذي في عيني. ظهر تعبير من الخيبة على وجهه، لكن هذا لم يكن عبوساً. كان يفكر في الخطوة التالية.

«كَايل، إيان؟». صاح بهذين الاسمين لاوياً رقبته باحثاً بين المجتمعين عن الشخصين اللذين استدعاهما. خارت ركبتاي عندما رأيت الأخوين ذوا الشعر الأسود يتقدمان صوبي.

قال الطبيب الذي ما عاد يبدو طويلاً إلى جانب هذين الرجلين: «أظن أننا في حاجة إلى بعض المساعدة. احملاها».

«لا».

نظر الجميع ليروا من أين جاء هذا الصوت المعترض. لكني ما كنت في حاجة إلى الالتفات لأنني عرفت الصوت. لكني نظرت صوبه رغم ذلك.

كان وجه جارد عابساً. وكان فمه معوجاً في تكشيرة غريبة. سرت مشاعر كثيرة متضاربة في وجهه. كان الاستقرار على أي منها صعباً. الغضب، الرفض، الاضطراب، الكراهية، الخوف. الألم.

رمشت عينا الطبيب. ظهر وقع المفاجأة على وجهه: «جارد! هل من مشكلة؟».

«نعم».

انتظر الجميع. وإلى جانبي، كان جيب يحاول ضبط زاويتَيْ شفتيه كأنه يحاول منع ابتسامة من الظهور على وجهه. إن كان الأمر كذلك فإن لدى هذا العجوز إحساساً غريباً بالنكتة.

سأل الطبيب جارد: «ما هي؟».

أجابه جارد عبر أسنانه المطبقة: «سوف أخبرك بالمشكلة يا دكتور!

ما الفارق بين تركك تقوم بما تريد القيام به أو جعل جيب يقتلها برصاصة في رأسها؟».

ارتعدتُ عندما سمعت هذه الكلمات، لكن جيب ربّت على ذراعي.

رمشت عينا الطبيب من جديد ولم يقل إلا: «إذاً؟».

أجاب جارد عن السؤال الذي طرحه: «الفارق هو: إذا قتلها جيب فإنها تموت موتاً نظيفاً على الأقل!».

«جارد». كان صوت الطبيب ملاطفاً هذه المرة، مهدئاً. كانت النبرة نفسها التي استخدمها معي. «إننا نتعلم الكثير في كل مرة. ولعلنا هذه المرة. . .».

نخر جارد غاضباً: «هاه! لا أرى تقدماً يا دكتور».

قالت ميلاني بصوت واهٍ في رأسي: «سوف يحمينا جارد». كان من الصعب عليّ أن أركز انتباهي إلى الحد الكافي لصياغة هذه الكلمات: «إنه لا يحمينا، إنه يحمي جسدك فقط».

«هذا كافٍ...» بدا صوتها قادماً من مسافة بعيدة بعض الشيء. بدا قادماً من خارج رأسي المضطرب.

تقدمت شارون خطوة إلى الأمام فوقفت أمام الطبيب تقريباً. كانت وقفتها دفاعية غريبة.

قالت بصوت جارح: «لا معنى لإهدار أي فرصة! إننا ندرك جميعاً أن هذا الأمر صعب عليك يا جارد. لكن هذا ليس قرارك في نهاية الأمر. علينا أن نأخذ في اعتبارنا ما هو أفضل للأغلبية».

نظر جارد إليها حانقاً: «لا». كانت كلمته زمجرة.

أعرف أنه لم ينطق هذه الكلمة همساً، لكنها كانت هادئة لطيفة في أذني. خيّم الهدوء على الجميع. تحركت شفتا شارون، وأشارت بإصبعها صوب جارد بحركة شريرة، لكني لم أسمع إلا فحيحاً منخفضاً. لم يقم أحد بأي خطوة، لكنهم بدوا لي كأنهم يتراجعون مبتعدين عني.

رأيت الشقيقين الضخمين يقتربان من جارد بوجهين غاضبين.

أحسست أن يدي تحاول الارتفاع محتجة، لكنها لم تفعل إلا أن ارتعدت على نحو رخو. صار وجه جارد أحمر اللون عندما انفتحت شفتاه. توترت أوتار رقبته كما لو أنه يصيح، لكني لم أسمع شيئاً. ترك جيب ذراعي ورأيت ماسورة البندقية ترتفع أمامي. انكمشت مبتعدة عن السلاح رغم أنه ما كان مشهراً ناحيتي. أفقدني هذا توازني فرأيت الغرفة تنقلب على جانبها بحركة بطيئة.

قلت بصوت أشبه بتنهيدة عندما راح الضوء يغيب عن ناظري: «جيمي».

صار وجه جارد شديد القرب مني فجأة. كان منحنياً فوقي. كانت تعابير وجهه مستثارة.

همست من جديد: «جيمي؟» كان هذا سؤالاً «جيمي؟».

أجابني صوت جيب الخشن من مسافة غير قريبة مني تماماً: «الفتى بخير! لقد أحضره جارد إلى هنا».

نظرتُ إلى وجه جارد المعذب. كان يختفي سريعاً في الضباب القاتم الذي راح يغطي عينيّ.

همست له: «شكراً!».

ثم ضعت في تلك الظلمة.

## الفصل الخامس عشر

# حراسة

لم أشعر بأي تشوش عندما استيقظت. كنت أعرف تماماً مكان وجودي. تقريباً! أبقيت عينيّ مغمضتين وحافظت على انتظام أنفاسي. كنت أحاول معرفة أكثر ما أستطيع معرفته فيما يخص وضعي الآن من غير أن يبدو عليّ الاستيقاظ.

إنني جائعة! كانت معدتي تتقلص وتنتفض وتطلق أصواتاً غاضبة. قد تكشف هذه الأصوات أمري، لكني أعرف أن معدتي كانت تطلق هذه الأصوات أثناء نومي أيضاً!

أحسست ألماً شديداً في راسي. من المستحيل أن أميز في هذا الألم ما هو ناتج عن التعب وما هو ناتج عن الضربات التي تلقيتها.

كنت مستلقية على سطح صلب. كان سطحاً خشناً. منحنياً. مقعراً! ما كان مستوياً بل مقعراً على نحو غريب كما لو أنني مستلقية في صحن ضحل. لم يكن مريحاً على الإطلاق. كان الألم ينبض في ظهري بسبب الاستلقاء في تلك الوضعية. لعل الألم هو ما أيقظني. أحسست أن جسدي لم ينل أي راحة.

كانت الظلمة تلفّني. عرفت ذلك من غير أن أفتح عينيّ. ليس هذا ظلاماً دامساً، لكنه ظلام!

كان الهواء أكثر رطوبة من ذي قبل. كان رطباً ثقيل الرائحة فيه نكهة مزعجة أحسست أنها علقت في حلقي. وكانت الحرارة أقل من حرارة الصحراء، لكن الرطوبة التي تكتنفها تجعلها غير مريحة أيضاً. كنت

أتعرق من جديد. كان الماء الذي قدمه لي جيب يجد طريق الخروج من جسدي عبر مسامات جلدي. سمعت صدى أنفاسي يرتد إليّ من مسافة أقدام قليلة. لعلّي قريبة من جدار، لكني خمنت أنني موجودة في مكان صغير جداً. رحت أصيخ السمع قدر ما استطعت فأحسست أن صدى أنفاسي يتردد قريباً. من الجهتين.

كنت أعرف أنني ما زلت موجودة، على الأرجح، في مكان ما ضمن هذه التركيبة من الكهوف التي جلبني جيب إليها. وكنت أعرف تماماً ما الذي سوف أراه عندما أفتح عينيّ. لا بد أنني ضمن حفرة صغيرة في الصخر، حفرة بلون قرمزي بني داكن، حفرة فيها ثقوب تشبه ثقوب الجبن.

كان السكون تاماً لا تعكره إلا الأصوات المنبعثة من جسدي. رحت أعتمد على سمعي لأنني خفت أن أفتح عينيّ. كنت أحاول الإصغاء إلى أي شيء أسمعه في هذا الصمت. لم أستطع سماع شيء آخر. هذا أمر غريب! لا يعقل أن يتركوني من غير حارس. هل يعقل هذا؟ العم جيب وبندقيته التي لا تفارقه، أو شخص آخر أقل عطفاً عليّ. أما أن يتركوني وحدي. فهذا غير منسجم مع خشونتهم وجفاء طبعهم. لا ينسجم مع خوفهم الطبيعي وكرههم الطبيعي لحقيقتي.

إلا إذا.

حاولت ابتلاع ريقي، لكن الرعب أطبق على حنجرتي. لن يتركوني وحيدة أبداً. إلا إذا كانوا يظنون أنني قد مت، أو إذا كانوا واثقين من أنني في سبيلي إلى الموت. إلا إذا كان في هذه الكهوف أماكن لا يعود أحد منها.

راحت الصورة التي كوّنتها عن مكان وجودي تطفو على نحو مدوِّخ في رأسي. رأيت نفسي الآن راقدة في قعر بئر عميقة أو محبوسة بين جدران قبر مغلق. ازداد تسارع أنفاسي. رحت أبحث عن رائحة الهواء المكتوم الفاسد، عن أي شيء يشير إلى اقتراب نفاد الأوكسجين من حولي. انبسطت العضلات المحيطة برئتي. امتلأت رئتاي بالهواء

استعداداً لصرخة موشكة على الانفلات. ضغطت على أسناني حتى أمنع هذه الصرخة من الخروج.

سمعت صوت احتكاك شيء، صوتاً حاداً قريباً من رأسي.

صرخت. كان صوت الصرخة ثاقباً في هذا المكان الضيق. انفتحت عيناي. انكمشت مبتعدة عن تلك الضجة المشؤومة. رميت نفسي فالتصقت بالجدار الحجري الخشن. ارتفعت يداي تحميان وجهي عندما اصطدم رأسي صدمة مؤلمة بالسقف المنخفض.

أضاء نور خافت الفتحة المستديرة تامة الاستدارة التي هي مدخل هذا الجيب الصخري الذي كنت متكوّمة فيه. رأيت وجه جارد نصف منار عندما انحنى داخل تلك الفتحة ماداً إحدى يديه صوبي. كان الغضب ظاهراً على شفتيه المضغوطتين. وكان عرق في جبينه ينبض عندما راح يراقب ردّ فعلي المذعور.

لم يتحرك. ظل ينظر إليّ غاضباً ريثما استعاد قلبي نبضه وهدأ تنفسي. واجهت نظراته متذكرة كم هو هادئ دائماً. يستطيع أن يكون هادئاً مثل شبح عندما يريد! لا عجب إذاً أنني لم أسمع له أي صوت أثناء جلوسه للحراسة خارج زنزانتي هذه.

لكني سمعت صوتاً! وعندما تذكرت ذلك قرّب جارد يده الممدودة صوبي من جديد فتكرر الصوت نفسه من جديد. نظرت إلى الأسفل. رأيت عند قدمي قطعة محطمة من البلاستيك. كان يستخدمها صينية. وعلى هذه الصينية.

وثبت لأمسك بزجاجة الماء المفتوحة. ما كدت أدرك نظرة القرف التي بدت على وجه جارد عندما رفعت الزجاجة إلى شفتي. أعرف أن هذه النظرة ستزعجني في وقت لاحق، لكنني لست مهتمة إلا بالماء في هذه اللحظة. لا أعرف إن كنت سأبالي بنوعية الماء في حياتي بعد الآن. أعرف أن حياتي لن تستمر طويلاً هنا على الأرجح. قد لا أهتم بنوعية الماء بعد الآن.

اختفى جارد منزاحاً عن تلك الفتحة الدائرية. ما زلت أستطيع رؤية جزء من كم قميصه. لا شيء آخر. كان الضوء الخافت آتياً من مكان قريب. إنه ضوء صناعي ضارب إلى الزرقة.

كنت قد شربت نصف كمية الماء عندما شدت انتباهي رائحة جديدة. أخبرتني هذه الرائحة أن الماء لم يكن الهبة الوحيدة التي تلقيتها. نظرت إلى الصينية من جديد.

طعام! هل يطعمونني؟

كانت رائحة الخبز أول رائحة أشمّها. قطعة أسطوانية الشكل قاتمة اللون. لكني رأيت أيضاً صحناً عميقاً فيه سائل صاف يظهر فيه شيء من رائحة البصل. انحنيت مقتربة من الصينية فرأيت أشياء قاتمة في قعر الصحن. وإلى جانب الصحن رأيت ثلاثة أجسام أسطوانية بيضاء اللون. أظن أنها نوع من الخضار. لم أعرف نوعها.

لم تستغرق هذه الاكتشافات الثلاثة إلا ثواني قليلة، لكن معدتي، حتى في هذا الوقت القصير، كادت تقفز عبر فمي محاولة الوصول إلى الطعام.

بدأت بالخبز. كان شديد الكثافة. كانت فيه حبوب كاملة غير مطحونة راحت تعلق بين أسناني. كان قوامه رملياً بعض الشيء، لكني أحسست نكهته غنية إلى حد خيالي. لا أذكر شيئاً أطيب مذاقاً من هذا الخبز، لم تكن قطع البسكويت المهشمة التي عثرت عليها أفضل منه مذاقاً. كان فكاي يعملان بأقصى سرعة، لكني ابتلعت معظم اللقمات نصف ممضوغة. كنت أسمع كل لقمة تهوي فتصطدم بمعدتي مصدرة صوتاً. لم يكن دخول الطعام إلى معدتي مريحاً كما توقعت. إنها فارغة منذ زمن بعيد. كانت استجابتها للطعام الجديد غير مريحة.

تجاهلت ذلك وتناولت صحن السائل. إنه نوع من الحساء. كان هبوط هذا الحساء في معدتي أسهل من هبوط الخبز. وجدت طعم الحساء لطيفاً معتدلاً لم أميز فيه غير طعم البصل الذي عرفته منذ البداية. كانت

شرائح البصل الخضراء طرية إسفنجية القوام. شربت الحساء من الصحن. تمنيت لو أنه كان أكبر حجماً. قلبته كله على فمي حتى أتأكد من أنه صار خالياً تماماً.

كانت قطع الخضار البيضاء هشة في فمي. كان مذاقها خشبياً. لا بد أنها من أنواع الجذور. لم تكن طيبة كما كان الحساء أو كما كان الخبز، لكن حجمها كان مفيداً لملء معدتي. لم تمتلئ معدتي. لم تقترب من الامتلاء! بل لعلني كنت موشكة على أكل الصينية نفسها لو أنني ظننت أنني قادرة على مضغها.

لم يخطر ببالي حتى انتهيت من طعامي أنهم ما كان يجب أن يطعموني إلا إذا كان جارد قد خسر المواجهة مع الطبيب. إذاً، لماذا يقف جارد حارساً هنا إن كان الأمر هكذا؟

دفعت الصينية بعيداً عني عندما انتهت محتوياتها. فاقشعرَّ جلدي لصوت انزلاقها على الأرض الحجرية. بقيت ملتصقة بالجدار الخلفي لزنزانتي عندما مد جارد يده لأخذ الصينية. لم ينظر ناحيتي هذه المرة.

همست له عندما اختفى من جديد: «شكراً» لم يقل شيئاً. ما كان في وجهه أي تغير بل إن ذلك الجزء من كم قميصه لم يعد ظاهراً هذه المرة. كنت واثقة من أنه لا يزال هنا.

همست ميلاني: «لا أستطيع تصديق انه ضربني». أحسست أن حيرتها لهذا الأمر تغلب غضبها. لم تتجاوز تلك الصدمة بعد. أما أنا فلم أفاجأ أصلاً. طبيعي أن يضربني! أجبتها: «عجباً! اين كنت ساعتها؟ ليس من حسن التصرف أن تقحميني في هذه الورطة ثم تتركيني وحيدة!»

تجاهلت ميلاني نبرتي اللاذعة: «ما كنت أظن انه قادر على هذا... مهما يكن من أمر. لا أظن أنني قادرة على ضربه لو كان في مكاني».

«بل تستطيعين ضربه! لو أنه جاء إليك بعينين لامعتين مثل عينيك الآن لفعلت مثلما فعل. أنتم عنيفون بطبيعتكم». تذكرت أحلامها النهارية عن خنق الباحثة. بدا لي كأن شهوراً مرت على هذه الذكرى رغم معرفتي

أنها كانت قبل أيام قليلة فقط. لو أن الزمن المنقضي كان أطول من هذا لكان الأمر معقولاً لا بد للمرء من بعض الوقت حتى يستطيع إيقاع نفسه في هذا الوضع الكارثي. في هذا الوضع الذي أنا فيه الآن.

حاولت ميلاني التفكير في الأمر على نحو حيادي: «لا أظن هذا! لا أستطيع ضرب جارد... ولا جيمي. من المستحيل أن أستطيع إيذاء جيمي. حتى إذا كان...» سكتت ميلاني. أخافتها هذه الفكرة.

فكرت في ما قالته فوجدته صحيحاً. حتى لو أصبح الطفل شيئاً آخر أو أحداً آخر فلن تستطيع ميلاني ولن أستطيع أنا رفع يدنا عليه.

«هذا أمر مختلف. أنت مثل... مثل أمه. الأمهات لسن عاقلات في هذه الأمور. ثمة مشاعر كثيرة هنا».

«الأمومة غير عاقلة دائماً... حتى عندكم أنتم الأرواح».

لم أجبها.

«ماذا سيحدث الآن في رايك؟».

ذكّرتها: «أنت الخبيرة بأحوال البشر. لعل تقديمهم الطعام لنا ليس علامة جيدة. لا أرى إلا سبباً واحداً يمكن أن يجعلهم راغبين في أن أصبح قوية من جديد».

اختلطت في ذهني بعض المعلومات المحددة القليلة التي تذكرتها عن وحشية البشر تاريخياً. اختلطت بتلك القصص التي قرأتها في الجريدة التي عثرنا عليها منذ أيام. النار! هذا شيء سيّئ. ذات مرة أحرقت ميلاني رؤوس أصابع يدها اليمنى كلها في حادثة غبية. أمسكت بمقلاة ما كانت تعلم أنها حارة. أتذكّر كيف صدمها ذلك الألم.. كان حاداً. فظيعاً... باهظاً.. على نحو غير متوقع.

كانت تلك حادثة، لا أكثر. وسرعان ما عولجت يدها بالجليد والأدوية. لم يكن الأمر مقصوداً، ولم يكن ذلك الألم المخيف الأول أمراً مستمراً. لم يكن متواصلاً لزمن طويل.. ثم لزمن أطول.

لم يسبق لي العيش على كوكب يمكن أن ترتكب هذه الفظائع فيه، حتى قبل مجيء الأرواح إليه. حقيقة. كان هذا المكان أرقى العوالم كلها. وأكثرها وضاعة أيضاً. أجمل الأحاسيس، أكثر المشاعر رهافة، أكثر الرغبات جنوناً. وأكثر الأفعال سواداً! لعل هذا مقدر له! لعل الفضائل مستحيلة البلوغ من غير وجود تلك النقائص كلها. هل الأرواح مستثناة من هذه القاعدة؟ هل يمكن أن يكون لهم نور هذا العالم من غير ظلمته؟

قاطعتني ميلاني: «لقد... أحسست بشيء عندما ضربك». خرجت تلك الكلمات بطيئة، كلمة. ثم كلمة. كأنها ما كانت تريد التفكير فيها.

«لقد شعرت بشيء أيضاً». غريب كيف صار استخدام لغة السخرية طبيعياً الآن بعد أن قضينا ذلك الوقت كله معاً. «إن لديه يداً قوية... أليس كذلك؟».

«لم أقصد هذا! أقصد...» ترددت ميلاني لحظة طويلة ثم جاءت بقية الكلمات مسرعة متدافعة. «ظننت أن الأمر نابع مني كله... طريقة إحساسنا نحوه. ظننت أنني... أتحكم في هذا الأمر».

كانت فكرتها أكثر وضوحاً من الكلمات التي عبّرت عنها.

«أنت تظنين أنك تمكنت من جلبي إلى هنا بسبب رغبتك الشديدة في ذلك. ظننت أنك تسيطرين علي... لا العكس». حاولت ألا أكون مزعجة. «ظننت أنك تتلاعبين بي».

«نعم». ما كان العذاب في نبراتها نابعاً من انزعاجي أنا بل من أنها لم تكن مرتاحة لخطأ التقدير عندها. «لكن».

رحت أنتظر.

جاءت الكلمات مندفعة مرة أخرى: «أنت تحبينه أيضاً. تحبينه على نحو مستقل عني. يبدو هذا مختلفاً عن شعوري نحوه. يبدو شعوراً آخر. لم أر هذا حتى صار جارد واقفاً هنا... معنا... حتى رأيته أنت للمرة

الأولى. كيف حدث هذا؟ كيف يمكن أن تقع دودة طولها عشرة سنتمترات في حب كائن بشري؟».

«دودة!».

«آسفة! أعتقد أن لديك... أطرافاً».

«ليست أطرافاً في حقيقة الأمر. إنها أشبه بالهوائيات. ثم إنني أطول قليلاً من عشرة سنتمترات عندما أمد هذه الهوائيات».

«ما أقصده هو أنه ليس من بني جنسك».

قلت لها: «إن جسدي بشري الآن. وعندما أكون مرتبطة به أكون بشرية أيضاً. وأما الطريقة التي ترين بها جارد فهي ذكرياتك أنت... طيب! الذنب ذنبك».

فكرتُ في كلامي عدة لحظات. لم يعجبها هذا الكلام.

«إذاً، لو أنك واصلت طريقك إلى توكسون وحصلت على جسد جديد لما أحببت جارد بعد ذلك؟».

«أتمنى... أتمنى حقاً... أن يكون هذا صحيحاً».

ما كانت أي منا سعيدة بإجابتي. أسندت رأسي إلى ركبتيّ. غيّرت ميلاني موضوع الحديث.

«إن جيمي في أمان على الأقل! كنت أعرف أن جارد سيهتم به. ما كنت أستطيع الذهاب وتركه لولا أنني تركته بين يدين أفضل من يدي... ليتني أستطيع رؤيته».

«أما أنا فلست أطلب هذا!». أخافني التفكير في الرد الذي يمكن أن يلقاه هذا الطلب.

وفي الوقت نفسه كنت أتوق إلى رؤية وجه الصبي. كانت هذه رغبتي أنا. أردت التأكد من وجوده هنا حقاً. من أنه في أمان حقاً. من أنهم يطعمونه ويعتنون به. تلك الأشياء التي ما عادت ميلاني قادرة عليها. يعتنون به على النحو الذي أرغب في فعله أنا نفسي. أنا التي لست أماً لأحد! ألديه من يغنّي له أغنية في الليل؟ ألديه من يقص

عليه الحكايات؟ أيمكن أن يفكر جارد الغاضب الجديد هذا الذي رأيته في تلك الأشياء الصغيرة؟ ألديه أحد يلتصق به ملتمساً الأمان عندما يخاف؟

سألتني ميلاني: «أتظنين انهم يمكن أن يخبروه بوجودي هنا؟» أجبت عن سؤالها بسؤال: «هل من شأن هذا أن يساعده أم من شأنه أن يؤذيه؟».

جاءتني فكرتها همساً: «لست أدري... ليتني أستطيع إخباره أنني حفظت وعدي».

هززت رأسي مدهوشة: «لقد حفظت وعدك حقاً! لا يستطيع أحد أن يقول إنك لم تعودي، كما تعودين دائماً».

«شكراً على هذا». كان صوتها واهناً. لا أعرف إن كانت تشكرني على كلماتي الآن أو على مجيئي بها إلى هنا.

شعرت بالإعياء على نحو مفاجئ. شعرت بإعياء ميلاني أيضاً. الآن. بعد أن هدأت معدتي قليلاً بعد أن امتلأ نصفها. ما عادت بقية آلامي حادة إلى درجة تمنعني من النوم. ترددت قليلاً قبل أن أتحرك. خفتُ أن أحدث أي ضجة. لكن جسدي كان راغباً في التمدد. في التخلي عن تلك الوضعية المتكوّرة. فعلت ذلك بأقصى ما استطعت من هدوء. حاولت العثور على مكان طويل بالقدر الكافي. وأخيراً، كان عليّ أن أجعل قدميّ تخرجان من تلك الفتحة المستديرة تقريباً. لم أكن مرتاحة لهذا فقد خفت أن يسمع جارد تلك الحركة قريباً منه فيظن أنني أحاول الفرار. لكنه لم يستجب لحركتي أي استجابة. توسدت الجانب السليم من وجهي. وضعته فوق ذراعي وحاولت تجاهل انحناءات عمودي الفقري بسبب انحناءات الأرض التي تحتي نفسها. أغمضت عينيّ.

أظن أنني نمت. لكن ذلك النوم، إذا نمت حقاً، ما كان نوماً عميقاً. كان صوت الخطوات القادمة ما يزال بعيداً عني عندما استيقظت تماماً.

هذه المرة فتحت عينيّ على الفور. لم يتغير شيء. ما زلت أستطيع رؤية ذلك الضوء الأزرق الخافت عبر الفتحة المستديرة. ما زلت لا أستطيع رؤية جارد خارج الفتحة. كان أحد قادماً في هذا الاتجاه. وكان من السهل سماع اقتراب الخطوات مني. سحبت ساقي بعيداً عن الفتحة متحركة بأقصى ما استطعت من الهدوء ثم تكورت عند الجدار الداخلي من جديد. ليتني أستطيع الوقوف. كنت سأشعر بخطر أقل. كنت سأحس بأنني قادرة على مواجهة ما هو آتٍ. ما كان ارتفاع سقف ذلك المكان يسمح لي حتى بالركوع.

رأيت حركة خارج سجني. رأيت جزءاً من قدم جارد عندما نهض بصمت واقفاً على قدميه.

قال رجل: «آه! ها أنت هنا». كانت تلك الكلمات مرتفعة الصوت كثيراً بعد ذلك الصمت الخاوي. جعلتني أقفز في مكاني. عرفت هذا الصوت! إنه أحد الأخوين اللذين رأيتهما في الصحراء. إنه صاحب السيف. كَايل.

لم يتكلم جارد.

«ألن تسمح بحدوث هذا يا جارد؟». شخص آخر يتكلم الآن، صوت أكثر تعقلاً. لعله الأخ الأصغر. إنه إيان. كان صوتا الشقيقين شديدَي التشابه. أو لعلهما يمكن أن يكونا متشابهين كثيراً لولا أن كَايل ما كان يتحدث بصوت يشبه الصراخ دائماً. لو أن نبرة صوته ما كانت مشوَّهة بفعل الغضب دائماً. «كل واحد منا فقد أشخاصاً. لقد فقدنا كل من حولنا. جميعاً. لكن هذا سخف!».

أضاف كَايل بصوت أشبه بالزمجرة الخفيضة: «إذا كنت لا تريد السماح للطبيب بأن يقوم بعمله، فلا بد لها من الموت».

تابع إيان كلام أخيه: «لا تستطيع الاحتفاظ بها سجينة هنا. سوف تهرب في نهاية الأمر وسوف ينكشف أمرنا كلنا».

لم يتكلم جارد لكنه خطا خطوة جانبية جعلته أمام فتحة زنزانتي تماماً.

راح قلبي يخفق قوياً سريعاً عندما أدركت كلام الأخوين. لقد فاز جارد! لن يجري تعذيبي. ولن أقتل أيضاً. لن أقتل فوراً على أي حال. إن جارد يحتفظ بي سجينة هنا.

بدت هذه الكلمة جميلة ضمن هذه الظروف.

«قلت لك إنه سوف يحمينا».

قال صوت رجل آخر لم أعرفه: «لا تجعل الأمر صعباً يا جارد. لا بد من هذا».

لم يقل جارد شيئاً.

«نحن لا نريد إيذاءك يا جارد. كلنا إخوة هنا. لكننا إذا اضطررتنا إلى ذلك فسنفعل». ما كان في صوت كَايل أي مزاح. «ابتعد عن الفتحة!».

ظل جارد واقفاً مثل صخرة.

راح قلبي يخفق أسرع من قبل. كان يضرب أضلاعي بقوة جعلت تنفسي يضطرب. صار التنفس صعباً. كانت ميلاني مجللة بالخوف غير قادرة على التفكير بكلمات منسجمة.

سوف يؤذون جارد! سوف يهاجم هؤلاء البشر المجانين واحداً من أبناء جنسهم.

قال إيان: «جارد. أرجوك!».

لم يجبه جارد.

سمعت صوت خطوات ثقيلة. ثم قفزة. ثم صوت شيء ثقيل يصطدم بشيء صلب. سمعت شهقة.. ثم صوتاً مختنقاً.

صحت: «لا!». وقذفت بنفسي عبر تلك الفتحة المستديرة.

## الفصل السادس عشر

# عبء المسؤولية

ما كانت حافة الفتحة الصخرية شديدة الخشونة، لكنها كشطت راحتي يدي، وكشطت ركبتي، عندما عبرتها إلى الخارج. كان جسمي متصلباً فآلمني وقوفي منتصبة القامة من جديد. تقطعت أنفاسي. دار رأسي عندما اندفع الدم إلى الأسفل.

كنت أبحث عن شيء واحد، عن مكان وقوف جارد حتى أستطيع أن أضع نفسي بينه وبين مهاجميه.

وقفوا جميعاً متجمدين في أماكنهم، ناظرين صوبي. كان جارد قد جعل الجدار من خلفه، ورأيت قبضتيه مشدودتين وجسمه منحنياً. متأهباً. وأمامه. رأيت كَايل مثني الجسم قابضاً على بطنه بيديه. كان إيان وشخص غريب آخر يقفان على مسافة قليلة من خلفه. كان فماهما مفتوحين من المفاجأة. استفدت من وقع الصدمة عليهم. وبخطوتين مرتجفتين سريعتين صرت واقفة بين كَايل وجارد.

كان كَايل أولهم في التحرك. كنت أبعد عنه شبراً أو اثنين، وكانت حركته الغريزية الأولى هي أن قذفني بعيداً عنه. صدمت يده كتفي فألقتني أرضاً. وقبل أن أقع أمسك شيء برسغي وشدني لأقف على قدمي من جديد.

فور ملاحظته ما فعله، ترك جارد رسغي كما لو أنه شيء حارق.

زأر يخاطبني: «عودي إلى مكانك!». دفعني من كتفي أيضاً، لكن

تلك الدفعة لم تكن بمثل خشونة دفعة كَايل. جعلتني دفعته أسير مترنحة مقدار خطوتين، عائدة إلى ذلك الثقب في الجدار الصخري.

كان الثقب دائرة سوداء في ذلك الممر الضيق. وخارج سجني الصغير، كان للكهف الكبير مظهر مماثل، لكنه كان أكثر طولاً وارتفاعاً فحسب. كان أنبوبي الشكل وليس فقاعة كما كان سجني.

كان مصباح صغير لا أدري من أين يستمد طاقته. لم أستطع تخمين ذلك. يضيء الممر بنور خافت ينبعث من الأرض. كان هذا النور يلقي ظلالاً غريبة على قسمات الرجال الواقفين. يحوّلها إلى وجوه وحوش مزمجرة.

سرتُ خطوة في اتجاههم من جديد مديرة ظهري إلى جارد.

قلت لكَايل: «أنا من تريدون! اتركوا جارد».

لم يقل أحد شيئاً. مرت ثانية طويلة.

دمدم إيان أخيراً: «يا للحشرة المخادعة!». كانت عيناه متسعتين بفعل الذعر.

علا صوت جارد من خلفي: «قلت لك أن تعودي إلى هناك».

استدرت نصف استدارة لأني ما كنت أريد أن يغيب كَايل عن نظري: «ليس من واجبك إن تحميني وأن تعرض نفسك للخطر».

كشر جارد وارتفعت يده حتى تدفعني صوب زنزانتي من جديد.

تفاديت يده الممتدة. دفعتني هذه الحركة مقتربة من الذين يريدون قتلي.

أمسك إيان بذراعي وثبتهما خلف ظهري. قاومته بحركة غريزية، لكنه كان شديد القوة. لوى مفاصلي لياً شديداً فخرجت من فمي زفرة ألم.

صاح جارد مهدداً: «أبعد يديك عنها!».

أمسك به كَايل وأداره ممسكاً إياه بحركة مصارعة. كان يحني رقبته إلى الأمام. أما الرجل الآخر فأمسك بإحدى يدي جارد الملوحتين.

زعقت: «لا تؤذوه!». رحت أقاوم اليدين الممسكتين بي.

ضرب جارد بطن كَايل بمرفقه الحر. شهق كَايل ولم يعد قادراً على تثبيته. انفلت جارد من مهاجميه ثم عاد فانقض عليهم. أصابت قبضته أنف كَايل. اندفع دم أحمر قانٍ فلطخ الجدار والمصباح.

صاح كَايل: «انتهِ من الأمر يا إيان!». خفض كَايل رأسه واندفع صوب جارد ملقياً به صوب الرجل الآخر.

«لا!». صحنا، أنا وجارد، في وقت واحد.

أفلت إيان ذراعي والتفّت كفّاه حول عنقي فحرماني الهواء. رحت أخمش يديه بأظافري الكليلة عديمة النفع. شد قبضته على عنقي.. ارتفعت قدماي عن الأرض.

كان هذا مؤلماً. آلمتني تلك القبضة الخانقة. وآلمني ذلك الذعر المفاجئ في رئتي. كان هذا عذاباً! رحت أتلوّى. أحاول الإفلات من الألم أكثر من محاولتي الإفلات من تلك اليدين القاتلتين.

سمعت صوت طقطقة خفيضاً. تك.. تك.

سمعت هذا الصوت مرة واحدة من قبل، لكني عرفته الآن. عرفه الجميع مثلما عرفته أنا. تجمدوا كلهم. ما زالت كفّا إيان مطبقتين على عنقي.

عوى صوت جيب: «كَايل، إيان، برانت. تراجعوا كلكم!».

لم يتحرك أحد. إلا يداي. ما زالتا تخمشان. إلا قدماي. ما زالتا ترفسان الهواء.

اندفع جارد فجأة تحت ذراع كَايل المتجمدة. اندفع صوبي. رأيت قبضته تطير صوب وجهي فأغمضت عينيّ.

سمعت صوت اصطدامها فوق رأسي بسنتمترات قليلة. عوى إيان فسقطت إلى الأرض. تكوّمت هناك أشهق عند قدميه. تراجع جارد بعد أن ألقى نظرة غاضبة صوبي ثم راح فوقف إلى جانب جيب.

زمجر جيب: «أنتم ضيوف هنا يا أولاد! لا تنسوا هذا. قلت لكم ألا

تبحثوا عن الفتاة. إنها ضيفتي أيضاً. في الوقت الحالي! ولا أحب أن يقتل أحد ضيوفي ضيفاً آخر».

أنَّ إيان من فوقي. كان صوته مكتوماً بفعل يده الممسكة بفمه وأنفه: «جيب! جيب! هذا جنون».

سأله كَايل: «ما هي خطتك؟». كان وجهه ملطخاً بالدم. كان هذا منظراً مروعاً. لكن صوته ما كان فيه إلا غضب مكتوم. مضبوط. «من حقنا أن نعرف. علينا أن نقرر إن كان هذا المكان آمناً أم أن الوقت قد حان لمغادرته. إذاً إلى متى تريد الاحتفاظ بهذا الشيء مثل حيوان أليف؟ ما الذي تعتزم فعله به عندما تنتهي من تمثيل دور إله؟ من حقنا جميعاً إن نعرف الإجابة على هذه الأسئلة».

دوّت كلمات كَايل فطغت على وجيب قلبي الذي يتردد صاخباً في رأسي. يحتفظ بي مثل حيوان أليف! لقد دعاني جيب ضيفة. هل هذه مفردة أخرى تقابل كلمة سجينة؟ أيعقل أن يوجد بشريان اثنان لا يريدان قتلي ولا تعذيبي حتى أعترف؟ إن كان الأمر هكذا. فهو أعجوبة حقاً.

قال جيب: «ليست الإجابة عندي يا كَايل. ليس الأمر بيدي».

لا أعتقد أن أي إجابة أخرى تصدر عن جيب يمكن أن تحيّرهم أكثر من هذه الإجابة. راح الرجال الأربعة، كَايل وإيان والشخص الذي لا أعرف اسمه. وحتى جارد، يحدقون فيه مصدومين. ما زلت متجمعة لاهثة عند قدمَي إيان متمنية أن أجد طريقة تجعلني أتسلق عائدة إلى جحري من غير أن يلاحظني أحد منهم.

ردد كَايل صدى ما سمعه أخيراً: «ليس قرارك أنت؟» مازال غير مصدق. «قرار مَن إذاً؟ إذا كنت تفكر في طرح الأمر على التصويت، فإن الأمر محسوم منذ الآن. إيان وبرانت وأنا مكلفين رسمياً بأداء المهمة».

هز جيب رأسه. كانت تلك حركة صغيرة لم تجعل عيناه تحيدان عن الرجل الواقف قبالته: «ليس الأمر مطروحاً للتصويت. ما زال هذا المكان بيتي أنا».

صاح كَايل: «قرار مَن إذاً؟».

انزاحت عينا جيب عن كَايل آخر الأمر. انزاحتا إلى وجه آخر ثم عادتا إلى كَايل: «إنه قرار جارد».

تحولت أعين الجميع. وأنا منهم. صوب جارد.

راح جارد يحدق في جيب فاغر الفم، مدهوشاً مثل البقية، ثم شد على أسنانه فصدر عنهما صوت صرير مسموع. ألقى نظرة كره صرف في اتجاهي.

قال كَايل مواجهاً جيب من جديد: «قرار جارد! لا معنى لهذا الكلام». ما عاد مسيطراً على نفسه الآن. كان يتفجر غيظاً. «إنه أكثر انحيازاً من أي شخص آخر هنا! لماذا؟».

دمدم جارد: «جيب! لا أظن. . ».

قال له جيب بصوت حازم: «إنها مسؤوليتك يا جارد! سوف أساعدك طبعاً إذا حدثت مشاكل أخرى من هذا النوع. وسوف أساعدك أيضاً في حراستها وفي كل هذه الأمور. أما عندما يحين وقت اتخاذ القرارات. فالأمر كله منوط بك أنت». رفع يده عندما همّ كَايل بالاعتراض من جديد. «انظر إلى الأمر بهذه الطريقة يا كَايل. إذا وجد أحد زوجتك جودي في إحدى الغارات ثم أحضرها إلى هنا فهل تريد أن أقوم أنا أو الطبيب. أو التصويت. بتقرير ما نفعله بها؟».

قال كَايل بصوت كالفحيح: «لقد ماتت جودي!». ما زال الدم ينبع من شفتيه. نظر إليّ بتعبير الكراهية نفسه الذي استخدمه جارد قبل قليل.

«لا بأس، أعرف هذا. إذا جاء جسدها إلى هنا فسوف يظل اتخاذ القرار في يدك أنت. هل تريد أن يقرر الأمر أحد غيرك؟».

«الأغلبية. . ».

قاطعه جيب بفظاظة: «هذا بيتي، وهذه قواعدي! لا مزيد من النقاش في هذا. لا مزيد من التصويت. لا مزيد من محاولات الإعدام. انقلوا

هذا الأمر إلى الآخرين. هكذا ستسير الأمور من الآن فصاعداً. نظام جديد».

تمتم إيان بصوت خفيض: «نظام جديد آخر؟».

تجاهله جيب: «إذا حدث هذا مرة ثانية، وهذا ما أستبعده، فسوف يكون على من يخصه الجسد القادم اتخاذ القرار». وجّه جيب ماسورة بندقيته صوب كَايل ثم أزاحها عدة سنتمترات مشيراً بها إلى القاعة التي من خلفه. «اخرجوا من هنا. لا أريد رؤيتكم قرب هذا المكان من جديد. أخبروا الجميع أن هذا الممر منطقة محظورة. لا شيء يستدعي وجود أحد هنا باستثناء جارد. وإذا أمسكت بأحد يتسلل إلى هنا فسوف أطلق عليه النار قبل أن أطرح أي سؤال. هل تفهمون هذا؟ تحركوا الآن!». وجّه البندقية صوب كَايل من جديد.

دهشت عندما رأيت القتلة الثلاثة يسرعون فينسحبون عبر ذلك الممر لم يتوقفوا حتى لقذفي أو لقذف جيب بتكشيرة وداع.

وددت كثيراً لو أؤمن أن تلك البندقية في يد جيب ما كانت إلا خدعة.

منذ رأيته للمرة الأولى، كان جيب يُظهر لطفاً واضحاً. لم يقم تجاهي بأي حركة عنيفة. لم ينظر صوبي بأي شكل من أشكال الكراهية. والآن. يبدو جيب واحداً من شخصين اثنين فقط لا يريدان لي شراً. صحيح أن جارد مستعد للقتال من أجل إبقائي على قيد الحياة، لكن من الواضح أنه غارق في نزاع شديد داخل نفسه بشأن اتخاذ القرار. أحسست أنه يمكن أن يغير رأيه في أي لحظة. ومن تعبير وجهه كان واضحاً أن جزءاً منه يريد إنهاء هذا الأمر. خاصة الآن بعد أن وضع جيب عبء اتخاذ القرار على كاهله. عندما كنت أفكر في ذلك كان جارد يرميني بنظرة قرف واحتقار ظاهرين على تعابير وجهه كلها.

لكن، بقدر ما كنت أرغب في أن تكون حركة جيب خدعة كلها،

أدركت عندما رأيت الثلاثة ينسحبون ثم يختفون في الظلام بعيداً عني أن الأمر خالٍ من أي خدعة على الإطلاق. فمن تحت مظهره اللطيف الذي أراه الآن، لا بد أن جيب شخص فظ خطير قاتل. مثل بقيتهم. ولو لم يستخدم هذه البندقية في الماضي. لو لم يستخدمها للقتل، لا للتهديد فقط. لما أطاعه أحد على هذا النحو الآن.

همست ميلاني: «إنه زمن يائس! لا نستطيع أن نكون لطفاء في هذا العالم الذي صنعتموه. إننا هاربون، إننا نوع مهدد بالانقراض! كل قرار نتخذه قرار حياة أو موت».

«هشش... لا وقت لدي للجدل الآن. أنا في حاجة إلى التركيز».

صار جارد في مواجهة جيب الآن. كانت إحدى يديه ممدودة أمامه. راحتها إلى الأعلى. أصابعها محنية. متخشبة. الآن، بعد ذهاب الآخرين، اتخذ جسداهما هيئة أقل استنفاراً. بل كان جيب يبتسم من تحت لحيته الكثيفة كما لو أنه مستمتع بمشهد البندقية ذاك. ما أغرب البشر!

قال جارد: «لا تضع هذا العبء على عاتقي يا جيب. أرجوك. كَايل محق في شيء واحد. أنا لا أستطيع اتخاذ قرار عقلاني».

«لم يقل أحد إن عليك اتخاذ القرار في هذه الثانية. هي لن تذهب إلى أي مكان». التفت جيب صوبي. ما زال مبتسماً. رأيت عينه القريبة مني. العين التي لا يراها جارد. تغلق بحركة سريعة ثم تنفتح من جديد. إنه يغمزني بعينه!. «لن تذهب بعد كل المشقة التي تكبّدتها حتى وصلت إلى هنا. لديك وقت كافٍ للتفكير في الأمر».

«لا شيء للتفكير فيه. لقد ماتت ميلاني! لكنني لا أستطيع. لا أستطيع. يا جيب. لا أستطيع أن. .» بدا جارد غير قادر على إنهاء جملته.

«أخبريه».

«لست مستعدة للموت في هذه اللحظة».

قال له جيب: «لا تفكر في الأمر إذاً. لعلك تصل إلى شيَ وقت لاحق. امنح الأمر بعض الوقت».

«وما الذي تعتزم فعله بها؟ لا نستطيع الاستمرار في حراستها على مدار الساعة!».

هز جيب رأسه: «هذا تماماً ما سوف نقوم به فترة من الوقت. سوف تهدا الأمور. إن كَايل نفسه غير قادر على الإبقاء على غضبه القاتل هذا أكثِر من أسابيع قليلة».

«أسابيع؟ لا نستطيع أن نستمر في حراستها هنا عدة أسابيع. لدينا أشياء أخرى. . .».

تنهد جيب: «أعرف هذا. أعرف هذا! سوف أفكر في شيء ما».

«ثم إن هذا ليس إلا نصف المشكلة». نظر جارد صوبي من جديد. نبض عرق في جبهته. «أين نحتفظ بها؟ ليس لدينا زنزانة نضعها فيها».

نظر جيب إليّ مبتسماً: «أنت لا تعتزمين التسبب في أي مشاكل لنا أثناء وجودك هنا، أليس كذلك؟».

رحت أحدق فيه. كنت خرساء.

تمتم جارد منزعجاً: «جيب!».

«أوه! لا تقلق بشأنها. سوف نراقبها طبعاً. وهي لن تتمكن أبداً من العثور على طريق الخروج من هنا. سوف تتجول في الكهوف تائهة حتى تصادف أحداً منا. وهذا ما يقودنا إلى الأمر التالي: إنها ليست على هذه الدرجة من الغباء». رفع حاجبه الأبيض الكثيف مشيراً به نحوي. «لا أعتقد أنك تعتزمين الذهاب باحثة عن كَايل أو عن بقية الرجال. أليس كذلك؟ لا أظن أن أحداً منهم يشعر بأي حب تجاهك».

أجفلتني كلماته. قلقت لنبرة صوته الرخيّة. المسترسلة. العادية.

تمتم جارد: «ليتك لا تتكلم معها على هذا النحو».

«لقد نشأت في زمن التهذيب أيها الفتى. لا أستطيع منع نفسي من هذا». وضع جيب يده على ذراع جارد وراح يربت عليها بخفة.

«انظر يا جارد. لديك ليلة كاملة. دعني أتولى الحراسة هنا الآن. اذهب ونم قليلاً».

بدا جارد على وشك الاعتراض، لكنه نظر إليّ من جديد فقست تعابير وجهه.

«كما تريد يا جيب. و. أنا لا أنا لا أقبل المسؤولية عن هذا الشيء. اقتلها إذا رأيت أن في قتلها خيراً».

ارتجفتُ.

عبس وجه جارد لارتجافي ثم استدار على عقبيه فوراً وسار مبتعداً في الطريق الذي مضى فيه الآخرون. راقب جيب ابتعاده. وعندما كان منشغلاً بالنظر إليه. زحفت عائدة إلى جحري.

سمعت جيب يجلس بحركة هادئة على الأرض بالقرب من الفتحة. راح يتنهَّد ويتمطَّى. يطقطق بعض مفاصله. وبعد دقائق قليلة بدأ يصفر لحناً هادئاً. كان ذلك اللحن بهيجاً.

تكورت على ركبتي المنحيتين ضاغطة ظهري على الجدار في قعر زنزانتي الصغيرة. بدأ الارتجاف في أعلى ظهري ثم سرى عبر عمودي الفقري كله. ارتجفت يداي ثم راحت أسناني تصطك اصطكاكاً خفيفاً رغم حرارة الجو من حولي.

قال جيب: «قد ينفع شيء من الاستلقاء والنوم». لا أدري إن كان يتحدث مع نفسه أو معي. لست واثقة. «سوف يكون يوم غد صعباً».

زال ارتجافي بعد قليل. لعله استمر نصف ساعة. أحسست بالإعياء عندما زال ارتجافي. قررت الأخذ بنصيحة جيب. ومع أن الأرض بدت الآن أكثر إزعاجاً وأقل راحة من ذي قبل فقد غفوت بعد ثوان قليلة.

*

أيقظتني رائحة الطعام من جديد. كنت هذه المرة مرهقة مشوشة عندما فتحت عينيّ. داهمني إحساس غريزي بالخوف فجعل يديَّ ترتجفان من جديد قبل أن أصحو تماماً.

كان الصينية نفسها موضوعة على الأرض إلى جانبي. وكان فيها الطعام نفسه أيضاً. كنت أستطيع الآن رؤية جيب وسماعه. كان جالساً أمام كهفي الصغير. رأيت صورته الجانبية لأنه كان جالساً قبالتي تماماً في الممر المستدير الطويل. كان يصفر لحناً لطيفاً.

مدفوعة بالظمأ الحارق، جلست وأمسكت بزجاجة الماء المفتوحة.

قال جيب مومئاً في اتجاهي: «صباح الخير!».

تجمدت في مكاني. يدي ممسكة بزجاجة الماء. حتى أدار وجهه وبدأ يصفر من جديد.

الآن فقط. لأن ظمأي لم يعد ذلك الظمأ اليائس الذي كان أمس. لاحظت تلك النكهة الغريبة غير اللطيفة في الماء. كانت تشبه تلك النكهة التي في الهواء أيضاً، لكنها كانت أقوى قليلاً. ظلت النكهة في فمي بعد فراغي من الشرب. لا مفر منها

التهمت طعامي مسرعة. تركت الحساء حتى النهاية هذه المرة. كان استقبال الطعام في معدتي أكثر يسراً الآن. تقبلت معدتي الطعام بامتنان أكبر. لم تقرقع إلا قليلاً

لكن لجسدي حاجات أخرى. فالآن. بعد إشباع الحاجات الأكثر صخباً. صارت هذه الحاجة ملحّة! نظرت من حولي في حجري الضيق المظلم. لم أر خيارات متاحة كثيرة. لكنني كنت شبه عاجزة عن السيطرة على خوفي من التحدث بصوت مسموع. من المطالبة. حتى من التحدث مع جيب الغريب. الودود.

رحت أتأرجح إلى الأمام والخلف. أقلب الأمر على وجوهه. آلمتني مؤخرتي من الجلوس في هذه الوضعية المنحنية في الكهف.

قال جيب: «احم!».

كان ينظر في اتجاهي من جديد. كان لون وجهه أكثر قتامة تحت شعره الأبيض، أكثر قتامة من المعتاد.

قال: «إنك محبوسة هنا منذ فترة. أنت في حاجة إلى. الخروج!».

أومأت برأسي.

«وأنا راغب في السير قليلاً أيضاً». كان صوته مبتهجاً هبّ واقفاً على قدميه بحيوية مفاجئة.

انزويت في قعر جحري محدقة فيه بنظرات حذرة.

تابع يقول: «سوف آخذك إلى حمامنا الصغير. لكن عليك الآن أن تعرفي أننا سنمر عبر عبر الصالة الرئيسية إن جاز لي القول. لا تقلقي! أظن أن الرسالة بلغت الجميع الآن». وبحركة غير واعية راح يمسد على ماسورة بندقيته.

حاولت ابتلاع ريقي. كانت مثانتي ممتلئة إلى حد جعلها تسبب لي ألماً مستمراً. يستحيل تجاهله. لكن السير وسط هؤلاء القتلة الغاضبين كلهم!! ألا يستطيع أن يحضر لي دلواً؟

كان جيب يقيس مقدار الرعب في نظراتي. يراقب طريقة انكماشي التلقائي في قعر الجحر. كانت شفتاه مشدودتين. كان يفكر. ثم أدار ظهره وبدأ السير في الممر المظلم قائلاً دون التفات: «اتبعيني». لم يلتفت ليرى إن كنت أطعت كلامه.

مرت في ذهني، ومضاً، صورة كَايل يعثر عليّ وحيدة هنا فتحركت خلف جيب قبل مرور ثانية واحدة. هبطت عبر الفتحة بحركات خرقاء ثم رحت أسير على ساقي المتيبستين بأقصى سرعة استطعتها حتى ألحق بجيب. بدا تمكني من الوقوف منتصبة القامة من جديد أمراً مخيفاً رائعاً في الوقت نفسه. كان الألم حاداً، لكن الراحة كانت أكبر.

سرتُ خلفه تماماً عندما بلغنا نهاية الممر. كانت الظلمة مخيمة على نهاية الممر البيضاوية الطويلة. ترددت ناظرة إلى الخلف. على

المصباح الصغير الذي تركناه على الأرض. كان المصباح هو الضوء الوحيد في الكهف المظلم. هل كان عليّ جلبه معي؟

سمع جيب توقف خطواتي فاستدار ناظراً إلي من فوق كتفه. أومأت برأسي صوب المصباح ثم عدت بنظري إلى جيب.

مد يده الحرة نحوي: «اتركيه! أعرف طريقي. سوف أقودك».

نظرت إلى تلك اليد لحظة طويلة ثم اشتد ضغط الحاجة في مثانتي فوضعت يدي فوق راحته. ما كدت ألمسها. تماماً مثلما يلمس المرء أفعى إذا اضطر إلى لمسها إلى سبب من الأسباب.

قادني جيب عبر الظلمة بخطوات سريعة واثقة. تلت النفق الطويل سلسلة من التعرجات المحيرة في اتجاهات مختلفة. وعندما مررنا بانعطاف حاد في الممر عرفت أنني سرت عائدة في الاتجاه الذي جئت منه. كنت واثقة من أن ثمة سبباً لهذا. أدركت السبب الذي جعل جيب يترك المصباح. ما كان يريدني أن أعرف الكثير عن كيفية العثور على الطريق في هذه المتاهة.

انتابني فضول لمعرفة كيفية تشكل هذا المكان، لمعرفة كيفية عثور جيب عليه، وكيف تجمع الآخرون هنا. لكني ضغطت على شفتيّ. بدا لي أن التزام الصمت هو التصرف الأفضل الآن. ما الذي آمل فيه؟ لم أكن واثقة من ذلك! هل آمل في العيش عدة أيام أخرى؟ هل آمل في تأجيل الألم؟ هل بقي لي شيء غير هذا؟ لكني لم أعرف إلا أنني لم أكن مستعدة للموت، كما قلت لميلاني من قبل؛ كانت غريزة البقاء عندي مثل غريزة البقاء عند أي بشري!

سرنا في منعطف آخر فرأيت أول بوادر الضوء. رأيت من أمامي شقاً طويلاً ضيقاً متوهجاً بضوء قادم من غرفة أخرى. ما كان هذا الضوء اصطناعياً مثل الصباح الذي بالكهف. إنه شديد البياض، شديد النقاء.

ما كنا نستطيع المرور عبر ذلك الشق الضيق الذي في الصخر جنباً إلى جنب. دخل جيب قبلي وجرّني من خلفه. وما إن عبرت. ما إن

صرت قادرة على الرؤية من جديد. حتى سحبتُ يدي من نبضة جيب الخفيفة. لم يبدُ عليه ردّ فعل إلا أن وضع يده التي تحررت على بندقيته من جديد.

كنا في نفق ضيق الآن. وكان ضوء أكثر سطوعاً يتألق عبر بوابة مقوَّسة خشنة. كان لون الجدران يماثل لون الصخور الأرجواني.

أستطيع سماع أصوات الآن. كانت أصواتاً منخفضة. أقل استعجالاً وتوتراً من آخر أصوات سمعتها صادرة عن حشد بشري. ما كان أحد يتوقع مجيئنا. تخيلت ردّ فعلهم عندما أظهر بينهم مع جيب. صارت كفّاي باردتين رطبتين. وصارت أنفاسي ضحلة سريعة. اقتربت من جيب قدر ما استطعت. من دون أن ألمسه فعلاً.

تمتم جيب من غير أن يستدير: «مهلك الآن! إنهم خائفون منك أكثر من خوفك منهم».

أشك في هذا. وحتى إن كان صحيحاً على نحو من الأنحاء فأنا أعرف أن الخوف والكراهية يتحولان إلى عنف في قلوب البشر.

تمتم جيب عند اقترابنا من البوابة المقوسة: «لن أسمح لأحد بأن يؤذيك. قد يتم الاعتياد على هذا أيضاً».

وددت أن أسأله عن معنى هذه الكلمات، لكنه تقدم داخلاً الغرفة الأخرى. سرتُ من خلفه. نصف خطوة من خلفه. حاولت البقاء مختبئة خلف جسده قدر استطاعتي. كانت الفكرة الوحيدة الأكثر رعباً من فكرة دخول هذه الغرفة هي فكرة التخلف عن جيب، فكرة أن يمسكني أحد وحيدة هنا.

رحَّب الصمت بدخولنا ترحيباً مفاجئاً.

كنا الآن في الكهف المضيء العملاق. الكهف الذي جلبوني إليه أول مرة. متى كان ذلك؟ لا فكرة عندي. ما زال السقف شديد الإضاءة بالنسبة لعيني. لا أستطيع الآن معرفة كيفية إضاءته. لاحظت شيئاً لم ألاحظه من قبل: ما كانت الجدران مستوية ملساء. إن فيها عشرات

الفتحات غير المنتظمة، فتحات مفضية إلى ممرات مجاورة. كانت إحدى هذه الفتحات ضخمة. وكان ثمة فتحات يكفي اتساعها لمرور الإنسان إذا أحنى جسده. كان بعضها شقوقاً طبيعية، أما بعضها الآخر فقد عرف تحسينات صنعتها يد الإنسان.

حدق فينا أشخاص كثيرون. من أعماق تلك الفتحات. تجمد كل منهم في الوضعية التي كان عليها. رأيت مزيداً من الأشخاص في الكهف نفسه. تجمدت أجسادهم في منتصف ما كانوا يفعلونه عندما قاطعهم دخولنا. رأيت امرأة منحنية مادة يدها إلى شريط حذائها. تعلقت يدا رجل آخر في الهواء عندما كان يحركهما محاولاً توضيح فكرة لزملائه. تعثر رجل آخر. فقد توازنه عندما توقف على نحو مفاجئ. صدمت قدمه الأرض صدمة عنيفة عندما حاول حفظ توازنه. كان وقع قدمه على الأرض الصوت الوحيد في ذلك المكان الفسيح. تردد صدى الضربة في الغرفة.

كان شعوراً خاطئاً تماماً من جانبي أن أحس امتناناً لوجود هذا السلاح المخيف في يد جيب. لكني أحسست ذلك حقاً. أعرف أنهم كانوا مستعدين لمهاجمتنا لولا وجوده. لن يتردد هؤلاء البشر عن إيذاء جيب نفسه إذا كان ذلك يعني قدرتهم على الوصول إليّ. لكنهم يمكن أن يهاجمونا رغم وجود البندقية. لا يستطيع جيب إطلاق النار إلا على واحد منهم أثناء ذلك.

صارت تلك الصورة مرعبة في رأسي. مرعبة إلى حد جعلني غير قادرة على احتمالها. حاولت التركيز على الأشياء القريبة مني. إنها سيئة بما يكفي.

توقف جيب لحظة. كان يحمل البندقية إلى جانب جسده. فوهتها إلى الأعلى. حدّق في أرجاء الغرفة من حوله. بدا كأنه ينظر في عيونهم شخصاً شخصاً. كان عدد الموجودين أقل من عشرين فلم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً وعندما اكتفى من ذلك تابع سيره متوجهاً صوب الجدار

الأيسر من ذلك الكهف. كان نبضي يدوي في أذني. سرتُ في إثره مسرعة.

لم يسر جيب في خط مباشر عبر الكهف بل ظل قريباً من الجدار استغربت سلوكه هذا الطريق إلى أن رأيت مربعاً كبيراً قاتم اللون يتوسط أرضية الكهف. إنه فراغ شديد الضخامة. ما كان أحد يقف في هذه المنطقة. جعلني خوفي الشديد أكتفي بملاحظة ذلك من غير أن أستطيع معرفة سببه.

سمعت أصوات حركات صغيرة عندما كنا نجتاز القاعة الصامتة. استقام ظهر المرأة المنحنية. استدارت تشيعنا بناظريها. أما الرجل الذي كان يشير بيديه فقد طوى ذراعيه فوق صدره. تقلصت أعينهم جميعاً وتوترت وجوههم بمشاعر الكره. لكن أحداً لم يتحرك صوبنا. لم يتكلم أحد. لا أدري ما الذي قاله كَايل وأصحابه لهم عما دار بينهم وبين جيب لكن الظاهر أن ما كان جيب يريده قد تحقق فعلاً.

وعندما مررنا بمجموعة البشر الواقفين، لاحظتُ شارون وماغي تنظران إلينا من إحدى الفتحات التي في الجدار. كان وجهاهما فارغين من أي تعبير. كانت عيونهما باردة. ما كانا ينظران إليّ، بل إلى جيب. أما هو فقد تجاهلهما.

أحسست أن سنوات مضت قبل وصولنا أخيراً إلى الناحية الأخرى من الكهف. توجّه جيب إلى مخرج متوسط الحجم. أسود اللون بسبب شدة الضياء في الغرفة. جعلتني الأعين المسلطة على ظهري أشعر بتنميل في جلدة رأسي، لكنني لم أجرؤ على الالتفات. ما زال هؤلاء البشر صامتين، لكني خفت أن يتبعونا. أراحني الانزلاق إلى ظلمة الممر الجديد. لمسَتْ يد جيب مرفقي حتى ترشدني إلى الطريق فلم أنكمش مبتعدة عنها. لم أسمع ضوضاء كلام البشر يعاود الارتفاع من خلفنا.

تمتم جيب وهو يوجّه سيري عبر الكهف: «جرى الأمر أفضل مما توقعت». فاجأتني كلماته. وأسعدني أنني لم أعرف ما كان يتوقع حدوثه.

راحت الأرض تنحدر تحت قدميّ. ومن بعيد، لاح ضوء خافت جَنَّبني الإحساس بالعمى التام.

«أراهن أنك لم تري مثل هذا المكان من قبل!». كان صوت جيب أكثر ارتفاعاً الآن. عاد إلى نبرة الحديث العادية التي كان يستخدمها سابقاً. «شيء مذهل، أليس كذلك؟».

«عثرت على هذا المكان منذ السبعينات. بل هو عثر عليّ في حقيقة الأمر! لقد سقطت في الغرفة الكبيرة عبر إحدى فتحات السقف. لعلني كان يجب أن أموت، لكن جسمي متين جداً. كان هذا في صالحي. أمضيت زمناً حتى استطعت العثور على طريق الخروج. وكنت جائعاً إلى حد جعلني أحاول قضم الحجارة قبل أن أتمكن من الخروج.

كنت الشخص الوحيد الباقي في المزرعة عند ذلك الوقت فما كان لديّ أحد أخبره بما وجدت. استكشفت كل نفق وكل شق في هذا الكهف. كنت قادراً على رؤية الإمكانيات المستقبلية. وقررت أن أستخدم هذا الكهف ورقة رابحة أخفيها في كمي. من باب الاحتياط! هكذا نحن. أسرة سترايدر. نحب أن نكون مستعدين».

عبرنا المصباح الخافت. ما كان مصباحاً. كان ضوءاً آتياً من فتحة بحجم قبضة اليد في سقف الكهف وكان يرسم دائرة صغيرة من الضياء على الأرض. وعندما صار من خلفنا استطعنا تمييز ضوء آخر من بعيد.

«لعل الفضول يجعلك راغبة في معرفة كيفية تشكل هذا الكهف». صمت قليلاً. «أعرف هذا! لقد قمت ببعض الأبحاث. إنها ممرات الحمم البركانية. هل تتخيلين هذا؟ كان هذا المكان بركاناً. والحقيقة أنه ما زال بركاناً. هكذا أتوقع! لم يمت هذا البركان بعد. هذا ما سوف تشاهدينه بعد قليل. كل هذه الكهوف والممرات فقاعات هواء علقت في الحمم البركانية أثناء تجمدها. لقد بذلت جهداً كبيراً في هذا الكهف خلال العقود القليلة الماضية. كان بعض العمل سهلاً لم أضطر إلى بذل

جهد كبير في وصل الأنفاق بعضها بالآخر. لكن أجزاء أخرى من العمل كانت في حاجة إلى مزيد من الخيال. هل رأيت السقف في تلك الغرفة الكبيرة؟ أمضيت سنوات حتى صنعت ذلك السقف».

كنت راغبة في سؤاله الآن، لكني لم أستطع حمل نفسي على الكلام. إن الصمت أفضل وأكثر أماناً!

بدأت الأرض تميل إلى الأسفل الآن بزاوية أكبر. صار فيها درجات خشنة، لكنها بدت آمنة إلى الحد الكافي. قادني جيب عبر تلك الدرجات واثقاً. ومع انحدارنا إلى الأسفل داخل الأرض ازدادت الحرارة وازدادت الرطوبة.

تجمدت في مكاني عندما سمعت أصواتاً من جديد. كانت آتية من مكان أمامنا هذه المرة. ربت جيب على يدي برقة.

قال يعدني: «سوف تحبين هذا الجزء. إنه الجزء المفضل عند الجميع».

تلألأت قوس واسعة مفتوحة بضياء عابر. كان لون الضوء مماثلاً للضوء الذي في الغرفة الكبيرة، نقياً، أبيض، لكنه كان متراقصاً على إيقاع غريب. أخافني ذلك الضوء مثلما أخافني كل شيء ما كنت قادرة على فهمه في هذا الكهف الغريب.

قال جيب متحمساً: «ها قد وصلنا!». جذبني فجعلني أعبر تلك القوس. «ما رأيك الآن؟»

## الفصل السابع عشر

# زيارة

صدمتني الحرارة أول الأمر. كانت مثل جدار من بخار. انداح الهواء الرطب الكثيف فوقي وتقطر على جلدي. انفتح فمي تلقائياً عندما حاولت التنفس في ذلك الهواء الذي صار كثيفاً على نحو مفاجئ. كانت الرائحة هنا أقوى من ذي قبل. إنها النكهة المعدنية نفسها التي التصقت بحلقي. النكهة التي يحملها الماء هنا.

كانت دمدمة الأصوات المنخفضة والعالية تبدو آتية من كل مكان. تتردد أصداؤها من الجدران. رحت أحدق قلقة عبر تلك الغيمة المتحركة من الرطوبة أمامي محاولة معرفة مصدر هذه الأصوات. كان الضياء شديداً هنا. كان السقف متلألئاً بضوء ساطع كما في الغرفة الكبيرة، لكنه أكثر قرباً. كان الضياء يتراقص على البخار صانعاً ستارة رجراجة منعتني من الرؤية تقريباً. كافحت عيناي للتأقلم مع هذا الوضع وأمسكت بيد جارد مذعورة.

فوجئت بعدم انقطاع الأصوات عند دخولنا. لعلهم لا يستطيعون رؤيتنا مثلما لا نستطيع رؤيتهم.

قال جيب بصوت معتذر: «المكان مغلق قليلاً هنا». كان يلوِّح بيده ليبعد الضباب من أمام وجهه. كان صوته مسترخياً مرتاحاً، صوت حديث عادي من جديد، وكان مرتفعاً إلى درجة أجفلتني. كان جيب يتكلم كما لو أننا وحدنا غير محاطين بالناس. استمرت الأصوات غير عابئة بصوته المرتفع.

تابع يقول: «لست أتذمر من هذا. لو لم يكن هذا المكان موجوداً لمتّ عدة مرات. إني أتحدث طبعاً عن المرة الأولى عندما علقت هنا. والآن، لا أستطيع الاختباء هنا من دونه. فمن دون مكان اختباء. نموت جميعاً. أليس كذلك؟».

لكزني بمرفقه. كانت تلك حركة تآمرية!

«إن هذا التكوين مناسب جداً. ما كنت أستطيع تخطيطه على نحو أفضل لو أنني نحتّه بنفسي من المعجونة التي يلعب بها الأطفال».

ضحك فنفخت ضحكته بعضاً من ذلك الضباب. رأيت الغرفة للمرة الأولى.

رأيت نهرين مندفعين عبر ذلك المكان الرطب المرتفع المقبَّب. هذا هو اللغط الذي ملأ أذني. إنه صوت الماء مندفعاً فوق الصخور البركانية الأرجوانية وتحتها. تحدث جيب كما لو أننا وحدنا. لأننا كنا وحدنا في حقيقة الأمر.

كان ذلك نهراً واحداً في الحقيقة، وإلى جانبه جدول صغير. كان الجدول هو الأقرب إلينا. وكان ضحلاً يشبه شريطاً فضياً مجدولاً في ذلك الضوء القادم من الأعلى. كان يجري متعرجاً بين ضفاف حجرية منخفضة تبدو موشكة على الانجراف في الماء. وكان يصدر عن تدفقه صوت خرير مرتفع النبرة. أنثوي.

كان الصوت الذكوري ذو النبرة المنخفضة قادماً من النهر، وكذلك كانت غيوم البخار الكثيفة الصاعدة من الفتحات الفاغرة في الأرض قرب الجدار البعيد. كان النهر أسود اللون. يغطس عميقاً في أرض الكهف. كانت تكشف عنه حواف عريضة ناتئة على امتداد تلك الغرفة. بدت الثقوب قاتمة خطيرة. كان النهر غير مرئي تقريباً إذ يندفع عنيفاً صوب وجهة خفية بعيدة الغور. أحسست أن الماء يغلي. وكذلك كان البخار المتصاعد منه. كذلك كان صوته أيضاً. إنه أشبه بصوت ماء يغلي.

ومن السقف تدلت بضع نوازل طويلة نحيلة. تدلت صوب

الصواعد النامية من تحتها. كانت ثلاثة أزواج منها قد التقت مشكّلة أعمدة سوداء دقيقة تقف بين النهرين المتدفقين.

قال جيب: «عليك الانتباه هنا. إن النبع الحار سريع الجريان. إذا سقطت فيه. فأنت ضائعة! حدث هذا مرة من قبل». أحنى رأسه لتلك الذكرى. صار وجهه جاداً. حزيناً.

على نحو مفاجئ، صارت تيارات الماء الأسود السريعة في ذلك النهر تحت الأرض مخيفة في نظري. تخيلت أن تمسك بي تلك التيارات الحارقة. فارتجفت.

وضع جيب يده بخفة على كتفي: «لا تخافي! انتبهي إلى موضع قدميك فقط. وسوف تكونين بخير. الآن». قال هذا مشيراً إلى الناحية البعيدة من الكهف حيث كان الجدول الصغير يجري عبر كهف مظلم. «إن الكهف الأول هناك هو الحمام. لقد حفرنا الأرض لنصنع حوض استحمام عميق لطيف. ثمة دور ينظم الاستحمام هنا. لم نضع ستارة لأن أحداً لا يمكن أن يرى داخل الكهف فهو شديد الظلمة. إن الغرفة لطيفة دافئة شديدة القرب من البخار، لكن الماء غير حارق. إنه أقل حرارة من النبع. ثمة كهف آخر بعد كهف الحمام. يمكن الدخول إليه عبر شق في الجدار. لقد قمنا بتوسعة المدخل إلى حجم مناسب. تلك الغرفة هي أبعد نقطة نستطيع متابعة مجرى التيار إليها. يغيب المجرى تحت الأرض هناك. لذلك فقد جعلنا تلك الغرفة مرحاضاً. إنها ملائمة. صحية». كان صوته ناضحاً بالرضا عن الذات، كما لو أنه ينسب هذا التكوين الطبيعي لنفسه. لا بأس، لقد اكتشف هذا المكان وقام بتحسينه. أعتقد أن من حقه الشعور بشيء من الاعتزاز.

«نحن لا نحب تبديد البطاريات هنا. معظمنا يعرف الطريق عن ظهر قلب. لكن. هذه هي المرة الأولى بالنسبة لك. يمكنك العثور على الطريق باستخدام هذه».

أخرج مصباحاً كهربائياً محمولاً من جيبه وقدمه لي. ذكّرني مرآه

باللحظة الأولى.   عندما وجدني أموت في الصحراء.   عندما تفحص عينيّ وعرف حقيقتي. لا أعرف ما الذي جعل هذه الذكرى تشعرني بالحزن الآن.

«إياك أن تخطر في بالك أي أفكار مجنونة، فكرة أن يحملك النهر إلى الخارج، أو شيء من هذا القبيل. ما إن يختفي الماء تحت الأرض حتى يمضي فيها ولا يخرج منها من جديد».

بدا لي أنه ينتظر مني نوعاً من قبول تحذيره فأومأت برأسي. أخذت المصباح من يده بحركة بطيئة محاذرة أن أقوم بأي حركة سريعة يمكن أن تجفله.

ابتسم لي مشجعاً.

نفذت تعليماته سريعاً.   ما كان صوت المياه المندفعة يجعل عدم ارتياحي أسهل تحملاً   داهمني إحساس غريب عندما ابتعدت عن ناظريه. ماذا لو كان أحد مختبئاً في هذه الكهوف متوقعاً مجيئي إلى هنا في آخر الأمر؟ هل سيتمكن جيب من سماع عراكنا رغم دمدمة النهر العنيفة؟

أدرت ضوء المصباح من حولي في غرفة الحمام باحثة عن أي كمين محتمل. ما كانت الخيالات التي صنعها الضوء المتراقص مريحة، لكني لم أجد ما يبرر خوفي. كان حوض استحمام جيب كبيراً يشبه بركة سباحة صغيرة.   كان أسود اللون مثل الحبر. لو اختبأ أحد تحت سطح الماء لكانت رؤيته متعذرة تماماً ما دام يستطيع حبس أنفاسه.   أسرعت فعبرت الممر الدقيق حتى آخر الغرفة.   حتى أهرب من تلك الفكرة. بعيداً عن جيب، كان الرعب يغمرني تقريباً.   ما كنت أستطيع التنفس على نحو طبيعي. ما كنت أسمع إلا صوت نبضي يدق خلف أذني. سرت.   بل جريت في طريق عودتي إلى الغرفة الكبيرة.   إلى النهرين.

وجدت جيب واقفاً هناك.   ما زال في وضعيته نفسها.   ما زال وحيداً.   كان هذا ترياقاً لأعصابي المتوترة. تباطأت أنفاسي.   تباطأ نبض قلبي. ما الذي يجعل هذا البشري المجنون مريحاً بالنسبة لي إلى

هذا الحد. لم أعرف الإجابة. أظن أن الأمر مثلما قالت ميلاني. أوقات يائسة.

سألني وقد علت وجهه ابتسامة اعتزاز: «أليس الحمام بائساً. أليس كذلك؟».

أومأت برأسي من جديد وأعدت إليه مصباحه.

قال ونحن عائدان صوب الممر المظلم: «إن هذه الكهوف هبة رائعة! ما كنا نستطيع البقاء ضمن مجموعة واحدة هنا من غير هذه الكهوف. كانت ماغي وشارون تعيشان على نحو جيد. جيد فعلاً. في شيكاغو، لكنهما كانتا تغامران باختبائهما معاً. لطيف تماماً أن يكون لنا مجتمع من جديد. هذا يجعلني أحس أنني بشري حقاً».

أمسك بمرفقي من جديد عندما رحنا نتسلق الدرجات.

«أنا آسف لسوء ذلك المكان الذي وضعناك فيه. إنه أكثر ما استطعت التفكير فيه أمناً بالنسبة لك. يدهشني أن هؤلاء الفتيان استطاعوا العثور عليك بتلك السرعة». تنهد جيب. «إن لدى كَايل. دافعاً حقيقياً. لكنني أعتقد أن الوضع على ما يرام. بل يمكن أن يعتاد أيضاً على المجرى الذي ستتخذه الأمور. ربما نستطيع العثور على مكان أفضل من أجلك. سوف أفكر في هذا. عندما أكون معك، على الأقل، لا تكونين محتاجة إلى حشر نفسك في ذلك الجحر الصغير. يمكنك الجلوس معي في القاعة إذا أردت ذلك. أما مع جارد. .» صمت جيب.

رحت أصغي إلى كلماته المعتذرة مستغربة؛ كان هذا لطفاً أكبر مما توقعت، عطفاً أكثر مما ظننت أن هذا النوع من الكائنات قادر على تقديمه إلى أعدائه. ربتُّ قليلاً على اليد الممسكة بمرفقي. ربتُّ عليها مترددة. محاولة جعله يدرك أنني لن أسبب أي مشكلة. إنني واثقة من أن جارد يفضل عدم رؤيتي.

لم يجد جيب مشقة في ترجمة هذا التواصل الصامت بيننا: «أنت فتاة طيبة!. سوف نجد مخرجاً من هذا. يستطيع الطبيب التركيز على شفاء

بني البشر أما أنت فإنك أكثر إثارة للاهتمام عندما تكونين حية . هكذا أظن!».

كان تقارب جسدينا شديداً إلى حد جعله يشعر بارتعادي.

«لا تقلقي! لن يزعجك الطبيب الآن».

لم أستطع التوقف عن الارتجاف. ما كان جيب قادراً على تقديم هذا الوعد إلا الآن. ما من ضمانة لديه تقول إن جارد لن يقرر أن سرّي أكثر أهمية من استمراره في حماية جسد ميلاني. أعرف أن هذا المصير سيجعلني أتمنى لو أن إيان نجح في محاولة قتلي الليلة الماضية. ابتلعت ريقي وشعرت من جديد بتلك الكدمة في رقبتي، الكدمة التي أحسست أنها امتدت عبر عنقي كله فبلغت باطن حلقي.

لا تعرفين أبداً مقدار ما بقي لك من وقت!... هكذا قالت ميلاني منذ أيام. عندما كان العالم ما يزال تحت السيطرة.

ترددت كلماتها في رأسي عندما دخلنا الغرفة الكبيرة من جديد. الصالة الكبيرة لمجتمع جيب البشري. كانت مليئة بالناس.. تماماً كما كانت في الليلة الأولى. كان الجميع هنا ينظرون إلينا بأعين تشع غضباً واحتجاجاً على الخيانة عندما تنظر إليه وتشع رغبة في القتل عندما تنظر إليّ. أبقيت نظري على الأرض. على الصخور تحت قدمي. ومن زاوية عيني استطعت رؤية جيب ممسكاً بندقيته. مستعداً من جديد.

ليس الأمر إلا مسألة وقت في الواقع. أشعر بهذا في جو الكره والخوف المحيط بي. لن يستطيع جيب حمايتي زمناً طويلاً.

أراحني أن أعود من جديد فأنزلق عبر ذلك الشق الضيق. أن أنظر إلى تلك المتاهة السوداء المتعرجة وإلى مكان اختبائي البائس. أستطيع الأمل في البقاء وحدي هناك.

ومن خلفي ارتفع هسيس حانق، مثل صوت عش من الأفاعي، تتردد أصداؤه في الكهف الكبير. جعلني الصوت أتمنى أن يقودني جيب عبر المتاهة بأسرع ما يمكن.

ضحك جيب بصوت منخفض. إنه يبدو أكثر غرابة كلما ازداد زمن بقائي معه. حيرني إحساسه بالنكتة بقدر ما حيرتني أفعاله.

«يصبح الوضع مملاً بعض الأحيان هنا. كما تعلمين». كان يدمدم بهذا لي، أو لنفسه. من الصعب أن يعرف المرء ذلك عندما يكون مع جيب. «لعلهم عندما يتجاوزون انزعاجهم مني. لعلهم. يدركون أهمية هذه الإثارة التي أتيحها لهم».

كان طريق عودتنا عبر الظلام متعرجاً كما تتعرج الأفعى. ما كان يبدو مألوفاً لي. لعل جيب اتخذ مساراً مختلفاً هذه المرة حتى يبقيني ضائعة. أحسست أن طريق العودة استغرق وقتاً أطول من قبل، لكني تمكنت أخيراً من رؤية الضوء الأزرق الباهت يتراقص عند المنعطف القادم.

تهيأت متسائلة إن كان جارد هناك من جديد. إن كان هناك فلا بد أنه ما زال غاضباً. أنا واثقة من أنه لن يوافق على ذهابي في هذه الرحلة إلى الحمام مهما تكن ضرورية لي.

فور عبورنا تلك الزاوية أدركت وجود شخص متكئ على الجدار بالقرب من المصباح. كان هذا الشخص يلقي ظلاً طويلاً صوبنا لكنه ما كان جارد. أمسكت يدي بذراع جيب. كانت تلك نوبة فزع تلقائية.

عند ذلك نظرت إلى الشخص المنتظر. كان أصغر مني حجماً. هكذا عرفت أنه ليس جارد. كان نحيلاً أيضاً. كان صغير الحجم، لكنه كان طويلاً! وفي ضوء المصباح الخافت استطعت رؤية أن جلده الذي لوّحته الشمس. كان أسمر اللون. ورأيت شعره الأسود الناعم منحدراً حتى أسفل ذقنه.

ترنحت ركبتاي.

اشتدت قبضتي على ذراع جيب. أمسكت بها طلباً للعون.

قال جيب بانزعاج واضح: «يا للهول! ألا يستطيع أحد حفظ السر في هذا المكان أكثر من أربع وعشرين ساعة؟ هذا مزعج تماماً! إنهم حفنة من الثرثارين. .» سكت جيب. تحولت كلماته إلى زمجرة خفيضة.

لم أحاول قط فهم الكلمات التي كان جيب يقولها. كنت واقعة في أعنف معركة مررت بها في حياتي. في أعنف معركة مررت بها في أي حياة عشتها.

صرت الآن أشعر بوجود ميلاني بكل خلية من خلايا جسدي. امتزج وجودي بوجودها. بحضورها. توترت عضلاتي استعداداً لصدور أوامر عنها. ارتجفت شفتاي محاولتين الانفتاح. انحنيت صوب الصبي الواقف في تلك القاعة. امتد جسدي إليه لأن ذراعيّ كانتا عاجزتين عن الامتداد.

لقد تعلمت ميلاني أشياء كثيرة خلال المرات التي أسلمت قيادي لها فيها. كان عليّ الآن أن أقاومها حقيقة. أن أقاومها بضراوة جعلت العرق يتفصد من جبيني. لكني ما كنت أموت في الصحراء الآن. ما كنت ضعيفة ولا مذهولة لظهور شخص اعتقدت أنه ضاع. كنت أعرف أن هذه اللحظة آتية لا ريب فيها. كان جسدي مطواعاً. سريع التعافي. صرت قوية من جديد. أسعفت قوة جسدي قوة سيطرتي. أسعفت تصميمي.

دفعتها بعيداً عن أطرافي. دفعتها بعيدة عن كل ما تستطيع التمسك به. دفعتها عميقاً إلى آخر زوايا عقلي وأحكمت وثاقها هناك.

كان استسلامها مفاجئاً. نهائياً. أطلقت زفرة أشبه بأنين الألم.

انتابني إحساس غريب بالذنب فور فوزي عليها.

أعرف الآن أنها صارت بالنسبة لي أكثر من جسد مضيف معاند جعل حياتي صعبة على نحو لا لزوم له. لقد صرنا رفيقتين، بل صرنا رفيقتين حميمتين خلال أسابيعنا الأخيرة معاً. بل منذ أن وحَّدتنا تلك الباحثة ضد عدو مشترك. وفي الصحراء، عندما كان سيف كَايل مشهراً فوق رأسي، كنت سعيدة لأنني إن مت يومها فلن أكون أنا من قتل ميلاني. حتى في تلك اللحظة، كانت ميلاني أكثر من جسد بالنسبة لي. أما الآن فقد أحسست أنها شيء يتجاوز ذلك كله. ندمتُ على إيلامها.

لكن هذا كان ضرورياً، والظاهر أنها ما كانت قادرة على فهم تلك

الضرورة. أي كلمة خاطئة نقولها، أي تصرف غير محسوب، يمكن أن يؤدي بنا إلى إعدام سريع. كانت ردود فعلها شديدة العاطفية. غير منضبطة. كانت من النوع الذي يوقعنا في المتاعب.

قلت لها: «عليك أن تثقي بي الآن! إنني أحاول الإبقاء على حياتنا. أعرف انك لا تريدين تصديق أن هؤلاء البشر قادرون على إيذائنا...».

همست ميلاني: «لكنه جيمي!». كانت شديدة الحنين إلى الفتى. كانت عاطفتها شديدة إلى حد أضعف ركبتيّ من جديد.

حاولت أن أنظر إليه نظرة محايدة. أن أنظر إلى هذا المراهق ذي الوجه الجاد. هذا المتكئ على جدار النفق طاوياً ذراعيه على صدره. حاولت النظر إليه باعتباره غريباً وحاولت أن أخفّف ردّ فعلي. أو عدم ردّ فعلي. تبعاً لتلك النظرة. حاولت هذا، لكني فشلت. إنه جيمي! كان جميلاً. كانت ذراعاي. ذراعاي أنا لا ذراعا ميلاني. تواقتين إلى احتضانه. ملأت الدموع عينيَّ وانحدَرَت جارية فوق وجهي. كنت آمل أن تكون دموعي غير مرئية في هذا الضوء الشحيح.

قال جيمي: «جيب!». كانت تلك تحية مقتضبة. مرت عيناه عليّ سريعاً وابتعدتا عني.

كان صوته شديد العمق! أيمكن حقاً أن يكون قد كبر إلى هذا الحد؟ أدركت وقد وخزني الشعور بالذنب من جديد أن عيد ميلاده الرابع عشر قد مر أثناء غيابي. لقد دلتني ميلاني على ذلك اليوم. كان هو يوم رؤية جيمي أول مرة في حلمي. حاولت ميلاني كثيراً أثناء ساعات يقظتها أن تحتفظ بهذا الألم لنفسها، أن تغلف ذكرياتها بضباب يحجبها حتى تحمي الصبي. لكنه ظهر في حلمها. أما أنا فقد كتبت إلى الباحثة رسالة عن ذلك الحلم!

ارتعدتُ الآن غير مصدقة أنني كنت قاسية الفؤاد إلى هذه الدرجة.

سأله جيب: «ما الذي تفعله هنا يا فتى؟».

رد جيمي بسؤال آخر: «لماذا لم تخبرني؟».

ظل جيب صامتاً.

قال جيمي ملحّاً: «أكانت تلك فكرة جارد؟».

تنهد جيب: «طيب! أنت تعرف الآن. ماذا استفدت من هذه المعرفة؟ لم نكن نريد إلا . !».

قاطعه جيمي بصوت واثق: «تريدون حمايتي!».

من أين أتى بهذه المرارة كلها؟ هل الذنب ذنبي؟ نعم إنه ذنبي طبعاً!

بدأت ميلاني تبكي في رأسي. كان بكاؤها يشوش انتباهي. كان مرتفعاً. جعل بكاؤها صوتيّ جيب وجيمي يبدوان بعيدين عني.

«طيب يا جيمي! أنت لست بحاجة إلى الحماية إذاً! فماذا تريد؟».

بدا هذا التراجع السريع من جانب جيب مفاجئاً لجيمي. راحت عيناه تنتقلان بين وجه جيب ووجهي. كان يحاول جاهداً التوصل إلى شيء يطلبه.

قال أخيراً: «أنا. أنا أريد التحدث معها. مع هذا الشيء». كان صوته أكثر ارتفاعاً بسبب عدم ثقته في هذه اللحظة.

قال له جيب: «إنها لا تتكلم كثيراً. لكن. أنت تستطيع المحاولة يا فتى».

فك جيب أصابعي عن ذراعه. وعندما صار حراً أدار ظهره إلى أقرب جدار واستند إليه أثناء جلوسه على الأرض. جلس هناك وراح يعدل من جلسته حتى وجد وضعاً مريحاً. ظلت البندقية في حضنه. استرخى رأسه مستنداً إلى الجدار وأغمضت عيناه. وخلال ثوان قليلة بدا عليه كأنه قد نام.

بقيت واقفة حيث تركني. كنت أحاول إبعاد عيني عن وجه جيمي. وكنت أفشل في هذا!

ظهرت الدهشة على جيمي من جديد بسبب سهولة استسلام جيب. راح ينظر إلى الرجل العجوز جالساً على الأرض. كان ينظر إليه بعينين متسعتين جعلتا وجهه يبدو أصغر عمراً. وبعد دقائق قليلة من سكون جيب، نظر جيمي إليّ من جديد. . ضاقت عيناه.

كان ينظر إليّ على نحو. غاضب. محاولاً أن يكون شجاعاً. ناضجاً. لكن عينيه كانتا أيضاً تشعان بالخوف وبالألم على نحو شديد الوضوح في تلك العينين القاتمتين. جعل هذا ميلاني تبكي بصوت أعلى وجعل ركبتيّ ترتجفان. وبدلاً من المغامرة بالانهيار إلى الأرض مرة أخرى. تحركت ببطء صوب جدار النفق عابرة جيب ثم انزلقت جالسة على الأرض. كوّرت جسدي حول ركبتي المنثنيتين. حاولت أن أكون في أصغر حجم ممكن.

راقبني جيمي بعينين يقظتين حذرتين ثم خطا أربع خطوات بطيئة في اتجاهي. صار واقفاً فوقي الآن. انتقلت عيناه إلى جيب الذي لم يتحرك أبداً ولم يفتح عينيه. ثم ركع إلى جانبي. صار وجهه متوتراً على نحو مفاجئ. جعله هذا يبدو أكبر سناً. انتفض قلبي متألماً لرؤية ذلك الرجل الحزين في وجه الصبي الصغير.

قال لي بصوت منخفض: «أنت لست ميلاني!».

كان عدم التحدث معه صعباً. شديد الصعوبة. لأنني. أنا. كنت أريد التحدث معه. لكني، بدلاً من الكلام، هززت رأسي بعد تردد قصير.

«لكنك داخل جسدها».

مر صمت قصير ثم أومأت برأسي من جديد.

«ما الذي أصاب وجهك. وجهها؟».

رفعت كتفي. لم أكن أعرف شيئاً عن منظر وجهي، لكني استطعت تخيله.

قال ملحّاً: «من الذي فعل هذا بك؟». مد إصبعاً متردداً فكاد يلمس جانب رقبتي. ظللت ساكنة في مكاني. لم أشعر بوجود ما يدفعني إلى الانكماش مبتعدة عن هذه الإصبع.

«إنهم العمة ماغي وجارد وإيان». هكذا قال صوت جيب ناضحاً بالملل. أجفلنا لسماع هذا الصوت. لم يتحرك جيب. ما زالت عيناه

مغمضتين. بدا عليه الهدوء التام، حتى كأنه أجاب عن سؤال جيمي في نومه.

انتظر جيمي لحظة ثم استدار صوبي من جديد وعلى وجهه ذلك التعبير المتوتر نفسه.

«أنت لست ميلاني، لكنك تعرفين ذكرياتها كلها، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي من جديد.

«هل تعرفين من أكون؟».

حاولت ابتلاع الكلمات، لكنها انزلقت عبر شفتي: «أنت جيمي!». لم أستطع الامتناع عن لفظ اسمه الآن. أحسست أن صوتي يلتف حول الاسم كأنه يداعبه.

رمشت عيناه. فاجأه انكسار صمتي. ثم أومأ برأسه وهمس يجيبني: «هذا صحيح».

رحنا ننظر معاً إلى جيب الذي بقي هادئاً. ثم عدنا نتبادل النظرات.

سألني: «أنت تذكرين إذاً ما حدث لها!».

صدر عني صوت باكٍ. أومأت برأسي بحركة بطيئة.

همس: «أريد أن أعرف هذا».

هززت رأسي.

كرر جيمي: «أريد أن أعرف!». ارتجفت شفتاه. «أنا لست طفلاً أخبريني».

همست غير قادرة على منع نفسي: «إنه ليس شيئاً. لطيفاً». ما أصعب أن أرفض طلب هذا الصبي.

انعقد حاجباه المستقيمان الأسودان فوق عينيه المتسعتين ثم همس «أرجوك!».

ألقيت نظرة صوب جيب. ظننت أنه ينظر إلينا عبر أهدابه، لكني لم أكن واثقة من ذلك.

جاء صوتي خافتاً، كأنه صوت تنفس: «لقد رآها شخص تدخل إلى مكان محظور. أدرك ذلك الشخص أن ثمة أمراً مريباً فاتصل بالباحثين».

أجفل جيمي لسماع هذا اللقب.

«حاول الباحثون جعلها تستسلم لهم. لكنها هربت. وعندما حاصروها قفزت في بئر المصعد المفتوح».

ارتجفت مبتعدة عن هذه الذكرى. ذكرى الألم. أما وجه جيمي فقد شحُب. صار أبيض اللون تحت سمرته.

همس يقول: «ألم تمت؟».

«لا! إن لدينا أطباء ماهرين. لقد أصلحوا جسدها سريعاً. ثم وضعوني فيها. كانوا يأملون أن أتمكن من إخبارهم عن كيفية نجاحها في البقاء طوال هذه المدة». ما كنت أريد أن أقول هذا كله. انطبق فمي. بدا جيمي غير مدرك للهفوة التي ارتكبتها، لكن عيني جيب انفتحتا بحركة بطيئة واستقرتا على وجهي. لم يتحرك أي جزء آخر فيه، لم يلاحظ جيمي هذا التغير.

سألني: «لماذا لم تتركوها تموت؟». كان عليه أن يبتلع بكاءه الآن.. كان صوته موشكاً على النشيج. كان سماع هذا الصوت شديد الصعوبة لأنه ما كان صوتاً من الأصوات التي تصدر عن طفل خائف من المجهول.. كان صوت حزن مدرك للأمر. كما عند الكبار! أحسست صعوبة شديدة في الامتناع عن مد يدي. عن وضعها على وجنته. كم وددت احتضانه. كم وددت رجاءه ألا يكون حزيناً. شددت قبضتيّ وحاولت التركيز على سؤاله. انتقلت عينا جيب إلى قبضتيّ المشدودتين بحركة سريعة. ثم عادتا من جديد.

تمتمت: «ما كنت موجودة وقت اتخاذ القرار. كنت ما أزال في حالة سبات ضمن وعاء التبريد في الفضاء البعيد عندما حدث ذلك».

رفت عينا جيمي من جديد تحت وقع المفاجأة. ما كان يتوقع هذه

الإجابة. رأيته يصارع أحاسيس جديدة. استرقت نظرة إلى جيب فرأيت عينيه متسعتين دهشة وفضولاً

استولى على جيمي فضول مفاجئ لكنه كان مشوباً بقلق أكبر. سألني: «من أين كنت قادمة؟».

ابتسمت رغماً عن نفسي. ابتسمت بسبب اهتمامه اللاإرادي: «من مكان شديد البعد. من كوكب آخر».

بدأ يسألني: «وماذا كان. .» لكن سؤالاً آخر قاطع سؤاله.

صاح جارد بنا: «ماذا تفعلون؟». جَمَّدته المفاجأة عند منعطف النفق. «بئس الأمر يا جيب! لقد اتفقنا ألا .».

هب جيمي واقفاً: «لم يجلبني جيب إلى هنا. لكن. أأنت من كان عليه أن يجلبني».

تنهد جيب ونهض واقفاً بحركة بطيئة. عند وقوفه تدحرجت البندقية من حضنه وسقطت على الأرض. توقفت على بعد سنتيمترات قليلة مني. أشحت بوجهي عنها منزعجة من وجودها. كان ردّ فعل جارد مختلفاً. انقضّ صوبي. اجتاز المسافة بخطوات سريعة راكضة التصقت بالجدار وغطيت وجهي بذراعيّ. تابعت النظر إليه من خلف مرفقي. رأيته يرفع البندقية عن الأرض.

كان يقول لجيب بصوت أقرب إلى الصراخ: «هل تحاول السماح لها بقتلنا؟». ألقى البندقية إلى صدر العجوز.

قال جيب بصوت متعب: «اهدأ يا جارد!». أمسك البندقية بيد واحدة. «إنها لن تلمس هذا الشيء حتى لو تركته معها وحدها طوال الليل. ألا تستطيع رؤية ذلك؟». أشار صوبي بفوهة البندقية فابتعدت خائفة. «إنها ليست باحثة!».

«اسكت يا جيب! اسكت. اسكت فقط!».

صاح جيمي: «اتركه يا جارد! فهو لم يفعل شيئاً».

صاح جارد ملتفتاً إلى الصبي النحيل الغاضب: «أنت! اخرج من هنا الآن. وإلا أخرجتك بنفسي!».

تكوّرت يدا جيمي. شد على قبضتيه واتخذ وضعية ثابتة على الأرض.

تكوّرت قبضتا جارد أيضاً.

جمّدتني الصدمة في مكاني. كيف يستطيعان تبادل الصراخ على هذا النحو؟ إنهما أسرة واحدة. يربطهما شيء أقوى من رابطة الدم. لا يمكن أن يؤذي جارد جيمي. إنه لا يستطيع إيذاءه! أردت أن أفعل شيئاً، لكني ما كنت أعرف ما يمكن أن أفعله. من شأن كل ما يعيدني إلى مركز انتباههما أن يزيد غضبهما اضطراماً.

كانت ميلاني أكثر هدوءاً مني هذه المرة: «إنه لا يستطيع إيذاء جيمي. هذا مستحيل». قالت هذه الكلمات بصوت واثق.

نظرت إليهما متواجهين كما يتواجه الأعداء. أصابني الذعر.

قلت لها بصوت كالأنين: «ما كان علينا المجيء إلى هنا أبداً! انظري مقدار التعاسة التي نسببها لهما».

قال جيمي من بين أسنانه المشدودة: «ما كان يجوز لك إبقاء هذا الأمر سراً عني. وما كان يجوز لك أن تؤذيها». انفكت إحدى قبضتيه واندفعت مشيرة إلى وجهي.

بصق جارد على الأرض: «إنها ليست ميلاني! لن تعود ميلاني أبداً يا جيمي».

قال جيمي مصراً: «إنه وجهها. إنها رقبتها. ألا تزعجك هذه الكدمات عليها؟».

أرخى جارد يديه. أغمض عينيه واستنشق نفساً عميقاً: «إما أن تذهب الآن يا جيمي وتفسح لي مجالاً وإما أن أجعلك تذهب بنفسي. أنا أتكلم جدياً. لا أستطيع التعامل مع أي شيء في هذه

اللحظة. هل تفهمني؟ لقد بلغت حدودي. فهل نستطيع أن نتحدث في هذا الأمر لاحقاً؟». فتح عينيه من جديد. كان الألم ملؤمما.

نظر جيمي إليه. راح الغضب يختفي من وجهه على نحو بطيء. تمتم بعد لحظة: «آسف! سوف أذهب. لكني لا أعدك بعدم العودة إلى هنا من جديد».

«لا أستطيع التفكير في هذا الآن. اذهب. أرجوك!».

رفع جيمي كتفيه، ألقى صوبي نظرة أخيرة مستفسرة ثم ذهب. جعلتني خطواته الواسعة السريعة أشعر بالألم من جديد. أشعر بالألم على تلك الأيام التي ضاعت ولم أكن موجودة فيها

نظر جارد إلى جيب قائلاً بصوت من غير تعبير: «أنت أيضاً!».

فتح جيب عينيه متسعتين: «لا أظن أنك نلت قسطاً كافياً من الراحة. سوف أستمر في حراستها. .».

«اذهب!».

عبس جيب مفكراً ثم قال: «لا بأس! سأذهب». ثم ابتعد متجهاً صوب الممر.

صاح جارد من خلفه: «جيب!».

«ماذا؟».

«إذا طلبت منك إطلاق النار عليها الآن، فهل تفعل ذلك؟».

تابع جيب سيره بخطوات بطيئة غير ناظر إلينا، لكن كلماته كانت واضحة: «سأكون مضطراً إلى ذلك! إنني ألتزم بالقواعد التي أضعها لذلك لا تطلب مني هذا الأمر حتى تكون واثقاً كل الثقة من أنك تعرف ما تقول».

اختفى جيب في الظلمة.

كان جارد ينظر في أعقابه. وقبل أن يستدير صوبي اندفعت عائدة إلى جحري غير المريح ثم تكوّرت في الزاوية القصيّة منه.

## الفصل الثامن عشر

# ملل

أمضيت بقية نهاري في صمت تام، مع استثناء وحيد.

حدث هذا الاستثناء عندما أحضر جيب الطعام لي ولجارد بعد عدة ساعات. وعندما وضع الصينية عند مدخل كهفي الصغير ابتسم لي ابتسامة اعتذار.

همست: «شكراً لك».

قال لي: «أهلاً وسهلاً!».

سمعت جارد ينخر غاضباً. لقد أزعجه هذا الحديث القصير بيننا.

لم يصدر عن جارد غير ذلك الصوت طوال النهار. إنني واثقة من بقائه هناك طوال اليوم، لكنني لم أسمع إلا صوت تنفسه الهادئ تأكيداً لوجوده.

كان يوماً شديد الطول. شديد الإزعاج. شديد الملل. جربت كل وضعية استطعت تخيلها، لكنني لم أستطع أبداً أن أجعل جسدي كله يتمدد على نحو مريح. بدأت أشعر بنبض مؤلم في أعلى ظهري.

فكرنا كثيراً في جيمي. أنا وميلاني. كان أكثر تفكيرنا متجهاً إلى أن مجيئنا هنا كان ضاراً له. إننا نؤذيه الآن! ما قيمة حفظ الوعد بالمقارنة مع هذه النتيجة؟

فقد الزمن أي معنى! قد يكون الآن وقت الغروب. قد يكون وقت الشروق. ما من شيء أستند إليه هنا في هذا المدفن تحت الأرض. نفدت مواضيع الحديث بيني وبين ميلاني. رحنا نقلب ذكرياتنا

المشتركة من غير حماسة. مثل تقليب قنوات التلفزيون من غير التوقف لمشاهدة شيء بعينه. غفوت مرة، لكني لم أستطع النوم عميقاً لأنني لم أشعر بأي راحة.

عندما جاء جيب أخيراً، كنت مستعدة لتقبيل وجهه المتيبس. انحنى ناظراً في زنزانتي فرأيت ابتسامة تمتد فتغطي وجهه كله.

سألني: «أما حان وقت الذهاب في جولة أخرى؟».

أومأت برأسي متلهفة.

زمجر جارد: «سوف أقوم بذلك أنا! أعطني البندقية».

ترددت. كنت في تلك اللحظة جاثمة في وضعية خرقاء عند فم كهفي. ظللت هكذا حتى أومأ جيب لي.

قال لي: «هيا اذهبي».

خرجت من كهفي، متيبسة غير متوازنة، وأمسكت باليد التي مدها جيب نحوي حتى أتمكن من البقاء واقفة في مكاني. أطلق جارد صوتاً ممتعضاً وأشاح بوجهه بعيداً عنا. كان ممسكاً البندقية بيده. كانت مفاصل أصابعه بيضاء لشدة ضغطها على الماسورة. لم يعجبني منظر البندقية بين يديه! كان وجودها معه يزعجني أكثر من وجودها مع جيب.

لم يُبدِ جارد تجاهي تسامحاً من النوع الذي يبديه جيب. انطلق ماشياً في النفق المظلم من غير أن يتوقف حتى ألحق به.

كان هذا صعباً. ما كان جارد يصدر ضجيجاً كافياً في مشيه لأسترشد به فأمشي خلفه. وما كان يحاول إرشادي إلى الطريق. لهذا كان عليّ أن أمشي مادة يدي أمامي وواضعة يدي الأخرى على الجدار محاولة عدم الاصطدام بالصخور. وقعت مرتين على الأرض غير المستوية. صحيح أن جارد لم يساعدني، لكنه انتظر في كل مرة حتى سمعني أقف على قدميّ وأتابع المشي من جديد. وفي لحظة من اللحظات. عندما كنت أمشي مسرعة في جزء مستقيم من النفق صرت شديدة القرب منه فلمستْ يدي الممدودة إلى الأمام ظهره. تلمست

شكل كتفيه. وقبل أن أدرك أنني ألمس جارد وأن الذي أمامي ليس جداراً، قفز جارد إلى الأمام هارباً من لمسة أصابعي، مُصدِراً هسيساً غاضباً.

همست: «آسفة!». أحسست أن حرارة خدي قد ازدادت في تلك الظلمة.

لم يجبني، لكنه وسّع خطواته فصار اللحاق به أكثر صعوبة من قبل.

أصبت بالحيرة عندما ظهر شيء من الضوء أمامي. هل سلكنا سبيلاً مختلفاً؟ لم يكن هذا الضوء الذي أراه هو الضوء الساطع الذي رأيته في القاعة الكبيرة من قبل. كان ضوءاً خافتاً، شاحباً، فضي اللون. لكن الشق الصخري الذي كان أمامنا بدا مثل الشق المفضي إلى تلك القاعة. لم أدرك سبب هذا الفارق في الإضاءة إلى أن صرت داخل ذلك الفراغ الواسع الذي تتردد فيه أصداء خطواتي.

إنه الليل إذاً! كان الضوء المشع من الأعلى يشبه ضوء القمر لا ضوء الشمس. استفدت من خفوت الإضاءة حتى أستطيع النظر إلى السقف محاولة اكتشاف سره. في الأعلى، في مكان شديد الارتفاع من فوقي، رأيت مئة قمر صغير يشع ضوءه الفضي الشاحب صوب الأرض البعيدة القاتمة. كانت تلك الأقمار الصغيرة مبعثرة من غير نظام. كان بعضها أكثر بعداً من بعضها الآخر. هززت رأسي. لقد استطعت النظر إلى الضوء على نحو مباشر الآن، لكنني ما زلت عاجزة عن فهمه.

أمرني جارد بصوت غاضب آتٍ من مسافة خطوات كثيرة إلى الأمام: «هيا!».

أجفلت وأسرعت من أجل اللحاق به. أسفت لأنني سمحت لانتباهي بالتشتت. كم يزعجه اضطراره إلى التكلم معي!

لم أكن أتوقع معونة المصباح المحمول عندما بلغنا غرفة النهرين. لم يعطني ذلك المصباح! كان الضوء شحيحاً هنا الآن، تماماً كما في الكهف الكبير. لكنني لم أر في هذا السقف إلا عشرين قمراً صغيراً. شد

جارد على أسنانه وراح يحدق في السقف بينما مضيت أنا بخطوات مترددة داخل الغرفة ذات الحوض الذي بلون الحبر. أظن أنني لو سقطت في ذلك التيار الحار العنيف الجاري تحت الأرض. ثم اختفيت فيه. فالأرجح ألا يرى جارد في الأمر إلا نوعاً من تدخّل القدر.

خالفتني ميلاني الرأي عندما رحت أشق طريقي في غرفة الحمام السوداء متلمسة الجدار: «أظن انه سيكون حزيناً إذا سقطنا في الماء الحار».

«أشك في هذا! لعل الم فقدانك يعاوده أول الأمر، لكنه سيكون سعيداً باختفائي انا!».

همست ميلاني: «هذا لانه لا يعرفك!». اختفت ميلاني بعد هذه الكلمات كما لو أن الإرهاق قد نال منها على نحو مفاجئ.

توقفت متجمدة في مكاني. مدهوشة. لم أكن واثقة. لكن ما قالته ميلاني بدا لي نوعاً من الإطراء.

صاح جارد من الغرفة الأخرى: «هيا. تحركي!».

أسرعت بقدر ما سمحت لي الظلمة. وبقدر ما سمح لي خوفي.

عندما عدنا وجدنا جيب منتظراً عند المصباح الأزرق. وعند قدميه رأيت أسطوانتين مجعدتين ومثلثين غير منتظمي الشكل. لم ألاحظ هذه الأشياء من قبل. لعله جاء بها أثناء غيابنا.

سأل جيب جارد بنبرة غير مهتمة: «أتنام هنا اليوم أم أنام أنا؟».

نظر جارد إلى تلك الأشياء عند قدمي جيب.

أجابه بصوت جاف: «سأنام أنا! وأنا لا أحتاج سوى فراش واحد. إنها ليست واحدة منا يا جيب! لقد حمّلتني مسؤولية هذا الأمر كله. اخرج منه إذاً!».

«لكنها ليست حيواناً أيضاً يا فتى. أنت لا تعامل كلباً بهذه الطريقة!»

لم يجبه جارد. سمعته يصر أسنانه.

قال جيب بصوت ناعم: «لم أكن أعتقد أنك رجل فظ». لكنه حمل إحدى الأسطوانتين الملفوفتين مدخلاً ذراعه في الحبل الذي يطوقها ثم رماها فوق كتفه وانحنى فحمل أحد المثلثين تحت ذراعه. إنها وسادة!

وعندما مر بجانبي قال مربتاً على كتفي: «آسف يا عزيزتي!».

زمجر جارد: «كف عن هذا!».

رفع جيب كتفيه ومضى مبتعداً. وقبل أن يغيب عن نظري أسرعت فاختفيت داخل زنزانتي. اختبأت في أقصى ظلمتها متكورة على نفسي صانعة من جسدي كرة مشدودة. أملت أن تكون صغيرة إلى حد يجعلها غير ظاهرة.

وبدلاً من انزوائه صامتاً غير مرئي في النفق الخارجي، مد جارد فراشه أمام فم سجني تماماً. راح يضرب وسادته ويمسدها عدة مرات. لعله يحاول إكسابها شكل الوسادة التي كانت عنده ذات يوم! رقد جارد على الفراش شابكاً يديه فوق صدره. هذا ما كنت أستطيع رؤيته عبر الفتحة. لم أر إلا يديه المتشابكتين ونصف جذعه.

رأيت على جلده ذلك اللون المسمرّ الذهبي نفسه الذي سكن أحلامي منذ ستة أشهر. غريب حقاً أن يكون هذا الجزء من أحلامي موجوداً حقيقة على مسافة لا تزيد على مترين مني. إنه شيء يفوق الواقع!

حذرني: «لن تتمكني من التسلل عبر فراشي». كان صوته ألطف من ذي قبل. كان نعساً: «إذا حاولت ذلك. .» تثاءب. «فسوف أقتلك».

لم أجبه. صدمني تحذيره كأنه إهانة. لماذا أحاول التسلل؟ أين أذهب؟ أأذهب إلى هؤلاء البرابرة المنتظرين من أجلي. الذي يريد كل واحد منهم أن أعطيه ذريعة لقتلي بتلك المحاولة الغبية؟ ثم. لنفترض أنني استطعت على نحو من الأنحاء أن أتسلل فأعبر جارد النائم وأصل إلى الصحراء التي كادت تشويني حتى الموت عندما حاولت عبورها آخر مرة! عجباً. ما الذي يعتقد أنني قادرة عليه؟ ما الخطة التي يظن أنني رسمتها

لهدم عالمهم الصغير كله؟ هل أبدو بهذه القوة كلها حقاً؟ أليس مقدار ضعفي وبؤسي واضحاً؟

أدركت أنه صار يغط في نوم عميق لأنه بدأ يتحرك ويتقلب على النحو الذي رأيته في ذكريات ميلاني. ما كان ينام هذا النوم المضطرب إلا عندما يكون منزعجاً! نظرت إلى أصابعه تنكمش ثم ترتخي. تساءلت عما إذا كان يراها في حلمه مشدودة على عنقي. تخنقني!

*

في الأيام التي تلت ذلك. لعل أسبوعاً مر، ما كنت قادرة على ضبط تتابع الأيام. كان الهدوء سيد الموقف. كان جارد مثل جدار صامت يفصلني عن أي شيء آخر في هذا العالم. حسناً كان أو سيئاً! ما كنت أسمع أي صوت إلا صوت أنفاسي. صوت حركاتي. ما كنت أرى شيئاً إلا ذلك الكهف الصغير الأسود من حولي ودائرة الضوء الشاحب عند فتحته. وكنت أرى تلك الصينية المألوفة مع الأطعمة المكررة نفسها. إضافة إلى لمحات مسروقة خاطفة من جارد. ما كان في هذه الأيام أي لمسات إلا ملمس الصخور الناتئة الضاغطة على جلدي. ما كان فيها أي طعم إلا طعم الماء المر والخبز القاسي والحساء الباهت والجذور الخشبية. مرة بعد مرة بعد مرة.

كنت أعيش مزيجاً شديد الغرابة: خوف مستمر، وانزعاج جسدي مؤلم متواصل، ورتابة مضنية. ومن هذه العناصر الثلاثة كلها، كان الضجر القاتل أقساها وقعاً. كان سجني هذا غرفة تجرد السجين من الأحاسيس!

قلقت، وقلقت ميلاني أيضاً، من أننا ماضيتان إلى الجنون.

قالت: «إننا نسمع أصواتاً في رأسنا. هذه ليست علامة جيدة على الإطلاق!».

قلت لها قلقة: «سوف ننسى الكلام! كم مر من الوقت منذ أن تحدث معنا أحد؟».

«منذ أربعة أيام سمعتك تشكرين جيب عندما أحضر الطعام لنا.

عندما قال لك اهلاً وسهلاً. اظن انها اربعة أيام! أربع إغفاءات طويلة على الاقل». بدت كأنها تتنهد. «كفي عن قرض أظافرك... لقد أمضيت سنوات كاملة حتى أتخلص من هذه العادة».

لكن تلك الأظافر الطويلة الخامشة كانت تزعجني: «لا اظن حقاً اننا في حاجة إلى القلق بشأن العادات السيئة على المدى البعيد!».

ما عاد جارد يسمح لجيب بإحضار الطعام. كان أحد الأشخاص يحضره حتى باب القاعة فيتلقاه جارد من تلك النقطة. كنت أتناول الطعام نفسه: الخبز والحساء والخضار. مرتين كل يوم. أحياناً، كنت أرى شيئاً إضافياً من أجل جارد من قبيل أطعمة معلبة لها أسماء معروفة. حاولت تخيل كيفية حصول هؤلاء البشر على هذه اللذائذ هنا.

ما كنت أتوقع أن يقاسمني شيئاً من هذه الأطعمة. لم يقاسمني شيئاً بطبيعة الحال!. لكنني كنت أتساءل أحياناً عما إذا كان يخطر في باله أنني أود أن أنال شيئاً منها. كانت تسليتي هي الاستماع إلى صوته أثناء الأكل. لأنه يفعل ذلك على نحو استعراضي. لعله يعامل الطعام الآن كما كان يدعك تلك الوسادة عندما أتى بها جيب إليه.

ذات مرة، فتح جارد بحركة بطيئة علبة من الجبن. بحركته المعهودة. فاحت رائحتها الغنية. عبقت الرائحة في كهفي لذيذة مستحيلة المقاومة. أكل قطعة منها. مضغها مضغاً بطيئاً. جعلني أستمع إلى كل مضغة منها.

آنت معدتي بصوت مرتفع فضحكت من نفسي. مَرَّ عليَّ زمن طويل منذ أن ضحكت آخر مرة. حاولت أن أتذكر آخر ضحكة لي. لم أتذكر إلا تلك النوبة الغريبة من الهستيريا التي أصابتني في الصحراء. لم يكن ذلك ضحكاً في الحقيقة! حتى قبل مجيئي إلى هنا، ما كنت أجد شيئاً مضحكاً!

لكن الأمر الآن بدا لي مضحكاً لسبب من الأسباب!. إن معدتي

تتوق إلى قطعة الجبن الصغيرة تلك. ضحكت من جديد. لا بد أن هذا دليل على الجنون.

لا أدري ما الذي أزعجه في ردّ فعلي هذا، لكنه نهض واقفاً ثم اختفى. بعد لحظة طويلة استطعت سماعه من جديد يأكل في مكان بعيد. استرقت النظر عبر فتحة الكهف فرأيته جالساً في الظل عند نهاية الممر. كان مديراً ظهره نحوي. سحبت رأسي إلى الداخل خائفة من التفاته. خائفة من أن يضبطني أنظر إليه. منذ ذلك اليوم صار يجلس عند تلك النقطة البعيدة. البعيدة إلى أقصى حد ممكن. أما في الليل فكان يستلقي عند فتحة سجني.

كان عليّ أن أمشي إلى غرفتي النهرين مرتين كل يوم، بل مرتين كل ليلة لأنه ما كان يأخذني أثناء وجود الآخرين في القاعة الكبيرة. كانت هذه الرحلات انفراجاً رغم مخاوفي لأنها كانت اللحظات الوحيدة التي لا يضطر فيها جسدي إلى اتخاذ أوضاع غير طبيعية ضمن كهفي الصغير. كانت كل مرة أعود فيها فأتسلق داخلة جحري أصعب من المرة السابقة.

وخلال ذلك الأسبوع، خلال ساعات النوم دائماً، حدث تفقد لنا ثلاث مرات.

في المرة الأولى جاء كَايل!

أيقظتني وثبة جارد المفاجئة عندما هبّ واقفاً على قدميه وقال محذّراً. حاملاً بندقيته: «اخرج من هنا!».

قال كَايل: «إني أتفقدك فحسب». كان صوته قادماً من بعيد لكنه كان مرتفعاً خشناً إلى درجة جعلتني موقنة من أنه كَايل. وليس أخاه: «سأجدك غائباً ذات يوم. وقد أجدك نائماً نوماً عميقاً».

لم يجبه جارد إلا بأن جهز البندقية لإطلاق النار.

سمعت ضحكة كَايل تتردد من خلفه عندما استدار وغادر المكان.

لم أعرف القادم في المرتين الأخريين. لعله كَايل من جديد. لعله

إيان. أو لعله شخص لا أعرف اسمه. كل ما أعرفه هو أنني سمعت جارد مرتين يقفز واقفاً موجهاً بندقيته صوب المتطفل. لم أسمع أي كلمات. ما كان ذلك الذي «يتفقد فقط» مهتماً بإجراء أي محادثة. وعندما يذهب المتطفل، كان جارد يعود إلى نومه سريعاً. أما أنا فكان الوقت الذي يلزمني حتى أستعيد هدوء قلبي أطول من ذلك بكثير.

أما في المرة الرابعة فكان شيئاً جديداً.

ما كنت نائمة تماماً عندما هبّ جارد مستيقظاً واستوى على ركبتيه بحركة سريعة. أمسك بندقيته بيديه وأطلق شتيمة صوب الشخص القادم.

تمتم صوت من مسافة بعيدة: «مهلك! إنني آتيك مسالماً».

زمجر جارد: «لست مستعداً لاستقبالك مهما يكن قصدك».

اقترب الصوت: «أريد التحدث معك فحسب. أنت مدفون هنا. وغائب عن مناقشات هامة. إننا نفتقد مساهمتك فيها».

قال جارد متهكماً: «لا شك في هذا!».

«أوه! دع تلك البندقية جانباً. لو كنت أعتزم مقاتلتك لجلبت معي أربعة رجال هذه المرة».

حل صمت قصير، وعندما تحدث جارد من جديد، كان صوته يحمل لمسة من سخرية قاتمة: «كيف حال أخيك في هذه الأيام؟». بدا جارد مستمتعاً بهذا السؤال. كان يريحه أن يضايق الزائر. جلس متكئاً على الجدار أمام سجني. كان مسترخياً، لكن بندقيته ما تزال جاهزة.

آلمني عنقي عندما أدركت أن الكفين اللذين كادا يسحقان عنقي قريبان مني الآن.

قال إيان: «ما زال غاضباً بشأن أنفه. أوه، لا بأس. هذه ليست المرة الأولى الذي ينكسر فيها أنفه. سوف أقول له إنك آسف».

«لست آسفاً!».

«أعرف هذا! لا يأسف أحد عندما يضرب كَايل».

ضحكا معاً بصوت هادئ. ظهر في ضحكهما نوع من الرفقة بدا

شديد الغرابة في هذا الموقف. شديد الغرابة عندما كان جارد مستمراً في توجيه بندقيته صوب إيان. لكني أعرف أن الروابط التي تقوم بين الناس في هذا المكان القصي البائس لا بد أن تكون روابط شديدة القوة. روابط أكثر قوة من رابطة الدم.

جلس إيان على الفراش إلى جانب جارد. أستطيع الآن رؤية صورته الجانبية. شكل قاتم في ذلك الضوء الأزرق الشحيح. لاحظت أن أنفه جميل. أنف مستقيم مدبب قليلاً. ذلك النوع من الأنوف الذي يراه المرء في أعمال مشاهير النحاتين. هل يعني هذا أن الآخرين يجدونه مقبولاً لديهم أكثر من أخيه ذي الأنف المكسور دائماً؟ أم أنه أكثر مهارة من أخيه في تفادي اللكمات الموجهة إلى أنفه؟

«إذاً، ماذا تريد يا إيان؟ أظنك لم تأت طالباً اعتذاري من أجل كَايل!».

«ألم يخبرك جيب؟».

«لا أعرف عن أي شيء تتحدث».

«لقد كفوا عن البحث! حتى الباحثون!».

لم يعلق جارد على ما سمعه، لكني أحسست بالتوتر المفاجئ في الجو من حوله.

«إننا نراقبهم مراقبة وثيقة ترقباً لبعض التغير، لكنهم لم يظهروا اهتماماً زائداً. نادراً ما اتسع نطاق البحث خارج المنطقة التي تركنا فيها السيارة. بل صار واضحاً في الأيام الأخيرة أنهم يبحثون عن جثة لا أكثر. ومنذ ليلتين واتتنا مصادفة جيدة. تركت مجموعة الباحثين بعض الفضلات في العراء فهاجم معسكرهم قطيع من الكلاب البرية المفترسة. جاء أحد الباحثين في وقت متأخر ليلاً ففاجأ الحيوانات. هاجمت الكلاب هذا الباحث وجرّته عدة مئات من الأمتار في قلب الصحراء قبل أن يسمع بقية الباحثين صراخه فيهبّوا لنجدته. كان بقية الباحثين مسلحين طبعاً. لقد أخافوا الحيوانات وجعلوها تهرب بسهولة. لم تصب الضحية بجراح

خطيرة، لكن هذا الحدث أجاب على تساؤلات الباحثين فأقنعهم بأن ضيفتنا هذه قد سقطت فريسة الحيوانات».

عجبت كيف يستطيعون التجسس على الباحثين الذين جاؤوا بحثاً عني. كيف استطاعوا أن يروا كل هذا؟ شعرت أنني مكشوفة على نحو غريب. لم تعجبني الصورة التي رأيتها في رأسي: البشر غير المرئيين يراقبون الأرواح التي يكرهونها. جعلت الفكرة جلدي يقشَعِرّ.

«وهكذا حزموا أمتعتهم وذهبوا. لقد أقلع الباحثون عن بحثهم. وعاد معهم جميع المتطوعين. لا يبحث أحد عنها الآن». استدار جسده صوبي فانكمشت ملتصقة بالأرض آملة أن يكون الظلام في كهفي كافياً لعدم رؤيتي. أملت أن لا أظهر إلا شبحاً داكناً. كما يظهر وجهه لي. «أظن أنهم أعلنوا موتها رسمياً. هذا إذا كانوا يحتفظون بسجلات لهذه الأشياء كما كنا نفعل. إن جيب يقول: قلت لكم هذا! حتى يزعج كل من لا يزال قادراً على الاستماع إليه».

غمغم جارد شيئاً غير مفهوم؛ لم أستطع التقاط شيء من كلامه إلا اسم جيب. ثم استنشق نفساً عميقاً حاداً. نفخه وقال: «لا بأس إذاً. أظن أن هذا نهاية الأمر».

«هكذا يبدو!». تردد إيان لحظة ثم أضاف «إلا لا بأس لا بأس. لا أهمية للأمر أبداً».

توتر جارد من جديد. ما كان يحب امتحان ذكائه: «هيا. قل ما لديك».

«لا أحد يولي أهمية لهذا الأمر إلا كَايل. وأنت تعرف كيف هو كَايل»

نخر جارد مؤكداً ذلك.

«إن لديك غريزة ممتازة تجاه هذه الأمور. أردت أن أسمع رأيك. هذا سبب مجيئي حاملاً روحي بين يدي متسللاً إلى هذه المنطقة

المحظورة». قالها إيان بصوت جاف ثم عاد صوته جاداً كل الجد من جديد: «ثمة واحدة من هؤلاء. إنها باحثة. لا شك في هذا فهي تحمل بندقية».

مرت ثانية حتى فهمت الكلمة التي استخدمها. إنها تحمل بندقية! وعندما فهمت ذلك جعلتني نبرة صوته الناضحة بالحسد أرتعش قليلاً.

«كان كَايل أول من لاحظ تميزها عن بقية فريق الباحثين. ما كانت تبدو شخصية مهمة بينهم. وبالتأكيد ما كانت جزءاً من عملية اتخاذ القرار. أوه! لقد طرحت عليهم اقتراحات كثيرة لكنهم ما كانوا يصغون إليها. ليتنا كنا قادرين على سماع ما قالته لهم».

اقشعر جلدي قلقاً من جديد.

تابع إيان يقول: «على أي حال، عندما أوقفوا البحث ما كانت هذه الباحثة سعيدة بقرارهم. أنت تعرف كيف يبدو هؤلاء الطفيليون دائماً. يبدون لطيفين! أما هذه الباحثة فكانت غريبة! كان ذلك أقرب إلى أن يكون شجاراً بينهم. ليس شجاراً حقيقياً لأن أحداً من الآخرين لم يجادلها، لكنها بدت كمن يتشاجر معهم. لم يول أكثر الباحثين أهمية لهذا الأمر. ذهبوا جميعاً».

سأله جارد: «وأما هي!».

«لقد ركبت سيارتها وانطلقت نصف المسافة حتى فينيكس. ثم عادت حتى توكسون. ثم عادت تقود السيارة غرباً من جديد».

«أما زالت تبحث؟».

«أو أنها شديدة الانزعاج والارتباك. لقد توقفت عند المتجر القريب من القمة. تحدثت مع الطفيلي الذي يعمل هناك رغم أنهم استجوبوه من قبل».

نفخ جارد: «هاه!». لقد أثار الأمر اهتمامه الآن. راح يركز تفكيره على هذه الأحجية.

«بعد ذلك ذهبت الباحثة سيراً على الأقدام حتى القمة. يا لغبائها!

لا بد أن الشمس شوتها شيأ في تلك الملابس السوداء من رأسها حتى أخمص قدميها».

سرت رجفة في جسدي كله. وجدت نفسي أقفز عن الأرض منكمشة. ملتصقة بجدار زنزانتي. ارتفعت يداي غريزياً لحماية وجهي. وسمعت هسيساً ينفلت من فمي فيملأ هذا المكان الصغير. لم أدرك أنه صدر عني إلا بعد أن خبا.

سأل إيان وقد ظهرت الصدمة في صوته: «ما هذا؟».

استرقت النظر من بين أصابعي فرأيت وجهيهما ينظران إليّ عبر الفتحة. كان إيان أسود اللون في ذلك الضوء الشحيح، لكن جزءاً من وجه جارد كان مضاءً. كانت قسمات وجهه صلبة قاسية كالصخر.

أردت أن أظل هادئة، غير مرئية، لكن ارتجافاً لم أستطع السيطرة عليه كان يهزني هزاً عنيفاً.

ابتعد جارد قليلاً ثم عاد حاملاً المصباح بين يديه.

تمتم إيان: «انظر إلى عينيها. إنها مذعورة!».

صرت قادرة على رؤية تعابير وجهيهما الآن، لكنني لم أنظر إلا إلى جارد. كان نظره مركزاً عليَّ تماماً. كان يفكر. أظنه كان يفكر في ما قاله إيان باحثاً عن الشيء الذي أثار هذا السلوك عندي.

لم يتوقف جسدي عن الارتعاد.

أنّت ميلاني: «لن تستسلم الباحثة ابداً!».

أجبتها بصوت يشبه أنينها: «أعرف هذا... أعرف هذا!»

متى تحوّل مقتنا لها إلى خوف منها؟ كانت معدتي تتقلص وتنتفض. لماذا لا تستطيع هذه الباحثة تركي أموت كما فعل الآخرون؟ وعندما أموت حقاً. فهل ستستمر في البحث عني؟

صرخ جارد بي على نحو مفاجئ: «من هي الباحثة التي ترتدي السواد؟».

ارتجفت شفتاي، لكنني لم أجبه. كان الصمت أكثر أماناً.

زمجر جارد: «أعرف أنك قادرة على الكلام. أنت تتحدثين مع جيب ومع جيمي. والآن سوف تتحدثين معي».

تسلق فتحة كهفي لاهثاً باستغراب لمدى صعوبة دخوله إليه. أجبره السقف المنخفض على الركوع. ما كان يحب هذا! رأيت أنه يفضل الوقوف منتصباً فوقي.

ما كان لدي مكان للهرب. كنت محشورة في أعمق زاوية من زوايا الكهف. ما كان في كهفي متسع لاثنين. كنت أشعر بأنفاسه فوق جلدي.

أمرني قائلاً: «قولي لي ما تعرفين»

## الفصل التاسع عشر

# هجران

«من هي الباحثة التي ترتدي السواد؟ ولماذا هي مستمرة في البحث؟». كان صياح جارد مصماً لأذنيّ. كانت الجدران تعيد قذف صدى هذه الصيحات صوبي.

اختبأت خلف كفيّ منتظرة الضربة الأولى.

تمتم إيان: «آه. جارد! ربما لو تركتني. .».

«ابق بعيداً عن هذا!».

اقترب صوت إيان. صرّت الصخور من تحته عندما حاول اللحاق بجارد إلى داخل هذا الحيّز الضيق الذي كان ممتلئاً إلى آخره: «ألا ترى أنها خائفة جداً إلى حد يمنعها من الكلام؟ اتركها. اتركها من أجل. .».

سمعت شيئاً يحتك بالصخر عندما تحرك جارد ثم سمعت صوت ضربة. وسمعت سباباً يصدر عن إيان. استرقت النظر عبر أصابعي لأرى أن إيان ما عاد ظاهراً في الصورة. رأيت ظهر جارد قبالتي.

بصق إيان وقال بصوت كالأنين: «هذه هي المرة الثانية». فهمت أن اللكمة التي كنت أنتظرها قد اتجهت صوب إيان بسبب تدخّله.

دمدم جارد: «أنا مستعد للثالثة أيضاً»، لكنه استدار فواجهني من جديد جالباً المصباح معه هذه المرة. كان ممسكاً المصباح باليد التي ضربت إيان. بدا الضوء في الكهف ساطعاً بعد كل تلك الظلمة.

تحدث جارد معي من جديد وهو يدرس وجهي في ضياء المصباح. كان يقطّع الكلمات: «من. هي. الباحثة؟».

أزحت يدي عن وجهي ورحت أحدق في عينيه الخاليتين من الرحمة. يزعجني أن أحداً غيري قد تألم الآن بسبب صمتي. حتى وإن كان من حاول قتلي سابقاً. ما هكذا يفترض أن يكون التعذيب!

اضطربت تعابير وجه جارد عندما قرأ تعابير وجهي. وقال بصوت هادئ، كأنه غير واثق من نفسه: «لست مضطراً لإيذائك. لكن عليّ أن أعرف الإجابة عن سؤالي».

ما كان هذا بالسؤال الصحيح: ما كان هذا سراً لابد لي من حمايته.

قال ملحّاً: «أخبريني!» كانت عيناه متوترين بفعل إحباطه وانزعاجه الشديدين.

أأنا جبانة حقاً؟ لعلي كنت مصدقة هذا لعل خوفي من الألم كان أقوى من أي شيء آخر. أما السبب الحقيقي الذي جعلني أفتح فمي وأتكلم فكان أبسط من هذا بكثير

لقد أردت أن أبعث السرور في نفسه، في نفس هذا البشري الذي يكرهني بكل هذه الحدة.

بدأت أقول بصوت خشن أجش: «الباحثة. .» لم أتكلم منذ وقت بعيد.

قاطعني من غير صبر: «نعرف أنها باحثة».

همست: «لا! ليست أي باحثة. إنها باحثتي».

«ماذا تقصدين بأنها باحثتك؟».

«إنها مكلفة بي. إنها تتبعني. إنها السبب. .» ضبطت نفسي قبل أن أقول الكلمة التي قد تعني موتنا، قبل أن أقول كلمة نحن. إنها الكلمة الناطقة بالحقيقة الكاملة. الكلمة التي سيرى فيها كذبة كاملة، كذبه تلعب بأعمق أمانيه، بأعمق آلامه. لن يقتنع أبداً أن من الممكن أن تصبح

رغبته حقيقة. لن يرى فيّ إلا كاذبة خطيرة تنظر إليه عبر عينين أحبهما ذات يوم.

قال يستحثني: «السبب؟».

قلت همساً: «إنها السبب في هربي. السبب في مجيئي إلى هنا».

ما كان هذا صحيحاً تماماً، لكنه ليس كذباً كله أيضاً.

راح جارد ينظر إليّ بفم نصف مفتوح، محاولاً استيعاب كلماتي. ومن زاوية عيني رأيت إيان يسترق النظر إلينا عبر الفتحة من جديد. كانت عيناه المزرقتان بفعل ضربة جارد مفتوحتين على اتساعهما بفعل الدهشة. رأيت دماً داكناً متجمعاً على شفتيه الشاحبتين.

«هل هربت من الباحثة؟ لكنك واحدة منهم!». كان جارد يحاول جاهداً ضبط نفسه. يحاول العودة إلى تحقيقه وأسئلته. «ولماذا تتبعك الباحثة؟ ما الذي تريده؟».

ابتلعت ريقي. بدا الصوت مرتفعاً على حد غير طبيعي: «إنها تريدك. تريدك أنت وجيمي».

تصلبت تعابير وجهه: «وأنت كنت تحاولين إرشادها إلى هنا؟».

هززت رأسي: «لم أفعل. أنا. .» كيف أستطيع أن أشرح هذا؟ لن يقبل الحقيقة أبداً.

«ماذا؟».

«أنا. لم أكن راغبة في إخبارها. لست أحبها».

رفرفت عينا جارد. لقد ارتبك من جديد: «أليس يفترض فيكم كلكم أن تحبوا الجميع؟».

قلت معترفة وقد بدأ وجهي يحمرّ خجلاً: «هذا ما يفترض بنا!».

سألني إيان من فوق كتف جارد: «ومن الذي أخبرته عن هذا المكان؟» عبس جارد لكن نظره ظل مسلطاً على وجهي.

«ما كان في وسعي إخبار أحد. ما كنت أعرف أصلاً. لقد رأيت الخطوط. الخطوط التي على الألبوم. لقد رسمت هذه الخطوط

وأعطيتها للباحثة. لكننا ما كنا ندرك معناها. ما زالت تعتقد أنها خطوط خريطة». لم أستطع منع نفسي من قول هذه الكلمات حاولت جعلها تنساب ببطء أكبر حتى أحمي نفسي من الزلل.

«ماذا تقصدين بقولك إنك ما كنت عارفة معناها؟ ألست هنا الآن؟»

امتدت يدا جارد صوبي لكنهما سقطتا قبل الوصول إليّ بمسافة قصيرة.

«كنت. كنت أعاني مشكلة مع. مع. مع ذاكرة ميلاني. لم أفهم ذلك. لم أكن أستطيع الوصول إلى كل شيء. كانت جدران تنتصب في وجهي فتحجب كل شيء. هذا ما جعلهم يكلفون تلك الباحثة بمتابعتي. ينتظرون أن أستطيع الوصول إلى بقية أجزاء الذاكرة». لقد قلت الكثير. لقد قلت الكثير. عضضت على لساني.

تبادل إيان وجارد النظرات. لم يسمعا شيئاً مثل هذا من قبل. ما كانا واثقين بي، لكنهما كانا يريدان حقاً تصديق إمكانية ذلك. كانا يريدان ذلك إلى أقصى حد. هذا ما جعلهما خائفين.

جاءني صوت جارد بخشونة مفاجئة: «هل استطعت الوصول إلى كوخي في ذاكرتها؟».

«اقتضى ذلك زمناً طويلاً».

«وهل أخبرت الباحثة عنه؟».

«لا».

«لا؟ لم لا؟».

«لأنني. عندما اكتشفت ذلك الكوخ. ما كنت راغبة في إخبارها عنه».

كانت عينا إيان متسعتين دهشة.

تغيّر صوت جارد. صار منخفضاً. صار رقيقاً تقريباً. هذا أكثر خطراً بكثير من الصياح: «وما الذي جعلك غير راغبة في إخبارها؟».

انطبق فكاي بشدة. ما كان هذا هو السر الذي أحرص عليه، لكنه. لكنه سر لن أقوله له إلا إذا انتزعه مني انتزاعاً. في هذه اللحظة

ما كنت مصممة على إمساك لساني حرصاً مني على نفسي بل بسبب ذلك النوع الغبي من الإحساس بالكبرياء. لن أقول لهذا الرجل الذي يكرهني إنني أحبيته.

رأى جارد لمحة العصيان في عيني وبدا أنه أدرك صعوبة الحصول على إجابة هذا السؤال. قرر تجاوزه. أو لعله قرر العودة إليه في وقت لاحق، توفيره حتى النهاية، في حال ظللت قادرة على إجابة أي أسئلة في ذلك الوقت.

«لماذا لم تتمكني من الوصول إلى كل شيء؟ هل هذا. ضبيعي؟».

كان هذا السؤال شديد الخطورة أيضاً. وللمرة الأولى حتى الآن، كذبت كذبة صريحة.

«لقد سقطت لمسافة طويلة. أصيب جسدها إصابة بالغة».

ما كان الكذب سهلاً عليّ. خرجت هذه الكذبة من فمي مسطحة. مكشوفة. أدرك إيان وجارد الكذب في نبرة صوتي. مال رأس جارد جانباً. رأيت حاجب إيان يرتفع إلى الأعلى.

سألني إيان: «ولماذا لم تقلع هذه الباحثة عن المحاولة كما فعل الآخرون؟».

الآن شعرت بالإعياء الكامل. أدركت أنهما يمكن أن يواصلا هذا الاستجواب طوال الليل. بل سيواصلان هذا الاستجواب طوال الليل إذا واصلت الإجابة عن أسئلتهما. وسوف أرتكب خطيئة في آخر الأمر. التصقت بالجدار وأغمضت عيني.

همست: «لا أعرف. هذه الباحثة ليست مثل بقية الأرواح. إنها.. مزعجة».

ضحك إيان. كان صوت ضحكته مجفلاً.

سألني جارد: «وماذا عنك أنت؟ هل أنت مثل بقية الأرواح؟».

فتحت عيني وحدقت فيه تحديقة متعبة لحظات طويلة. يا للسؤال

الغبي! ثم أغمضت عينيّ بشدة ودفنت وجهي بين ركبتي ثم لففت ذراعي فوق رأسي.

إما أن يكون جارد قد فهم أنني كففت عن الكلام أو أن احتجاج جسده على هذه الوضعية المتعبة كان أشد من أن يستطيع احتماله. أطلق عدة زفرات ثقيلة عندما كان يستدير للخروج من كهفي آخذاً المصباح معه. وعندما صار في الخارج تمطى مصدراً أنيناً مسموعاً.

همس إيان: «كان هذا شيئاً غير متوقع».

أجابه جارد همساً: «إنها أكاذيب طبعاً!». ما كنت أكاد أستطيع سماع كلماتهما. لعلهما لم يدركا إمكانية وصول صوتهما إليّ. «لكني. لكني لا أستطيع أن أعرف على وجه التحديد ما الذي تريد منا أن نصدقه. لا أعرف أين تحاول أن تقودنا».

«لا أظن أنها كاذبة. إلا تلك الكذبة الواضحة! هل لاحظت؟».

«إنها جزء من التمثيلية».

«أين رأيت يا جارد أحد هؤلاء الطفيليين يستطيع أن يكذب. أي كذبة على الإطلاق؟ باستثناء الباحثين طبعاً».

«لا بد أنها باحثة».

«هل أنت جاد؟».

«هذا هو التفسير الأقرب إلى العقل».

«إنها. إنها أبعد شيء عن أن تكون باحثة. لو كان لدى الباحثين فكرة عن كيفية الوصول إلينا لجاؤوا بجيش إلى هنا».

«لو جاؤوا بجيش لما وجدوا هنا شيئاً. أما هي لقد استطاعت الدخول، أليس كذلك؟».

«لقد كادت تُقتل عشرات المرات. .».

«لكنها ما زالت حية، أليست كذلك؟» ظلا صامتين فترة طويلة. مر زمن طويل حتى بدأت أفكر في التخلي عن وضعيتي المتكورة عند الجدار، لكني لم أكن أريد إصدار أي صوت عندما أستلقي على الأرض.

تمنيت لو يذهب إيان حتى أستطيع النوم. غادرني التوتر فتركني شديدة الإرهاق.

همس إيان أخيراً: «أظن أنني سأذهب للتحدث مع جيب».

جاء صوت جارد مشبعاً بالتهكم: «أوه! إنها فكرة عظيمة!».

«هل تتذكر تلك الليلة الأولى؟ عندما قفزت بينك وبين كَايل! كان هذا غريباً».

«كانت تحاول العثور على طريقة للبقاء على قيد الحياة، للهرب. . ».

«هل تفعل ذلك بأن تتيح لكَايل قتلها؟ يا للخطة العظيمة!».

«لقد نجحت خطتها».

«لقد نجحت بندقية جيب. هل كانت تعرف أنه قادم إلينا؟».

«أنت تبالغ في التركيز على هذه النقطة يا إيان. هذا ما تريده هي».

«لا أظن أنك على حق. لست أعرف لماذا. لكنني لا أظن أنها تريدنا أن نفكر فيها أبداً». سمعت صوت إيان يقف على قدميه. «هل تعرف ما الأمر الغريب هنا؟». هكذا تمتم إيان. ما عاد صوته همساً.

«ما هو؟».

«لقد أحسست بالذنب. أحسست بالذنب كثيراً عندما رأيتها تنكمش مبتعدة عنّا. عندما رأيت تلك الآثار السوداء على رقبتها».

ظهر الانفعال على جارد: «لا يجوز أن تسمح للأمر بالتأثير عليك إلى هذه الدرجة. إنها ليست بشرية! لا تنس هذا».

سأله إيان وهو ماض في طريقه. كان صوته يتضاءل مع ازدياد المسافة: «هل تعتقد أنها لا تحس بالألم. لمجرد أنها ليست بشرية؟ هل تعتقد أنها لا تشعر بشعور أي فتاة تعرضت للضرب. من قبلنا نحن؟».

قال جارد في إثره: «تمالك نفسك!».

«أراك لاحقاً يا جارد».

لم يسترخ جارد بعد ذهاب إيان. ظل متوتراً فترة طويلة. راح يمشي فترة من الوقت. كان يمر أمام كهفي جيئة وذهاباً. ثم جلس على الفراش حاجباً الضوء عني وراح يدمدم لنفسه بشيء غير مفهوم. تخليت عن انتظاره حتى يسقط نائماً. مددت جسدي قدر ما استطعت فوق تلك الأرض المقعرة. قفز جارد عندما سمع صوت حركتي، ثم عاد يدمدم لنفسه من جديد.

زمجر بنبرة منزعجة خفيضة: «يشعر بالذنب! يسمح للأمر بالتأثير عليه. مثل جيب. مثل جيمي! لا أستطيع أن أسمح باستمرار هذا الأمر. من الغباء أن أتركها على قيد الحياة».

اقشعر جلدي خوفاً، لكنني حاولت تجاهل ذلك. إن كان الذعر سيصيبني كلما فكر جارد في قتلي، فلن أحظى بلحظة سلام واحدة. انقلبت على بطني حتى أجعل عمودي الفقري ينثني بالاتجاه المعاكس. أجفل جارد من جديد لهذه الحركة ثم حل الصمت. لا بد أنه استمر على حاله. أما أنا فغفوت.

*

عندما استيقظتُ كان جارد جالساً على الفراش حيث كنت قادرة على رؤيته مسنداً مرفقيه إلى ركبتيه. رأيت رأسه مستنداً إلى قبضة يده.

لم أشعر أنني نمت أكثر من ساعة أو ساعتين، لكن جسدي كان يؤلمني. ما كنت قادرة على معاودة النوم من جديد. بدلاً من ذلك رحت أفكر في معنى زيارة إيان. خشيت أن يصبح جارد أكثر حرصاً على إبقائي سجينة معزولة بعد أن رأى ردة فعل إيان الغريبة. لماذا لم يستطع إيان إبقاء فمه مطبقاً. لماذا قال إنه يشعر بالذنب؟ إذا كان يعرف أنه قادر على الشعور بالذنب فلماذا يخنق الناس بيديه؟ كانت ميلاني منزعجة من إيان أيضاً. كانت متوترة خوفاً من نتائج شعوره بالندم.

حدث ما قاطع شعورنا بالقلق بعد دقائق قليلة.

سمعت صوت جيب منادياً: «هذا أنا! لا تقلق».

حضّر جارد البندقية للإطلاق.

«هيا. أطلق النار عليّ يا فتى. هيا!». كان صوت جيب يقترب مع كل كلمة يقولها.

تنهد جارد ووضع البندقية أرضاً: «اذهب من فضلك».

قال جيب وهو يجلس قبالة جارد: «أريد التحدث إليك» ثم قال: «مرحباً!» مومئاً برأسه في اتجاهي.

دمدم جارد: «أنت تعرف كم أكره هذا منك؟».

«أعرف!».

«لقد أخبرني إيان عن الباحثين. .».

«أعرف! كنت أتحدث معه عن هذا الأمر».

«عظيم!. فماذا تريد إذاً؟».

«لا يتعلق الأمر بما أريد. إنه متعلق بما يحتاج إليه الجميع. يكاد مخزوننا من كل شيء ينفد تقريباً. إننا في حاجة إلى جولة تموينية شاملة».

دمدم جارد: «أوه!». ما كان هذا الموضوع هو ما يثير توتره. وبعد صمت قصير قال: «أرسلوا كَايل».

قال جيب وهو يستند إلى الجدار حتى ينهض من جديد: «لا بأس!».

تنهد جارد. الظاهر أن اقتراحه هذا ما كان إلا خدعة. لقد تراجع عنه فور قبول جيب به: «لا لا ليس كَايل. إنه. .».

ضحك جيب: «لقد كاد كَايل يوقعنا في المتاعب عندما ذهب وحده آخر مرة، أليس كذلك؟ إنه غير قادر على التبصر في ما يفعله. هل نرسل إيان؟».

«إنه يطيل التفكير في كل شيء».

«هل نرسل برانت؟».

«إنه غير مناسب للرحلات الطويلة. يصيبه الذعر بعد أسابيع قليلة فيبدأ بارتكاب الأغلاط».

«طيب! قل لي من نرسل إذاً؟».

مرت الثواني. كنت أسمع جارد يوشك على الكلام. على إعطاء جيب إجابة. لكنه سكت فلم يقل شيئاً.

سأله جيب: «هل نرسل إيان وكَايل معاً؟ لعل أحدهما يوازن الآخر».

أنّ جارد: «كما في المرة الأخيرة! لا بأس، لا بأس، أعرف أن عليّ الذهاب بنفسي».

قال جيب موافقاً: «أنت الأفضل يا جارد. لقد غيّرت حياتنا جميعاً فور مجيئك إلينا».

كنا نتوقع هذه النتيجة. ميلاني وأنا. لم يفاجئنا الأمر.

«جارد ساحر! كنا في أمان تام معه... جيمي وأنا... كنا في أمان تام عندما كانت غرائز جارد ترشدنا. لم يقترب الخطر منا أبداً. لو كان جارد مكاني في شيكاغو لتمكن من الإفلات منهم.... أنا واثقة من هذا».

هز جارد بكتفه مشيراً نحوي: «ماذا عن. ؟».

«سوف أراقبها عندما أستطيع. أتوقع أن تأخذ كَايل معك. سوف يساعدني هذا».

«لن يكون هذا كافياً. إذا ذهب كَايل وقمت أنت بحراستها عندما تستطيع. فإنها. لن تعيش طويلاً».

رفع جيب كتفيه: «سوف أفعل كل ما أستطيع. هذا أقصى ما يمكنني».

بدأ جارد يهز رأسه إلى الأمام والخلف بحركة بطيئة.

سأله جيب من جديد: «كم ستغيب؟».

همس جارد: «لست أدري».

حَلّ صمت طويل. وبعد دقائق كثيرة، بدأ جيب يصفر صفيراً لا لحن فيه.

وفي النهاية أطلق جارد تنهيدة كبيرة وقال: «سوف أنطلق الليلة». كانت كلماته بطيئة، مليئة بالتردد، لكنها مليئة بالراحة أيضاً. تغير صوته قليلاً. صار أقل دفاعية. أحسست أنه يتحول الآن فيعود كما كان قبل أن أظهر في هذا المكان. إنه الآن يلقي عن كتفه عبء مسؤوليتي ويحمل بدلاً منه عبء مسؤولية أخرى أخف وطأة عليه في هذه اللحظة.

إنه الآن يتخلى عن محاولة الإبقاء على حياتي. إنه يترك الأمر للطبيعة. أو لعدالة الغوغاء. عندما يعود، وأكون ميتة، فلن يكون قادراً على تحميل أحد مسؤولية موتي. لن يحزن! استطعت سماع هذا كله في كلماته القليلة.

أعرف تعبير المبالغة الذي يستعمله البشر في الحديث عن الحزن. إنه انكسار القلب! تذكرت ميلاني أنها استخدمت هذا التعبير بنفسها ذات مرة. لكني كنت أعتبره دائماً نوعاً من المبالغة، وصفاً تقليدياً لشيء لا معنى جسدياً له. لذلك، ما كنت أتوقع هذا الألم الذي داهم صدري. كنت أتوقع إحساساً بالغثيان. غصة في الحلق. أتوقع دموعاً تحرق عيني. نعم! لكن، ما هذا الإحساس بالتمزق داخل أضلاعي؟ إنه ليس إحساساً منطقياً!

ما كان هذا إحساساً بالتمزق فقط. إنه جذب وشد في اتجاهات مختلفة. هذا لأن قلب ميلاني انكسر أيضاً، إنه إحساس مستقل. كأن لكل منا قلباً يقابل وعيها. قلب مزدوج لعقل مزدوج. ألم مضاعف!

قالت باكية: «إنه ذاهب! لن نراه من جديد». ما كانت تشك في أننا مقدمتان على الموت.

كنت أريد البكاء معها، لكن على واحدة منا أن تحتفظ بعقلها صافياً. عضضت يدي حتى أمنع أحاسيسي من الخروج من فمي.

قال جيب: «لعل من الأفضل أن تنطلق الليلة».

«عليّ تحضير بعض الأشياء. .» سرعان ما أصبح ذهن جارد بعيداً عنا. بعيداً عن هذا الممر المغلق.

«سوف أتولى الأمر هنا إذاً! فلتكن رحلتك موفقة سالمة».

«شكراً. أراك عندما أعود يا جيب».

«وهو كذلك».

سلّم جارد البندقية إلى جيب ونهض نافضاً الغبار عن ثيابه. شارد الذهن. ثم ذهب مسرعاً عبر الممر بخطواته الخاطفة المألوفة. كان ذهنه الآن منشغلاً بشيء آخر. لم يلق نظرة واحدة في اتجاهي. لم تخطر في باله أي فكرة بشأن مصيري.

رحت أصغي إلى صوت خطواته المتضائل في البعيد حتى اختفى تماماً. ثم وضعت يدي على وجهي ورحت أبكي بصوت مسموع ناسية وجود جيب.

## الفصل العشرون

# حرية

تركني جيب أبكي من غير مقاطعة. لم يتكلم أبداً خلال نشيجي كله. لم يتكلم إلا بعد مرور أكثر من نصف ساعة على صمتي: «أما زلت صاحية هناك؟».

لم أجبه! كانت عادة الصمت قد استولت عليّ إلى حد كبير

قال: «أتودين المجيء إلى هنا حتى تمدي جسمك جيداً؟ إن ظهري يؤلمني لمجرد التفكير في ذلك الجحر الغبي».

يا للمفارقة! فبعد أسبوع كامل من الصمت الذي كاد يودي بي إلى الجنون ما كنت الآن في مزاج مستعد لهذه الرفقة. لكنني ما كنت قادرة على رفض هذا العرض. وقبل أن أستطيع التفكير فيه رأيت يديّ تجرانني خارجة من فتحة الكهف.

كان جيب متربعاً على الفراش. رحت أنتظر ردّ فعله عندما بدأت أحرّك ذراعي وساقي وكتفي، لكنه كان مغمضاً عينيه. كان يبدو نائماً. تماماً مثلما كان يوم زيارة جيمي.

كم مرّ علي من الوقت منذ رأيت جيمي آخر مرة؟ كيف هو الآن؟ انتفض قلبي الحزين انتفاضة صغيرة.

سألني جيب وقد فتح عينيه: «هل تشعرين بتحسن؟».

رفعت كتفي.

«تعرفين أن الأمر سيكون على ما يرام الآن». ابتسم ابتسامة عريضة، تلك الابتسامة التي تجعل وجهه يتمطط. «تلك الأشياء التي قلتها

لجارد. لن أقول إنني كذبت تماماً لأن كلامي كان صحيحاً إذا نظر المرء إليه من زاوية معينة. أما من زاوية أخرى، فهو لم يكن حقيقة بالشكل الذي كان يجب أن يسمعه فيه».

اكتفيت بالتحديق فيه. لم أفهم كلمة مما قاله.

«على أي حال، جارد في حاجة إلى استراحة من هذا الأمر. لا أقول إنه في حاجة إلى الاستراحة منك يا طفلتي»، أضاف هذه الكلمات الأخيرة سريعاً ثم تابع يقول: «لكنه في حاجة إلى الاستراحة من هذا الوضع. سوف يفكر في الأمر بطريقة مختلفة أثناء غيابه».

تساءلت كيف يعرف هذا الرجل على وجه التحديد الكلمات والعبارات التي لها تأثير كبير عليّ؟ ثم لماذا تراه يبالي إن كانت كلماته تجرحني، أو إذا كان ظهري يؤلمني بسبب الاستلقاء في الكهف؟ كان لطفه نحوي يخيفني بطريقة خاصة لأنني ما كنت قادرة على فهمه. كانت أفعال جارد مفهومة على الأقل! أما محاولة كَايل وإيان قتلي، وتلهف الطبيب لإيذائي. هذه سلوكيات منطقية أيضاً! أما اللطف فلا يبدو شيئاً منطقياً. ما الذي يريده جيب مني؟

قال جيب يستحثني: «كفاك كآبة! ثمة جانب جيد في هذا الأمر. كان جارد شديد التصلب تجاهك، أما الآن، بعد أن يغيب عن الصورة لفترة مؤقتة، فلا بد أن تصبح الأمور أكثر راحة بالنسبة لك».

انعقد حاجباي عندما رحت أحاول جاهدة التوصل إلى معنى كلامه الحقيقي.

مضى جيب يقول: «على سبيل المثال، إننا نستخدم هذا المكان هنا من أجل تخزين الأشياء. والآن، عندما يعود جارد والشباب فسوف نكون في حاجة إلى مكان لوضع الأشياء التي سيجلبونها معهم. ولهذا فقد نجد لك مكاناً جديداً. لعله يكون شيئاً أكثر اتساعاً من هذا! لعله يكون مزوداً بفراش أيضاً!». ابتسم مجدداً وهو يلوّح لي بهذه الإغراءات.

انتظرت أن يسحب إغراءاته. أن يقول لي إنه يمزح.

لكن عينيه... عينيه الزرقاوين بلون الجينز الباهت العتيق... صارتا رقيقتين إلى حد كبير. ثمة شيء في تعبير هاتين العينين جعل الغصة تعود إلى حلقي من جديد.

«لست مضطرة إلى العودة إلى هذا الجحر يا عزيزتي. لقد مضى الجزء الأسوأ من الأمر».

وجدت أنني غير قادرة على الشك في تلك النظرة الصريحة الصادقة في وجهه. وللمرة الثانية خلال تلك الساعة وضعت وجهي بين يديَّ وبكيت.

نهض جيب واقفاً على قدميه وراح يربت تربيتاً أخرق على كتفي. بدا مرتبكاً بسبب دموعي. «هيا... هيا». هكذا راح يغمغم.

ضبطت نفسي بسرعة أكبر هذه المرة. وعندما مسحت الدموع عن عيني وابتسمت له ابتسامة تشجيع رأيته يومئ برأسه مستحسناً.

قال وهو يربت عليّ من جديد: «تلك هي فتاتي! والآن، علينا أن ننتظر هنا قليلاً حتى نتأكد من أن جارد قد ذهب فعلاً وأنه ما عاد قادراً على الإمساك بنا». ابتسم لي ابتسامة تآمرية. «ثم... سوف نمرح قليلاً!».

تذكرت عند ذلك أن فكرته عن المرح تتعلق عادة باستخدام السلاح!

ضحك عندما رأى تعبير وجهي: «لا تقلقي بشأن هذا الأمر. أثناء انتظارنا هنا يمكنك أيضاً أن ترتاحي قليلاً. أراهن أنك ستجدين حتى هذا الفراش البائس الرقيق شديد الراحة في هذه اللحظة».

حوَّلت عيني من وجهه إلى الفراش ثم عدت أنظر إليه من جديد.

قال: «هيا! يبدو عليك أنك في حاجة إلى بعض النوم. سوف أستمر في حراستك».

شعرت بالتأثر، وأحسست بدموع جديدة في عيني، فاستلقيت على الفراش واضعة رأسي على الوسادة. كان ذلك رائعاً... سماوياً... رغم قول جيب إن الفراش رقيق. تمطيت بكامل طولي. مددت أصابع قدميَّ

وأصابع يديّ. سمعت مفاصلي تطقطق. ثم جعلت نفسي أغرق في ذلك الفراش. أحسست أنه يحتضنني. يزيل الألم من جميع المواضع المتقرحة في جسدي. تنهدت.

قال جيب: «يسعدني أن أرى هذا. عندما يعرف المرء أن تحت سقف بيته شخصاً يعاني، يكون الأمر مثل شعوره بالحكة في مكان من جسمه لا يستطيع الوصول إليه».

جلس على الأرض على مسافة أمتار قليلة مني وراح يدندن لنفسه بصوت هادئ. أما أنا فغفوت بعد لحظات قليلة.

عندما استيقظت أدركت أنني نمت نوماً عميقاً أنني نمت فترة طويلة طويلة. أطول من أي فترة نوم عرفتها منذ مجيئي إلى هنا. لا ألم، لا مقاطعات مرعبة. لا بد أنني كنت سأشعر بالراحة من جميع النواحي لكن استيقاظي على تلك الوسادة ذكرني بأن جارد قد ذهب. ما زالت الوسادة عابقة برائحته، عابقة برائحة طيبة، لا برائحة مثل رائحتي الآن.

تنهدت ميلاني الآن: «عدنا إلى الأحلام!»

ما كنت أتذكر حلمي إلا على نحو غامض، لكنني عرفت أنه كان حلماً عن جارد. هكذا تكون الحال عندما أتمكن من النوم بعمق كافٍ يسمح لي بالحلم.

قال جيب، وكان صوته يبدو مرحاً: «صباح الخير يا طفلتي».

فتحت جفني لأنظر إليه. هل جلس مستنداً إلى الجدار طوال الليل؟ ما كان يبدو عليه التعب، لكنني شعرت بالذنب فجأة لأنني احتكرت الفراش لنفسي.

قال بطريقة متحمسة: «لقد ذهب الشباب منذ فترة طويلة. ما رأيك في جولة الآن؟». قال هذا وراح يمسد على البندقية المعلقة على كتفه بحركة غير واعية.

انفتحت عيناي واسعتين محدقتين إليه من غير تصديق. جولة!

«لا تكوني جبانة الآن! لن يزعجك أحد. ثم لا بد لك من معرفة كيفية التجول في هذا المكان آخر الأمر».

مد يده حتى يساعدني على النهوض.

أمسكت بيده بحركة تلقائية، وراح رأسي يدور عندما حاولت فهم ما قاله لي. قال إنني أحتاج إلى معرفة كيفية التجول هنا! لماذا؟ وما الذي قصده بعبارة «في آخر الأمر»؟ كم يتوقع بقائي على قيد الحياة؟

شدني فأوقفني على قدميّ ثم قادني إلى الأمام.

كنت قد نسيت كيف أسير في الممر المظلم مع وجود يد ترشدني. كان الأمر شديد السهولة. ما كان المشي وحده في حاجة إلى أي تركيز على الإطلاق.

تمتم جيب: «أين نذهب الآن؟ لعلنا نذهب إلى الجناح الأيمن أولاً وربما نجهز مكاناً لائقاً لك. ثم نذهب إلى المطبخ. .» مضى يخطط تفاصيل الجولة. وبعد أن اجتزنا الشق الضيق ودخلنا إلى النفق المضيء المؤدي إلى القاعة الكبيرة الأشد ضياءً. عندما بدأت أصوات الناس تصل إلينا. أحسست بجفاف في فمي. واصل جيب حديثه معي. لعله لم يلاحظ رعبي، أو لعله يتجاهله!

كان يقول لحظة دخولنا القاعة الرئيسية: «لا بد أن الجزر قد بدأ ينبت اليوم». أعماني الضوء الساطع. لم أستطع رؤية الأشخاص الموجودين هناك، لكنني شعرت بأعينهم على جسدي. كان الصمت المفاجئ منذراً بالشؤم كعهده دائماً.

قال جيب مجيباً نفسه: «نعم! أرى هذا المنظر جميلاً جداً. على الدوام. خضرة ربيعية لطيفة. ما أجمل أن يرى المرء هذا».

توقف ماداً يده إلى الأمام داعياً إياي إلى النظر. رحت أحدق في الاتجاه الذي يشير إليه لكن عيني ظلتا تتجولان في أرجاء المكان في انتظار اعتياد الضوء. اقتضى ذلك لحظات ثم رأيت ما كان يتحدث عنه. رأيت أيضاً أن في الغرفة نحو خمسة عشر شخصاً الآن. كانوا كلهم

ينظرون إلي بعيون ملؤها الكراهية. لكنهم كانوا منشغلين بأشياء أخرى أيضاً.

نظرت إلى ذلك المربع الواسع القاتم في وسط الكهف الكبير فرأيت أنه ما عاد أسود اللون. كان نصفه مغطى بخضرة الربيع. تماماً مثلما قال جيب. كان هذا جميلاً! كان محيّراً. مدهشاً.

لا عجب أن أحداً لم يكن يدوس فوق هذه البقعة. إنها حديقة.

همست متسائلة: «أهو جَزَر؟».

أجابني بصوت عادي: «النصف الذي بدأ النمو مزروع بالجزر. أما الجزء الآخر فهو سبانخ. يجب أن يبدأ النمو خلال أيام قليلة».

كان الناس في الغرفة قد عادوا إلى أعمالهم. ما زالوا يسترقون النظر إليّ من حين لآخر لكنهم يركّزون على ما يقومون به معظم الوقت. ما كان فهمُ ما يقومون به صعباً. رأيت برميلاً كبيراً على عجلات. ورأيت خراطيم مياه. رأيت ذلك كله الآن وفهمته عندما أدركت وجود الحديقة.

همست من جديد: «سقاية!».

«هذا صحيح. تجفّ التربة سريعاً في هذه الحرارة».

أومأت برأسي موافقة. ما زال الوقت مبكراً كما أعتقد. لكني بدأت أتعرّق بسبب الحرارة منذ الآن. كانت الحرارة الشديدة المنبعثة من الأعلى حارقة في هذه الكهوف. حاولت تفحّص السقف من جديد. لكنه كان شديد اللمعان فلم أستطع التحديق فيه.

شددت جيب من كمه وأومأت بعيني إلى ذلك الضياء المبهر «كيف؟».

ابتسم جيب منتشياً بدهشتي على ما يبدو: «كما يفعل السحرة تماماً!. إنها المرايا يا طفلتي. مئات المرايا. لقد استغرقت زمناً طويلا حتى أثبت كل هذه المرايا هناك في الأعلى. لطيف أن يكون لدى المرء أيد إضافية تساعده عندما يحين وقت تنظيف هذه المرايا. انظري. ليس

في هذا السقف إلا أربع فتحات صغيرة، والضوء الذي تمرره هذه الفتحات لم يكن كافياً لما كنت أخطط له في ذهني. ما رأيك في اختراعي؟».

انتصبت كتفاه. كان فخوراً بنفسه من جديد.

همست: «رائع! مدهش!».

ابتسم جيب ابتسامة عريضة وأومأ برأسه مستمتعاً بردّ فعلي.

قال مقترحاً: «فلنتابع سيرنا. لدينا أشياء كثيرة نفعلها اليوم».

قادني إلى نفق جديد، نفق على شكل أنبوب طويل طبيعي التكوين يمضي بعيداً عن الكهف الكبير كانت هذه منطقة جديدة بالنسبة لي. توترت عضلاتي كلها وتحركت إلى الأمام بساقين متيبستين غير قادرة على ثني ركبتي.

راح جيب يربت على يديّ، لكنه تجاهل بقية توتري: «نستخدم هذا المكان منطقة للنوم. إضافة إلى بعض المخازن. إن الأنفاق هنا أكثر قرباً إلى السطح، وهذا ما يجعل الحصول على بعض الضوء أكثر سهولة».

أشار إلى الأعلى صوب شق دقيق لامع في سقف النفق فوقنا. كان هذا الشق يلقي بقعة من الضوء الأبيض على الأرض. بحجم قبضة اليد.

بلغنا مفترقاً واسعاً. ما كان مفترقاً في الحقيقة بسبب وجود كثير من الأنفاق الصغيرة أيضاً. كان نقطة تفرّع تشبه الأخطبوط، نقطة تفرع لممرات كثيرة.

قال جيب: «الثالث من اليسار». نظر إليّ منتظراً.

رددت من بعده: «الثالث من اليسار!».

«صحيح! لا تنسي هذا. سهل أن يضيع المرء هنا. ولن يكون الضياع آمناً بالنسبة لك. يمكن أن يطعنك أحد هنا بمثل سهولة إرشادك إلى الطريق الصحيح».

ارتجفت. «شكراً»، قلتها بتهكم هادئ.

ضحك كما لو أن إجابتي بعثت في نفسه السرور: «لا معنى لتجاهل الحقيقة. لا تصبح الأمور أكثر سوءاً إذا تحدثنا عنها بصوت مرتفع».

لكنها لا تصبح أفضل. أيضاً! لكني لم أقل ذلك بصوت مرتفع. بدأت أستمتع بالأمر قليلاً. كان أمراً لطيفاً جداً أن يكون لديّ من يحدثني من جديد. كان جيب رفيقاً مسلياً على أقل تقدير

راح جيب يعدّ الفتحات بصوت مرتفع: «الأولى، الثانية، الثالثة». ثم قادني عبر الممر الثالث من اليسار. بدأنا نعبر فتحات مستديرة تغطيها تشكيلة من الأبواب المؤقتة. كان بعضها مغطى بنوع من الستائر أو بشراشف مزيّنة بالرسوم. وكان بعضها الآخر مغطى بقطع كبيرة من الورق المقوى. وكان لإحدى هذه الفتحات باب حقيقي ذو مصراعين.. كان الأول خشبياً مطلياً بلون أحمر، وكان الثاني معدنياً رمادي اللون. كانا متكئين على تلك الفتحة.

قال جيب: «السابع»، وتوقف أمام فتحة دائرية صغيرة كانت أعلى نقطة منها ترتفع فوق رأسي بسنتمترات قليلة. كانت الفتحة مغطاة بقطعة قماش جميلة خضراء اللون. قطعة من ذلك القماش الذي يمكن استخدامه فاصلاً في غرفة معيشة أنيقة. كانت مزينة برسوم مطرزة على الحرير تمثّل أزهار الكرز.

«هذا هو المكان الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه من أجلك. إنه المكان الوحيد الملائم لسكنى البشر. سوف يكون خالياً عدة أسابيع وبعد ذلك سوف نبحث عن مكان أفضل من أجلك».

طوى الستارة جانباً فرحب بنا ضياء أشد تألقاً من الضياء الذي في الممر.

أعطتني الغرفة التي أزاح الستارة عنها إحساساً غريباً بالفراغ. لعل هذا لأنها كانت شديدة الارتفاع بالمقارنة مع عرضها. كان الوقوف فيها مثل الوقوف في برج أو في أهراء حبوب. لا أقول هذا لأنني وقفت

في أي من هذين المكانين من قبل، لكن ميلاني هي من أعطاني هذه المقارنة. كان ارتفاع السقف يعادل ضعفَيْ عرض الغرفة. كان مزيناً بمتاهة من الشقوق. كانت الشقوق تتعرج منحنية. تكاد تتلاقى. وكانت تشع ضوءاً. بدا هذا خطيراً بالنسبة لي. بدا غير مستقر. غير ثابت. لكن جيب لم يظهر أي خشية من هذه الشكوك عندما قادني إلى داخل الغرفة.

رأيت على الأرض فراشاً واسعاً مزدوجاً تفصله عن الجدارين من الجانبين مسافة تقارب المتر ورأيت وسادتين وبطانيتين مرتبتين بطريقتين مختلفتين على جانبي الفراش. على نحو جعله يوحي بأن الغرفة مكان لإقامة شخصين. ورأيت عموداً خشبياً سميكاً مثبتاً على نحو أفقي عند الجدار البعيد على ارتفاع يقارب ارتفاع الكتف. كانت نهايتا العمود مولجتين في ثقوب الصخر التي تشبه ثقوب الجبن. وفوق العمود عُلِّقت مجموعة من القمصان واثنان من البنطلونات. ورأيت أيضاً مقعداً خشبياً عند الجدار إلى جانب رف الملابس هذا. وعلى الأرض، تحت المقعد، رأيت كدساً من الكتب المهترئة.

قلت لجيب هامسة من جديد: «من؟» كان هذا المكان خاصاً بشكل آخر إلى درجة شديدة الوضوح، إلى درجة جعلتني أحس أننا لم نكن وحدنا.

«إنها غرفة أحد الأشخاص الذين ذهبوا إلى الغارة. ولن يعود قبل فترة من الزمن. عند ذلك سنجد لك مكاناً آخر».

ما كنت أحب هذا! لا أقصد أنني لم أحب الغرفة. لكنني لم أُحبّ فكرة الإقامة فيها. كان حضور مالك الغرفة قوياً رغم بساطة مقتنياته. لا أعرف من يكون هذا الشخص، لكنه لن يكون سعيداً بوجودي هنا.

سوف يزعجه هذا.

أحسست أن جيب كان يقرأ أفكاري. أو لعل تعابير وجهي كانت واضحة إلى درجة تغنيه عن قراءة أفكاري.

قال: «الآن. الآن! لا تقلقي بشأن هذا الأمر. هذا منزلي أنا. وهذه مجرد غرفة من غرف الضيوف الكثيرة. أنا أحدد ضيوفي. وفي هذه اللحظة أنت ضيفتي. وأنا أقدم لك هذه الغرفة».

ما زلت غير مرتاحة للأمر، لكنني لن أزعج جيب أيضاً. تعهَّدت لنفسي بعدم إفساد أي شيء هنا، حتى لو كان معنى هذا أن أنام على الأرض.

«لا بأس الآن! فلنتابع السير. لا تنسي: إنه المدخل الثالث من اليسار. الباب السابع».

أضفت: «ستارة خضراء».

«تماماً».

عاد بي جيب إلى غرفة الحديقة الكبيرة ومضينا عبر الغرفة إلى الاتجاه المعاكس، ثم عبرنا فتحة النفق الكبير. وعندما مررنا بالأشخاص الذين يسقون الزرع تجمدوا في أماكنهم ثم استداروا خائفين من وجودي خلف ظهورهم.

كانت إنارة هذا النفق جيدة. فالفتحات المضيئة في سقفه موزعة على مسافات منتظمة. لا أظنها فتحات طبيعية.

«إننا نزداد قرباً من السطح الآن. يزداد الجو جفافاً هنا، لكنه يزداد حرارة أيضاً».

لقد لاحظت هذا الأمر على نحو شبه فوري. فبدلاً من الإحساس بالرطوبة المزعجة. صارت الحرارة تشوينا شياً الآن. كان الهواء أقل ركوداً هنا. صرت قادرة على الإحساس بطعم غبار الصحراء.

سمعت مزيداً من الأصوات أمامنا. حاولت إعداد نفسي لرد فعلهم الذي لا سبيل إلى تجنبه. إذا أصر جيب على معاملتي مثل. مثل البشر. مثل ضيفة مرحبٍ بها. فسوف يكون عليّ أن أعتاد هذا الأمر. لا داعي لأن أترك هذا الأمر يشعرني بالغثيان والنفور مرة بعد مرة لكن معدتي بدأت تخبطها المنزعج رغم ذلك التفكير.

قال جيب: «هنا يقع المطبخ».

ظننت في البداية أننا في نفق آخر، نفق مزدحم بالأشخاص. ضغطت نفسي مقتربة من الجدار، محاولة الإبقاء على مسافة تفصلني عنهم.

كان المطبخ ممراً طويلاً مرتفع السقف، ارتفاعه أكثر من عرضه، مثل غرفتي الجديدة. كان الضياء ساطعاً حاراً! وبدلاً من الشقوق الدقيقة في الصخر السميك كان في سقف هذا المكان فتحات ضخمة كبيرة.

«لا نستطيع الطبخ في النهار طبعاً. بسبب الدخان كما تعلمين! وهذا ما يجعلنا نستخدم هذا المكان قاعة طعام حتى يحل الليل».

توقف كل ما كان في المطبخ من كلام. وهذا ما جعل كلمات جيب تدوي واضحة بحيث يستطيع كل شخص سماعها. حاولت الاختباء خلفه لكنه تابع السير إلى الأمام.

لقد قاطعنا فطورهم، أو لعلهم كانوا يتناولون طعام الغداء.

كان البشر. لعل عددهم يبلغ العشرين. هذا تقدير سريع. شديدي القرب هنا. ما كان الأمر يشبه الوضع في القاعة الكبيرة. أردت إبقاء نظري على الأرض، لكنني لم أستطع منع أنظاري من التجول في أرجاء الغرفة. من باب التحسب! أحسست بجسدي يتوتر مستعداً للفرار، لكن إلى أين أستطيع الفرار؟ لست أدري!

وعلى جانبي هذا الممر الطويل رأيت أكواماً طويلة من الحجارة. كان أكثرها حجارة بركانية خشنة قرمزية اللون مع مادة أخرى أقل قتامة منها. لعلها إسمنت! كانت هذه المادة منتشرة بين الحجارة. كانت تمسكها معاً. وفوق أكوام الحجارة هذه رأيت حجارة مختلفة... أميل إلى اللون البني. كانت مسطحة أيضاً. كانت المادة الرمادية غير القاتمة تربط هذه الحجارة المسطّحة أيضاً. وكانت نتيجة ذلك كله سطحاً شبه مستوٍ. سطحاً يشبه سطح طاولة. من الواضح أن هذا السطح يُستخدم كطاولة طعام.

كان البشر جالسين فوق بعض هذه المقاعد الحجرية، وكان بعضهم مستنداً إليها رأيت بين أيديهم قطع الخبز. كانت معلقة بين الطاولة وبين أفواههم. جامدة في مكانها لأن عيونهم لم تصدق وجودي بصحبة جيب.

كان شكل بعض هؤلاء الأشخاص مألوفاً. شارون وماغي والطبيب. كان هؤلاء المجموعة الأكثر قرباً مني. راحت العمة ميلاني وابنة عمها تحدقان بجيب تحديقاً غاضباً. كانت لدي قناعة غريبة بأنني إذا وقفت على رأسي وغنيت أغنيات من ذاكرة ميلاني بأعلى صوتي فلن أفلح في حملهما على النظر صوبي. لكن الطبيب كان ينظر إليّ بفضول واضح شبه ودود جعلني أشعر بالبرد عميقاً في عظامي. وفي الناحية البعيدة من غرفة المطبخ المتطاولة رأيت الرجل الطويل ذا الشعر الأسود الفاحم فارتجف قلبي. ظننت أن جارد قد أخذ الأخوين الشريرين معه حتى يجعل مهمة جيب أكثر سهولة بقليل. مهمة المحافظة على حياتي. لكنه كان الشقيق الأصغر سناً. إيان. الشخص الذي ظهر لديه ضمير في الآونة الأخيرة. ما كان بقاؤه في مثل سوء بقاء كَايل! لكن هذه الحقيقة لم تفلح في إبطاء نبض قلبي المتسارع.

سألهم جيب بصوت مرتفع ينضح بالسخرية: «هل شبعتم بهذه السرعة؟».

أجابته ماغي: «فقدنا شهيتنا!».

قال جيب مستديراً صوبي: «ماذا عنك أنت؟ ألست جائعة؟».

سرتْ همهمة خفيضة بين الموجودين كلهم.

هززت رأسي بحركة صغيرة متوترة. ما كنت أدري إن كنت جائعة أصلاً، لكنني أعرف أنني لا أستطيع تناول الطعام أمام هذا الحشد الذي يمكن أن يلتهمني بكل سعادة.

زمجر جيب: «لا بأس! أنا جائع». سار في ذلك الممر بين الأشخاص الجالسين، لكني لم أتبعه. لم أتحمل فكرة أن أكون على هذا

القرب منهم. بقيت في مكاني ملتصقة بالجدار. لم يراقب أحد غير شارون وماغي حركة جيب صوب تلك السلة البلاستيكية الكبيرة في الزاوية البعيدة. تناول جيب قطعة من الخبز. كانت أنظار جميع الباقين مسلطة صوبي. كنت متأكدة من أنني لو تحركت سنتمتراً واحد فسوف يثب الجميع. حاولت ألا أتنفس!

قال جيب مقترحاً وهو يعود صوبي ماضغاً لقمة كبيرة من الخبز «فلنتابع الحركة. الظاهر أن هؤلاء الناس لا يستطيعون التركيز على طعامهم. كم يسهل إزعاج هذه المجموعة!».

كنت أراقب البشر مترصدة أي حركة مفاجئة، لكني ما كنت أرى وجوههم حقاً بعد تلك اللحظة الأولى التي تعرفت فيها على الأشخاص القليلين الذين أعرف أسماءهم. لذلك لم ألحظ وجود جيمي حتى نهض واقفاً.

كان أقصر بمقدار الرأس من بقية الكبار من حوله، لكنه كان أكثر طولاً من طفلين صغيرين جالسَيْن إلى جانبه. وثب جيمي بخفة من مقعده وسار من خلف جيب. كانت تعابير وجهه مشدودة، مضغوطة، كأنه يحاول حل معادلة صعبة في رأسه. كان ينظر إليّ متفحصاً عبر عينيه المتقلصتين أثناء اقترابه مني سائراً في أعقاب جيب. ما كنت الآن الشخص الوحيد في الغرفة الذي يحبس أنفاسه. كانت أنظار الآخرين تنتقل جيئة وذهاباً بين شقيق ميلاني وبيني.

قالت ميلاني: «أوه يا جيمي!». كانت تكره ذلك التعبير الحزين. تعبير الكبار. في وجهه. لعل كراهيتي لهذا التعبير كانت أكبر من كراهيتها. ما كان لديها إحساس بالذنب يعادل إحساسي به. ما كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن هذا التعبير في وجهه مثلي.

تنهدت: «ليتنا نستطيع إبعاد هذا الحزن عنه!»

«لقد تأخر الوقت كثيراً! ما الذي نستطيع فعله حتى نجعله أفضل حالاً الآن؟».

ما كنت أعني هذا السؤال حقاً. كان مجرد حديث بيني وبينها. لكني وجدت نفسي أبحث عن إجابة.. كانت ميلاني تبحث عن إجابة أيضاً. لم نجد شيئاً في تلك اللحظة القصيرة التي فكرنا خلالها في هذا الأمر. ما كنا نستطيع العثور على شيء. لكننا كنا نعرف، كلانا، أننا سوف نبحث من جديد عندما تنتهي هذه الجولة المضنية وعندما تسنح لنا فرصة للتفكير. إذا عشنا حتى ذلك الوقت!

سأله جيب دون أن ينظر إليه: «ماذا تريد يا فتى؟».

أجابه جيمي بصوت يحاول إظهار اللامبالاة، لكنه يفشل في ذلك: «أتساءل عما تفعله أنت».

توقف جيب عندما وصل إليّ ثم استدار لينظر إلى جيمي: «إنني أصطحبها في جولة في هذا المكان. تماماً كما أفعل مع أي قادم جديد آخر».

صدرت عن الحشد زمجرة خفيضة أخرى.

سأله جيمي: «هل أستطيع الذهاب معكما؟».

رأيت شارون تهز رأسها محمومة. كان تعبير وجهها مليئاً بالغضب. لكن جيب تجاهلها.

«لا يزعجني هذا. إذا كنت قادراً على التزام الأدب».

رفع جيمي كتفيه قائلاً: «لا مشكلة عندي في هذا».

كان عليّ أن أتحرك عند ذلك. أن أعقد أصابعي أمامي. كنت أموت رغبة في إزاحة شعر جيمي المشعث عن عينيه وفي ترك ذراعي تستريح على عنقه. لكني كنت واثقة من أن نتيجة هذه الحركة ستكون وخيمة.

قال جيب يخاطبنا معاً: «فلنذهب». مضى بنا عائداً عبر طريق أخرى غير التي جئنا منها. سار جيب إلى جانبي، وسار جيمي إلى جانبي الآخر. كان جيمي يحاول النظر إلى الأرض باستمرار، لكنه راح يسترق

النظر إلى وجهي على نحو دائم، تماماً مثلما كنت عاجزة عن منع نفسي من النظر إليه. وعندما كانت أعيننا تلتقي، كنا نشيح بوجهينا سريعاً.

بلغنا منتصف الطريق صوب القاعة الكبيرة عندما سمعت وقع أقدام خافت من خلفنا. كان ردّ فعلي غريزياً من غير تفكير. التصقت بأحد جانبي النفق دافعة جيمي إلى الأمام بإحدى يدي حتى أقف بينه وبين ذلك القادم من أجلي.

صاح جيمي محتجاً لكنه لم يدفع يدي بعيداً عنه.

كان جيب سريعاً مثلي. صارت البندقية جاهزة بين يديه بسرعة البرق.

رفع إيان والطبيب أيديهما فوق رأسيهما.

قال الطبيب: «نستطيع الاحتفاظ بأدبنا أيضاً!». كان من الصعب تصديق أن هذا الشخص اللطيف، صاحب تعابير الوجه الودودة، كان هو الشخص المسؤول عن التعذيب هنا. كان مخيفاً بالنسبة لي لأن مظهره الخارجي لطيف إلى هذه الدرجة. يمكن أن يكون الشخص حذراً مستعداً في ليلة مظلمة مشؤومة. أما في نهار صاف مشمس. كيف يعرف المرء أن عليه الفرار عندما لا يرى مكمن الخطر؟

نظر جيب إلى إيان. تحركت فوهة بندقيته تتبع حركة عينيه.

«لست أقصد أي سوء يا جيب! سوف أكون مهذباً مثل الطبيب».

قال جيب باقتضاب: «لا بأس». ثم علق بندقيته على كتفه. «لا تختبرني! لم أطلق النار على أي شخص منذ وقت طويل جداً لقد اشتقت إلى إطلاق النار».

شهقت. سمع الجميع شهقتي فاستداروا نحوي ناظرين إلى تعابير وجهي المذعورة. كان الطبيب أول من ضحك، لكن الجميع انضموا إليه. حتى جيمي ضحك ضحكة قصيرة.

همس جيمي لي: «إنها نكتة!». تحركت يده قليلاً كما لو أنه يريد

إمساك يدي، لكنه سرعان ما دفعها عميقاً في جيب سرواله القصير. أما أنا فتركت ذراعي التي ما زالت مرفوعة أمام وجهي في وضعية دفاعية تسقط إلى الأسفل أيضاً.

قال جيب: «هيا! كاد النهار ينتهي». ما زال صوته حاداً بعض الشيء. «عليكم أن تلحقوا بي جميعاً لأنني لن أنتظر أحداً منكم». ثم انطلق إلى الأمام قبل أن تنتهي جملته.

# الفصل الحادي والعشرون

## اسم

حرصت على البقاء إلى جانب جيب. كنت متقدمة عنه قليلاً لأنني أردت إبقاء أكبر مسافة بيني وبين الرجلين السائرين خلفنا. كان جيمي يسير في المنتصف. ما كان واثقاً من المكان الذي يودّ أن يكون فيه.

لم أستطع التركيز كثيراً على ما تبقّى من جولة جيب. ما كان انتباهي مركزاً تمام التركيز عندما أراني مجموعتي الحدائق الباقيتين. واحدة فيها نباتات ذرة طويلة تصل حتى الخصر تحت تلك الحرارة الشديدة المنبعثة من المرايا الساطعة. ولم أستطع أيضاً التركيز على تلك القاعة الكبيرة المنخفضة السقف التي دعاها جيب «غرفة التسلية». كانت تلك القاعة دامسة الظلام عميقة تحت الأرض، لكنه أخبرني أنهم يستطيعون جلب الضوء إليها عندما يريدون اللعب. لم أجد معنى لكلمة اللعب. ليس بالنسبة لهذه المجموعة من البشر الباقين الغاضبين المتوترين. لكني لم أطلب منه شرحاً! كان في هذه القاعة جدول ماء آخر. كان ينبوعاً صغيراً يفوح برائحة الكبريت الخانقة. قال لي جيب إنهم يستخدمونه مرحاضاً أحياناً لأنه غير صالح للشرب إطلاقاً.

كان انتباهي موزعاً بين الرجلين السائرين خلفنا والصبي السائر إلى جانبي.

حافظ الطبيب وإيان على حسن سلوكهما إلى حد مفاجئ. لم يهاجمني أحد من الخلف. لكني ظننت أن عينيّ ستنقلبان إلى الوراء لكثرة ما كنت أركز انتباهي على هذين الرجلين. كانا يتبعاننا بهدوء وكانا

يتحدثان أحياناً فيما بينهما بصوت خفيض. كانت أحاديثهما تدور حول أسماء لا أعرفها وحول أماكن وأشياء لعلها ما كانت موجودة في هذا الكهف. لم أستطع فهم أي شيء من كلامهما.

لم يقل جيمي شيئاً، لكنه كان يكثر من النظر إليّ. وعندما كنت أحاول إبقاء انتباهي مركزاً على السائرين خلفنا، كنت أنظر إليه بطرف عيني أيضاً. لم يترك لي هذا وقتاً كافياً للإعجاب بالأشياء التي كان جيب يريني إياها، لكنه لم يظهر ما يدل على أنه لاحظ انشغال بالي.

كان أحد الأنفاق شديد الطول. كانت المسافات المخبأة تحت الأرض في هذه المنطقة تدوّخ العقل فعلاً. غالباً ما كانت هذه الممرات غارقة في ظلام دامس، لكن جيب والآخرين ما كانوا يبطئون في سيرهم إطلاقاً. من الواضح أنهم قد ألفوا هذه الأماكن زمناً طويلاً واعتادوا السير في ظلامها. كان الأمر الآن أصعب بالنسبة لي مما هو عادة عندما أكون وحدي مع جيب. ففي ذلك الظلام كانت كل همسة، وكل صوت صغير، توحي بالهجوم. بل إن حديث الطبيب وإيان الخفيض بدا لي أشبه بمحاولة تمويه لإخفاء حركة غادرة متوقعة.

علقت ميلاني على ذلك: «لقد صرت مهووسة بالخوف!».

«إذا كان هذا يساعد على إبقائنا على قيد الحياة... فليكن».

«ليتك تنتبهين أكثر إلى العم جيب. إن هذه الأشياء ساحرة».

«افعلي أنت ما ترينه مناسباً».

«لكني لا أستطيع سماع ولا رؤية إلا ما تسمعينه وترينه أنت أيتها الجوالة». هكذا قالت لي. ثم غيرت الموضوع تماماً: «يبدو جيمي بخير، ألا تظنين هذا؟ لا تبدو عليه التعاسة!».

«لكنه يبدو... متعباً».

كنا الآن مشرفين على الوصول إلى منطقة فيها بعض الضوء بعد ذلك الممر الطويل الذي مضى بنا مسافة كبيرة داخل تلك الظلمة الرطبة.

راح جيب يوضح لي أثناء سيرنا: «هذه هي المنطقة الجنوبية من

شبكة الأنابيب البركانية. ليست ملائمة للمعيشة تماماً، لكنها تتلقى قدراً طيباً من الضوء طوال النهار وهذا ما جعلنا نستخدمها مستشفى. هنا يقوم الطبيب بعمله».

فور إعلان جيب عن طبيعة المكان الذي وصلنا إليه تجمد جسدي وتصلَّبت مفاصلي كلها. توقفت عن السير. انزرعت قدماي في تلك الأرض الصخرية. وراحت عيناي تتنقلان، متسعتين ذعراً، بين وجه جيب ووجه الطبيب.

أكان هذا كله خدعة إذاً؟ أكان مقصوداً أن ينتظروا حتى يخرج جارد العنيد من الصورة كلها ثم يأتون بي إلى هنا؟ لا أصدق أنني سرت إلى هذا المكان بإرادتي. كم أنا غبية!

كانت ميلاني مرتابة أيضاً: «كأننا قدمنا نفسينا هدية لهم على طبق من فضة!».

لكن الآخرين راحوا يحدقون في رعبي. كان وجه جيب خالياً من أي تعبير. وبدا الطبيب مدهوشاً مثلي. لكنه لم يبدُ خائفاً مذعوراً كما كنت.

لمست يدٌ ذراعي. كانت لمستها مألوفة إلى حد كبير. ولو لم تكن كذلك لاندفعت بعيداً هاربة منها.

قال جيمي: «لا». كانت يده تستقر مترددة عند مرفقي. «لا! كل شيء بخير! نعم. أليس هذا صحيحاً يا عم جيب؟». نظر جيمي نظرة ثقة إلى الرجل العجوز. «كل شيء بخير، أليس كذلك؟».

كانت عينا جيب الزرقاوان هادئتين وصافيتين تماماً عندما تكلم: «بالطبع. كل شيء بخير! إنني أريك هذا المكان يا طفلتي. هذا كل شيء».

جاء صوت إيان من خلفنا: «ما الذي تتحدثين عنه؟». كان الانزعاج بادياً في صوته. لم يفهمني!

قال جيمي لي بدلاً من إجابة سؤال إيان: «أتظنين أننا أتينا بك إلى

هنا لغاية ميتة. من أجل الطبيب مثلاً؟ ألا تعرفين أننا لا يمكن أن نفعل هذا. لقد وعدنا جارد!».

رحت أنظر إلى وجهه الطيب الصادق. محاولة تصديقه.

«أوه!» قالها إيان عندما أدرك الأمر. ثم ضحك قائلاً: «ليست تلك بالخطة السيئة. يفاجئني أنها لم تخطر في بالي»

نظر جيمي إلى ذلك الرجل الضخم نظرة عابسة ثم بدأ يربت على ذراعي قبل أن يبعد يده عنها قائلاً: «لا تخافي!».

تابع جيب كلامه من حيث توقف: «ولهذا جهزنا هذه الغرفة الكبيرة هنا ببعض الأسرّة تحسباً لمرض أحد منا أو إصابته. لكن حظاً طيباً حالفنا من هذه الناحية فلم يكن الطبيب مضطراً إلى بذل جهد كبير في أعمال الإسعاف». ابتسم جيب لي. «لقد رمى قومك أدويتنا كلها عندما تولوا مقاليد الأمور. من الصعب أن نحصل على ما يلزمنا من أدوية».

أومأت برأسي بحركة خفيفة، حركة نابعة من شرود ذهني. كنت مستمرة في محاولة استعادة أنفاسي. بدت هذه الغرفة بريئة المظهر تماماً كما لو أنها لا تستخدم إلا للعلاج. لكنها جعلت معدتي تتقلص وتلتوي. سألني الطبيب على نحو مفاجئ: «ما الذي تعرفينه عن أدوية الغرباء؟» أمال رأسه جانباً. وراح ينظر إلى وجهي بفضول يترقب الإجابة.

حدقت فيه من غير كلام.

قال جيب يشجعني: «أوه! تستطيعين التحدث مع الطبيب. إنه شخص لطيف فعلاً. رغم كل شيء!».

هززت رأسي مرة واحدة. كنت أقصد الإجابة عن سؤال الطبيب. أقصد إخباره أنني لا أعرف شيئاً. لكنهم لم يفهموا قصدي.

قال إيان: «إنها لا تعتزم البوح بأي سر. أليس كذلك يا عزيزتي؟».

قال جيب بحدة: «لا تتجاوز حدودك يا إيان».

سألني جيمي: «هل هذا سر فعلاً؟». كان سؤاله متحفظاً بعض الشيء لكن الفضول كان ظاهراً عليه.

هززت رأسي مرة ثانية. نظروا إليّ جميعاً بحيرة واضحة. هزّ الطبيب رأسه أيضاً. هزه بحركة بطيئة كأنه يأسف لموقفي.

استنشقت نفساً عميقاً ثم همست: «أنا لست معالجة. لا أعرف كيف تعمل تلك الأدوية. أعرف فقط أنها تشفي. إنها تشفي ولا تكتفي بمعالجة الأعراض. لا مجال للمحاولة والخطأ. لقد تم التخلص من الأدوية البشرية طبعاً».

حدقوا كلهم في وجهي بنظرات فارغة من التعبير فوجئوا أول الأمر عندما لم أجب عن السؤال. ثم فوجئوا مرة ثانية عندما أجبت عنه. ما أصعب إرضاء البشر!

قال جيب مفكراً بعد لحظة من الصمت: «لم يغير بني جنسك كثيراً من الأشياء التي تركناها خلفنا. لقد غيروا الأدوية وصاروا يستخدمون مكوك الفضاء بدلاً من الطائرات. وغير هذين الشيئين، تبدو الحياة ماضية كما دائماً. أو هكذا تبدو على السطح طبعاً».

همست: «إننا نأتي من أجل اختبار العيش على الكواكب لا من أجل تغيير طريقة العيش. لكن للصحة أولوية أكثر من الفلسفة طبعاً».

أطبقت فمي بصوت مسموع. عليّ الانتباه أكثر من ذلك. ليس البشر في حاجة إلى محاضرة عن فلسفة الأرواح. من عساه يعرف ما يمكن أن يغضبهم؟ أو ما يمكن أن يودي بصبرهم الهش؟

أومأ جيب برأسه. ما زال يفكر. ثم سار بنا من جديد. ما كان متحمساً أثناء متابعة الجولة في الأجزاء القليلة الباقية من الكهوف في هذا الجناح الطبي. ولم يسترسل كثيراً في الشرح. وعندما استدرنا عائدين عبر الممر الطويل المظلم ظل جيب صامتاً. كان ذلك مسيراً طويلاً صامتاً. رحت أفكر في ما قلته باحثة عن شيء يمكن أن يكون قد جعل جيب يشعر بالإساءة. لكن جيب كان شديد الغرابة إلى درجة تجعلني عاجزة عن تخمين سبب صمته. كنت قادرة على فهم الآخرين. أولئك البشر المعادين المتشككين. لكن، كيف أفهم جيب؟

انتهت الجولة فجأة عندما عدنا فدخلنا الكهف الكبير الذي كان الجزر النابت حديثاً يرسم سجادة خضراء على أرضه القاتمة.

قال جيب بصوت جاف ناظراً إلى إيان والطبيب: «انتهى العرض! هيا اذهبا وقوما بشيء مفيد».

نظر إيان إلى الطبيب مستغرباً لكنهما استدارا معاً عن طيب خاطر وذهبا عبر الفتحة الكبيرة، الفتحة المؤدية إلى المطبخ. هذا ما أستطيع تذكّره. تردد جيمي في مكانه ناظراً خلفهما، لكنه لم يتحرك.

قال له جيب بصوت أقل جفافاً: «تعال معي أنت. لدي عمل لك».

قال جيمي: «لا بأس». كان السرور واضحاً عليه لأن جيب قرر تكليفه بأمر ما.

سار جيمي إلى جانبي من جديد عندما توجهنا عائدين صوب قسم النوم في تلك الكهوف. فوجئت عندما دخلنا الفتحة الثالثة من اليسار فوجئت بأن جيمي بدا عارفاً وجهة سيرنا تمام المعرفة. سار جيب خلفنا بمسافة قصيرة. توقف جيمي عندما بلغنا تلك الستارة الخضراء التي تغطي مدخل الغرفة السابعة. أزاح الستارة جانباً من أجلي لكنه ظل واقفاً في الممر.

سألني جيب: «هل يزعجك أن تجلسي هنا بعض الوقت؟».

أومأت برأسي. كنت شاكرة لفرصة البقاء وحيدة من جديد. أحنيت رأسي داخلة ذلك الباب ثم وقفت بعد مسافة قصيرة داخل الغرفة غير واثقة مما أفعله. تذكرت ميلاني وجود كتب هنا، لكنني ذكّرتها بتعهدي ألا ألمس شيئاً في الغرفة.

قال جيب لجيمي: «لدي أمور أفعلها يا فتى. لن يصبح الطعام جاهزاً من تلقاء ذاته كما تعلم! هل أنت مستعد لتولي الحراسة؟».

«طبعاً»، قالها جيمي بابتسامة ساطعة. انتفخ صدره النحيل ممتلئاً بنفس عميق.

اتسعت عيناي غير مصدقتين عندما رحت أنظر إلى جيب يضع البندقية بين يدي جيمي المتلهفتين.

صرخت فيه: «هل أنت مجنون؟» خرج الصوت من فمي شديد الارتفاع فلم أتعرف فيه على صوتي أول الأمر. أحسست أنني أمضيت عمري كله في الحديث همساً.

نظر جيب وجيمي صوبي مستغربين. مصدومَيْن! كنت قد خرجت إلى الممر وصرت عندهما خلال ثانية واحدة.

كدت أمد يدي إلى معدن ماسورة البندقية الصلب. كدت أنتزعها من بين يدي جيمي. لم يكن ما جعلني أمتنع عن هذه الحركة هو معرفتي بأنها قمينة بقتلي. أوقفتني حقيقة أنني أضعف من البشر من هذه الناحية. أضعف حتى إن أردت إنقاذ الصبي. حتى إن أردت ذلك فلن أستطيع إرغام نفسي على إمساك البندقية بين يدي.

بدلاً من ذلك استدرت صوب جيب قائلة: «فيم تفكر؟ هل تعطي سلاحاً إلى طفل؟ يمكن أن يقتل نفسه به!».

«لقد مر جيمي بأشياء كثيرة تجعله يستحق أن ندعوه رجلاً كما أظن. وهو يعرف كيف يتعامل مع البندقية».

انتصبت كتفا جيمي عندما سمع مديح جيب واشتدت قبضته على البندقية. حضنها إلى صدره.

فغرتُ فمي مستغربة حماقة جيب: «ماذا لو أتوا من أجل قتلي أثناء وجودي معه هنا؟ هل فكرت في ما يمكن أن يحدث؟ هذه ليست نكتة! سوف يؤذونه حتى يتمكنوا من الوصول إليّ».

حافظ جيب على هدوئه. كان الصبر بادياً على وجهه: «لا أظن أن أي متاعب يمكن أن تحدث اليوم. أستطيع المراهنة على هذا».

«أما أنا فلا أستطيع المراهنة!». ما زلت أصرخ. كانت جدران الكهف تردد صدى صوتي. لا بد أن أحداً سمعنا، لكن من سمعنا، لكني لم أكن لأبالي بذلك. من الأفضل أن يأتوا أثناء وجود جيب هنا.

«إذا كنت واثقاً هذه الثقة كلها، إذاً. اتركني وحدي هنا وليحدث ما يحدث. لكن لا تعرّض جيمي للخطر!».

سألني جيب بصوت فيه مسحة من الدهشة: «أأنت خائفة على الفتى؟ أم أنك خائفة من أن يوجه هذه البندقية صوبك؟».

رفرفت بعيني تحت وقع المفاجأة. تلاشى غضبي. لم تخطر هذه الفكرة في بالي إطلاقاً! التفتُّ إلى جيمي فرأيت عينيه المدهوشتين ورأيت فيهما أن الفكرة صدمته أيضاً.

مضت دقيقة كاملة حتى صرت قادرة على متابعة الدفاع عن وجهة نظري. لكن، بعد انقضاء هذه الدقيقة، كان تعبير وجه جيب قد تغير صارت عيناه تنظران باهتمام. شد على شفتيه، كما لو أنه موشك الآن على حل آخر جزء من أجزاء أحجية محيرة.

«أعط هذه البندقية إلى إيان أو إلى أي واحد آخر. لست أهتم»، قلت هذا بصوت متوازن متمهل. «لا أريد منك إلا أن تترك الصبي خارج هذا الأمر».

وعلى حين غرة، ذكّرتني ابتسامة جيب التي ملأت وجهه كله بتكشيرة قط غريبة!

«هذا منزلي يا فتاة! وسوف أفعل ما أريد فعله. هكذا أنا دائماً».

استدار جيب ومضى خارجاً وهو يصفر أثناء سيره. راقبته ذاهباً وقد انفغر فمي دهشة لإجابته. وعندما اختفى استدرت إلى جيمي الذي كان ينظر صوبي وقد علا وجهه تعبير وقور.

قال بنبرة صوت أعمق من المعتاد: «لست طفلاً!». شمخ بأنفه إلى الأعلى. «والآن. عليك. عليك أن تدخلي غرفتك».

ما كان هذا الأمر خشناً، لكن ما كان لدي شيء آخر أفعله غير دخول الغرفة. لقد خسرت المناقشة بفارق كبير.

جلست مسندة ظهري إلى الجدار الحجري الذي هو واجهة الغرفة من ناحية مدخلها. الجدار الذي يسمح لي بالاختباء خلف الستارة

نصف المفتوحة مع البقاء قادرة على مراقبة جيمي جالساً في الخارج. لففت ذراعيَّ حولي ساقيَّ ومضيت أفعل ما كنت أعرف أنني سأستمر في فعله طوال استمرار هذا الوضع الغريب. مضيت في القلق!

رحت أصيخ السمع وأمعن النظر، انتظاراً لصوت اقتراب شخص من الأشخاص حتى أكون مستعدة! مهما يكن رأي جيب، عليّ منع أي كان من مواجهة جيمي أثناء حراسته. سوف أسلّم نفسي فوراً قبل أن يطلب مني أحد ذلك.

وافقتني ميلاني على هذا التفكير: «نعم... صحيح!»

وقف جيمي في الممر بضع دقائق. كان ممسكاً بالبندقية شاداً عليها بيديه غير واثق من كيفية القيام بهذا العمل على الوجه الصحيح. بعد ذلك راح يسير جيئة وذهاباً أمام الستارة، لكن الظاهر أنه أحس بسخافة هذا الوضع بعد عدة جولات. عند ذلك جلس أرضاً بجانب الباب قرب فتحة الستارة. استقرت البندقية في حضنه أخيراً. جلس مسنداً ذقنه بيديه. وبعد زمن طويل.. تنهّد. ما كانت وظيفة الحراسة هذه مثيرة كما كان يتوقع.

أما أنا فلم تضجرني مراقبته على الإطلاق.

بعد وقت لعله ساعة أو ساعتان، بدأ جيمي ينظر صوبي من جديد. يلتفت التفاتات سريعة. انفرجت شفتاه عدة مرات. لكنه كان يعدل عن قول ما يريد قوله كل مرة.

أسندت ذقني إلى ركبتيّ المثنيتين وانتظرت تلك الكلمات التي كان جيمي يغالبها. وسرعان ما نلت خيراً من صبري.

قال جيمي أخيراً: «ذلك الكوكب الذي كنت جئت منه قبل حلولك في جسد ميلاني. كيف هو؟ هل يشبه هذا المكان؟».

فاجأتني وجهة أفكاره فقلت: «لا!». مع وجود جيمي وحده هنا أحسست أن من الطبيعي أن أتحدث بصوت عادي بدلاً من الهمس. «لا! كان شديد الاختلاف».

سألني مائلاً برأسه إلى جانب واحد كما اعتاد أن يفعل عندما يكون مهتماً حقيقة بالقصص التي ترويها له ميلاني وقت نومه: «هل تخبريني كيف هو؟».

أخبرته.

رويت له كل شيء عن كوكب الأعشاب البحرية المغمورة بالمياه. أخبرته عن الشمسين، وعن ذلك المدار الذي لا يعرف المغيب. عن المياه الرمادية وعن ثبات الجذور الذي لا يتبدل. عن الرؤى المدهشة الناتجة عن ألف عين. وعن الأحاديث التي لا تنتهي بين ملايين الأصوات التي لا صوت لها. التي تستطيع أن تُسمع كلها.

أصغى إليّ بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وبابتسامة مسحورة.

سألني عندما كففت عن الكلام أخيراً مفكرة فيما قد أكون نسيته: «أهو المكان الآخر الوحيد؟ هل الأعشاب البحرية هي الكائنات الغريبة الأخرى الوحيدة؟». أطلق ضحكة صغيرة عندما استخدم كلمة كائنات غريبة.

ضحكت أيضاً: «إطلاقاً! أنا الكائن الغريب الوحيد في هذا العالم»

قال: «أخبريني. .» فأخبرته عن الخفافيش في الكوكب المغنّي. أخبرته كيف تكون الحياة في هذا العماء الموسيقي. أخبرته كيف هو الطيران. أخبرته عن كوكب الضباب. أخبرته كيف يكون الأمر عندما يكون للمرء فراء أبيض كثيف وأربعة قلوب حتى يستطيع جسمه البقاء حاراً. أخبرته كيف يكون الهرب من الوحوش.

بدأت أحدثه عن كوكب الأزهار. عن لون الضوء، لكنه قاطعني بسؤال جديد: «وماذا عن هؤلاء الأشخاص الصغار الخضر ذوي الرؤوس المثلثة والأعين السوداء الكبيرة؟ هؤلاء الذين قرأت عنهم في القصص. هل هم منكم أنتم؟».

«لا، ليسوا منا».

«أهي قصة كاذبة إذاً؟».

«لست أدري! لعلها كاذبة. لعلها صادقة. إن الكون كبير، وثمة أجناس كثيرة فيه».

«وكيف أتيتم إلى هنا؟ إذا لم تكونوا تلك الكائنات الخضراء الصغيرة، فمن كنتم؟ لقد كانت لكم أجساد حتى تتمكنوا من التحرك. أليس كذلك؟»

قلت موافقة: «هذا صحيح». فوجئت باستنتاجه هذا. ما كان يجوز لي أن أفاجأ فأنا أعرف مدى ذكائه. إن ذهنه مثل إسفنجة ظمئة. «لقد استخدمنا أجسادنا العنكبوتية في البداية. استخدمناها حتى نبدأ على هذا الكوكب».

«عنكبوتية!».

أخبرته عن العناكب. عن ذلك الجنس الساحر من الكائنات. إنها مدهشة. لديها أذهان لامعة حقاً لم أر لها مثيلاً ولكل عنكبوت واحد ثلاثة من هذه الأدمغة. لها ثلاثة أدمغة. واحد في كل جزء من أجزاء الجسم. كان علينا العثور على مسائل تعجز تلك العناكب عن حلها. ثم إنها كانت تحليلية الذهن على نحو بارد إلى حد يجعلها نادراً ما تصادف مسألة يستبد بها الفضول لحلها. ومن بين جميع الأجناس التي استضافتنا أجسادها، كانت العناكب الجنس الوحيد الذي رحب باحتلالنا. ما كادت تلاحظ أي فارق. وعندما تلاحظ الفارق كان يبدو عليها أنها موافقة على الاتجاه الذي نسير فيه. لقد أخبرتنا الأرواح القليلة التي حلت في كوكب العناكب قبل أن يبدأ زرع الأرواح فيها أن ذلك الكوكب كان كوكباً بارداً رمادياً. . لا عجب إذاً ألا تستطيع العناكب الرؤية إلا باللونين الأبيض والأسود. ولا عجب أن إحساسها بدرجات الحرارة محدود فعلاً. كانت حياة العناكب قصيرة، لكن كل جيل جديد منها كان يولد عارفاً بكل ما عرفه الجيل الذي قبله. وهكذا، ما كانت المعرفة تضيع أبداً.

لقد عشت في جسد عنكبوت مدة الحياة القصيرة لذلك الجنس ثم

غادرت الكوكب من غير رغبة في الرجوع إليه. كان ذلك الوضوح المدهش لأفكاري. والأسئلة السهلة التي تأتي من تلقاء ذاتها إجابة عن أي سؤال من غير جهد تقريباً. كانت حركة الأرقام ورقصها في ذهني. لا تمثل بديلاً كافياً عن المشاعر وعن الألوان التي ما كنت قادرة على تصورها أو فهمها إلا على نحو غامض عندما كنت في ذلك الجسد. أعجب كيف ترضى أي روح بالوجود في هذا الجسد! لكن الكوكب كان مكتفياً بذاته لألف سنة مما يُعدُّ من سنوات الأرض. كان ما يزال مفتوحاً للاستيطان لسبب وحيد. إن العناكب سريعة التكاثر. وهي تنتج أكياساً من البيوض كل مرة!

بدأت أخبر جيمي عن بدء هجومنا على الأرض. كانت العناكب أفضل مهندسينا. وقد وصلت المركبات التي صنعوها من أجلنا إلى الأرض متراقصة برشاقة وسلاسة بين النجوم من دون أن يراها أحد. كانت فائدة أجساد العناكب لنا لا تقل عن فائدة أدمغتها: أربع قوائم طويلة لكل جزء من أجزاء الجسم. وثماني أكف بأصابعها على كل ساق من تلك السيقان. كانت هذه الأصابع ذات المفاصل الستة رشيقة قوية مثل حبال الفولاذ. كانت قادرة على أداء أصعب المهام وأدقها. كان العنكبوت الواحد في وزن البقرة تقريباً، لكنه أخفض منها وأكثر رشاقة. ولم تعان العناكب أي مشكلة في زراعة الأرواح في أجسامها. لقد كانت أقوى من البشر. أذكى من البشر. وكانت مستعدة أيضاً. أما البشر فما كانوا مستعدين.

توقفت عن الكلام. توقفت في منتصف الجملة. عندما رأيت ذلك اللمعان الكريستالي على وجنة جيمي.

كان يحدق أمامه في اللاشيء. كانت شفتاه مضغوطتين. وكانت قطرة كبيرة من الماء المالح. من الدمع. تتدحرج بطيئة على خده القريب مني.

وبّختني ميلاني: «حمقاء! ألم تفكري في معنى قصتك بالنسبة له؟».

«ألم تفكري أنت في تحذيري مسبقاً؟».

لم تجب ميلاني. لا شك في أنها كانت مشدودة إلى القصة مثلما كنت أنا.

غمغمت: «يا جيمي!». كان صوتي كثيفاً. لقد فعلت رؤية تلك الدمعة شيئاً غريباً لحنجرتي. «يا جيمي، إنني آسفة! لم أكن أظن. . ».

هز جيمي رأسه: «لا بأس! أنا الذي سألت. لقد أردت أن أعرف كيف حدث ذلك». كان صوته خشناً. محاولاً إخفاء الألم.

كانت تلك رغبة غريزية. الرغبة في الانحناء إلى الأمام ومسح دمعته عن خده. حاولت تجاهل هذه الرغبة أول الأمر. لم تكن رغبة ميلاني! لكن الدمعة ظلت هناك. على خده، من غير حركة، كما لو أنها لن تسقط أبداً. ظلت عينا جيمي مثبتتين في الجدار الفارغ، وكانت أنفتاه ترتجفان.

ما كان بعيداً عني. مددت ذراعي لمسح تلك الدمعة عن خده. تبددت الدمعة. انتشرت فوق جلده. تحركت بفعل الغريزة من جديد. رفعت يدي ووضعتها على خده الدافئ. احتضنت بها وجهه.

تظاهر بتجاهلي لحظة واحدة.

ثم مال صوبي بعينين مغمضتين. مد يديه إليّ. تكوّر جسده ملتصقاً بي. وضع خده على تلك الحفرة عند كتفي، تلك الحفرة التي كانت تلائم حجم رأسه ذات يوم. وبكى!

ما كانت دموعه دموع طفل. وهذا ما جعلها أكثر عمقاً. هذا ما جعلها أكثر قداسة وأكثر ألماً لأنه يذرفها الآن أمامي. كانت هذه معاناة رجل مات أهله جميعاً.

التفّت ذراعاي من حوله. ما كانتا قادرتين على تطويقه بسهولة كما كان الأمر منذ زمن. وبكيت بدوري.

قلت مرة بعد مرة: «إنني آسفة!». كنت أعتذر عن كل شيء في

هذين العالمين. كنت أعتذر عن عثورنا على هذا المكان. أعتذر عن اختيارنا هذا المكان. أعتذر عن احتلالي جسد أخته. أعتذر عن مجيئي بها إلى هنا وجرح مشاعره من جديد. أعتذر عن أنني جعلته يبكي اليوم بقصصي المزعجة.

هدأ حزنه، لكني لم أفك ذراعي من حوله. ما كنت أستعجل تركه. أحسست أن جسدي كان جائعاً لهذا الاحتضان منذ البداية، لكني لم أفهم أبداً من قبل الآن. لم أفهم كيف يمكن أن يكون هذا الجوع. ما عادت تلك الرابطة السرية الغامضة بين الأم والطفل. الرابطة القوية على هذا الكوكب. سراً بالنسبة لي بعد الآن. ما من رابطة أقوى من رابطة تجعلك تضحي بحياتك من أجل الآخر. لقد فهمت هذه الحقيقة من قبل. أما ما لم أفهمه فهو سببها. والآن، أعرف ما الذي يجعل الأم تعطي حياتها من أجل ابنها. ولسوف تعيد هذه المعرفة صياغة فهمي للكون كله إلى الأبد.

«أعرف أنني علمتك ألا تبكي هكذا يا فتى!». قفزنا متباعدين. هبّ جيمي واقفاً على قدميه، أما أنا فتكورت ملتصقة بالجدار، ملتحمة به.

انحنى جيمي والتقط البندقية التي نسيناها على الأرض: «عليك الاهتمام بالبندقية أكثر من هذا يا جيمي». كانت نبرته شديدة الرقة. خففت رقتها حدة الانتقاد. مد يده فعبث بشعر جيمي المشعث.

حاول جيمي الابتعاد عن يد جيب. كان وجهه أحمر اللون لشدة خجله وارتباكه.

تمتم يقول: «آسف!». واستدار كما لو أنه موشك على الهرب. توقف بعد خطوة واحدة ثم استدار ناظراً إليّ: «لست أعرف اسمك!».

همست: «إنهم يدعونني الجوالة».

«جوالة!».

أومأت برأسي.

أومأ برأسه أيضاً ثم أسرع مبتعداً. ما زالت رقبته حمراء اللون.

بعد أن ذهب جيمي استند جيب إلى الجدار الحجري وانزلق فجلس حيث كان جيمي جالساً. ترك البندقية ترتاح في حضنه، كما فعل جيمي.

قال لي: «إنه اسم مثير للاهتمام حقاً!». الظاهر أنه عاد إلى مزاجه المحبّ للحديث. «لعلك تخبريني ذات مرة كيف حصلت على هذا الاسم. لا بد أنها قصة جيدة. ولا بد أنها طويلة أيضاً، أليس كذلك يا جوالة؟».

نظرت إليه.

«أتسمحين لي بتصغير اسمك. أتسمحين بأن أناديك باسم جو اختصاراً؟ إنه أسهل!».

راح ينتظر إجابتي. أخيراً، ابتسمت له. لست أبالي بالاسم الذي يستخدمه في مخاطبتي. أعرف أنه يقول هذا الكلام بروح المودّة.

ابتسم مسروراً باختراعه: «لا بأس إذاً يا جو! لطيف أن يكون لك اسم أناديك به فهذا يجعلني أحس أننا أصدقاء قدامى».

ثم ابتسم تلك الابتسامة العريضة التي تجعل وجنتيه تمتطان فلم أستطع منع نفسي من إجابته بابتسامة مثلها، رغم أن ابتسامتي كانت ابتسامة قلق أكثر من كونها ابتسامة حبور. يفترض أن هذا الرجل واحد من أعدائي! لعله مجنون! وهو صديقي أيضاً! لا أقصد أنه لن يقتلني إذا سارت الأمور على نحو سيّئ، لكنه لن يكون مسروراً بقتلي! ما الذي يستطيع المرء مطالبة صديقه به عندما يكون صديقه من بني البشر؟

## الفصل الثاني والعشرون

# انهيار

شبك جيب كفّيه خلف رأسه ناظراً إلى السقف القاتم. كانت ملامح التفكير العميق تعلو وجهه. لم يفارقه مزاجه المحب للحديث.

«أتساءل كثيراً عما يمكن أن يكون الأمر. كيف يكون الأمر عندما يمسكون بالمرء! رأيت هذا يحدث أكثر من مرة. كادوا يمسكون بي أكثر من مرة. كيف يكون الأمر.. هل هو مؤلم؟ هل يشعر المرء بالألم عندما يضعون شيئاً في رأسه؟ لقد رأيتهم يفعلونها كما تعلمين!».

جحظت عيناي لهذه المفاجأة لكنه ما كان ينظر إليّ.

«يبدو أنكم تستخدمون نوعاً من المخدر، لكن هذا مجرد تخمين! لم أر أحداً يصرخ ألماً أو أي شيء من هذا القبيل. لا بد أن يكون الأمر غير مؤلم كثيراً».

كشرت قليلاً الألم. إحداث الألم! لا، هذا ما يفعله البشر وحدهم.

«مثيرة حقاً تلك القصص التي كنت تروينها للصبي».

تجمدت في مكاني فسمعته يضحك منشرحاً: «نعم! لقد كنت أصغي إليك. كنت أسترق السمع. أنا أعترف بهذا. لكنني لست آسفاً. كانت رواية عظيمة. كما أنك لا تتحدثين معي مثلما تحدثت مع جيمي لقد أعجبتني حقاً قصة تلك الخفافيش والنباتات والعناكب. تعطي هذه القصص الإنسان أشياء كثيرة يفكر فيها. طالما أحببت قراءة القصص الغريبة. المجنونة. الخيال العلمي وما إلى ذلك. كنت ألتهمها

التهاماً! جيمي مثلي أيضاً. لقد قرأ كل ما لدي من كتب مرة ومرتين وثلاث مرات. لا بد أنه مسرور بسماع قصص جديدة. أنا مسرور من ناحيتي! إنك تجيدين رواية القصص».

ظلت عيناي منخفضتين إلى الأرض، لكني شعرت بنوع من الاسترخاء. زال عني تيبّسي بعض الشيء. وعلى غرار كل من يكون داخل هذه الأجساد البشرية المفعمة بالعواطف. كنت أحب أن أستمع إلى الإطراء!

«يعتقد الجميع هنا أنك بحثت عنا حتى تكشفي مكاننا للباحثين».

جعلت كلمة الباحثين موجة من الذعر تسري في جسدي. أحسست أن فكي قد تشنج. عضضت على لساني فشعرت بطعم الدم.

تابع يقول غير منتبه لردّ فعلي. أو لعله تجاهله: «ماذا يمكن أن يكون سبب مجيئك غير هذا؟ لكنهم عالقون جميعاً في أفكارهم الثابتة كما أعتقد. أنا صاحب الأسئلة الوحيد هنا. أعني. ما هذه الخطة الفاشلة؟ ما معنى أن تتجولي في الصحراء دونما سبيل للعودة؟». ضحك قليلاً. «تتجولين! أظن أن هذا من طبعك يا جوالة!. يا جو».

انحنى نحوي ولكزني بمرفقه. دهشت من جديد فنظرت إليه ثم عادت عيناي إلى الأرض. ضحك جيب مرة ثانية.

«إن هذه الخطة لا تختلف عن محاولة الانتحار إلا قليلاً في رأيي. ما هكذا تكون خطط الباحثين. إذا كنت تدركين قصدي! لقد حاولت التفكير في الأمر حاولت استخدام المنطق: إذا لم يكن معك قوة مساندة. وهذا ما أنا واثق منه. وإذا ما كان عندك سبيل للعودة، فلا بد أن لديك هدفاً مختلفاً. لم يظهر عليك ميل إلى الكلام منذ وصولك إلى هنا باستثناء كلامك مع الصبي قبل قليل. لكني أصغيت إلى ما قلته له. يبدو لي أن سبب مخاطرتك بالموت في الصحراء هو أنك مدفوعة دفعاً شديداً إلى محاولة العثور على الفتى وعلى جارد».

أغمضت عيني.

سألني جيب غير متوقع إجابة مني: «لكن، لماذا تبالين بذلك؟ إليك ما أظنه: إما أنك ممثلة ماهرة حقاً. أي أنك باحثة خارقة. نوع جديد من الباحثين أكثر خبثاً من النوع الذي نعرفه. باحثة لديها خطة لا أدركها، أو أنك غير مخادعة! يبدو الاحتمال الأول تفسيراً شديد التعقيد لسلوكك. لست مقتنعاً به! لكن، إذا كنت غير مخادعة. .».

صمت قليلاً.

«لقد أنفقت وقتاً طويلاً في مراقبة بني جنسك. كنت أنتظر دائماً أن يتغيروا. أنت تفهمين هذا. عندما لا يعودوا مضطرين إلى التمثيل. إلى التظاهر بأنهم مثلنا. أي عندما لا يبقى من يضطرون إلى تمثيل ذلك أمامه. كنت أراقب وأنتظر، لكنهم كانوا يواصلون التصرف مثل البشر كانوا يبقون مع بقية أفراد أسرة الجسد المضيف ويذهبون في نزهات عندما يكون الجو لطيفاً ويزرعون الزهور ويرسمون اللوحات. وكل تلك الأشياء! كنت أتساءل. ألستم تتحولون جميعاً إلى بشر على نحو ما! أليس لنا نوع من التأثير عليكم في آخر المطاف؟».

راح ينتظر متيحاً لي فرصة الإجابة عن أسئلته. لكني لم أجبه.

«رأيت قبل عدة سنوات شيئاً ظل عالقاً في ذهني. رأيت رجلاً وامرأة عجوزين. أقصد رأيت جسد رجل عجوز وجسد امرأة عجوز. مضى عليهما زمن طويل معاً حتى تجعّد الجلد في أصابعهما حول خواتم الزواج. كانا متشابكي الأيدي. قبّلها على خدها. فاحمرَّ وجهها تحت تلك التجاعيد كلها. خطر لي أنكم تحملون المشاعر التي لدينا نفسها لأنكم أنتم نحن. ليس الأمر مثلما تكون اليد داخل دمية. تحركها!».

همست: «أجل! لدينا مشاعركم نفسها! المشاعر البشرية. والأمل. والألم. والحب».

«إذاً، إذا لم تكوني مخادعة. أستطيع في هذه الحالة أن أقسم أنك تحبينهما! نعم أنت تحبينهما يا جو. المسألة ليست مجرد وجود جسد ميلاني».

خبأت وجهي بين ذراعي. كانت تلك الحركة أشبه باعتراف، لكني لم أبال. ما عدت أستطيع الاحتفاظ بالأمر سراً أكثر من ذلك.

«إنها أنت إذاً! لكنني أتساءل عن ابنة أخي أيضاً. كيف كان الأمر بالنسبة لها؟ كيف يمكن أن يكون بالنسبة لي؟ عندما يضعون أحداً في رأسي. فهل. أختفي؟ هل أُمحى كما لو أنني قد مت! أم يكون الأمر كما لو أنني نائم؟ هل يشعر المرء بشيء يسيطر عليه من خارجه؟ وهل يشعر الجسد بك ويدرك وجودك؟ هل أنت محبوسة هناك يا ميلاني تصرخين في الداخل؟».

جلست ساكنة تماماً محاولة المحافظة على جمود تعابير وجهي.

«من الواضح أن ذكرياتك وسلوكك ما زالا موجودين! لكن، ماذا عن وعيك. يبدو أن ثمة أشخاصاً لا يستسلمون بسهولة. فعلاً! أعرف أنني لن أستسلم. أنني سأحاول البقاء. لم أكن أبداً شخصاً يقبل الهزيمة. اسألي من شئت وسوف يقول لك ذلك! إنني مقاتل! كلنا. كل من بقي هنا. مقاتلون! ثم. أنت تعرفين. أظن أن ميلاني مقاتلة أيضاً!».

لم يبعد عينيه عن السقف، أما أنا فكنت أنظر إلى الأرض. كنت أحدق فيها محاولة حفظ تلك الخطوط المرسومة على التراب الرمادي.

«نعم! لقد فكرت في هذه الأمور كثيراً».

أستطيع أن أشعر بوقع نظراته عليّ الآن رغم أنني ما زلت مطرقة إلى الأرض. لم أتحرك. باستثناء تنفُّسي. شهيق بطيء. زفير بطيء. اقتضى الأمر جهداً كبيراً حتى أستطيع المحافظة على إيقاع تنفسي المنتظم. كان عليَّ أن أبتلع ريقي. . كان الدم الذي نزف من لساني مستمراً في التدفق داخل فمي.

تساءلت ميلاني: «ما الذي جعلنا نعتقد أن هذا الرجل مجنون؟ إنه يرى كل شيء! إنه عبقري».

«إنه مجنون وعبقري معاً».

«أظن أن معنى هذا هو أننا ما عدنا مضطرتين إلى الاستمرار في الصمت... إنه يعرف». كانت مفعمة بالأمل. إنها هادئة جداً في فترة الآونة الأخيرة. غائبة نصف الوقت تقريباً. ما كان التركيز سهلاً عليها عندما تشعر ببعض السعادة. لقد حققت هدفها من هذا الصراع الكبير. لقد جاءت بنا إلى هنا! ما عادت أسرارها موضع الخطر: ما عاد يمكن أن تخون ذكرياتها جارد وجيمي. أن تفضح أمرهما.

وبعد أن انتهى ذلك الصراع بالنسبة لها، صار من الأصعب عليها أن تجد شيئاً تقوله، حتى لي أنا. لكنني رأيت الآن كيف أنعشتها فكرة الاكتشاف هذه. وجود بشر آخرين يدركون وجودها.

«إن جيب يعرف! نعم! لكن، هل يغير هذا شيئاً؟».

راحت ميلاني تفكر في نظرة البشر الآخرين إلى جيب. ثم تنهدت وقالت: «صحيح! لكنني أعتقد أن جيمي... لا يعرف... ولا يخمن ذلك... لكنني أظن أنه يشعر بالحقيقة».

«لعلك محقة! أظن أن علينا الانتظار لنرى إن كان هذا يفيده أو يفيدنا في نهاية الأمر».

لم يستطع جيب البقاء صامتاً أكثر من ثوانٍ قليلة. عاد يتكلم من جديد. قاطعنا: «شيء مثير للاهتمام حقاً! ليس فيه مفاجآت كثيرة مثل الأفلام التي كنت أحبها! لكنه يظل مثيراً للاهتمام حقاً! أحب أن أسمع المزيد عن تلك العناكب. إن الفضول يستبد بي حقاً. شيء مثير للاهتمام. شيء غريب بكل تأكيد».

استنشقت نفساً عميقاً ثم رفعت رأسي: «ما الذي تريد معرفته؟».

ابتسم لي ابتسامة دافئة. صارت عيناه مثل هلالين صغيرين. «لها ثلاثة أدمغة، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي.

«وما عدد أعينها؟».

«لها اثنتا عشرة عيناً. عين عند كل مفصل من المفاصل التي تربط

بين الساق والجسد. ما كان لهذه الأعين أجفان بل كثير من الأهداب. شيء مثل أهداب من الصوف الفولاذي. حتى تحميها».

أومأ برأسه وتألقت عيناه: «وهل كان لها شعر أو فرو؟».

«لا كان لها نوع من. الدروع. الحراشف، مثل الأسماك والزواحف».

اتكأت على الجدار متخذة وضعاً مريحاً. مستعدة لحديث طويل.

لم يخيّب جيب ظني. لست أدري عدد الأسئلة التي طرحها. أراد معرفة التفاصيل. كيف تبدو العناكب، كيف هو سلوكها، وكيف تمكنت من الاستيلاء على الأرض؟ لم يرتعد عندما سمع تفاصيل الغزو، بل على العكس، بدا شبه مستمتع بذلك الجزء أكثر من بقية أجزاء الحديث. أتت أسئلته سريعة في أعقاب إجاباتي. كان يبتسم كثيراً. وعندما اكتفى من حديث العناكب، بعد ساعات طويلة، أراد معرفة المزيد عن الأزهار.

قال يذكّرني: «لم تشرحي لي عن ذلك الأمر شيئاً كثيراً».

أخبرته عن أكثر الكواكب جمالاً وصفاءً. وكلما كنت أتوقف حتى التقط أنفاسي كان يقاطعني بسؤال جديد. كان يحب أن يخمن إجاباتي. أن يتوقعها قبل أن أفلح في قولها. وما كان يبدو عليه أي انزعاج عندما يدرك آخر الأمر أن إجابته كانت خاطئة.

«إذاً، هل كنتم تأكلون الذباب كما تفعل بعض الورود في هذا العالم؟ أراهن أنكم كنتم تأكلون الذباب. أو لعلكم كنتم تأكلون أشياء أكبر من الذباب، كالطيور مثلاً!».

«لا! كنا نستخدم ضوء الشمس غذاء لنا.. مثل أكثر النباتات هنا».

«لا بأس! هذا ليس ممتعاً ولا مثيراً مثل فكرتي».

كنت أجد نفسي أضحك معه في بعض الأحيان.

كنا على وشك الانتقال إلى الحديث عن كوكب التنانين عندما جاء جيمي حاملاً الطعام لثلاثة أشخاص.

قال جيمي شاعراً بشيء من الإحراج: «مرحباً يا جوالة».

أجبته بشيء من الخجل: «أهلاً يا جيمي!». ما كنت أدري إن كان جيمي يمكن أن ينزعج من التقارب الذي حدث بيننا قبل ذهابه. فأنا هو. الشخص الشرير. في آخر الأمر!

لكن جيمي جلس بجواري، بيني وبين جيب. جلس متربعاً على الأرض ووضع صينية الطعام أمامنا. كنت أموت جوعاً، وكنت قد تعبت من كل هذا الكلام. أمسكت وعاء الحساء فأفرغته في جوفي في جرعات قليلة.

«كان عليّ إدراك أنك امتنعت عن الأكل تأدباً عندما كنا في المطبخ اليوم. عليك أن تعلني جوعك في المرات القادمة يا جو. لست أستطيع قراءة أفكارك».

لم أكن أوافق على تلك العبارة الأخيرة، لكني كنت مشغولة بمضغ قطعة من الخبز ملأت فمي.

تساءل جيمي مستغرباً: «جو!».

أومأت برأسي حتى يدرك أنني لست أعترض على هذا الاسم.

«رأيت أنه يناسبها، ألا تظن ذلك مثلي؟». كان جيب شديد الفخر بنفسه. يدهشني أنه لم يمض في إظهار ذلك الاعتزاز.

قال جيمي: «معقول. أظن ذلك! هل كنتم تتحدثون عن التنانين؟».

ردّ جيب متحمّساً: «نعم! لكنها ليست من النوع الذي يشبه السحالي. إنها مصنوعة كلها من شيء يشبه الهلام. وهي تستطيع الطيران رغم ذلك. شيء من هذا القبيل. الهواء شديد الكثافة شبيه بالهلام أيضاً. إن الأمر يشبه السباحة. وهي تستطيع أن تنفث الحوامض من أفواهها... هذا لا يقل إثارة عن النار... ألا تظن ذلك مثلي؟».

تركتُ جيب يخبر جيمي بتلك التفاصيل كلها بينما كنت ألتهم ما يزيد

عن نصيبي من الطعام. أفرغت قارورة الماء كلها أيضاً. وعندما تحرر فمي أخيراً، عاد جيب إلى طرح الأسئلة من جديد.

«والآن، تلك الحوامض. . .».

ما كان جيمي يطرح الأسئلة بطريقة جيب. أما أنا فكنت أكثر حذراً في ما كنت أقوله أمامه. لكن جيب لم يسأل هذه المرة عن أي شيء يمكن أن يؤدي إلى موضوع حساس. لست أدري إن كان هذا قد حدث مصادفة أو عن قصد. لذلك ما كان حذري ضرورياً.

راح ضوء النهار يخفت تدريجياً حتى صار الممر مظلماً. وبعد قليل أضيء الممر بضوء فضي. كان ذلك انعكاساً ضئيلاً لضوء القمر. لكنه كان كافياً لرؤية الرجل والصبي الجالسَيْن إلى جواري عندما اعتادت أعيننا ذلك الضوء.

تزحزح جيمي في جلسته مقترباً مني. ثم راح يتزحزح مرة بعد مرة مع تقدم الليل. لم أدرك أنني كنت أمرر أصابعي في شعره أثناء حديثي إلا عندما لاحظت جيب ينظر إلى يدي.

شبكت ذراعيّ أمام صدري.

وأخيراً، تثاءب جيب تثاؤباً واسعاً أعدانا فتثاءبنا مثله. أنا وجيمي.

بعد أن تمطينا. كلنا. قال جيب: «أنت بارعة في حكاية القصص يا جو».

«هذا ما أفعله. . . هذا ما كنت أفعله من قبل. كنت مدرّسة في جامعة سان دييغو. كنت أدرّس التاريخ».

ردد جيب من خلفي وقد أثارته الفكرة: «كنت مدرّسة!. أليس هذا مذهلاً؟ نستطيع الاستفادة منك هنا. إن شارون ابنة ماغي تقوم بتدريس ثلاثة أولاد. لكن ثمة أمور كثيرة لا تستطيع تدريسها. إنها تجيد الرياضيات وما شابه ذلك. أما التاريخ. . .».

قاطعته: «إنني أقوم بتدريس تاريخنا فقط». ما كان انتظار توقفه حتى

يلتقط أنفاسه أمراً مجدياً على ما يبدو. كان لا بد من مقاطعته. «لن أفيدكم كثيراً إذا مارست التدريس هنا. لم أتدرب على هذا الأمر».

«تاريخكم أنتم أفضل من لا شيء. إنها أشياء علينا أن نعرفها نحن البشر. يفيدنا أن ندرك أننا نعيش في كون مأهول أكثر مما كنا نتصور».

قلت له يائسة: «لكني لم أكن مدرّسة حقيقية». أيظن حقاً أن الجميع راغبون في سماع صوتي. في الإصغاء إلى قصصي؟ «لقد كنت مدرّسة فخرية. كنت أشبه بضيفة تقدم بعض المحاضرات. كانوا يريدون الاستماع إليّ لأنني. أقصد بسبب تلك القصص التي ينسجم محتواها مع اسمي».

قال جيب: «هذا ما كنت أريد سؤالك عنه. نستطيع التحدث عن تجربتك في التدريس في وقت لاحق. أما الآن. لماذا أطلقوا عليك اسم جوالة؟ لقد سمعت كثيراً من الأسماء الغريبة من قبيل الماء الجاف. أصابع في السماء. السقوط إلى الأعلى. كانت تلك الأسماء مختلطة بأسماء عادية من قبيل بام وجيم وما إلى ذلك. أقول لك إن هذه الأسماء يمكن أن تؤدي بالمرء إلى الجنون بسبب شدة الفضول».

انتظرت قليلاً حتى أتأكد من أنه أنهى كلامه: «الحقيقة. ما يحصل عادة هو أن الروح تجرّب في البداية كوكباً أو اثنين. عادة ما يجري تجريب كوكبين.. ثم تستقر في المكان الذي تفضله. ولا تنتقل الأرواح إلى أجساد مضيفة جديدة من الجنس نفسه على الكوكب نفسه إلا عندما يكون الجسد موشكاً على الموت. أما الانتقال من جنس إلى جنس آخر فهو أمر شديد التشويش. إنها نقلة مزعجة لأكثر الأرواح. بعض الأرواح لا يترك الكوكب الذي ولد فيه إطلاقاً. وفي أحيان قليلة، يمر وقت طويل على الروح قبل أن تجد ما يناسبها حقاً. قد تجرّب الروح ثلاثة كواكب أحياناً. وقد قابلت روحاً تنقّلت في خمسة كواكب قبل أن تستقر في كوكب الخفافيش. لقد أعجبني الوضع في ذلك الكوكب... أظن أن كوكب الخفافيش هو الأقرب إلى ما يعجبني. لكن فيه مشكلة العمى...».

سألني جيمي بصوت منخفض: «ما عدد الكواكب التي عشت فيها؟». لا أدري كيف عثرت يده على يدي أثناء حديثه!

قلت له: «هذا هو كوكبي التاسع». وشددت على أصابعه برقة.

همس متعجباً: «واو!. . التاسع!».

«هذا ما جعلهم يطلبون مني التدريس في الجامعة. يستطيع أي كان إخبار الطلاب عن إحصائياتنا ومعلوماتنا، لكن لي تجربة شخصية في أكثر الكواكب التي. . استولينا عليها». ترددت قبل استخدام تعبير استولينا، لكن جيمي لم يُبدِ انزعاجاً من هذا التعبير. «ثمة كواكب ثلاثة لم أذهب إليها أبداً. . بل هي أربعة كواكب الآن. لقد فتحوا كوكباً جديداً».

توقعت أن يطرح جيب أسئلة عن الكوكب الجديد أو عن الكواكب التي لم أذهب إليها. لكنه كان جالساً يعبث بأطراف لحيته شارد الذهن.

سألني جيمي: «وما الذي جعلك غير قادرة على البقاء في أي مكان من تلك الأماكن؟».

«لم أجد مكاناً أحبه إلى درجة تغريني بالبقاء فيه».

«وماذا عن الأرض؟ أتظنين أنك باقية هنا؟».

وددت أن أبتسم لهذه الثقة الطفولية. . كأنه يعتقد حقاً أن فرصة أخرى ستسنح لي. . فأذهب للحلول في جسد مضيف آخر. كأنه يظن أنني سأحظى بفرصة العيش ولو شهراً آخر في هذا الجسد الذي أعيش فيه الآن.

تمتمت: «الأرض. . جذابة جداً! لكنها أصعب من أي مكان حللت فيه قبل الآن».

سألني: «هل هي أصعب من ذلك المكان ذي الهواء المتجمد والوحوش المخيفة؟».

«نعم!. . وهذا أمر خاصّ». كيف أشرح له أن الخطر في كوكب الضباب يأتيك من الخارج فقط؟ . . أما أن يأتيك الهجوم من الداخل، فهذا أكثر صعوبة بكثير!

قالت ميلاني متجهّمة: «هجوم!».

قلت لها متثائبة: «لم أكن أتحدث عنك في واقع الأمر! كنت أفكر في تلك العواطف غير المستقرة، العواطف التي تخونني دائماً. لكنك هاجمتني فعلاً. هاجمتني عندما كنت تدفعين ذكرياتك في وعيي على ذلك النحو».

قالت بنبرة جافة: «لقد تعلّمت درسي!». كنت أشعر بمدى إحساسها بتلك اليد الموضوعة في يدي. لم أفهم ذلك الشعور الذي كان يتنامى رويداً رويداً في داخلها. إنه شيء شديد القرب من الغضب، لكن فيه شيئاً من الرغبة، وقدراً من اليأس والقنوط.

قالت موضحة: «إنها الغيرة!»

تثاءب جيب من جديد: «يا لفظاظتي! هذه فظاظة مني على ما أعتقد! لا بد أنك متعبة كثيراً. لقد سرت على قدميك طوال النهار وها أنا الآن أجعلك تسهرين حتى منتصف الليل. يجب أن أكون مضيفاً أفضل. هيا يا جيمي دعنا نذهب ونترك جو تنال قسطاً من النوم».

كنت متعبة حقاً. شعرت أن هذا النهار كان طويلاً جداً. إن كلمات جيب تؤكد أن هذا الإحساس ليس من صنع مخيلتي وحدها.

قفز جيمي خفيفاً على قدميه ثم مد يده إلى الرجل العجوز ليساعده على النهوض: «لا بأس! هيا أيها العم جيب».

أصدر جيب أنيناً عندما نهض واقفاً: «شكراً يا فتى! وشكراً لك أنت أيضاً». وجّه لي هذه العبارة ثم قال: «كان هذا حديثاً من أكثر الأحاديث متعة.. في حياتي كلها. حافظي على صوتك يا جو، لأن فضولي شديد حقاً. آه، ها هو! في الوقت الصحيح».

عند ذلك سمعت صوت خطوات تقترب منا. وبحركة تلقائية، انكمشت عند الجدار مبتعدة عن مدخل الكهف لكنني أحسست أنني مكشوفة هناك لأن ضوء القمر كان أكثر سطوعاً في داخل الغرفة.

أدهشني أن تكون هذه الخطوات أول خطوات أسمعها مقتربة في هذه الليلة. يوحي هذا الممر بأن فيه كثيراً من أماكن النوم.

«آسف يا جيب! كان عليّ أن أتحدث مع شارون. ثم غفوت قليلاً».

كان عدم التعرف على هذا الصوت اللين الرقيق أمراً مستحيلاً. تقلصت معدتي، تمنيت لو أنها فارغة.

قال جيب: «لم نلاحظ تأخرك أيها الطبيب. لقد أمضينا وقتاً رائعاً هنا. عليك أن تجعلها تروي لك بعض قصصها ذات يوم. قصص عظيمة! لكن هذا لن يكون الليلة طبعاً! إنها متعبة إلى حد كبير. أراك في الصباح».

رأيت الطبيب يمد فراشاً رقيقاً خارج الغرفة. في الممر عند المدخل. كما فعل جارد منذ فترة.

قال جيب واضعاً البندقية بجانب الفراش: «حافظ عليها!».

سألني جيمي: «هل أنت بخير يا جو! إنك ترتجفين».

لم أنتبه إلى ارتجافي. لكن جسدي كله كان يرتجف في حقيقة الأمر. لم أجبه. أحسست أن الخوف قد شلَّ حنجرتي.

قال جيب بصوت مهدئ: «هيا! هيا! لقد طلبت من الطبيب أن يتولى نوبة الحراسة. لا تقلقي من أي شيء. الطبيب شخص شريف!».

ابتسم الطبيب ابتسامة ناعسة: «لن أسبب لك أي أذى يا. جو، أليس هذا اسمك. أعدك. سوف أحرسك أثناء نومك. فقط».

عضضت على شفتيَّ إنما ارتجافي لم يتوقف.

لكن جيب بدا مرتاحاً للوضع رغم ذلك. قال: «تصبحين على خير يا جو. تصبح على خير يا دكتور». ثم بدأ يسير مبتعداً عبر الممر.

تردد جيمي ناظراً إليّ وقد ظهر القلق على وجهه. همس محاولاً طمأنتي: «الطبيب شخص جيد!».

«هيا يا فتى! لقد تأخر الوقت».

أسرع جيمي لاحقاً بجيب.

رحت أنظر إلى الطبيب بعد ذهابهما. كنت أنتظر بعض التغيير.

لكن تعابير وجهه المرتاحة لم تتغير. لم يلمس البندقية. مد جسده الطويل على الفراش. كان أطول من فراشه! رأيت قدميه تتجاوزان نهاية الفراش. بدا أكثر هزالاً عندما استلقى! إنه هش البنية!

همهم الطبيب بصوت ناعس: «تصبحين على خير».

لم أجبه بطبيعة الحال! رحت أراقبه في ضوء القمر الشحيح. أراقب ارتفاع صدره وانخفاضه. أراقب توقيت تنفسه اعتماداً على نبض قلبي المدوي في أذني. تباطأ تنفسه ثم صار أكثر عمقاً. وبعد قليل راح يطلق شخيراً خفيفاً.

لعله يتظاهر بالنوم! لكن، ما الذي أستطيع أن أفعله حتى إذا كان هذا كله تظاهراً؟ ابتعدت بصمت. ابتعدت إلى أقصى نقطة في الغرفة حتى وصلت إلى حافة الفراش. لقد عاهدت نفسي بألا أسبب أي فوضى في هذا المكان. لكن، ما الضرر إذا نمت على حافة الفراش؟ إن الأرض قاسية خشنة!

كان صوت شخير الطبيب مهدئاً مريحاً. حتى إن كان يصدره من أجل تهدئة أعصابي فقط. على الأقل. أستطيع أن أعرف مكانه في الظلمة اعتماداً على هذا الصوت.

أظن أنني سأنام أيضاً. فلتكن حياة. فليكن موتاً! كنت متعبة إلى حد هائل. تركت عينيَّ تغمضان. كان الفراش شديد الطراوة. أكثر طراوة من أي شيء لمسته منذ مجيئي إلى هذا المكان. استرخى جسدي وغرق في الفراش.

سمعت صوتاً منخفضاً. كان هذا الصوت داخل الغرفة. معي! انفتحت عيناي على اتساعهما فرأيت ظلاً يحجب ضوء القمر عني. أما في خارج الغرفة فكان الطبيب مستمراً في شخيره!

## الفصل الثالث والعشرون

# اعتراف

كان الظل ضخماً مشوَّه الشكل. وكان يحوم فوقي. ثقيلاً سابحاً. مقترباً من وجهي.

أظن أنني حاولت الصراخ، لكن الصوت علق في حنجرتي فلم يخرج منها إلا صوت حشرجة صافر مبهور الأنفاس.

همس: «ششش. هذا أنا!». إنه جيمي! سقط من فوق كتفيه شيء ضخم أسطواني الشكل فاصطدم بالأرض صدمة طرية. عندما زال هذا الشيء من فوق كتفي جيمي استطعت أن أرى ظله الحقيقي النحيل في ضوء القمر.

لهثت أعبّ الهواء عدة مرات، وكانت يدي ممسكة برقبتي عند حنجرتي.

همس جيمي: «آسف!». وجلس على حافة الفراش. «أظن أن تصرفي كان غبياً فعلاً. كنت أحاول عدم إيقاظ الطبيب. لم أفكر في أنني سوف أخيفك. هل أنت بخير الآن؟». راح يربت على كاحلي فقد كانت رجلي الجزء الأقرب إلى متناوله.

قلت لاهثة: «طبعاً!». ما زلت أحاول التقاط أنفاسي.

تمتم من جديد: «آسف».

«ماذا تفعل هنا يا جيمي؟ ألا يفترض أن تكون نائماً الآن؟».

«هذا سبب وجودي هنا. إن شخير العم جيب مزعج. ما عدت أستطيع احتمال شخيره!».

بدت إجابته غير منطقية: «ألا تنام دائماً مع جيب؟».

تثاءب جيمي وانحنى ليفكّ الفراش الملفوف الضخم الذي أسقطه على الأرض: «لا! عادة ما أنام مع جارد. وهو لا يشخر. أنت تعرفين أنه لا يشخر».

كنت أعرف ذلك.

«ولماذا لا تنام في غرفة جارد إذاً؟ هل تخشى النوم وحيداً؟». لن ألومه إذا كان هذا صحيحاً. من ناحيتي، أنا خائفة دائماً في هذا المكان.

قال وقد أحس بالإهانة: «أخاف! لا هذه هي غرفة جارد. وهي غرفتي أيضاً».

قلت لاهثة: «ماذا؟ هل وضعني جيب في غرفة جارد؟».

ما كنت أستطيع تصديق هذا. سوف يقتلني جارد! لا، سوف يقتل جيب أولاً، ثم سيقتلني.

«إنها غرفتي أيضاً! وقد قلت لجيب إنني أسمح لك باستعمالها»

همست: «سوف يجن جارد غضباً».

قال جيمي بنبرة متمردة: «يحق لي أن أفعل ما أشاء في غرفتي». لكنه عضّ على شفته. «لن أخبره! ليس ضرورياً أن يعرف».

أومأت برأسي: «فكرة جيدة».

«هل يزعجك أن أنام هنا؟ إن شخير العم جيب مرتفع حقاً».

«لا، لا مانع عندي. لكن، يا جيمي، لا أظن أن نومك هنا فكرة سديدة».

عبس جيمي محاولاً أن يبدو صلباً بدلاً من إظهار انزعاجه من كلامي: «لم لا؟».

«لأن المكان غير آمن هنا. يأتي بعض الناس باحثين عني في الليل أحياناً».

اتسعت عيناه دهشة: «هل يأتون حقاً؟».

«كانت البندقية مع جارد دائماً. وهذا ما كان يجعلهم يعودون أدراجهم».

«من هم؟».

«لست أدري. كَايل أحياناً! لكنني متأكدة أن هناك غيره من الأشخاص الباقين هنا».

أومأ برأسه: «هذا سبب إضافي يجعلني أبقى هنا. قد يحتاج الطبيب إلى مساعدة».

«جيمي. .».

«أنا لست طفلاً يا جو. أستطيع الاهتمام بنفسي».

من الواضح أن الجدل معه لن يجعله إلا أكثر تصلباً. قلت له مستسلمة: «خذ الفراش على الأقل. سوف أنام على الأرض. إنها غرفتك».

«هذا ليس صحيحاً! أنت ضيفة هنا».

قلت بصوت هادئ: «لا، الفراش فراشك أنت».

«مستحيل». استلقى على الفراش الذي جلبه طاوياً ذراعيه فوق صدره.

ومن جديد، رأيت أن الجدل أسلوب لا يصح اتباعه مع جيمي. لا بأس! أستطيع إصلاح الأمر بعد أن يغفو. إن جيمي ينام نوماً عميقاً جداً يشبه الغيبوبة. كانت ميلاني تستطيع حمله أينما شاءت بعد أن ينام.

قال لي: «تستطيعين استخدام وسادتي». وربت بيده على الوسادة القريبة منه. «لست مضطرة إلى التكوّر هناك عند حافة الفراش».

تنهّدت، لكنني نفذت ما قاله.

قال مستحسناً: «هكذا! والآن، هل ترمين لي وسادة جارد؟».

ترددت وأوشكت أن أعطيه الوسادة التي تحت رأسي لكنه قفز واقفاً وانحنى من فوقي ثم أمسك بالوسادة الأخرى. تنهدت من جديد.

رقدنا صامتَيْن فترة من الزمن. كنا نصغي إلى الصفير الخافت الصادر عن تنفس الطبيب.

همس جيمي: «إن للطبيب شخيراً لطيفاً، أليس كذلك؟».

قلت: «إنه من النوع الذي لا يمنع المرء من النوم».

«هل أنت متعبة؟».

«نعم!».

«أوه!».

انتظرت أن يقول شيئاً آخر، لكنه ظل هادئاً.

سألته: «هل كنت تريد شيئاً؟».

لم يجبني فوراً، لكني شعرت به يتردد. يغالب نفسه. لذلك رحت أنتظر.

«إذا سألتك شيئاً، فهل تقولين لي الحقيقة؟».

جاء دوري في التردد الآن: «لست أعرف كل شيء يا جيمي!».

«أنت تعرفين ما أريد سؤالك عنه. عندما كنا نسير، أنا وجيب، كان يخبرني بعض الأشياء. أشياء يفكر فيها، لكني لا أعرف إن كان محقاً في تفكيره».

وفجأة، صارت ميلاني حاضرة كل الحضور في رأسي.

كان همس جيمي خافتاً إلى حد يصعب سماعه. كان أهدأ من تنفسي: «يظن العم جيب أن ميلاني ربما تكون حية حتى الآن. أقصد. في الداخل معك أنت!».

تنهدت ميلاني: «أخي جيمي!».

لم أقل شيئاً له. ولم أقل شيئاً لها.

«لم أكن أعرف أن هذا شيء ممكن الحدوث. هل يحدث هذا حقاً؟». تكسَّر صوته. أدركت أنه يغالب دموعه. ما كان جيمي طفلاً حتى يبكي بكاء الأطفال! لكني سببت له ألماً عميقاً مرتين في يوم واحد! أحسست بألم يمزّق صدري.

«هل يحدث هذا يا جو؟».

قالت ميلاني: «أخبريه. أرجوك... أخبريه أنني أحبه».

«لماذا لا تجيبين عن سؤالي؟». كان جيمي يبكي الآن فعلاً لكنه يحاول كتم صوت بكائه.

زحفت خارجة من الفراش. صوب جيمي. رقدت فوق الفاصل الصخري الصلب بين فراشي وفراش جيمي ووضعت ذراعي حول صدره المرتجف. ملت برأسي على شعره فأحسست بدموعه حارة على خدي.

«هل ما زالت ميلاني على قيد الحياة يا جو؟ أرجوك!».

لعله أداة! لعل الرجل العجوز أرسله لهذه الغاية تحديداً. إن جيب ذكي إلى الحد الكافي لأن يرى مدى قدرة جيمي على اختراق دفاعاتي بسهولة. من الممكن أن جيب يحاول إثبات نظريته. ولعله ليس ضد فكرة استخدام الصبي للحصول على هذا الإثبات. ماذا سيفعل جيب عندما يتأكد من الحقيقة الخطيرة؟ كيف سيستخدم هذه المعلومات؟ لا أظن أنه يريد إيذائي، لكن هل أستطيع الثقة بحكمي هذا؟ البشر خداعون، غادرون! لا أستطيع توقع خططهم المظلمة لأن هذه الأشياء خارج تفكير بني جنسي تماماً.

ارتجف جسد جيمي بجانبي.

صاحت ميلاني: «إنه يعاني». راحت تحاول الإفلات من سيطرتي. لكن عبثاً.

هل أستطيع إلقاء اللوم على ميلاني إذا اتضح أن ما أفعله الآن غلطة كبيرة؟ أعرف من الذي يتكلم الآن!

تمتمت: «لقد وعدتك بأنها ستعود، أليس كذلك؟ هل تخلف ميلاني وعدها لك؟».

رمى جيمي ذراعيه حول خصري والتصق بي زمناً طويلاً. وبعد دقائق قليلة همس: «أحبك يا ميلاني».

«إنها تحبك أيضاً. وهي سعيدة كل السعادة لأنك هنا. لأنك في أمان».

ظل جيمي صامتاً زمناً طويلاً، زمناً جفت خلاله الدموع التي سقطت على جلدي ولم تترك خلفها إلا غباراً دقيقاً مالحاً.

همس جيمي بعد زمن طويل خلت أثناءه أنه نام: «هل الجميع هكذا؟ هل يبقى الجميع؟».

قلت له بحزن: «لا لا ميلاني مميزة».

«إنها قوية وشجاعة!».

«كثيراً!».

«هل تظنين. .» توقف قليلاً ونشق بأنفه. «هل تظنين أن والدي ما زال موجوداً أيضاً؟».

ابتلعت ريقي محاولة إزالة تلك الغصة التي أثقلت حنجرتي، لكني لم أستطع: «لا يا جيمي! لا أظن هذا. إنه ليس مثل ميلاني».

«لماذا؟».

«لأنه جاء بالباحثين حتى يفتشوا عنك. بل. الروح التي في داخله فعلت ذلك. ما كان والدك ليسمح بذلك إذا كان موجوداً. أما أختك فلم تسمح لي أبداً برؤية مكان الكوخ. لم تدعني أعرف شيئاً عن وجودك زمناً طويلاً. وهي لم تجلبني إلى هنا حتى صارت واثقة من أنني لا يمكن أن ألحق بك الأذى».

كانت هذه معلومات كثيرة جداً. أكثر مما يلزم! وعندما أنهيت كلامي أدركت أن صوت الشخير ما عاد يصدر عن الطبيب. ما كنت قادره على سماع أي صوت لتنفسه. يا لحماقتي!

قال جيمي: «واو!».

همست في أذنه مقتربة منه كثيراً إلى حد يمنع الطبيب من سماعي «نعم! إنها شديدة القوة».

عبس جيمي وهو يبذل كل جهده حتى يسمع كلماتي ثم التفت

صوب الباب المفضي إلى الممر المظلم. لا بد أنه أدرك ما أدركته لأنه أدار وجهه صوب أذني وهمس بصوت أشد انخفاضاً من ذي قبل: «لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا لا تُلحقين الأذى بنا؟ أليس هذا ما تريدين؟».

«لا لا أريد إيذاءكم».

«لماذا؟».

«لقد أمضينا. أختك وأنا. زمناً طويلاً معاً. لقد شاركتني إياك! وأنا. لقد بدأت. أحبك أيضاً».

«وتحبين جارد أيضاً؟».

صررت على أسناني لحظة. آلمتني قدرته على إقامة الصلة بهذه السهولة: «طبيعي أنني لا أريد أن يلحق الأذى بجارد أيضاً».

«لكنه يكرهك». قالها جيمي. من الواضح أن هذه الحقيقة تعذّبه.

تنهدت: «نعم! الجميع يكرهني. لكني لا أستطيع أن ألومهم».

«جيب لا يكرهك. وأنا لا أكرهك».

«لعلك تكرهني بعد أن تفكر في الأمر ملياً».

«لكنك لم تكوني هنا عندما استولوا على كوكبنا. أنت لم تأخذي حياة والدي أو أمي أو ميلاني! لقد كنت في الفضاء الخارجي آنذاك، أليس كذلك؟».

«صحيح! لكني لا أستطيع إنكار طبيعتي يا جيمي. إنني أفعل ما تفعله الأرواح. لقد استوليت على أجساد مضيفين كثر قبل ميلاني. لم يوقفني شيء عن أخذ أرواحهم. مرة بعد مرة. هكذا أعيش!».

«هل تكرهك ميلاني؟».

فكرت في الأمر لحظة: «إنها لا تكرهني بقدر ما كانت تكرهني سابقاً».

«لا. لا اكرهك إطلاقاً. لم اعد اكرهك».

تمتمت من غير صوت تقريباً: «تقول إنها لم تعد تكرهني أبداً».

«كيف. كيف هي؟».

«إنها سعيدة لأنها هنا. إنها سعيدة برؤيتك. وهي لا تهتم إطلاقاً بأنهم سوف يقتلوننا».

تصلَّب جسد جيمي تحت ذراعي: «لا يستطيعون قتلكما! لا يستطيعون ذلك إذا كانت ميلاني ما تزال على قيد الحياة!».

قالت ميلاني متذمرة: «لقد أحزنته! ما كان عليك قول هذا».

«لن يكون الأمر أخف وقعاً عليه إذا كان غير مستعد للفكرة».

همستُ: «لن يصدقوا هذا يا جيمي. سيظنون أنني أكذب حتى أخدعهم. وسوف تزداد رغبتهم في قتلي إذا قلت لهم ذلك بنفسك. الباحثون وحدهم من يكذبون».

جعلته هذه الكلمة يرتجف.

قال بعد لحظة: «لكنك لا تكذبين! أنا أعرف هذا».

رفعت كتفيّ.

«لن أسمح لهم بقتلك».

كان صوته حازماً مصمماً رغم أنه قال هذه الكلمات بصوت منخفض إلى أقصى حد. شلتني فكرة أنه صار أكثر تورطاً في هذا الأمر.. أكثر تورطاً معي. فكرت في البرابرة الذين يعيش جيمي معهم. هل تحميه حداثة سنّه منهم إذا حاول حمايتي؟ أشك في هذا. راحت أفكاري تضطرب في كل اتجاه مفتشة عن طريقة حتى أجعله ينسى الأمر من غير المغامرة بإثارة عناده من جديد.

تكلم جيمي قبل أن أفلح في قول شيء. لقد هدأ فجأة كأن الإجابة صارت واضحة أمامه: «سوف يفكر جارد في شيء ما. إنه قادر على ذلك دائماً».

«لن يصدقك جارد أيضاً. سوف يكون أكثرهم غضباً».

«سوف يحميك حتى إذا لم يصدقني. سوف يحميك من باب التحسب».

قلت: «سنرى!». سوف أجد الكلمات الصحيحة في وقت لاحق.. سوف أجد حجة لا تبدو حجة في نظر جيمي حتى لا تثيره.

ظل جيمي هادئاً. كان يفكر. وأخيراً، تباطأت أنفاسه، وانفتح فمه. انتظرت ريثما صرت واثقة من عمق نومه ثم عبرت من فوقه وحملته برفق شديد من الأرض إلى الفراش. كان أثقل من ذي قبل، لكني استطعت حمله. لم يستيقظ جيمي.

أعدت وسادة جارد إلى مكانها ثم تمددت على الفراش الرقيق على الأرض.

فكرت في نفسي: «لا بأس، لقد أفلحت في إخراج نفسي من المقلاة». لكني كنت متعبة إلى حد منعني من التفكير في ما قد يكون تأثير هذا الأمر غداً. وخلال ثوانٍ قليلة غبت عن الوعي.

عندما استيقظت كانت شقوق السقف متألقة بأصداء ضوء الشمس. سمعت أحداً يصفر.

توقف الصفير.

تمتم جيب عندما تحركت عيناي: «أخيراً!».

انقلبت إلى جانبي حتى أستطيع النظر إليه. وعندما تحركت انزلقت يد جيمي عن ذراعي. لا بد أنه وضع يده على ذراعي أثناء نومنا ليلاً. ليس على ذراعي أنا. على ذراع أخته.

كان جيب متكئاً إلى حافة الباب الصخري. كانت ذراعاه مشبوكتين فوق صدره. قال: «صباح الخير! هل حصلت على كفايتك من النوم؟».

تمطيت. وقررت أنني حصلت على راحة كافية فأومأت برأسي.

قال عابساً متذمراً: «أوه! لا تبدئي معي هذه المعاملة الصامتة من جديد».

تمتمت: «آسفة. لقد نمت جيداً، شكراً».

تحرك جيمي عندما سمع صوتي.

قال بصوت متسائل: «جوا».

تأثرت على نحو سخيف لأن اسمي المصغر السخيف هذا كان أول شيء يقوله جيمي لحظة استيقاظه.

«نعم؟».

رفرفت عينا جيمي.

أزاح شعره المشعث عن عينيه: «أوه، مرحباً يا عم جيب».

«أليست غرفتي جيدة بالنسبة لك يا فتى؟».

«أنت تشخر بصوت مرتفع كثيراً!». قالها جيمي ثم تثاءب.

سأله جيب: «ألم أعلمك شيئاً؟ منذ متى تترك ضيفة. سيدة. تنام على الأرض؟».

انتصب جيمي جالساً على نحو مفاجئ وراح يحدق من حوله مشوشاً. ثم عبس وجهه.

قلت لجيب: «لا تزعجه! لقد أصر أن ينام هو على الأرض. لكنني نقلته إلى الفراش بعد إغفائه».

صاح جيمي: «هكذا كانت تفعل ميلاني دائماً».

نظرت إليه بعينين متسعتين قليلاً، محاوِلةً نقل رسالة تحذير إليه.

ضحك جيب. نظرت إليه فرأيت على وجهه تعبير ابتسامة القط الواسعة نفسه الذي رأيته أمس. إنه تعبير من أفلح في حل لغز. تقدم جيب ورفس زاوية الفراش قليلاً.

«لقد تأخرت عن درسك الصباحي. وسوف تكون شارون غاضبة منك. هيا انطلق».

قال جيمي متذمراً: «إنها غاضبة دائماً!». لكنه نهض واقفاً على قدميه بحركة سريعة.

«هيا انطلق يا فتى!».

نظر جيمي إليَّ من جديد ثم استدار واختفى ماضياً في الممر.

قال جيب عندما صرنا وحيدين: «والآن! أظن أن هذه الحراسة وهذا الاهتمام المفرط قد استمرا فترة كافية. إنني رجل مشغول. كل إنسان

مشغول هنا. كل واحد منا لديه من المشاغل ما يمنعه من الجلوس وتمثيل دور الحارس. لذلك فإن عليك اليوم أن تأتي معي. أن ترافقيني أثناء قيامي بمهامي».

انفغر فمي دهشة.

نظر جيب إليّ من دون أن يبتسم.

قال مغمغماً: «لا داعي لهذا الرعب. سوف تكونين بخير». ربَت على بندقيته. «ليس منزلي مكاناً للأطفال الصغار».

ما كنت أستطيع مجادلته. استنشقت عدة أنفاس سريعة عميقة محاولة إعادة الاستقرار إلى أعصابي. راح الدم ينبض بصوت مرتفع في أذني. كان صوته مرتفعاً إلى درجة جعلت صوت جيب يبدو هادئاً بالمقارنة معه عندما تكلم من جديد.

«هيا يا جو! إننا نهدر الوقت».

استدار جيب ثم خرج من الغرفة.

تجمدت في مكاني لحظة ثم قفزت خارجة خلفه. ما كان جيب مازحاً. لقد اختفى فعلاً خلف الزاوية الأولى. رحت أسير في إثره مذعورة من احتمال مصادفة شخص آخر في هذا الجناح الذي من الواضح أنه مسكون. لحقت به قبل وصوله إلى نقطة تفرّع الممرات. لم ينظر إليّ عندما أبطأت سيري من خلفه حتى أسير بسرعته هو.

«حان وقت زراعة الحقل الشمالي الشرقي. علينا عزق التربة أولاً آمل ألا تنزعجي من اتساخ يديك. وبعد أن ننتهي سوف تنالين فرصة لتنظيف نفسك. أنت في حاجة إلى ذلك!». راح يتشمم الهواء بأنفه ثم ضحك.

أحسست برقبتي تحمرّ خجلاً، لكنني تجاهلت ذلك الجزء الأخير من كلامه وقلت متمتمة: «لا يزعجني أن تتسخ يداي». وعندما تذكرت موقع ذلك الحقل أدركت أنه بعيد بعض الشيء. لعلنا نعمل فيه وحدنا.

بدأنا نمر ببعض البشر عندما وصلنا إلى القاعة الكبيرة. كانوا ينظرون

إليّ غاضبين كالعادة. لقد بدأت أتعرف على بعضهم: المرأة متوسطة العمر التي لها ضفيرة طويلة نصف شائبة. لقد كانت بين من رأيتهم يقومون بأعمال السقاية أمس. وكان معها أيضاً ذلك الرجل القصير ذو البطن المكور والشعر الخفيف الذي بلون الرمل والوجنتين المحمرتين. وكذلك المرأة ذات المظهر الرياضي. ذات الجلد الأسمر بلون الكراميل. إنها من رأيتها منحنية تربط شريط حذائها عندما مررت بهذا المكان أول مرة. ورأيت أيضاً امرأة سمراء الجلد لها شفتان غليظتان وعينان ناعستان. لقد رأيتها في المطبخ من قبل قرب الطفلين داكني الشعر. لعلها والدتهما! ثم مررنا بماغي التي نظرت نظرة غاضبة إلى جيب ثم أدارت وجهها بعيداً عني. ومررنا كذلك برجل شاحب مريض المظهر له شعر أبيض. أنا واثقة من أنني لم أره قبل الآن. وبعد ذلك مررنا بإيان.

قال إيان مبتهجاً: «مرحباً يا جيب! إلى أين أنت ماضٍ؟».

قال جيب: «سنعزق التربة في الحقل الشرقي».

«أتريدان مساعدة؟».

دمدم جيب: «عليك أن تجعل نفسك مفيداً!».

اعتبر إيان هذه العبارة موافقة على ذهابه معنا فسار من خلفي.

أحسست جلدي يقشعر عندما شعرت بوقع عينيه على ظهري.

مررنا بشاب لا أظن أنه أكبر من جيمي بسنوات كثيرة. كان شعر رأسه منتصباً فوق جبهته زيتونية اللون مثل صوف فولاذي.

حيّاه إيان: «مرحباً يا ويس».

نظر ويس إلينا صامتاً أثناء مرورنا. ضحك إيان عندما رأى تعبير وجهه.

ثم مررنا بالطبيب.

قال إيان: «مرحباً يا دكتور».

أومأ الطبيب برأسه: «أهلاً إيان». كانت بين يديه قطعة كبيرة من العجين. وكان قميصه ملطخاً بطحين خشن قاتم اللون.

«صباح الخير يا جيب. صباح الخير يا جو!».

أجابه جيب: «صباح الخير».

أومأت له برأسي. بصعوبة.

قال الطبيب متحركاً بسرعة معنا حاملاً عجينه معه: «أراكم في ما بعد».

سألني إيان: «هل صار اسمك جو؟».

قال له جيب: «هذه فكرتي. هذا الاسم يناسبها كما أرى».

قال إيان: «جميل!».

بلغنا الحقل الشمالي الشرقي أخيراً. وهناك تبددت آمالي!

رأيت هنا أشخاصاً أكثر من جميع الأشخاص الذين صادفتهم في الممرات: خمس نساء وتسعة رجال. توقفوا جميعاً عما يقومون به ثم نظروا إليّ عابسين. هذا طبيعي!

تمتم جيب يخاطبني: «لا تهتمي بهم!».

تقدم جيب منفذاً نصيحته بنفسه فاتجه صوب كومة من الأدوات عند الجدار القريب. علق بندقيته على ظهره ممرراً حزامها فوق صدره ثم التقط معولاً ومجرفتين.

أحسست أنني صرت مكشوفة. . لقد صار جيب بعيداً عني. كان إيان واقفاً على مسافة خطوة واحدة من خلفي. إنني قادرة على سماع تنفسه. تابع الأشخاص الآخرون في الغرفة النظر إليّ حانقين. ما زالت أدواتهم في أيديهم. لم تفتني فكرة أن تلك الأدوات التي تحفر الأرض بسهولة وتفتت التربة قادرة على تحطيم جسدي أيضاً. أحسست عندما قرأت تعابير وجوههم أنني لم أكن الوحيدة التي تخطر هذه الفكرة في بالها.

عاد جيب وناولني مجرفة. قبضت على ذراعها الخشبي الصقيل. شعرت بوزنها. بعد رؤية ذلك الاستعداد للقتل في أعين البشر كان من الصعب عليّ ألا أنظر إلى هذه المجرفة التي في يدي باعتبارها سلاحاً

أيضاً. لم تعجبني هذه الفكرة. أشك في أنني أستطيع رفعها في مواجهتهم. حتى لكي أصد بها ضربة موجهة إلى جسدي.

سلّم جيب المعول إلى إيان. بدت قمته المعدنية المدببة السوداء سلاحاً قاتلاً بين يديه. استخدمت قوة إرادتي كلها حتى لا أبتعد عنه لأصبح خارج متناوله.

«فلنبدأ من الزاوية الخلفية».

لقد أخذني جيب، على الأقل، إلى المنطقة الأقل ازدحاماً في هذا الكهف الطويل المشمس. جعل إيان يحفر التربة القاسية أمامنا. أما أنا فكنت أقلب كتل التربة ثم يأتي جيب من خلفي فيفتتها بمجرفته محولاً إياها إلى تربة صالحة للزراعة من جديد.

رحت أراقب العرق يقطر من جلد إيان الأشقر. كان قد نزع قميصه بعد ثوانٍ قليلة من العمل تحت ضوء المرآة الساطع. كنت أسمع أنفاس جيب اللاهثة من خلفي. أدرك الآن أنه أعطاني أسهل جزء من العمل. تمنيت لو أنه أعطاني شيئاً أكثر صعوبة. شيئاً يمنعني من الإفراط في الانتباه إلى حركات البشر الآخرين. كانت كل حركة من حركاتهم تجعلني أرتعد وأنكمش على نفسي.

ما كنت قادرة على أداء عمل إيان. ليست لدي عضلات الذراع القوية وعضلات الظهر اللازمة لحفر هذه التربة الصلبة. لكنني قررت أن أنجز ما أستطيع إنجازه من عمل جيب فرحت أحطم الكتل الترابية إلى كتل أصغر حجماً قبل أن أتحرك إلى الأمام. ساعدني هذا الأمر قليلاً لأنه كان يشغل عيني. كان يتعبني. وهكذا صرت مضطرة إلى التركيز من أجل حمل نفسي على الاستمرار في العمل.

كان إيان يجلب إلينا الماء لنشرب بين فترة وأخرى. كانت في الكهف امرأة قصيرة شقراء. رأيتها في المطبخ أمس. الظاهر أن وظيفتها هي جلب الماء إلى الآخرين، لكنها كانت تتجاهلنا. كان إيان يجلب مقداراً يكفينا نحن الثلاثة كل مرة. كانت تعابير وجهه المرتاحة

تقلقني! هل أقلع فعلاً عن رغبته في موتي؟ أم أنه ينتظر الفرصة المناسبة؟ كان طعم الماء غريباً هنا على الدوام. كان طعمه كبريتياً راكداً! لكن ذلك الطعم بدا مريباً بالنسبة لي الآن. حاولت تجاهل هذه الأفكار قدر استطاعتي.

كنت أعمل جاهدة حتى أبقي عيني منشغلتين وحتى أبقي دماغي عاطلاً عن العمل. لم ألاحظ أننا وصلنا إلى آخر الحقل. توقفت عندما توقف إيان. تمطى إيان رافعاً معوله فوق رأسه بيديه الاثنتين. طقطقت مفاصله. ابتعدت عن حافة المعول المرفوعة، لكنه لم يكن يراني. أدركت أن الجميع قد توقفوا عن العمل أيضاً. نظرت إلى التربة المقلوبة المفتتة في الحقل كله فأدركت أن العمل في الحقل قد انتهى.

أعلن جيب بصوت مرتفع مخاطباً المجموعة كلها: «عمل جيد! سوف نزرعها ونسقيها غداً».

امتلأ المكان بهمسات منخفضة وبصوت قرقعة الأدوات أثناء وضعها إلى جانب الجدار من جديد. كان بعض الأحاديث عادياً. وكان بعضها محافظاً على توتره. هكذا أحسست! مد إيان يده ليأخذ المجرفة من يدي فأعطيته إياها شاعرة بأن إحساسي الضعيف في الأمان قد انعدم تماماً في هذه اللحظة. لا شك في أن كلمة «نحن» التي استخدمها جيب تشملني أيضاً. سوف يكون نهار الغد صعباً مثل اليوم.

نظرت إلى جيب نظرة حزينة فرأيته يبتسم في اتجاهي. كانت ابتسامته مشعة بالرضا مما جعلني أدرك أنه يعرف ما أفكر فيه. ليس ذلك فحسب، بل هو مستمتع أيضاً.

غمز لي بعينه. صديقي المجنون! أدركت من جديد أن هذا هو أفضل ما يمكن توقعه من صداقة بشرية.

صاح إيان من طرف الغرفة الآخر: «أراك غداً يا جو». وضحك. حدّق جميع الحاضرين فيه.

## الفصل الرابع والعشرون

# تسامح

صحيح أن رائحتي كانت سيئة.

لا أدري كم يوم مضى عليّ هنا.

هل مر عليّ أكثر من أسبوع؟ أكثر من أسبوعين؟ كل هذه الأيام كانت أيام تعرّق وتعب في الثياب نفسها التي أبليتها أصلاً أثناء رحلتي الكارثية في الصحراء. لقد جف ملح كثير على قميصي القطني حتى صار مجعّداً. صارت له ثنيات صلبة تشبه ثنيات الأكورديون. كان لونه أصفر باهتاً، أما الآن فهو ملطخ بألوان غريبة مريضة المظهر تشبه اللون الأرجواني الداكن الذي هو لون صخور هذا الكهف. صار شعري القصير مشعثاً قاسياً. أستطيع أن أشعر به منتصباً في خصلات مشعثة حول رأسي. مع شيء قاسٍ مثل عرف الديك في قمة الرأس. لم أر وجهي في الآونة الأخيرة، لكنني أتصوره ملوناً بلونين أرجوانيين: اللون الأرجواني لتراب الكهف. واللون الأرجواني للكدمات الآخذة بالشفاء.

هكذا فهمت قصد جيب. نعم! إنني في حاجة إلى حمام. وفي حاجة إلى تغيير ملابسي أيضاً حتى يستحق الحمام هذا الاسم. عرض عليّ جيب بعض ملابس جيمي حتى أرتديها ريثما تجف ملابسي لكنني ما كنت أريد إفساد ملابس جيمي القليلة فجسمي أكبر من جسمه! لحسن الحظ. لم يحاول جيب أن يعرض عليّ شيئاً من ملابس جارد. انتهى بي الأمر بأن أخذت من جيب قميصاً قطنياً قديماً لكنه نظيف. كان

منزوع الكُمَّين. وأخذت أيضاً بنطلوناً قديماً حائل اللون لا أعرف صاحبه. وضعت هذه الملابس فوق ذراعي وحملت قطعة.    أو كتلة من شيء رديء الرائحة زعم جيب أنه صابون الصبار المصنوع منزلياً. ثم تبعت جيب إلى غرفة النهرين.

لم نكن وحدنا هذه المرة أيضاً.    خاب أملي إلى حد كبير. رأيت ثلاثة رجال وامرأة واحدة.    ذات الضفيرة نصف الشائبة.    كانوا يملأون دلاءهم بالماء من النبع الصغير. وسمعت صوت ضحك مرتفع وطرطشة مياه في غرفة الحمام.

قال لي جيب: «سوف ننتظر دورنا».

اتكأ جيب على الجدار. ووقفت متيبسة الجسم إلى جانبه. كنت غير مرتاحة تحت وقع نظرات تلك الأزواج الأربعة من العيون. لكني أبقيت نظري مسدلاً على الجدول الحار الساخن المندفع تحت تلك الأرض التي تتخلّلها الثقوب.

بعد انتظار قصير خرجت من الحمام ثلاث نساء. كانت قطرات الماء تسقط من شعرهن المبلول فتبلل أذيال قمصانهن. رأيت المرأة رياضية الجسم ذات الجلد الذي بلون الكراميل. ورأيت شقراء شابة لا أذكر أنني رأيتها من قبل. وكذلك رأيت شارون، ابنة عم ميلاني. توقف ضحكهن على نحو مفاجئ فور رؤيتي.

قال جيب رافعاً يده إلى جبهته كما لو كان مرتدياً قبعته: «مساء الخير أيتها السيدات!».

أجابته المرأة التي بلون الكراميل: «أهلاً جيب!».

أما شارون والفتاة الأخرى فقد فضّلتا تجاهلنا.

بعد ذهابهن قال لي جيب: «هيا يا جو، الحمام لك الآن».

حدجته بنظرة مظلمة ثم مضيت حذرة صوب تلك الغرفة المظلمة.

حاولتُ تذكّر شكل الأرض. كنت واثقة من أن مسافة عدة أقدام

تفصل المدخل عن حافة البركة. خلعت حذائي أولاً حتى أستطيع تحسس الماء بأصابع قدميّ.

كان الظلام دامساً! تذكرت المظهر الحبري لتلك البركة. تذكرت أيضاً تفكيري في احتمال اختباء أحد تحت سطحها المظلم. ارتجفت! لكن، كلما انتظرت أكثر. قلّت المدة التي أستطيع قضاءها في الاستحمام. لذلك وضعت ملابسي النظيفة قرب حذائي. ظلت الصابونة ذات الرائحة الكريهة في يدي. ثم تقدمت إلى الأمام حذرة حتى وجدت حافة البركة.

كان الماء بارداً برودة لطيفة بالمقارنة مع الهواء المشبع بالبخار الحار في الكهف الخارجي. كان هذا لطيفاً حقاً! لكن هذا اللطف لم يمنع استمرار خوفي. كنت قادرة على الاستمتاع بالماء رغم هذا الخوف. مر عليّ زمن طويل لم أر فيه شيئاً لطيفاً. ما زلت أرتدي ثيابي القذرة كلها سرتُ في الماء الذي غمرني حتى الخصر. أحسست بتيارات الماء المتحركة تدور حول كاحلي وتصطدم بالصخور. سررت لأن الماء لم يكن راكداً. لو كان راكداً للوثته كله بقذارة جسدي!

قرفصت داخل ذلك الحبر حتى غمر الماء كتفيّ. ورحت أمرر الصابونة الخشنة فوق ملابسي معتقدة أن هذه هي الطريقة الأسهل للتأكد من تنظيفها جيداً. وعندما كانت الصابونة تلمس جلدي كان إحساس حرق طفيف يلسعني.

نزعت ثيابي الغارقة في الصابون عن جسدي ثم رحت أفركها تحت الماء. ثم شطفتها بالماء مرة بعد مرة حتى أتأكد من عدم بقاء أي أثر للعرق والدموع عليها. عصرت الثياب ثم وضعتها على الأرض إلى جانب حذائي.

كان الصابون يحرقني بقوة أكبر عندما يلمس جلدي العاري. لكن لسعه هذا كان محتملاً لأنه يعني إمكانية أن أصبح نظيفة من جديد وعندما انتهيت من الصابون أحسست بتيبّس في كل ناحية من نواحي

جلدي. أحسست أن جلد رأسي يحترق. يبدو لي أن أماكن الألم في رأسي هي أماكن الكدمات. هذا يجعلها أكثر حساسية من بقية الجلد. لا بد أنها ما زالت موجودة لم تشف حتى الآن. كنت سعيدة بأن أضع تلك الصابونة الحامضية الحارقة على الأرض الصخرية ثم أغسل جسدي بالماء مرة بعد مرة. كما غسلت ثيابي.

بدأت أخرج من تلك البركة بمزيج غريب من الراحة والأسف. كان الماء ممتعاً حقاً. كما كان ممتعاً شعوري بالنظافة أيضاً. رغم اللسعات التي أصابت جلدي. لكني شبعت من هذا العمى في الحمام المظلم. شبعت من الأشياء التي كنت أتخيل وجودها في الظلام. تحسست الأرض من حولي حتى وجدت الملابس الجافة فارتديتها مسرعة وأدخلت قدمي المبللتين في حذائي. حملت ثيابي المبللة بإحدى يدي وأمسكت الصابونة بحرص بين إصبعين من أصابع اليد الأخرى.

ضحك جيب عندما ظهرت أمامه. رأيت عينيه تتجهان إلى الصابونة التي أمسكتها بحذر بين أصابعي.

«إنها تحرق قليلاً أليس كذلك؟ إننا نحاول إصلاح هذا الأمر». مد لي يده بعد أن حماها بذيل قميصه فوضعت الصابونة فيها.

لم أجب عن سؤاله لأننا ما كنا وحيدين. رأيت صفاً من الناس ينتظرون صامتين من خلفه: خمسة أشخاص من الذين كانوا يشتغلون معنا في الحقل.

كان إيان واقفاً في أول الصف.

قال لي: «صار شكلك أفضل». لكن نبرة صوته لم تسمح لي بمعرفة ما إذا كان منزعجاً من هذه الحقيقة أو أنه فوجئ فقط.

رفع ذراعه ومد أصابعه الشاحبة الطويلة صوب عنقي. أجفلت وابتعدت عنه فأسقط يده سريعاً.

قال مدمدماً: «أنا آسف لهذا».

هل كان يعني أنه أسف لإخافتي الآن أم أنه آسف لأنه تسبب في هذه الكدمات التي ما زالت موجودة على رقبتي حتى الآن؟ لم أستطع تصور أنه يعتذر عن محاولة قتلي. من المؤكد أنه ما زال راغباً في موتي. لكني لم أساله. بدأت السير. سار جيب من خلفي.

قال جيب عندما كنا سائرين في الممر المظلم: «إذاً، لم يكن هذا اليوم سيئاً!».

تمتمت: «لم يكن سيئاً». لم يتم قتلي بعد كل حساب. هذا أمر جيد دائماً.

قال يعدني: «سيكون يوم الغد أفضل حتى من هذا اليوم. أنا أستمتع بالزراعة دائماً.. أستمتع برؤية أعجوبة تلك البذور التي تبدو ميتة ثم تظهر تلك الحياة كلها فيها. هذا ما يجعلني أشعر بأن العجوز الذاوي الذي هو أنا ما زال لديه بعض الإمكانيات. حتى إذا اقتصر دوره على أن يكون سماداً». ضحك جيب لنكته هذه.

وعندما وصلنا إلى كهف الحديقة الكبيرة، أمسك جيب بمرفقي ووجهني شرقاً بدلاً من التوجه غرباً.

«لا تحاولي القول إنك لست جائعة بعد كل هذا الحفر. ليس من مهامي أن آخذ الطعام إلى غرفة النوم. إننا ذاهبان لتناول بعض الطعام حيث يأكل الجميع».

كشّرت محدقة في الأرض لكني تركته يقودني صوب المطبخ.

من الجيد أن الطعام يتكرر هو نفسه دائماً. هذا لأنهم لو قدموا لي شريحة لحم أو مجموعة من الفاكهة الشهية لما كنت قادرة على تذوق طعم شيء منها أو الاستمتاع به. كان ابتلاع الطعام يتطلب تركيزاً كبيراً مني. كنت أكره إصدار أي صوت مهما يكن صغيراً في ذلك الصمت الميت الذي خيم على المكان فور ظهوري فيه. ما كان المطبخ مزدحماً.. عشرة أشخاص جالسين إلى الطاولات يأكلون لفافات الخبز

القاسية ويشربون حساءهم المائي. لكن ظهوري أوقَفَ كل حديث بينهم.
عجباً. كم أستطيع الاستمرار على هذا النحو!

كانت الإجابة: أربعة أيام على وجه التحديد!

اقتضى الأمر أربعة أيام أيضاً حتى أفهم ما كان جيب يحاول فعله. حتى أفهم الدافع الكامن وراء تحوله من مضيف لبق إلى صاحب عمل لجوج.

أمضيت اليوم الذي أعقب عزق التربة في وضع البذار ثم سقايته في الحقل نفسه. كانت مجموعة الناس مختلفة عن المجموعة التي عملت معي في اليوم السابق. تخيلت وجود نوع من التعاقب على المهام هنا. كانت ماغي في هذه المجموعة، وكذلك المرأة ذات لون الكراميل. لكني لم أعرف اسمها. كان الجميع يعملون صامتين تقريباً. بدا ذلك الصمت غير طبيعي. بدا احتجاجاً على وجودي.

كان إيان يعمل معنا رغم وضوح أن هذا لم يكن دوره. أقلقني ذلك!

كان عليّ تناول الطعام في المطعم مرة أخرى. كان جيمي هناك. وقد أنقذ الغرفة من الصمت الكامل. أعرف أنه حساس إلى درجة يستحيل معها ألا يلاحظ هذا الصمت الغريب، لكنه تجاهله عامداً متعمداً. بدا لي أنه يتظاهر بأننا، هو وجيب وأنا، موجودون وحدنا في غرفة المطبخ. كان يتحدث عن يومه في صف شارون. ثم راح يتشدق قليلاً عن بعض المشاكل التي تورط فيها عندما تكلم من غير إذن. ثم راح يتذمر من المهام التي كلفته شارون بها عقوبة على سلوكه هذا. وبخه جيب توبيخاً لطيفاً. بذل الاثنان جهداً طيباً حتى يتصرفا بكل طبيعي. أما أنا فما كنت قادرة على بذل هذا الجهد. وعندما سألني جيمي عن نهاري كان أفضل ما تمكنت من فعله هو أن أحدق بإصرار في الطعام وأجيبه بكلمة واحدة لا أكثر. أحسست أن هذا يحزنه، لكنه لم يضغط عليّ.

أما في الليل فقد كان الوضع مختلفاً. ما كان جيمي يتركني أتوقف عن الكلام حتى أرجوه رجاءً أن يسمح لي بالنوم. لقد عاد جيمي إلى

النوم في غرفته متخذاً جانب جارد من الفراش مصراً على أن أنام في قسمه هو من الفراش نفسه. هكذا كانت الأشياء كما تتذكرها ميلاني. وقد أعجبها هذا الترتيب.

كان جيب راضياً عن هذا الترتيب أيضاً: «هذا يريحني من مشقة البحث عمن يقوم بالحراسة. دع البندقية قريبة منك ولا تنس أنها موجودة هنا». هكذا قال لجيمي.

احتججت على وجود البندقية من جديد، لكن الرجل العجوز والصبي رفضا الإصغاء إليّ. وهكذا راح جيمي ينام واضعاً البندقية إلى جانبه بينما كنت أنا على الجانب الآخر. أخافني وجود البندقية. جاءتني الكوابيس بسببها.

في يوم العمل الثالث اشتغلت في المطبخ. عَلَّمني جيب كيف أعجن طحين الخبز الخشن. وكيف أجعله على شكل كرات متساوية ثم أتركه حتى يتخمر. وعلمني كيف أضرم النار في قعر الفرن الحجري لضخم بعد أن تغيب الشمس ويحل الظلام فيصير السماح بخروج الدخان ممكناً

وعند منتصف بعد الظهيرة، تركني جيب!

قال مدمدماً وهو يعبث بحزام البندقية: «سوف أذهب لجلب مزيد من الطحين».

أما النساء الثلاث الصامتات اللواتي كن يعجنّ إلى جانبي فلم ترفع أي منهن بصرها صوبي. كانت ذراعاي غارقتين حتى المرفقين في العجين اللزج، لكني بدأت بإزالة العجين عنهما حتى أستطيع اللحاق به.

ابتسم جيب ملقياً نظرة سريعة على النساء ثم هز رأسه لي. بعد ذلك، استدار على عقبيه ومضى خارج الغرفة سريعاً قبل أن أستطيع تحرير نفسي من العجين.

تجمدت في مكاني، غير قادرة على التنفس. حدقت في النسوة الثلاث: الشابة الشقراء التي رأيتها في غرفة الحمام. وذات الجديلة نصف الشائبة. والأم ذات العينين الناعستين. انتظرت أن يدركن أنهن

قادرات على قتلي الآن. لا وجود الآن لجيب. لا وجود للبندقية. يداي عالقتان في هذا العجين الصمغي. لا شيء يمكن أن يوقفهن.

لكنهن تابعن العجن من دون أن تبدو عليهن ملاحظة تلك الحقيقة الساطعة. وبعد لحظة طويلة، استأنفت العجن من جديد. قد ينبههن سكوني إلى هذا الوضع. لعل من الأفضل أن أستمر في العمل حتى لا ينتبهن.

غاب جيب دهراً! لعله كان يقصد أنه في حاجة إلى طحن مزيد من الحبوب من أجل الطحين. يبدو أن هذا هو التفسير الوحيد لغيابه الذي لا ينتهي.

قالت المرأة ذات الضفيرة نصف الشائبة تخاطب جيب عندما ظهر عائداً: «لقد غبت زمناً طويلاً». أدركت عند ذلك أن تخيلي لطول فترة غيابه لم يكن مجرد تخيل.

أسقط جيب كيساً ثقيلاً على الأرض فصدر عن اصطدامه صوت عميق: «لقد جلبت كثيراً من الطحين. حاولي حمله يا ترودي. إنه ثقيل!».

أجابته ترودي: «أظن أنك كنت في حاجة إلى استراحات كثيرة حتى تستطيع الوصول به إلى هنا».

ابتسم جيب لها: «بكل تأكيد».

بدأ نبض قلبي يهدأ بعد أن كان مرفرفاً مثل طائر طوال غيابه.

وفي اليوم التالي قمنا بتنظيف المرايا في كهف حقل الذرة. قال لي جيب إن عليهم القيام بهذه المهمة على نحو متكرر لأن مزيج الرطوبة والغبار يجعل المرايا تكتسي بطبقة عاتمة تجعل انعكاس ضوء الشمس شحيحاً. يصبح الضياء أقل من حاجة النباتات. كان إيان يعمل معنا من جديد. لقد تسلق السلّم الخشبي الطويل. أما أنا وجيب فكنا نمسك بالسلم محاولين تثبيته. كانت تلك مهمة صعبة نظراً لثقل وزن إيان ولسوء

توازن هذا السلّم المصنوع محلياً. وفي نهاية النهار صرت أحس الخدر والألم في ذراعي. في أطرافي كلها.

لم ألاحظ حتى انتهينا من العمل وتوجهنا إلى المطبخ أن قراب البندقية المزخرف الذي يحمله جيب دائماً كان فارغاً. لم تكن البندقية فيه.

شهقت بصوت مرتفع. تجمدت ركبتاي. توقف جسدي عن السير توقفاً تاماً.

سألني جيب ببراءة تامة: «ما الأمر يا جو؟».

لو لم يكن إيان واقفاً بجانبه لأجبته. لكنه كان واقفاً هناك يراقب سلوكي الغريب بافتتان ظاهر في عينيه الزرقاوين الحيتين.

هذا ما جعلني أكتفي بأن أرمي جيب بنظرة من عيني المتسعتين، نظرة كانت مزيجاً من اللوم وعدم التصديق. ثم بدأت السير معه ببطء من جديد وأنا أهز رأسي. ابتسم جيب.

قال إيان لجيب كما لو أنني صماء لا أسمعه: «لماذا شهقت؟».

قال جيب: «لست أدري!». لقد كذب كما يفعل البشر. بسهولة من دون أن يظهر عليه أي ارتباك.

لقد كان كاذباً ماهراً. بدأت أتساءل إن كان تركه البندقية اليوم، وتركي وحيدة في المطبخ أمس، وكل هذا الجهد الذي يبذله حتى يجعلني أمضي الوقت مع البشر، محاولة من جانبه لجعلهم يقتلونني من غير أن يفعل ذلك بنفسه. أكانت صداقته معي من صنع خيالي فقط؟ هل هي كذبة أخرى؟

كان هذا اليوم الرابع الذي أتناول طعامي فيه مع الناس في المطبخ.

دخلت مع جيب وإيان إلى تلك الغرفة الحارة الطويلة. دخلنا على حشد من البشر يتحدثون بأصوات خفيضة عن أحداث هذا اليوم.

لم يحدث شيء.

لم يحدث شيء.

لم يحدث صمت مفاجئ. لم يتوقف أحد ليرميني بنظرات جارحة. بدا أن أحداً لم يلاحظ دخولنا على الإطلاق.

وجّهني جيب إلى طاولة فارغة ثم ذهب فجلب خبزاً كافياً لنا نحن الثلاثة. جلس إيان إلى جانبي. ما كان يستدير صوب الفتاة الجالسة بعده إلا قليلاً. كانت تلك الفتاة هي الشابة الشقراء. لقد ناداها باسم بيج.

سألها: «كيف هي أحوالك يا بيج؟ كيف حالك بعد أن غاب آندي عنك كل هذه الفترة؟»

قالت له وهي تعض على شفتها: «لو كنت أستطيع الامتناع عن هذا القلق كله لكنت بخير».

قال لها يطمئنها: «سوف يعود قريباً. جارد يعيد الجميع سالمين دائماً. إنه موهوب حقاً. لم تقع أي حوادث معنا. أي مشكلات. منذ أن جاءنا جارد. سوف يكون آندي بخير».

جذب حديثه انتباهي عندما ذكر جارد. بل إن ميلاني التي صارت كثيرة الغياب هذه الأيام تحركت أيضاً. لكن إيان لم يقل أي شيء آخر. لقد اكتفى بأن ربت على كتف بيج ثم استدار فتناول طعامه من جيب.

جلس جيب إلى جانبي وراح يراقب الغرفة وعلى وجهه ملامح ارتياح عميق. نظرت في الغرفة أيضاً محاولة رؤية ما كان يراه. لا بد أن الغرفة تبدو على هذا الشكل عادة. عندما لا أكون موجودة. الظاهر اليوم أنني ما عدت أزعج أحداً! لا بد أنهم ملوا من تركي أقاطع مسار حياتهم الاعتيادي.

قال إيان لجيب: «يبدو أن الأمور تهدأ».

«كنت أعرف أنها ستهدأ. كلنا أشخاص منطقيون هنا».

عبست.

قال إيان ضاحكاً: «صحيح! صحيح في هذه اللحظة. أخي ليس هنا!».

وافقه جيب قائلاً: «بالضبط».

أدهشني أن يعتبر إيان نفسه من بين الأشخاص المنطقيين. هل لاحظ يا ترى أن جيب غير مسلح اليوم؟ كان الفضول يحرقني، لكني لم أكن أستطيع المغامرة بالإشارة إلى هذا الأمر إذا لم يشر إليه بنفسه.

استمرت الوجبة كما بدأت. الظاهر أن مفعول حضوري قد تلاشى

وعندما انتهينا من الطعام، قال جيب إنني في حاجة إلى الراحة ذهب بي حتى باب غرفتي. تصرف من جديد مثلما يتصرف أي شخص مهذب.

قال رافعاً يده إلى قبعته المتخيلة: «مساء الخير يا جو».

استنشقت نفساً عميقاً واستجمعت شجاعتي: «جيب. انتظر!».

«ماذا؟».

«جيب. .» ترددت محاولة العثور على طريقة مهذبة للتعبير عما في رأسي. «أنا لعل هذا الكلام حماقة مني، لكني كنت أظن أننا صديقان».

رحت أمعن النظر في وجهه باحثة عن أي تغيير يمكن أن يشير إلى احتمال كذبه عليّ. بدا لطيفاً فحسب، لكن ماذا أعرف عن ملامح الكذابين؟

«طبعاً نحن صديقان يا جو».

«إذاً، لماذا تحاول جعلي أتعرض للقتل؟»

انعقد حاجباه الكثيفان دهشة: «ولماذا تظنين هذا يا عزيزتي؟».

ذكرت الأسباب التي حملتني على هذا الظن: «لم تحمل بندقيتك معك اليوم. كما تركتني وحيدة في المطبخ أمس».

ابتسم جيب ابتسامة عريضة: «ظننت أنك تكرهين البندقية».

ظللت أنتظر إجابة حقيقية.

«اسمعي يا جو. لو كنت أريد موتك لما عشت بعد يومك الأول هنا».

تمتمت: «أعرف هذا!». بدأت أشعر بالحرج من غير أن أعرف السبب. «هذا ما يجعل الأمر محيراً إلى هذه الدرجة».

ضحك جيب مبتهجاً: «لا، لا أريد موتك! هذا هو الأمر كله يا طفلتي. إنني أحاول تعويدهم على رؤيتك في أرجاء هذا المكان. أحاول جعلهم يقبلون الوضع من دون أن يدركوا ذلك. هذا يشبه سلق الضفدع».

تغضن جبيني عندما رحت أحاول عبثاً أن أفهم هذا التشبيه الغريب.

قال جيب موضحاً: «إذا ألقيت ضفدعاً في وعاء فيه ماء يغلي فسوف يقفز الضفدع خارجاً من الماء. أما إذا وضعت الضفدع في وعاء فيه ماء فاتر ثم رحت تسخنين الماء بطيئاً فإن الضفدع لن يدرك ما يجري حتى يفوت الأوان. سلق الضفدع! المسألة مسألة تقدم تدريجي بطيء».

فكرت في ذلك لحظة. تذكرت كيف تجاهلني البشر في المطعم اليوم. لقد جعلهم جيب يعتادون وجودي. جعلني إدراك ما حدث أشعر بأمل غامض. من السخف أن أشعر بالأمل في وضعي هذا، لكن الأمل جاءني رغم كل شيء... جاءني فلوّن نظرتي إلى الأمور أكثر من ذي قبل.

«جيب!».

«ماذا؟».

«هل أنا الضفدع أم الماء؟».

ضحك جيب: «سوف أترك لك حل هذه الأحجية بنفسك. إن دراسة النفس أمر مفيد للروح». ضحك جيب من جديد. بصوت أعلى هذه المرة. ثم استدار ليذهب. «لا أقصد أي سوء».

«انتظر هل أستطيع أن أسألك سؤالاً آخر؟».

«طبعاً. أظن أن دورك في الأسئلة قد حان، بعد كل الأسئلة التي طرحتها أنا».

«ما الذي يجعلك صديقي يا جيب؟».

شد جيب على شفتيه لحظة. كان يفكر في الإجابة.

بدأ يقول: «تعرفين أنني رجل فضولي الطبع». أومأت برأسي. «لقد راقبتكم أنتم الأرواح فترة طويلة، لكن فرصة الحديث مع الأرواح لم تسنح لي من قبل. إن في رأسي أسئلة كثيرة. وهي تزداد على الدوام. ثم إنني أعتقد دائماً أن الشخص يستطيع التأقلم مع أي شيء إذا أراد ذلك حقاً. وأنا أحب أن أضع نظرياتي موضع الاختبار. انظري! ها أنت هنا. أنت واحدة من ألطف الفتيات اللواتي رأيتهن في حياتي. شيء مثير للاهتمام حقاً أن يكون للمرء صديق من الأرواح. وهذا ما يجعلني أرى نفسي مميزاً. لأنني نجحت في تكوين هذه الصداقة».

غمز لي بعينه وانحنى انحناءة كبيرة ثم استدار ومضى.

*

صحيح أنني صرت أفهم خطة جيب، لكن هذا لم يجعل مواصلة تطبيقيها أمراً أكثر سهولة.

ما عاد جيب يحمل البندقية معه أبداً. لست أدري أين هي الآن، لكنني كنت مسرورة لأن جيمي ما عاد ينام معها على أقل تقدير. كان وجود جيمي معي من غير حماية أمراً مقلقاً بعض الشيء، لكنني توصلت إلى أن الخطر المحدق به يكون أقل عند عدم وجود البندقية. لن يجد أحد حاجة إلى إيذائه عندما لا يشكل مصدر خطر. ثم إن أحداً لم يعد يأتي للبحث عني.

بدأ جيب يرسلني في مهمات صغيرة. كان يجعلني أعود جرياً إلى المطبخ لجلب قطعة خبز إضافية.. لأنه ما زال جائعاً! وكان يرسلني لأحضر دلواً من الماء لأن هذه الزاوية من الحقل ما زالت جافة! وكان يرسلني أيضاً لجلب جيمي من صفّه لأنه في حاجة إلى التحدث معه. اذهبي وانظري إذا كانت نباتات السبانخ قد ظهرت! اذهبي وتأكدي! هل تتذكرين طريقك في الكهوف الجنوبية؟ هل تنقلين هذه الرسالة إلى الطبيب؟

كنت أتصبب عرقاً لشدة خوفي كلما ذهبت لتنفيذ أمر من هذه الأوامر البسيطة. كنت أحاول إبقاء نفسي غير مرئية. أن أسير سريعاً قدر استطاعتي من دون أن أجري عبر الغرفة الكبيرة وعبر الممرات المظلمة. كنت أحاول الالتصاق بالجدار دائماً وإبقاء عيني مسدلتين إلى الأرض. في بعض الأحيان كانت أحاديث الناس تتوقف كما كان يحدث في الماضي، لكنهم كانوا يتجاهلون وجودي في معظم الأحوال. لم أشعر بخطر حقيقي إلا في مرة واحدة عندما قاطعت درس شارون لأجلب جيمي. أحسست أن النظرة التي رمتني شارون بها مصممة لأن تكون مقدمة لفعل عدواني. لكنها تركت جيمي يذهب معي مومئة برأسها بعد أن أفلحت في لفظ الكلمات القليلة التي كان عليّ قولها. وعندما صرنا وحيدين أمسك جيمي بيدي المرتجفة وقال لي إن شكل شارون يبدو على هذا النحو دائماً كلما قاطع أي شخص درسها.

أما أسوأ ما حصل فكان عندما أرسلني جيب للعثور على الطبيب لأن إيان أصر على الذهاب معي حتى يدلني على الطريق. أظن أنني كنت قادرة على رفض ذلك، لكن جيب لم يبدِ أي انزعاج من هذه الفكرة. كان معنى هذا أن جيب يثق بإيان. يثق بأنه لن يقتلني. ما كنت مرتاحة أبداً لأن أختبر هذه النظرية بنفسي، لكن الأمر بدا محتوماً. إذا كان جيب مخطئاً في الثقة بإيان، فسوف يجد إيان فرصته السانحة الآن أو في أية لحظة. وهكذا ذهبت مع إيان عبر الممر الجنوبي المظلم الطويل. كان الأمر يشبه تجربة اجتياز النار. بقيت حية خلال النصف الأول من المهمة. أبلغت الطبيب رسالة جيب. بدت المفاجأة على الطبيب عندما رأى إيان سائراً معي. لعل مخيلتي هي ما جعلتني أرى هذا، لكني أظن أنهما تبادلا نظرة لم أفهم معناها. كنت أتوقع أن يقيداني إلى إحدى طاولات العمليات في تلك اللحظة. ما زالت هذه الغرف في جناح الطبيب تشعرني بالخوف والغثيان.

لكن الطبيب شكرني وأرسلني عائدة كما لو أنه كان مشغولاً بأمر من

الأمور. لا أدري ما الذي كان يفعله حقاً!. كانت لديه كتب كثيرة مفتوحة وأكوام وأكوام من الأوراق التي بدا عليها أنها لا تحوي إلا رسوماً.

وفي طريق العودة تغلب فضولي على خوفي.

قلت: «إيان!». وجدت بعض الصعوبة في لفظ هذا الاسم للمرة الأولى.

«ماذا؟». فوجئ إيان بأنني نطقت اسمه.

«لماذا لم تقتلني حتى الآن؟».

نخر إيان قائلاً: «هذا سؤال مباشر!».

«لقد كنت قادراً على قتلي. أنت تعرف هذا. ربما ينزعج جيب، لكني لا أظن أنه سيطلق النار عليك». ما الذي أقوله؟ أتراني أحاول إقناعه بقتلي؟ عضضت على لساني.

قال إيان بصوت هادئ: «أعرف هذا»

ساد الهدوء لحظة من الزمن لم أكن أسمع فيها إلا صدى خطواتنا. خفيضاً مكتوماً. منعكساً على جدران الممر.

قال إيان أخيراً: «لا يبدو هذا عادلاً في نظري. لقد فكرت في الأمر كثيراً. لم أر سبباً يقنعني بأن الأمور ستكون أفضل إذا قتلتك. سيكون هذا شيئاً يشبه إعدام جندي بسبب جرائم الحرب التي ارتكبها جنراله. صحيح أنني غير مقتنع بنظريات جيب المجنونة كلها! لكنها ستكون أمراً لطيفاً إن صَحَّت. هذا مؤكد. لكن رغبتك في أن يكون شيء من الأشياء صحيحاً لا يعني أنه صحيح بالضرورة. وسواء كان جيب محقاً أو مخطئاً فأنا لا أراك تضمرين أي شر لنا. عليّ الاعتراف بأنني أراك مغرمة بذلك الصبي حقاً. هذا شيء غريب! لكن، ما دمتِ لا تشكلين أي خطر علينا فأنا أرى. أن قتلك قسوة لا مبرر لها».

فكرت في كلامه بعض الوقت. أحسست أنه وصف وضعي وصفاً دقيقاً.

كم يفاجئني أن إيان. إيان من بين هؤلاء البشر كلهم. لطيف إلى هذا الحد المفاجئ في داخله. لم أكن أتصوَّر أن القسوة يمكن أن تبدو شيئاً سلبياً في نظره.

كان ينتظرني صامتاً بينما رحت أفكر في هذه الأشياء كلها.

سألته من جديد: «إذا كنت غير راغب في قتلي فلماذا أتيت معي اليوم؟».

تريث من جديد قبل أن يجيبني.

قال متردداً: «أنا لست واثقاً من. يظن جيب أن الأمور قد هدأت، لكنني لست واثقاً تماماً من هذا الأمر. ثمة أشخاص لا يزالون. على أي حال، كنا نحاول، أنا والطبيب، الاهتمام بأمنك عندما نستطيع. هذا من باب التحسب فقط. لقد بدا لي إرسالك عبر هذا الممر الجنوبي نوعاً من المبالغة في الاعتماد على الحظ. لكن، هذا ما يفعله جيب دائماً.. إنه يبالغ في الاعتماد على الحظ. حتى الحدود القصوى!».

«أنت. أنت والطبيب. تحاولان حمايتي؟».

«عالم غريب. أليس كذلك؟».

مرت ثوانٍ قليلة قبل أن أستطيع الكلام.

قلت له أخيراً: «عالم غريب فعلاً».

## الفصل الخامس والعشرون

# إجبار

مر أسبوع. لعلهما أسبوعان! الظاهر أن لا معنى لحساب الزمن هنا. لا أهمية له. إن الوضع يصبح أكثر غرابة بلنسبة لي.

كنت أعمل مع البشر كل يوم، لكنني لم أكن مع جيب دائماً. وفي بعض الأيام كان إيان معي. في أيام أخرى كان معي الطبيب. وفي أيام كان معي جيمي وحده. قمت بتعشيب الحقول وتحضير العجين للخبز وغسل الأواني. نقلت الماء وطهوت حساء البصل وغسلت الملابس في الناحية القصية من البركة السوداء. وأحرقت يديّ أيضاً عندما ساهمت في صنع ذلك الصابون الحامضي. كان كل امرئ يقوم بدوره، وبما أني لا أملك حقاً في الوجود هنا فقد حاولت أن أعمل ضعفي ما يعمله أي شخص غيري. ما كنت قادرة على اكتساب مكان لي هنا. كنت أعرف هذا. لكني حاولت أن أجعل وجودي عبئاً خفيفاً قدر ما استطعت.

عرفت بعض الأشياء عن البشر المحيطين بي. كان أكثر معرفتي بهم آتياً من الإصغاء إليهم. عرفت أسماءهم. على الأقل. كان اسم المرأة التي بلون الكراميل ليلي، إنها من فيلادلفيا. كان لديها إحساس جاف بالدعابة. وكانت علاقتها بالجميع طيبة لأنها لم تكن لتنزعج من أحد. أما الشاب ذو الشعر الأسود الخشن. اسمه ويس. فكان يحدق فيها كثيراً، لكنها لم تكن توليه أي انتباه على ما يبدو. كان عمره ثمانية عشر عاماً وقد جاء إلى هنا هرباً من بلدة يوريكا في مونتانا. أما اسم الأم ذات العينين الناعستين فكان لوتشينا، وكان لها طفلان أشعيا وفريدوم. لقد ولد

فريدوم هنا في هذه الكهوف. قام الطبيب بتوليد أمه. ما كنت أرى هؤلاء الثلاثة كثيراً. الظاهر أن الأم كانت تحاول إبقاء أطفالها بعيداً عني إلى أقصى قدر ممكن في هذه المساحة الضيقة. أما الرجل الآخذ بالصبع. ذو الخدين الأحمرين فكان زوج ترودي. كان اسمه جيفري. وكانا دائماً يلازمان شخصاً أكبر سناً منهما اسمه هيث فقد كان هذا الرجل من أخلص أصدقاء جيفري أيام الطفولة. لقد هرب الثلاثة معاً. وأما الرجل الشاحب ذو الشعر الأبيض فكان اسمه وولتر كان مريضاً، لكن الطبيب لم يعرف علته. ما كان لديه طريقة لمعرفتها من غير فحوص واختبارات. وحتى لو عرف تشخيص المشكلة فهو لا يملك أدوية لمعالجتها! ومع تقدم مرض وولتر كان الطبيب يميل إلى الظن بأنه مصاب بالسرطان. لقد آلمني هذا. آلمني أن أشاهد شخصاً موشكاً على الموت بسبب شيء يسهل شفاؤه. كان وولتر سريع التعب لكنه كان مبتهجاً على الدوام. وأما المرأة البيضاء الشقراء فهي هيدي. إن لها عينين سوداوين عكس لون جلدها. وهي من كانت تجلب المياه في أول يوم لي في الحقل. عرفت أيضاً ترافيس وجون وستانلي وريد وكارول وفيوليتا وروث آن. عرفت أسماءهم كلهم. كان عددهم هنا خمسة وثلاثين شخصاً. مع حساب الأشخاص الستة الذين ذهبوا إلى الغارة. ومن بينهم جارد. إن في الكهوف الآن ثمانية وعشرون شخصاً إضافة إلى غريبة واحدة لا تلقى ترحيباً بينهم. أغلب الأحيان!

عرفت أيضاً مزيداً من المعلومات عن جيراني.

كان إيان وشقيقه كَايل يتقاسمان غرفة واحدة في الممر الذي أنام فيه. كان باب كهفهما هو ذلك الباب الحقيقي الذي رأيته من قبل. نام إيان مع ويس في ممر آخر احتجاجاً على وجودي هنا. لكنه عاد إلى غرفته بعد ليلتين فقط. أما الكهوف. الغرف المجاورة الأخرى. فهي خالية منذ فترة. قال لي جيب إن سكانها كانوا خائفين مني. وهذا ما جعلني أضحك. أيخاف تسعة وعشرون ثعباناً من فأر صغير واحد؟

لقد عادت بيج إلى غرفتها الآن. إنها الغرفة التي بجانبي. عادت إلى الكهف الذي تسكن فيه مع شريكها آندي. كانت حزينة كل الحزن على فراقه. وكانت ليلي مع هيدي في الكهف الأول. إنه الكهف ذو الملاءات المزينة بالزهور. كان هيث في الكهف الثاني الذي غطي بابه بألواح من الورق المقوى. وكان ترودي وجيفري في الكهف الثالث. إن لديهما لحافاً مخططاً. وكان ريد وفيوليتا في الكهف الذي يليه. كان بابهما مغلقاً بسجادة شرقية وسخة مهترئة.

أما الكهف الرابع في هذا الممر فهو كهف الطبيب وشارون. والخامس كهف ماغي. لكن أياً منهم لم يعد إلى مكانه.

كان الطبيب وشارون يعيشان معاً. وكانت ماغي، في لحظات مزاجها الفكاهي الساخر النادرة، تضايق شارون بالقول إن نهاية العالم حلت قبل أن تجد الرجل المناسب لها: كل أم تريد طبيباً لابنتها.

ما كانت شارون هي تلك الفتاة نفسها التي رأيتها في ذكريات ميلاني. أهو مفعول السنوات التي عاشتها وحيدة مع ماغي البغيضة؟ أهي تلك السنوات التي غيرتها فجعلتها نسخة عن أمها، لكنها أنضر ألواناً؟ ورغم أن علاقتها مع الطبيب كانت حديثة العهد في هذا العالم. أحدث مني أنا. فإنها لم تظهر أي علامة من علامات الرقة التي يجلبها الحب معه.

كنت أعرف تاريخ هذه العلاقة من خلال جيمي. نادراً ما نسيت شارون وأمها يوم كنت معهما في الغرفة. عندما كانتا تتحدثان بصوت منخفض. ما زالت هاتان الاثنتان تمثلان أقوى معارضة لوجودي هنا كانتا الشخصين الوحيدين اللذين ظلا مصرين على تجاهلي وعلى إظهار العداء نحوي.

سألت جيمي ذات مرة عن كيفية تمكُّن ماغي وابنتها من الوصول إلى هنا. هل عثرتا على جيب بجهدهما الخاص؟ هل سبقتا جارد وجيمي إلى

هنا؟ بدا جيمي مدركاً السؤال الحقيقي: هل كانت محاولة ميلاني الأخيرة للعثور عليهما عقيمة تماماً؟

قال لي جيمي إنها لم تكن كذلك. فعندما جعله جارد يرى الرسالة الأخيرة التي تركتها ميلاني قائلاً له إنها قد ضاعت. ظل زمناً حتى استطاع أن ينطق من جديد بعد قول هذه الكلمة. رأيت في وجهه ما فعلته هذه اللحظة بهما معاً. ذهبا للبحث عن شارون بنفسيهما. وعند العثور عليهما وضعت ماغي سيفاً عتيقاً على رقبة جارد عندما كان يحاول أن يشرح لها. كادت تقتله تقريباً!

لم يمض جارد وماغي زمناً طويلاً قبل أن يتمكنا من حل لغز خريطة جيب. لقد جاؤوا، أربعتهم، إلى هذه الكهوف قبل أن أنتقل من شيكاغو إلى سان دييغو.

عندما كنت أتحدث مع جيمي عن ميلاني لم أكن أشعر أن الأمر صعب كما يجب أن يكون صعباً. كانت ميلاني جزءاً من هذه الأحاديث على الدوام. كانت تخفف الألم. تخفف من إحساسي بغرابة الأمر. رغم أنها لم تكن تتحدث كثيراً. نادراً ما تتكلم الآن! وعندما تتكلم فإن صوتها يأتي مخنوقاً. وكنت من فترة لأخرى أشك في أنني أسمع صوتها. أشك في أن هذا الصوت ليس إلا صوت أفكاري عما أتوقع أن تفكر فيه. لكنها كانت تبذل جهداً من أجل جيمي. وعندما كنت أسمع صوتها كان جيمي موجوداً دائماً. وحتى عندما تصمت، كنا نحس وجودها أنا وجيمي.

سألني جيمي في ساعة متأخرة من إحدى الليالي: «ما الذي يجعل ميلاني هادئة إلى هذه الدرجة الآن؟». لتلك المرة فقط، لم يكن يمطرني بالأسئلة عن الخفافيش وآكلي النار. كنا متعبين. كان يوماً شاقاً طويلاً أمضيناه في اقتلاع الجزر. كان أسفل ظهري متشنجاً. يؤلمني.

«إن التحدث صعب عليها. إنه يتطلب منها جهداً أكثر مما يتطلبه الحديث مني ومنك وليس لديها الآن شيء ترغب في قوله بهذه القوة».

«وما الذي تفعله طوال الوقت؟».

«إنها تصغي. هكذا أظن! أظن أنني لا أعرف».

«هل تستطيعين سماعها الآن؟».

«لا».

تثاءبت، أما جيمي فكان هادئاً تماماً. ظننت أنه قد نام. بدأت أغفو أنا أيضاً.

همس جيمي فجأة: «هل تظنين أنها ستذهب؟ تذهب حقاً!» تهدّج صوته مع الكلمة الأخيرة.

لم أكن كاذبة، وحتى لو كنت كاذبة لا أظن أنني أستطيع لكذب على جيمي. حاولت عدم التفكير في النتائج المحتملة لمشاعِري تجاهه. حاولت عدم التفكير فيها. فما معنى أن يكون أعظم حب عرفته في تسع مرات عشتها. أول إحساس حقيقي بالأسرة. بغريزة الأمومة. موجهاً كله صوب نمط غريب من أنماط الحياة؟ دفعت تلك الفكرة بعيداً عن رأسي.

قلت له: «لست أدري!». ثم أضفت، لأن تلك هي الحقيقة، «أتمنى ألا تذهب».

«وهل تحبينها كما تحبينني؟ أم أنك تكرهينها، كما تكرهك هي؟».

«الأمر مختلف عن محبتي لك. ثم إنني لم أكرهها في يوم من الأيام. لم أكرهها حتى في البداية. كنت خائفة من وجودها. خائفة كثيراً! وكنت غاضبة لأنني كنت عاجزة عن أن أكون مثل الآخرين. بسببها هي. لكنني معجبة بذوي الإرادة، الأقوياء دائماً. إن ميلاني أقوى شخص عرفته على الإطلاق».

ضحك جيمي: «هل كنت خائفة منها؟».

«ألا تظن أن أختك يمكن أن تكون مخيفة؟ هل تذكر يوم مضيت في الوادي أبعد مما كان يجوز لك أن تمضي ثم أشبعتك لوماً وتعنيفاً عندما رجعت إليها؟».

ضحك جيمي لتلك الذكرى. كنت سعيدة لأنني حولت انتباهه عن ذلك السؤال المؤلم.

كنت حريصة على حفظ السلام مع جميع رفاقي الجدد بكل الطرق التي أستطيعها. كنت أظن أنني مستعدة لفعل أي شيء مهما يكن شاقاً أو مزعجاً، لكن الظاهر أنني كنت مخطئة.

قال لي جيب ذات يوم. لعل ذلك كان بعد أسبوعين من «هدوء الجميع»: «كنت أقول في نفسي. .».

الحقيقة أنني بدأت أكره هذه الكلمات الافتتاحية التي يستعملها جيب.

«هل تذكرين ما قلته لك عن التدريس هنا؟».

أجبته بكلمة واحدة: «نعم».

«طيب، ما رأيك في هذا؟».

ما كنت في حاجة إلى التفكير في الأمر: «لا!» جعل رفضي القاطع هذا موجة من الإحساس بالذنب تجتاحني. لم أرفض مهمة من قبل! كنت أرى أن رفض أي مهمة شيء أناني! لكن من الواضح أن هذا الأمر لم يكن مثل بقية الأمور. لم تطلب مني الأرواح أبداً أن أفعل شيئاً انتحارياً إلى هذه الدرجة.

نظر جيب إليّ عابساً مقطباً حاجبيه الكثيفين: «لم لا؟».

«أتظن أن هذا يمكن أن يعجب شارون؟» طرحت هذا السؤال بصوت محايد معتدل. كان هذا مثالاً واحداً، لكن. لعله أقوى الأمثلة على الإطلاق.

أومأ جيب برأسه. ما زال عابساً. لكنه أدرك فكرتي.

قال مغمغماً: «هذا من أجل الصالح العام».

قلت بحدة: «الصالح العام! أليس قتلي يخدم الصالح العام أيضاً؟».

قال: «جو. هذا قصر نظر!». راح يجادلني كما لو أن إجابتي

كانت محاولة جدية لإقناعه. «إن وجودك معنا هنا يمثل فرصة فريدة للتعلم. حرام أن نضيع هذه الفرصة».

«لا أظن حقاً أن أي شخص هنا يريد أن يتعلم شيئاً مني. لست أرى غضاضة في التحدث معك أو مع جيمي. .».

قال جيب ملحّاً: «إن ما يريدونه ليس مهماً. المهم هو ما ينفعهم. عليهم أن يعرفوا المزيد عن هذا الكون. وعليهم أن يعرفوا المزيد عن سكان كوكبنا الجدد».

«كيف يساعدهم هذا يا جيب؟ أتظن أنني أعرف شيئاً يمكنه أن يدمر الأرواح؟ يمكنه أن يقلب اتجاه المد؟ لقد انتهى الأمر يا جيب!».

قال لي مبتسماً: «لم ينته الأمر لأننا ما زلنا هنا!». أدركت من ابتسامته أنه يتعمد مضايقتي. «لا أتوقع منك أن تنقلبي إلى خائنة وأن تعطينا سلاحاً متميزاً. أظن أن علينا أن نعرف المزيد عن العالم الذي نعيش فيه».

أجفلت عندما سمعت كلمة خائنة: «لا أستطيع إعطاءكم سلاحاً حتى إذا أردت ذلك يا جيب. ليست لدينا نقطة ضعف قاتلة. شيء من قبيل عقب أخيل! ليس لنا أعداء مهمون في الفضاء يمكن أن يأتوا إلى نجدتكم. ما من فيروسات يمكن أن تمحونا من الوجود وتترككم أحياء. آسفة!».

«لا تضخمي الأمر!». راح يربت بقبضة يده على ذراعي بطريقة عابثة. «قد يفاجئك هذا! قلت لك إن الوضع يصبح مملاً هنا. وقد يكون الناس راغبين في الاستماع إلى قصصك أكثر مما تتخيلين».

كنت أعرف أن جيب لن يترك هذا الأمر. هل يمكن أن يقبل بالهزيمة؟ أشك في هذا.

كنت أجلس مع جيب وجيمي عادةً وقت تناول وجبة الغداء. إذا لم يكن جيمي في المدرسة وإذا لم يكن مشغولاً بشيء من الأشياء. كان إيان يجلس إلى جانبنا دائماً. رغم أنه لم يكن يجلس معنا حقاً. ما

كنت أستطيع القبول تماماً بفكرة دور الحارس الشخصي الذي عَيَّن نفسه بنفسه. بدا هذا جيداً جداً، جيداً على نحو غير حقيقي. بل بدا زائفاً بكل وضوح، وفق فلسفة بني البشر.

بعد أيام قليلة من رفضي طلب جيب بأن أعلّم البشر «من أجل المصلحة العامة»، جاء الطبيب فجلس إلى جانبي أثناء وجبة العشاء.

ظلت شارون جالسة في مكانها في تلك الزاوية الأكثر بعداً عن مكان جلوسي المعتاد. إنها وحيدة اليوم من غير أمها. لم تستدر لتنظر إلى الطبيب وهو يسير في اتجاهي. كانت قد ربطت شعرها الملون وجمعته خلف رأسها فرأيت أن رقبتها متيبسة. متشنجة. ورأيت كتفيها متوترتين. لم تكن سعيدة! جعلني هذا راغبة في الذهاب على الفور قبل أن يتمكن الطبيب من قول ما يريد قوله لي. أردت الذهاب حتى لا تستطيع اعتباري متآمرة معه. لكن جيمي كان معي! أمسك بيدي عندما رأى تلك النظرة المذعورة تظهر في عيني. لقد نشأت لديه قدرة استثنائية غير طبيعية على الإحساس بتوتري. تنهدت وبقيت جالسة في مكاني. لعلني يجب أن أقلق لأنني صرت عبدة لرغبات هذا الطفل.

قال الطبيب بصوته العادي جالساً بجانبي: «كيف هي أحوالك؟».

كان إيان جالساً على بعد أقدام قليلة منا فاستدار بجسده حتى بدا كأنه جزء من المجموعة.

رفعت كتفي.

قال جيمي: «لقد قمنا بإعداد الحساء اليوم. ما زال البصل يحرق عيني حتى الآن». رفع الطبيب يديه المحمرتين إلى الأعلى قائلاً: «الصابون!».

ضحك جيمي: «أنت الفائز!»

انحنى الطبيب انحناءة مازحة ثم استدار نحوي قائلاً: «جو! لدي سؤال أريد طرحه عليك. . .» ثم سكت من دون إتمام جملته.

رفعت حاجبيّ متسائلة.

«لقد كنت أتساءل. في جميع الكواكب التي حللت بها، ما هو الجنس الذي تعتقدين أنه أقرب إلى بني البشر؟».

رفرفت بعيني دهشة: «لماذا؟».

«إنه فضول بيولوجي قديم عندي. أعتقد أنني كنت أفكر في أطبائكم. من أين حصلوا على معرفة كيفية شفاء الأمراض بدلاً من الاكتفاء بمعالجة الأعراض كما قلت لي؟». كان الطبيب يتحدث بصوت أعلى من المقدار الضروري. وكان صوته المعتدل مسموعاً إلى مسافة أكبر من المعتاد. رفع كثير من الناس رؤوسهم. ترودي وجيفري وليلي وولتر. شبكت ذراعي فوق صدري محاولة الانكماش. محاولة أن أشغل حيزاً أقل من الفراغ: «هذان سؤالان مختلفان!».

ابتسم الطبيب وأشار لي بيده أن أتابع كلامي.

شد جيمي على يدي.

تنهدت: «لعله جنس الدببة على كوكب الضباب».

همس جيمي: «حيث توجد الوحوش ذات المخالب؟».

أومأت برأسي.

قال الطبيب ملحّاً: «وما وجه الشبه؟».

اتسعت عيناي دهشة. شعرت لمسة جيب في هذا الحديث، لكني تابعت كلامي: «إن هذه الدببة قريبة إلى الثدييات من أوجه كثيرة. لها فراء ودم حار! إن دمها ليس مماثلاً لدمكم، لكنه يقوم بالمهمة نفسها من حيث الأساس. كما أن لها مشاعر مماثلة. ولديها الحاجة نفسها إلى التفاعل الاجتماعي. ولديها أطراف مبدعة. .».

انحنى الطبيب إلى الأمام مسحوراً. أو لعله يتظاهر بذلك. «مبدعة؟ كيف هذا؟».

نظرت إلى جيمي: «أنت تعرف يا جيمي. فلماذا لا تخبر الطبيب؟»

«قد أخطئ».

«لن تخطئ».

نظر جيمي إلى الطبيب فأومأ له الطبيب برأسه.

«لا بأس، انظر. إن لديها هذه الأيدي الرهيبة». استولت الحماسة على جيمي فوراً. «مفاصلها مزدوجة! وهي قادرة على الانثناء في الاتجاهين». بسط أصابعه وتظاهر بأنه يحاول جعلها تنثني إلى الخلف. «أحد جانبي الكهف طري مثل راحة كفي، لكن في الجانب الآخر منه حواف قاطعة كالسكاكين! إنها قادرة على قطع الجليد. على تشكيله ونحته. وهم يصنعون مدناً كلها قلاع كريستالية لا تذوب أبداً! وهي جميلة، أليست جميلة يا جو؟». نظر إليّ مطالباً بتأكيد مني.

أومأت برأسي: «إنهم يرون طيفاً مختلفاً من الألوان. يرون الجليد مليئاً بأقواس قزح. وهم يفخرون بمدنهم. يحاولون دائماً جعلها أكثر جمالاً وقد سمعت أن دباً منهم كان يدعى. كان يدعى باسم من قبيل حائك الضياء، لكن الاسم يبدو أحسن سبكاً في لغتهم! كان يدعى بهذا الاسم لأن الجليد كان يبدو كأنه يعرف ما يريده منه فيشكل نفسه بنفسه وفق أحلامه. لقد رأيته مرة ورأيت إبداعاته. هذه واحدة من أجمل ذكرياتي».

سأل إيان بصوت هادئ: «هل يحلمون؟».

ابتسمت وقلت: «ليست أحلامهم في مثل حيوية أحلام البشر؟»

«كيف يحصل أطباؤكم على المعرفة بفيزيولوجية الأجناس الجديدة عليهم؟ لقد جاؤوا إلى هذا الكوكب عارفين بفيزيولوجية البشر. لقد راقبت بداية الأمر. راقبت مرضى المستشفى يخرجون كلهم من المستشفى معافين أصحاء. .» عبس وجهه فتجمعت غضون متقاطعة فوق جبينه الضيق. كان يكره الغزاة، كما يكرههم الجميع، لكنه خلافاً للآخرين، كان يحسدهم على معارفهم أيضاً.

ما كنت أريد الإجابة عن هذا السؤال. كان الجميع مصغياً إلينا عند تلك النقطة، وما كانت هذه حكاية جميلة مثل حكاية الدببة التي تنحت الجليد. كانت هذه قصة هزيمة بني البشر.

انتظرني الطبيب، عابساً.

غمغمت: «إنهم. إنهم يأخذون نماذج».

ابتسم إيان وقد أدرك قصدي: «الذين اختطفهم الغرباء!».

تجاهلته.

شد الطبيب على شفتيه: «أوضحي ذلك!».

ذكّرني الصمت الذي ران على الغرفة بأول أيامي هنا.

سألني الطبيب: «أين بدأ جنسكم؟ هل تتذكرين هذا؟ أقصد هل تعرفون كيف نشأتم وتطورتم؟».

أجبته مومئة برأسي: «في كوكب أوريجين. ما زلنا نعيش هناك. وهناك ولدت أنا».

أضاف جيمي: «هذا وضع خاص بعض الشيء. من النادر مقابلة شخص ولد في كوكب أوريجين، أليس كذلك؟ يحاول معظم الأرواح البقاء هناك، أليس كذلك يا جو؟». لم ينتظرني حتى أجيب عن سؤاله. كنت قد بدأت أندم على الردّ على أسئلته على ذلك النحو الشامل كل ليلة. «لذلك. فإن كل من يذهب منهم إلى كوكب آخر يصبح. شخصية مشهورة! أو يصبح كأنه فرد من أفراد الأسرة الملكية».

أحسست بحرارة في وجنتيّ.

تابع جيمي يقول: «إنه مكان جميل. فيه غيوم كثيرة لها طبقات متعددة الألوان. وهو الكوكب الوحيد الذي تستطيع الأرواح أن تعيش فيه خارج أجساد مضيفيها فترة طويلة. إن المضيفين في كوكب أوريجين جميلون أيضاً. ولهم نوع من الأجنحة وكثير من الأهداب الطويلة، إضافة إلى عيون فضية كبيرة».

كان الطبيب منحنياً إلى الأمام واضعاً وجهه بين يدي: «وهل يعرفون كيف تشكلت العلاقة بين المضيفين والطفيلين؟ كيف بدأ الاستيطان؟».

نظر جيمي إليّ رافعاً كتفيه.

أجبت متمهلة. ما زلت غير راغبة في الإجابة: «لقد كنا كذلك

دائماً! كنا كذلك منذ أن كان لدينا الذكاء الكافي لمعرفة أنفسنا على الأقل. لقد تم اكتشافنا من قبل جنس آخر الكواسر، هكذا ندعوهم. إننا ندعوهم بهذا الاسم بسبب طباعهم لا بسبب شكلهم. كانوا. غير لطيفين! وبعد ذلك اكتشفنا أننا قادرون على الاتحاد معهم كما كنا نتحد مع مضيفينا الأصليين. وما إن سيطرنا عليهم حتى استطعنا الاستفادة مما لديهم من تكنولوجيا. لقد استولينا على كوكبهم أولاً، ثم لحقنا بهم حتى كوكب التنين ثم إلى عالم الصيف. تلك أماكن جميلة كان الكواسر يسلكون فيها سلوكاً غير لطيف أيضاً. ثم انطلقنا في الاستيطان. كان مضيفونا يتكاثرون بسرعة أقل من سرعة تكاثرنا. كما كانت أعمارهم قصيرة أيضاً. لذلك رحنا نستكشف الكون أكثر فأكثر .».

توقفت عن الكلام لكثرة العيون المحدقة في وجهي. وحدها شارون تابعت النظر بعيداً عني.

قال إيان بصوت هادئ: «أنت تتكلمين عن هذا كأنك كنت موجودة فمتى حدث هذا إذاً؟».

«حدث بعد زمن الديناصورات هنا، لكنه كان قبل ولادتي. لم أكن موجودة، لكني أتذكر أشياء كانت جدة أمي تتذكرها».

سألني إيان مائلاً صوبي. أحسست بعينيه الزرقاوين الذكيتين تخترقان وجهي: «وكم يبلغ عمرك الآن؟».

«لست أدري كم عمري بالسنوات الأرضية»

قال ملحّاً: «ولو بشكل تقريبي».

«أظن أنها آلاف السنين». رفعت كتفي بحيرة. «لا أعرف الأزمان التي أمضيتها في حالة السبات».

تراجع إيان مندهشاً.

همس جيمي: «واو! هذا كثير جداً».

همست له: «لكنني أصغر منك من نواح كثيرة! لا يبلغ عمري سنة واحدة حتى الآن. أشعر أنني طفلة صغيرة طوال الوقت».

ارتسم طيف ابتسامة على وجه جيمي. لقد أعجبته فكرة أن يكون أكبر مني.

سألني الطبيب: «كم تبلغ أعمار بني جنسك عادة؟».

أجبته: «ليست لدينا أعمار! ما دام مضيفنا موفور الصحة فإننا نستمر في العيش. إلى الأبد».

رددت جوانب الكهف أصداء همس خافت. غاضب! خائف! مشمئز! لست أدري. أحسست أن إجابتي لم تكن حكيمة. وأدركت ما قد تعنيه هذه الإجابة بالنسبة إليهم.

«هذا جميل!» جاءت هذه الكلمة الحانقة الخفيضة من جهة شارون، لكنها لم تستدر ناحيتي.

شد جيمي على يدي من جديد لأنه رأى في عيني تلك الرغبة في الهرب. لكني سحبت يدي من بين يديه بحركة لطيفة.

همست: «لم أعد جائعة!». قلت هذا رغم أنني لم آكل شيئاً من خبزي تقريباً. نهضت واقفة واستندت إلى الجدار ثم مضيت خارجة من المكان.

لحق بي جيمي على الفور. أدركني عند الحقل الكبير وناولني ما بقي من الخبز.

قال لي: «كان هذا مثيراً للاهتمام حقاً! لا أظن أن أحداً قد انزعج كثيراً».

«لقد أرسل جيب الطبيب ليتحدث معي، أليس كذلك؟».

«أنت تروين قصصاً جيدة. وما إن يعرف الجميع ذلك حتى يصبحون كلهم راغبين في سماعها. تماماً مثلما حدث معي ومع جيب».

«وماذا لو كنت غير راغبة في رواية هذه القصص؟».

عبس وجه جيمي: «في هذه الحالة، أعتقد. أنك لست مجبرة على روايتها. لكني أحس أنك لا تنزعجين من رواية القصص لي».

«هذا أمر مختلف. أنت تحبني!». كنت على وشك أن أقول له: أنت لا تريد قتلي. لكن انعكاس هذه الجملة عليه سيكون سيئاً.

«ما إن يعرفك الناس حتى يحبوك كلهم. إن إيان والطبيب يحبانك أيضاً».

«إيان والطبيب لا يحبانني يا جيمي. إن لديهما فضولاً مريضاً فحسب!».

«هل تظنين هذا؟».

قلت بصوت كالأنين: «أوف!». كنا قد وصلنا إلى غرفتنا. أزحت الستارة جانباً ورميت نفسي على الفراش. جلس جيمي إلى جانبي بحركة أكثر هدوءاً ثم لف ركبتيه بذراعيه.

قال راجياً: «لا تكوني مجنونة. إن جيب يقصد خيراً»

لم أجبه إلا بأنين منزعج.

«لن يكون الأمر سيئاً».

«سوف يفعل الطبيب مثلما فعل اليوم كلما ذهبت إلى المطبخ، أليس كذلك؟».

أومأ جيمي برأسه ناعساً: «أو إيان. أو جيب».

«أو أنت».

«إننا جميعاً نحب أن نعرف».

تنهدت ثم انقلبت على بطني: «هل يكون جيب مصراً على الوصول إلى ما يريد كل مرة؟».

فكر جيمي قليلاً ثم أومأ برأسه: «في معظم الأحيان. نعم».

تناولت لقمة كبيرة من قطعة الخبز. وعندما انتهيت من مضغها قلت: «أظن أنني سوف أتناول طعامي هنا من الآن فصاعداً».

«سوف يطرح عليك إيان أسئلة يوم غد عندما تقومون بتعشيب حقل السبانخ. إن جيب لا يدفعه إلى طرح الأسئلة عليك. هو من يريد طرحها!».

«عظيم! هذا رائع!»

«أنت ماهرة في السخرية حقاً! كنت أظن أن الطفيليين. أقصد الأرواح لا يحبون المزاح السلبي. إنهم لا يحبون إلا الأشياء المفرحة»

«لكنهم يتعلمون سريعاً هنا أيها الفتى».

ضحك جيمي ثم أمسك بيدي: «أنت لا تكرهين الوضع هنا، أليس كذلك؟ أنت لست بائسة، أليس كذلك؟».

ظهر الاضطراب في عينيه الواسعتين البنيتين.

ضغطت يده على وجهي وقلت له: «أنا بخير». وفي تلك اللحظة، كنت أعني هذه العبارة تماماً.

## الفصل السادس والعشرون

# عودة

لقد صرت المعلمة التي أرادها جيب. صرت المعلمة من غير أن أوافق على ذلك فعلاً.

كان «صفي» غير رسمي! كنت أجيب عن أسئلتهم كل ليلة بعد العشاء. وقد اكتشفت أن إيان والطبيب وجيب صاروا مستعدين للكف عن طرح الأسئلة أثناء النهار لكي أستطيع التركيز على أعمالي. ما دمت مستعدة للإجابة عن الأسئلة ليلاً. كنا نجتمع في المطبخ كلنا. وكنت أحب أن أساهم في إعداد الخبز أثناء الحديث. كان هذا يوفر لي ذريعة للتوقف قليلاً قبل الإجابة عن الأسئلة الصعبة. وكان يتيح لي شيئاً أنظر إليه عندما لا أرغب في النظر إلى عيني أحد منهم. كان الأمر منسجماً في نظري: كانت كلماتي مزعجة لهم أحياناً، لكن أفعالي كانت في صالحهم دائماً.

ما كنت راغبة في الإقرار بأن جيمي كان محقاً. من الواضح أن الناس لا يحبونني. إنهم لا يستطيعون محبتي. إنني لست واحدة منهم. كان جيمي يحبني، لكنه كان يحبني بسبب تفاعل كيميائي غريب لا علاقة له بالمنطق. وكان جيب يحبني أيضاً، لكن جيب مجنون! أما بقية هؤلاء الناس فما كان لديهم سبب لمحبتي.

لا، ما كان أحد منهم يحبني. لكن الأمور تغيرت عندما بدأت أتحدث إليهم.

كان أول شيء لاحظته في صباح اليوم التالي لحديثي مع الطبيب أثناء

العشاء. كان ذلك في غرفة الاستحمام السوداء عندما كنت أغسل الملابس مع ترودي وليلي وجيمي.

سألتني ترودي من على شمالي: «هل تناولينني الصابون من فضلك يا جو؟».

سرى تيار كهربائي في جسدي عندما سمعت اسمي ينطقه صوت أنثوي. ناولتها الصابون ثم غسلت لسعة الصابون عن يدي.

قالت: «شكراً».

قلت متمتمة: «أهلاً وسهلاً». تكسّر صوتي عند المقطع الأخير.

وبعد يوم من ذلك صادفت ليلي في طريقي لملاقاة جيمي قبل العشاء.

قالت مومئة برأسها: «مساء الخير يا جو».

أجبتها من حنجرة جافة: «مساء الخير».

وسريعاً، ما عاد إيان والطبيب يطرحان الأسئلة وحدهما في الليل. أدهشني ولتر المريض المنهك: كان أكثرهم كلاماً. كان يكسو وجهه ظل رمادي مقلق، لكنه كان مفتوناً إلى أقصى حد بالخفافيش وبالعالم المغنّي. كان هيث صامتاً في العادة، وكان يترك ترودي وجيفري يتحدثان نيابة عنه، لكنه كان متحدثاً طلقاً في المساء. كان مسحوراً بعالم النار، ورغم أن رواية قصص هذا العالم كانت الأقل راحة بالنسبة لي فقد كان الرجل يمطرني بالأسئلة حتى يوقن أنه سمع من فمي كل ما أعرفه عن الأمر. أما ليلي فكانت مهتمة بآلية حدوث الأشياء. كانت تريد معرفة كيفية تمكّن سفننا من نقلنا من كوكب إلى كوكب آخر. كانت تريد معرفة ما يتعلق بقادة هذه السفن، وبنوع وقودها. وكانت هي من سألني عن حاويات التبريد. لقد رأوا هذه الحاويات كلهم لكنهم لم يفهموا الغاية منها. كانت تجلس عادة إلى جانب ليلي. وكانت تسألني عن هذا العالم لا عن الكواكب الأخرى. كيف تجري الأمور في هذا العالم؟ كيف نعيش من غير نقود ومن غير أجر مقابل عملنا؟ وكيف لا ينفرط عقد مجتمع

الأرواح؟ حاولت أن أشرح لها أن الأمر ليس كبير الاختلاف عن الحياة في هذه الكهوف. ألسنا نعمل هنا كلنا من غير نقود؟ ألسنا نتشارك إنتاج عملها على نحو متساوٍ؟

قاطعني قائلاً وهو يهز رأسه: «نعم، لكن الأمر مختلف هنا. إن لدى جيب بندقية من أجل المتكاسلين».

نظر الجميع إلى جيب فغمز لهم بعينه، ثم ضحكوا جميعاً.

كان جيب يحضر هذه الأمسيات دائماً. لكنه ما كان يشارك فيها. كان يجلس مفكراً في آخر الغرفة، ويبتسم أحياناً.

لقد كان محقاً بشأن «عنصر التسلية». هذا غريب. إن لنا أرجلاً كلنا! لكن الوضع الآن ذكّرني بأعشاب البحر الثابتة في أماكنها. كان لدينا اسم خاص لمن يسلينا هناك. كان شيئاً من قبيل «صاحب الحكايات». وهذا ما جعل تحولي إلى مدرّسة على الأرض تغيراً غير كبير بالنسبة لي عندما كنت أمارس التدريس في الجامعة على الأقل. كان الوضع مماثلاً في المطبخ بعد العشاء. مع رائحة الدخان ورائحة الخبز الناضج تملأ الغرفة. كان الجميع يجلسون هنا. ثابتين كأنهم مزروعين في أماكنهم. كانت قصصي جديدة أحياناً. كانت شيئاً يستطيع هؤلاء الناس التفكير فيه إلى جانب مهماتهم في العمل اليومي المرهق. إلى جانب تلك الوجوه التي تتكرر كل يوم. إلى جانب ذكرياتهم عن وجوه أخرى يجلب تذكرها الأسى إلى نفوسهم. وكذلك إلى جانب الخوف نفسه واليأس نفسه. العنصران اللذان صارا رفيقين دائمين لكل شخص هنا. وهكذا صار المطبخ ممتلئاً دائماً بمن يحضرون دروسي هذه. وحدهما شارون وماغي كانتا غائبتين دائماً!

كنت قد بلغت أسبوعي الرابع في هذه المهنة الجديدة، مهنة المدرسة غير الرسمية، عندما تغيرت الحياة في الكهوف مرة أخرى.

كان المطبخ مزدحماً، كعادته كل يوم. لكن كان جيب والطبيب الشخصين الوحيدين الغائبين، إضافة إلى الغائبتين الدائمتين. وكانت على

الطاولة أمامي صينية معدنية تحمل كتل العجين الداكنة المتخمرة المنتفخة. كانت هذه القطع جاهزة للفرن، وسوف أضعها فيه فور نضج الكمية الموجودة داخل الفرن الآن. كانت ترودي تنظر في الفرن من دقيقة لأخرى حتى تتأكد من عدم احتراق الخبز.

وكنت كثيراً ما أجعل جيمي يتحدث بدلاً عني عندما يعرف القصة المطلوبة. كنت أحب مشاهدة الحماسة التي تضيء وجهه عندها. وكنت أحب مشاهدته يستخدم يديه لرسم صور في الهواء. وفي هذه الليلة كانت هيدي راغبة في معرفة المزيد عن الدلافين، لذلك طلبت من جيمي أن يجيب عن أسئلتها قدر ما يستطيع.

كان البشر دائماً يتحدثون بحزن عندما يسألون عن فتوحاتنا الجديدة لقد رأوا في الدلافين مرآة لأنفسهم في السنوات الأولى من الاحتلال. وكانت عينا هيدي القاتمتان. المحزنتان تحت شعرها الأشقر المبيض. مليئتين بالتعاطف عندما طرحت أسئلتها عن الدلافين.

«تبدو هذه الدلافين أشبه بحشرات كبيرة طائرة منها بالأسماك، أليس هذا صحيحاً يا جو؟». كان جيمي يطالبني بتأكيد ما كان يقوله دائماً، رغم أنه ما كان ينتظر إجابتي أبداً. «إن جسمها مغطى بالجلد رغم ذلك. ولها ثلاثة أزواج من الأجنحة، أو أربعة، أو خمسة، حسب عمر الدلفين، أليس كذلك؟ وهذا ما يجعلها تطير عبر الماء نوعاً ما. إنه أخف من الماء الذي نعرفه هنا. أقل كثافة. ولها خمس أرجل أو سبع أو تسع، حسب جنسها، أليس كذلك يا جو؟ إنها ثلاثة أجناس مختلفة ولديها أذرع طويلة حقاً مزودة بأصابع قوية تستطيع صنع مختلف أنواع الأشياء. إنها تبني مدنها تحت الماء. تصنعها من نباتات قاسية تنمو هناك، نباتات تشبه الأشجار، لكنها ليست أشجاراً في الحقيقة. وهي لا ترتحل بعيداً كما نفعل نحن، صحيح يا جو؟ إنها لم تصنع سفناً فضائية كما فعلنا وليس لديها هواتف ولا اتصالات. كان البشر أكثر تقدماً منها».

أخرجت ترودي صينية الخبز الناضج من الفرن فانحنيت لأضع صينيه

العجين المختمر بدلاً منها. كان الأمر يقتضي توازناً جيداً من أجل وضعها في المكان الصحيح.

بينما كنت أتعرق من الحرارة عند الفرن، سمعت نوعاً من الضوضاء خارج المطبخ. كان صدى الصوت يتردد آتياً من مكان آخر في الكهوف. وكان الحكم على مدى بعد هذه الأصوات صعباً بسبب كثرة تردد أصدائها مع ما يخلقه هذا من اختلاط في السمع.

صاح جيمي من خلفي: «آه!». التفتُّ فلم أر إلا مؤخرة رأسه عندما كان مندفعاً خارج الباب.

انتصبت واقفة ومضيت خطوة واحدة خلفه. دعتني غريزتي إلى اللحاق به.

قال إيان: «انتظري! سوف يعود. أخبرينا المزيد عن الدلافين».

كان إيان جالساً على مقعد قريب من الفرن. مكان حار ما كنت لأختار الجلوس فيه لو كنت مكانه. كان قريباً مني إلى حد سمح له بأن يرفع يده فيلمس معصمي. ابتعدت ذراعي عن هذه اللمسة غير المتوقعة ابتعاداً تلقائياً، لكني بقيت في مكاني.

سألت: «ما الذي يجري هنا؟». ما زلت أسمع نوعاً من اللغط. أظن أنني سمعت صوت جيمي المستثار وسط ذلك الخليط من الأصوات.

رفع إيان كتفيه: «من يدري؟ لعله جيب. .» رفع كتفيه من جديد كما لو أنه غير مهتم بتبيّن حقيقة الأمر كان غير مبالٍ، لكني أحسست توتراً في عينيه لم أستطع فهمه.

كنت واثقة من أنني سوف أعرف حقيقة الأمر في وقت قريب جداً. لذلك رفعت كتفي أيضاً وبدأت أشرح العلاقات العائلية المعقدة بين الدلافين، وكنت في الوقت نفسه أساعد ترودي على وضع أرغفة الخبز الحارة في أوعية بلاستيكية كبيرة.

«ستة من الأجداد التسعة. إذا اعتبرناهم أجداداً، يظلون عادة مع

اليرقات خلال مرحلة تطورها الأولى في حين يعمل الآباء الثلاثة مع أجدادهم الستة في جناح جديد من العائلة يستعد لاستقبال الجيل القادم عندما يتمكن أفراده من الحركة». كنت أقول هذا وأنظر إلى أرغفة الخبز بين يدي بدلاً من النظر إلى جمهور المستمعين. كالعادة. لكني سمعت شهقة تصدر من آخر الغرفة. تابعت جملتي الأخيرة على نحو تلقائي لكني رحت أنظر في الحشد بحثاً عمن قد يكون منزعجاً من حديثي. «أما الأجداد الثلاثة الباقون فهم يهتمون عادة. .».

ما كان أحد منزعجاً من حديثي. لكن الرؤوس كلها كانت مستديرة تنظر في الاتجاه الذي أنظر فيه. انتقلت عيناي من رؤوسهم إلى فتحة المدخل المظلمة.

كان أول شيء أراه هو شكل جيمي متعلقاً بذراع شخص آخر. شخص بالغ القذارة من رأسه حتى قدميه. بدا هذا الشخص كأنه جزء من جدار الكهف. إنه شخص أطول قامة من جيب. كما أن جيب كان واقفاً إلى جانب جيمي من الجهة الأخرى. وحتى من تلك المسافة استطعت أن أرى توتراً على وجه جيب. شيئاً من القلق. إنه تعبير نادر الظهور عند جيب. عند ذلك فقط رأيت أن وجه جيمي كان متألقاً ناضحاً بسعادة صرف.

«هكذا إذاً». كان هذا صوت إيان الجالس إلى جانبي. كان صوته شديد الانخفاض لا يكاد يسمع بسبب صوت النار في الفرن.

تقدم الرجل القذر الذي كان جيمي متعلقاً بذراعه خطوة واحدة إلى الأمام. ارتفعت يده بحركة بطيئة، مثل ردّ فعل تلقائي، ثم رأيت كفّ يده تتكور.

ومن ذلك الشخص القذر جاءني صوت جارد. جاءني صوته مسطحاً خالياً من أي تلوين: «ما معنى هذا يا جيب؟».

انسدّ حلقي وتشنّجت حنجرتي. حاولت ابتلاع ريقي فوجدت الطريق مغلقاً. حاولت التنفس فلم أستطع. راح قلبي يخفق على غير انتظام.

جاءني أيضاً صوت ميلاني المستثار عالياً. صرخة حبور صامتة: «جارد!». لقد بُعثت إلى الحياة فجأة داخل رأسي. «لقد عاد جارد!».

قال جيمي متحمساً: «إن جو تعلمنا أشياء كثيرة عن الكون». لعله لم يدرك غضب جارد. كان أكثر استثارة من أن يستطيع الانتباه إلى ذلك.

كرر جارد من بعده بصوت منخفض: «جو!». كان هذا الصوت أشبه بزمجرة.

ظهر أشخاص قذرون آخرون من خلف جارد. لم ألاحظهم إلا عندما كرروا زمجرته بغضب واضح.

ارتفع رأس أشقر من بين الموجودين المتجمدين في أماكنهم. هبّت بيج واقفة على قدميها ثم صاحت: «آندي!» وراحت تسير متعثرة عبر الأشخاص الجالسين من حولها. تقدم أحد الرجال القذرين دائراً حول جارد وأمسك بها عندما كانت موشكة على السقوط فوق ويس. راحت تصيح باكية: «أوه! آندي!». ذكّرني صوتها الآن بصوت ميلاني.

غيّرت اندفاعة بيج الجو تغييراً مؤقتاً. بدأ الحشد الصامت يدمدم ويتمتم. ونهض أكثر الناس واقفين. صارت الأصوات مرحبة الآن إذ مضت الأغلبية تستقبل الرحالة العائدين. حاولت قراءة التعابير الغريبة التي ارتسمت على وجوههم عندما راحوا يجبرونها على الابتسام وعندما راحت أعينهم تسترق نظرات خاطفة صوبي. أدركت بعد ثانية طويلة بطيئة. بدا الزمن متجمداً من حولي. واقفاً في مكان واحد. أدركت أن التعبير على وجوههم كان تعبير الإحساس بالذنب.

تمتم إيان بصوت هامس: «سوف تكون الأمور على ما يرام».

نظرت إليه مجفلة مفتشة عن نظرة الإحساس بالذنب في عينيه لكن لم أجدها. لم أجد إلا التماعاً دفاعياً مشعاً في عينيه الحيتين عندما راح ينظر إلى القادمين الجدد.

صاح صوت جديد: «ما الأمر يا ناس!».

إنه صوت كَايل. ما أسهل معرفته بسبب ضخامة حجمه. رغم
اتساخه. كان يشق طريقه ماراً بجارد. متجهاً صوبي.

«أتسمحون لها بأن تقص عليكم أكاذيبها؟ هل جننتم جميعاً؟ أم أنه
أتت بالباحثين إلى هنا؟ هل صرتم طفيليين كلكم الآن؟».

أطرقت رؤوس كثيرة. خجلة! لكن قلة من الرؤوس فقط ظلت
مرتفعة. متحدية: ليلي وترودي وهيث وويس. ووولتر الواهن.
هؤلاء فقط!

قال وولتر بصوته الضعيف: «مهلاً يا كَايل».

تجاهله كَايل. سار نحوي بخطوات متمهلة. كانت عيناه متألقتين مثل
عيني شقيقه، لكن الغضب كان يغلي فيهما. ما كنت قادرة على إبعاد عيـ
عنه. رغم أنهما ظلتا تحاولان العودة إلى جارد. تحاولان قراءة
تعابير وجهه المموه بالقذارة.

تدفّق حب ميلاني من خلالي مثل اندفاع الماء من ثغرة في سد.
قلل هذا من تركيزي على ذلك الهمجي الغاضب المتقدم صوبي.

اندفع إيان أمامي. تحرك فوضع نفسه بيني وبين أخيه. ملت
برأسي جانباً حتى أستمر في رؤية جارد بوضوح.

«تغيرت الأمور أثناء غيابك يا أخي». توقف كَايل لحظة وقد علا
عدم التصديق ملامح وجهه: «هل جاء الباحثون يا إيان؟».

«إنها لا تشكل خطراً علينا». صرّ كَايل على أسنانه ثم رأيته، من
زاوية عيني، يمد يده فيخرج شيئاً من جيبه.

أفلحت هذه الحركة في شد اهتمامي أخيراً. تجمدت منكمشة في
مكاني، متوقعة ظهور سلاح في يده. اندفعت كلمات من فمي بصوت
هامس مخنوق: «لا تقف في طريقه يا إيان».

لم يستجب إيان لرجائي. فوجئت بحجم القلق الذي سببته عدم
استجابته في نفسي. فوجئت بمدى رغبتي في حمايته من الأذى. ما
كانت تلك هي الحماية الغريزية، الحاجة العميقة إلى الحماية التي أحس

بها تجاه جيمي، بل تجاه جارد أيضاً. أحسست أن إيان لا يجوز أن يصاب بأذى بسبب محاولته حمايتي.

خرجت يد كَايل من جيبه فلمع ضوء فيها. وجّه كَايل الضوء إلى وجه إيان. ظل الضوء ثابتاً لحظة من الزمن. لم يبعد إيان عينيه عن ذلك الضوء.

سأله كَايل وهو يعيد المصباح إلى جيبه: «إذاً، ما الأمر؟ أنت لست طفيلياً! فكيف تمكنتْ من السيطرة عليك؟».

«اهدأ. وسوف نخبرك بالأمر».

«لا».

ما كانت هذه المعارضة آتية من كَايل، بل أتت من خلفه. رأيت جارد يخطو صوبنا متمهلاً عبر الناس المحتشدين الصامتين. ومع اقترابه رأيت جيمي ما يزال متعلقاً بيده وعلى وجهه تعبير الحيرة والخوف. صرت الآن قادرة على قراءة وجه جارد قراءة أفضل تحت قناع القذارة الذي يغطيه. حتى ميلاني، رغم شدة انفعالها وسعادتها بعودته سالماً، ما كانت تستطيع أن تخطئ في فهم تعابير الكره المرتسمة على وجه جارد.

لقد أنفق جيب جهوده سدى على أشخاص ما كان له أن ينفقها عليهم. ما كان مهماً أن تتحدث معي ترودي أو ليلي. وما كان مهماً أن يضع إيان نفسه بين أخيه وبيني لحمايتي. وما كان مهماً أن شارون وماغي امتنعتا عن أي حركة معادية ضدي. إن الشخص الوحيد الذي كان لا بد من إقناعه قد اتخذ قراره وحزم أمره أخيراً.

قال جارد عبر أسنانه المطبقة: «لا أظن أن أحداً في حاجة إلى الهدوء الآن». ثم تابع يقول من دون أن ينظر إن كان الرجل العجوز قد تبعه حتى هذه النقطة: «جيب! ناولني البندقية».

بعد كلماته هذه خيّم صمت متوتر جعلني أشعر بضغط في أذني.

لقد عرفت أن الأمر قد انتهى الآن منذ رأيت وجهه بوضوح. أعرف ما الذي عليّ فعله الآن. كانت ميلاني موافقة على هذا. وبأقصى هدوء

استطعته تحركت خطوة جانبية وتراجعت قليلاً إلى الخلف حتى أتحرر من إيان. ثم أغمضت عيني.

قال جيب متمهلاً: «لست أحمل البندقية الآن» نظرت بعينين نصف مغمضتين فرأيت جارد يستدير صوب جيب للتأكد من صحة زعمه.

صفرت أنفاس جارد غاضبة في منخريه ثم قال: «لا بأس!». تقدم خطوة أخرى صوبي. «سيكون الأمر أكثر بطئاً بهذه الطريقة. أما إذا استطعت العثور على البندقية سريعاً فسوف تكون نهايتها أكثر إنسانية».

قال إيان متأهباً في وقفته: «أرجوك يا جارد. دعنا نتحدث» لقد كان يعرف الإجابة سلفاً.

زمجر جارد: «أظن أن حديثاً كثيراً جرى! لقد ترك جيب اتخاذ القرار لي أنا. وقد اتخذت قراري».

تنحنح جيب بصوت مرتفع. استدار جارد نصف استدارة حتى ينظر إليه من جديد.

سأله: «ماذا؟ أنت الذي وضع تلك القاعدة يا جيب».

«نعم! هذا صحيح».

استدار جارد نحوي من جديد: «إيان! ابتعد من طريقي».

لكن جيب تابع يقول: «نعم. انتظر لحظة! إن كنت تتذكر جيدا أقول لك إن القاعدة قضت بأن الشخص الذي يخصه الجسد هو الذي يتخذ القرار».

انتفض عرق في جبهة جارد على نحو مرئي تماماً: «وماذا؟».

«يبدو لي أن ثمة شخصاً آخر هنا يخصه هذا الجسد كما يخصك أنت. بل لعله يخصه أكثر منك».

حدّق جارد أمامه مفكراً في هذا الكلام. وبعد لحظة بطيئة تجهّم وجهه عندما أدرك معناه. نظر إلى الأسفل، إلى الصبي الذي ما زال متعلقا بذراعه.

غابت الفرحة كلها عن وجه جيمي. صار شاحباً مذعوراً.

قال بصوت مختنق: «أنت لا تستطيع أن تفعل هذا يا جارد. أنت لن تفعل هذا. جو طيبة! إنها صديقتي! ثم. ماذا عن ميلاني؟ هل تستطيع أن تقتل ميلاني؟ أرجوك! عليك أن. .». انقطع صوته وجلّل الحزن وجهه.

أغمضت عيني من جديد محاولة حجب صورة المعاناة في وجه الفتى عن عقلي. صار مستحيلاً عليّ ألا أذهب نحوه. جمدت عضلاتي كلها. أمرتها بالجمود. قلت لنفسي إن أي حركة من جانبي الآن لن تساعده في شيء.

قال جيب بصوت أكثر اعتيادية مما يحتمله هذا الموقف: «إذاً، يمكنك أن ترى الآن أن جيمي غير موافق. أعتقد أن نصيبه في القرار لا يقل عن نصيبك»

لم أسمع إجابة. مرّ زمن طويل. كان عليّ أن أفتح عينيّ من جديد.

رأيت جارد ينظر إلى وجه جيمي المعذَّب المذعور. رأيت في وجه جارد رعباً آخر.

همس: «كيف استطعت أن تسمح بحدوث هذا يا جيب؟».

أجابه جيب: «ثمة حاجة إلى بعض الكلام. لماذا لا تلتقط أنفاسك أولاً؟ لعلك تكون أكثر قابلية للحديث بعد الاستحمام». ألقى جارد نظرة وعيد صوب العجوز. كانت عيناه مليئتين بالصدمة والألم والإحساس بالخيانة. كنت أعرف بعض المقارنات البشرية التي قد تصح فيها هذه النظرة: قيصر وبروتوس. المسيح ويهوذا!

استمر التوتر غير المحتمل دقيقة طويلة أخرى ثم شد جارد ذارعه وأفلتها من أصابع جيمي.

صاح جارد: «كَايل». ثم استدار وخرج من الغرفة.

ألقى كَايل على أخيه تكشيرة وداع وأسرع لاحقاً بجارد. أما بقية

عناصر الغارة القذرين فمضوا خلفهما صامتين. كانت بيج تسير تحت ذراع آندي.

وأما أكثر البشر الآخرين هنا، أولئك الذين طأطأوا رؤوسهم خجلاً بسبب قبولهم إياي في مجتمعهم الصغير، فقد خرجوا خلف جارد وصحبه أيضاً. لم يبق في الغرفة إلا جيمي وجيب وإيان الواقف إلى جانبي وترودي وجيفري وهيث وليلي. وأيضاً ويس وَوولتر

لم ينطق أحد من الباقين حتى خبت أصوات خطوات الذاهبين بعيداً في الصمت.

تنفس إيان الصعداء: «واو! كان موقفاً خطيراً! كنت بارعاً يا جيب!».

أجابه جيب: «إنه الإلهام في لحظة اليأس. لكننا لم نخرج من المشكلة بعد».

«ألست أعرف هذا؟ آمل أنك لم تترك بندقيتك في مكان ظاهر!».

«طبعاً لا! لقد توقعت أن يحدث هذا سريعاً».

«هذه براعة منك».

كان جيمي يرتجف وحيداً في ذلك الفراغ الذي خلّفه خروج تلك الكثرة من الناس. كان محاطاً الآن بأولئك الذين عليّ أن أعتبرهم أصدقائي. أحسست نفسي قادرة على السير إليه. ألقى ذراعيه حول وسطي فرحت أربت على ظهره بيدين مرتجفتين.

همست كاذبة: «الوضع بخير! الوضع بخير!» أعرف أن الأحمق نفسه يستطيع أن يميز نبرة الكذب في صوتي. ما كان جيمي أحمق على الإطلاق.

قال جيمي بصوت كثيف مغالباً الدموع التي كنت قادرة على رؤيتها في عينيه: «لن يؤذيك جارد! لن أسمح له».

همست له: «ششش».

كنت مذعورة الآن. كنت قادرة على الإحساس بالرعب مرتسماً

على وجهي. لقد كان جارد محقاً. كيف سمح جيب بحدوث هذا؟ لو أنهم قتلوني منذ اليوم الأول هنا. قبل أن يراني جيمي. أو. لو أنهم قتلوني في الأسبوع الأول عندما كان جارد يحتفظ بي معزولة بعيداً عن الجميع. قبل أن نصبح صديقين أنا وجيمي. أو. لو أنني أبقيت فمي مغلقاً حول ما يخصّ الحديث عن ميلاني. لقد تأخر الوقت على هذا كله. شددت ذراعي حول الصبي.

كانت ميلاني مذعورة أيضاً: «يا طفلي البائس!»

قلت أذكّرها: «لقد قلت لك إن إخباره بكل شيء أمر خاطئ».

«ما الذي سيفعله هذا به الآن... عندما نموت؟».

«سوف يكون الأمر مخيفاً. سوف يتعذب... سوف يصاب بندوب دائمة... سوف يدمَّر...».

قاطعتني ميلاني: «هذا يكفي! إنني أعرف... إنني أعرف. لكن، ما الذي نستطيع فعله؟».

«نستطيع ألا نموت... هكذا أظن».

فكرنا، أنا وميلاني، في احتمالات بقائنا على قيد الحياة، فشعرنا بالقنوط.

ضرب إيان ظهر جيمي بكفه. استطعت الإحساس بالاهتزاز عبر جسدينا معاً.

قال له: «لا تحزن يا فتى! لست وحدك في هذا الأمر».

«إنهم في حالة صدمة. هذا كل شيء». عرفت صوت ترودي المرتفع صادراً من خلفي. «سوف يعودون إلى رشدهم بمجرد أن تسنح لنا فرصة للشرح».

«يعودون إلى رشدهم! من.. كَايل؟» هكذا قال أحد الحاضرين بصوت يكاد يكون غير مسموع.

تمتم جيب: «كنا نعرف أن هذا سيحدث. علينا أن نتحمل الوضع. العواصف تأتي ثم تمر».

اقترحت ليلي بهدوء: «ربما كان عليك أن تعثر على تلك البندقية يا جيب. قد تكون هذه الليلة طويلة. تستطيع جو أن تبقى معنا أنا وهيدي. .» قال إيان معترضاً: «أظن أن من الأفضل لها أن تكون في مكان آخر. ربما في الأنفاق الجنوبية! سوف أحرسها يا جيب فهل تساعدني؟».

جاء عرض وولتر هامساً: «لن يبحثوا عنها عندي»

تحدث ويس بعد كلمات وولتر مباشرة: «سوف أكون معك يا إيان. إنهم ستة أشخاص»

أفلحت أخيراً في التحدث بصوت مختنق: «لا، لا هذا غير صحيح. لا يجوز أن تتقاتلوا. أنتم تنتمون إلى هذا المكان. أنتم تنتمون إلى هذه الجماعة. لا يجوز أن ينشب قتال بينكم بسببي».

فككت ذراعَيْ جيمي عن وسطي وظللت ممسكة برسغيه عندما راح يحاول إيقافي.

قلت له متجاهلة تلك النظرات التي أحسستها منصبَّة على وجهي: «إني في حاجة إلى الاختلاء بنفسي. أريد أن أكون وحدي». أدرت وجهي فرأيت جيب. «ويجب أن تسنح لكم فرصة مناقشة الأمر من غير وجودي هذا غير عادل. ليس عدلاً أن تضطروا إلى مناقشة أمور استراتيجية في حضور عدو».

قال جيب: «لا تقولي هذا».

«دعني أحظى ببعض الوقت من أجل التفكير يا جيب».

تحركت مبتعدة عن جيمي. تركت يديه. هبطت يد على كتفي فانكمشت.

كان هذا إيان: «ليست فكرة جيدة أن تتجولي وحدك».

انحنيت مقتربة منه وحاولت خفض صوتي حتى لا يسمعني جيمي «لماذا نحاول تأجيل ما هو محتوم؟ هل سيصبح الأمر أكثر سهولة بالنسبة له أم سيصبح أكثر صعوبة؟».

أظن أنني كنت أعرف الإجابة عن سؤالي الأخير. تجاوزت إيان وانطلقت أجري متجهة نحو المخرج.

صاح جيمي من خلفي: «جو!» لكن أحداً أسكته بسرعة. لم أسمع صوت خطوات تجري من خلفي. لا بد أنهم رأوا الحكمة في تركي أذهب وحيدة. كانت القاعة مظلمة، مهجورة. إذا كنت محظوظة فقد أتمكن من الالتفاف حول زاوية الحديقة في الظلام من دون أن يراني أحد.

طوال وقت وجودي هنا كان المخرج هو الشيء الوحيد الذي لم أتمكن من العثور عليه. بدا لي أنني مررت بجميع الأنفاق مرة بعد مرة لكنني لم أر أي مخرج. لم أر أي باب أو فتحة لم أمض عبره باحثة عن شيء ما. فكرت في هذا الأمر الآن عندما كنت أدس نفسي في زوايا الكهف الكبيرة التي تلفها الظلال. أين يمكن أن يكون هذا المخرج؟ فكرت في الأمر التالي: إذا استطعت أن أحل هذه الأحجية. فهل سأتمكن من المغادرة؟

لم أستطع التفكير في أي شيء يستحق أن أحيا من أجله. لا أريد الذهاب إلى الصحراء التي تنتظرني في الخارج. ولست أريد أن أذهب إلى الباحثة، ولا إلى المعالج، ولا إلى معالجتي النفسية. لا أريد الذهاب إلى حياتي السابقة التي لم تترك إلا أثراً ضحلاً في نفسي. كان كل ما يهمني في هذه الحياة موجوداً معي هنا. إنه جيمي! وهو، جارد أيضاً. رغم أنه يريد قتلي. ما كنت أستطيع تخيل السير مبتعدة عن جيمي أو عن جارد.

ثم لدي أيضاً جيب وإيان. إن لدي أصدقاء الآن. الطبيب وترودي وليلي وَوولتر وهيث وويس. إنهم بشر غرباء قادرون على التغاضي عن حقيقتي ورؤية أن قتلي ليس بالتصرف الصحيح. لعل الفضول هو دافعهم إلى هذا، لكن بصرف النظر عن كل شيء. إنهم مستعدون للوقوف إلى جانبي ضد بقية أفراد مجموعة الناجين المتلاحمة. هززت رأسي عجباً ورحت أسير متلمسة الصخور الخشنة بيدي.

استطعت سماع أصوات أشخاص آخرين في الكهف، في الناحيـ
الأخرى منه. لم أتوقف. إنهم غير قادرين على رؤيتي هنا. وسرعان ما
أجد الباب الذي أبحث عنه.

ما كان لدي إلا مكان واحد أذهب إليه. فحتى إن استطعت العثور
على طريق الهرب بطريقة من الطرق فسوف أتابع سيري إلى وجهتي
دخلت تلك الفتحة المظلمة ثم سرتُ مسرعة في طريقي.

## الفصل السابع والعشرون

# ارتباك

تلمست طريقي عائدة إلى حفرة سجني الصخرية.

لقد مرت أسابيع وأسابيع منذ تركت هذا الممر. لم أعد إليه منذ صبيحة مغادرة جارد، أي منذ أطلق جيب سراحي. بدا لي الآن أن هذا هو مكاني الطبيعي ما دمتُ حية. وما دام جارد في هذه الكهوف.

ما كان في الممر ذلك الضوء الأزرق الشحيح حتى يرحب بقدومي الآن. لكني كنت واثقة تماماً من صحة مساري. بدت الانعطافات والانحناءات مألوفة بالنسبة لي. رحت أجر يدي اليسرى على الجدار رافعة إياها قدر ما استطعت حتى أتحسس مكان الفتحة التي سأدخل فيها. ما كنت جازمة فيما يخص دخول تلك الحفرة الضيقة. لكن العثور على الفتحة يوفر لي نوعاً من نقطة علام. يعلمني أنني وصلت إلى المكان الذي أحاول الوصول إليه.

في اللحظة نفسها التي لمست أصابعي حافة الفتحة الصخرية، اصطدمت قدمي بعقبة فتعثرت وسقطت على ركبتي. مددت ذراعي إلى الأمام حتى أوازن نفسي فاصطدمتا بشيء وصدر صوت تحطم وقرقعة.

حطمت يداي شيئاً. ما كان صخراً بطبيعة الحال لكنه ما كان من الأشياء التي تنتمي إلى هذا المكان أصلاً

أجفلني صوت التحطم. أخافني هذا الجسم المجهول غير المتوقع. ربما أكون ضللت طريقي. اتخذت منعطفاً خاطئاً. ربما لم أصل إلى كهفي الصغير. قد أكون الآن في غرفة معيشة أحد الناس. راجعت

خط سيري في ذهني وعجبت كيف يمكن أن أخطئ الطريق إلى هذه الدرجة. في أثناء ذلك. كنت أصغي مترقبة أي ردّ فعل على سقطتي. على صوت التحطم. كنت حابسة أنفاسي تماماً في ذلك الظلام الدامس.

لم أسمع شيئاً. لا صوت، لا ردّ فعل. ما كان في المكان إلا الظلمة والرطوبة والجو الخانق، كما هو دائماً. كان الصمت عميقاً فعرفت أنني وحيدة هنا.

وبحذر شديد، محاوِلةً إصدار أقل ضجة ممكنة، رحت أتلمَّس ما حولي.

كانت يداي عالقتين في شيء ما. سحبت ذراعي حتى تحرر كفي. رحت أتحسس المعالم الخارجية لجسم بدا شيئاً شبيهاً بصندوق كبير من الورق المقوى. صندوق من الورق المقوى مغطى بصفيحة رقيقة هشة من البلاستيك. هذه الصفيحة هي ما حطمته عند سقوطي. رحت أتحسس داخل الصندوق فوجدت طبقة أخرى من البلاستيك.. كانت أشد قرقعة من الأولى. كان فيها مثلثات صغيرة تصدر أصواتاً كثيرة عند الضغط عليها. تراجعت مسرعة خائفة من جذب الانتباه إلى وجودي هنا

تذكرت أنني عثرت على ما يشبه فتحة كهفي المألوفة. مددت يدي إلى يساري فوجدت مزيداً من صناديق الورق المقوى مكدسة هناك حاولت تلمّس قمة الصناديق المكدسة أحدها فوق الآخر فكان عليّ أن أقف حتى أصل إليها. كان ارتفاع الصناديق يعادل ارتفاع رأسي. بحثت حتى وجدت الجدار. ثم وجدت الفتحة. تماماً حيث ظننتها موجودة. حاولت التسلق والدخول فيها حتى أتأكد من أنها هي فتحتي نفسها. لا يلزمني إلا ثانية واحدة على تلك الأرض المقعرة حتى أتعرف عليها من غير شك. لكني لم أستطع الدخول. لم أستطع تجاوز الفتحة نفسها. كان المكان بدوره ممتلئاً بتلك الصناديق نفسها.

بعد أن فشلت في دخول الكهف رحت أتلمس المكان بيدي متراجعة

حتى الممر. وجدت أن الممر نفسه كان مسدوداً بتلك الصناديق. كان ممتلئاً تماماً بهذه الأجسام الغامضة.

وعندما انحنيت إلى الأرض محاولة فهم ما هو موجود حولي وجدت شيئاً مختلفاً عن تلك الصناديق. كان نسيجاً خشناً، بل كان كيساً ممتلئاً بشيء ثقيل الوزن يتحرك عند الضغط عليه مصدراً هسهسة هادئة. ضربت الكيس بيدي. كان حذري إزاء ذلك الهسيس المنخفض أقل بكثير من حذري إزاء قرقعة البلاستيك. من المستبعد أن يستطيع هذا الصوت الخافت لفت انتباه أحد إلى وجودي هنا.

اتضح الأمر على نحو مفاجئ! عرفت محتوى الكيس من رائحته. فعندما راحت يدي تعبث بمحتويات الكيس هبّت نفحة من رائحة مألوفة. أعادتني هذه الرائحة إلى مطبخي العاري البسيط في سان دييغو. إلى الخزانة الصغيرة إلى يسار المجلى. رأيت في رأسي، بوضوح شديد، كيس الأرز، والمكيال البلاستيكي الذي أستخدمه عندما أطهو، وصفوف الأطعمة المعلبة من خلفه.

عندما أدركت أنني ألمس كيساً من الأرز، فهمت كل شيء. لقد كنت في المكان الصحيح بعد كل حساب. ألم يقل جيب إنهم يستخدمون هذا المكان مستودعاً؟ أولم يعد جارد أمس من غارة طويلة؟ إن كل ما سرقه أفراد تلك الغارة في رحلتهم الطويلة مخزَّن هنا بعيداً عن أماكن الحركة العادية ريثما يتم استخدامه.

تدافعت في رأسي أفكار كثيرة على الفور.

أدركت، قبل كل شيء، أنني محاطة بالأطعمة. لم يكن ذلك خبزاً جافاً وحساء البصل المخفف، بل طعام حقيقي. ولعل في مكان ما من هذه المواد هنا شيئاً من زبدة الفستق. بعض قطع الشوكولاته. وشرائح البطاطا.

حتى عندما تخيلت العثور على هذه الأشياء. عندما تخيلت تذوقها من جديد. عندما تخيلت الشبع الحقيقي للمرة الأولى بعد أن

تركت الحضارة كلها. أحسست بالذنب لأنني فكرت في هذا. لم يغامر جارد بحياته فيمضي عدة أسابيع مختبئاً. سارقاً. حتى يطعمني أنا. إن هذا الطعام يخص الآخرين.

أقلقني أيضاً شيء آخر. ماذا لو كان لديهم مزيد من الصناديق؟ هل سيأتي بها كَايل أو جارد؟ لا حاجة لأي مخيلة نشطة حتى أستطيع تصور المشهد الذي سيجري هنا إذا وجداني.

لكن، أليس هذا سبب وجودي هنا؟ أليس هذا تحديداً هو سبب حاجتي إلى البقاء وحيدة لأفكر؟

استندت إلى الجدار. كان كيس الأرز وسادة مريحة. أغمضت عينيَّ. ما كان هذا ضرورياً في الظلام الدامس. ورحت أفكر في الأمر.

«طيب يا ميلاني! ماذا الآن؟».

أسعدني أن أجدها مستيقظة منتبهة. كان الخطر هو ما يجعل قواها تحيا من جديد. إنها لا تنزوي بعيداً إلا عندما تسير الأمور على نحو جيد.

قالت: «الأولويات! ما هو الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لنا؟ البقاء على قيد الحياة... أم جيمي؟».

كانت تعرف إجابتي. جيمي!. هكذا أكدت لها متنهدة بصوت مرتفع. تردد صدى أنفاسي منعكساً عن جدران الكهف السوداء.

«أنا موافقة! ربما نستطيع الاستمرار فترة من الزمن إذا سمحنا لجيب وإيان بحمايتنا. هل يساعده ذلك؟».

«ربما! هل سيشعر بألم أكبر إذا استسلمنا؟ أم أنه سيشعر بألم أكبر إذا تركنا الأمر يستمر فترة من الزمن، حتى يصل إلى نهايته السيئة، وهذا ما يبدو شيئاً يستحيل تجنُّبه؟».

لم ترقْ لميلاني هذه النتيجة. كنت أشعر بها تتململ باحثة عن البدائل.

اقترحت عليها: «هل نحاول الهرب؟».

قالت جازمة: «هذا مستبعد! ما الذي يمكن أن نفعله هناك في الخارج؟ ماذا نقول لهم؟».

رحنا نتخيل الأمر معاً. كيف أفسر غيابي عدة أشهر؟ يمكنني أن أكذب، أن أقدم قصة أخرى، أو أقول إنني لا أتذكر شيئاً. لكني فكرت في وجه الباحثة المتشكك، في عينيها الجاحظتين اللتين يشتعل الشك فيهما. عرفت أن محاولاتي البائسة لخداعها ستكون محاولات فاشلة.

وافقتني ميلاني: «سوف يقتنعون أنني انتصرت عليك! وعند ذلك سوف يخرجونك مني وتحل الباحثة محلك».

ارتجفت وغيرت وضعية استلقائي كما لو أن وضعاً جديداً على هذه الأرض الحجرية يمكن أن يبعدني عن الفكرة. ارتجفت من جديد. ثم تابعت الفكرة حتى منتهاها. «سوف تخبرهم الباحثة عن هذا المكان... وسوف يأتي الباحثون إلى هنا».

اجتاحنا رعب جديد.

مضيت أقول: «هذا صحيح. لا مجال للتفكير في الهرب إذاً».

همست ميلاني وقد جعل اضطراب مشاعرها أفكارها غير مستقرة: «صحيح!».

«إذاً يبقى لنا أمر واحد من أمرين... موت سريع أو موت بطيء. أي الموتين يؤلم جيمي أقل من الآخر؟».

بدا لي أنني أستطيع المحافظة على روح عملية أثناء هذا النقاش إذا تابعت التركيز على الأمور العملية. حاولت ميلاني أن تحذو حذوي.

«لست متأكدة. فمن ناحية أولى، منطقياً، كلما استطعنا ثلاثتنا البقاء فترة أطول، كان فراقنا أكثر صعوبة! لكن، إذا لم نقاتل، إذا استسلمنا فحسب... فلن يكون جيمي مسروراً بذلك. سوف يشعر أننا خنّاه».

أمعنت النظر في الجانبين اللذين عرضتهما ميلاني. كنت أحاول أن أفكّر بعقلانية الآن.

«إذاً... الموت الأسرع أفضل، لكن علينا أن نفعل كل ما نستطيعه حتى لا نموت!».

«علينا أن نموت مقاتلتين»، قالت ميلاني.

حاولتُ تخيل ذلك: «مقاتلتان! رائع!». مواجهة العنف بالعنف. أن أرفع يدي لأضرب أحداً. أستطيع قول هذه الكلمات. لكني لا أستطيع تصورها في عقلي.

قالت تشجعني: «تستطيعين فعل هذا! سوف أساعدك».

«شكراً! لكن لا! لابد أن ثمة طريقاً آخر».

«لست أفهمك يا جو! لقد تخليت عن جنسك تخلياً تاماً. وأنت مستعدة الآن للموت من أجل أخي. وأنت تحبين الرجل الذي أحبه... الذي سيقتلنا. لكنك ما زلت غير مستعدة للتخلي عن عادات تعرفين أنها غير عملية على الإطلاق في هذا المكان».

«هذه طبيعتي يا ميلاني. لا أستطيع تغيير طبيعتي رغم تغير كل ما عداها. افعلي ما تريدين واتركيني أفعل ما أريد».

«لكن إذا كنا سوف....».

لعلها كانت ستستمر في مجادلتي، لكن شيئاً قاطعنا. سمعنا صوت احتكاك حذاء بالأرض الصخرية. صوتاً مكتوماً قادماً من مكان بعيد في الممر

تجمدت تماماً. تجمدت كل وظيفة من وظائف جسدي إلا قلبي، لكن قلبي نفسه كان ينبض من غير انتظام الآن. رحت أصغي. ما كنت في حاجة إلى انتظار طويل. ما كنت في حاجة إلى الأمل بأنني أتخيل الصوت تخيلاً. بعد ثوانٍ قليلة سمعت صوت خطوات أخرى تقترب مني.

ظلت ميلاني هادئة الأعصاب أما أنا فقد انتابني ذعر شديد.

أمرتني: «انهضي واقفة على قدميك».

«لماذا؟».

«لست مضطرة إلى القتال، لكنك تستطيعين الفرار. عليك أن تحاولي شيئاً... من أجل جيمي».

بدأت التنفس من جديد محافظة على أنفاسي هادئة ضحلة. اعتدلت في جلستي حتى صرت جاثمة على قدميّ. اندفاع الأدرينالين في عضلاتي جعلها مستعدة. متوترة. سوف أكون أسرع ممن سيحاول الإمساك بي، لكن أين أهرب؟

سمعت همساً خافتاً: «جو! جو! هل أنت هنا؟ هذا أنا».

تكسّر الصوت. عرفت صاحبه.

همست: «جيمي! ماذا تفعل هنا؟ قلت لك إنني في حاجة إلى البقاء وحدي».

صار الارتياح ظاهراً في صوته. ارتفع صوته الآن. ما عاد هامساً: «الجميع يبحثون عنك. أقصد ترودي وليلي ويس. هؤلاء هم الجميع. لكننا اتفقنا على ألا نترك أحداً ينتبه إلى أننا نبحث عنك. يجب ألا يعرف أحد أننا أضعناك. لقد أحضر جيب بندقيته من جديد. وذهب إيان إلى الطبيب. عندما يفرغ الطبيب من عمله. سوف يتحدث مع جارد وكَايل. الجميع هنا يصغون إلى الطبيب. لذلك، ليس عليك أن تختبئي! الكل مشغولون، ولعلك متعبة الآن. .».

تابع جيمي تقدمه أثناء حديثه حتى وجدت أصابعه ذراعي، ثم أمسكتْ بيدي.

«لست مختبئة يا جيمي! قلت لك إنني في حاجة إلى التفكير».

«تستطيعين التفكير مع وجود جيب، أليس كذلك؟».

«أين تريدني أن أذهب؟ هل أعود إلى غرفة جارد؟ أليس هذا المكان هنا هو مكاني الطبيعي؟».

عادت نبرة العناد المألوفة إلى صوته: «لا، ليس هذا مكانك».

سألته حتى أحوّل انتباهه: «بماذا ينشغل الجميع؟ ما الذي يفعله الطبيب؟».

كانت محاولتي غير ناجحة. لم يجبني جيمي.

بعد دقيقة من الصمت، لمستُ وجنته وقلت: «انظر، عليك أن تكون مع جيب. قل للآخرين أن يتوقفوا عن البحث عني. سوف أبقى هنا بعض الوقت».

«لكنك لا تستطيعين النوم هنا».

«لقد نمت هنا من قبل» أحسست يده ترتجف في يدي.

«سوف أحضر لك فراشاً ووسائد، على الأقل».

«لست أحتاج إلا واحدة».

«لن أبقى مقيماً مع جارد ما دام أحمق إلى هذا الحد».

أحسست بالأنين في داخلي لكنني قلت: «إذاً، يمكنك أن تقيم مع جيب وشخيره. أنت تنتمي إليهم. أنت لا تنتمي إليّ أنا».

«إنني أنتمي حيث أريد!».

كان خطر عثور كَايل عليّ هنا ثقيلاً على ذهني. لكن من شأن هذا الجدل الآن أن يجعل جيمي يعتبر نفسه مسؤولاً عن حمايتي.

«لا بأس، لكن عليك أن تحصل على موافقة جيب أولاً».

«في ما بعد! لن أزعجه الليلة».

«ما الذي يفعله جيب الآن؟».

لم يجبني جيمي. أدركت، في تلك اللحظة فقط، أنه تعمد عدم الإجابة عن سؤالي الأول. ثمة شيء لا يريد إخباري به.

لعل الآخرين يحاولون العثور عليّ أيضاً. ولعل عودة جارد أعادت عدداً من الناس إلى رأيهم الأول في ما يخصني. هكذا بدا لي الأمر في المطبخ عندما طأطأوا رؤوسهم ونظروا إليّ شاعرين بالذنب.

قلت ملحّة: «ما الذي يجري يا جيمي؟».

قال متمتماً: «لا يجوز لي إخبارك. لن أخبرك». لف ذراعيه حول وسطي بإحكام وضغط وجهه على كتفي. «سوف يكون كل شيء على ما يرام». هكذا وعدني. كان صوته كثيفاً. مثقلاً

ربتُّ على ظهره وجرت أصابعي عبر شعره الكثيف المشعث. قلت موافقة على قبول صمته: «لا بأس!» إن لدي أسراري أيضاً «لا تنزعج يا جيمي! مهما يكن من أمر فسوف تكون النتيجة خيراً. سوف نكون بخير». كم كنت أتمنى أن يكون كلامي صحيحاً عندما قلت هذه الكلمات.

همس جيمي: «لست أدري ما الذي آمل فيه»

رحت أحدِّق في الظلام. ما كنت أحدق في شيء محدد. حاولت أن أفهم ما لم يقله جيمي. لفت نظري ضوء خافت في نهاية الممر البعيدة. كان خافتاً فعلاً لكنه مثير للريبة في هذا الكهف المظلم.

همست: «ششش! ثمة أحد قادم. أسرع واختبئ خلف الصناديق»

انتفض رأس جيمي وراح ينظر إلى ذلك الضوء الأصفر الذي يزداد سطوعاً مع كل ثانية تمر. حاولت سماع صوت الخطوات المقتربة لكنني لم أسمع شيئاً.

همس: «لن أختبئ! قفي خلفي يا جو».

«لا!».

صاح جارد من بعيد: «جيمي! أعرف أنك هنا».

أحسست بساقيّ تتهاويان من تحتي خَدِرَتَيْن. لماذا جارد؟ سيكون الأمر أكثر سهولة بالنسبة لجيمي إذا قتلني كَايل بدلاً من جارد.

صاح جيمي مجيباً: «اذهب من هنا!».

ازدادت سرعة حركة الضوء الأصفر الذي رسم دائرة على الجدار البعيد.

ظل جارد واقفاً عند الزاوية. كان ضوء المصباح في يده يمسح الغرفة جيئة وذهاباً متنقلاً فوق أرضها الصخرية. لقد عاد جارد نظيفاً من جديد. كان مرتدياً قميصاً أحمر باهت اللون رأيته من قبل. رأيته معلقاً في الغرفة التي سكنتها عدة أسابيع. لذلك كان منظره مألوفاً بالنسبة

لي. كان وجهه مألوفاً أيضاً. كان يحمل التعبير نفسه الذي رأيته عليه منذ قدومي إلى هنا.

أصاب شعاع الضوء وجهي فأعماني. كنت أعرف أن الضوء ينعكس انعكاساً واضحاً عن الطبقة الفضية خلف بؤبؤي عيني، لأنني أحسست بجيمي يقفز خائفاً. لقد أجفل قليلاً ثم استعاد روعه. صار ثابتاً أكثر من ذي قبل.

زمجر جارد: «ابتعد عنها!».

أجابه جيمي صارخاً: «اخرس! أنت لا تعرفها! دعها وشأنها!».

تمسك جيمي بي أما أنا فرحت أحاول أن أفك يديه عني.

تقدم جارد مثل ثور هائج. أمسك بقميص جيمي من الخلف بيد واحدة وسحبه بعيداً عني. ظل ممسكاً بالقميص. كان يهز الصبي صارخاً: «أنت أحمق! ألا ترى كيف تستغلك؟».

وبحركة غريزية حشرت نفسي في الفراغ الضيق بين الاثنين. تحقق ما أريد. جعله تقدمي هذا يفلت جيمي. ما كنت أريد شيئاً آخر أحسست رائحته المألوفة تهاجم حواسي كلها. أحسست تفاصيل صدره تحت يدي.

قلت له: «اترك جيمي!». كنت أتمنى الآن فقط أن أكون كما تريدني ميلاني.. تمنيت أن تكون يداي قويتين الآن. أن يكون صوتي قوياً

أمسك جارد معصمَيَّ بيد واحدة ثم قذفني بعيداً عنه فاصطدمت بالجدار. فاجأني اصطدامي بالجدار.. جعلني عاجزة عن التنفس. ارتد جسدي عن الجدار الحجري فسقطت إلى الأرض. سقطت فوق الصناديق من جديد فأصدرت صوت فرقعة وتحطم عندما مزق سقوطي رقائق جديدة من السيلوفان.

راح نبض قلبي يدوي في رأسي عندما استلقيت فوق تلك الصناديق وللحظة قصيرة، رأيت أضواء غريبة تمر أمام عيني.

زعق جيمي مخاطباً جارد: «أنت جبان! إنها غير مستعدة لإيذائك حتى من أجل إنقاذ حياتها! لماذا لا تستطيع أن تتركها وشأنها؟».

سمعت صوت الصناديق تنزاح من حولي وأحسست يدي جيمي على ذراعي: «جو! هل أنت بخير يا جو؟».

قلت لاهثة: «لا بأس». تجاهلت ذلك النبض القارع في رأسي. رأيت وجهه القلق ينحني فوقي في ضوء مصباح جارد. لا بد أن جارد قد أسقط المصباح من يده. همست: «عليك أن تذهب الآن يا جيمي. اهرب».

هز جيمي رأسه رافضاً بعنف.

قال له جارد: «ابق بعيداً عنها!».

رأيت جارد يمسك بكتفي جيمي ويبعده عني. جعلت هذه الحركة الصناديق تنهال فوقي مثل شلال صغير. تدحرجت مبتعدة عنها مغطية رأسي بذراعي. أصابني صندوق ثقيل بين لوحي كتفي فصرخت متألمة.

جأر جيمي: «توقف عن إيذائها!». سمعت صوت صدمة حاد. لهث شخص متألماً.

حاولت سحب نفسي من تحت الصندوق الكبير. نهضت على مرفقيّ مذهولة.

رأيت جارد واضعاً يده على أنفه ورأيت شيئاً داكناً ينساب فوق شفتيه. كانت عيناه متسعتين بفعل الصدمة والدهشة. ورأيت جيمي واقفاً أمامه شاداً على قبضتيه، وعلى وجهه عبوس غاضب.

ذاب عبوس جيمي عندما حدق فيه جارد مذهولاً حل الألم محل العبوس. الألم والتعبير عن الإحساس بالخيانة. إحساس عميق لا يقل عن ذلك الذي ظهر على وجه جارد في المطبخ.

همس جيمي: «لست ذلك الرجل الذي كنت أظن». كان ينظر إلى جارد كما لو أنه بعيد جداً عنه. كما لو أن جداراً يفصل بينهما. يعزلهما عزلاً تاماً

بدأت الدموع تطفر إلى عيني جيمي فأدار رأسه خجلاً من إظهار ضعفه أمام جارد. سار مبتعداً بحركات سريعة.

قالت ميلاني بصوت حزين: «لقد حاولنا». كان قلبها يتألم على ذلك الطفل. حتى عندما كانت تتمنى أن تعود عيناي إلى الرجل الواقف بجوارنا. منحتها ما أرادت.

ما كان جارد ينظر إلي. كان محدقاً في السواد الذي ابتلع جيمي. مازالت يده تغطي أنفه.

صاح فجأة: «أوه، يا للبؤس! جيمي. عد إلى هنا!».

ما من إجابة.

ألقى جارد نظرة فارغة واحدة في اتجاهي. انكمشت مبتعدة رغم أن غضبه قد تلاشى كما أحسست. ثم التقط المصباح عن الأرض وسار مسرعاً خلف جيمي. رفس صندوقاً اعترض طريقه.

كان يصرخ باعتذارات غاضبة عندما بلغ منعطف الممر وتركني راقدة في الظلام: «أنا آسف! هل يرضيك هذا؟ لا تبك يا فتى!».

مرت فترة طويلة ما كنت قادرة أثناءها إلا على التنفس. كنت أركز على الهواء داخلاً إلى جسدي. خارجاً منه. داخلاً إليه. وعندما شعرت أنني أتقنت التنفس من جديد رحت أحاول النهوض من على الأرض. مرت ثوانٍ كثيرة حتى تذكرت كيفية تحريك ساقي، لكنني وجدتهما خائرتين مرتجفتين. تهددان بالانهيار. تهددان بسقوطي من جديد. لذلك، جلست مستندة إلى الجدار ورحت أنزلق حتى وجدت وسادتي. كيس الأرز. هدأت في تلك الوضعية ورحت أحاول تقييم وضعي.

لا كسور. إلا أنف جارد. هززت رأسي بحركة بطيئة. لا يجوز أن يتقاتل جارد وجيمي. إنني أسبب لهما عذاباً وبؤساً. تنهدت ثم عدت إلى تقييم الوضع. كانت منطقة واسعة في ظهري تؤلمني. أحسست بصفحة وجهي مهشّمة. رطبة. حيث اصطدمت بالجدار. كانت

تؤلمني عندما ألمسها. أحسست سائلاً دافئاً تحت أصابعي. لكن هذا كان أسوأ ما في الأمر كله. كانت بقية الكدمات والخدوش مقبولة.

غمرني شعور غير متوقع. غمرني شعور بالراحة عندما أدركت ذلك.

إنني حية. لقد سنحت لجارد فرصة قتلي لكنه لم يستخدمها لقد انطلق خلف جيمي بدلاً من قتلي. انطلق حتى يصحح الوضع بينهما. إذاً، مهما يكن الأذى الذي سببته للعلاقة بينهما، فهو لم يكن أذى غير قابل بلإصلاح.

لقد كان يوماً طويلاً. كان يوماً طويلاً حتى قبل ظهور جارد والآخرين. أحسست أن ذلك كان قبل دهور طويلة. أغمضت عيني حيث أنا وسقطت نائمة على كيس الأرز.

## الفصل الثامن والعشرون

# تشوش

تشوشتُ عندما استيقظتُ في تلك الظلمة المطلقة. لقد اعتدت خلال الأشهر الماضية أن تخبرني الشمس بقدوم الصباح. ظننت في البداية أن الوقت ما زال ليلاً، لكنني، عندما أحسست بالألم في ظهري وبالجرح الذي في وجهي، تذكرت أين أنا.

وإلى جانبي، سمعت صوت تنفس هادئ منتظم. لم يخفني هذا الصوت لأنه كان أكثر الأصوات ألفة في هذا المكان. لم يفاجئني أن جيمي عاد فتسلل إلى هنا فنام بجانبي طوال الليل.

لعل تغير إيقاع تنفسي هو ما أيقظ جيمي، ولعله استيقظ لأن برنامج حياتنا اليومي قد صار موحداً إلى حد كبير. أطلق جيمي زفرة صغيرة بعد ثوانٍ من استيقاظي.

قال هامساً: «جو؟».

«إنني هنا».

تنهد مرتاحاً.

قال: «المكان مظلم حقاً».

«نعم».

«أتظنين أن وقت الإفطار قد حان؟».

«لست أدري».

«إنني جائع. لنذهب ونَرَ».

لم أجبه.

فسَّر جيمي صمتي تفسيراً صحيحاً. فهمه كما هو. «لست في حاجة إلى الاختباء هنا يا جو»، قالها بصوت صادق بعد أن انتظر دقائق حتى أجيبه. «لقد تحدثت إلى جارد في الليلة الماضية. سوف يتوقف عن تعقبك. لقد وعدني».

كدت أبتسم. تعقُّبي!

قال جيمي ملحّاً: «هل تأتين معي؟». عثرت يده على يدي.

سألته بصوت خفيض: «أهذا ما تريد مني أن أفعله حقاً؟».

«نعم. سيعود كل شيء كما كان من قبل».

«ميلاني؟ هل هذا أفضل؟».

«لست أدري». كانت ممزقة. تعرف أنها لا تستطيع أن تكون موضوعية. إنها تريد رؤية جارد.

«لكن هذا جنون... أنت تعرفين ذلك».

«ليس هذا جنوناً بقدر جنون حقيقة أنك تريدين رؤيته أيضاً».

قلت موافقة: «لا بأس يا جيمي. لكن، لا تحزن عندما تجد أن الأمر ليس كما كان سابقاً. اتفقنا! لا تبتئس إذا سارت الأمور على نحو قبيح».

«سيكون الأمر خيراً. سوف ترين».

تركته يتقدمني في طريق الخروج من الظلام. كان يجرّني خلفه بيده التي ما زالت تمسك يدي. تأهبت عندما دخلنا كهف الحديقة الكبير. لا أستطيع أن أكون واثقة من ردّ فعل أي شخص نحوي هذا اليوم. من يدري ما الذي قيل أثناء غيابي؟

لكن الحديقة كانت خاوية مع أن الشمس كانت مشرقة متلألئة في السماء الصباحية. كان ضياء الشمس منعكساً على مئات المرايا. أعماني عدة لحظات.

ما كان جيمي مهتماً بالكهف الخاوي. كانت أنظاره مستقرة على

وجهي. شهق شهقة حادة عبر أسنانه المطبقة عندما لمس ضياء الشمس وجنتي.

قال لاهثاً: «أوه، ألا يؤلمك هذا؟ هل يؤلمك كثيراً؟».

لمست وجهي برفق. أحسست بالجلد قاسياً. صلباً بفعل الدم المتجمد. نبض الألم حيث لمست أصابعي وجهي.

همست: «لا بأس». جعلني خلو الكهف من الناس قلقة بعض الشيء. ما كنت راغبة في الحديث بصوت مرتفع. «أين ذهب الجميع؟».

رفع جيمي كتفيه. ما زالت عيناه متقلصتين ألماً. ما زال يعاين وجهي. قال: «أظن أنهم منشغلون». لم يخفض جيمي صوته.

ذكّرني هذا بالليلة الماضية. بالسر الذي ما كان يريد إخباري به. قطبت حاجبي.

«ما الذي لا يريد إخبارنا به حسب رأيك؟».

«لست أعرف اكثر مما تعرفين يا جو».

«انت بشرية. الا يفترض بك أن تملكي حدساً، أو شيئاً من هذا القبيل؟»

قالت ميلاني: «حدس! يقول لي حدسي إننا لا نعرف هذا المكان كما كنا نظن أننا نعرفه».

رحنا نتأمل في الأبعاد المشؤومة لهذه الكلمات.

جاءني ما يشبه الارتياح عندما سمعت الضجيج المألوف لوقت الطعام قادماً من ممر المطبخ. ما كنت أريد رؤية أحد تحديداً. هذا باستثناء التوق المرضي إلى رؤية جارد بطبيعة الحال. لكن تلك الأنفاق الخالية من الناس. مع معرفتي بأن شيئاً يحدث من دون إخباري به. لكن هذا كله جعلني حذرة متوترة.

ما كان المطبخ ممتلئاً. كان فيه أقل من نصفه. هذا شيء غريب في هذا الوقت من الصباح. لكنني ما كدت ألاحظ ذلك لأن الرائحة القادمة من الفرن الحجري طغت على كل ما عداها.

قال جيمي بصوت كالأنين: «أوه، بيض!».

صار جيمي يشدني بسرعة أكبر الآن. وما كنت الآن مترددة في السير بسرعة تواكب سرعته. أسرعنا كلانا. كانت معدة كل منا تقرقع بصوت مرتفع. أسرعنا صوب الطاولة المجاورة للفرن حيث كانت لوتشينا، الوالدة، واقفة وفي يدها مغرفة بلاستيكية. كان أسلوب الخدمة الذاتية معتمداً في وجبة الفطور في الأيام العادية، لكن طعام الفطور في الأوقات الاعتيادية كان خبزاً فقط.

تحدثت لوتشينا ناظرةً إلى جيمي وحده: «كان طعم البيض أفضل قبل ساعة من الآن».

قال جيمي متحمساً: «سيكون طعمه طيباً الآن أيضاً. هل أكل الجميع؟».

«أكلوا كثيراً! أظن أنهم أخذوا الطعام إلى الطبيب والآخرين. .» سكتت لوتشينا وانتقلت عيناها إليّ للمرة الأولى. فعلت عينا جيمي الشيء نفسه. لم أفهم التعبير الذي ارتسم على وجه لوتشينا.

اختفى ذلك التعبير بسرعة كبيرة وحل محله شيء آخر عندما راحت تعاين الآثار المرسومة على وجهي.

سألها جيمي: «كم بقي؟». بدت حماسته غير حقيقية في هذا اللحظة.

استدارت لوتشينا وانحنت فرفعت قدراً معدنية من الفرن الساخن: «كم تريد يا جيمي؟ ثمة الكثير». هكذا قالت له من غير أن تستدير

قال ضاحكاً: «اعتبري أنني كَايل».

قالت لوتشينا: «سأضع لك حصة بحجم حصة كَايل». ابتسمت، لكن عينيها كانتا حزينتين.

ملأتْ صحناً حتى حافته بالبيض المقلي الذي صار مطاطياً بعض الشيء. انتصبتْ واقفة وناولت جيمي صحنه.

نظرت إليّ من جديد ففهمت معنى هٰذه النظرة.

قلت له وأنا أحاول إبعاده عن الطاولة: «دعنا نجلس هناك يا جيمي».

حدق جيمي مدهوشاً: «ألا تريدين أن تأكلي البيض؟».

«لا، أنا. . » كنت موشكة أن ألفظ كلمة «بخير» من جديد عندما قرقعت معدتي متمردة على إرادتي.

نظر جيمي إليّ: «جو؟» ثم التفت إلى لوتشينا التي كانت قد طوت ذراعيها فوق صدرها.

«سوف آكل خبزاً فقط». هكذا قلت له محاولة دفعه بعيداً عن الفرن

«لا ما المشكلة يا لوتشينا؟». نظر إليها مستفسراً. لكنها لم تتحرك. «إذا انتهى عملك هنا فسوف أتولى الأمر بدلاً عنك». هكذا قال لها وقد قلَّص عينيه. ارتسمت ملامح العناد على وجهه.

رفعت لوتشينا كتفيها ووضعت المغرفة على الطاولة الحجرية. سارت مبتعدة بخطى بعيدة من غير أن تنظر صوبي من جديد.

همست مستعجلة بصوت هامس: «جيمي! هذا الطعام ليس لي. لم يغامر جارد والآخرون بأرواحهم حتى آكل البيض على الإفطار. لا بأس بالخبز!».

قال جيمي: «لا تكوني غبية يا جو. أنت تعيشين هنا الآن، مثل أي واحد منا. لا أحد يعترض عندما تغسلين ملابسهم أو تخبزين خبزهم! كما أن هذا البيض لن يدوم فترة أطول. إذا لم تأكليه الآن فسوف يكون مصيره إلى القمامة».

أحسست جميع العيون في المطبخ تخترق ظهري.

قلت بصوت أكثر هدوءاً: «لعل بعض الناس هنا يفضلون رميه في القمامة». ما كان أحد قادر على سماع هذه الجملة غير جيمي.

زمجر جيمي: «كفي عن هذا». انحنى فوق الطاولة فملأ صحناً آخر بالبيض ودفعه صوبي. «سوف تأكلين كل لقمة في هذا الصحن»، قالها بصوت مشبع بالتصميم.

نظرت إلى الصحن في يده. سال لعابي في فمي. دفعت الصحن عدة سنتمترات بعيداً عني وطويت ذراعيّ فوق صدري.

عبس جيمي: «فليكن!». ثم دفع صحنه بعيداً عنه أيضاً. «إذا لم تأكلي، فلن آكل». قرقعت معدته بصوت مسموع لكنه طوى ذراعيه فوق صدره مثلما فعلت.

رحنا نتبادل التحديق لحظات طويلة. كانت معدة كلٍ منا تقرقع كلما شممنا رائحة البيض. ومن حين لآخر كان جيمي يسترق نظرة سريعة إلى الطعام ومن زاوية عينه. هذا ما هزمني حقاً. ذلك التوق إلى البيض في عينيه.

قلت أخيراً: «لا بأس!». دفعت صحنه صوبه من جديد ثم أمسكت بصحني. انتظرني جيمي حتى وضعت أول لقمة في فمي. لم يلمس صحنه قبل ذلك. كتمت أنيناً كاد يفلت من فمي عندما أحس لساني بطعم البيض. كنت أعرف أن هذا البيض المقلي البارد الذي صار مطاطياً الآن ما كان أفضل شيء تذوقته في حياتي، لكني أحسست الآن أنه أطيب مذاقاً من أي شيء في العالم. إن هذا الجسد يعيش اللحظة!

كان ردّ فعل جيمي مماثلاً لردّ فعلي. عند ذلك، راح يدفع الطعام في فمه دفعاً. يحشوه حشواً. بسرعة شديدة حتى لكأنه ما عاد يملك وقتاً للتنفس. رحت أنظر إليه قلقة.

كنت أتناول طعامي ببطء أشدّ. كنت آمل أن أتمكن من إقناعه بالتهام بعض البيض الذي في صحني عندما ينتهي من صحنه.

وعندما خمدت ثورة جوعنا. عندما هدأت معدتي قليلاً. بدأت أخيراً ألاحظ الجو السائد في المطبخ.

كان من الطبيعي أن يسود المطبخ جو احتفالي بوجود هذا الإفطار الشهي بعد أشهر طويلة من رتابة الطعام المتكرر نفسه. لكن الجو كان كالحاً. كان الكلام كله يجري همساً. هل كان هذا ردّ فعل على

المشهد الذي جرى هنا ليلة أمس؟ رحت أنظر في الغرفة. أمسحها بنظري. محاولة أن أفهم الوضع.

كان الناس ينظرون إليّ حقاً. بعضهم. هنا وهناك، لكن هؤلاء ما كانوا الوحيدين الذين يتحدثون في همس جدي. وأما غيرهم فما كانوا مهتمين بوجودي على الإطلاق. كما أن أحداً من هؤلاء الناس كلهم ما كان يبدو غاضباً أو متوتراً أو شاعراً بالذنب أو أي شيء من تلك المشاعر التي كنت أتوقع وجودها.

لا! إنهم محزونون. كان القنوط مرسوماً على كل وجه في هذه الغرفة.

كانت شارون آخر شخص ألحظ وجوده. كانت تأكل في زاوية بعيدة منفردة بنفسها كعادتها. كانت متمالكة نفسها بينما راحت تتناول طعامها بحركة آلية فلم أنتبه في البداية إلى تلك الدموع التي تتساقط منحدرة على وجهها. كانت دموعها تسقط في صحنها لكنها واصلت الأكل كما لو أنها لا تلاحظ شيئاً.

همستُ مخاطبة جيمي وقد تملكني الفزع على نحو مفاجئ: «هل أصاب الطبيب شيء؟». لعلي منشغلة بنفسي أكثر من اللازم. لعل الأمر لا علاقة له بي! بدا الحزن في الغرفة جزءاً من مأساة بشرية أخرى لا علاقة لي بها. أهذا سبب انشغال الجميع؟ هل وقع حادث؟

نظر جيمي إلى شارون وتنهد قبل أن يجيبني: «لا، إن الطبيب بخير».

«أهي العمة ماغي؟ هل أصابها شيء؟».

هز جيمي رأسه نفياً.

قلت متسائلة. ما زلت أتحدث همساً: «أين وولتر؟». أحسست بقلق مضن عندما فكرت في أن أحداً من رفاقي هنا قد أصابه الأذى. حتى ممّن يكرهونني.

«لست أدري. إنه بخير، أنا واثق من هذا».

لاحظت عند ذلك أن جيمي كان حزيناً مثله مثل الجميع هنا.

«ما الأمر يا جيمي؟ ما الذي يحزنك؟».

أطرق جيمي محدقاً في صحن البيض. صار يأكل متمهلاً الآن.

لم يجبني.

أنهى صحنه صامتاً. حاولت دفع صحني إليه لكنه نظر إليّ عابساً على نحو جعلني أستعيد صحني وألتهم ما بقي فيه من غير مقاومة.

وضعنا صحنينا في الوعاء البلاستيكي الكبير الذي توضع فيه الأطباق المتسخة. كان الوعاء ممتلئاً فحملته عن الطاولة. ما كنت أعرف ما يجري في الكهوف اليوم، لكن لا بد من غسل هذه الصحون. لا بد أن يكون هذا انشغالاً مناسباً آمناً بالنسبة لي.

سار جيمي إلى جانبي بعينين يقظتين. لم يعجبني هذا. ما كنت أريد أن يلعب جيمي دور حارسي الشخصي إذا وقع مكروه. لكن عندما كنا نسير ملتفين حول زاوية الحقل الكبير، ظهر حارسي الشخصي المعتاد. لذلك ما عدت الآن أجد سبباً للخوف على جيمي.

كان إيان قذراً. كان مغطى بغبار خفيف بني اللون من رأسه حتى قدميه. كان الغبار أكثف لوناً على ثيابه المبللة بفعل التعرق. ما كانت اللطخات البنية على وجهه قادرة على إخفاء التعب فيه. لم أفاجأ عندما رأيته حزيناً مثل الآخرين. لكن هذا الغبار أثار فضولي. ما كان يشبه غبار الكهف الأرجواني المائل إلى السواد. لقد كان إيان خارج الكهوف هذا الصباح.

تمتم عندما رآنا: «ها أنتم». كان يسير مسرعاً. كانت ساقاه الطويلتان تجتازان المسافة الفاصلة بخطوات قلقة. وعندما وصل إلينا لم يبطئ خطواته لكنه أمسكني من مرفقي فجعلني أسرع إلى الأمام: «دعونا ندخل هنا دقيقة فقط».

جذبني إلى فوهة نفق ضيقة تؤدي إلى الحقل الشرقي حيث كادت الذرة تنضج فيه. لم يستمر في جذبي بعيداً. اكتفى ببلوغ المنطقة

المظلمة حيث ما عادت رؤيتنا من الغرفة الكبيرة ممكنة. أحسست بيد جيمي تستقر بخفة على ذراعي الأخرى.

بعد نصف دقيقة، ترددت أصداء أصوات عميقة عبر الكهف الكبير ما كانت أصواتاً صاخبة. كانت أصواتاً محزونة. مكتئبة مثل الوجوه التي رأيتها هذا الصباح. مر أصحاب هذه الأصوات قريباً من الفتحة التي كنا مختبئين فيها. توترت يد إيان الممسكة بمرفقي. ضغطت أصابعه على المنطقة الطرية فوق العظم. عرفت صوت جارد. وصوت كَايل حاولت ميلاني التمرد والإفلات من سيطرتي. وكانت سيطرتي متراخية بطبيعة الحال. كنا نتوق، أنا وهي، إلى رؤية وجه جارد. جيد أن إيان كان يمسكنا فيمنعنا من الحركة.

كان جارد يقول: «. لست أدري ما الذي جعلنا نتركه يستمر في المحاولة. عندما ينتهي الأمر. فقد انتهى».

قال كَايل معترضاً: «إنه يظن حقاً أنه تمكن من الأمر هذه المرة. كان واثقاً تماماً. أوه، سوف يستحق الأمر كل هذا العناء إذا تمكن من فهمه ذات يوم».

قال جارد ساخطاً: «إذا! أعتقد أن عثورنا على ذلك البراندي كان أمراً جيداً. سوف يأتي الطبيب على الزجاجة الكبيرة كلها مع حلول الظلام إذا استمر على هذا المنوال».

قال كَايل وقد بدأ صوته يخفت مع ابتعاد المسافة: «سوف يفقد وعيه قبل ذلك. ليت شارون. .» ما عدتُ قادرة على فهم شيء من كلماته.

انتظر إيان حتى اختفت الأصوات تماماً ثم انتظر عدة دقائق أخرى قبل أن يفلت ذراعي آخر الأمر.

قال جيمي له: «لقد وعدنا جارد».

أجابه إيان: «نعم! لكن كَايل لم يعدنا بشيء».

عادا إلى حيث الضوء. لحقت بهما بخطوات بطيئة. ما كنت واثقة من أحاسيسي.

لاحظ إيان ما أحمله بين يدي: «دعك من هذه الصحون الآن. علينا أن نمنحهما فرصة للاغتسال والذهاب من هنا».

فكرت في سؤاله عن سبب اتساخه، لكنه على الأرجح سيرفض الإجابة عن سؤالي كما فعل جيمي. استدرت ناظرة إلى النفق المفضي إلى النهرين. كنت أحاول تخمين حقيقة الأمر.

صدر صوت غاضب عن إيان.

عدت بنظري إليه، مذعورة، ثم أدركت سبب انزعاجه. لقد انتبه إلى وجهي الآن.

رفع يده كما لو أنه يريد الإمساك بذقني لرفعها إلى الأعلى، لكني انكمشت مبتعدة عنه فأسقط يده من جديد.

قال: «إن هذا المنظر يصيبني بالغثيان». أحسست من صوته أنه أصيب بالغثيان فعلاً. «بل أسوأ من هذا. أعرف أنني لو كنت قد ذهبت معهم ولم أتخلف عن الالتحاق بالغارة لكان ثمة احتمال كبير لأن أفعل هذا بك بيدي هاتين. .».

هززت رأسي: «إنه لا شيء يا إيان».

قال غاضباً: «لست أتفق معك». ثم قال مخاطباً جيمي: «لعل عليك الذهاب إلى مدرستك الآن. من الأفضل أن نجعل كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية في أسرع وقت ممكن».

قال جيمي محتجاً: «سوف تكون شارون كابوساً اليوم».

ابتسم إيان: «لقد حان وقت ذلك الكابوس بالنسبة لك يا فتى. لست أحسدك».

تنهد جيمي وضرب الأرض الترابية بقدمه: «احرص على جو».

«سوف أحرص عليها».

ابتعد جيمي، لكنه كان يلتفت ناظراً إلينا من حين لآخر، حتى اختفى ذاهباً في النفق المؤدي إلى غرفة المدرسة.

قال إيان وهو يسحب وعاء الصحون من بين يدي قبل أن أنتبه «هاتي! أعطيني هذا الوعاء».

قلت له: «ليس الوعاء ثقيلاً بالنسبة لي».

ابتسم من جديد: «أشعر بالسخف عندما أقف هنا بيدين فارغتين وأراك تحملين هذا الوعاء. اعتبري ذلك نوعاً من الشهامة! هيا. فلنذهب حتى ننال قسطاً من الراحة في مكان منعزل حتى تخلو غرفة النهرين».

أقلقتني كلماته. تبعته صامتة. لماذا يظن أن عليه أن يكون شهماً معي؟

سار إيان طوال الطريق حتى حقل الذرة ثم دخل حقل الذرة ماشياً بين النباتات. سرتُ من خلفه حتى توقف. في مكان ما عند وسط الحقل. وضع وعاء الصحون جانباً ثم جلس على التراب.

قلت له وأنا أجلس على الأرض إلى جانبه متربعة: «طيب، صرنا الآن خارج طريق الناس. لكن، أليس هذا وقت العمل؟».

«أنت تعملين بجد كبير يا جو. أنت الوحيدة هنا التي لا تأخذ أيام استراحة».

غمغمت: «هذا يمنحني شيئاً أشغل به نفسي».

«الجميع في استراحة اليوم. لذلك عليك أن ترتاحي أيضاً».

نظرت إليه مستغربة. كان الضياء القادم من المرايا يلقي ظلالا مزدوجة بسبب أعواد نباتات الذرة. كانت هذه الظلال تتقاطع فوق إيان فترسم عليه شيئاً يشبه الشبكة. كان وجهه يبدو متعباً تحت هذه الخطوط وتحت الأوساخ التي تغطيه.

«يبدو من منظرك أنك كنت تعمل».

توترت عيناه: «لكني أستريح الآن».

همست: «جيمي يرفض إخباري بما يجري».

تنهد إيان: «حقاً! وأنا لن أخبرك أيضاً. إنه شيء لا تريدين معرفته»

نظرت إلى الأرض. إلى التراب الأرجواني البني الداكن

أحسست باضطراب في معدتي. ما كنت أجد شيئاً أسوأ من عدم المعرفة. لكن لعلي ضعيفة القدرة على التخيل!

قال إيان بعد لحظة صمت: «هذا ليس منصفاً في الحقيقة. أنا أرفض الإجابة عن سؤالك، لكن هل تمانعين أن أسألك سؤلاً؟»

سررت بهذا لأنه يمكن أن يشغل ذهني ويبعده عن القلق: «هيا. اسأل»

لم يتكلم في البداية، لذلك نظرت إلى وجهه لأعرف سبب تردده. كان مطرقاً الآن. كان ينظر إلى الغبار الذي على ظهر كفيه.

قال بصوت هادئ: «أعرف أنك لست كاذبة. أعرف ذلك الآن. وسوف أصدقك مهما تكن إجابتك»

انتظرت من جديد لكنه راح يواصل التحديق في الغبار على يديه.

سألني وهو يرفع رأسه ناظراً إليّ: «لم أكن أصدق قصة جيب قبل الآن، لكنه مقتنع تماماً. والطبيب مقتنع أيضاً يا جو! أما زالت ميلاني موجودة معك؟ الفتاة التي حللت في جسدها الآن!».

ما كان هذا سراً بعد الآن. جيمي وجيب يعرفان الحقيقة. وما كان ذلك السر المهم حقاً. كما أنني أثق بإيان. أثق بأنه لن يكثر من الكلام في هذا الأمر. لن يخبر من يريدون قتلي. قلت له: «نعم. ما زالت ميلاني موجودة».

أومأ برأسه بطيئاً: «كيف يكون الإحساس بذلك؟ بالنسبة لك. وبالنسبة لها»

«إنه. شعور محبط، لكلينا. كنت في البداية مستعدة لفعل أي شيء حتى أتخلص منها. حتى تختفي كما يُفترض أن تفعل. أما الآن فأنا. فقد اعتدت وجودها». ابتسمت ابتسامة قلقة. «لطيف أن يكون عند المرء نوع من الرفقة أحياناً. لكن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لها. إنها مثل السجين من نواح كثيرة. إنها محبوسة بعيداً داخل رأسي. لكنها تفضل هذا السجن على الاختفاء اختفاء تاماً».

«ما كنت أعرف أن ثمة مجالاً للاختيار».

«ما كان هناك مجال للاختيار في البداية. لم يصبح هذا الأمر وارداً حتى اكتشف أبناء جنسكم ما يجري. فبدأت المقاومة. يبدو أن هذا هو مفتاح الأمر أن يعرف المرء ما يحدث. أما البشر الذين فوجئوا بالأمر فلم يقاوموا إطلاقاً».

«إذاً، إذا أمسكوا بي. . .».

رحت أنظر إلى تعبير وجهه الغاضب. أنظر إلى النار في عينيه اللامعتين.

«أشك في أنك يمكن أن تختفي. لقد تغيرت الأمور رغم ذلك عندما يمسكون الآن بشخص كبير فإنهم لا يجعلونه مضيفاً لإحدى الأرواح. هذا يسبب كثيراً من المشاكل». ابتسمت نصف ابتسامة من جديد. «مشاكل مثلي أنا. تصاب الروح بالضعف. ثم تتعاطف مع المضيف. وتضل سبيلها كما فعلت. .».

فكر في ما قلته زمناً طويلاً. كان ينظر إلى وجهي أحياناً وإلى نباتات الذرة أحياناً أخرى. وكان ينظر إلى لا شيء في بعض الأحيان.

سألني أخيراً: «ماذا يمكن أن يفعلوا بي إذا تمكنوا مني. إذا أمسكوا بي الآن؟».

«سوف يزرعون فيك روحاً كما أظن. سيفعلون هذا للحصول على ما في رأسك من معلومات. قد يضعون أحد الباحثين فيك».

ارتجف إيان.

«لكنهم لن يحتفظوا بك مضيفاً لتلك الروح. سواء حصلوا على المعلومات أو لم يحصلوا عليها، فسوف. يتخلصون منك». كان صعباً عليّ أن أقول هذه الكلمة. كانت الفكرة تفزعني. هذا غريب!. إن تصرفات البشر هي ما يشعرني بالفزع عادة. لكني لم أنظر إلى الأمر قبل الآن من وجهة نظر الجسد. لم أعش في كوكب يجبرني على هذه النظرة. إن الجسد الذي لا يؤدي وظيفته على نحو صحيح يكون مصيره أن

يتم التخلص منه سريعاً من غير ألم. لأنه يكون عديم الفائدة مثل سيارة لا تسير. ما الفائدة من الاحتفاظ به؟ ثمة بعض الأمراض العقلية أيضاً التي تجعل الجسد غير صالح للاستخدام: حالات الإدمان الشديد. وأشياء لا يمكن ضبطها. بل يمكنها أن تجعل الجسد خطيراً على الآخرين. أو، بطبيعة الحال، عقل يملك إرادة قوية إلى درجة تمنع محوه.

لم أكن أرى مدى بشاعة معاملتنا للنفس التي لا نستطيع قهرها وهزيمتها من قبل. لم أر ذلك حتى نظرت إلى عيني إيان.

سألني: «وماذا يحدث إذا أمسكوا بك؟».

«إذا عرفوا هويتي. إن كانوا مستمرين في البحث عني. .»

فكرت في باحثتي وارتجفت كما ارتجف هو قبل قليل. «فسوف يخرجونني من هذا الجسد ليضعوني في جسد مضيف آخر. سيكون شخصاً صغير السن، شخصاً يسهل التحكم فيه. وسوف يأملون أن أتمكن من العودة إلى طبيعتي من جديد. ولعلهم يرسلونني إلى كوكب آخر. يبعدونني عن التأثيرات السلبية».

«وهل ستعودين كما كنت؟».

قابلت نظراته: «إنني على طبيعتي. إنني كما أنا. لم أخسر نفسي أمام ميلاني. سوف يظل شعوري كما هو الآن. حتى إذا كنت دباً أو طيراً».

«ألن يتخلصوا منك أنت أيضاً؟».

«لا يجري التخلص من الأرواح! ليست لدينا عقوبة إعدام لبني جنسنا. ليست لدينا أي عقوبة في الحقيقة. مهما فعلوا، فسوف يكون هدفهم إنقاذي. كنت أظن أن ما من حاجة إلى أي أسلوب آخر، لكنني أجد نفسي الآن برهاناً على عدم صحة هذه النظرية. لعل من الأسلم أن يتخلصوا مني. إنني خائنة، ألست كذلك؟».

شد إيان على شفتيه: «إنك مهاجرة. هكذا أفضّل القول. لم تنقلبي على بني جنسك بل تركت مجتمعهم».

صمتنا من جديد. كم وددت أن أصدق ما قاله. أن أقتنع بصحته. رحت أفكر في كلمة «مهاجرة» محاولة إقناع نفسي بأنني لست أسوأ من ذلك.

تحدث إيان بصوت مرتفع جعلني أجفل: «عندما يصحو الطبيب، فسوف أجعله يلقي نظرة على وجهك». مد يده فوضعها تحت ذقني. لم أبتعد عنه هذه المرة. أدار وجهي جانباً حتى يتمكن من النظر إلى جرحي.

«هذا ليس مهماً. أنا واثقة من أنه يبدو أسوأ من حقيقته».

قال متنهداً: «آمل ذلك. إنه يبدو مخيفاً». قال هذا ثم تمطى. «أظن أننا اختبأنا هنا مدة تكفي لأن يغتسل كَايل ويذهب إلى النوم. أتريدين أن أساعدك في غسل هذه الصحون؟».

لم يتركني إيان أغسل الصحون في الجدول كما كنت أفعل دائماً أصر على أن نذهب إلى حوض الاستحمام الأسود حيث لن يرانا أحد. رحت أغسل الصحون عند الجزء الضحل من البركة وانهمك إيان في تنظيف نفسه من آثار العمل السري الذي كان يقوم به. بعد ذلك ساعدني في غسل الصحون الأخيرة.

عندما انتهينا رافقني في العودة حتى المطبخ الذي بدأ الناس يتوافدون عليه من أجل وجبة الغداء. رأيت أصنافاً جديدة من الطعام: خبز أبيض طري، وشرائح من جبنة الشيدر، ودوائر من النقانق الوردية الشهية. كان الناس ينظرون إلى هذه اللذائذ نظرات مشتهية رغم ذلك اليأس والقنوط الذي ما زال ظاهراً في تهدل أكتافهم وفي غياب ابتساماتهم وضحكاتهم

كان جيمي ينتظرني عند طاولتنا المعتادة. رأيت أمامه كومتين من الشطائر، لكنه لم يكن يأكل. كانت ذراعاه مطويتين. كان ينتظرني! نظر إيان إلى تعبير وجهه مستغرباً لكنه تركني ليأخذ نصيبه من الطعام.

نظرت إلى جيمي مستغربة عناده هذا وقضمت قضمة من الشطيرة انقضّ جيمي على الطعام عندما رآني أبدأ. عاد إيان سريعاً ورحنا نتناول طعامنا صامتين. كان الطعام لذيذاً جداً. حتى إنه كان صعباً أن يتخيل

المرء سبباً يجعله يفتح أي حديث أو يتخيل شيئاً آخر يمكن أن يجعل فمه يتوقف عن الأكل.

توقفت بعد أن التهمت شطيرتين، لكنني جيمي وإيان ظلا يأكلان حتى انتفخ بطناهما. حتى شعرا بالألم. كان شكل إيان موحياً بأنه على وشك الانهيار في مكانه. كانت عيناه تغالبان النعاس الآن.

قال إيان لجيمي: «عد إلى المدرسة يا فتى».

نظر جيمي إليه: «ربما كان عليّ تولي الحراسة بدلاً منك. .».

قلت له مستعجلة: «اذهب إلى المدرسة!». أردت أن يكون جيمي بعيداً عني اليوم. حتى يكون آمناً.

«أراك لاحقاً، أليس كذلك؟ لا تقلقي بشأن. بشأن أي شيء».

«بالتأكيد». لن تكون كذبة مؤلفة من كلمة واحدة كذبة مفضوحة. أم لعلي صرت ساخرة متهكمة من جديد.

بعد أن ذهب جيمي استدرت صوب إيان الناعس: «اذهب لتنال قسطاً من الراحة. سوف أكون بخير. سوف أجلس في مكان لا يشك أحد فيه. سأجلس في حقل الذرة. أو في أي مكان آخر»

سألني: «أين نمت ليلة أمس؟». كانت نظرات عينيه حادة على نحو مفاجئ من تحت جفنيه نصف المسدلين.

«لماذا؟».

«أستطيع النوم هناك الآن. أما أنت فيمكنك الجلوس إلى جانبي».

كنا نتحدث همساً. ما كان أحد منتبهاً إلينا.

«لا يمكنك الاستمرار في مراقبتي كل ثانية».

«أتريدين المراهنة؟».

رفعت كتفيّ مستسلمة: «كنت هناك. في الكهف الصغير. حيث كنت محبوسة في البداية».

تجهم وجه إيان. لم يعجبه هذا. لكنه نهض وسار أمامي حتى وصلنا إلى ممر المستودع. كانت الساحة الرئيسية مزدحمة الآن. كانت مملوءة

بالناس الذين يتحركون من حول الحقل. كانت وجوههم جادة. كانت نظراتهم مسدلة إلى الأرض.

عندما صرنا وحيدين في النفق المظلم، حاولت التحدث معه من جديد.

«إيان، ما الفكرة في هذا كله؟ ألن يتأذى جيمي أكثر إذا عشت فترة أطول؟ ألن يكون من الأفضل بالنسبة له إذا ...».

«لا تفكري على هذا النحو يا جو. نحن لسنا بهائم. ليس موتك قدراً محتوماً».

قلت له بصوت هادئ: «لست أراك بهيمة».

«شكراً. لم أقل ذلك على سبيل الاتهام. لن ألومك إذا اعتبرتنا بهائم».

كانت تلك نهاية كلامنا. ففي تلك اللحظة رأينا الضوء الأزرق الشاحب يلوح من بعيد عند منعطف النفق.

همس إيان: «ششش، انتظري هنا».

ضغط على كتفي ضغطاً لطيفاً. كان يحاول جعلي أتوقف في مكاني. ثم تقدم سريعاً إلى الأمام من دون أي محاولة لإخفاء صوت خطواته. اختفى إيان خلف منعطف الممر.

سمعته يقول متظاهراً بالدهشة: «جارد!».

قفز قلبي بين ضلوعي. كان الإحساس ألماً. أكثر منه خوفاً.

أجابه جارد: «أعرف أنها معك». رفع صوته حتى يستطيع سماعه أي شخص موجود على امتداد الممر حتى الساحة الرئيسية. «تعالي، تعالي، أينما كنت»، هكذا ناداني بصوت قاس ساخر.

## الفصل التاسع والعشرون

# خيانة

ربما كان عليّ الفرار في الاتجاه الآخر. لكن أحداً ما كان يمسكني فيمنعني من الهرب الآن. صحيح أن صوت جارد كان بارداً. غاضباً، لكنه كان يناديني. كانت ميلاني أكثر توقاً مما كنت عندما خطوت حذرة حول تلك الزاوية فصرت في ذلك الضوء الأزرق. وهناك ترددت.

كان إيان واقفاً أمامي على بُعد خطوات قليلة. كان واقفاً هناك مستعداً متأهباً لأي حركة عدوانية يمكن أن يقوم بها جارد نحوي.

كان جارد جالساً على الأرض، على واحدة من الحصائر التي جلبها جيمي. بدا شديد التعب مثل إيان، لكن عينيه كانتا يقظتين متأهبتين خلافاً لجسده المتعب.

قال جارد لإيان: «مهلك يا إيان، أريد أن أتحدث معها فقط. لقد وعدت الفتى. وسوف أفي بوعدي»

سأله إيان: «أين كَايل؟».

«إنه يشخر وقد ينهار كهفكم لشدة الاهتزاز».

لم يتحرك إيان.

«لست أكذب عليك يا إيان. كما أنني لا أريد قتلها إن جيب على حق. فمهما يكن هذا الوضع الغبي مضطرباً الآن، فإن لجيمي حقاً لا يقل عن حقي. وهو مخدوع بها تماماً. هذا ما يجعلني أستبعد أن يسمح لي بالتصرف قريباً».

زمجر إيان: «لا أحد مخدوعاً هنا»

لوّح جارد بيده متغاضياً عن هذا الخلاف على المصطلح: «إنها ليست معرَّضة لأي خطر من جانبي. هذا ما أقصده». نظر إليّ للمرة الأولى. نظر إلى طريقة إمساكي بالجدار. نظر إلى يديّ المرتجفتين. قال لي: «لن أسبب لك أي أذى».

تقدمت خطوة صغيرة إلى الأمام.

قال إيان بسرعة: «لست مضطرة إلى الحديث معه إن كنت غير راغبة في ذلك يا جو. هذا ليس إجبارياً. إن لديك الخيار».

تجهَّم وجه جارد وانعقد حاجباه فوق عينيه. لقد أزعجته كلمات إيان.

همست: «لا، سوف أتحدث معه». تقدمت خطوة أخرى. مد جارد يده وثنى أصابعه مرتين مشجعاً إياي على الاقتراب.

مشيت بخطوات بطيئة. كانت كل خطوة حركة مستقلة. يليها وقوف. ما كانت خطواتي جزءاً من تقدم متواصل مستقر. توقفت على مسافة متر واحد منه. كان إيان يرافق خطواتي. كان إلى جانبي تماماً

ردّ جارد له: «أودّ أن أتحدث معها على انفراد إذا لم يكن لديك مانع».

قال إيان: «لدي مانع».

قلت لإيان: «لا، لا يا إيان. لا بأس. اذهب لتنال قسطاً من النوم. سأكون بخير». قلت هذا ولكزت ذراعه برفق.

حدق إيان في وجهي. كان الشك يملأ وجهه: «أتكون هذه رغبه في الموت؟ لعلك تحاولين إراحة الفتى؟».

«لا لن يكذب جارد على جيمي في هذا الأمر».

تأوه جارد عندما سمعني أنطق اسمه. عندما سمعني أنطقه بهذه الثقة.

قلت راجية: «أرجوك يا إيان، أريد أن أتحدث معه».

نظر إيان إليّ لحظة طويلة ثم استدار عابساً صوب جارد. خاطبه

مركزاً على كل كلمة: «اسمها جو. لا يجوز لك أن تلمسها. أي أثر تتركه عليها سوف أتركه على وجهك مضاعفاً».

انكمشت لسماع هذا التهديد.

استدار إيان فجأة وانطلق في الظلمة.

ساد الصمت لحظة رحنا فيها ننظر إلى الحيِّز الفارغ حيث كان إيان واقفاً. نظرت إلى وجه جارد أولاً عندما كان لا يزال محدقاً في إثر إيان. وعندما استدار ليقابل نظرتي. خفضت عينيّ إلى الأرض.

قال جارد: «واو! إنه لا يمزح، أليس كذلك؟».

اعتبرت هذه الجملة نوعاً من بداية حديث بيننا.

سألني وهو يربت بيده على الحصير بجانبه: «لماذا لا تجلسين؟».

فكرت في الأمر لحظة ثم مضيت فجلست مستندة إلى الجدار نفسه، لكني اخترت مكاناً قريباً من حفرتي وجعلت مسافة الحصير تفصل بيننا. لم تعجب هذه الحركة ميلاني. كانت تريد الجلوس إلى جانبه. كانت تريد أن أشم رائحته وأن أشعر بالحرارة المنبعثة من جسده.

لكني ما كنت أريد هذا. لا لأني كنت خائفة من أن يؤذيني. ما كان يبدو غاضباً في هذه اللحظة. كان يبدو منهكاً. كنت غير راغبة في الاقتراب منه. كان شيء في صدري يؤلمني. سوف يزداد الألم إذا اقتربت أكثر. يؤلمني أن يكرهني على هذه المسافة القريبة.

كان ينظر صوبي، وكان رأسه مائلاً قليلاً. ما كنت أستطيع مقابلة نظراته إلا على نحو عابر ثم أشيح بوجهي جانباً.

«آسف لما حدث في الليلة الماضية. آسف لما أصاب وجهك! ما كان عليّ أن أفعل هذا».

حدّقت في يديّ المعقودتين في حجري.

«لا داعي لأن تخافي مني».

أومأت برأسي من غير أن أنظر إليه.

قال مستغرباً: «ألم تقولي إنك تريدين الحديث معي؟».

رفعت كتفيّ. ما كنت قادرة على العثور على صوتي مع كل هذا التوتر المعلّق في الهواء بيننا.

سمعته يتحرك. زلق نفسه عبر الحصير حتى صار جالساً إلى جانبي. تماماً كما أرادت ميلاني. صار قريباً جداً. كان التفكير صعباً. كان التنفس صعباً. لكني لم أستطع أن أجعل نفسي أبتعد عنه. يا للغرابة. أليس هذا ما كانت تريده ميلاني في اللحظة الأولى؟ إلا إنها منزعجة على نحو مفاجئ الآن.

سألتها وقد فوجئت بشدة انفعالها: «ماذا؟».

«لا يعجبني جلوسه قريباً منك إلى هذا الحد. لا يبدو هذا صحيحاً! لا تعجبني رغبتك في وجوده إلى جانبك». إنها المرة الأولى منذ تركنا المدنية خلفنا. المرة الأولى التي أشعر فيها بهذه الموجات من الكراهية نابعة عنها. صدمت حقاً. ما كان هذا منصفاً.

قال جارد، وقد قاطعنا: «لدي سؤال واحد فقط». نظرت إلى عينيه ثم أدرت وجهي. أدرته بسبب قسوة عينيه وبسبب شدة انزعاج ميلاني

«لعلك قادرة على تخمين هذا السؤال. لقد أمضى جيب وجيمي طوال الليل يتحدثان معي. .».

انتظرت سؤاله. كنت أحدق في كيس الأرز في الجانب الآخر من القاعة المظلمة، ذلك الكيس الذي كان وسادتي في الليلة الماضية. ومن زاوية عيني، رأيت يده ترتفع فانكمشت ملتصقة بالجدار.

قال من جديد. كان نافد الصبر: «لست أريد إيذاءك». أمسك ذقني بيده الخشنة وجذب وجهي فأداره حتى اضطر إلى النظر إليه.

قفز قلبي عندما لمسني جارد. وتجمعت فجأة دموع كثيرة في عينيّ رفرفت بجفني محاولة إبعاد تلك الدموع.

«جو». نطق اسمي متمهلاً غير راغب في نطقه. أعرف هذا رغم أن صوته كان خالياً من أي تعبير. «أما زالت ميلاني حية. هل هي جزء منك؟ قولي لي الحقيقة».

هاجمتني ميلاني بقوة فظيعة. كان هذا مؤلماً. مؤلماً حتى من الناحية الجسدية. مؤلماً مثل طعنة الصداع المفاجئة. كان ذلك عندما حاولت أن تشق طريقها إلى الخارج.

«كفي عن هذا! ألا ترين؟».

كان الأمر واضحاً في طريقة إطباق شفتيه. في الخطوط العميقة المرتسمة تحت عينيه. ما كانت إجابتي مهمة وما كان ما تود ميلاني قوله مهماً أيضاً.

قلت لها: «إنه يعتبرني كاذبة منذ البداية. إنه لا يريد الحقيقة... إنه يبحث عن دليل... عن طريقة لإثبات كذبي... لإثبات أنني باحثة... لإثبات ذلك أمام جيب وجيمي حتى يسمحا له بقتلي».

رفضت ميلاني إجابتي. رفضت تصديقي. رحت أكافح حتى أبقيها صامتة.

كان جارد ينظر إلى حبات العرق التي تشكلت فوق جبهتي. إلى الرجفة الغريبة التي كانت تهزني. ضاقت عيناه. ظل ممسكاً بذقني رافضاً السماح لي بإدارة وجهي.

حاولت ميلاني أن تصرخ: «أحبك يا جارد. إنني هنا».

لكن شفتيّ لم تتحركا. فوجئت بأنه لم يستطع قراءة هذه الكلمات التي قالتها عيناي بكل وضوح.

مر الوقت بطيئاً. كان جارد ينتظر إجابتي عن سؤاله. كان هذا عذاباً. أن أحدّق في عينيه. وأن أرى المقت فيهما. وكأن هذا كله لم يكن كافياً. استمر غضب ميلاني يجرحني من الداخل. تدفقت غيرتها سيلاً مراً تدفق في جسدي كله فلوثه بالمرارة.

مر وقت آخر. اندفعت الدموع إلى عينيّ من جديد فما عدت قادرة على حبسها. راحت تقطر على خدي وتتدحرج صامتة حتى يد جارد. لم تتغير تعابير وجهه.

ضقت ذرعاً بالأمر. أغمضت عينيّ وأدرت رأسي مفلتة من قبضة جارد. لكنه لم يؤذني. لقد ترك يده تسقط إلى الأسفل.

تنهد جارد. محبطاً.

توقعت أن يذهب. نظرت إلى يدي من جديد منتظرة ذهابه. كان نبض قلبي يسجل مرور الزمن. مرور الدقائق. لكن جارد لم يتحرك. لم أتحرك. بدا جارد منحوتاً من صخر في جلسته تلك إلى جانبي. كان هذا يناسبه. هدوء التمثال الصخري. كان هذا مناسباً لتعابير وجهه الجديدة القاسية. لتلك الصرامة في عينيه.

راحت ميلاني تتأمل جارد هذا. تقارنه بالرجل الذي كان. تذكرت يوماً عادياً أثناء فترة الهرب.

صاح جارد وجيمي معاً: «أوف!».

كان جارد جالساً على الاريكة الجلدية. وكان جيمي منبطحاً على السجادة أمامه. إنهما يشاهدان مباراة في كرة السلة على شاشة تلفزيون كبيرة. إن الطفيليين الذين يسكنون هذا البيت في عملهم الآن. وقد ملأنا السيارة بجميع ما استطعنا الحصول عليه. لدينا الآن ساعات من الراحة قبل أن نصبح في حاجة إلى الاختفاء من جديد.

وعلى شاشة التلفزيون، كان لاعبان مختلفان، خلافاً مهذباً. المصوِّر قريب منهما... نستطيع سماع كلامهما.

«أظن أنني من لمس الكرة أخيراً... إن الكرة من حقك».

«لست واثقاً من هذا. لا أريد الحصول على مكسب ليس من حقي. من الأفضل أن نطلب من الحكام مراجعة شريط التسجيل».

تصافح اللاعبان وراح كل منهما يربت على كتف الآخر.

قال جارد مشمئزاً: «هذا سخف!».

وافقه جيمي: «لا أستطيع احتمال هذا». إن جيمي يقلد نبرة حديث جارد تقليداً ممتازاً... إنه يغدو أكثر شبهاً به كل يوم... هذا شكل من

أشكال عبادة بطله. «هل يمكننا العثور على شيء آخر على الشاشة؟».

راح جارد يقلب قنوات التلفزيون حتى وجد محطة رياضية أخرى. إن الطفيليين يقيمون الألعاب الأولمبية في هاييتي في هذه اللحظة. ومما نستطيع مشاهدته... نرى أن الأمر مثير لهؤلاء الطفيليين كلهم. يحمل كثير منهم أعلام الأولمبياد. يرفعونها فوق بيوتهم. لكن الأمر مختلف رغم ذلك! كل من يشارك في الألعاب الأولمبية يحصل على الميداليات الآن... يا للبؤس!

لكنهم لا يستطيعون إفساد سباق المئة متر. إن الرياضات الفردية لدى الطفيليين أكثر إثارة وتسلية من الرياضات التنافسية التي تشهد احتكاكاً بين اللاعبين. يكون أداؤهم أفضل عندما يلعبون منفصلين من غير احتكاك مباشر.

ناداني جارد: «ميلاني... تعالي واستريحي».

كنت واقفة عند الباب الخلفي، بحكم العادة وحدها، لا لأنني كنت متوترة أستعجل الرحيل. لم أكن واقفة هناك لأنني خائفة. إنها عادة فارغة... لا شيء أكثر من هذا.

ذهبت إلى جارد فشدني لأجلس في حضنه واضعاً رأسي تحت ذقنه.

سألني: «هل أنت مرتاحة؟».

قلت: «نعم». قلت هذا لأنني كنت مرتاحة تماماً... حقاً وفعلاً. مرتاحة هنا في منزل الغرباء.

كان والدي يستخدم عبارات غريبة كثيرة... كأنه كان يتحدث لغة خاصة به في بعض الأوقات. وكان من التعابير المفضلة لديه تعبير «آمن مثل المنزل».

وعندما كان يعلمني ركوب الدراجة كانت أمي تقف بباب المنزل قلقة. فيقول لها: «اهدئي يا ليندا! إن هذا الشارع آمن مثل المنزل». وعندما كان يحاول إقناع جيمي بالنوم في الظلام من غير ضوء صغير

كان يقول له: «المكان هنا آمن مثل المنزل يا بني. ما من وحوش على مسافة أميال من هنا».

ثم انقلب العالم رأساً على عقب... انقلب إلى كابوس مرعب بين ليلة وضحاها. صارت تلك العبارة نقطة سوداء في نظر جيمي وفي نظري. صارت المنازل أكثر الأماكن خطراً في نظرنا.

وعندما كنا نختبئ في أجمة من أشجار الصنوبر... نراقب خروج السيارة من مرآب منزل منعزل حتى نقرر إن كنا نستطيع الإغارة على المنزل للحصول على الطعام... نقرر ما إذا كان الأمر محفوفاً بالمخاطر... كنا نقول: «أتظن أن الطفيليين سيغيبون فترة طويلة؟». فتكون الإجابة «مستحيل... إن هذا المكان آمن مثل منزل! فلنذهب من هنا».

أما الآن، فأنا قادرة على الجلوس هنا ومشاهدة التلفزيون كما كان الأمر قبل خمس سنوات عندما كان والدي ووالدتي يتناولان الطعام في الغرفة المجاورة... عندما كنت غير مضطرة إلى قضاء الليل مختبئة في أحد المجارير... غير مضطرة إلى الاختباء مع جيمي وسط مجموعة من الجرذان في حين يفتش الباحثون بأضوائهم الكاشفة عن اللصوص الذين سرقوا كيساً من الفاصولياء الجافة ووعاء من المعكرونة الباردة.

أعرف أننا لو بقينا أنا وجيمي طوال هذه السنوات كلها... طوال اثني عشر عاماً... لما كنا قادرين على تحقيق هذا الشعور بمفردنا. إنه الشعور بالأمان. أكثر من الأمان... إنه شعور بالسعادة! الأمان والسعادة... شيئان كنت أظن أنني لن أحصل عليهما من جديد.

إن جارد يجعلنا نحظى بهذين الإحساسين... حتى من دون أن يحاول ذلك... يجعلنا نحسّهما لمجرد وجوده معنا... لمجرد أنه جارد.

أتنفس رائحة جلده وأشعر بالدفء المنبعث من جسده.

إن جارد يجعل كل شيء آمناً... يجعل كل شيء سعيداً. حتى البيوت... حتى المنازل.

قالت ميلاني شاعرة بالدفء المنبعث من ذراعه الذي لا يبعد إلا سنتمتراً واحداً عن ذراعي: «ما زال يجعلني أشعر بالأمان. حتى من دون أن يعرف أنني موجودة هنا».

لكني ما كنت أشعر بالأمان. جعل حبي لجارد شعوري بالأمان أوهى من أي شيء آخر أستطيع التفكير فيه.

لا أدري إن كنا، ميلاني وأنا، سنحب جارد لو كان في الماضي كما هو الآن. لو كان هكذا بدلاً من ذلك الشخص المبتسم دائماً في ذكرياتها. الشخص الذي جاءها بيدين مليئتين بالأمل وبالأعاجيب. هل تراها كانت تتبعه لو كان قاسياً وكلّه مرارة على الدوام؟ أتراها كانت تتبعه لو أن فقدان والده الضاحك وإخوته المتهورين قد جمده من الداخل على هذا النحو الذي لم يصبه إلا عندما فقد ميلاني؟

كانت ميلاني واثقة: «طبعاً. سأحب جارد مهما يكن شكله. حتى إذا كان هكذا... إنه لي».

لا أدري إن كان الأمر نفسه صحيحاً بالنسبة لي. هل كنت أحبه الآن لو كان على هذه الصورة في ذكرياتها؟

عند ذلك قاطعني جارد. من غير أي إشارة، على نحو مفاجئ تماماً، بدأ يتكلم. يتكلم كما لو أننا كنا في وسط حديث جارٍ.

«وهكذا، بسببك أنت، أجد أن جيب وجيمي مقتنعان بأن من الممكن أن يحدث استمرار نوع من الوعي بعد. بعد الإمساك بالمرء. إنهما متأكدان معاً من أن ميلاني لا تزال موجودة. تقاوم. هناك».

قال هذه الكلمة الأخيرة ووضع قبضته على رأسي. انكمشت مبتعدة عنها فطوى ذراعيه على صدره.

«يظن جيمي أنها تتحدث معه». فتح عينيه مستغرباً. «ليس من العدل أن تتلاعبي بالطفل على هذا النحو. إن هذا الكلام يفترض وجود إحساس بالأخلاق عندك. لكن الأمر ليس كذلك».

طويت ذراعي على صدري من غير أن أقول شيئاً.

«لكني أجد في ما يقوله جيب شيئاً من الوجاهة. رغم ذلك. هذا ما يقتلني! ما الذي تسعين من أجله؟ ما كانت حملة الباحثين حسنه التوجيه. وما كانت لديهم معلومات على الإطلاق. كان من الواضح أنهم يبحثون عنك أنت فقط. وليس عنا! إذاً، لعلهم ما كانوا عارفين بالغاية من مجيئك. لعلك تعملين لحسابك؟ لعلك تعملين على نحو سري. أو. .»

كان تجاهل كلامه أمراً سهلاً عندما يضرب أخماساً بأسداس على هذا النحو الأحمق. ركزت نظري على ركبتي. كانتا قذرتين. كالعادة. سوداوين أرجوانيتين.

«لعلهما محقين. بشأن الجزء المتعلق بقتلك!».

وعلى نحو غير متوقع مرت أصابعه مراً رقيقاً فوق الحبيبات الصغيرة التي نفرت على جلد ذراعي عندما قال تلك الجملة. كان صوته الآن أكثر رقة: «لن يؤذيك أحد الآن. ما دمت لا تسببين أي مشاكل. .» رفع كتفيه وتابع يقول: «أستطيع أن أفهم وجهة نظرهما بعض الشيء. ولعل الأمر، على نحو غريب. يكون خاطئاً، كما يقولان. ربما لا يوجد سبب يبرر. إلا أن جيمي. .» ارتفع رأسي فجأة. كانت عيناه حادتين تراقبان ردّ فعلي. ندمت على إظهار هذا الاهتمام المفاجئ وعدت أنظر إلى ركبتي من جديد.

تمتم جارد: «يخيفني مدى تعلق الصبي بك. ما كان عليّ أن أتركه هنا. ما كنت أتخيل أبداً. ولست أدري ما يجب أن أفعله الآن. يظن جيمي أن ميلاني حية في داخلك. ما الذي سيصيبه عندما. ؟».

لاحظت كيف قال كلمة عندما لم يقل إذا. مهما تكن وعوده الآن، فهو لا يظن أنني سأظل حية على المدى البعيد.

قال مغيراً موضوع الحديث: «لكن ما يفاجئني هو أنك تمكنت من إقناع جيب. إنه عجوز خبيث! إنه يرى الخداع بكل سهولة. حتى الآن». راح يفكر في الأمر لحظة.

«لست شديدة الرغبة في الحديث، أليس كذلك؟».

حل صمت طويل آخر.

جاءت كلماته في اندفاع مفاجئ: «الشيء الذي يزعجني باستمرار هو. ماذا لو كانا محقين؟ كيف لي أن أعرف هذا؟ يزعجني أن منطقهما يبدو معقولاً في نظري. لا بد أن هناك تفسيراً آخر».

حاولت ميلاني أن تتكلم من جديد. ما كانت محاولتها عنيفة مثلما كانت في المرة الأولى. ما كان لديها أمل الآن في أن تتمكن من اختراقي. أبقيت ذراعيّ ملفوفتين بإحكام على صدري. وأبقيت شفتيّ مطبقتين.

تحرك جارد مبتعداً عن الجدار حتى صار جسده قبالتي. راقبت تلك الحركة من زاوية عيني.

همس يقول: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

استرقت نظرة إلى وجهه. كان وجهه الآن لطيفاً طيباً. يكاد يكون كما رأيته في ذكريات ميلاني. أحسست بسيطرتي على الموقف تهتز. ارتجفت شفتاي. كنت في حاجة إلى تركيزي كله حتى أحتفظ بذراعي ملفوفتين على صدري. كنت أريد أن ألمس وجهه. أنا. كنت أريد أن ألمس وجهه. لكن هذا لم يعجب ميلاني.

فحّت تقول في رأسي: «إذا كنت لا تسمحين لي بالحديث... إذاً، فعليك ألا تحركي يديك».

«إنني أحاول... إنني آسفة». كنت آسفة حقاً. كان هذا يؤذيها. يؤلمها كنا نتألم كلتانا. نتألم، لكن على نحو مختلف. كان صعباً أن أعرف من التي تتألم أكثر من الأخرى في هذه اللحظة.

كان جارد ينظر إليّ متعجباً إذ ملأت الدموع عينيّ من جديد.

قال بصوت ناعم: «لماذا؟ تعرفين أن لدى جيب هذه النظرية المجنونة التي تقول إنك جئت إلى هنا من أجلي ومن أجل جيمي. أليس هذا سخفاً؟».

انفتح فمي نصف انفتاح. عضضت على شفتي.

انحنى جارد إلى الأمام قليلاً فأمسك بوجهي بين كفيه. أغمضت عيني.

«ألن تخبريني؟».

هززت رأسي مرة واحدة. هزة سريعة. ما كنت أعرف من الذي قام بهذه الهزة. هل هززت رأسي أقول له إنني لن أتكلم، أم أن ميلاني هي التي كانت تقول له إنها لا تستطيع الكلام؟

اشتدت قبضته تحت فكي. فتحت عيني فرأيت وجهه على مسافة سنتمترات قليلة من وجهي. انتفض قلبي. حاولت التنفس، لكن رئتي لم تطيعا أمري.

رأيت نيته في عينيه. عرفت ما الذي يعتزم فعله. عرفت تماماً كيف سأشعر بشفتيه. لكن الأمر كان جديداً بالنسبة لي. إنها المرة الأولى. المرة التي تهز أكثر من غيرها. أطبقت شفتاه على شفتي.

أظن أنه كان يقصد لمس شفتيه بشفتي. لا أكثر. أراد أن تكون لمسة رقيقة. لكن الأمور تغيرت عندما التقى جلدي بجلده. صارت شفتاه قاسيتين خشنتين على نحو مفاجئ. أمسكت يداه بوجهي تشده إلى وجهه وراحت شفتاه تتحركان فوق شفتي بحركة محمومة غير مألوفة. كان الأمر مختلفاً تماماً عما عرفته من ذكريات ميلاني. كان أكثر قوة بكثير.

تمرّد جسدي. ما عدت قادرة على إمساكه. صار مسيطراً عليّ الآن. إنها ليست ميلاني. كان الجسد أقوى مني ومنها في هذه اللحظة تعالى صوت تنفسنا: كان تنفسي لاهثاً. جامحاً. أما أنفاسه فصارت أشبه بزمجرة.

انفلتت ذراعاي من سيطرتي أيضاً. امتدت يدي اليسرى إلى وجهه. إلى شعره. حاولت أصابعي التغلغل في ذلك الشعر.

أما يدي اليمنى فكانت أكثر سرعة. لم تكن يدي أنا.

اصطدمت قبضة ميلاني بفكه فأطاحت بوجهه بعيداً عن وجهي

مصدرة صوتاً خفيضاً كليلاً. اصطدم اللحم باللحم. قاسياً. غاضباً.

ما كانت قوة الضربة كافية لإزاحته بعيداً، لكنه انكمش مبتعداً عني فور افتراق شفتينا. حدقت عيناه المذعورتان في الرعب الذي كسا وجهي.

نظرت إلى القبضة التي ما زالت مشدودة فأجفلت كما لو أنني وجدت عقرباً يسير على يدي. شقت شهقة مذهولة طريقها عبر حنجرتي. أمسكت معصمي الأيمن بيدي اليسرى محاولة منع ميلاني من استخدام جسدي من أجل العنف مرة أخرى.

رفعت رأسي ناظرة إلى جارد. كان يحدق في تلك القبضة التي أمسكت بها الآن. غاب الذعر عن وجهه. حلت المفاجأة محله. في تلك اللحظة، كان تعبير وجهه مجرداً من كل دفاع. استطعت الآن قراءة أفكاره بكل سهولة. رأيتها تتحرك فوق وجهه الذي ما عاد العبوس يغلبه.

لم يتوقع هذا! لقد كانت لديه توقعاته. هذا ما كان واضحاً. لقد كان هذا اختباراً. اختباراً ظن أنه قادر على تقييم نتيجته. اختباراً كان ينتظر نتيجته واثقاً. لكنه فوجئ الآن.

هل يعني هذا إجابة سلبية أم إيجابية؟

ما كان الألم الذي في صدري مفاجأة لي. كنت أعرف أن تعبير «القلب المكسور» شيء أكثر من مبالغة لفظية.

في الاختيار بين الهرب أو القتال، ما كان عندي أي خيار. سأختار الهرب دائماً. ولأن جارد كان بيني وبين ظلمة مخرج النفق، تحركت مسرعة ورميت بنفسي داخل الكهف الصغير المحشو بالصناديق.

تحطمت الصناديق، تجعدت، وفرقعت عندما حشرها اندفاع جسدي إلى الجدار. حشرها إلى الأرض. شققت طريقي في هذا المكان المستحيل. كنت أتلوى حول الصناديق الثقيلة. وكنت أسحق الصناديق الصغيرة. أحسست بأصابعه تحاول الإمساك بقدمي. أمسكتُ بكاحلي فرفستُ أحد الصناديق الصلبة جاعلة إياه بيننا. زفر جارد متألماً

فأحسست اليأس يشد على عنقي بيدين خانقتين. ما كنت أقصد إيذاءه من جديد. ما كنت أريد ضربه. إنني أحاول الفرار فقط.

ما كنت أسمع صوت نحيبي الآن. كان مرتفعاً. لم أسمعه حتى صرت عاجزة عن التقدم إلى الأمام في ذلك الكهف المزدحم. توقف الآن الضجيج الصادر عن تقدمي بين الصناديق. وعندما سمعت نفسي. عندما سمعت شهقات العذاب الممزقة. أحسست بالذعر

أحسست بذعر كبير. بذُلٍّ كبير! ذعرت من نفسي. من العنف الذي سمحت له بأن يحتل جسدي، سواء كان هذا السماح مقصوداً أو غير مقصود. لكن سبب نحيبي كان شيئاً غير هذا. كنت أنتحب لأنني تعرضت لاختبار. ولأنني كنت مخلوقة عاطفية حمقاء. حمقاء. حمقاء! لقد أردت أن يكون الأمر حقيقة.

كانت ميلاني تنتفض ألماً في داخلي. كان احتمال هذا الألم المزدوج صعباً. أحسست أنني أموت لأن الأمر لم يكن حقيقياً. وأحسّت ميلاني أنها تموت لأن الأمر بدا حقيقياً في نظرها. لقد خسرت كل شيء حتى نهاية عالمها. منذ زمن بعيد. لكنها لم تشعر بعذاب الخيانة من قبل. عندما جاء والدها بالباحثين حتى يرشدهم إلى أطفاله كانت ميلاني تعرف أنه ليس والدها. ما كان في الأمر خيانة. كان حزناً فحسب لقد مات والدها. أما جارد، فهو حي الآن. ما زال هو نفسه لم يتغير

صحت بها: «لم يخنك أحد يا حمقاء». أردت أن يتوقف ألمها. كان هذا كثيراً جداً. كان حمل العذاب الإضافي يسحقني. كان عذابي يكفيني.

راحت تقول متجاهلة كلامي: «كيف استطاع أن يفعل هذا؟ كيف؟»

انتحبنا معاً من دون أن نستطيع السيطرة على نحيبنا.

كلمة واحدة أعادتنا من حيث كنا. أعادتنا من حافة الجنون. من فوهة ذلك الكهف الصغير جاءنا صوت جارد خفيضاً خشناً محطماً. طفولياً على نحو غريب. قال: «ميلاني!»

## الفصل الثلاثون

# خبر

«ميلاني!». هكذا قال من جديد. كان صوته ملوناً بأمل ما كان يريد الشعور به.

تقطعت أنفاسي في دفعة جديدة من البكاء. تقطعت بفعل الصدمة.

«تعرفين أن القبلة كانت لك يا ميلاني! أنت تعرفين هذا. إنها ليست لها! تعرفين أنني لم أكن أقبّلها هي».

صار صوت نشيجي أعلى. صار أنيناً. لماذا لا أستطيع الصمت؟ حاولت أن أكتم أنفاسي.

«إذا كنت موجودة هناك يا ميلاني. .» صمت فجأة.

انزعجت ميلاني من كلمة «إذا». انفجر البكاء من جديد خارجاً من رئتي. لهثت باحثة عن الهواء.

عاد جارد يقول: «أحبك. حتى إذا ما كنت موجودة هناك. حتى إذا ما كنت قادرة على سماعي. أحبك».

كتمت أنفاسي من جديد. عضضت على شفتي حتى أدميتها. لكن الألم الجسدي لم يُنسني ألمي الآخر بالقدر الذي أردت.

ساد الصمت خارج الكهف الصغير، ثم ساد الصمت داخله أيضاً. رحت أصيخ السمع مركِّزة على ما أستطيع سماعه. لا شيء! لا صوت إطلاقاً.

كنت محشورة في وضع عجيب. كان رأسي منخفضاً، وكانت صفحة وجهي مضغوطة على الأرض الصخرية. كانت كتفاي مستندتين إلى حافة صندوق مهشم. كانت الكتف اليمنى أعلى من الكتف اليسرى وكان وسطي مضغوطاً باتجاه آخر. أما ساقاي فكانتا عند السقف غطت الكدمات جسدي بسبب عراكي مع هذه الصناديق. أشعر بهذه الكدمات الآن. لا بد لي الآن من العثور على طريقة أشرح بها لجيمي وإيان أنني سببت هذه الكدمات لنفسي بنفسي. لكن كيف؟ ما الذي أستطيع قوله لهما؟ كيف أخبرهما أن جارد قبّلني على سبيل الاختبار. قبّلني كمن يعطي فأر تجارب صدمة كهربائية حتى يراقب ردّ فعله؟ ثم. كم أستطيع أن أبقى في هذا الوضع؟ ما كنت أريد إصدار أي صوت، لكنني أحسست أن عمودي الفقري موشك على التحطم في هذه الدقيقة. الآن! صار احتمال الألم صعباً مع كل ثانية تمر. لم أستطع احتمال هذا الألم صامتة لزمن طويل. إن الأنين يوشك أن يفلت من حنجرتي منذ الآن.

ما كان لدى ميلاني ما تقوله لي. كانت تعالج غضبها، وراحتها بنفسها الآن. لقد تحدث جارد إليها. لقد أدرك وجودها في آخر الأمر. قال لها إنه يحبها. لكنه قبّلني أنا! كانت تحاول إقناع نفسها بأن ما من سبب يجعلها تشعر بالجرح بسبب ذلك. تحاول أن تقنع نفسها بجميع الأسباب الوجيهة التي تقول إن الأمر ما كان كذلك. كانت تحاول، لكنها لم تنجح في محاولاتها بعد. كنت أستطيع سماع هذا كله، لكنه كان موجهاً إلى الداخل. ما كانت تتحدث معي! كانت تدير ظهرها لي.

أحسست بغضب غير مألوف إزاءها. ما كان الأمر مثلما كان في البداية، عندما خشيتها وتمنيت استئصالها من دماغي. لا! لم يكن كذلك! كنت أشعر بأنها خذلتني الآن. كيف لها أن تكون غاضبة مني بسبب ما حدث؟ ما معنى هذا؟ كيف أكون مذنبة إذا وقعت في الحب بسبب ذكرياتها التي أقحمتها في رأسي إقحاماً. ثم كيف أكون مذنبة بسبب

نزوات هذا الجسد؟ أحزنني ألمها، لكن ألمي ما كان يعني شيئاً في نظرها. كانت مستمتعة به. يا لها من إنسانة شريرة!

انسابت من عينيّ دموع. أضعف من تلك الدموع الأخرى. انسابت فوق وجنتي صامتة. لقد حفر كرهها لي أثلاماً عميقة في دماغي.

وعلى نحو مفاجئ، صار الألم في ظهري الملتوي المليء بالكدمات أكثر مما أستطيع احتماله بكثير. جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير

قلت متأوهة: «أوف!». ورحت أدفع الصخر والصناديق بيدي محاولة الرجوع إلى الخلف.

ما عدت أبالي بالأصوات. أريد الخروج فقط. أقسمت في نفسي أنني لن أدخل فتحة هذا الجحر الملعون مرة أخرى. سأموت قبل ذلك. حرفياً!

كان شق الطريق إلى الخارج أكثر صعوبة من الدخول. رحت أتلوى وأضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى أحسست أنني أزيد الطين بلة. انحنى جسدي أكثر من ذي قبل. بدأت أبكي من جديد، مثل الأطفال، خائفة من عدم قدرتي على التحرر من هذا الوضع.

تنهدت ميلاني. ثم قالت مقترحة: «علقي قدمك بحافة الفتحة واسحبي جسدك إلى الخلف».

تجاهلتها، وحاولت جاهدة أن أجعل خصري يتجاوز زاوية صندوق مدببة. طعنتني تلك الزاوية تحت أضلاعي.

صاحت ميلاني: «لا تكوني حمقاء».

«يا لها من نصيحة... تاتي منك انت».

قالت مترددة: «أعرف هذا». ثم تابعت تقول: «لا بأس، آسفة! انا هي الحمقاء. انظري، إنني بشرية. يصعب أن يكون المرء منصفاً أحياناً. نحن لا نشعر المشاعر الصحيحة دائماً، ولا نفعل الأشياء الصحيحة دائماً». ما زال ثمة كره في صوتها لكنها تحاول الآن أن تسامح. . أن

تنسى ما حصل قبل قليل بيني وبين حبها الحقيقي. هكذا كانت تفكر في الأمر، على الأقل.

شبكت قدمي بحافة الفتحة وسحبت جسدي. اصطدمت ركبتي بالأرض فاستخدمت نقطة الارتكاز الجديدة هذه حتى أبعد أضلاعي عن الحافة المدببة. بعد هذا صار إخراج القدم الأخرى أكثر سهولة. شبكتها بالحافة وسحبت جسدي من جديد. وأخيراً، عثرت يدي على الأرض فتابعت الخروج ثم سقطت على الحصير الأخضر الداكن. استلقيت لحظة هناك. منكبّة على وجهي. أتنفس الهواء. كنت واثقة في هذه اللحظة أن جارد قد ذهب منذ زمن طويل، لكنني لم أتثبت من ذلك على الفور. رحت أتنفس الهواء. شهيق. زفير. حتى أحسست أنني صرت قادرة على رفع رأسي.

كنت وحدي. حاولت أن أجد راحة في هذا. أن أنسى الأسى الذي ولّدته هذه الحقيقة في نفسي. من الأفضل أن أكون وحدي. هذا أقل إذلالاً

تكوّرت فوق الحصير ضاغطة وجهي عليه. ما كنت أشعر بالنعاس، لكني كنت مرهقة. كان الثقل الباهظ لرفض جارد شديد الوطأة. أرهقني. أغمضت عينيّ وحاولت التفكير في أي شيء يمكن أن يمنع الدمع من إغراق عينيّ من جديد. أحاول التفكير في أي شيء إلا تلك النظرة على وجه جارد عندما ابتعد عني. عندما انتهت قبلتنا.

ما الذي يفعله جيمي الآن؟ هل يعرف أنني هنا؟ أم أنه يبحث عني؟ لا بد أن إيان نائم منذ زمن طويل. كان يبدو مرهقاً إلى أقصى حد. هل يستيقظ كَايل قريباً؟ هل يأتي باحثاً عني؟ أين جيب؟ لم أره طوال هذا اليوم! هل صحيح أن الطبيب ظل يشرب حتى فقد الوعي؟ بدا هذا الأمر غريباً عنه.

استيقظت ببطء. أيقظتني معدتي. بقيت راقدة بضع دقائق محاولة

أن أستعيد إحساسي بالمكان والزمان. أهو النهار أم الليل؟ كم مر عليّ من الوقت نائمة وحيدة هنا؟

ما كنت أستطيع تجاهل معدتي زمناً طويلاً. جثوت على ركبتي. لا بد أنني نمت زمناً طويلاً حتى أجوع إلى هذا الحد. لا بد أنني تجاوزت وجبة أو وجبتين.

فكرت في أكل شيء من الأكوام المؤونة من حولي. الحقيقة هي أنني أتلفت الكثير منها. لكن هذا الإدراك جعلني أشعر بالذنب عندما فكرت في استهلاك المزيد. سأذهب لآكل بعض لفافات الخبز في المطبخ.

كنت أشعر بشيء من الألم. فوق ذلك الألم الكبير. شيء من الألم لأنني راقدة هنا منذ فترة طويلة من دون أن يأتي أحد بحثاً عني. يا للتفكير الغريب! لماذا يعبأ أحد بما يحدث لي؟ لكنني شعرت بالارتياح. بالرضا. عندما وجدت جيمي جالساً عند الفتحة المؤدية إلى الكهف الكبير. كان ظهره إلى ناحية عالم البشر من خلفه. لا بد أنه ينتظرني.

لمعت عيناي، ولمعت عيناه أيضاً. هبّ واقفاً على قدميه وقد ملأ الارتياح قسمات وجهه.

قال لي: «أنت بخير». ليته محق! بدأ يقول: «أقصد. لم أعتقد أن جارد يكذب علي، لكنه قال إنك تريدين البقاء وحيدة. وقال لي جيب إنني لا يجوز أن أذهب باحثاً عنك وأن عليّ البقاء هنا حيث يراني حتى يضمن عدم تسللي بحثاً عنك. لكني، رغم معرفتي بأن أي أذى لم يصبك، أو أي شيء، أحسست بصعوبة عدم معرفة وضعك على نحو مؤكد».

قلت له: «إنني بخير». لكنني مددت ذراعي صوبه، باحثة عن الراحة. لف ذراعيه حول خصري. فوجئت عندما وجدته قادراً على إسناد رأسه إلى كتفي.

همس: «عيناك حمراوان. هل كان جارد سيئاً معك؟».

«لا» بعد كل حساب، لا يقصد البشر أن يكونوا قساة مع فئران التجارب. إنهم يحاولون الحصول على المعلومات فقط.

«لا أعرف ما قلتِ له، لكنني أظن أنه يصدقنا الآن. يصدقنا في ما يخص ميلاني! ما أخبارها؟».

«إنها سعيدة بهذا».

أومأ برأسه مسروراً: «وماذا عنك أنت؟»

ترددت باحثة عن إجابة مقنعة: «إن قول الحقيقة أسهل دائماً من محاولة إخفائها».

أحسست أن هذه الإجابة قد أرضته.

ومن خلف جيمي، كان الضياء في الحقل محمراً باهتاً. لقد غربت شمس الصحراء.

قلت له: «إني جائعة». ثم ابتعدتُ عنه منهية عناقنا

«توقعت أن تكوني جائعة. لقد ادخرت لك طعاماً جيداً».

تنهدت: «لا بأس بالخبز».

«كفي عن هذا يا جو. يقول إيان إنك شديدة الإنكار لنفسك. إنك تجورين على نفسك».

نظرت إليه مستغربة.

تمتم جيمي: «أظن أنه محق. حتى إذا كنا جميعاً نريدك هنا، فإنك لن تكوني منتمية إلى هذا المكان حتى تقرري ذلك بنفسك».

«لا أستطيع الانتماء إلى هذا المكان أبداً. ثم لا أحد يريد حقاً أن أكون هنا يا جيمي».

«أنا أريد ذلك». ما كنت أريد مجادلته، لكنه كان مخطئاً. لم يكن كاذباً، لأنه مقتنع بما يقول. لكن الشخص الذي يريده حقاً هو ميلاني إنه لا يفصل بيننا كما يجب أن يفصل.

وجدنا ترودي وهيدي تخبزان في المطبخ وتتشاركان قضم تفاحة خضراء لامعة. يانعة. كانتا تتناوبان قضمها.

قالت ترودي بإحساس مخلص: «جميل أن أراك يا جو». كانت تغطي فمها بيدها أثناء حديثها لأنها ما زالت تلوك قطعة التفاح في فمها. أومأت هيدي محيية. كانت أسنانها مغروسة في التفاحة. لكزني جيمي غير محاول إخفاء حركته. كان يلفت انتباهي إلى أن الناس يريدون وجودي هنا. ما كان يعبأ كثيراً بالمجاملات.

سأل بلهفة واضحة: «هل احتفظتم لها بطعامها؟».

قالت ترودي: «نعم». انحنت بجانب الفرن ثم نهضت حاملة صينية معدنية في يدها. «لقد حافظت على الطعام ساخناً. لعله صار رديء المذاق الآن، لكنه أفضل من طعامنا المعتاد».

رأيت على الصينية قطعة كبيرة من اللحم الأحمر. سال لعابي في فمي، حتى عندما رفضت القطعة المخصصة لي.

«إنها كبيرة جداً».

«علينا أن نأكل كل الأطعمة القابلة للفساد. في اليوم الأول». هكذا قال جيمي يشجعني. «يأكل كل واحد حتى تؤلمه بطنه. هذا تقليد عندنا».

أضافت ترودي: «أنت في حاجة إلى هذه القطعة من اللحم. لقد مر علينا زمن طويل من التقنين. يدهشني أن أحداً منا لم يمرض بسبب هذا».

أكلت نصيبي في حين جلس جيمي يراقبني بانتباه مثل انتباه الصقر. كان يراقب انتقال كل لقمة من الصينية إلى فمي. أكلت الطعام كله حتى أسعد جيمي، لكن معدتي تألمت بسبب كثرة الطعام.

بدأ المطبخ يمتلئ بالناس من جديد عندما أوشكت على الانتهاء من طعامي. رأيت تفاحات في أيدي بعض الأشخاص. كان كل من يحمل تفاحة يتشارك قضمها مع شخص آخر. راحت أعين فضولية تنظر إلى الكدمات التي على وجهي.

قلت لجيمي: «لماذا يأتي الجميع إلى هنا الآن؟». حل الظلام في الخارج. لقد انتهت فترة العشاء.

نظر إليّ جيمي مستغرباً عدة لحظات. «إنهم آتون من أجل الاستماع إلى حديثك». قال هذا لكن نبرة صوته كانت تضيف كلمة «طبعاً».

«هل تسخر مني؟».

«قلت لك إن شيئاً لم يتغير».

رحت أنظر في تلك الغرفة الضيقة. ما كانت الغرفة ممتلئة. لم أر الطبيب اليوم. ولم يكن أحد من رفاق جارد في الغارة موجوداً هنا كان هذا يعني عدم وجود بيج أيضاً. لم أر جيب ولا إيان ولا وولتر. كان بعض الأشخاص غائبين أيضاً: ترافيس وكارول ووروث آن. لكن العدد كان أكبر مما توقعت رغم ذلك كله. ما كنت أظن أن أحداً يمكن أن يعود إلى نظام الحياة الطبيعي بعد هذا اليوم العجيب.

قال ويس مقاطعاً تفكيري: «هل نستطيع العودة إلى الحديث عن الدلافين؟ حيث توقفنا». كان واضحاً أنه يريد جعل الحديث يبدأ أكثر مما هو مهتم حقيقة بعلاقات القرابة بين الدلافين على ذلك الكوكب البعيد.

نظر الجميع إليّ منتظرين إجابتي. من الواضح أن الحياة لم تتغير كما كنت أظن.

تناولت صينية من لفائف الخبز من يدي هيدي واستدرت لأضعها في الموقد الحجري. بدأت الحديث عندما أدرت ظهري.

«إذاً، إن. المجموعة الثالثة من الأجداد. إنها تخدم الجماعة تقليدياً. هكذا تنظر إلى الأمر. إن هذه المجموعة تقابل من يكسبون قوت الأسرة هنا على الأرض. الأشخاص الذين يخرجون من المنزل ليعودوا بالمؤونة. إنهم فلاحون. في غالب الأحيان. إنهم يربون شيئاً يشبه النباتات لكنهم يحلبونه للحصول على عصارته. . .».

وهكذا. استمرت الحياة.

حاول جيمي إقناعي بعدم النوم في سرداب المؤونة، لكن محاولته ما

كانت جدية تماماً ما كان هناك مكان آخر من أجلي. لكنه أصر، بعناده المألوف، على النوم معي. تخيلت أن هذا لن يعجب جارد، لكنني، عندما لم أره في تلك الليلة أو الليلة التي تليها، ما كنت قادرة على تبرير موقفي.

صار الوضع غريباً من جديد! كنت أقوم بمهماتي المعتادة أثناء النهار رغم وجود عناصر الغارة الستة في الكهوف. كان ذلك يشبه الفترة الأولى عندما أرغمني جيب على الاندماج في هذا المجتمع. كنت أواجه نظرات الكراهية. أواجه الصمت الغاضب. كان الأمر أكثر صعوبة عليّ من ذي قبل. لكنني اعتدت الأمر. أما هم، من ناحيتهم، فلم يألفوا الطريقة التي كانت بقية الناس تعاملني بها. عندما كنت أساهم في حصاد الذرة على سبيل المثال، شكرتني ليلي بابتسامة لأنني جلبت لها ماء للشرب فجحظت عينا آندي في محجريهما بسبب تلك الابتسامة. وعندما كنت أنتظر دوري في الحمام مع ترودي وهيدي وراحت هيدي تعبث بشعري. كان شعري قد طال. صار يغطي عينيّ في تلك الأيام.
وكنت أنوي قصّه من جديد. كانت هيدي تحاول العثور على قَصَّة مناسبة لي. كانت تقلب خصلات الشعر وتلويها بأشكال مختلفة. عند ذلك جاء براندت وآرون. آرون هو أكبر عناصر الغارة سناً. شخص لا أتذكر أنني رأيته من قبل. جاء هذان الاثنان فوجدانا هناك. كانت ترودي تضحك بسبب التسريحة العجيبة التي كانت هيدي تحاول تشكيلها فوق رأسي. .تغير لون الرجلين ثم تجاوزانا صامتين.

ما كانت أشياء صغيرة من هذا القبيل تعني شيئاً بالنسبة لي بطبيعة الحال. إن كَايل يتجول في الكهوف الآن. كان واضحاً أنه تلقى أوامر صارمة بعدم التعرض لي، لكن تعابير وجهه أفهمتني أنه ساخط على هذه القيود. كنت برفقة الآخرين دائماً عندما أصادفه. لعل ذلك هو السبب الوحيد الذي جعله يمتنع عن فعل شيء تجاهي باستثناء العبوس. كان وجوده يستحضر كل الرعب الذي عشته خلال أسابيعي الأولى هنا.

لعلي كنت موشكة على الاستسلام لهذا الرعب. أن أبدأ الاختباء من جديد متجنبة الأماكن المطروقة. لكني انتبهت في تلك الليلة الثانية إلى شيء أكثر أهمية وخطورة من نظرات كَايل القاتلة.

امتلأ المطبخ بالناس من جديد. لا أدري كم منهم كان مهتماً بسماع قصصي وكم منهم كان مهتماً بقطع الشوكولاته التي كان جيب يوزّعها عليهم. رفضت تناول قطعتي قائلة لجيمي المدهوش إنني لا أستطيع الكلام والمضغ في وقت واحد. أظن أنه سيخبئ تلك القطعة من أجلي. إنه عنيد كشأنه دائماً. عاد إيان يجلس في مقعده الحار المعتاد، قرب الفرن. كان آندي هنا أيضاً. كان جالساً إلى جانب بيج. كانت عيناه قلقتين. لكن أحداً من بقية أفراد الغارة، بمن فيهم جارد طبعاً، ما كان حاضراً. لم يكن الطبيب حاضراً أيضاً. لعله ما زال تحت تأثير السكر، أو تحت تأثير نتائج الإفراط في الشراب. كان وولتر غائباً أيضاً

في هذه الليلة، وجّه جيفري، زوج رودي، أسئلة لي للمرة الأولى سرّني هذا رغم أنني حاولت عدم إظهار سروري. سرّني انضمامه إلى الأشخاص الذين يتقبلون وجودي. لكني ما كنت قادرة على الإجابة عن أسئلته على نحو جيد. كان هذا سيئاً حقاً. كانت أسئلته شبيهة بأسئلة الطبيب.

قلت معترفة: «في الحقيقة، لست أعرف شيئاً عن أساليب الشفاء، لم أذهب إلى أي طبيب بعد. بعد حلولي في هذا الكوكب. لم أصب بأي مرض. كل ما أعرفه هو أننا لا نختار العيش في كوكب من الكواكب إلا إذا كنا قادرين على المحافظة على صحة الأجساد المضيفة محافظة تامة. ما من شيء غير قابل للشفاء. من الجروح البسيطة إلى العظام المكسورة إلى الأمراض كلها. إن التقدم في السن هو السبب الوحيد للموت الآن. هذا لأن الأجساد البشرية موفورة الصحة مصممة لكي تعيش فترة محددة. ثم هناك من يموتون في الحوادث أيضاً كما أظن. لكن وقوع الحوادث الآن أقل من ذي قبل.. إننا حذرون».

قال أحدهم: «إن البشر المسلحين ليسوا مجرد حوادث!». كنت أحرك لفائف الخبز الساخنة. لم أر المتكلم. ولم أعرف صوته.

وافقته بقولي: «نعم. هذا صحيح».

قال جيفري ملحّاً: «إذاً، أنت لا تعرفين ما الذي يستخدمونه من أجل شفاء الأمراض؟ لا تعرفين ما الذي يضعونه في أدويتهم؟».

هززت رأسي: «آسفة، لا أعرف. ما كان هذا الشيء يثير اهتمامي عندما كانت لدي قدرة الوصول إلى المعلومات. يبدو أنني اعتبرت الأمر مفروغاً منه. إن الصحة الجيدة أمر متوفر في كل كوكب عشت فيه حتى الآن».

صارت وجنتا جيفري الحمراوان أكثر التماعاً من المعتاد. أطرق برأسه مطبقاً فمه بحركة غاضبة. ما الذي أزعجه في كلامي؟

كان هيث جالساً إلى جانب جيفري. رأيته يربت على ذراعيه. ساد في الغرفة صمت محمل بالدلالات.

قال إيان: «ماذا عن الكواسر؟». لقد أقحم هذه الكلمات إقحاماً حتى يكسر الصمت. حتى يغير الموضوع. «لا أعرف إن كنت قد غبت عن هذا الجزء من الحديث، لكنني لا أتذكر أنك شرحت لنا معنى قولك إنهم غير لطيفين. .».

لم أكن قد أوضحت هذا الأمر حقاً، لكني كنت واثقة الآن من أنه غير مهتم بهذا الأمر فعلاً. كان هذا أول سؤال خطر في باله.

انتهت هذه الأمسية أبكر من المعتاد. كانت الأسئلة قليلة وقد طرح معظمها جيمي وإيان. لقد جلبت أسئلة جيفري الهم والقنوط إلى نفوس الجميع.

قال جيب بعد فترة أخرى من الصمت: «طيب. لدينا عمل في الصباح الباكر. علينا اقتلاع سيقان الذرة. .» قال هذه الكلمات وكأنه ينبه الناس إلى وجوب الانصراف. بدأ الناس ينهضون واقفين متمطين. متحدثين بأصوات خفيضة. ما كانت أحاديثهم عادية تماماً.

همست قائلة لإيان: «هل قلت شيئاً خاطئاً؟».

«لا شيء. لقد أعاد الحديث فكرة الموت إلى أذهانهم» قال هذا ثم تنهد.

قام دماغي البشري بقفزة من قفزات الفهم التي يطلقون عليها اسم الحدس.

سألت إيان. ما زلت أهمس: «أين وولتر؟».

تنهد إيان من جديد: «إنه في الجناح الجنوبي. إنه. ليس في صحة جيدة».

«لماذا لم يخبرني أحد بذلك؟»

«لقد كانت الأمور. صعبة بالنسبة لك في الآونة الأخيرة. لذلك. .».

هززت رأسي نافدة الصبر بسبب هذا التفسير: «ماذا أصابه؟».

كان جيمي جالساً إلى جانبي. أمسك بيدي.

«لقد تحطمت بعض عظام وولتر. إنها شديدة الهشاشة».

## الفصل الحادي والثلاثون

# ألم

تجمدت، ثم التفتُّ بنظرة سريعة من فوق كتفي لأرى إن كانت من يخاطبها واقفة ورائي.

همس جيمي من غير صوت تقريباً: «كانت غلاديس زوجته. لم تتمكن من الفرار بنفسها».

قال وولتر يخاطبني، غير منتبه إلى ردّ فعلي: «غلاديس، أتصدقين أنني مصاب بالسرطان؟ ما هي فرصتي. آه؟ لم أمرض يوماً واحداً في حياتي. .» خبا صوته تدريجياً حتى ما عدت قادرة على سماعه. لكن شفتيه واصلتا حركتهما. كان أكثر ضعفاً من أن يستطيع رفع يده، لكن أصابعه راحت تجرجر نفسها صوب حافة السرير، صوبي.

دفعني إيان إلى الأمام.

قلت هامسة: «ماذا أفعل؟». بدأت نقاط العرق تتشكل على جبهتي، لكنها ما كانت بسبب الحرارة الرطبة في هذا الكهف.

جاءني صوت وولتر مسموعاً من جديد: «. عاش جدي حتى بلغ مئة عام وعام. لم يصب السرطان أحداً في أسرتي. لم يصب أحداً حتى من أبناء عمومتي. لكن، ألم تصب خالتك ريغان بسرطان الجلد؟».

نظر إليّ واثقاً، منتظراً إجابتي. دفعني إيان في ظهري.

غمغمت: «اممم. .».

قال وولتر: «لعلها كانت خالة بيل!».

نظرت مذعورة إلى إيان فرفع كتفيه. قلت له: «ساعدني».

دفعني فجعلني أمسك بأصابع وولتر الباحثة.

كان جلد وولتر أبيض اللون. أبيض اللون مثل الطباشير. شبه شفاف. كنت أرى نبضات قلبه الضعيفة في حركة دمه داخل العروق الزرقاء على ظهر يده. رفعت يده. قلقة على تلك العظام الهشة التي قال جيمي إنها سهلة الكسر. كانت يده خفيفة جداً، كأنها فارغة.

«أوه، يا غلاديس، لقد كان الوضع صعباً من غيرك. إن المكان لطيف هنا. سوف يعجبك، حتى بعد أن أذهب. ثمة كثير من الناس يمكنك التحدث معهم. أعرف كم أنت في حاجة إلى الكلام.»

تضاءل صوته حتى ما عدت قادرة على فهم كلماته، لكن شفتيه واصلتا تشكيل الكلمات التي أراد قولها لزوجته. ظل فمه متحركاً، حتى بعد أن أغمض عينيه ومال رأسه جانباً.

عثر إيان على قطعة قماش رطبة وبدأ يمسح بها وجه وولتر.

همست: «أنا لست ماهرة في. في الخداع».

كنت أنظر إلى شفتَيْ وولتر المغمغمتين حتى أتأكد من أنه لا يسمعني. «لا أريد إحزانه».

طمأنني إيان: «لست في حاجة إلى قول أي شيء. ليس الرجل صاحياً إلى درجة تجعله مهتماً بما تقولين»

«هل أشبه زوجته؟».

«إطلاقاً! لقد رأيت صورتها. إنها نحيلة حمراء الشعر».

«أعطني!. دعني أقوم بهذا».

أعطاني إيان قطعة القماش فبدأت أزيل العرق عن رقبة وولتر. إن انشغال يدي يجعلني دائماً أشعر بقدر أكبر من الراحة. واصل وولتر غمغمته. أظنني سمعته يقول: «شكراً يا غلاديس، هذا لطيف».

لم ألاحظ توقف شخير الطبيب. لكني سمعت صوته المألوف قادماً من خلفي. كان لطيفاً جداً فلم يُجْفلني.

«كيف حاله؟».

همس إيان: «إنه في شبه هلوسة. هل هذا بسبب الكحول أم بسبب الألم؟».

«إنه بسبب الألم على الأكثر. هذا ما أظنه. إني مستعد للتضحية بيدي اليمنى مقابل قليل من المورفين».

قال إيان: «لعل جارد يجترح معجزة جديدة»

تنهد الطبيب: «ربما».

رحت أمسح وجه وولتر شاردة الذهن، مصغية بحدة أكبر الآن، لكنهما لم يذكرا اسم جارد من جديد.

همست ميلاني: «إنه ليس هنا».

قلت: «إنه يبحث عن شيء يساعد وولتر».

قالت: «وحيداً!».

فكرت في المرة الأخيرة التي رأيته فيها. هنا. فكرت في القبلة. «لعله في حاجة إلى بعض الوقت مع نفسه. آمل أنه لا يحاول الآن إقناع نفسه بأنك باحثة ذات موهبة تمثيلية فذة...».

«هذا ممكن، طبعاً».

أنّت ميلاني من غير كلمات.

كان إيان والطبيب يتمتمان بصمت خافت. يتحدثان عن أشياء لا أهمية لها. وعلى الأغلب. كان إيان يخبر الطبيب بالأشياء التي تجري في الكهوف.

همس الطبيب، لكنني كنت قادرة على سماعه بسهولة: «ما الذي أصاب وجه جو؟».

قال إيان بصوت متوتر: «إنه الشيء نفسه».

صدر عن الطبيب صوت منزعج هامس ثم طقطق بلسانه.

حدثه إيان قليلاً عن الجلسة الغريبة في المطبخ هذه الليلة. عن أسئلة جيفري.

قال الطبيب: «لو أن الروح التي حلت في جسد ميلاني روح معالج، لكان الأمر مناسباً حقاً».

أجفلت عندما سمعت هذه الكلمات، لكنهما كانا واقفَيْن خلفي. لعلهما لم ينتبها إلى حركتي.

تمتم إيان مدافعاً عني: «نحن محظوظون بأنها جو. لا أحد غيرها. .».

قاطعه الطبيب. طيباً كعادته: «أعرف هذا! أظنني أستطيع القول إن من المؤسف أن جو لم تكن مهتمة بالطب».

تمتمت: «إنني آسفة». كنت في ما مضى أجني ثمار الصحة الجيدة من غير مبالاة. من غير انتباه. من غير فضول يحملني على البحث عن سببها.

لمست يد كتفي: «لست في حاجة إلى الاعتذار عن أي شيء». قال إيان.

كان جيمي هادئاً تماماً. نظرت فوجدته متكوراً على السرير الذي كان الطبيب يغفو فوقه.

قال الطبيب: «لقد تأخر الوقت. لن يتحرك وولتر من هنا الليلة عليك أن تنالي قسطاً من النوم».

قال إيان يعدني: «سوف نعود. ما الذي نستطيع إحضاره معنا لكما؟».

وضعت يد وولتر من يدي وربّت عليها بحذر. انفتحت عيناه واسعتين. كان فيهما قدر من الصحو أكثر من ذي قبل.

قال بصوت كالأزيز: «هل أنت ذاهبة؟ هل أنت مضطرة للذهاب بهذه السرعة؟».

أسرعت فأمسكت بيده من جديد: «لا، لست مضطرة إلى الذهاب»

ابتسم وولتر وأغمض عينيه من جديد. أطبقت أصابعه على أصابعي بقوة هشة.

تنهد إيان.

قلت له: «يمكنك الذهاب. لا مشكلة عندي. خذ جيمي معك وضعه في فراشه».

تلفّت إيان من حوله في الغرفة وقال: «انتظري لحظة». ثم أمسك بسرير قريب منه. ما كان السرير ثقيلاً. رفعه بسهولة وجعله ينزلق إلى جانب سرير وولتر ظللت ممسكة بيد وولتر لكنني ابتعدت عن سريره مادة يدي إلى أقصاها محاولة عدم تحريكه حتى يتمكن إيان من وضع السرير الجديد تحت ذراعي. بعد ذلك أمسكني إيان وحملني بسهولة فوضعني على السرير إلى جانب وولتر لم تتحرك عينا وولتر إطلاقاً. أطلقت زفرة هادئة. فاجأتني حركة إيان العادية عندما أمسك بي وحملني. كما لو أنني بشرية مثله!

أشار إيان بذقنه صوب يد وولتر الممسكة بيدي: «هل أنت قادرة على النوم في هذا الوضع؟».

«نعم، أنا واثقة من قدرتي على النوم».

«إذاً. نامي جيداً!». ابتسم لي ثم استدار وحمل جيمي من سريره: «فلنذهب يا فتى». هكذا تمتم وهو يحمل الصبي من غير جهد، كأنه يحمل رضيعاً. خبا صوت خطوات إيان الهادئة في البعيد. تضاءل حتى ما عدت قادرة على سماعه.

تثاءب الطبيب وذهب فجلس خلف مكتبه الذي أنشأه من ألواح خشبية وباب من الألمنيوم. أخذ المصباح الصغير معه. صار وجه وولتر في الظلام. ما عاد مرئياً. وهذا ما جعلني أتوتر. أحسست أنه مات منذ الآن. لكن ملمس أصابعه أراحني. طمأنني... ما زالت أصابعه مشدودة على أصابعي.

بدأ الطبيب يقلب بعض الأوراق مهمهماً لنفسه بصوت غير مسموع تقريباً. أما أنا فاستسلمت للنوم على صوت تقليب الأوراق الخافت.

عرفني وولتر عندما جاء الصباح.

لم يستيقظ حتى أتى إيان لاصطحابي. لقد حان وقت إزالة سيقان الذرة القديمة من الحقل الكبير. وعدت الطبيب أن أجلب له طعام الإفطار قبل أن أذهب إلى العمل. كان آخر شيء أفعله هو أن فككت أصابع وولتر عن أصابعي. وبحذر حررت يدي من قبضته.

انفتحت عيناه: «جو!» قالها همساً.

«وولتر؟». لا أدري إلى متى سيظل يعرفني، ولا أدري إن كان يتذكر ليلة أمس. حاولت يده إمساك الهواء فأعطيته يدي اليسرى. اليد التي ما كانت متيبسة.

«لقد أتيت لرؤيتي. هذا لطف منك. إنني أعرف. مع عودة الآخرين. لا بد أن الأمر صعب بالنسبة لك. إن وجهك. .».

أحسست أنه يجد صعوبة كبيرة في تحريك شفتيه حتى تشكلان كلماته. كانت عيناه تغيبان ثم تعودان. هكذا هو وولتر. لقد كانت كلماته الأولى الموجهة إليّ عامرة بالاهتمام. بي أنا!

«كل شيء على ما يرام يا وولتر. كيف أنت الآن؟».

«آه. .» أنّ قليلاً «لست على. دكتور!».

تمتم الطبيب وهو يقف بجانبه: «أنا هنا».

سأله وولتر لاهثاً: «هل لديك مزيد من الكحول؟».

«طبعاً».

كان الطبيب مستعداً. قرّب فم الزجاجة السميك من شفتَيْ وولتر المرتخيتين وراح يصب سائلاً بنياً قاتماً. تركه يقطر بطيئاً في فمه. كان وولتر يصدر أصوات ألم صغيرة مع كل رشفة تحرق حنجرته. تسرب قليل من هذا السائل من زاوية فمه وسقط على الوسادة. لسعت الرائحة أنفي.

سأله الطبيب بعد لحظات طويلة: «أفضل؟».

لهث وولتر. ما كان هذا يشبه موافقة على كلام الطبيب. أغمض عينيه.

سأله الطبيب: «هل تريد المزيد؟».

كشر وولتر ثم راح يئن.

أطلق الطبيب شتيمة بصوت خفيض، ثم قال: «أين هو جارد؟».

تجمَّدْتُ عند سماع اسم جارد. تحركت ميلاني أيضاً ثم غابت من جديد.

ارتخى وجه وولتر مال رأسه على رقبته.

همست جزعة: «وولتر؟».

قال الطبيب: «إن شدة الألم لا تسمح له بالبقاء صاحياً دعيه يرتاح».

أحسست بتشنج حنجرتي: «هل أستطيع أن أفعل شيئاً؟».

جاءني صوت الطبيب يائساً: «لا تستطيعين فعل شيء أكثر مما أفعله. وهو ليس بشيء أصلاً. إنني عديم النفع الآن».

سمعت إيان يتمتم: «لا تقل هذا يا دكتور! ليس الذنب ذنبك. ما عاد هذا العالم يسير كما كان. ولا أحد يتوقع منك المزيد».

تهدَّلت كتفاي. لا، ما عاد عالمهم يسير كما كان من قبل.

أحسست بنقرة إصبع على ذراعي ثم سمعت إيان يهمس لي: «فلنذهب».

أومأت برأسي وبدأت أحرر يدي من جديد.

انفتحت عينا وولتر. ما كانتا قادرتين على رؤية شيء: «غلاديس؟ هل أنت هنا؟».

قلت غير واثقة: «هممم. إنني هنا». تركت أصابعه تمسك بأصابعي من جديد.

رفع إيان كتفيه مستسلماً: «سوف أحضر لكما بعض الطعام». ثم ذهب.

استلقيت قلقة انتظر عودة إيان. لقد أوهن غياب وولتر عن الوعي عزيمتي. راح يتمتم باسم غلاديس مرة بعد مرة، لكن الظاهر أنه ما كان في حاجة إلى شيء مني. هذا ما كنت شاكرة له. وبعد قليل، لعلها

نصف ساعة، بدأت أصغي مترقبة خطوات إيان في الممر. ما الذي أخَّره إلى هذا الحد؟

كان الطبيب واقفاً بجانب مكتبه طوال الوقت. محدِّقاً في لا شيء. وكانت كتفاه متهدلتين. كان واضحاً عليه مدى إحساسه بانعدام نفعه.

عند ذلك سمعت صوتاً. لكنه ما كان صوت أقدام.

سألت الطبيب هامسة: «ما هذا؟». كان وولتر هادئاً الآن. لعله غائب عن الوعي. ما كنت أريد إزعاجه.

استدار الطبيب لينظر إليّ مائلاً برأسه. مثلي. مصغياً.

كان الصوت غريباً. خفقاً سريعاً ناعماً. أظن أنني سمعته يشتد قليلاً، لكنه عاد فتضاءل من جديد.

قال الطبيب: «هذا غريب. إنه يشبه. .» صمت قليلاً وقد تغضّن جبينه لفرط تركيزه. راح الصوت الغريب يخبو.

واصلنا الإصغاء، فسمعنا صوت الخطوات رغم بُعدها. ما كانت تطابق الخطوات التي ننتظرها. ما كانت تطابق إيقاع خطوة إيان. كان هذا الشخص يجري. لا كان مندفعاً كالريح.

استجاب الطبيب على الفور مستعداً لصوت المتاعب. وثب من فوره لملاقاة إيان. وددت لو أستطيع ملاقاته أيضاً حتى أفهم الأمر، لكنني ما كنت أستطيع إزعاج وولتر بمحاولة تحرير يدي من يده. بدلاً من ذلك. رحت أصغي قدر ما استطعت.

سمعت صوت الطبيب يقول دهشاً: «براندت؟»

قال الرجل القادم مبهور الأنفاس: «أين هي؟ أين هي؟». لم تتوقف خطواته الراكضة إلا ثانية واحدة ثم عاد يجري من جديد، لكن بسرعة أقل.

سأله الطبيب صائحاً: «عن أي شيء تتحدث؟».

قال براندت نافد الصبر، قلقاً: «الطفيلية!». قالها أثناء عبوره

المدخل المقوس.

ما كان براندت رجلاً ضخم مثل كَايل أو إيان، لعله كان أطول مني بسنتمترات قليلة، لكنه كان متين البنية صلباً مثل وحيد القرن. جالت عيناه في الغرفة. توقفت نظراته الثاقبة لحظة فوق وجهي ثم انتقلت إلى جسد ولتر ثم عادت تجول في الغرفة لتستقر عليَّ من جديد.

عند ذلك وصل الطبيب إليه. أمسكت أصابعه الطويلة بكتفه لحظة تقدمه خطوة جديدة في اتجاهي.

سأله الطبيب بصوت أقرب ما يكون إلى الزمجرة: «ما الذي تفعله؟».

قبل أن يجيبه براندت عاد الصوت الغريب. تحوَّل من صوت ناعم خفيض إلى صوت مرتفع زاعق ثم عاد خفيضاً من جديد على نحو مفاجئ جعلنا نتجمّد جميعاً. كانت الخفقات تتوالى مسرعة. تهز الهواء عندما يرتفع صوتها.

سأل الطبيب هامساً: «هل هذه. هل هذه طائرة هيلكوبتر؟».

أجابه براندت هامساً: «نعم، إنها الباحثة. الباحثة التي كانت هنا من قبل. تلك التي تبحث عنها». أشار نحوي بذقنه.

تشنّجت حنجرتي على نحو مفاجئ. صارت أنفاسي صغيرة ضحلة. غير كافية. شعرت بالدوار.

«لا. ليس الآن. من فضلك».

زمجرت ميلاني في رأسي: «ما مشكلتها؟ لماذا لا تستطيع أن تتركنا وشأننا؟».

«لا نستطيع أن نتركها تؤذيهم».

«لكن، كيف نوقفها؟».

«لست أدري. إن الذنب ذنبي!».

«إنه ذنبي أيضاً يا جو... ذنبنا معاً».

سأله الطبيب: «هل أنت متأكد؟».

«لقد رآها كَايل بوضوح عبر المنظار المقرب أثناء تحويمها. إنها المرأة نفسها التي رآها من قبل».

«وهل تبحث هنا تحديداً؟». صار صوت الطبيب مذعوراً على نحو مفاجئ. استدار نصف دورة ناظراً نحو المخرج. «أين شارون؟».

هز براندت رأسه نفياً: «إن الباحثة تقوم بجولات فوق المنطقة فحسب. لقد بدأت من قمة بيكاتشو ثم راحت تقوم بجولات جيئة وذهاباً. لا يبدو أنها تركز على شيء قريب منا. لقد دارت عدة دورات فوق المكان الذي رمينا فيه السيارة».

سأله الطبيب مجدداً: «شارون؟».

«إنها مع الأطفال. ومعها لوتشينا. إنهم بخير. يقوم الفتيان بحزم الأمتعة تحسباً لاضطرارنا إلى الرحيل الليلة. لكن جيب يقول إن الرحيل أمر مستبعد».

تنفس الطبيب الصعداء ثم اتجه نحو مكتبه. تباطأ هناك منهكاً. بدا مثل شخص جرى مسافة طويلة: «لا شيء جديداً إذاً».

«لا ليس علينا إلا أن نتخذ حَذَرنا بضعة أيام». كانت عينا براندت تحومان في الغرفة من جديد متوقفة عندي في كل لحظة. «هل لديك حبل هنا؟» أمسك بطرف الملاءة على السرير الفارغ وراح يتفحَّصها.

سأله الطبيب ذاهلاً: «حبل؟».

«من أجل الطفلية. لقد أرسلنيْ كَايل إلى هنا حتى أربطها».

تقلّصت عضلاتي على نحو غير إرادي. شدّت أصابعي على أصابع وولتر بقوة أكثر مما يجب فصاح متألماً. حاولت إجبار أصابعي على الارتخاء لكن عينيّ ظلتا على وجه براندت القاسي. كان ينتظر استجابة الطبيب.

قال الطبيب بصوت قاس من جديد: «أأنت هنا حتى تربط جو؟ وما الذي يجعلك تظن هذا ضرورياً؟».

«هيا يا دكتور. لا تكن ساذجاً. إن لديك فتحات كبيرة في سقف هذا

الكهف. ولديك كثير من الأشياء المعدنية العاكسة». أشار براندت إلى خزانة ملفات عند الجدار. «فإذا تشتت انتباهك قليلاً، ولو نصف دقيقة، فسوف ترسل الطفيلية إشارات إلى تلك الباحثة».

شهقت مذهولة. كان صوت شهيقي مرتفعاً في الغرفة الساكنة.

قال براندت: «هل ترى هذا؟ لقد اكتشفنا خطتها».

وددت لو أستطيع دفن نفسي تحت صخرة حتى أختبئ من عيني الباحثة الجاحظتين القاسيتين، لكنه يتخيل أنني أريد أن أرشدها إلى هذا المكان. يتخيل أنني أريد المجيء بها إلى هنا حتى تقتل جيمي وجارد وجيب وإيان. أحسست أنني أختنق.

قال له الطبيب بصوت جليدي: «تستطيع الذهاب يا براندت. سوف أظل يقظاً».

رفع براندت حاجبه: «ما الذي أصابكم يا ناس؟ ما الذي أصابك وأصاب إيان وترودي والآخرين؟ أشعر بأنكم منوَّمون مغناطيسياً. لو لم تكن عيونكم طبيعية المظهر. لظننت أنكم. .».

«اذهب من هنا وفكِّر كيفما شئت يا براندت. لكن فكِّر بعد ذهابك من هنا!».

هز براندت رأسه رافضاً: «إن لدي عملاً أنجزه هنا».

سار الطبيب نحو براندت. توقف عندما صار بيني وبينه. وقف عاقداً ذراعيه على صدره.

«لن تلمسها!».

عاد صوت مروحة الهليكوبتر الخافق يدوي من بعيد. هدأنا جميعاً. لم نعد نتنفس. حتى خبا الصوت مرة أخرى.

هز براندت رأسه عندما حل الهدوء من جديد. لم يتكلم، لكنه ذهب إلى المكتب وأمسك بكرسي الطبيب. حمل الكرسي حتى الجدار قرب خزانة الملفات فوضعها على الأرض ثم جلس عليها بحركة عنيفة جعلت

أرجلها المعدنية تزعق منزلقة على الأرض الصخرية. انحنى إلى الأمام واضعاً يديه على ركبتيه وراح ينظر إليّ. كان مثل طير كاسر ينتظر أرنباً برياً حتى يموت. حتى يتوقف عن الحركة.

توتر وجه الطبيب. صدرت عنه أصوات صغيرة منزعجة.

تمتم وولتر: «غلاديس». لقد خرج الآن من غيبوبة النوم. «هل أنت هنا؟».

كان توتري يمنعني من الكلام تحت أنظار براندت. اكتفيت بالتربيت على يد وولتر. جالت عيناه الغائمتان في وجهي. كانتا تريان فيه ملامح وجه آخر غير وجهي.

«إنه الألم يا غلاديس. الألم شديد».

همست: «أعرف هذا. دكتور!» سرعان ما صار الطبيب عندنا حاملاً زجاجة الكحول في يده: «افتح فمك يا وولتر».

عاد صوت الهليكوبتر يدوي هادئاً، لكنه قريب، إلى حد خطير أجفل الطبيب فانسكبت قطرات جديدة على ذراعي.

*

كان ذلك اليوم عصيباً. مخيفاً. كان أسوأ يوم من أيام حياتي على هذا الكوكب بما فيها أيامي الأولى في الكهوف وآخر يوم حار جاف في الصحراء على بعد ساعات فقط. من الموت.

حامت الهليكوبتر. ثم حامت. كانت تغيب أكثر من ساعة أحياناً فأظن أن الأمر انتهى. ثم يعود الصوت من جديد فأرى وجه الباحثة العنيد في رأسي. أرى عينيها الجاحظتين تنقّبان في الصحراء الخالية بحثاً عن أي إشارة تدل على وجود البشر. حاولت دفعها بعيداً عن هنا بقوة الإرادة. رحت أركز. وأركز على ذكرياتي عن تلك الصحراء التي لا ملامح لها. على تلك السهوب التي لا لون لها. كما لو أني كنت قادرة على جعلها لا ترى شيئاً آخر. كما لو أنني كنت قادرة على حملها على الرحيل.

لم تفارقني عينا براندت المرتابتين. كنت أشعر بهما دائماً، لكنني نادراً ما كنت أنظر إليه. تحسَّن الوضع قليلاً عندما جاء إيان حاملاً الفطور والغداء معاً. كان متَّسخاً لأنه كان يشارك في حزم الأمتعة تحسباً لحالة إخلاء طارئة. مهما يكن معنى تلك العبارة! ألديهم مكان آخر يذهبون إليه؟ تجهّم وجه إيان كثيراً. صار وجهه شبيهاً بوجه كَايل عندما شرح له براندت سبب وجوده هنا. بعبارات متقطعة. عند ذلك جَرَّ إيان سريراً فارغاً آخر فوضعه بجانب سريري حتى يستطيع الجلوس عليه فيحجبني عن أنظار براندت.

الهليكوبتر. مراقبة براندت المزعجة. ما كانت هذه أشياء شديدة السوء حقاً. في أي يوم آخر في أي يوم عادي. إن كانت لدي أيام عادية بعد الآن. كان يمكن أن تسبِّب لي هذه أو تلك عذاباً حقيقياً. أما اليوم فهما لا شيء!

عند الظهر أعطى الطبيب وولتر آخر قطرة من السائل الكحولي. وبعد دقائق فقط بدأ وولتر يتلوى ويئن ويلهث من أجل التنفس. صار ضغط أصابعه على أصابعي شديداً. صنع كدمات عليها، لكن أنينه كان يتحول إلى صراخ ثاقب عندما أسحب يدي من يده. سحبتها مرة حتى أذهب إلى المرحاض. تبعني براندت مما جعل إيان مضطراً إلى المجيء معه أيضاً. وعندما عدنا. جرينا مسافة الطريق كلها تقريباً. وجدنا أن صرخات وولتر ما عادت صرخات بشرية. كان وجه الطبيب فارغاً من أي تعبير. . كان يردد أصداء ألم وولتر. هدأ وولتر بعد أن تحدثت معه لحظة واحدة. جعلته يظن أن زوجته عادت إلى جواره. كانت هذه كذبة سهلة. كذبة لطيفة! أطلق براندت أصواتاً تدل على انزعاجه، لكنني عرفت أن من غير الصواب أن أزيد انزعاجه. لا يهمني الآن إلا تخفيف ألم وولتر.

استمرت الهمسات، واستمر الألم، لكن براندت ظل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً محاولاً الابتعاد عن الصوت قدر استطاعته.

جاء جيمي باحثاً عني. جلب معه طعاماً لأربعة أشخاص. كان ذلك عندما صار ضياء الشمس مائلاً إلى اللون البرتقالي من فوقنا. ما كنت لأسمح له بالبقاء. جعلت إيان يعود به إلى المطبخ حتى يأكل. وجعلت إيان يعدني بمراقبته طوال الليل حتى لا يتسلل عائداً إلى هنا ما كان وولتر قادراً على الامتناع عن الصراخ عندما يتلوى جسده فتتحرك ساقه المكسورة. كان صوت صراخه غير محتمل تقريباً. لا يجوز أن تنحفر ذكريات هذه الليلة في رأس جيمي كما ستنحفر في رأسي وفي رأس الطبيب من غير ريب. لعلها تنحفر في رأس براندت أيضاً. رغم أنه كان يفعل كل ما يستطيع لتجاهل وولتر. كان يسد أذنيه ويهمهم بلحن غريب.

أما الطبيب فلم يحاول إبعاد نفسه عن معاناة وولتر المخيفة. كان يعاني معه. حفرت صرخات وولتر خطوطاً عميقة في وجهه. كانت مثل مخالب تحفر أثلاماً في جلده.

كان غريباً أن أرى هذا القدر الكبير من التعاطف لدى البشر عند الطبيب خاصة! ما عدت قادرة على النظر إليه كما كنت أنظر إليه من قبل. الآن بعد أن رأيته يعيش آلام وولتر كان تعاطفه عظيماً. كان ألمه عظيماً. أحسست أنه ينزف في داخله بسبب هذا الألم. عندما كنت أراقبه. صار مستحيلاً تصديق أن هذا الطبيب شخص متحجر الفؤاد. لا يمكن أن يكون هذا الرجل جَلّاداً. حاولت أن أتذكر ما قيل أمامي حتى أتثبَّت من حُكْمي. هل اتهمه أحد بذلك علناً؟ لا أظن هذا! لا بد أنني قفزت إلى استنتاجات خاطئة بسبب خوفي.

لا أحسبني قادرة على عدم الثقة بالطبيب بعد الآن. بعد هذا اليوم الكابوسي. لكني سأظل أجد هذا المكان مخيفاً.

مع اختفاء آخر ضوء من أضواء النهار اختفت طائرة الهليكوبتر أيضاً. جلسنا في الظلمة. لم نجرؤ على إشعال الضوء الخافت الأزرق. مرت عدة ساعات قبل أن يقتنع أحد منا بأن البحث قد انتهى

كان براندت أول من استوعب هذه الحقيقة. لقد ضاق ذرعاً بالمستشفى أيضاً.

قال متجهاً صوب المخرج: «من الواضح أنها كفَّت عن البحث. لا يمكنها رؤية شيء في الليل. سوف آخذ ضوءك معي يا دكتور حتى لا تتمكن طفيلية جيب المدللة من استخدامه. إنني ذاهب».

لم يجبه الطبيب. لم ينظر إلى ذلك الرجل أثناء مغادرته.

قال وولتر يرجوني: «اجعلي الألم يتوقف يا غلاديس. اجعليه يتوقف». رحت أمسح العرق عن وجهه أما هو فتابع الضغط على يدي.

أحسست أن الزمن يتباطأ. ثم توقف. بدت هذه الليلة الحالكة من غير نهاية. صارت نوبات صراخ وولتر أكثر تواتراً. صارت أكثر تعذيباً!

كانت ميلاني بعيدة الآن. كانت تعرف أنها لا تستطيع فعل أي شيء مفيد. لو كنت مكانها لاختبأت أيضاً. لو لم يكن وولتر في حاجة إليّ. كنت وحدي في رأسي. هذا ما كنت أرغب فيه تماماً ذات يوم. لكن هذا جعلني أشعر بالضياع الآن.

وأخيراً، لاح ضوء رمادي شاحب. بدأ يزحف عبر الفتحات المرتفعة من فوقنا. كنت موشكة على النوم، لكن أنين وولتر وصراخه منعاني من النوم الحقيقي. سمعت صوت شخير الطبيب من خلفي. كنت مسرورة بتمكنه من الهرب. حتى لوقت قصير.

لم أسمع صوت جارد عند دخوله. كنت أغمغم بكلام غير متماسك محاولة طمأنة وولتر. محاولة تهدئته.

عندما كان يصيح باسم زوجته كنت أهمس له: «إنني هنا، إنني هنا، ششش! لا بأس عليك!». كانت هذه الكلمات من غير معنى. كانت مجرد كلمات أقولها، لكن الظاهر أن صوتي كان يفلح في تهدئة صراخه بعض الشيء.

لست أدري كم من الوقت مر على جارد وهو يراقبني مع وولتر قبل

أن أدرك وجوده. لا بد أن وقتاً طويلاً قد مضى. كنت واثقةً من أن الغضب سيكون ردّ فعله الأول، لكني، عندما سمعته يتحدث، أدركت أن صوته كان هادئاً.

قال: «دكتور!». أحسست بالسرير الذي خلفي يهتز قليلاً. «استيقظ يا دكتور».

حررت يدي حتى أستدير فأرى الوجه صاحب الصوت الذي لا يمكن أن تخطئه أذني.

كان ينظر إليّ بينما كان يهز كتف الرجل النائم. كانت قراءة تعابير عينيه مستحيلة في ذلك الضوء الشحيح. ما كان على وجهه تعبير على الإطلاق.

صَحَتْ ميلاني وتحرّكَتْ. راحت تحدّق في ملامحه محاولة قراءة أفكاره من خلف ذلك القناع.

«غلاديس! لا تتركيني! لا تتركيني!». كانت صيحات وولتر هذه هي ما جعل الطبيب يستيقظ مجفلاً حتى كاد يقلب سريره.

استدرت لأنظر إلى وولتر دافعة يدي لتلاقي أصابعه الباحثة عنها.

«ششش. ششش! إنني هنا يا وولتر. لن أتركك، لن أتركك، أعدك بهذا».

هدأ وولتر وراح يبكي مثل طفل صغير. مسحت جبينه بقطعة القماش الرطبة. هدأ بكاؤه فصار لهاثاً.

تمتم جارد من خلفي: «ماذا يحدث؟».

قال له الطبيب قلقاً: «إنها أفضل مسكّن للألم. أفضل مسكر تمكنت من العثور عليه».

«طيب، لقد أحضرت لك مسكناً أفضل من هذه الباحثة المستأنسة»

تشنَّجت معدتي. فحّت ميلاني في رأسي: «ما أغبى عناده... ما أشد عماه! إنه غير مستعد لتصديقي حتى إذا قلت له إن الشمس تغيب من جهة الغرب».

لكن الطبيب كان في حالة تجعله غير قادر على الانتباه إلى الإهانة الموجَّهة إليّ.

«هل وجدت شيئاً؟».

«مورفين... لم أستطع إحضار كمية كبيرة. كنت أستطيع الوصول إلى هنا في وقت أبكر. لكني لم أتمكن من ذلك بسبب تلك الباحثة».

بدأ الطبيب العمل على الفور. سمعته يعبث بشيء ورقي، ثم سمعته يصيح فرحاً: «جارد! أنت رجل المعجزات».

«دكتور، انتظر لحظة...».

لكن الطبيب كان قد صار إلى جانبي. كان الأمل يضيء وجهه المرهق. وكانت يداه منشغلتين... حاملتين حقنة صغيرة. غرز الإبرة الضئيلة في ذراع وولتر... في الذراع الممسكة بيدي. أدرت وجهي بعيداً. بدا لي غرس الإبرة في جلده شيئاً فظيعاً.

لكني ما كنت أستطيع إنكار النتائج. فخلال نصف دقيقة، استرخى جسد وولتر كله فصار كومة من اللحم فوق ذلك الفراش الرقيق. تحوّل تنفسه من لهاث خشن متعجِّل إلى تنفس منتظم هامس. ارتخت يده. أفلتت يدي.

رحت أدلّك يسراي بيمناي محاولة استعادة جريان الدم في أصابعي. أحسست بوخزات صغيرة عندما تدفق الدم تحت جلدي من جديد.

تمتم جارد: «أوه... دكتور! ليس لدينا ما يكفي لذلك حقاً».

حوّلت أنظاري عن وجه وولتر الذي صار هادئاً الآن. كان جارد مديراً ظهره صوبي لكني استطعت رؤية الدهشة على وجه الطبيب.

«يكفي من أجل ماذا؟ لن أدّخر ما لدي الآن من أجل الأيام السيئة يا جارد. أعرف أننا سنتمنى وجود المورفين لدينا بعد فترة... لن يكون ذلك بعيداً. لكني لن أتركه يصرخ متألماً عندما تكون في يدي وسيلة لمساعدته».

قال جارد: «لست أقصد هذا». كان يتحدث بالطريقة التي يستخدمها

عندما يكون لديه شيء فكر فيه ملياً. كان صوته بطيئاً متوازناً. مثل تنفس وولتر الآن.

تجهَّم وجه الطبيب حيرة.

قال جارد: «لدينا ما يكفي لتهدئة الألم ثلاثة أيام أو أربعة. هذا كل ما لدينا. هذا إذا أعطيته الكمية على جرعات».

لم أفهم ذلك. لم أفهم ما يقوله جارد، لكن الطبيب فهم.

تنهد قائلاً: «آه!». استدار فنظر إلى وولتر من جديد. رأيت في عينيه دموعاً بدأت تتجمع عند جفنيه السفليين. فتح فمه ليتكلم، لكنه لم يستطع قول شيء.

وددت أن أعرف ما يتحدثان عنه، لكن حضور جارد جعلني صامتة. حقق لي وجوده شيئاً جعلني لا أريد شيئاً آخر.

«أنت لا تستطيع إنقاذه يا دكتور. تستطيع أن تجنِّبه الألم. فقط».

قال الطبيب: «أعرف هذا». كان صوته متكسراً، كأنه يحاول كتم بكائه. «أنت محق».

سألتْ ميلاني: «ما الذي يجري؟». ربما أستطيع محاولة الاستفادة من وجودها

«سوف يقتلان وولتر»، هكذا قالت لي بصوت عادي. «ثمة ما يكفي من المورفين لإعطائه جرعة زائدة تؤدي إلى موته». بدا صوت لهاثي مرتفعاً في الغرفة الهادئة، لكنه كان تنفساً عادياً في حقيقة الأمر. لم أرفع رأسي لأرى كيف سيتصرف هذان الرجلان. تدفّقت دموعي عندما انحنيت فوق وسادة وولتر.

«لا، لا... ليس الآن... لا».

«هل تفضِّلين أن يموت صارخاً متألماً؟».

«إنني... لا أستطيع احتمال... النهاية. هذا شيء مطلق إلى حد كبير. لن أرى صديقي مرة أخرى».

«ما عدد أصدقائك الآخرين الذين عدت لزيارتهم أيتها الجوالة؟».

«لم يكن لديّ أصدقاء على هذا النحو من قبل».

كانت ذكرى أصدقائي على الكواكب الأخرى غائمة في ذهني الآن. أما الأرواح فهي متشابهة كلها. يمكن وضع إحداها محل الأخرى على نحو ما. أما وولتر فكان. وولتر نفسه. عندما يرحل، لن يكون هنا من يستطيع أن يملأ مكانه.

احتضنت رأس وولتر بين ذراعيّ. تركت دموعي تنهمر فوق جلده. حاولت كتم بكائي، لكنه استمر رغم ذلك. كان بكاء متواصلاً. لم يكن نشيجاً.

قالت ميلاني: «أعرف هذا. إنها المرة الأولى... من جديد». لمستُ تعاطفاً في صوتها. تعاطفاً معي. كانت تلك هي المرة الأولى أيضاً.

قال الطبيب: «جو!».

اكتفيت بهز رأسي. كنت غير قادرة على الإجابة.

قال لي: «أظن أنك أمضيت وقتاً طويلاً هنا» أحسست بيده على كتفي. خفيفة. دافئة. «يجب أن ترتاحي».

هززت رأسي من جديد. ما زلت أبكي.

قال لي: «أنت مرهقة. اذهبي واغتسلي ثم تمددي قليلاً وكلي شيئاً».

رفعت رأسي وحدقت فيه: «هل يكون وولتر هنا عندما أعود؟». هكذا قلت له مغمغمة بالكلمات عبر دموعي.

توترت عيناه القلقتان: «أتريدين ذلك؟».

«أريد أن تسنح لي فرصة وداعه. إنه صديقي».

ربّت على ذراعي: «أعرف يا جو أعرف. إنه صديقي أيضاً وأنا لست مستعجلاً. اذهبي واستنشقي بعض الهواء ثم عودي. سوف ينام وولتر بعض الوقت».

تمعَّنت في وجهه فاقتنعت بصدقه.

أومأت برأسي ثم أعدت رأس وولتر بحذر إلى وسادته. ربما أجد

طريقة للتعامل مع هذا الأمر إذا غادرت المكان بعض الوقت. لم أكن متأكدة من ذلك. ليست لدي خبرة في الوداع الحقيقي.

ولأنني كنت أحب جارد، رغم أن هذا الحب ما كان بإرادتي، كان عليّ أن أنظر إلى وجهه قبل ذهابي. كانت ميلاني تريد هذا أيضاً، لكنها كانت تتمنى أن تستطيع إبعادي عن هذه العملية.

كان ينظر إليّ. أحسست أن عينيه كانتا مستقرتين عليّ طوال ذلك الوقت. كان متحكّماً بتعابير وجهه. لكن نوعاً من الدهشة والشك ظهر عليه من جديد. جعلني هذا أشعر بالإعياء من هذه الحالة. ما معنى تمثيلي الآن. إن كنت أمثّل. حتى إذا كنت كاذبة موهوبة؟ لن يعود وولتر من جديد. لن أستطيع خداعه بعد الآن.

قابلتُ نظرات جارد لحظة طويلة ثم استدرت مسرعة وخرجت إلى الممر المظلم الذي كان أكثر نوراً من تعبير وجه جارد.

## الفصل الثاني والثلاثون

# كمين

كان الهدوء يلفّ الكهوف. لم تشرق الشمس بعد. وفي الكهف الكبير، غدت المرايا رمادية شاحبة في انتظار الفجر القادم.

ما زالت ملابسي القليلة في غرفة جيمي وجارد. فتسللت إلى تلك الغرفة مسرورة بمعرفتي لمكان وجود جارد في هذه اللحظة.

رأيت جيمي يغط في نوم عميق. كان متكوِّراً على نفسه في الزاوية العليا من الفراش. إنه لا ينام عادة متكوراً إلى هذا الحد، لكن لديه سبباً وجيهاً في هذه اللحظة. كان إيان متمدداً على بقية الفراش. كانت أطرافه الأربعة ممتدة كلها. يحتل واحداً منها إحدى زوايا الفراش.

لا أدري ما الذي رأيته مضحكاً في هذا الأمر. كان عليّ أن أضع يدي على فمي لأمنع انفلات الضحك. أسرعت فاختطفت قميصي القديم الذي صبغه القِدَم بلون التراب. اندفعت لأتناول بنطلوني. أسرعت خارجة إلى الممر. ما زلت أحاول كتم قهقهتي.

قالت لي ميلاني: «أنت غير مسؤولة، وأنت في حاجة إلى شيء من النوم».

«سأنام في ما بعد. عندما...» لم أستطع إكمال تلك الفكرة. لكنها جعلتني أصحو من نوبة الضحك الهستيرية في الحال. صار كل شيء هادئاً من جديد.

اندفعت مسرعة إلى غرفة الحمام. إنني أثق بالطبيب، لكن، ربما

يغير رأيه! لعل جارد يقنعه بعكس ما أردت. لا أستطيع تمضية اليوم كله هنا.

أظن أنني سمعت صوتاً خلفي عندما بلغت مفترق الأنفاق الذي يشبه الأخطبوط، حيث تلتقي كهوف النوم كلها. نظرت إلى الخلف، لكني لم أستطع رؤية أحد في هذا النور الشحيح. بدأ الناس يستيقظون من نومهم. وسرعان ما يحل وقت الإفطار. ويبدأ يوم جديد من العمل. وإذا كانوا قد انتهوا من اجتثاث سيقان الذرة القديمة فسوف تكون الأرض في الحقل الشرقي في حاجة إلى حراثة. لعلي أحظى ببعض الوقت لمساعدتهم. في ما بعد.

سرتُ عبر الممر المفضي إلى غرفة النهرين. لكن ذهني كان في مليون مكان غيره. أحسست أنني غير قادرة على التوقف عند موضوع بعينه. كلما كنت أحاول التركيز على أحد المواضيع. وولتر أو جارد أو الإفطار أو مهام العمل أو الحمام. كانت فكرة أخرى تحتل رأسي بعد ثوانٍ قليلة. كانت ميلاني على حق. إنني في حاجة إلى النوم. كانت مشوشة الذهن مثلي. لكن أفكارها كانت تدور حول جارد، على أنها ما كانت قادرة على صياغة فكرة واحدة متماسكة.

لقد صرت معتادة على غرفة الحمام. ما عاد ظلامها الدامس يقلقني ثمة كثير من الأماكن المظلمة هنا. إنني أقضي نصف ساعات النهار في الظلام. وقد أتيت إلى هذه الغرفة مراتٌ كثيرة جداً. ولم يكن أبداً ثمة شيء مختبئ تحت سطح المياه الأسود منتظراً قدومي حتى يجرني إلى الأسفل.

لكنني كنت أدرك شدة ضيق وقتي. أنني لا أملك وقتاً للاستحمام الحقيقي. سرعان ما يستيقظ الجميع، وبعضهم يحب أن يبدأ نهاره نظيفاً انهمكت في عملي فغسلت نفسي أولاً ثم تحولت إلى غسل ملابسي رحت أدعك قميصي دعكاً عنيفاً متمنية أن أستطيع أيضاً دعك ذاكرتي لأخرج منها ذكريات الليلتين الماضيتين.

أحسست بالحرق في يديّ عندما انتهيت. كان الألم شديداً في الشقوق الجافة عند مفاصل أصابعي. غسلت يدي في المياه لكن ذلك لم يفدني كثيراً. تنهدت وخرجت من المياه لأرتدي ثيابي.

كنت قد تركت ثيابي الجافة فوق الحجارة السائبة في الزاوية الخلفية. اصطدمت قدمي بواحد منها دون أن أنتبه. كانت الصدمة شديدة، وكان الألم في ساقي العارية شديداً. تدحرج الحجر عبر الغرفة مصدراً ضجة مرتفعة. اصطدم بالجدار المقابل ثم قفز فسقط في البركة مصدراً صوتاً وطرطشة. جعلني هذا الصوت أقفز مجفلة رغم أنه ما كان صوتاً شديد الارتفاع إذا ما قورن بزئير النهر الحار في الغرفة الخارجية.

كنت أدخل قدميّ في حذائي الرياضي القديم عندما جاء دوري.

ناداني صوت مألوف من مدخل الغرفة: «إنني أقرع الباب».

قلت له: «صباح الخير يا إيان. لقد انتهيت. هل نمت جيداً؟».

أجابني صوت إيان: «ما زال إيان نائماً. لكنه لن ينام إلى الأبد. لذلك علينا أن ننتهي من الأمر سريعاً».

أحسست حراباً جليدية تنغرس بين ضلوعي. ما عدت أستطيع الحركة. ما عدت أستطيع التنفس.

لقد لاحظت هذا من قبل! ثم نسيته بعد أسابيع كثيرة من غياب كَايل: لا يقتصر التشابه الشديد بين إيان وأخيه على تشابه الشكل وحده، بل. عندما يتحدث كَايل بصوت طبيعي، وهذا نادر الحدوث طبعاً. يبدو صوتاهما متشابهين إلى حد بعيد أيضاً.

ما عدت أستطيع العثور على الهواء حتى أتنفس. إنني عالقة في هذا الكهف الأسود الذي يقف كَايل عند بابه. ما من طريق للهرب!

زعقت ميلاني في رأسي: «حافظي على هدوئك!»

أستطيع أن أفعل هذا. ليس في رئتي هواء أصرخ به.

«أصغي جيداً!».

أصغيت كما طلبت مني. حاولت التركيز برغم الفزع الذي راح يطعن رأسي مثل مليون نصل جليدي دقيق.

لكني لم أسمع شيئاً. هل كان كَايل ينتظر إجابتي؟ أم لعله يتسلل حول الغرفة في صمت؟ أصخت السَّمع أكثر من قبل، لكن صوت اندفاع النهر كان أقوى من أي صوت آخر.

أمرتني ميلاني: «اسرعي... امسكي حجراً!».

«لماذا؟».

تخيلت نفسي ألقي حجراً قاسياً صوب رأس كَايل.

«لا أستطيع أن افعل هذا!».

صرخت ميلاني من جديد: «إذاً... سوف نموت! انا أستطيع أن افعل هذا! دعيني افعله!».

أجبتها أنيناً: «لا بد أن ثمة طريقة اخرى». لكنني أجبرت ركبتي المتجمدتين على الانثناء حتى تصل يدي إلى الأرض. بحثت يداي في الظلمة فخرجتا بحجر كبير مدبب الزوايا وبحفنة من الحصى.

إما القتال وإما الهرب.

حاولت يائسة أن أتخلص من ميلاني. أن أخرجها من هذا الأمر وأقفل الباب خلفها. لكن لم أستطع العثور على الباب. ما زالت يداي لي أنا. ما زالتا ممسكتين بالأشياء التي التقطها من غير طائل. الأشياء التي لا أستطيع استعمالها سلاحاً!

سمعت صوتاً. سمعت صوتاً في الماء عندما دخل شيء ذلك الجدول المائي الذي يخرج من حوض الاستحمام إلى غرفة المرحاض كان هذا على مسافة أمتار قليلة مني.

«أعطني يديّ!».

«لا أعرف كيف أفعل ذلك! خذيهما!».

بدأت الزحف بعيداً، ملتصقة بالجدار، متحركة صوب مدخل

الغرفة. حاولت ميلاني جاهدة أن تتخلص من سجنها في رأسي، لكنها لم تستطع العثور على بابه أيضاً.

صوت آخر. لم يكن آتياً من ناحية الجدول البعيد. إنه صوت تنفّس عند المدخل. تجمَّدت في مكاني.

«اين هو؟».

«لست أدري!».

ومن جديد. ما عدت قادرة على سماع شيء إلا صوت النهر. هل كان كَايل وحيداً؟ أم أن ثمة شخصاً ينتظر عند الباب حتى يمسك بي عندما يسوقني كَايل خارج الغرفة؟ كم يبعد عني كَايل الآن؟

أحسست بشعر جسمي يقف كله. أحسست بالضغط في الهواء من حولي كما لو أنني قادرة على الإحساس بحركاته الصامتة. الباب! استدرت نصف استدارة متراجعة صوب النقطة التي أتيت منها مبتعدة عن المكان الذي أتى منه صوت التنفس.

إنه لا يستطيع الانتظار من غير نهاية. من الكلمات القليلة التي قالها فهمت أنه في عجلة من أمره. يمكن أن يأتي أحد الناس في أي لحظة. لكن الحظوظ في صالحه رغم ذلك. قلة هم الذين سيريدون إيقافه ومنعه من تحقيق غايته، وكثرة هم من يظنون أن هذا هو الحل الأنسب. وأما من يريدون إيقافه، فإن فرصتهم ضعيفة في التمكن من إيقافه أصلاً! وحده جيب مع بندقيته يمكن أن يفعل ذلك. وحده جارد يملك من القوة ما يملكه كَايل. لكن دوافع كَايل أقوى من دوافع جارد. لعل جارد غير مستعد لمقاتلته الآن.

سمعت صوتاً آخر. أهو صوت خطوة عند الباب؟ أم أن هذا الصوت من صنع خيالي أنا؟ كم من الزمن مرَّ على هذا الانتظار الصامت؟ لا أدري عدد الثواني أو الدقائق التي مرت.

«استعدي». لقد أدركت ميلاني أن هذا الانتظار الصامت لن يطول كثيراً. أرادت مني أن أمسك الحجر بإحكام أكبر.

لكني أود إعطاء الهرب فرصة في البداية. لن أستطيع أن أكون مقاتلة حقيقية حتى إذا استطعت إجبار نفسي على محاولة ذلك. يبلغ وزن كَايل ضعفي وزني، ثم إن ذراعه أطول من ذراعي أيضاً.

رفعت يدي الممسكة بالحصى وقذفت ما بها صوب الممر المفضي إلى المرحاض. ربما أستطيع جعله يظن أنني ذاهبة للاختباء هناك أملاً في النجاة. رميت تلك الحجارة الصغيرة ثم انكمشت ملتصقة بالجدار عندما اصطدمت الحجارة بالجدار المقابل.

سمعت صوت التنفس عند الباب من جديد. وسمعت صوت خطوات خفيفة تتوجه صوبي. انكمشت ملتصقة بالجدار قدر ما ستطعت

«ماذا لو كانوا شخصين؟».

«لست أدري».

كدت أبلغ مدخل الغرفة. إذا استطعت الوصول إلى النفق فربما أستطيع أن أسبقه في الجري. إنني أخف وأسرع منه.

سمعت صوت خطوة. كان الصوت شديد الوضوح هذه المرة كان الصوت قادماً من عند الجدول الذي في آخر غرفة الحمام. تقدمت صوب المدخل مسرعة.

سمعت صوت طرطشة مياه مرتفع كسر صمت الغرفة المتوتر وصلت قطرات المياه إليّ. جعلتني أشهق. انتشرت قطرات المياه على الجدار في موجة من الصوت الرطب.

«إنه آت عبر حوض الاستحمام! أسرعي!».

ترددت ثانية واحدة، لكنها كانت ثانية طويلة. أمسكت أصابع كبيرة بساقي. بكاحلي. شددت ساقي محاولة التخلص. محاولة الاندفاع إلى الأمام. تعثرت فسقطت. كان الاندفاع الذي جعلني أسقط إلى الأرض هو ما جعل أصابعه تفلت ساقي أيضاً. أمسك الآن بحذائي فنزعت قدمي منه تاركة الحذاء في يده.

إنني على الأرض الآن، لكنه على الأرض أيضاً. وهذا ما منحني

بعض الوقت حتى أحبو إلى الأمام جارحة ركبتيّ على تلك الأرض الصخرية.

لهث كَايل وأمسك بكعب قدمي العارية. لكن قدمي كانت نحيلة فما استطاع التشبث بها. انزلقت فتحررت من جديد. دفعت نفسي إلى الأمام محاولة الوقوف على قدميّ مع الاستمرار في خفض رأسي. كنت معرضة لخطر السقوط من جديد في كل ثانية لأن جسمي كان يتحرك الآن على نحو شبه موازٍ للأرض. لم أستطع حفظ توازني على هذا الشكل إلا بقوة الإرادة وحدها.

ما كان في المدخل شخص آخر. ما كان أحد يقف هناك حتى يمسك بي عند خروجي من الغرفة. اندفعت إلى الأمام. كان الأمل والأدرينالين يعصفان بأوردتي. دخلت غرفة النهرين مسرعة. ما كنت أريد إلا بلوغ النفق. كنت أسمع لهاث كَايل الثقيل من خلفي، لكنه ما كان قريباً إلى الحد الكافي لأن يمسك بي. مع كل خطوة، كنت أدفع الأرض بقوة دافعة نفسي إلى الأمام. متقدمة عليه.

داهم الألم ساقي. شلّها.

كان الصوت أعلى من صوت خرير النهر. سمعت صوت حجرين ثقيلين يصطدمان بالأرض ثم يتدحرجان. إنه الحجر الذي كنت ممسكة به في يدي. والحجر الذي أصابني فَشَلَّ ساقي. انثنت ساقي من تحتي فأجبرتني على الاستدارة والسقوط إلى الأرض. وفي اللحظة نفسها صار كَايل فوقي.

كان اصطدامه بي شديداً. جعل وزنه رأسي يرتطم بالصخر. صدمة مدوية جعلتني أتمدد ملتصقة بالأرض. لا مفر!

«اصرخي!».

اندفع الهواء من رئتي مصدراً صوتاً شديداً فاجأنا جميعاً. كانت صرختي أقوى مما توقعت. لا بد أن يسمعها أحد. ليت الذي يسمعها يكون جيب. ليت البندقية تكون معه الآن!

جاءني صوت كَايل محتجاً: «أوف!». كانت يده كبيرة، فغطت أكثر وجهي. سدّت كفّه فمي فأسكتت صراخي.

انقلب مبتعداً عني. كانت تلك الحركة مفاجئة. فاجأتني. فلم أستطع الاستفادة منها. جذبني سريعاً. صرت فوقه ثم تحته ثم فوقه. أصابني الدوار. أصابتني الحيرة. ما زال رأسي يدور. لكني فهمت الأمر عندما غمرت المياه وجهي.

أمسكت يده بمؤخرة رقبتي وضغطت رأسي داخل مياه الجدول الضحل البارد الذي يشق طريقه هناك متوجهاً إلى غرفة الحمام. تأخر الوقت. لم أستطع التقاط أنفاسي. لقد استنشقت جرعة من الماء.

ذعر جسدي عندما وصلت المياه إلى رئتي. كان ردّ فعلي الجسدي أقوى مما توقعت. تلوت أطرافي كلها واندفعت في اتجاهات مختلفة فانزلقت كفّه عن رقبتي. حاول إمساكي على نحو أكثر إحكاماً فجعلتني غريزتي أندفع بجسمي نحوه بدلاً من الاندفاع بعيداً عنه كما كان يتوقع. لم أقترب منه إلا خمسة عشر سنتمتراً، لكن ذلك جعل وجهي يخرج من الماء. تمكن فمي من إخراج بعض الماء وإدخال بعض الهواء بدلاً منه.

حاول دفعي إلى الجدول من جديد لكني قاومته. حاولت إدخال جسمي تحت جسمه حتى أستخدم وزنه لمنعه من جرّي مرة أخرى. ما زلت أحاول إخراج الماء من رئتيّ. كنت أسعل. أتشنج دون أن أستطيع السيطرة على نفسي.

زمجر كَايل: «هذا يكفي!».

أبعد نفسه عني فحاولت الابتعاد أنا أيضاً.

قال عبر أسنانه المطبقة: «أوه! لن تمكني!».

لقد انتهى الأمر. أدركت هذا.

كان وضع ساقي المصابة ضرياً. أحسست بها مخدرة. لم أستطع جعلها تفعل ما أردته منها. وما كنت قادرة على جر نفسي على الأرض إلا

باستخدام ذراعي وساقي السليمة. كان سعالي شديداً فمنعني من التحرك سريعاً. كان شديداً إلى حد منعني من الصراخ من جديد.

أمسك كَايل بمعصمي وشدني فرفعني عن الأرض. لم تستطع ساقي المصابة حمل وزني فتهاويت صوب كَايل.

أمسك معصميّ الاثنين بيد واحدة ولف ذراعه الأخرى حول خصري. رفعني عن الأرض وحملني على جانبه مثلما يحمل كيساً من الطحين. راح جسمي يتلوى، وراحت ساقي السليمة ترفس الهواء.

«فلننته من هذا الأمر».

قفز كَايل فوق الجدول الصغير وسار بي صوب تلك الفتحة في الأرض حيث يصب النهر الكبير خارجاً من الغرفة. غمر بخار الجدول الحار وجهي.

سوف يرميني في تلك الحفرة المظلمة الحارة، ويجعل المياه الساخنة تسحبني إلى داخل الأرض فتحرقني هناك.

صرخت: «لا، لا!». خرج صوتي منخفضاً خشناً.

رحت أتلوى بجنون. اصطدمت ركبتي بواحد من الأعمدة الصخرية. أسرعت فعلّقت ساقي بذلك العمود محاولة جذب نفسي لأفلت من قبضة كَايل. شدني فأفلتت قدمي العمود وصدر عنه لهاث نافد الصبر.

لكن ذلك جعل إحكام قبضته يخف قليلاً فتمكنت من القيام بحركة أخرى. لقد نجحت في هذا من قبل. لذلك، جربته مرة ثانية. بدلاً من محاولة تحرير نفسي، ثنيت جسدي ولففت ساقيّ حول خصره. أطبقت عليه فجعلت كاحلي السليم يمسك بكاحلي المصاب. حاولت تجاهل الألم حتى أمسك به على نحو محكم.

«اتركيني، يا. . .» حاول الإفلات مني فاستطعت تحرير إحدى يدي. لففت ذراعي الحرة حول عنقه وأمسكت بشعره الكثيف. إن كان يحاول إغراقي في النهر الأسود، فعليه أن يغرق معي.

كف كَايل عن محاولة فك ساقيّ عن خصره لكنه سدد لكمة شديده إلى وسطي.

لهثت ألماً لكن يدي الثانية تحررت الآن فأمسكت بشعره أيضاً.

لفّ ذراعيه حولي، كأننا متعانقان، لا ملتحمان في صراع حتى الموت. ثم أمسك بخصري من الجهتين ودفعني عنه بكل قوته محاولاً فكّ ساقيّ عنه.

بدأ شعر رأسه ينسلخ في يدي، لكنه واصل الدفع بقوة أكبر.

كنت أسمع الماء الغالي مندفعاً في مكان شديد القرب مني. بدا تحتي تماماً. ارتفع البخار في غيمة كثيفة فصرت غير قادرة على رؤية شيء إلا وجه كَايل الذي شوَّهه الغضب فجعله أشبه بوحش لا يعرف الرحمة.

أحسست أن ساقي المصابة موشكة على الإفلات. حاولت شد نفسي لألتصق به أكثر من ذي قبل لكن قوته البهيمية كانت تفوق قوة محاولتي اليائسة. سوف يتحرر مني في لحظات قليلة وسوف أسقط في ذلك البخار. وأختفي.

«جارد! جيمي!». كانت تلك الفكرة. كان ذلك العذاب. عذابي أنا وعذاب ميلاني معاً. لن يعرفا أبداً ماذا حصل لي. إيان. جيب الطبيب. وولتر. لا وداع.

وعلى نحو مفاجئ قفز كَايل في الهواء وانهدّ على الأرض فصدر صوت اصطدام. لقد أثمرت هذه الصدمة النتيجة التي أرادها: انفكت ساقاي عنه!

لكن، قبل أن يستطيع الاستفادة مما حدث، ظهرت نتيجة أخرى لقفزته.

كان صوت تحطم الأرض من تحتنا مصماً للآذان. ظننت أن الكهف كله قد بدأ ينهار. ارتجفت الأرض من تحتنا.

زفر كَايل وقفز إلى الخلف. أخذني معه لأن يديّ ما زالتا

ممسكتين بشعره. أما الصخرة التي كانت تحت قدميه فقد بدأت تتدحرج بعيداً مصدرةً مزيداً من صوت التحطم والقرقعة.

لقد أدى اجتماع وزنينا، مع تلك القفزة، إلى تحطيم حافة الفوهة. ومع تراجع كَايل إلى الخلف كان تصدع الأرض الصخرية يتبع خطواته. كانت حركة التصدع أسرع من حركته.

اختفت قطعة من الأرض من تحت كعبه فسقط إلى الأمام. كان وزني يدفعه إلى الأرض فاصطدم رأسه صدمة حادة بالعمود الحجري. انفكت ذراعاه عني. مرتخيتين. ميتتين.

تحوّل صوت تشقّق الصخر من تحتنا إلى زمجرة مستمرة. أحسست الأرض ترتجف تحت جسد كَايل.

كنت على صدره الآن. وكانت سيقاننا متدلية في الفراغ. كان البخار يتكثف ملايين القطرات على جلدينا.

«كَايل؟».

ما من إجابة.

كنت خائفة من التحرك.

«عليك أن تنهضي عنه. إنكما ثقيلان معاً. انتبهي... استخدمي العمود. اسحبي نفسك بعيداً عن الحفرة».

عصف الخوف برأسي. كنت أكثر خوفاً من أن أستطيع التفكير وحدي. فعلت كما قالت لي ميلاني. حررت أصابعي من شعر كَايل وتسلقت حذرة فوق جسده الذي فقد الوعي. كنت أستخدم العمود الصخري. أمسك به حتى أسحب نفسي إلى الأعلى. بدا لي العمود الصخري ثابتاً متيناً، لكن الأرض ما زالت ترتجف من تحتنا.

واصلت سحب نفسي. تجاوزت العمود فصرت على الأرض الثابتة من ورائه. كانت هذه الأرض ثابتة مستقرة تحت يدي وركبتي، لكني مضيت مبتعدة، صوب الأمان عند مدخل النفق.

سمعت صوت تحطم آخر فاستدرت. كانت إحدى ساقَيْ كَايل قد

تدلت إلى الأسفل لأن صخرة أخرى سقطت من تحته. سمعت صوت اصطدامها بالماء في الأسفل. كانت الأرض ترتجف من تحته.

«سوف يسقط».

زمجرت ميلاني: «هذا جيد».

«لكن... !».

«إذا سقط فلن يعود قادراً على قتلنا يا جو. أما إذا لم يسقط، فسوف يقتلنا».

«لكني لا أستطيع...».

«بل تستطيعين. اذهبي. ألا تريدين الحياة؟».

إنني أريد الحياة. أريد أن أحيا.

قد يختفي كَايل. وإذا اختفى، فقد لا يعود لدي من يؤذيني بعده لن يكون ثمة من يؤذيني بين الناس الموجودين هنا. لكن تبقى تلك الباحثة، ولعلها تترك هذا الأمر ذات يوم. وعندئذ أستطيع البقاء هنا من غير نهاية. مع البشر الذين أحببتهم.

كان الألم ينبض في ساقي وقد تدفق سائل حار على شفتي. تذوقته من غير تفكير فعرفت أنه دمي.

«تحركي أيتها الجوالة. إنني أريد الحياة. أريد خياراً أيضاً».

كنت أشعر باهتزاز الأرض من حيث وقفت. سقطت قطعة جديدة من الصخر فاصطدمت بالنهر. تحرك جسد كَايل قليلاً. انزلق عدة سنتمترات صوب الحفرة.

«دعيه يذهب».

كانت ميلاني تعرف ما تتحدث عنه. أكثر مني. إنه عالمها قواعدها.

رحت أنظر إلى وجه الرجل الذي كان موشكاً على الموت. الرجل الذي أراد موتي. ما عاد وجهه شبيهاً بوجه وحش غاضب. صار الآن مسترخياً. مسالماً تقريباً.

كان شبهه بأخيه واضحاً تماماً.

قالت ميلاني محتجة: «لا!».

حبوت عائدة إليه. حبوت على ركبتيّ وكفيّ. تحركت ببطء متحسسة الأرض بحذر قبل كل خطوة أخطوها كنت شديدة الخوف من تجاوز العمود الصخري. لذلك لففت ساقي غير المصابة حوله. جعلته مرساة لي. ثم انحنيت فأدخلت يدي تحت ذراعَيْ كَايل من الخلف وعقدتهما فوق صدره.

جذبته بقوة شديدة، حتى أحسست أن ذراعيّ تنخلعان من مكانهما، لكنه لم يتحرك. سمعت صوتاً يشبه صوت هسيس الرمل في ساعة زجاجية. واصلت الأرض من تحتنا تفتتها إلى قطع صغيرة.

جذبته من جديد لكن النتيجة الوحيدة التي حصلت عليها لم تكن إلا زيادة تفتت الأرض. كان هذا الجذب يسرّع تفتت الأرض.

ما إن أدركت ذلك حتى سقطت قطعة كبيرة من الصخر إلى النهر ففقد جسد كَايل توازنه السابق. بدأ يسقط.

زعقت: «لا!» اندفع ذلك الصراخ المرتفع عبر حنجرتي من جديد حاولت الالتصاق بالعمود الحجري. نجحت في تثبيت كَايل من جديد على جانبه الآخر. أحكمت شبك يديّ فوق صدره العريض. ما أشد الألم في ساعديّ!

صرختُ: «ساعدوني! هل هناك أحد! النجدة!».

## الفصل الثالث والثلاثون

# كذبة

سقطت صخرة أخرى إلى الماء. كان وزن كَايل تعذيباً لذراعي.

«جو؟ جو!».

«ساعدوني! إنه كَايل! الأرض تنهار! النجدة!».

كان وجهي منضغطاً على الصخرة الآن، وكانت عيناي متجهتين صوب مدخل الكهف. صار الضياء متألقاً في الأعلى فقد بزغ الفجر أخيراً. حبست أنفاسي. زعقت ذراعاي محتجتين متألمتين.

«جو! أين أنت؟».

قفز إيان عبر الباب. كانت البندقية بين يديه.. منخفضة الفوهة وجاهزة للاستعمال. كان الغضب على وجهه مثل الغضب الذي رأيته على وجه أخيه.

صحت به: «انتبه! الأرض تتهاوى! لا أستطيع الإمساك به وقتاً أطول!».

مرّت ثوانٍ كثيرة قبل أن يستوعب الأمر. قبل أن يفهم المشهد الذي رآه أمامه. كان مشهداً مختلفاً عما توقع. لقد توقع أن يرى كَايل يقتلني. إنه المشهد الذي كان حقيقة واقعة قبل قليل.

عند ذلك رمى البندقية إلى أرض الكهف ثم سار متقدماً صوبي بخطوات طويلة.

«انبطح إلى الأرض. عليك توزيع وزنك!».

هبط إيان إلى الأرض. صار يحبو على قدميه وكفّيه متقدماً نحوي. رأيت عينيه مشتعلتين في ضوء الفجر.

حذّرني: «لا تتركيه».

أننتُ متألمة.

توقف لحظة ليدرس الوضع ثم زلق جسمه خلف جسمي فدفعني إلى الالتصاق بالصخرة أكثر من ذي قبل. كانت ذراعاه أطول من ذراعيّ. حتى مع وجودي بينه وبين أخيه. كان قادراً على إمساكه بيديه.

قال لاهثاً: «واحد. اثنان. ثلاثة».

جذب كَايل جذبة عنيفة صوب الصخرة. جعله في وضع أكثر أماناً من الوضع الذي استطعت تحقيقه. لكن تلك الحركة جعلت وجهي يصطدم بالعمود الصخري من جديد. لقد اصطدم جانب وجهي المصاب. لكن هذه الصدمة الجديدة لم تصبه بجراح أسوأ مما أصابه من قبل.

«سوف أجذبه إلى هذه الجهة. هل تستطيعين الخروج؟».

«سوف أحاول».

فككت ذراعيّ عن كَايل. أحسست بالراحة في كتفي. كانت هذه الراحة مثل الألم. تأكدت من أن إيان صار ممسكاً به الآن. وعندها زلقت جسمي خارجة من بين إيان والصخرة محاذرة وضع وزني فوق المنطقة الخطيرة من الأرض. زحفت متراجعة عدة أقدام في اتجاه الباب. كنت متأهبة للإمساك بإيان إذا بدأ الانزلاق.

سحب إيان شقيقه فاقد الوعي فوضعه إلى جانب العمود الصخري. كان يجذبه مرة بعد مرة. يحركه شبراً مع كل جذبة. تهاوت قطع جديدة من الأرض، لكن العمود الصخري ظل سليماً.

بدأ إيان يزحف متراجعاً كما فعلت. كان يسحب شقيقه مستخدماً عضلاته. وإرادته. وبعد دقيقة واحدة صرنا جميعاً عند فتحة الممر. كان تنفسنا لهاثاً.

«ماذا. ماذا حدث؟».

«كان. وزننا. كبيراً. تداعت الأرض من تحتنا».

«ماذا كنت تفعلين هنا. عند حافة الحفرة؟ مع كَايل؟».

طأطأت رأسي ورحت أركز على استعادة تنفسي.

قالت ميلاني: «هيا... أخبريه».

«وماذا يحدث عند ذلك؟».

«تعرفين ماذا يحدث. لقد خرق كَايل القواعد. سوف يطلق عليه جيب النار، أو يطرده من الكهف. وقد يسبقه إيان إلى ذلك. سوف تكون مشاهدة ما يحدث أمراً ممتعاً».

ما كانت ميلاني تعني هذا حقاً. لا أظن أنها تعنيه من كل قلبها لكنها ما زالت غاضبة مني لأنني غامرت بحياتي وحياتها من أجل إنقاذ هذا الذي يريد قتلنا.

قلت لها: «تماماً. وإذا طردوا كَايل من أجلي... أو قتلوه...» ارتجفت. «ألا ترين مدى سخافة الأمر؟ إنه واحد منكم».

«إن لي حياة هنا يا جو. وأنت تهددين حياتي بالخطر».

«إنها حياتي أيضاً. وأنا... أنا... ما أنا».

زفرت ميلاني مشمئزة مني.

عاد إيان يطالبني بالإجابة: «ماذا يا جو؟».

قلت: «لا شيء».

«أنت كاذبة فاشلة. وأنت تعرفين هذا».

ظل رأسي مطرقاً. ظللت أحاول التنفس من جديد.

«ما الذي فعله كَايل؟».

كذبت على نحو فاشل من جديد: «لا شيء».

وضع إيان يده تحت ذقني ورفع وجهي إلى الأعلى: «إن الدم ينزف من أنفك». ثم أدار وجهي جانباً. «وثمة مزيد من الدم في شعرك أيضاً»

«لقد.. صدمت رأسي عندما تهاوت الأرض».

«وهل صدمت رأسك من الجهتين معاً؟».

رفعت كتفي غير عارفة ما أقول.

راح إيان يحدق في وجهي لحظة طويلة. كان ظلمة النفق تخفف تألق عينيه.

«علينا أن نأخذ كَايل إلى الطبيب. لقد أصيب رأسه إصابة كبيرة عندما سقط».

«ما الذي يجعلك تحمين كَايل؟ لقد حاول قتلك». كان ذلك تقريراً لحقيقة مؤكدة. ما كان سؤالاً لكن تعابير وجه إيان تحولت تحولاً بطيئاً من الغضب إلى الفزع. كان يتخيل ما كنا نفعله فوق تلك الحافة غير المستقرة. رأيت ذلك مرتسماً في عينيه. وعندما لم أجبه تكلم من جديد هامساً: «كان يحاول رميك في النهر. .» سرتْ رعدة غريبة في جسده.

كانت إحدى ذراعي إيان ملتفة حول كَايل. لقد بلغ هذا النقطة على هذا الوضع. وظل عليه. يبدو الآن شديد التعب غير قادر على التحرك. لكنه دفع أخاه عنه بفظاظة وابتعد عنه مشمئزاً. انزلق نحوي ولف كتفيّ بذراعيه. شدني قريباً إلى صدره. صرت قادرة على الإحساس بأنفاسه. مازالت أنفاسه متقطعة. غير مستقرة.

انتابني إحساس شديد الغرابة.

«عليّ الآن أن أعيده إلى هناك. أن أرفسه فأجعله يسقط من فوق تلك الحافة بنفسي».

هززت رأسي بجنون. . نبض الألم فيه من جديد: «لا».

«عليّ أن أكسب الوقت. لقد أوضح جيب القواعد على نحو لا يقبل أي التباس. كل من يحاول إيذاء شخص هنا يتعرض للعقاب. سوف تنعقد محكمة».

حاولت الابتعاد عنه لكنه شد ذراعيه من حولي. ما كان هذا مخيفاً. ما كان ذلك يشبه إمساك ذراعَيْ كَايل بي. لكنه كان مزعجاً على نحو ما. كان يفقدني توازني: «لا، لا تستطيعون فعل ذلك، لأن

أحداً لم يخرق القواعد. لقد تهاوت الأرض. هذا كل شيء».

«جو. .».

«إنه شقيقك».

«لقد كان يعرف ما يفعله. إنه شقيقي، نعم، لكنه فعل ما فعل! وأنت. أنت. أنت صديقتي».

همست: «لم يفعل شيئاً. إنه بشري. هذا المكان مكانه. ليس مكاني».

«لن ندخل في هذا النقاش من جديد. إن تعريفك للبشر لا يطابق تعريفي. في نظرك أنت، تعني كلمة بشري. شيئاً سلبياً. أما في نظري فهي مديح. وحسب تعريفي أنا، أعتبرك بشرية. أما هو فليس كذلك. ليس بعد الآن».

«لا أعتبر كلمة بشري كلمة سلبية. إنني أعرفك الآن. لكن، يا إيان، إنه شقيقك».

«هذه الحقيقة تخجلني»

ابتعدت عنه مرة أخرى. تركني هذه المرة. ربما عليّ أن أفعل شيئاً من أجل هذا الألم الذي جعل الأنين يفلت من شفتي عندما حركت ساقي.

«هل أنت بخير؟».

«أظن هذا. علينا أن نعثر علىٰ الطبيب، لكنني لا أعرف إن كنت قادرة على المشي. لقد. أصيبت ساقي أيضاً، عندما سقطت».

سمعت زمجرة في حنجرة إيان: «أي ساق؟ دعيني أراها».

حاولت أن أضع ساقي المصابة في وضع مستقيم. إنها ساقي اليمنى. لكنني صرخت متألمة من جديد. راحت كفاه تجسّان ساقي ابتداء بقدمي ثم كاحلي. راحتا تفحصان العظام والمفاصل. أدار كاحل ساقي بحركة حذرة.

شددت يده إلى الأعلى، فوق الركبة تماماً، من الخلف: «أعلى.

هنا». أننت من جديد عندما ضغط تلك المنطقة. «إنها ليست مكسورة. لا أعتقد ذلك. لكنها تؤلمني حقاً!».

قال: «إنه رضّ عميق في العضلات، على أقل تقدير. كيف حدث هذا؟».

«لا بد أنه. لا بد أنني سقطت على صخرة عندما وقعت».

تنهد: «طيب، سآخذك إلى الطبيب».

«لكن كَايل في حاجة إلى الطبيب أكثر مني».

«عليّ أن أذهب للعثور على الطبيب على أي حال. أو على أحد يساعدنا. لا أستطيع حمل كَايل كل تلك المسافة، لكنني أستطيع حملك. انتظري قليلاً».

استدار فجأة وعاد إلى غرفة النهر. قررت عدم مجادلته. كنت أريد رؤية وولتر قبل. لقد وعدني الطبيب بالانتظار من أجلي. هل ينتهي مفعول تلك الجرعة الأولى من المسكّن في وقت سريع؟ دار رأسي! ثمة أمور كثيرة تقلقني. لكنني متعبة كثيراً. زال التوتر من جسدي. تركه خاوياً.

عاد إيان حاملاً البندقية. تجهم وجهي لأنها ذكرتني بأنني تمنيت وجودها قبل قليل. لم يعجبني هذا!

«فلنذهب».

ومن غير تفكير ناولني إيان البندقية. شعرت بها تسقط على راحتيّ، لكنني لم أستطع جعل أصابعي تنثني حتى تمسك بها. رأيت في هذا عقوبة مناسبة. إنها عقوبة لي أن أضطر إلى حمل هذا الشيء.

ضحك إيان: «كيف يمكن أن يخاف أحد منك. ؟» هكذا غمغم لنفسه.

حملني بسهولة شديدة وبدأ السير قبل أن أستقر بين يديه. حاولت أن أجعل المناطق التي تؤلمني. مؤخرة رأسي وساقي. بعيدة عن الاصطدام بجسده.

سألني: «كيف صارت ثيابك مبللة إلى هذا الحد؟». كنا نعبر الآن تحت فتحة في السقف بحجم قبضة اليد. فتحة على السماء. رأيت شبح ابتسامة يلوح على شفتيه الشاحبتين.

تمتمت: «لست أدري. لعله البخار!».

صرنا في الظلمة من جديد.

«لقد فقدت فردة حذائك».

«أوه!».

مررنا تحت حزمة ضوء أخرى فلمعت عيناه بلون ذهبي. صارتا جادتين الآن. متعلقتين بوجهي.

«إنني. سعيد حقاً لأنك لم تصابي بأذى حقيقي يا جو. لأنك لم تصابي بأذى أكثر من هذا. لعل هذا هو التعبير الصحيح».

لم أجبه. كنت خائفة من إعطائه أي شيء يستخدمه ضد كَايل.

عثر جيب علينا قبل أن نصل إلى الكهف الكبير. كان الضوء كافياً لأرى تلك اللمحة الحادة من الفضول في عينيه عندما رآني بين ذراعي إيان. عندما رأى وجهي نازفاً. ورأى البندقية مستقرة. وغير مستقرة. فوق كفي المفتوحين.

قال جيب: «إذاً، لقد كنت على حق». كان فضوله شديداً، لكن الفولاذ في نبرة صوته كان أقوى. رأيت فكه مطبقاً بإحكام تحت مروحه لحيته. «لكنني لم أسمع صوت إطلاق النّار. ماذا عن كَايل؟».

قلت مستعجلة: «لقد فقد الوعي. عليك تحذير الجميع. انهار جزء من الأرض في غرفة النهر. لست أدري مدى استقرارها الآن. أصيب رأس كَايل إصابة شديدة عندما حاول الابتعاد. إنه في حاجة إلى الطبيب».

ارتفع حاجب جيب ارتفاعاً شديداً حتى كاد يلمس شعره الشائب.

قال إيان من غير إبداء أي جهد لإخفاء شكه: «تلك هي القصة ومن الواضح أنها متمسكة بها».

ضحك جيب وقال لي: «دعيني آخذ البندقية منك».

كنت سعيدة لأنه أخذ البندقية. ضحك من جديد عندما رأى تعبير وجهي.

«سوف أحضر آندي وبراندت لمساعدتي في حمل كَايل. سنلحق بكما».

قال إيان بنبرة قاسية: «احرص على مراقبته جيداً عندما يفيق».

«سأفعل ذلك».

تحرك جيب باحثاً عن أشخاص يساعدونه. أما إيان فأسرع بي صوب كهف المستشفى.

«قد تكون إصابة كَايل خطيرة حقاً. يجب أن يسرع جيب».

«إن رأس كَايل أشد قساوة من أي صخرة في هذا المكان».

بدا لي النفق الطويل أكثر طولاً من المعتاد. هل يموت كَايل. رغم جهودي؟ أم لعله استعاد وعيه من جديد وعاد يبحث عني؟ ماذا عن وولتر؟ أهو نائم الآن. أم أنه مات؟ هل تخلت الباحثة عن محاولاتها أم أنها ستعود الآن بعد أن بزغ الفجر من جديد؟

أضافت ميلاني سؤالاً من عندها: «أما يزال جارد مع الطبيب؟ وهل سيكون غاضباً عندما يراك؟ هل سيعرفني؟».

عندما بلغنا الكهف الجنوبي الذي تضيئه الشمس، بدا لي أن جارد والطبيب لم يتحركا كثيراً. رأيتهما منحنيين جنباً إلى جنب على مكتب الطبيب. كان الهدوء مخيماً عند وصولنا ما كانا يتحدثان. إنهما يراقبان وولتر النائم.

حدّقا فينا بعيون متسعة عندما دخل إيان منطقة الضوء وهو يحملني ثم وضعني على السرير المجاور لسرير وولتر عدل إيان وضع رجلي المصابة بحذر.

كان وولتر يشخر الآن. خفف صوت شخيره بعضاً من توتري.

سأل الطبيب بصوت حانق: «ماذا الآن؟». لقد انحنى فوقي مع خروج هذه الكلمات من فمه وراح يمسح الدم عن خدي.

تجمد وجه جارد من وقع المفاجأة. لكنه كان حذراً. لم يسمح لهذا التعبير على وجهه بالإفصاح عن أي شيء آخر.

«إنه كَايل». هكذا أجاب إيان في اللحظة نفسها التي قلت فيها: «إن الأرض. . ».

نظر الطبيب إليه. ثم إليّ. ثم إليه. حائراً.

تنهد إيان وفتح عينيه متسعتين. وبذهن شارد، وضع إحدى يديه على جبيني: «تداعت الأرض عند فتحة النهر الأولى. سقط كَايل إلى الخلف فاصطدم رأسه بصخرة. لقد أنقذت جو حياته البائسة. وهي تقول إنها سقطت أيضاً عندما تداعت الأرض». ألقى إيان على الطبيب نظرة ذات مغزى. «شيء ما. . » قال هذه الكلمة بصوت ساخر. «صدم مؤخرة رأسها صدمة شديدة». بدأ يحصي إصاباتي. «إن أنفها ينزف لكنه ليس مكسوراً. لست أظنه مكسوراً. وقد أصيبت في هذه العضلة». لمس ساقي المتورمة. «كما أن ركبتيها مكشوطتان كشطاً شديداً. وقد أصيب وجهها من جديد، لكن أظن أنني السبب في ذلك عندما حاولت جر كَايل بعيداً عن تلك الحفرة. ما كان عليّ أن أعبأ بإنقاذه!».

سأله الطبيب: «هل من إصابات أخرى؟». في تلك اللحظة وصلت أصابعه التي تجس جسمي إلى ذلك المكان حيث لكمتني قبضة كَايل شهقت متألمة.

رفع الطبيب قميصي فسمعت إيان وجارد يشهقان بسبب ما شاهداه.

قال إيان بصوت بارد كالجليد: «دعيني أخمن الآن. . لقد سقطت على صخرة».

قلت موافقة. . متقطعة الأنفاس: «إن تخمينك صحيح». ما زال الطبيب يجس جسمي. كنت أحاول كتم أنيني.

تمتم الطبيب: «قد يكون أحد أضلاعك مكسوراً. ليتني أستطيع إعطاءك شيئاً يخفف الألم. . ».

قلت لاهثة: «لا تشغل بالك بهذا الأمر يا دكتور، إنني بخير. كيف حال وولتر؟ هل استيقظ؟».

قال الطبيب: «لا، سيستمر في النوم بعض الوقت حتى ينتهي مفعول الجرعة». أمسك بيدي وبدأ يثني معصمي. ثم مرفقي.

«إنني بخير».

كانت عيناه لطيفتين عندما قابل نظراتي: «سوف تكونين بخير. ليس عليك إلا أن ترتاحي بعض الوقت. سوف أعتني بك. هيا. أديري رأسك».

فعلت كما طلب مني، لكني شهقت عندما بدأ يفحص جرحي.

تمتم إيان: «ليس هنا».

ما كنت قادرة على رؤية الطبيب، لكن جارد رشق إيان بنظرة حادة.

«إنهم يجلبون كَايل. لا أريد وجوده معها في غرفة واحدة».

أومأ الطبيب برأسه: «قد يكون هذا رأياً حكيماً».

«سوف أحضّر مكاناً لها. لكن عليكما إبقاء كَايل هنا ريثما. ريثما نقرر كيف نتصرف معه».

حاولت أن أتكلم، لكن إيان وضع إصبعه على شفتيّ.

قال الطبيب موافقاً: «لا بأس. سوف أربطه. إذا أردت».

التفت إيان ناحية النفق. كان وجهه قلقاً: «سنربطه إذا اضطررنا إلى ذلك. هل يمكنني تحريكها؟».

تردد الطبيب.

همست. ما زالت إصبع إيان على فمي: «لا وولتر. أريد أن أكون هنا من أجل وولتر».

قال إيان بصوت لطيف حزين: «لقد أنقذت جميع الأرواح التي تستطيعين إنقاذها في هذا اليوم يا جو».

«أريد أن أقول له. أن أقول له وداعاً».

أومأ إيان برأسه. ثم نظر إلى جارد: «هل أستطيع أن أثق بك؟».

اشتعل وجه جارد غضباً. رفع إيان يده يهدئه: «لا أريد أن أتركها من غير حماية هنا ريثما أعثر على مكان آمن من أجلها. لا أدري إن كان كَايل قد استعاد وعيه. إذا أطلق جيب النار عليه فسوف يحزنها ذلك. لكن، يجب أن تكونا، أنت والطبيب، قادرَيْن على ضبطه. لا أريد أن يكون الطبيب وحده. لا أريد أن يضطر جيب إلى إطلاق النار على كَايل».

تكلم جارد عبر أسنانه المطبقة: «لن يكون الطبيب وحده».

تردد إيان من جديد: «لقد مرَّت بأوقات عصيبة جداً خلال هذين اليومين. تذكر ذلك».

هز جارد رأسه مرة واحدة لكن أسنانه ما زالت مطبقة بإحكام.

قال الطبيب لإيان: «سوف أكون هنا».

نظر إيان إليه: «طيب». انحنى فوقي وتعلقت عيناه اللامعتان بعيني «سوف أعود سريعاً. لا تخافي».

«لست خائفة».

انحنى إيان ومسّ جبهتي بشفتيه.

لم يفاجأ أحد قدر ما فوجئت أنا، لكنني سمعت جارد يشهق بصوت هادئ. انفتح فمي دهشة بينما كان إيان ينتصب واقفاً ثم يخرج مسرعاً من الغرفة.

سمعت الطبيب يسحب نفساً من بين أسنانه. كما لو أنه يصفر على نحو مقلوب. قال: «لا بأس».

راح الاثنان يحدقان بي لحظات طويلة. كنت متعبة. متألمة. ما كنت أبالي بأفكارهما في تلك اللحظة.

بدأ جارد يقول شيئاً بنبرة مستعجلة. «دكتور. .»، لكن ضجة أتت من النفق فقاطعته.

ظهر خمسة رجال عند المدخل. برز جيب في المقدمة حاملاً ساق

كَايل اليسرى بين ذراعيه. كان ويس يحمل الساق اليمنى. ومن خلفهما ظهر آندي وآرون حاملين جذع كَايل. أما رأسه فكان ملقى فوق كتف آندي.

قال جيب لاهثاً: «إننا خمسة، لكنه ثقيل فعلاً».

اندفع جارد والطبيب لمساعدتهم. وبعد دقائق قليلة من اللهاث والشتائم صار كَايل مستلقياً على سرير آخر. كان على مسافة أقدام قليلة من سريري.

سألني الطبيب: «كم مضى على فقدانه الوعي يا جو؟».

رفع الطبيب جفن كَايل وترك الضوء يسطع على بؤبؤ عينه.

قلت مسرعة: «آآآآ. منذ لحظة وصولي إلى هنا وفوقها عشر دقائق أو ما يقارب ذلك مسافة الطريق عندما حملني إيان إلى هنا. وقبلها خمسة دقائق أو أكثر قليلاً؟».

«إنها عشرون دقيقة على الأقل، أليس كذلك؟».

«نعم. تقريباً».

أثناء حديثنا، كان جيب يقوم بتشخيصه الخاص. لم ينتبه إليه أحد عندما جاء فوقف عند رأس سرير كَايل. لم ينتبه أحد حتى صبّ جيب الماء على وجه كَايل من زجاجة مفتوحة.

قال الطبيب معترضاً: «جيب». ثم أزاح يدي جيب بعيداً عن كَايل.

لكن كَايل شهق ثم رفرف بعينيه ثم بدأ يئن: «ماذا حدث؟ أين ذهبتْ؟». بدأ يتحرك محاولاً النظر من حوله. «الأرض. إنها تتحرك. .».

جعل صوت كَايل أصابعي تتشنج قابضة على جوانب سريري. غمرني الذعر من جديد. أحسست بالألم في ساقي. هل أستطيع السير لأبتعد عنه؟ قد أستطيع السير بطيئاً.

تمتم أحدهم: «لا بأس عليك». لا، ليس أحدهم. إنني أعرف هذا الصوت دائماً.

تحرك جارد فوقف بيني وبين سرير كَايل. كان مديراً ظهره صوبي، وكانت عيناه مثبتتين على ذلك الرجل الضخم. رأيت كَايل يحرك رأسه جيئة وذهاباً. ويئن.

قال جارد بصوت منخفض: «أنت في أمان». لم ينظر إليّ. «لا تخف».

استنشقت نفساً عميقاً.

أرادت ميلاني أن تلمس جارد. كانت يده شديدة القرب من يدي. مستريحة على حافة سريري.

قلت لها: «أرجوك! لا! إن وجهي يؤلمني كثيراً... لست في حاجة إلى مزيد من الألم».

«لن يضربك».

«هكذا تظنين. لكنني غير راغبة في المغامرة».

تنهدت ميلاني. كانت تتوق إلى التحرك ناحية جارد. ما كان تحمّل توقها شديد الصعوبة لولا أنني كنت أتوق إلى ذلك أيضاً.

قلت أرجوها: «امنحيه بعض الوقت. دعيه يعتاد وجودنا. انتظري حتى يصدقنا حقاً».

تنهدت ميلاني من جديد.

زمجر كَايل: «آه! ها هي!». دارت عيناي صوبه عندما سمعت صوته. رأيت عينيه اللامعتين من تحت مرفق جارد. كانتا مركّزتين عليّ. «إنها لم تسقط!». هكذا قال متذمراً.

## الفصل الرابع والثلاثون

# دفن

اندفع جارد إلى الأمام، مبتعداً عني. طارت قبضته فاصطدمت بوجه كَايل مصدرة صوتاً مرتفعاً.

غامت عينا كَايل وارتخى فمه من جديد.

صارت الغرفة شديدة الهدوء. استمر الهدوء عدة ثوانٍ.

قال الطبيب بصوت معتدل: «من الناحية الطبية، لست واثقاً من أن هذا الشيء مناسب لحالته».

أجابه جارد غاضباً: «لكني أشعر أنني صرت أحسن حالاً»

ابتسم الطبيب ابتسامة صغيرة: «طيب. لعل بضع دقائق إضافية من فقدان الوعي لن تقتله».

بدأ الطبيب ينظر في عيني كَايل من جديد ويقيس نبضه.

صار ويس عند رأسي. حدثني همساً: «ماذا حدث؟».

أجابه جارد قبل أن أستطيع الكلام: «لقد حاول كَايل قتل هذا الشيء».

«هل يفاجئنا هذا؟».

تمتمت: «هذا ليس مفاجئاً».

نظر ويس إلى جارد فقال جارد: «الظاهر أن الغيرية سلوك طبيعي لدى هذا الشيء، أكثر من الكذب».

سألته: «هل تحاول أن تكون مزعجاً». ما كان صبري ينفد. كان قد نفد فعلاً. كم مرّ عليّ من الوقت من دون نوم؟ كان رأسي يؤلمني أكثر

مما تؤلمني ساقي. وكان التنفس يسبب ألماً حارقاً في صدري. أدركت، مذهولة، أنني كنت في مزاج سيّئ فعلاً. «أقول هذا لأنك إن كنت تحاول إزعاجي. فكن متأكداً من نجاحك في ذلك».

نظر ويس وجارد إليّ بعيون جاحظة دهشة. لا بُدَّ أنني لو استطعت رؤية وجوه الآخرين لرأيت تعابير مماثلة عليها. ربما باستثناء جيب. إنه أكثر الناس مهارة في السيطرة على تعابير وجهه.

قلت متذمرة: «إنني أنثى. أما استخدام كلمة شيء عند الحديث عني فهو يوتر أعصابي».

رفرفت عينا جارد دهشة. ثم عادت القسوة إلى وجهه: «أتقولين هذا بسبب الجسد الذي حللت فيه؟».

حدَّق ويس فيه مستغرباً.

قلت بصوت جازم: «لا بل بسببي أنا».

«حسب أي تعريف؟».

«ما رأيك بتعريفكم أنتم؟ لدى بني جنسي. إنني من يأتي بالصغار. فهل تعتبرني أنثى في هذه الحالة أم لا؟».

أُسقِط في يده. شعرت بقدر من السرور والرضا.

قالت ميلاني مستحسنة: «حسناً فعلت. إنه مخطئ... وهو مصِرٌّ على خطئه... مثل الخنزير!».

«شكراً لك».

«علينا أن نتعاون... نحن الفتيات!».

تمتم ويس: «هذه قصة لم تتحدثي عنها من قبل». في حين راح جارد يبحث عن شيء يفنِّد به كلامي. «كيف يحدث هذا؟».

احمرَّ وجه ويس الزيتوني اللون عندما أدرك أنه نطق هذه الكلمات بصوت مرتفع. «أقصد. أظن أنك لست مضطرة للإجابة عن هذا السؤال إذا اعتبرته وقاحة مني».

ضحكت. كان مزاجي يتأرجح متغيراً على نحو غريب، خارج

السيطرة. مزاج غير مسؤول، كما قالت لي ميلاني ذات مرة: «لا، إنه ليس سؤالاً غير مناسب. ليست لدينا تلك. الأشياء. المعقدة الموجودة لدى جنسكم». ضحكت من جديد ثم شعرت بالحرارة في وجهي. تذكرت بوضوح شديد كم يمكن أن تكون هذه الأشياء معقدة. مربكة.

«ابعدي دماغك القذر عن هذه الأشياء».

قلت أذكّرها: «إنه دماغك أنت!».

سألني ويس: «ماذا إذاً. .؟».

تنهدت: «ثمة عدد قليل منا ممن هم. أمهات. لا، لست أقصد الأمهات. هكذا يدعوننا. لكن المسألة مسألة إمكانية أن نكون أمهات. .» صحوت من جديد. رحت أفكر في الأمر. ما من أمهات لدينا. ما من أمهات يبقين على قيد الحياة. لا يبقى منهن إلا الذكريات.

سألني جارد بصوت متخشب: «وهل لديك تلك الإمكانية؟».

كنت أدرك أن الآخرين يصغون إلى كلامنا. حتى الطبيب، توقف بعد أن كان يهم بوضع أذنه على صدر كَايل.

لم أجب عن سؤاله: «إننا. الأمر يشبه ما تجدونه في مجموعات النحل لديكم. أو في النمل مثلاً. ثمة الكثير الكثير من أفراد الأسرة الذين لا جنس لهم. وهناك ملكة. .».

ردد ويس من خلفي: «ملكة؟». راح ينظر إليّ بتعبير غريب على وجهه.

«لست أقصد هذا. لكن ثمة أماً واحدة مقابل كل خمسة أو عشرة آلاف من بني جنسنا. يكون العدد أقل من ذلك أحياناً. ما من قاعدة ثابتة في هذا الأمر».

تساءل ويس: «وكم عدد الذكور؟».

«أوه، لا ليس لدينا ذكور. لا، قلت لك إن الأمر أبسط من ذلك».

كانوا ينتظرون جميعاً أن أستمر في الشرح. ابتلعت ريقي. ما كان عليّ أن أفتح هذا الموضوع. لست أرغب في التحدث عن هذا الأمر أكثر مما فعلت. هل ثمة مشكلة فعلاً في أن يدعوني جارد بكلمة «شيء» المزعجة؟

ما زالوا ينتظرون. تجهّم وجهي لكنني تحدثت. أنا من فتح هذا الحديث: «إن الأمهات. ينقسمن. كل. خلية، أعتقد أن من الممكن إطلاق هذا الاسم عليها رغم أن بنيتنا مختلفة عن بنيتكم. كل خلية تصبح روحاً جديدة. ويكون لدى كل روح جديدة جزء من ذكريات الأم. يستمر فيها جزء من أمها».

سأل الطبيب بفضول واضح: «وكم عدد الخلايا؟ كم عدد الصغار؟».

رفعت كتفيّ: «قد يبلغ المليون».

رأيت تلك الأعين المتسعة تزداد اتساعاً. حاولت ألا أشعر بالانزعاج عندما رأيت ويس ينكمش مبتعداً عني.

صفر الطبيب صفرة خفيفة. إنه الشخص الوحيد الذي ما يزال راغباً في استمرار هذا الحديث. أما آرون وآندي فقد ارتسم على وجهيهما تعبير قلق مضطرب. لم يسمعاني أتحدث إلى الناس من قبل. لم يسمعاني أبدا أتحدث بهذه الكثرة من الكلمات.

سألني الطبيب: «ومتى يحدث ذلك؟ هل ثمة شيء يحرض حدوثه؟».

قلت له: «هذا اختيار. اختيار طوعي. إنها الحالة الوحيدة التي نختار فيها الموت عن طيب خاطر. إنها نوع من المقايضة. التضحية من أجل جيل جديد».

«وهل تستطيعين الاختيار الآن. هل تستطيعين الانقسام إلى خلايا منفردة. كما قلت لنا؟».

«ليس الأمر كما تتصوّره تماماً. لكن. نعم».

«وهل الأمر معقد؟».

«اتخاذ القرار مسألة معقدة، لكن العملية. مؤلمة».

«مؤلمة؟».

لماذا يفاجئه هذا الأمر إلى تلك الدرجة؟ أوليست الولادة مؤلمة لدى البشر أيضاً؟

قالت ميلاني غاضبة: «ما أتفه الرجال!».

قلت له: «مؤلمة جداً. نتذكر كلنا كم تألمت أمهاتنا».

كان الطبيب يمسِّد ذقنه مذهولاً: «أتساءل. كيف يكون مسار التطور. عندما تقوم ملكة بقتل نفسها لإنتاج جيل كامل. .» كان الآن تائهاً في اتجاه آخر من التفكير.

قال ويس ملخصاً: «إنها الغيرية. التضحية بالنفس من أجل الآخرين».

قال الطبيب: «هممم! نعم. إنها كذلك».

أغمضت عينيّ متمنية لو أنني أبقيت فمي مطبقاً. شعرت بالدوار. هل هذا بسبب تعبي. أم بسبب الجرح في رأسي؟

قال الطبيب: «أوه، لقد نمت فترة قصيرة جداً. أقصر من الفترة التي نمتها أنا يا جو! علينا أن نتركك حتى تنالي بعض الراحة».

غمغمت: «إنني بخير». لكنني لم أفتح عينيّ.

قال أحدهم هامساً: «رائع! إن لدينا ملكة أماً غريبة تعيش بيننا. يمكنها أن تتحول إلى مليون طفيلي جديد في أي لحظة».

«ششش».

قلت للمتكلم من غير أن أفتح عينيّ: «إنهم لا يستطيعون إيذاءكم من غير أجساد مضيفة. إنهم يموتون سريعاً من غير هذه الأجساد». تخيلت تلك المعاناة الفظيعة. تخيلت مليون روح صغيرة لا حول لها. مليون طفل صغير فضيّ اللون. تخيلتهم يموتون.

لم يجبني أحد، لكني كنت قادرة على الإحساس براحتهم لكلماتي.

كنت متعبة. وما كنت أبالي بوجود كَايل على مسافة متر واحد مني ما كنت أبالي أيضاً بأن اثنين من الرجال الذين في الغرفة يمكن أن يقفا في صف كَايل إذا صحا فجأة. ما عدت أبالي بشيء. إلا بأن أنام.

عند ذلك، استيقظ وولتر.

راح يئن أنيناً هامساً: «أوه! غلاديس!».

أننت أنا أيضاً وانقلبت متجهة نحوه. جعلني الألم في ساقي أطلق صرخة ألم، لكنني ما كنت قادرة على الالتفات بجذعي. مددت يدي صوبه. عثرت على يده.

همست له: «إنني هنا»

تنهد وولتر مرتاحاً: «آه!».

أسكت الطبيب الرجال الذين بدأوا يحتجون: «لقد تخلت جو عن نومها وعن أمنها حتى تساعده على تحمّل هذا الألم. لقد غطت الكدمات يدها بسبب ضغط يده عليها. فماذا فعلتم أنتم من أجله؟»

عاد وولتر يئن من جديد. بدأ الصوت منخفضاً متقطعاً لكنه لم يلبث أن تحوّل سريعاً إلى صوت مرتفع يشبه البكاء.

قال الطبيب: «آرون، آندي، ويس. هل يمكنكم. هل يمكنكم الذهاب لإحضار شارون. من فضلكم؟».

«أنذهب جميعنا لإحضارها؟».

ترجم لهم جيب: «اذهبوا. أخرجوا من هنا».

لم أسمع إجابة. إلا صوت أقدامهم عندما غادروا المكان.

همس الطبيب من مسافة قريبة إلى أذني: «جو! إنه يتألم. لا أستطيع تركه يجتاز كل هذا الألم».

حاولتُ أن أجعل تنفسي هادئاً: «من الأفضل ألا يعرفني. من الأفضل أن يظنني غلاديس».

أجبرت عينيّ على الانفتاح. كان جيب إلى جانب وولتر الذي ما زال مظهر وجهه يوحي بأنه نائم.

قال جيب: «وداعاً يا وولتر. أراك على الجانب الآخر».

تراجع جيب مبتعداً.

تمتم جارد: «أنت رجل صالح. وسوف يفتقدك الجميع».

كان الطبيب ممسكاً بكيس المورفين من جديد. سمعت صوت خشخشة الورق.

قال وولتر منتحباً: «غلاديس! إنه مؤلم»

«ششش. لن يستمر الألم طويلاً سوف يجعله الطبيب يتوقف».

«غلاديس!».

«ماذا؟».

«أحبك يا غلاديس. لقد أحببتك طوال حياتي».

«أعرف يا وولتر. وأنا أحبك أيضاً. أنت تعرف كم أحبك».

«تنهد وولتر».

أغمضت عينيّ عندما انحنى الطبيب على وولتر حاملاً الحقنة في يده.

تمتم الطبيب: «نم جيداً يا صديقي».

تراخت أصابع وولتر... انفكت عن يدي. أمسكت بها. صرت أنا من يتمسك به الآن.

مرت الدقائق، خيّم الصمت. ساد الهدوء كل شيء إلا تنفسي. كانت أنفاسي تضطرب. تتقطع. توشك أن تصبح نشيجاً هادئاً.

أحسست بأحد يربت على كتفي: «لقد رحل يا جو». إنه الطبيب. كان صوته مثقلاً: «لقد تخلص من ألمه».

فك الطبيب يدي عن يد وولتر ثم قلبني بهدوء ليجعلني في وضع أقل ألماً. لكنه كان أقل ألماً على نحو طفيف فقط. لن ينزعج وولتر من أي صوت الآن. ما عاد صوت بكائي هادئاً. أمسكت خصري بيدي. حيث الألم النابض.

قال جارد بصوت كله ضغينة: «أوه! هيا! لن تشعر بالراحة من غير هذا». حاولت أن أفتح عينيّ، لكنني لم أستطع.

أحسست بوخزة في ذراعي. لا أتذكر إصابتها بأي سوء. ليس في هذا المكان الغريب على الأقل. في الجانب الداخلي من مرفقي.

همست ميلاني: «مورفين».

بدأنا نغيب عن الوعي. حاولتُ أن أحافظ على انتباهي لكنني لم أستطع. وسرعان ما غبت.

قلت في نفسي: «لم يودعني أحد». ما كنت أتوقع أن يودعني جارد. أما جيب والطبيب. إيان ليس هنا.

قالت ميلاني تطمئنني: «لن تموتي. ستنامين بعض الوقت... لا أكثر».

*

عندما استيقظت، كان السقف من فوقي خافت الضياء. كان مرصعاً بالنجوم. إنه الليل. لكن النجوم كانت كثيرة. أين أنا؟ لم أجد عوائق سوداء تحجب النجوم عني. لم أجد قطعاً من السقف تعترض نظري. لم أر إلا نجوماً ونجوماً ونجوماً!

هبّت الريح على وجهي. شممت ما يشبه. الرمل. وشممت شيئاً لم أستطع تحديده. لا، لم أشم شيئاً. إنه غياب. لقد اختفت الرائحة الضبابية. لا رائحة كبريت هنا. ثم إن الجو جاف.

همس شخص وهو يلمس وجنتي السليمة: «جو!».

عثرت عيناي على وجه إيان. كانَ لونه أبيض في ضوء النجوم. رأيته منحنياً فوقي. كان ملمس يده على جلدي أكثر برودة من النسيم الذي يهبّ فيداعبه، لكن الهواء كان شديد الجفاف. غير محتمل تقريباً. أين أنا؟

«جو! هل استيقظت؟ لن ينتظروا أكثر من هذا».

همستُ. لأنه كان يتحدث همساً: «ماذا؟».

«إنهم يبدأون الآن. كنت أعرف أنك راغبة في الحضور».

سأل صوت جيب: «هل استيقظتْ؟».

سألت: «ما الذي يبدأ الآن؟».

«إنها جنازة وولتر».

حاولت الجلوس، لكن جسدي كان مثل المطاط. وضع إيان كفه على جبهتي. جعلني أستلقي من جديد.

أدرت رأسي تحت ضغط يده محاولة أن أرى.

كنت في الخارج.

«في الخارج».

رأيت على يساري كومة كبيرة خشنة من الجلاميد الصخرية. كانت تشكل جبلاً صغيراً. رأيت على هذا الجبل الصغير أجمة شائكة أيضاً. وعلى يميني، امتد السهل الصحراوي بعيداً. مختفياً في الظلمة. نظرت إلى ناحية قدمي فرأيت جمعاً من الناس. ما كانوا مرتاحين هنا في الهواء الطلق. أدركت شعورهم. يشعرون بأنهم مكشوفون!

حاولت النهوض من جديد. أردت أن أكون أقرب. أن أرى. لكن يد إيان منعتني.

قال: «مهلك! لا تحاولي الوقوف».

قلت أرجوه: «ساعدني».

«جو!».

سمعت صوت جيمي ثم رأيته. كان شعره منتفخاً بفعل الريح لأنه يجري صوب المكان الذي أرقد فيه.

مرّت أطراف أصابعي على حواف الحصير من تحتي. كيف وصلت إلى هنا. كيف صرت نائمة تحت النجوم؟

قال جيمي لإيان: «لن ينتظروا. سوف ينتهي الأمر سريعاً».

قلت: «ساعدني على الجلوس».

مد جيمي يده لي لكن إيان هز رأسه: «سوف أحملها».

زلق إيان ذراعيه من حولي بحركة شديدة الحذر حتى يتجنب إصاباتي. رفعني عن الأرض فدار رأسي مثل سفينة على وشك الانقلاب. أننت.

«ما الذي فعله الطبيب بي؟».

«لقد أعطاك قليلاً من المورفين المتبقي حتى يستطيع فحص إصاباتك من غير أن تتألمي. وقد كنت بحاجة إلى النوم أصلاً».

عبست غير موافقة على ما حدث: «ألن يكون أحد غيري بحاجة إلى هذا الدواء؟».

قال: «ششش» سمعت الآن صوتاً خفيضاً في البعيد. أدرت رأسي. رأيت جمهرة البشر من جديد. كانوا واقفين عند فوهة مكان منخفض مفتوح داكن حفرته الريح تحت كومة من الصخور. بدت هذه الكومة غير مستقرة في مكانها. رأيتهم واقفين في صف متعرج، في مواجهة هذا التجويف المظلم.

سمعت صوت ترودي: «كان وولتر دائماً يرى الجانب المشرق من الأشياء. كان قادراً على رؤية الناحية المضيئة حتى في ثقب أسود. سوف أفتقده».

رأيت شخصاً آخر يخطو إلى الأمام. رأيت تلك الجديلة الرمادية السوداء تتأرجح مع حركة صاحبتها. رأيت ترودي ترمي حفنة من الرمل في تلك الظلمة. تناثر الرمل من بين أصابعها متساقطاً صوب الأرض بهسيس خافت.

عادت فوقفت إلى جانب زوجها. تحرك جيفري مبتعداً عنها. خطا إلى الأمام صوب المساحة السوداء.

«سوف يجد غلاديس الآن. إنه أسعد حالاً حيث هو». رمى جيفري حفنة من التراب.

حملني إيان حتى الجانب الأيمن من سلسلة البشر الواقفين. صرت قريبة وقادرة على رؤية ما بداخل التجويف المظلم. رأيت منطقة أكثر سواداً أمامي هناك في الأرض. شكل متطاول كان البشر واقفين من حوله على شكل نصف دائرة.

كان الجميع هنا الجميع.

تقدم كَايل إلى الأمام.

ارتعدت فشد إيان على جسدي برقة.

لم ينظر كَايل في اتجاهنا. رأيت وجهه من الجانب. كانت عينه اليمنى متورمة. شبه مغلقة.

قال كَايل: «لقد مات وولتر بشرياً. ليس لأحد منا أن يطلب أكثر من هذا». رمى حفنة من التراب داخل تلك الحفرة المستطيلة على الأرض.

عاد كَايل إلى مكانه ضمن المجموعة.

كان جارد واقفاً إلى جانبه. تقدم إلى الأمام فوقف عند حافة قبر وولتر.

«كان وولتر إنساناً طيباً بكل معنى الكلمة. ليس بيننا من يساويه طيبة». رمى حفنة من الرمل.

تقدم جيمي إلى الأمام فربت جارد على كتفه عندما تقابلا.

قال جيمي: «كان وولتر شجاعاً. ما كان خائفاً من الموت. ما كان خائفاً من الحياة. وما كان خائفاً. من التصديق. كان يتخذ قراراته بنفسه. وقد اتخذ قرارات جيدة». رمى جيمي حفنة الرمل. استدار وسار عائداً. كانت عيناه معلقتين بعيني طوال الطريق.

وعندما مر بجانبي قال هامساً: «إنه دورك».

كان آندي قد بدأ التحرك صوب القبر حاملاً مجرفة بين يديه.

قال جيمي بصوت منخفض حمله الصمت إلى مسافة بعيدة: «انتظر! إيان وجو لم يقولا شيئاً بعد».

تصاعدت همهمة منزعجة من حولي. أحسست أن دماغي يتقلص وينتفض داخل جمجمتي.

قال جيب بصوت أعلى من صوت جيمي: «فليكن لدينا شيء من الاحترام». أحسست أن صوته مرتفع كثيراً.

أحسست أنني أريد أن أومئ لآندي بالاستمرار في عمله وأن أجعل إيان يحملني بعيداً. هذا حداد بشري. ليس حدادي أنا.

لكني في حداد حقاً. ثم... لدي ما أقوله أيضاً.

«إيان، ساعدني لأحمل قبضة من الرمل».

قرفص إيان حتى أتمكن من جرف حفنة من الرمل والحجارة الصغيرة. أسند وزني على ركبتيه حتى يحرر يده فيأخذ حفنة من الرمل لنفسه. ثم نهض واقفاً وحملني حتى حافة القبر.

ما كنت أستطيع الرؤية داخل الحفرة. كانت مظلمة تحت تلك الحافة الصخرية الظليلة. بدا لي القبر شديد العمق.

بدأ إيان الكلام قبل أن أتمكن من فتح فمي.

«كان لدى وولتر أفضل ما في البشر... وألمع ما في البشر». قال هذه الكلمات ونثر الرمل في الحفرة. أحسست أن زمناً طويلاً قد انقضى قبل أن أسمع اصطدامه بالقاع.

نظر إيان إليّ.

ساد صمت مطبق تحت تلك السماء المرصعة بالنجوم. هدأت الريح نفسها. تحدثت همساً، لكنني كنت أعرف أن صوتي يبلغ الجميع.

همست: «ما كان في قلبك أثر للكراهية. إن وجودك نفسه يثبت أننا كنا مخطئين. ما كان لنا حق في سلب عالمك يا وولتر. أتمنى أن تكون قصصك حقيقية... أتمنى أن تجد غلاديس».

تركت حبات الرمل والحصيات الصغيرة تنساب من بين أصابعي وانتظرت حتى سمعتها تصطدم بجسد وولتر مصدرة صوت خافتاً. غامضاً في ذلك القبر المظلم العميق.

بدأ آندي عمله فور تحرك إيان عائداً إلى مكانه. بدأ يجرف التراب من كومة شاحبة مغبرة كانت قائمة على مسافة أقدام قليلة من القبر. صار التراب الآن يصطدم بقعر القبر بصوت أكثر ارتفاعاً. جعلني هذا الصوت أنكمش على نفسي.

تقدم آرون حاملاً مجرفة أخرى. استدار إيان بحركة بطيئة وحملني

بعيداً حتى يفسح مكاناً لهما. كانت أصوات ارتطام التراب المتساقط تتردد من خلفنا. بدأت أسمع تمتمات خفيضة. وسمعت صوت الخطوات عندما بدأ الناس يتحركون ويتحدثون عن الجنازة.

عندها نظرت حقاً إلى إيان للمرة الأولى حين كان يسير بي عائداً إلى الحصير الداكن الممدود على التراب... كان وجوده غريباً هنا. ما كان ينتمي إلى هذا المكان. كان وجه إيان معفراً بتراب شاحب. كانت ملامح وجهه مرهقة. لقد رأيت وجهه على هذا النحو من قبل. لكنني لم أستطع تحديد تلك الذكرى إلى أن وضعني إيان على الحصير من جديد فتشتت تركيزي. ماذا أفعل هنا في العراء؟ أأنام؟ كان الطبيب خلفنا. ركع مع إيان إلى جانبي.

سألني الطبيب وهو يجس خاصرتي: «كيف تشعرين الآن؟».

وددت الجلوس لكن إيان ضغط كتفي إلى الأسفل عندما حاولت ذلك.

«إنني بخير. أظن أنني قادرة على المشي..».

«لا حاجة إلى الاستعجال. دعينا نمنح ساقك عدة أيام من الاستراحة». رفع الطبيب جفن عيني اليسرى شارد الذهن ثم أضاء مصباحاً صغيراً لينظر إليها. رأت عيني اليمنى انعكاس عيني اليسرى يتراقص على وجهه. ابتعد الطبيب عن هذا الضوء متراجعاً عدة سنتمترات. لم تتزعزع يد إيان على كتفي. فاجأني هذا!

قال الطبيب: «هممم! هذا لا يساعدني على التشخيص! كيف تشعرين برأسك الآن؟».

«أشعر ببعض الدوار. أظن أن هذا بسبب الدواء. ليس بسبب الجرح. لست أحب هذه الأدوية. أظن أنني أفضل الألم عليها».

كشَّر الطبيب. وكذلك فعل إيان.

سألتهما: «ماذا؟».

«إنني مضطر إلى تخديرك من جديد يا جو. آسف».

همست: «لكن. لماذا؟ إنني لا أشعر بألم شديد في الحقيقة. لست أريد. .».

قال إيان مقاطعاً كلامي بصوت خفيض كما لو أنه ما كان يريد أن يسمع الآخرين كلماته: «علينا أن نعيدك إلى الداخل»

كنت قادرة على سماع الأصوات من خلفنا يتردد صداها خافتاً على الصخور. «لقد وعدنا. بأنك لن تكوني في وعيك»

«أعصبوا عينيّ إذاً!».

أخرج الطبيب حقنة صغيرة من جيبه. كانت جاهزة للاستعمال. لم يبق فيها إلا ربعها. انكمشت مبتعدة عنها. مقتربة من إيان. لكن يده ثبتت كتفي.

همس الطبيب: «أنت تعرفين الكهوف معرفة ممتازة. وهم لا يريدون أن تتمكني من تخمين. .».

همست بصوت قلق: «لكن. أين أذهب؟ إذا كنت أعرف طريق الخروج، فلماذا أذهب الآن؟».

قال إيان: «إذا كان هذا يريحهم. .».

أمسك الطبيب بمعصمي فلم أقاومه. نظرت بعيداً أثناء دخول الإبرة في جلدي، ثم نظرت إلى إيان. كانت عيناه فاحمتي السواد في ذلك الليل. تقلصت عيناه عندما رأى تعبير الخذلان في عيني.

قال: «إنني آسف». كان هذا آخر شيء سمعته.

## الفصل الخامس والثلاثون

# محاكمة

استيقظت على صوت أنيني. أحسست رأسي يدور. أحسسته غير مترابط. تقلّصت معدتي بشيء يشبه الغثيان.

تمتم أحدهم مرتاحاً: «أخيراً!». إنه صوت إيان بطبيعة الحال. سألني: «هل أنت جائعة؟».

فكرت في سؤاله ثم صدر عني صوت يكاد يشبه صوت التقيؤ.

«أوه، غير مهم. آسف من جديد. كان علينا أن نفعل هذا. لقد أصيب الناس جميعاً بالهلع عندما أخذناك إلى الخارج».

قلت متنهدة: «لا بأس».

«هل تريدين بعض الماء؟».

«لا».

فتحت عينيّ محاولة التركيز في هذه الظلمة. استطعت أن أرى نجمين اثنين عبر شقوق السقف من فوقي. ما زال الوقت ليلاً. أو لعل الليل حل من جديد، من يدري؟

سألت: «أين أنا؟». كانت أشكال الشقوق التي في السقف غير مألوفة. أقسم أنني لم أر هذا السقف من قبل.

قال إيان: «إنها غرفتك». بحثت عن وجهه في الظلمة لكني لم أستطع رؤيته، لكني لم أميز إلا شكلاً أسود عرفت فيه رأسه. تفحصت بأصابعي السطح الذي كنت راقدة عليه؛ كان فراشاً حقيقياً. كانت تحت

أستطيع سحبها.

«لمن هذه الغرفة في الحقيقة؟».

«غرفتك».

«إيان. . ».

«لقد كانت غرفتنا. كَايل وأنا. وبما أن كَايل. محتجز في جناح المستشفى حتى يتم البت في أمره، فإنني أستطيع الذهاب للمبيت في غرفة ويس».

«لن آخذ غرفتك. ثم، ما الذي تعنيه بعبارة. ريثما يتم البت في الأمر؟».

«قلت لك إن محكمة ستنعقد».

«متى؟».

«ولماذا تريدين معرفة هذا؟».

«إذا كنتم مصممين على المحاكمة فلا بد لي أن أكون هناك. حتى أشرح».

«حتى تكذبي».

سألته من جديد: «متى؟».

«مع أول نور من أنوار الصباح. لن آخذك».

«إذاً، سآخذ نفسي بنفسي. أعرف أنني سأكون قادرة على السير عندما يكف رأسي عن الدوران».

«ستذهبين حقاً. أليس كذلك؟».

«نعم. ليس من الإنصاف ألا تسمحوا لي بالتحدث».

تنهد إيان. ترك يدي وانتصب واقفاً على قدميه بحركة بطيئة. سمعت مفاصله تطقطق أثناء وقوفه. لا بد أنه أمضى وقتاً طويلاً في الجلوس هنا. في الظلام ينتظر استيقاظي! «سوف أعود سريعاً. لعلك لست جائعة. أما أنا فجائع جداً».

«كانت ليلتك طويلة».

«نعم».

«إذا لاح الفجر قبل أن تأتي فلن أجلس هنا منتظرة قدومك».

ضحك إيان لكن من غير مرح: «أعرف أن هذا صحيح. لذلك سأعود قبل ضوء الفجر، وسوف أساعدك في الذهاب حيث تريدين».

أمال إيان أحد البابين عند مدخل الكهف ثم مر من خلفه ثم تركه يعود إلى مكانه. عبست! قد يكون فعل هذا صعباً على ساق واحدة. ليت إيان يعود حقاً.

رحت أنتظر عودته. ورحت أحدّق في النجمين الظاهرين عبر السقف وتركت رأسي يستقر تدريجياً. لست أحب هذه الأدوية البشرية! أوف. إن جسدي يؤلمني، لكن هذا الإحساس المزعج في رأسي أسوأ من الألم.

مر الوقت بطيئاً لكنني لم أنم. لقد نمت الشطر الأكبر من الساعات الأربع والعشرين الماضية. لعلي جائعة أيضاً. عليّ أن أنتظر حتى تهدأ معدتي لأتأكد من الأمر.

عاد إيان قبل ظهور الضوء... تماماً كما وعدني.

سألني وهو يخطو من حول الباب: «هل تشعرين بتحسن؟».

«أظن هذا. لكني لم أحرك رأسي حتى الآن».

«أتظنين أن هذا ردّ فعلك أنت على المورفين، أم هو ردّ فعل جسد ميلاني؟».

«إنها ميلاني. استجابتها سيئة إزاء جميع المسكنات. لقد اكتشفت ذلك عندما كسرت معصمها قبل عشر سنوات».

فكر إيان في الأمر لحظة: «هذا. غريب! غريب التعامل مع شخصين اثنين في وقت واحد».

وافقته: «نعم، إنه غريب».

«هل تشعرين بالجوع؟».

ابتسمت: «أظنني أشم رائحة الخبز نعم، أعتقد أن معدتي تجاوزت المرحلة السيئة».

«كنت آمل أن تقولي هذا».

امتد ظله خلفي. تحسس موضع يدي ثم فتح أصابعي فوضع فيها جسماً مكوراً مألوف الشكل.

سألته: «هل تساعدني على الوقوف؟».

وضع يديه بحذر تحت إبطيّ ثم رفعني إلى الأعلى محاولاً تقليل الألم في وسطي. أحسست شيئاً غريباً فوق جلدي عند تلك المنطقة. شيئاً مشدوداً. قاسياً.

قلت مبهورة الأنفاس بعض الشيء: «شكراً». دار رأسي قليلاً لمست خاصرتي بيدي الحرة. كان ثمة شيء ملتصقاً بجلدي، تحت قميصي: «هل كسرت أضلاعي يا ترى؟».

«الطبيب غير متأكد من هذا. لكنه يفعل كل ما يقدر عليه».

«إنه يحاول كل ما يستطيع».

«إنه يفعل ذلك».

«يزعجني. أنني كنت لا أحبه». هكذا قلت معترفة.

ضحك إيان: «طبيعي أنك لم تحبيه في البداية. تدهشني قدرتك على محبة أي واحد منا».

غمغمت: «أنت تتلاعب بكلامي». قلت هذا ثم غرست أسناني في لفافة الخبز. رحت ألوك الخبز بحركة آلية ثم أبتلعه. انتظرت حتى أرى ردّ فعل معدتي عليه.

قال إيان: «خبزنا ليس شهياً. أعرف هذا».

رفعت كتفي: «إنني أتذوق الخبز لأرى إن كان الغثيان قد مر وانتهى».

«لعلي أقدم لك شيئاً أكثر إغراءً».

نظرت إليه متعجبة، لكنني لم أستطع رؤية وجهه. سمعت قرقعه

عادة ثم صوت تمزق. ثم استطعت أن أشم. ففهمت.

صرخت: «إنها رقائق الذرة بنكهة الجبن. حقاً! هل هي من أجلي؟».

لمس شيء شفتي فقضمت تلك الشريحة اللذيذة.

تنهدت عندما بدأت ألوكها.

«كنت أحلم بهذا».

جعلته كلماتي يضحك.

وضع كيس الرقائق بين يدي.

سرعان ما أجهزت على محتويات الكيس الصغير كلها، ثم أنهيت قطعة الخبز أيضاً مستمتعة ببقايا نكهة الجبن التي ما زالت في فمي.

ناولني إيان زجاجة من الماء قبل أن أستطيع المطالبة بها.

«شكراً لك. إنني أشكرك لما هو أكثر من هذه الرقائق. أنت تعرف. أشكرك على أشياء كثيرة جداً».

«أهلاً وسهلاً يا جو. بل أكثر من ذلك».

حدقت في عينيه الزرقاوين الداكنتين محاولة فهم كل ما كان يقوله من خلال هذه الجملة. أحسست أن في كلماته شيئاً أكثر من اللباقة. ثم أدركت فجأة أنني صرت قادرة على رؤية لون عينيه. التفتُّ سريعاً إلى شقوق السقف. لقد اختفت النجوم وبدأت السماء تحولها إلى لون رمادي شاحب. إنها تباشير الفجر، أضواؤه الأولى.

سألني إيان وقد بدأ يمد يديه صوبي كأنه يريد حملي: «هل أنت واثقة من قدرتك على الذهاب؟».

أومأت برأسي: «لست مضطراً إلى حملي. أشعر أن ساقي في وضع أفضل».

«سنرى».

ساعدني على النهوض حتى وقفت على قدمي، لكنه ترك ذراعه حول خصري وجعل يدي تلتف حول عنقه.

«انتبهي الآن. كيف تشعرين؟».

خطوت خطوة واحدة إلى الأمام. آلمتني هذه الخطوة، لكنني أستطيع المشي: «عظيم! دعنا نذهب».

«أظن أن إيان معجب بك أكثر من اللازم».

«أكثر من اللازم؟». فوجئت بسماع هذه الكلمات من ميلاني وعلى هذا النحو الواضح تماماً. ما كانت تتحدث هكذا في الآونة الأخيرة إلا عندما يكون جارد حاضراً.

«إنني هنا أيضاً. أهو مهتم بهذا؟».

«من الطبيعي أنه مهتم بوجودك. إنه يصدقنا أكثر من أي شخص آخر باستثناء جيمي وجيب».

«لست أقصد هذا».

«ما قصدك إذاً؟».

لكن ميلاني ذهبت.

استغرقت رحلتنا زمناً طويلاً. فوجئت بتلك المسافة. كنت أظن أننا ذاهبان إلى الساحة الكبيرة. أو إلى المطبخ فهما المكانان المعتادان لاجتماع الناس. لكننا مررنا عبر الحقل الشرقي وتابعنا السير حتى وصلنا إلى الكهف الكبير العميق الأسود الذي دعاه جيب صالة الألعاب. لم آت إلى هذا المكان منذ جولتي الأولى مع جيب. رحبت بي رائحة النبع الكبريتي الحادّة.

وعلى خلاف معظم الكهوف هنا، كانت صالة الألعاب مائلة إلى الاتساع أكثر من ميلها إلى الارتفاع. كنت قادرة على رؤية هذا الآن بسبب المصابيح الزرقاء الخافتة المعلقة من السقف بدلاً من وضعها على الأرض. كان السقف يعلو رأسي مسافة صغيرة. إنه في مثل ارتفاع سقف الغرفة العادية. لكنني ما كنت قادرة على رؤية الجدران لأنها بعيدة عن المصابيح. لم أر النبع الفائح برائحة الكبريت فقد كان بعيداً عني، في إحدى الزوايا. استطعت سماع خريره من بعيد.

كان كَايل جالساً في المنطقة الأكثر إضاءة من هذه الغرفة. رأيت ذراعيه الطويلتين ملتفتين حول ساقيه. أما تعابير وجهه فكانت قناعاً كثيفاً لا يفصح عن شيء. لم ينظر إلينا عندما ساعدني إيان على الدخول.

وعلى جانبيه رأيت جارد والطبيب واقفين على أقدامهما. كانت أيديهما حرة مستعدة على جانبيهما. كأنهما. حارسان.

رأيت جيب واقفاً خلف جارد. وكانت بندقيته ملقاة على كتفه. يبدو مسترخياً، لكني أعرف بأي سرعة يمكن أن يتغير هذا المظهر. كان جيمي ممسكاً بيد جيب الحرة. لا، كان جيب ممسكاً بمعصم جيمي. ما كان جيمي يبدو سعيداً بهذا. وعندما رآني أدخل الغرفة ابتسم ولوّح لي بيده. استنشق نفساً عميقاً وألقى صوب جيب نظرة غاضبة. ترك جيب معصمه.

رأيت شارون واقفة إلى جانب الطبيب ومعها العمة ماغي.

جرّني إيان حتى حافة الظلام المحيط بهذا المشهد. ما كنا وحدنا هناك. كنت أرى أشكال أشخاص كثيرين حولي، لكن الضوء الشحيح لم يسمح لي برؤية وجوههم.

كان الأمر غريباً؛ خلال مسارنا عبر الكهوف كلها كان إيان يسندني. يحمل قسماً كبيراً من وزني من غير صعوبة. أما الآن فقد بدا متعباً. صارت يده المحيطة بخصري مرتخية. مضيت قافزة على رجل واحدة.. مضيت إلى الأمام قدر ما استطعت حتى وصلنا إلى النقطة التي أردناها. أجلسني على الأرض ثم جلس إلى جانبي.

سمعت أحداً يهمس: «أوف!».

استدرت لكنني لم أر إلا ترودي. انزلقت مقتربة منا، ومثلها فعل كل من جيفري ثم هيث.

قالت لي: «مظهرك سيّئ تماماً. كيف حال جروحك؟».

رفعت كتفي: «إنني بخير». لعل إيان جعلني أسير حتى يظهر للناس مدى شدة إصاباتي. حتى يجعلني أشهد ضد كَايل من غير كلمات. تجهّم وجهي عندما رأيت تعبيره البريء.

وصل ويس وليلي وجاءا فجلسا مع مجموعة حلفائي الصغيرة. دخل براندت بعد ثوانٍ قليلة ثم هيدي ثم آندي ثم بيج. كان آرون آخر الواصلين.

قال: «جاء الجميع. لقد بقيت لوتشينا مع أطفالها. إنها لا تريد وجودهم هنا. قالت أن نبدأ من دونها».

جلس آرون إلى جانب آندي ثم حلت لحظة قصيرة من الصمت.

قال جيب بصوت مرتفع على نحو يسمعه الجميع: «فلنبدأ إذاً! هكذا سيجري الأمر سنعتمد التصويت بالأغلبية الواضحة. وكالمعتاد، سوف أتخذ قراري إذا تبين لي وجود مشكلة في الأغلبية، لأن هذا. . ».

قاطعته أصوات كثيرة في جوقة واحدة: «لأن هذا بيتي». ضحك البعض لكن الضحك سرعان ما توقف. ما كان الأمر مضحكاً. ثمة بشري يخضع للمحاكمة بسبب محاولته قتل واحدة من الغرباء. لا بد أنه يوم عصيب بالنسبة لهم جميعاً.

سأل جيب: «من يتحدث ضد كَايل؟».

بدأ إيان يقف.

همستُ ورحت أجذبه من مرفقه: «لا!».

تخلص إيان مني ووقف على قدميه.

قال: «الأمر واضح فعلاً». أردت أن أقفز فأضع يدي على فمه، لكني ما كنت أظن أنني قادرة على النهوض من غير مساعدة. «لقد تم تحذير أخي. وما كان لديه أي شك في ما يخص حكم جيب في هذه المسألة. إن جو واحدة من جماعتنا. تسري عليها القواعد نفسها والحماية نفسها كما تسري على أي واحد منا. قال جيب لكَايل بوضوح شديد إنه إذا كان غير قادر على الحياة هنا معها فإن عليه الرحيل. لقد قرر كَايل البقاء. كان يعرف وقتذاك، وهو يعرف الآن، عقوبة القتل في هذا المكان».

زمجر كَايل: «ما زالت على قيد الحياة».

ردّ إيان بحدة: «هذا ما يجعلني أمتنع عن المطالبة بموتك. لكنك ما عدت تستطيع الحياة هنا بعد اليوم. لا تستطيع الحياة بيننا إذا كنت قاتلاً بطبيعتك».

حدّق إيان في أخيه لحظة ثم جلس على الأرض إلى جانبي.

اعترض براندت ناهضاً على قدميه: «لكن، من الممكن أن يمسكوا به من دون أن نعرف. وسوف يقودهم إلى هذا المكان من غير أن نتلقى أي إنذار».

سرتْ همهمات في الغرفة.

نظر كَايل غاضباً إلى براندت: «لن يمسكوا بي حياً على الإطلاق».

تمتم أحدهم: «إذاً، إنه حكم بالموت في جميع الأحوال». قيلت هذه الكلمات في اللحظة نفسها التي قال آندي فيها: «أنت لا تستطيع ضمان ذلك».

حذّرهم جيب: «لا تتحدثوا معاً!».

قال كَايل غاضباً: «لقد عشت في الخارج من قبل».

جاء صوت آخر من الظلمة: «هذه مغامرة». لم أستطع معرفة أصحاب هذه الأصوات.    لقد كانوا يهمسون، لا أكثر.

ثم سمعت صوت آخر «ما الخطيئة التي ارتكبها كَايل؟ لا شيء».

تحرك جيب خطوة نحو ذلك الصوت محدقاً غاضباً: «التزموا بقواعدي».

احتج شخص آخر: «إنها ليست فرداً منا».

بدأ إيان يقف من جديد.

انفجر جارد قائلاً: «اسمعوا!». كان صوته مرتفعاً إلى درجة جعلت كل من في القاعة يجفل: «ليست جو موضوع المحاكمة الآن! إذا كان لدى أي منكم شكوى محددة في حقها.    شكوى ضد جو نفسها، إذاً، فعليه المطالبة بمحاكمتها في جلسة أخرى. لكننا نعرف جميعاً أنها لم تؤذ أحداً هنا. بل الواقع هو أنها أنقذت حياته». طعن الهواء بإصبعه مشيراً

نحو ظهر كَايل. ارتجفت كتفا كَايل كأنه أحس بهذه الطعنة. «بعد ثوانٍ قليلة من محاولته إلقاءها في النهر، أقدمت على المغامرة بحياتها حتى تنقذه من هذا الموت المؤلم. كان عليها أن تعرف أنها إذا تركته يسقط فسوف تكون آمنة هنا. لكنها أنقذته! هل كان أحد منكم ليفعل ما فعلت لو كان في مكانها؟ هل كان أحد منكم لينقذ عدوه؟ لقد حاول قتلها، فهل هي مستعدة الآن ولو للحديث ضده؟».

أحسست بجميع العيون في القاعة المظلمة تستقر على وجهي عندما مد جارد يده نحوي رافعاً كفها إلى الأعلى.

«هل تتحدثين ضده يا جو؟».

حدقت فيه بعينين متسعتين. ذهلت لأنه يتحدث في صالحي، ذهلت لأنه يتحدث معي. دهشت أيضاً لأنه كان يستخدم اسمي. كانت ميلاني مصدومة أيضاً. ممزقة إلى نصفين. كانت شديدة السرور باللطف البادي على وجه جارد عندما نظر إلينا. بالرقة في عينيه. الرقة التي غابت عنهما زمناً طويلاً. لكنه قال اسمي أنا.

مرت عدة ثوانٍ قبل أن أستطيع العثور على صوتي.

همست: «ثمة سوء تفاهم في الأمر. لقد سقطنا معاً عندما تداعت الأرض من تحتنا. لم يحدث شيء آخر». كنت آمل أن يجعل الهمس الدائر بين الناس انكشاف الكذب في صوتي أكثر صعوبة، لكن إيان ضحك فور انتهائي من كلماتي. لكزته بمرفقي. لكنه لم يتوقف عن الضحك.

ابتسم جارد في اتجاهي: «هل ترون؟ إنها تحاول الكذب دفاعاً عنه».

أضاف إيان: «تحاول. نعم، هذه هي الكلمة المناسبة».

سألتْ ماغي بصوت خشن متقدمة إلى الأمام، إلى المنطقة الخالية إلى جانب كَايل: «من يقول إنها تكذب؟ من يستطيع إثبات هذا؟ من يستطيع إثبات أن ما تقوله ليس إلا حقيقة تظهر كاذبة على شفتيها؟».

بدأ جيب يقول: «ماغي. . .».

«اسكت يا جيب. إنني أتكلم. لا سبب يجعلنا نكون هنا. لم تجر مهاجمة أي بشري. كما أن هذه المتطفلة الخبيثة لم تتقدم بأي شكوى. هذه مضيعة للوقت».

أضافت شارون بصوت مرتفع واضح: «أنا أؤيد هذا الكلام».

رشقها الطبيب بنظرة حادة.

هبّت ترودي واقفة على قدميها: «لا نستطيع إيواء قاتل بيننا. لا نستطيع أن ننتظر حتى ينجح في ارتكاب جريمته».

فحّت ماغي: «إن كلمة قاتل مصطلح غير مناسب. لا أعتبر الأمر جريمة قتل إلا عندما يقتل كائن بشري».

أحسست بذراع إيان تلتف حول كتفي. لم أدرك أنني كنت أرتجف حتى صار جسده الثابت ملاصقاً لجسدي.

قال جارد محدقاً فيها بغضب: «إن كلمة بشري مصطلح غير مناسب أيضاً يا ماغي. وأنا أظن أن هذا التعريف يتضمن شيئاً من العطف. شيئاً من الرحمة».

قالت شارون قبل أن تتمكن أمها من الإجابة: «فلنصوّت. فليرفع يده كل من يرى أن كَايل يستطيع أن يبقى بيننا هنا من غير أن يتحمل أي عقوبة بسبب. سوء التفاهم». ألقت نظرة سريعة، ليس في اتجاهي، بل في اتجاه إيان الجالس إلى جانبي.

بدأت الأيدي ترتفع. راقبت وجه جارد عندما تجمَّدت قسمات وجهه في تكشيرة استياء.

حاولتُ رفع يدي، لكن إيان شد ذراعه حول كتفي مصدراً صوتاً مهدداً من أنفه. رفعت كفي قدر ما استطعت. وفي النهاية. ما كان تصويتي ضرورياً.

راح جيب يحصي الأيدي بصوت مرتفع: «عشرة. خمسة عشر.. عشرون. ثلاثة وعشرون. طيب، هذه أغلبية واضحة».

لم أنظر من حولي لأعرف الذين رفعوا أيديهم. كان يكفيني أن الأيدي في زاويتي الصغيرة كانت مشبوكة بإحكام فوق صدور أصحابها، وكانت الأعين محدّقة في جيب. مترقّبة.

سار جيمي مبتعداً عن جيب وجاء وحشر نفسه بيني وبين ترودي لف ذراعه حولي، تحت ذراع إيان.

قال جيمي بصوت مرتفع بحيث يسمعه الجميع. كان صوته قاسياً: «لعل معشر الأرواح كانوا على حق في نظرتهم إلينا! إن هذه الأغلبية ليست أفضل من. .».

قلت له: «ششش!».

قال جيب: «لا بأس». صمت الجميع. نظر جيب إلى كَايل ثم نظر إليّ ثم إلى جارد: «طيب، إنني مضطر إلى اتخاذ جانب الأغلبية في هذا الأمر».

قال جارد وإيان معاً: «جيب. .».

ذكّرهم جيب: «هذا بيتي. وهذه قواعدي. لا تنسوا هذا. إذاً، أصغ إليّ يا كَايل، وأظن أن عليك الإصغاء أيضاً يا ماغي. لن تجري محاكمة أي شخص يحاول إيذاء جو من جديد. بل سيجري دفنه من غير محاكمة!» وضرب أخمص بندقيته بالأرض تأكيداً على كلامه.

أجفلت وانكمشت خائفة.

ألقت ماغي نظرة كره على أخيها.

أومأ كَايل برأسه كما لو أنه يقبل بشروط جيب.

نظر جيب إلى الجمهور المنقسم على نحو غير متوازن. كانت عيناه تشتبكان بعيني كل واحد منهم إلا أفراد المجموعة الصغيرة الجالسة من حولي.

قال جيب معلناً: «انتهت المحاكمة. من يريد أن يلعب الكرة؟»

## الفصل السادس والثلاثون

# تصديق

استرخى جمع الحاضرين، وسرت بينهم همسات أكثر حماساً.

نظرت إلى جيمي فشد على شفتيه ورفع كتفيه قائلاً: «إن جيب يحاول إعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية. لقد مررنا بيومين قاسين. كما دفنّا وولتر. .».

كدت أبكي.

رأيت جيب يبتسم لجارد. وبعد لحظة من المقاومة، تنهد جارد فاتحاً عينيه متسعتين ناظراً صوب العجوز الغريب. استدار جارد ثم خطا مسرعاً في اتجاه الخروج من الكهف.

سأل أحد الأشخاص: «هل جلب جارد كرة جديدة؟».

قال ويس الواقف إلى جانبي: «جميل».

تمتمت ترودي: «هل يعقل أن نلعب؟». هزت رأسها نفياً.

أجابتها ليلي بصوت هادئ رافعة كتفيها: «لم لا؟ إذا كان هذا يخفف التوتر».

كانت أصوات الناس خفيضة، قريبة من خلفي، لكني كنت أسمع أصواتاً أكثر ارتفاعاً.

قال آرون مخاطباً كَايل: «تعامل مع الكرة باحتراس هذه المرة». كان واقفاً فوقه ماداً يده إليه.

أمسك كَايل باليد الممدودة ونهض واقفاً بحركة بطيئة. عندما وقف كَايل كاد رأسه يلمس المصباح المعلق من السقف.

قال كَايل مبتسماً لآرون الأكبر منه سناً: «كانت الكرة الأخيرة ضعيفة. فيها عيب في صنعها».

صاح أحدهم: «فليكن آندي كابتن الفريق».

صاح ويس: «فلتكن ليلي كابتن الفريق الآخر». قال هذا وهو يهبّ على قدميه ويتمطى.

«آندي وليلي».

«نعم، آندي وليلي».

قال آندي مسرعاً: «أريد كَايل».

أجابته ليلي: «إذاً، سآخذ إيان».

«جارد».

«براندت».

هبّ جيمي واقفاً على قدميه ثم وقف على رؤوس أصابعه محاولاً أن يبدو طويلاً.

«بيج».

«هيدي».

«آرون».

«ويس».

استمر تعداد الأسماء. تألق جيمي فرحاً عندما اختارته ليلي قبل أن يجري اختيار نصف الكبار. حتى ماغي وجيب. تم اختيارهما. ظل العدد في الفريقين متساوياً حتى جاءت لوتشينا مع جارد. كان طفلاها الصغيران يتقافزان فرحين. رأيت كرة جديدة لامعة في يد جارد. كان يحملها عالياً، وكان إشعيا، الطفل الأكبر، يقفز محاولاً إسقاطها من يده.

سألتني ليلي: «جو؟».

هززت رأسي نفياً وأشرت إلى ساقي.

«صحيح. آسفة».

صاحت ميلاني: «إنني ماهرة في لعب الكرة. لقد كنت ماهرة».

ذكَرتها: «لا أكاد أستطيع المشي».

قال إيان: «أظن أنني لن ألعب بل سأتفرج على اللعبة».

قال ويس معترضاً: «لا إن لديهم كَايل وجارد. سوف نموت من دونك».

قلت له: «اذهب والعب. سوف. سوف أحصي النقاط».

نظر إيان إليّ وقد شد على فمه فرسمت شفتاه خطاً رقيقاً صلباً.

«لست راغباً في اللعب حقيقة».

«إنهم في حاجة إليك».

نخر رافضاً.

قال جيمي يستحثه: «هيا يا إيان».

قلت له: «أريد أن أتفرّج، لكن اللعبة ستكون. مملة إذا كان أحد الفريقين أقوى بكثير من الفريق الآخر».

تنهد إيان: «جو، إنك أسوأ كاذبة عرفتها في حياتي»

لكنه نهض واقفاً وبدأ يمطط عضلات ساقيه. مثل ويس.

أعدَّت بيج المرميين. علَّقت أربعة مصابيح. اثنين في كل ناحية.

حاولت الوقوف على قدميّ. كنت في وسط الملعب. ما كان أحد يلاحظني في ذلك الضوء الخافت. صار الجو حماسي الآن. تغير مترقّباً متعة اللعب. لقد كان جيب محقاً! إنهم في حاجة إلى هذا، مهما يكن الأمر غريباً.

كنت أستطيع أن أحبو على أربع. استخدمت رجلي السليمة لدفع جسمي إلى الأمام مع إبقاء ركبة الساق المصابة على الأرض. كان هذا مؤلماً. حاولت أن أقفز على ساقي السليمة انطلاقاً من تلك النقطة. لكنني فقدت توازني بسبب ذلك الثقل الغريب في ساقي المصابة.

أمسكتني يدان غريبتان قبل أن أسقط على وجهي. نظرت إلى الأعلى حتى أشكر إيان.

علقت الكلمات في حنجرتي عندما رأيت أن جارد هو من يرفعني.

قال على نحو طبيعي: «يمكنك أن تطلبي المساعدة».

«إنني. . » تنحنحت. «كان عليّ أن أطلب المساعدة. لكني لم أرد أن. . ».

قال جارد محاولاً إظهار استغرابه: «لم تريدي جذب الانتباه إليك!» ما كان في كلماته أي اتهام. ساعدني في القفز على رجل واحدة حتى بلغت مدخل الكهف.

هززت رأسي قائلة: «لم أكن أريد أن. أن أجعل أحداً يقوم بشيء كنوع من اللياقة. لا أريد أن أطلب من أحد شيئاً لا يحب القيام به» ما كانت هذه الكلمات توضح ما أقصده تماماً، لكنه بدا فاهماً قصدي.

«لا أظن أن جيمي أو إيان يمكن أن يبخلا عليك بالمساعدة».

التفتّ إليهما من فوق كتفي. في ذلك الضوء الخافت ما كان أحد منهما قد لاحظ ذهابي بعد. كانا يتبادلان قذف الكرة بينهما، ثم ضحكا عندما أصابت الكرة ويس في وجهه.

«لكنهما مسروران. لا أريد أن أفسد ذلك».

تفحص جارد وجهي. أدركت عند ذلك أنني كنت أبتسم عند النظر إليهما.

قال: «إنك مهتمة بالفتى كثيراً».

«صحيح».

أومأ برأسه: «وماذا عن الرجل؟».

«إيان. إيان يصدّقني. إنه يحرص عليّ. إنه قادر على إظهار قدر كبير من اللطف. قدر كبير بالنسبة لكائن بشري» كأنه روح تقريباً هكذا كدت أقول. لكن هذه العبارة ما كانت لتبدو إطراء في نظر جارد.

نخر جارد قائلاً: «بالنسبة لإنسان. هذا تمييز أكثر أهمية مما كنت أظن».

أجلسني على عتبة المدخل. كانت العتبة تشبه مقعداً منخفضاً وهذا

ما جعلها أكثر راحة من الأرض المستوية. قلت له: «شكراً! لقد تصرف جيب تصرفاً صحيحاً، أليس كذلك؟».

«لست أوافقك على هذا». كانت نبرة صوت جارد أكثر اعتدالاً من كلماته.

«عليّ أن أشكرك أيضاً على ما قلته. ما كنت مضطراً للدفاع عني».

«لم أقل إلا الحقيقة»

نظرت إلى الأرض: «صحيح أنني لن أفعل شيئاً يؤذي أحداً هنا. لن أفعل شيئاً من ذلك عن قصد. وأنا آسفة لأنني سببت الألم لك عندما أتيت إلى هنا. سببت الألم لجيمي أيضاً. إنني آسفة كثيراً».

جلس إلى جانبي تماماً وكان التفكير ظاهراً على وجهه: «الحقيقة. . » تردد ثم تابع. «إن الفتى في حالة أفضل منذ مجيئك. لقد كدت أنسى صوت ضحكته».

رحنا نستمع إلى ضحكاته الآن تتردد فوق ضحكات الكبار الأخفض نبرة.

«شكراً لأنك تقول لي هذا. كان ذلك. أشد ما يقلقني. آمل أنني لم أسبب أي أذى دائم».

«لماذا؟».

نظرت إليه حائرة.

سألني بصوت ما زال فيه فضول، لكنه ما كان متوتراً: «لماذا تحبينه؟».

عضضت على شفتيّ.

«يمكنك إخباري. إنني. لقد. . » ما كان قادراً على إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير. كرر ما قاله. «يمكنك إخباري».

أجبته وأنا أنظر إلى قدمي: «أحبه. جزئياً. لأن ميلاني تحبّه» لم أسترق النظر إليه لأرى أثر ذكر اسمها عليه. «كانت تتذكره على نحو. على نحو قوي فعلاً. وبعد ذلك، عندما تعرفت عليه

شخصياً. .» رفعت كتفي. «لا أستطيع الامتناع عن حبه. إنه جزء مني. إن من طبيعة الخلايا في جسمي أن تحبه. لم أدرك من قبل مدى تأثير هذا الجسد المضيف عليّ. لعل جميع الأجسام البشرية هكذا! ولعلها صفة خاصة بميلاني وحدها».

«هل تتحدث ميلاني معك؟». حافظ على توازن صوته، لكني بدأت أحس توتراً فيه.

«نعم».

«كثيراً؟».

«إنها تتحدث معي عندما تريد ذلك. عندما تكون مهتمة».

«ماذا عن اليوم؟».

«لم تتحدث كثيراً. إنها. غاضبة مني بعض الشيء».

أطلق ضحكة قصيرة. فوجئ: «هي غاضبة! لماذا؟».

«بسبب. .» هل ثمة شيء يتعرض لخطر مزدوج هنا؟ «لا شيء» لمس جارد الكذب في صوتي فأدرك الأمر.

«أوه. كَايل. لقد أرادت أن تسلقه المياه الحارة». ضحك من جديد «هكذا أرادت».

قلت موافقة: «يمكنها أن تكون. عنيفة». ابتسمت حتى أخفف من وقع هذه الإهانة.

لكنه لم يعتبر الأمر إهانة: «حقاً؟ كيف؟».

«إنها تريد مني أن أقاتل دفاعاً عن نفسي. لكنني. لكنني لا أستطيع ذلك. لست مقاتلة!».

«أستطيع أن أرى هذا». لمس وجهي المهشم بطرف إصبعه «آسف».

«لا كل من يكون مكانك سيفعل الشيء نفسه. أعرف ما كنت لتشعر به».

«لكنك. .».

«لو كنت بشرية لفعلت ذلك. ثم إنني ما كنت أفكر في هذا. كنت أتذكر الباحثة».

تجمّد جارد في مكانه.

ابتسمتُ مجدداً فاسترخى قليلاً: «لقد أرادت ميلاني أن أخنقها. إنها تكره تلك الباحثة حقاً. وأنا لا أستطيع... أن ألومها».

«ما زالت تواصل البحث عنك. الظاهر أنها كانت مضطرة إلى إعادة الهليكوبتر، على الأقل».

أغمضت عينيّ وشددت قبضتي ورحت أركز على ضبط تنفسي عدة ثوانٍ.

همست: «ما كنت أخاف منها سابقاً. لست أدري ما الذي يجعلها تخيفني إلى هذا الحد الآن. أين هي؟».

«لا تقلقي. لقد ذهبت ثم عادت على الطريق السريع يوم أمس. لن تجدك».

أومأت برأسي مجبرة نفسي على تصديق هذا الكلام.

قال متمتماً: «هل تستطيعين... هل تستطيعين سماع ميلاني الآن؟». ظلت عيناي مغلقتين. «إنني... أحس بها. إنها تصغي إلى كلامنا بكل طاقتها».

صار صوته همساً: «فيم تفكر؟».

قلت لها: «ها هي فرصتك. ماذا تريدين أن تقولي له؟».

ظلت ميلاني حذرة بعض الوقت. أربكتها هذه الدعوة: «لماذا؟ لماذا يصدقك الآن؟»

فتحت عينيّ فوجدته محدقاً في وجهي حابساً أنفاسه.

«تريد أن تعرف ما الذي حدث فجعلك مختلفاً الآن. لماذا تصدّقنا؟»

فكر في الأمر لحظة: «إنه... تراكم الأشياء. لقد كنت شديدة اللطف... مع وولتر. لم أر أحداً غير الطبيب يتعاطف مع المرضى إلى

هذا الحد. كما أنك أنقذت حياة كَايل في حين كان معظمنا سيتركه يسقط لحماية نفسه، رغم أن أحداً لا يمكن أن يقتله عمداً. ثم إنك كاذبة فاشلة تماماً». ضحك ثم تابع يقول: «كنت أعتبر هذه الأشياء كلها دليلاً على وجود مؤامرة كبيرة خبيثة. بل لعلي أستيقظ غداً فيعاودني الإحساس نفسه من جديد».

انكمشت على نفسي، وكذلك فعلت ميلاني.

«لكن، عندما راحوا يهاجمونك اليوم. أغضبني الأمر. رأيت فيهم كل ما لا يجوز أن أراه في نفسي. أدركت أنني أصدقك فعلاً، لكني كنت أعاند نفسي فقط. هذه قسوة! أظن أنني صدقتك منذ. صدقتك بعد فترة قصيرة من تلك الليلة الأولى عندما وضعت نفسك بيني وبين كَايل لحمايتي منه» ضحك من جديد كما لو أنه يعتبر كَايل غير خطير «لكني أكثر مهارة منك في الكذب. أستطيع أن أكذب على نفسي أيضاً»

«إنها تتمنى ألا تغير رأيك. وهي خائفة من هذا الاحتمال».

أغمض عينيه: «ميلاني».

أسرع نبض قلبي في صدري. كانت فرحتها هي السبب في إسراعه لا فرحتي أنا. لا بد أنه يدرك كم أحبه. لا بد أنه رأى ذلك بعد سؤاله عن محبتي لجيمي.

«قولي لها. إن هذا لن يحدث».

«إنها تسمعك».

«كيف؟. هل الصلة مباشرة؟».

«إنها تسمع ما أسمعه وترى ما أراه».

«وهل تحس بما تحسين؟».

«نعم».

لمس وجهي من جديد. لمسة رقيقة. مداعبة: «أنت لا تعرفين مقدار أسفي».

أحسست بالحرارة في جلدي حيث لمسه. كانت حرارة لطيفة، لكن

كلماته أحرقتني بحرارة أشد من حرارة لمسته. لا بد أنه أكثر أسفاً لأنه جرحها. طبعاً. لا يجوز أن يزعجني هذا.

«هيا يا جارد! فلنلعب!».

رفعنا رأسينا. كان كَايل ينادي جارد. بدا مرتاحاً تماماً كما لو أنه لم يخضع اليوم لمحاكمة تقرر حياته أو موته. لعله كان واثقاً من هذه النتيجة. أو لعله سريع في تجاوز كل شيء. أحسست أنه لا يلاحظ وجودي إلى جانب جارد.

لكني أدركت، للمرة الأولى، أن الآخرين لاحظوا ذلك.

كان جيمي ينظر إلينا وعلى وجهه ابتسامة راضية. لعل منظرنا يبدو مريحاً له الآن. هل هذا صحيح؟

«ماذا تقصدين؟».

«ما الذي يراه عندما ينظر إلينا الآن؟ هل يرى أسرته وقد اجتمع شملها من جديد؟».

«أليست هي الحقيقة؟ تقريباً!».

«مع وجود إضافة واحدة غير مرحب بها».

«لكن الوضع أفضل مما كان أمس».

«أظن هذا...».

قالت ميلاني موافقة: «أعرف... أنا سعيدة لمعرفة جارد بوجودي هنا... لكني ما زلت لا أحب لمساته على جلدك».

«أما أنا فأحبها كثيراً». أحسست بوخزات صغيرة في وجهي، حيث مرت أصابع جارد. «إنني آسفة لهذا الشعور».

«لست الومك. أو، على الأقل، أعرف أنني لا يجوز لي أن الومك».

«شكراً».

ما كان جيمي الشخص الوحيد الذي يراقبنا.

كان جيب ينظر إلينا مستغرباً وقد بدأت تلك الابتسامة الصغيرة تتجمع عند زاويتي لحيته.

أما شارون وماغي فكانتا تنظران إلينا والنار تتقد في أعينهما. كان تعبير وجهيهما متشابهاً إلى حد عجزت معه البشرة الشابة والشعر المتألق عن جعل شارون تبدو مختلفة عن أمها المجعدة.

كان إيان قلقاً. كانت عيناه مشدودتين، وبدا كأنه موشك على القدوم لحمايتي من جديد. للتأكد من أن جارد لم يكن يزعجني. ابتسمت لأطمئنه. لكنه لم يردّ على ابتسامتي بل أخذ نفساً عميقاً.

قالت ميلاني: «لست أظن هذا سبب قلقه».

كان جارد قد وقف الآن لكنه ما زال ينظر إلى وجهي: «هل تستمعين إليها الآن؟».

شتت سؤاله انتباهي قبل أن أتمكن من سؤالها عما تقصده: «نعم، أستمع إليها».

«ماذا تقول؟».

«إننا، أنا وهي، نلاحظ أن الآخرين يفكرون في تغير موقفك» قلت هذا وأومأت برأسي صوب عمة ميلاني وابنتها. أدارت المرأتان ظهريهما في وقت واحد. قال جارد: «رؤوس يابسة!».

صاح كَايل مستديراً بجسده صوب الكرة القابعة على الأرض في أشد المناطق إضاءة: «هيا إذاً! سوف نفوز بهذه المباراة من دونك».

«إنني قادم!». ألقى جارد نظرة أخيرة صوبي. صوبنا. ثم جرى ليشارك في اللعبة.

ما كنت ماهرة في إحصاء الأهداف. وما كان الضوء كافياً لرؤية الكرة من مكان جلوسي. ما كان الضوء كافياً حتى لرؤية اللاعبين على نحو جيد عندما يبتعدون من تحت المصابيح. بدأت أحصي الأهداف استناداً إلى ردود أفعال جيمي. كان يصيح منتصراً عندما يسجل فريقه هدفاً، وكان يئن آسفاً عندما يسجل الفريق الآخر. كان أنين الأسف أكثر من صيحات الفرح!

كان الجميع يلعبون. كانت ماغي حارسة مرمى فريق آندي، وكان

جيب حارس مرمى فريق ليلي. كانا ماهرَيْن إلى حد مفاجئ! كنت أرى شبحيهما في الضوء الشحيح المنبعث من مصابيح المرميين. أراهما يتحركان نشيطين كأنهما أصغر سناً بعشرات الأعوام. ما كان جيب يخشى الارتماء على الأرض لمنع الكرة من دخول مرماه، لكن ماغي كانت أكثر مهارة منه لأنها كانت قادرة على صد الكرة من غير مبالغة في حركاتها. كانت تشبه مغناطيساً يشد إليه تلك الكرة غير المرئية. كلما كان إيان أو ويس يقذفان الكرة صوب المرمى. كانت تقع بين يديها.

انسحبت ترودي وبيج بعد نصف ساعة أو نحو ذلك، ومرّا بي أثناء خروجهما. كانا يثرثران متحمسين. بدا مستحيلاً أننا بدأنا ذلك النهار بمحاكمة، لكني كنت مرتاحة لأن الأمور تغيرت جذرياً.

ما غابت المرأتان طويلاً. عادتا تحملان علباً. ملء أذرعتهما. إنها شوكولاته، من النوع المحشو بالفاكهة. توقفت اللعبة. أعلن جيب استراحة فأسرع الجميع لتناول فطورهم.

تم توزيع هذه اللذائذ عند خط الوسط في الملعب. كان المشهد غوغائياً أول الأمر.

قال جيمي خارجاً من وسط المجموعة: «هذه لك يا جو». كانت يداه ممتلئتين بقطع الشوكولاته. وكان يحمل زجاجتين من الماء تحت إبطيه.

«شكراً. هل استمتعت باللعب؟».

«نعم! ليتك تستطيعين اللعب».

قلت له: «في المرة القادمة».

صار إيان هنا أيضاً. كانت يداه ممتلئتين بقطع الشوكولاته أيضاً: «هذه لك. . .».

قال له جيمي: «لقد سبقتك».

قال جارد وقد ظهر إلى جانب جيمي: «أوه!». كان بدوره يحمل الكثير من قطع الشوكولاته من أجلي.

تبادل جارد وإيان نظرة طويلة.

صاح كَايل: «إلى أين كل ذلك الطعام؟». كان واقفاً ينظر إلى صندوق فارغ. وكان رأسه يدور ماسحاً الغرفة كلها باحثاً عن النهّابين.

قال جارد ملقياً قطع الشوكولاته إليه واحدة بعد أخرى: «أمسك!» كان يقذفها بقوة، كأنها سكاكين.

كان كَايل يلتقطها من الهواء بكل سهولة ثم التفت ليرى إن كان بقي شيء منها مع جارد.

قال إيان ملقياً صوبه نصف ما يحمله من غير النظر إليه: «خذ! اذهب الآن».

تجاهله كَايل. وللمرة الأولى في هذا اليوم. راح ينظر إليّ. راح يحدق إلى حيث كنت أجلس. كانت حدقتا عينيه سوداوين في ذلك الضوء الخافت من خلفه. لم أستطع قراءة تعبيرهما.

انكمشت على نفسي وحبست أنفاسي. أحسست أضلاعي تحتج على ذلك.

وقف جارد وإيان أمامي متلاصقين مثل جانبي ستارة مسرح.

قال جارد: «لقد سمعت ما قاله».

سأل كَايل: «هل أستطيع أن أقول شيئاً قبل أن أذهب؟». راح يسترق النظر إليّ عبر ذلك الفراغ الصغير بينهما.

لم يجبه أحد منهما.

قال لي كَايل: «لست آسفاً. ما زلت أرى أن تصرفي كان صحيحاً»

دفع إيان أخيه. تراجع كَايل إلى الخلف قليلاً لكنه توقف وخطا إلى الأمام من جديد.

«انتظر. لم أنهِ كلامي».

قال جارد: «بل أنهيته». تكورت قبضتاه. صار الجلد فوق مفاصل يديه أبيض اللون.

لاحظ الجميع ما يجري. ساد الغرفة صمت كامل. اختفى مَرَح اللعبة كله.

رفع كَايل يديه إلى الأعلى، إشارة استسلام، ثم خاطبني من جديد: «لا أظنني كنت مخطئاً، لكنك أنقذت حياتي. لست أعرف السبب، لكنك أنقذت حياتي. حياة مقابل حياة. هكذا أرى الأمر. لن أقتلك. سوف أسدد ديني بهذه الطريقة».

قال إيان: «يا لك من أحمق عنيد!».

«من الذي يُظهر ميلاً إلى هذه الدودة يا أخي؟ ثم تدعوني أحمق بعد ذلك!».

رفع إيان قبضته منحنياً إلى الأمام.

قلت رافعة صوتي أكثر مما أردت: «سوف أخبرك بالسبب». كان لكلماتي التأثير الذي أردته. استدار إيان وجارد وكَايل لينظروا إليّ.. نسوا شجارهم في تلك اللحظة.

جعلني هذا غاضبة متوترة. تنحنحت: «لم أتركك تسقط لأنني. لأنني لست مثلك. لا أقول إنني لست مثل. البشر لأن ثمة أشخاصاً آخرين هنا يفعلون ما فعلته لو كانوا مكاني. ثمة أشخاص طيبون لطيفون هنا. أشخاص مثل شقيقك. مثل جيب. مثل الطبيب. ما أقوله هو أنني لست مثلك أنت».

حدق كَايل في وجهي دقيقة كامل ثم ضحك. قال وهو مستمر في ضحكه: «أوف!». استدار مبتعداً عنا. لقد وصلته رسالتي. ذهب ليشرب بعض الماء. صاح وهو ماض في طريقه: «حياة مقابل حياة!».

ما كنت واثقة من أنني أصدقه. ما كنت واثقة على الإطلاق. إن البشر ماهرون في الكذب.

## الفصل السابع والثلاثون

# نزاع

كان منطق مجريات اللعبة واضحاً. إذا لعب جارد وكَايل معاً، فإنهما يفوزان. إذا لعب جارد مع إيان فإن فريقهما يفوز. بدت لي هزيمة جارد شيئاً مستحيلاً، إلى أن رأيت الشقيقين يلعبان معاً.

أحسست أن الوضع متوتر، بالنسبة لإيان على الأقل، عندما لعب في فريق واحد مع كَايل. لكن، بعد دقائق قليلة من الجري في الظلام، عادا إلى نموذج اللعب المألوف بينهما، نموذج موجود قبل مجيئي إلى هذا الكوكب بزمن بعيد.

كان كَايل يعرف ما الذي يريده إيان قبل أن يطلب إيان ذلك، وكان إيان يعرف ما يريده كَايل أيضاً. كان واحدهما يخبر الآخر كل شيء من غير حاجة إلى الكلام. وحتى عندما أخذ جارد أفضل اللاعبين إلى فريقه. براندت وآندي ويس وآرون وليلي، ومعهم ماغي لحراسة المرمى. فقد فاز كَايل وإيانّ من جديد.

قال جيب بعد أن أمسك الكرة التي سددها آرون إلى مرماه: «لا بأس الآن». ثم وضع الكرة تحت ذراعه. «أظن أننا صرنا الآن نعرف الفائزين. لا أحب أن أكون من يفسد اللعبة لكن ثمة عملاً ينتظرنا. ثم إنني تعبت حقاً. إذا أردتم الصدق»

صدرت عدة احتجاجات غير متحمسة، لكن الضحك كان أكثر. لم أشعر بأن نهاية هذه الفترة من المرح قد أزعجت أحد منهم. كان واضحاً. من طريقة جلوس بعضهم أرضاً واضعين رؤوسهم بين ركبهم

حتى يستعيدوا أنفاسهم، أن جيب ما كان الشخص الوحيد الذي استبد به التعب. بدأ الناس يخرجون مثنى وثلاثاً. ابتعدت عن العتبة قليلاً حتى أفسح لهم طريق المرور. لعلهم ذاهبون إلى المطبخ. لا بد أن الوقت قد تجاوز موعد الغداء. لكن من الصعب معرفة الوقت في هذه الحفرة المظلمة! ومن خلال الثغرات بين البشر الخارجين، رأيت كَايل وإيان.

عندما أعلن جيب انتهاء اللعبة، رفع كَايل يده عالياً يريد أن يضرب كفاً بكف مع أخيه، لكن إيان مر بجانبه من دون أن يلتفت إلى هذه الحركة. عند ذلك أمسك كَايل بكتف أخيه فأداره نحوه. ضرب إيان يد كَايل فقلقها بعيداً عنه. توترت منتظرة نشوب قتال بينهما. هكذا بدا لي الأمر في البداية! سدد كَايل لكمة إلى بطن أخيه، لكن إيان تفاداها بسهولة.. لم أر قوة في تلك اللكمة. ضحك كَايل ولكم أخاه لكمة خفيفة على رأسه. أزاح إيان يده عن رأسه لكنه ابتسم نصف ابتسامة هذه المرة.

سمعت كَايل يقول: «لعبة جيدة يا أخي. ما زلت لاعباً ماهراً».

أجابه إيان: «أما أنت فأحمق. يا كَايل».

«أنت صاحب الذكاء. وأنا صاحب الوسامة. يبدو هذا التوزيع منصفاً».

سدد كَايل إلى إيان لكمة جديدة، من غير قوة. لكن إيان أمسك بيده هذه المرة وفتلها خلف ظهر كَايل. صار يبتسم الآن فعلاً، وراح كَايل يشتم ويضحك في وقت واحد.

بدا هذا المشهد شديد العنف بالنسبة لي. أحسست بالتوتر لمشاهدة ما يجري. لكني، في الوقت نفسه، رأيت واحدة من ذكريات ميلاني: ثلاثة جراء تتدحرج على العشب عاوية بضراوة، مكشرة عن أنيابها كما لو أن الرغبة الوحيدة عند كل جرو منها هي غرز تلك الأنياب في حنجرة أخيه.

قالت ميلاني: «نعم، إنهما يلعبان. إن روابط الأخوّة متينة جداً».

«هكذا يجب أن تكون. هذا هو الشيء الصحيح! إذا كان كَايل صادقاً في أنه لن يقتلنا، فسوف يكون هذا شيئاً جيداً».

أجابت ميلاني: «إذا!».

«هل أنت جائعة؟». سألني جارد.

رفعت رأسي فتوقف قلبي عن الخفقان لحظة مؤلمة واحدة. يبدو أنه ما زال يصدقني.

هززت رأسي، فأعطتني تلك الهزة لحظة كنت في حاجة إليها حتى أستطيع الحديث معه: «لست أعرف السبب فأنا لم أفعل شيئاً إلا الجلوس هنا، لكنني أشعر بالتعب».

مد لي يده.

حذرتني ميلاني: «تمالكي نفسك. إنه يحاول أن يكون مهذباً فقط».

«أتظنين أنني لا أعرف هذا؟».

حاولت منع يدي من الارتجاف عندما مددتها حتى أمسك يده.

شدني باحتراس حتى وقفت على قدميّ، على قدم واحدة في الحقيقة. وقفت متوازنة على قدمي السليمة، لكني ما كنت واثقة من كيفية المتابعة بعد ذلك. كان جارد حائراً أيضاً. ما زال ممسكاً بيدي، لكن المسافة بيننا كانت بعيدة. فكرت في مدى سخافة منظري عندما أمضي في تلك الكهوف قافزة على رجل واحدة فأحسست بالحرارة في رقبتي التفّت أصابعي حول أصابعه رغم أنني مْا كنت معتمدة على يده من أجل توازني.

«إلى أين تريدين الذهاب؟».

عبست: «آه. لا أعرف. أظن أن الحصير ما زال في مكانه عند. في منطقة التخزين».

تجهّم وجه جارد. لم تعجبه الفكرة. لم تعجبني أنا أيضاً.

بعد ذلك أحسست بذراع أخرى تحت ذراعي. تسندني، بل تحمل شيئاً من وزني.

قال إيان: «سوف آخذها أينما شاءت».

صار وجه جارد حذراً منتبهاً، تماماً كما يبدو وجهه عندما لا يريد أن أعرف ما يدور في رأسه. لكنه كان ينظر إلى إيان الآن.

«لقد كنا نناقش المكان الذي تريد الذهاب إليه. إنها متعبة. ربما نأخذها إلى المستشفى. . .!».

هززت رأسي نفياً. هز إيان رأسه في الوقت نفسه. فبعد الأيام المرعبة الأخيرة التي قضيتها هناك ما كنت أظن أنني قادرة على احتمال تلك الغرفة التي كنت أخاف منها أصلاً. والآن، مع وجود سرير وولتر الخاوي خاصة.

قال إيان: «لدي مكان أفضل من أجلها. ذلك الحصير ليس أكثر طراوة من الأرض الصخرية. ثم إن في جسمها الآن مناطق مصابة كثيرة».

ما زال جارد ممسكاً بيدي. ألا يدرك مدى شدة ضغطه عليها. بدأ هذا الضغط يصبح مؤلماً، لكنه بدا غير منتبه إليه. أما أنا، من ناحيتي، فما كنت أعتزم التذمّر أبداً.

قال جارد لإيان مقترحاً: «لم لا تذهب لتناول غدائك؟ أنت تبدو جائعاً! سوف آخذها أينما أرادت. . .».

أطلق إيان ضحكة منخفضة قاتمة: «إنني بخير. كما أن جو، بصراحة يا جارد، في حاجة إلى مساعدة أكثر من إمساك يدها. لست أدري إن كنت مرتاحاً للوضع إلى درجة تسمح لك بإعطائها ذلك. أتفهم ما أقول. . .؟» توقف إيان لحظة ثم انحنى وحملني بين ذراعيه. زفرت عندما آلمتني الإصابة التي في خصري. لم يترك جارد يدي. صارت أطراف أصابعي حمراء.

«. . . لقد نالت كفايتها من الرياضة لهذا اليوم. يمكنك الذهاب إلى المطبخ».

راحا يتبادلان التحديق في حين صارت أطراف أصابعي زرقاء من شدة الضغط عليها.

وأخيراً قال جارد بصوت منخفض: «أستطيع حملها».

قال إيان متحدياً: «هل تستطيع حملها فعلاً؟». مد يديه دافعاً جسمي إلى الأمام، بعيداً عن جسمه.

كان هذا عرضاً.

حدق جارد في وجهي دقيقة طويلة طويلة. ثم تنهد وترك يدي.

تذمرت ميلاني: «أوه، هذا مؤلم!». كانت تشير إلى وخزات الألم المفاجئة التي أحسستها في صدري، لا إلى وخزات اندفاع الدم المفاجئ العائد إلى أصابعي.

«آسفة. ما الذي تريدين مني فعله في شأن هذا؟».

«إنه ليس لك».

«نعم. أعرف هذا».

«أوه».

«آسفة».

كانت ابتسامة صغيرة منتصرة تلوح عند زاويتي فم إيان عندما قال له جارد: «أظن أنني سأمشي معكما». استدار إيان متجهاً بي صوب الباب.

«ثمة شيء أريد مناقشته معك».

«كما تريد».

لم يناقش جارد أي شيء على الإطلاق أثناء سيرنا عبر النفق المظلم. كان هادئاً إلى درجة جعلتني غير واثقة من وجوده معنا. لكني، عندما وصلنا إلى الضوء عند حقل الذرة، رأيته سائراً إلى جانبي تماماً.

لم يتكلم جارد حتى عبرنا الساحة الكبيرة. حتى صار المكان خالياً إلا منا نحن الثلاثة.

سأل جارد إيان: «ما رأيك في موقف كَايل؟».

أطلق إيان نخرة غاضبة: «إنه يباهي بأنه رجل يحفظ كلمته. إنني أثق بوعده عادة. أما في هذا الوضع، فلست أعتزم تركها تغيب عن نظري».

«جيد».

قلت: «سوف أكون بخير يا إيان. لست خائفة».

«لا يجوز أن تكوني خائفة. أعدك بأن أحداً لن يؤذيك بعد الآن. سوف تكونين آمنة هنا».

كنت أجد صعوبة في إزاحة عينيّ عن عينيه عندما تشعان على ذلك النحو كنت أجد صعوبة في الشك في أي شيء يقوله.

وافقه جارد: «نعم، سوف تكونين آمنة».

كان جارد يسير خلف كتف إيان فما كنت قادرة على رؤية وجهه.

همست له: «شكراً».

لم يتحدث أحد منا حتى توقف إيان عند الباب الملون بالأحمر والرمادي وانحنى ليفتحه.

قال إيان مخاطباً جارد، مومئاً برأسه صوب الباب: «هل تفتح الباب من فضلك؟» لم يتحرك جارد. استدار إيان حتى صار وجهه ظاهراً لنا. عاد وجهه حذراً منتبهاً من جديد.

«غرفتك؟ هل هذا هو المكان الأفضل الذي تحدثت عنه؟». كان صوت جارد مليئاً بالشك.

«إنها غرفتها الآن».

عضضت على شفتي. أردت أن أقول لإيان إن هذه الغرفة ما كانت غرفتي إطلاقاً، لكنني لم أحظ بفرصة لقول ذلك لأن جارد راح يمطره بالأسئلة.

«وأين ينام كَايل؟».

«ينام مع ويس، في هذه الفترة».

«وأين تنام أنت؟».

«لست أدري على وجه التحديد».

راحا يتبادلان نظرات فاحصة.

بدأت أقول: «إيان، هذا...».

قاطعني إيان كأنه تذكّر وجودي في هذه اللحظة فقط. كأن وزني

ما كان شيئاً محسوساً بين يديه. إلى درجة جعلته ينسى وجودي «أوه، أنت مرهقة، أليس كذلك؟ جارد، هل تفتح الباب من فضلك؟».

من غير أن ينطق بأي كلمة، مد جارد يده وفتح الباب الأحمر بقوة أكثر مما يلزم بقليل. وضعه فوق الباب الرمادي.

الآن رأيت غرفة إيان للمرة الأولى حقيقةً. كانت شمس الظهيرة تتخلل شقوق السقف الضيقة. ما كانت الغرفة مضيئة مثل غرفة جيمي وجارد. وما كانت في مثل طولها. كانت أصغر منها، لكنها أكثر تناسباً. بل كانت دائرية بعض الشيء. مثل جحري. لكنها أكبر منه بعشرة أضعاف. رأيت في الغرفة فراشين كبيرين على الأرض. كان كل منهما ملتصقاً بأحد الجدران، ومن بينهما ممر ضيق. وعند الجدار الخلفي رأيت خزانة خشبية طويلة منخفضة. كان على الجانب الأيسر من هذه الخزانة كومة من الملابس وكتابان ومجموعة من أوراق اللعب. أما الجانب الأيمن فكان خاوياً تماماً، لكن الآثار على الغبار أشارت إلى أن الأشياء التي كانت فيها قد أزيلت منذ وقت قريب جداً.

وضعني إيان بحذر على الفراش الأيمن ثم عدل وضع ساقي ودس وسادة تحت رأسي. ظل جارد واقفاً بالباب ناظراً إلى الخارج.

سألني إيان: «هل هذا مريح؟».

«نعم».

«تبدين متعبة».

«غريب أن أكون متعبة. لم أفعل شيئاً إلا النوم في الآونة الأخيرة».

«إن جسمك في حاجة إلى الراحة حتى يشفى».

أومأت برأسي. ما كنت قادرة على إنكار عجزي عن إبقاء عيني مفتوحتين.

«سوف أجلب لك الطعام في وقت لاحق. لا تقلقي من أي شيء».

«شكراً يا إيان»

«على ماذا؟».

قلت مغمغمة: «إنها غرفتك. سوف تنام هنا، بطبيعة الحال».

«أليس لديك مانع؟».

«ولماذا يكون لدي مانع؟».

«لعل هذه فكرة جيدة. لعلها الطريقة الأفضل حتى أتمكن من حراستك. هيا. نامي قليلاً».

«سأنام».

كنت قد أغمضت عينيّ منذ تلك اللحظة. ربت إيان على رأسي ثم سمعته ينهض واقفاً على قدميه. وبعد ثوانٍ قليلة سمعت صوت ارتطام خفيف عندما لمس الباب الخشبي الجدار الصخري.

سألتني ميلاني: «ماذا تظنين نفسك فاعلة؟».

«ماذا؟ ماذا فعلت الآن؟».

«يا جو... أنت... أنت بشرية في الجزء الأكبر منك. يجب أن تفهمي ما سوف يخطر في بال إيان بسبب دعوتك هذه».

«دعوتي؟». استطعت أن أفهم اتجاه تفكيرها الآن. «ليس الأمر كما تظنين. إنها غرفته. وفي الغرفة فراشان. لا تتوفر أماكن نوم كافية حتى أحظى بغرفة منفردة لي وحدي. علينا أن نتشارك بطبيعة الحال. إن إيان يفهم هذا».

«هل يفهم هذا حقاً؟ افتحي عينيك يا جو. لقد بدأ إيان... كيف أشرح لك الأمر حتى تفهمي ما أقصده؟ بدأ إيان يشعر نحوك... كما تشعرين تجاه جارد. ألا تستطيعين رؤية هذا؟»

عجزت عن الكلام مدة نبضتين من قلبي.

قلت أخيراً: «هذا مستحيل».

سمعت صوت إيان يسأل بصوت خفيض. كان الصوت آتياً من

خلف الباب: «أتظن أن ما حدث هذا الصباح يمكن أن يكون له تأثير على آرون وبراندت؟».

«هل تقصد أن كَايل يمكن أن يقتلها عن طريقهما؟».

«نعم. ما كانا مضطرين إلى.. فعل أي شيء من قبل. ما كانا مضطرين إلى ذلك عندما كان قيام كَايل بهذه المهمة بدلاً عنهما أمراً مرجَّحاً».

«فهمت. سوف أتحدث معهما».

«أتظن أن الحديث معهما يكفي؟».

«لقد أنقذتُ حياة كل منهما. إنهما مدينان لي. إذا طلبت من أي منهما شيئاً، فسوف يفعله».

«وهل تراهن على حياتها بهذا؟».

ساد صمت قصير.

قال جارد أخيراً: «سوف نحرسها». ساد صمت طويل بعد ذلك.

سأل جارد: «ألن تذهب لتناول الطعام؟».

«أظنني سأبقى هنا بعض الوقت. ماذا عنك؟».

لم يجبه جارد.

سأله إيان: «ماذا؟ هل ثمة شيء تريد أن تقوله لي يا جارد؟».

قال جارد بكلمات بطيئة: «إن الفتاة التي هنا..».

«نعم؟».

«ذلك الجسد ليس ملكاً لها».

«ما قصدك؟».

كان جارد قاسياً عندما أجاب عن هذا السؤال: «أبقِ يديك بعيداً عنها».

صدرت ضحكة منخفضة عن إيان: «إنها الغيرة. أليس كذلك؟»

«الأمر ليس غيرة في الحقيقة».

«حقاً!». صار صوت إيان ساخراً متهكماً الآن.

«الظاهر أن جو تتعاون مع ميلاني، بعض الشيء. يبدو الأمر كأنهما. متصادقتان تقريباً. لكن من الواضح أن جو هي التي تتخذ القرارات. ماذا لو كنت أنت؟ كيف تشعر إذا كنت أنت في مكان ميلاني؟ ماذا لو كنت أنت هو الشخص الذي. تم غزوه على ذلك النحو؟ ماذا لو كنت عالقاً هناك. وكان شخص آخر يملي على جسدك ما يفعله؟ إذا كنت غير قادر على التعبير عما تريد. فهل تكون راغباً في أن تحظى رغبتك. بشيء من الاحترام؟ من قبل البشر على أقل تقدير؟».

«لا بأس، لا بأس! فهمت قصدك. سوف أتذكر هذا».

سأله جارد: «ماذا تعني بقولك إنك سوف تتذكر هذا؟».

«أقصد أنني سوف أفكر فيه».

قال جارد بصوت منزعج: «ما من شيء حتى تفكر فيه». كنت أعرف من نبرة صوته كيف يبدو شكله الآن. أسنان مطبقة. فكّان متوتران.

«إن الجسد والشخص الحبيس داخله ملكي أنا».

«هل أنت واثق من أن ميلاني ما زالت تشعر. .».

«سوف تكون ميلاني لي دائماً. وسوف أكون لها دائماً».

دائماً.

كنت وميلاني على طرفي نقيض في هذه اللحظة. كانت تطير فرحة وحبوراً. أما أنا. فلم أكن كذلك.

انتظرنا متلهفتين حتى ينتهي الصمت الذي ساد بعد هذه الكلمات.

سأل إيان بصوت شبه هامس: «لكن، ماذا لو كنت أنت؟ ماذا لو وضعوك في جسد بشري ثم أطلقوك على هذا الكوكب فوجدت نفسك ضائعاً بين بني جنسك؟ ماذا لو كنت شخصاً جيداً. شخصاً يحاول إنقاذ الحياة التي جعلوه يستولي عليها. ثم يوشك على الموت محاولاً إيصال هذا الجسد إلى أسرته؟ ماذا لو وجدت نفسك بعد ذلك محاطاً بغرباء قساة يكرهونك ويؤذونك ويحاولون قتلك مرة بعد مرة؟». اضطرب صوته قليلاً ثم تابع: «ماذا لو أنك بعد هذا كله ظللت تفعل كل ما تستطيع

فعله لإنقاذ الأشخاص الموجودين وشفائهم؟ فهل يكون من حقك أن تحظى بحياة أيضاً؟ هل تكون قد ربحت إلى هذا الحد؟».

لم يجبه جارد. لكني أحسست دموعاً تطفر في عينيّ. أحقاً يظن إيان بي ظناً حسناً إلى هذا الحد؟ هل يعتقد حقاً أنني كسبت لنفسي الحق في حياة هنا؟

سأل إيان ملحّاً: «هل فهمت قصدي؟».

«سوف... سوف أفكر في هذا الأمر».

«فكر فيه».

«لكن، رغم ذلك...».

قاطعه إيان بتنهيدة عميقة: «لا تتوتر يا جارد. إن جو ليست بشرية تماماً، رغم هذا الجسد. الظاهر أنها لا تستجيب لك... للتماس الجسدي كما يستجيب الإنسان».

الآن... ضحك جارد: «هل هذه نظريتك؟».

«ما المضحك في الأمر؟».

أجابه جارد وقد عاد صوته متوازناً من جديد: «إنها قادرة تماماً على الاستجابة إلى التماس الجسدي. إنها بشرية إلى الحد الكافي من تلك الناحية. أو لأقل إن جسدها بشري من تلك الناحية».

أحسست بالحرارة في وجهي...

ظل إيان صامتاً.

«هل أحسست بالغيرة؟».

«في الحقيقة... نعم. أحسست بالغيرة إلى حد مفاجئ». كان صوت إيان متوتراً. «كيف تعرف هذا؟».

الآن صار جارد متردداً: «كان ذلك... نوعاً من تجربة».

«تجربة!؟».

«لم تجر التجربة كما توقعت. لقد لكمتني ميلاني». أدركت من

صوته أنه ابتسم عندما تذكر ذلك، واستطعت أن أرى، في رأسي، تلك الخطوط الصغيرة تنتشر من حول عينيه.

«ميلاني. لكمتك؟».

«إنني واثق من أن تلك اللكمة لم تكن من فعل جو كان عليك أن ترى وجهها في تلك اللحظة. ماذا بك؟ ماذا أصابك يا رجل؟».

قال إيان بصوت خفيض: «هل فكرت لحظة واحدة في ما سببه ذلك لها؟».

«ميلاني؟».

«لا أيها الأحمق، جو!».

سأله جارد وقد بدا مندهشاً لتلك الفكرة: «ما سبّبُ ذلك لجو؟».

«أوه، اذهب من هنا. اذهب وكل شيئاً. ابتعد عني عدة ساعات».

لم يعطه إيان فرصة للإجابة. فتح الباب. بحركة خشنة لكن بهدوء رغم ذلك. ثم انزلق داخل الغرفة وأعاد الباب إلى مكانه.

استدار فقابل عيني المحدقتين. ومن تعبير وجهه أدركت أنه فوجئ برؤيتي مستيقظة. بدت عليه المفاجأة. والعذاب. اتقدت النار في عينيه ثم خبت بطيئة. شد على شفتيه.

مال برأسه جانباً وراح يصغي. أصغيت أيضاً، لكن أي صوت لم يصدر عن ذهاب جارد. انتظر إيان لحظة أخرى ثم تنهد وهبط جالساً على حافة فراشه. قبالتي.

قال: «أعتقد أن صوتنا لم يكن خفيضاً مثلما ظننا».

همست: «إن الصوت ينتقل بعيداً في هذه الكهوف».

أومأ برأسه لحظة ثم قال: «إذاً، ما هو رأيك؟»

## الفصل الثامن والثلاثون

# تأثر

«ما رأيي. في ماذا؟».

قال إيان موضحاً: «رأيك في. النقاش الذي جرى بيننا في الخارج».

ما رأيي في ما سمعت؟ لست أدري.

كان إيان قادراً، على نحو ما، على رؤية الأشياء من منظوري، من منظور كائن غريب. وهو يرى أنني قد اكتسبت حقاً في حياتي هنا.

لكنه كان. يشعر بالغيرة!. من جارد؟

كان يعرف حقيقتي، يعرف أنني لست إلا كائناً ضئيل الحجم مزروعاً في مؤخرة دماغ ميلاني. دودة. كما قال كَايل. لكن، حتى كَايل نفسه كان يرى أن لدى إيان ميلاً تجاهي. تجاهي أنا؟ ما كان هذا ممكناً.

أو لعله يسألني عن رأيي في جارد؟ عن رأيي في تلك التجربة؟ لعله يطالبني بمزيد من التفاصيل عن استجابتي للاحتكاك الجسدي؟ ارتجفت

لعله يسألني عن آرائي في ميلاني؟ أو عن رأي ميلاني في حديثهما؟ لعله يريد أن يعرف إن كنت أوافق جارد على رأيه في حقوق ميلاني؟

ما كنت أعرف رأيي. . في أي شيء من هذه الأشياء كلها.

قلت له: «في الحقيقة، لست أدري».

أطرق برأسه: «أفهم هذا».

«هذا لأنك متفهم إلى حد كبير».

ابتسم لي. غريب كيف تستطيع عيناه أن تحرقا وتدفئا في وقت

واحد. خاصة مع ذلك اللون الذي هو أقرب إلى لون الجليد منه إلى لون النار. كانتا دافئتين حقاً في تلك اللحظة.

«أنت تعجبينني كثيراً يا جو»

«لقد بدأت الآن بملاحظة ذلك. أظن أنني بطيئة بعض الشيء».

«إنه مفاجئ لي أيضاً».

رحنا نفكر في هذا الأمر.

ضغط على شفتيه ثم قال: «وأظن. أن هذا واحد من الأشياء التي لا تعرفين شعورك تجاهها».

«لا أقصد نعم. أنا. لا أعرف. أنا. أنا. .».

«لا بأس. لم يمض على تفكيرك في هذا الشيء فترة طويلة بعد. ثم. لا بد أنه يبدو. غريباً».

أومأت برأسي: «نعم. بل أكثر من غريب. مستحيل».

قال إيان بعد لحظة: «قولي لي شيئاً».

«سأقول. إذا كنت أعرف الإجابة».

«إنه ليس سؤالاً صعباً».

لم يطرح سؤاله على الفور. بدلاً من ذلك مال عبر ذلك الفاصل الصغير بين الفراشين ثم أمسك بيدي. أمسك بها بين يديه لحظة ثم مر بأصابع يده اليسرى مروراً بطيئاً على ذراعي، من معصمي حتى كتفي. وبعد ذلك، عادت أصابعه إلى موضعها بحركة بطيئة. راح ينظر إلى جلد ذراعي بدلاً من النظر إلى وجهي. كان يراقب ذلك التحبحب الذي ظهر مكان مرور أصابعه.

سألني: «هل تشعرين أن هذا جيد أم سيّئ بالنسبة لك».

قالت ميلاني بإصرار: «سيئ!».

قلت لها محتجة: «لكنه لم يؤلمني».

«ليس هذا ما يقصده من سؤاله. عندما يسألك إن كان جيداً... فهو... أوه، إن هذا يشبه التحدث مع طفلة!».

«تعرفين أن عمري لم يبلغ سنة واحدة حتى الآن. أم أنه بلغ سنة؟»

تشتت انتباهي عندما رحت أحاول تحديد التاريخ.

لكن انتباه ميلاني لم يتشتت: «في نظره هو... أن يكون هذا جيداً... يعني أن يكون إحساسك به مثل إحساسك عندما يلمسنا جارد». ما كانت الذكرى التي جعلتني أراها في تلك اللحظة منتمية إلى عالم الكهوف. كانت منتمية إلى ذلك الوادي السحري، وقت لغروب. كان جارد واقفاً خلفها. مرت يداه على امتداد ذراعيها، من كتفيها حتى معصميها. ارتجفت للذة تلك اللمسة البسيطة. «مثل هذا الإحساس».

«أوه».

«ماذا يا جو؟».

همست له: «ميلاني تقول إنه سيّئ».

«لكن، ماذا تقولين أنت؟».

«أقول. لا أدري».

عندما استطعت النظر في عينيه كانتا أكثر دفئاً مما توقعت: «لا أستطيع حتى أن أتخيل مدى ما يسببه لك هذا كله من حيرة وارتباك الآن».

من المريح أنه يفهمني: «نعم، إنني في حيرة»

راحت أصابعه تجري على ذراعي صعوداً وهبوطاً من جديد.

«أتريدين مني التوقف؟».

ترددت، ثم قررت: «نعم، إن. ما تفعله. يجعل التفكير صعبا عليّ. كما أن ميلاني. غاضبة مني. وهذا ما يجعل التفكير صعبا أيضاً».

«لست غاضبة منك. قولي له أن يذهب».

«إيان صديقي. لا أريده أن يذهب».

ابتعد إيان عني قليلاً طاوياً ذراعيه فوق صدره.

«لا أظن أنها ستمنحنا دقيقة نكون فيها وحدنا!».

ضحكت: «أشك في هذا».

مال إيان برأسه جانباً. كانت على وجهه ملامح التفكير.

قال يخاطبها: «ميلاني سترايدر!».

أجفلت، وأجفلت ميلاني، لسماع ذلك الاسم.

تابع إيان يقول: «أريد فرصة للحديث مع جو على انفراد إذا لم يكن لديك مانع. هل من طريقة لترتيب ذلك؟».

«ابداً... إطلاقاً! قولي له إنني قلت إن هذا مستحيل. لا أحب هذا الرجل».

كشرت قليلاً.

«ماذا قالت؟».

«قالت. لا». حاولت أن أقول هذه الكلمة بألطف ما أستطيع.

«قالت أيضاً إنها. لا تحبك».

ضحك إيان: «إنني أحترم رأيها. إنني أحترمها. لا بأس، كان الأمر يستحق المحاولة». تنهد. «هذا يبطئ الأمور قليلاً. عندما يكون هناك من يستمع».

قالت ميلاني بصوت كالأنين: «أي أمور؟».

كشرتُ من جديد. ما كنت أحب الشعور بغضبها. إن غضبها أكثر شراً بكثير من غضبي أنا.

«عليك إذن أن تعتادي على غضبي».

وضع إيان كفيه على وجهي: «سوف أتركك تفكرين في هذه الأشياء. حتى تتمكني من تحديد شعورك».

حاولت أن أكون موضوعية تجاه الكفين اللتين تلامسان وجهي. كانت لمستهما رقيقة. أحسست أنها لمسة. لطيفة. ما كانت تشبه لمسة جارد. لكن الأمر كان أيضاً مختلفاً عما أشعر به عندما يحتضنني جيمي. كان شيئاً آخر.

قلت له: «قد يستغرق هذا زمناً. لا أفهم أي شيء مما يحدث. أنت تدرك ذلك».

قال مبتسماً: «نعم. أدرك»

عندما ابتسم أدركت أنني أريده أن يشعر شعوراً طيباً تجاهي. أما البقية. يده على وجهي. أصابعه على ذراعي. ما زلت غير واثقة من هذه الأشياء كلها. لكني أريده أن يشعر شعوراً طيباً تجاهي. وأن يحمل أفكاراً طيبة عني. هذا ما جعلني أجد صعوبة في إخباره بالحقيقة.

همست: «ليس هذا شعورك نحوي أنا في الحقيقة. أنت تعرف هذا الأمر متعلق بهذا الجسد. إنها جميلة، أليست ميلاني جميلة؟».

هز رأسه: «إنها جميلة. ميلاني فتاة شديدة الجمال. بل هي حسناء». تحركت يده لتلمس وجنتي المصابة. لتداعب الجلد الخشن المتقرِّح بأصابع لطيفة. «رغم ما فعلتُه بوجهها».

في الأحوال العادية، كنت أسارع إلى إنكار هذا الأمر على نحو تلقائي. لو كان الوضع عادياً لذكّرته بأن تلك الجروح في وجهي ما كانت بسبب خطأ منه. لكني كنت شديدة الحيرة. شديدة الاضطراب. كان رأسي يدور وما كنت قادرة على صياغة جملة متماسكة.

لماذا يزعجني أن يرى إيان ميلاني جميلة؟

«لقد فوجئت بتفكيرك هذا». ما كانت مشاعري واضحة لها مثلما لم تكن واضحة لي أيضاً!

أزاح إيان شعري عن جبيني.

«لكن، مهما تكن ميلاني جميلة فهي غريبة في نظري. إنها ليست من. أهتم بها».

جعلني هذا الكلام أشعر بارتياح أكبر. وهذا ما كان مبعث حيرة أكبر في نفسي.

«إيان. أنت لا لا أحد هنا يفصل بيننا كما ينبغي أن يتم الفصل بيننا. لا أنت ولا جيمي ولا جيب». جاءت الحقيقة مندفعة.

أكثر حرارة مما أردت. «أنت لا تستطيع الاهتمام بي.. لا تستطيع أن تشعر هذا الشعور تجاهي. لو كنت قادراً على حملي في يدك. حملي أنا.. لأصابك القرف. لرميتني أرضاً ودستني بقدمك». تجعد جبينه الشاحب عندما انعقد حاجباه حيرة وقال: «أنا... لن أفعل هذا. إن عرفت أنك أنت التي في يدي».

ضحكت ضحكة باهتة: «وكيف تعرف؟ أنت لا تستطيع التفريق بيننا».

تهدلت شفتاه.

قلت من جديد: «الأمر متعلق بالجسد».

قال معترضاً: «هذا غير صحيح أبداً. أنت جميلة لا لأن وجهك جميل بل لأن تعبير وجهك جميل. لا لأن صوتك جميل بل لأن ما تقولينه جميل. جمالك ليس نابعاً من مظهر جسدك بل مما تفعلينه بهذا الجسد». تحرك إلى الأمام أثناء حديثه وجثا إلى جانب الفراش الذي كنت مستلقية عليه ثم أمسك بيدي بين يديه من جديد.

«لم أعرف في حياتي شخصاً مثلك».

تنهدت: «إيان، ماذا لو أنني أتيت إلى هنا في جسد ماغي؟».

كشر إيان ثم ضحك: «هذا سؤال جيد. لا أدري ماذا كنت سأفعل».

«أو في جسد ويس؟».

«لكنك أنثى. أنت أنثى في الأصل».

«وأنا أطلب دائماً أن أنتقل إلى جسد يقابل الأنثى في أي كوكب أذهب إليه. هذا يبدو لي أكثر. صحة. لكنني أستطيع أن أحل في جسد رجل وأن أتصرف كما يتصرف الرجل».

«لكنك لست في جسد رجل الآن».

«هل رأيت؟ هذه هي النقطة الهامة. الجسد والروح. شيئان مختلفان. في حالتي هذه».

«ما كنت لأريد هذا الجسد من دونك».

«وما كنت لتريدني من غير هذا الجسد».

لمس إيان وجنتي من جديد ثم ترك يده عليها. كانت إبهامه تحت فكي: «لكن هذا الجسد جزء منك أيضاً. إنه جزء من طبيعتك الآن. وإذا لم تغيري رأيك فتسلمينا جميعاً. سيكون هذا الجسد جسدك دائماً».

آه، إنه يتحدث عن النهاية. نعم، سوف أموت في هذا الجسد. سيكون موتاً نهائياً.

همست ميلاني: «وأنا لن أعيش في هذا الجسد مرة ثانية».

«ما هكذا كانت أي منا تخطط لمستقبلها... أليس كذلك؟».

«صحيح. ما كانت أي منا تخطط لأن تكون محرومة من المستقبل».

أدرك إيان ما يدور: «أهو حديث داخلي آخر؟».

«إننا نفكر في فنائنا».

«يمكنك العيش إلى الأبد إذا تركت هذا المكان».

تنهدت وقلت: «نعم، أستطيع. هل تعرف أن حياة البشر أقصر من حياة أي جنس زرته. باستثناء الخفافيش؟ إن الوقت المتاح لكم قصير جداً».

«ألا تظنين إذاً. .» توقف إيان عن الكلام لحظة وانحنى مقترباً مني حتى صرت غير قادرة على رؤية شيء غير وجهي. غير الثلج والزرقة والسواد. «ألا تظنين أن عليك الاستفادة من الوقت المتاح لك؟ ألا تظنين أن عليك أن تعيشي ما دمت حية؟».

لم أعرف ما الذي كان موشكاً على الحدوث كما عرفت من قبل مع جارد. ما كان إيان مألوفاً بالنسبة لي مثل جارد. لكن ميلاني أدركت ما كان موشكاً على فعله قبل أن أدرك ذلك. أدركته قبل ثانية فقط من لمس شفتيه شفتي.

«لا!».

ما كان الأمر يشبه تقبيل جارد. مع جارد، ما كان في الأمر تفكير. كانت رغبة صرفاً. من غير أي ضبط أو تحكم. كانت شيئاً

يشبه شرارة. شيئاً حتمياً. أما مع إيان، فما كنت أعرف حقيقة شعوري أصلاً. كان كل شيء مضطرباً. مشوشاً.

كانت شفتاه ناعمتين حارتين. ضغطهما قليلاً على شفتي ثم حركهما جيئة وذهاباً فوق فمي.

همس إيان عند شفتي: «هل هذا جيد أم سيّئ؟».

«سيّئ! سيّئ! سيّئ!».

«إنني. لا أستطيع التفكير». عندما أبعدت فمي لأتكلم حرك إيان فمه أيضاً. لحق بشفتي.

«هذا يبدو. جيداً».

انضغطت شفتاه على شفتي بقوة أكبر هذه المرة. أمسك بشفتي السفلى بين شفتيه وشدها شداً رقيقاً.

أرادت ميلاني أن تضربه. أرادت أن تضربه أكثر مما أرادت أن تضرب جارد في تلك المرة. أرادت أن تلقيه أرضاً وأن ترفسه على وجهه. كانت الصورة مخيفة. كانت فظيعة التعارض مع إحساسي الدافئ بقبلة إيان.

همست: «أرجوك».

«ماذا؟».

«توقف أرجوك. لا أستطيع التفكير. أرجوك».

اعتدل إيان في جلسته فوراً وأطبق يديه أمامه ثم قال بنبرة حذرة: «إذاً».

وضعت يدي على وجهي. تمنيت أن أستطيع إبعاد غضب ميلاني عني.

ابتسم إيان: «جيد، لم يضربني أحد على الأقل».

«لقد أرادت مني أن أفعل أكثر من ذلك. أوف! تخيفني عندما تغضب إلى هذا الحد. هذا يؤلم رأسي. إن الغضب. قبيح جداً».

«ولماذا لم تضربني؟».

«لأنني لم أفقد سيطرتي عليها. إنها لا تستطيع التحرر من سيطرتي إلا عندما. تطغى المشاعر على تفكيري».

رحت أدلك جبهتي. راح ينظر إليّ.

قلت أرجوها: «اهدئي. إنه لا يلمسني الآن».

«هل نسي أنني موجودة هنا؟ ألا يبالي بوجودي؟ هذه أنا... هذه أنا!».

«حاولت أن أشرح له هذا».

«وماذا عنك أنت؟ هل نسيت جارد؟».

رمتني بذكرياتها مثلما فعلت قبل قليل، لكن الذكريات جاءت مثل الضربات هذه المرة. ألف ضربة. ابتسامته. عيناه. شفتاه فوق شفتي. كفاه على جلدي.

«لم أنس جارد طبعاً. لكن، هل نسيتِ أنك لا تريدين أن أحبه؟».

«إنها تتحدث معك الآن».

صححت له: «بل توبّخني».

«إنني أفهم الآن! أراك تركزين انتباهك على الحديث معها. لم ألحظ هذا أبداً قبل اليوم».

«إنها لا تندفع دائماً في الحديث كما تفعل الآن».

«إنني آسف يا ميلاني. أعرف أن هذا مزعج لك».

ومن جديد، جعلتني ميلاني أراها ترفسه على أنفه تاركة إياه مكسوراً مثل أنف كَايل: «قولي له إنني لا أريد اعتذاره».

كشرت.

ابتسم إيان نصف ابتسامة. كشّرنصف تكشيره: «إنها لا تقبل اعتذاري!»

هزرت رأسي.

«أفهم إذاً أنها تستطيع أن تتحرر من سيطرتك عندما تغلب مشاعرك تفكيرك».

رفعت كتفي: «يحدث هذا أحياناً إذا فاجأتني وإذا كانت. مشاعري متأججة. المشاعر تجعل التركيز صعباً. لكن هذا الأمر صار أكثر صعوبة بالنسبة لها في الآونة الأخيرة. كأن الباب بيننا قد أقفل. لست أدري لماذا. لقد حاولت تركها تتحرر عندما حاول كَايل. .» توقفت عن الحديث فجأة وشددت على أسناني.

أكمل إيان جملتي: «عندما حاول كَايل قتلك. لقد أردت جعلها تتحرر منك! لماذا؟».

لم أقل شيئاً. اكتفيت بالنظر إليه.

فهم إيان قصدي: «حتى تقاتله؟».

لم أجبه.

تنهد: «لا بأس. لا تقولي لي شيئاً. ما الذي يجعلك تظنين أن الباب. مقفل؟».

عبست: «لا أدري. لعل هذا بسبب مرور الوقت. إن هذا الوضع يقلقنا».

«لكنها تحررت من قبل. عندما لكمت جارد».

«نعم». ارتجفت عندما تذكرت كيف اصطدمت قبضتي بوجهه.

«حدث هذا لأن المشاعر طغت عليك في تلك اللحظة!».

«نعم».

«وماذا فعل جارد؟ هل قبّلك فقط؟».

أومأت برأسي.

ارتعد إيان منكمشاً. تقلصت عيناه.

سألته: «ماذا؟ ما الأمر؟»

«عندما يقبّلك جارد. تطغى. تطغى عليك المشاعر».

حدقت فيه وقد أقلقني ذلك التعبير على وجهه. لكن ميلاني كانت مسرورة لرؤيته. قالت لي: «هذا صحيح!».

تنهد إيان: «وعندما أقبّلك أنا... لا تكونين متأكدة من أن الأمر يعجبك. لا تطغى. لا تطغى عليك المشاعر».

«أوه». إن إيان يشعر بالغيرة. كم هو غريب هذا العالم. «إنني آسفة».

«لا تكوني آسفة. قلت لك إنني سأمنحك وقتاً. لا مانع عندي من انتظارك ريثما تفكرين في الأمر كله. لا مانع لدي إطلاقاً».

«فيم تمانع إذاً؟». قلت هذا لأنه كان شديد الممانعة لأمر ما!

استنشق نفساً عميقاً ثم أطلقه متمهلاً: «لقد رأيت مدى حبك لجيمي. كان هذا واضحاً على الدوام. أظن أنني كان يجب أن أرى أنك تحبين جارد أيضاً. لعلي لم أرغب في رؤية هذا. لكنه منطقي. لقد أتيت إلى هنا من أجلهما معاً. أنت تحبينهما معاً. كما كانت ميلاني تحبهما تحبين جيمي باعتباره أخاً. وتحبين جارد. .» كان يتحدث مشيحاً بوجهه عني. محدقاً في الجدار من فوقي. كان عليّ أن أشيح بوجهي أيضاً رحت أنظر إلى ضياء الشمس حيث كان يسقط على الباب الأحمر.

«ما حصة ميلاني من هذا كله؟». لقد أراد أن يعرف.

«لا أدري. هل للأمر أهمية؟»؟

أجابني بصوت خفيض لم أكد أستطيع سماعه: «نعم. هذا مهم عندي». ومن غير أن ينظر إليّ. بدا كأنه لا يلاحظ ما يفعله. أمسك إيان بيدي من جديد.

ساد هدوء شديد مدة دقيقة كاملة. كانت ميلاني هادئة تماماً. كان هذا لطيفاً.

ثم، مثلما يحدث بكبسة زر، عاد إيان إلى طبيعته من جديد ضحك!

قال مبتسماً: «إن الوقت في صالحي. وسوف نقضي بقية حياتنا هنا. ستستغربين ذات يوم لأن جارد كان يعجبك».

«هذا في أحلامك أنت».

ضحكت معه. كنت سعيدة لأنه عاد يمزح من جديد.

«جو؟ جو هل أستطيع الدخول؟».

كان صوت جيمي آتياً من أول الممر. يسبقه صوت خطواته الراكضة. توقف عند الباب.

«طبعاً يا جيمي».

مددت يدي أستقبله قبل أن يفتح الباب. لم أره إلا مرات قليلة في الآونة الأخيرة. كنت فاقدة الوعي. أو عاجزة عن الحركة. ما كنت حرة حتى أبحث عنه.

«مرحباً يا جو! مرحباً يا إيان!». كان وجه جيمي مبتسماً كله. وكان شعره المشعث يتراقص عندما يتحرك. توجه صوبي، صوب يدي الممدودتين، لكن إيان كان في طريقه وهذا ما جعله يجلس عند حافة فراشي ويضع يده على قدمي: «كيف حالك الآن؟».

«أفضل».

«هل تحسّين بالجوع؟ لدينا لحم مُعَلَّب. ولدينا ذُرَة مطبوخة! أستطيع أن أجلب لك بعض الطعام».

«لست جائعة الآن. كيف حالك أنت؟ لم أرك كثيراً في الفترة الأخيرة».

كشر جيمي: «لقد عاقبتني شارون. احتجزتني»

ابتسمت: «لماذا؟ ماذا فعلت؟»

«لا شيء. إنني مظلوم تماماً». كان تعبير البراءة في وجهه متصنعاً. مبالغاً. وسرعان ما غيّر موضوع الحديث: «هل تعرفين؟ كان جارد يقول أثناء الغداء إنه لا يرى أن من المنصف أن تنتقلي من الغرفة

التي كنت فيها. قال إننا لم نحسن ضيافتك. وقال أيضاً إن عليك العوده لتسكني معي! أليس هذا رائعاً؟ سألته إن كنت أستطيع أن أنقل إليك هذا الكلام الآن فقال إنها فكرة جيدة! قال لي إنني أستطيع العثور عليك هنا»

تمتم إيان: «لا شك في أنه قال ذلك».

«ماذا تقولين إذاً يا جو؟ سوف نعود شريكين في الغرفة من جديد!»

«لكن، يا جيمي. أين سيعيش جارد؟».

قاطعنا إيان: «انتظر. دعني أخمّن. أراهن أنه قال إن الغرفة كبيرة تتسع لكم. أنتم الثلاثة، أليس هذا صحيحاً؟».

«نعم. كيف عرفت هذا؟».

«إنني ماهر في التخمين».

«إذاً، هذا جيد. أليس جيداً يا جو؟ سيعود الأمر كما كان قبل أن نأتي إلى هنا!» أحسست بشيء مثل السكاكين يحفر بين أضلاعي عندما قال تلك العبارة. كان ألماً حاداً. محدداً. لا أستطيع مقارنته بألم ضربة أو كسر.

راح جيمي ينظر إلى تعبير وجهي المعذب نظرة حذرة: «أوه لا أعني أن الأمر سيعود كما كنا. لكن معك أنت أيضاً! سيكون شيئاً لطيفاً. سنكون نحن الأربعة معاً!».

حاولت أن أضحك عبر ألمي كله. ما كان الضحك ليؤلمني أكثر من هذا الألم الذي أحسه الآن.

شد إيان على يدي.

قلت مغمغمة: «الأربعة معاً! شيء لطيف».

زحف جيمي فوق الفراش مقترباً مني، دائراً حول إيان، ثم لف ذراعيه حول عنقي.

«آسف، لا تحزني».

«لا تقلق».

«تعرفين أنني أحبك أنت أيضاً».

ما أشد المشاعر على هذا الكوكب. ما أعمقها! لم يقل لي جيمي هذه الكلمات من قبل. أحسست أن حرارة جسدي ارتفعت عدة درجات على نحو مفاجئ.

وافقتني ميلاني صارخة من ألمها أيضاً: «ما أعمقها!».

عاد جيمي يسألني راجياً من جديد وقد وضع رأسه على كتفي: «هل ستعودين؟».

لم أستطع إجابته على الفور.

سألني: «ما الذي تريده ميلاني؟».

همست: «إنها تريد العيش معكما». ما كنت في حاجة إلى سؤالها حتى أعرف هذا.

«وما الذي تريدينه أنت؟».

«هل تريدني أن أعيش معك؟».

«تعرفين أنني أريد هذا يا جو. أرجوك».

ترددت.

«أرجوك؟».

«إذا كان هذا ما تريده يا جيمي. فلا بأس».

صاح جيمي في أذني: «واو! رائع! سوف أذهب لأخبر جارد. سوف أجلب لك بعض الطعام أيضاً».

صار واقفاً على قدميه الآن هزت حركته الفراش كله فشعرت بألم بين أضلاعي.

«لا بأس».

«هل تريد طعاماً يا إيان؟».

«بالتأكيد يا فتى. أريدك أيضاً أن تقول لجارد إنه عديم الحياء».

«ماذا؟».

«غير مهم. اذهب واجلب لجو بعض الطعام».

«سأذهب. وسوف أطلب من ويس أن يعطيني الفراش الزائد يستطيع كَايل أن يعود إلى هذه الغرفة. وسوف يكون كل شيء كما يجب أن يكون!».

قال إيان: «رائع». صحيح أنني غير قادرة على رؤية وجهه الآن، لكني أحسست ذلك الغيظ في عينيه.

همست: «رائع»، وأحسست بتلك النصال بين أضلاعي من جديد.

## الفصل التاسع والثلاثون

# قلق

«رائع»، هكذا زمجرت مخاطبة نفسي. «رائع حقاً».

كان إيان قادماً لمشاركتي طعام الغداء، وكانت ابتسامة كبيرة ملصقة على وجهه. إنه يحاول إبهاجي. من جديد.

قالت لي ميلاني: «أظن أنك تبالغين في السخرية والتهكم هذه الأيام».

«سوف أتذكر كلامك هذا».

لم أسمع صوتها كثيراً خلال الأسبوع الماضي. ما كانت أي منا في مزاج حسن هذه الأيام. كان من الأفضل أن نتجنب الاحتكاك الاجتماعي، حتى في ما بيننا.

حيّاني إيان وهو يجلس على المقعد إلى جانبي: «مرحباً يا جو». كان بين يديه صحن من حساء الطماطم ينبعث منه البخار. أما صحني فكان أمامي، بارداً نصف ممتلئ. وكنت أعبث بقطعة من الخبز. أفتتها إلى أجزاء صغيرة.

لم أردّ على تحيته.

وضع يده على ركبتي قائلاً: «أوه، هيا!». كان ردّ فعل ميلاني الغاضبة ضعيفاً. لقد اعتادت هذا النوع من الحركات إلى حد جعلها غير مستعدة لمجابهته بنوبة غضب. «سوف يعودون غداً. قبل مغيب الشمس. من غير شك».

قلت أذكّره: «قلت هذا الكلام منذ ثلاثة أيام، وقلته منذ يومين، وقلته يوم أمس».

قال يضايقني: «الذي إحساس طيب هذا اليوم. لا تتشاءمي. التشاؤم شعور بشري».

«لست متشائمة». لم أكن متشائمة في واقع الأمر. لكني كنت قلقة إلى حد يمنعني من التفكير السليم. لم يترك هذا القلق طاقة أفعل بها أي شيء.

«ليست هذه بالغارة الأولى التي يذهب فيها جيمي».

«هذا يشعرني بقدر كبير من الارتياح». قلتها متهكمة من جديد. إن ميلاني محقة. فأنا أبالغ في اللجوء إلى التهكم.

ضحك إيان: «إن معه جارد وجيفري وترودي. كما أن كَايل باقٍ هنا لم يذهب معهم. هذا يعني أن من المستحيل أن يتورطوا في أي مشاكل»

«لست أريد الحديث في هذا الأمر».

«لا بأس».

انصبّ اهتمام إيان الآن على طعامه. تركني وشأني. كان إيان لطيفاً من هذه الناحية. يحاول دائماً إعطائي ما أريد، حتى عندما يكون ما أريده غير واضح لأي منا! لكن أستثني، بطبيعة الحال، من هذا اللطف محاولاته المتواصلة لإلهائي عن هذا القلق الآن. ما كنت أريد أن يفعل ذلك. أردت أن أقلق! هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيعه.

مر شهر على انتقالي عائدة إلى غرفة جيمي وجارد. ولمدة ثلاثة أسابيع من هذا الشهر، عشنا نحن الأربعة معاً. كان جارد ينام على سرير ثبته إلى الحائط فوق السرير الذي ننام عليه أنا وجيمي.

لقد اعتدت الأمر. ما يتعلق بالنوم على الأقل. أما الآن فإنني أعاني بسبب نومي في هذه الغرفة الخاوية. إنني أفتقد صوت تنفس شخصين آخرين من حولي.

لم أستطع الاعتياد على الاستيقاظ صباحاً لأجد جارد موجوداً في

الغرفة. ما زلت في حاجة إلى لحظة أستجمع فيها تركيزي قبل أن أردّ تحيته الصباحية. لكنه ما كان مرتاحاً أيضاً رغم حرصه على التهذيب دائماً. كنا شديدي التهذيب. أنا وهو.

كانت الكلمات نفسها تتكرر تقريباً كل صباح.

«صباح الخير يا جو، كيف كان نومك؟».

«جيد، اشكرك، وكيف كان نومك؟».

«كان جيداً، شكراً. وماذا عن... ميلاني؟».

«إنها في أحسن حال أيضاً، شكراً».

لكن الفرحة المستمرة التي يعيشها جيمي وثرثرته السعيدة المتواصلة جعلت الجو أقل توتراً على الدوام. كان يكثر من الحديث عن ميلاني. يكثر من الحديث معها أيضاً. حتى ما عاد ذكر اسمها سبباً للتوتر. أثناء وجود جارد. وفي كل يوم، كان الأمر يغدو أكثر راحة بعض الشيء. كان نمط عيشي هنا يغدو أكثر بهجة بعض الشيء.

لقد كنا سعيدتين. بعض الشيء. ميلاني وأنا.

ثم، منذ أسبوع، ذهب جارد في غارة قصيرة أخرى كان هدفها الأول استبدال بعض الأدوات المعطوبة. وقد أخذ جيمي معه.

سألني إيان: «هل أنت متعبة؟».

أدركت أنني أفرك عيني: «لست متعبة فعلاً!».

«أما زلت غير قادرة على النوم ليلاً؟».

«إن الغرفة هادئة أكثر مما يجب».

«يمكنني أن أنام معك. أوه، اهدئي يا ميلاني. أنت تدركين قصدي».

كان إيان قادراً دائماً على ملاحظة غضب ميلاني الذي يجعلني أنكمش.

قلت متحدية: «أظنك قلت إنهم عائدون اليوم».

«أنت محقة. أظن أن ما من حاجة إلى إعادة ترتيب الأمور».

تنهدت.

«لعل من الأفضل أن ترتاحي بعد الظهر».

قلت له: «لا تكن سخيفاً. لدي طاقة كثيرة من أجل العمل».

ابتسم إيان كما لو أنني قلت شيئاً يبهجه. شيئاً يتمنى أن أقوله.

«جيد. هل تستطيعين مساعدتي في مشروع؟».

«أي مشروع؟».

«سوف أريك المشروع. هل انتهيت من الطعام؟».

أومأت برأسي.

أمسك بيدي فقادني إلى خارج المطبخ. كان إمساكه ليدي أمراً متكرراً إلى حد جعل ميلاني لا تكاد تعترض عليه.

«لماذا نذهب في هذا الاتجاه؟». ما كان الحقل الشرقي بحاجة إلى أي عناية. لقد كنا، كلانا، جزءاً من المجموعة التي قامت بسقايته هذا الصباح.

لم يجبني. ما زال مبتسماً.

سار بي حتى انتهينا من النفق الشرقي ومررنا بالحقل ثم دخلنا ممراً لا يقود إلا إلى مكان واحد. وفور دخولنا ذلك النفق صرت قادرة على سماع أصوات يتردد صداها. وعلى سماع صدمات. صدمات لم أفهمها على الفور. ساعدني الارتباط بين ذلك الصوت وبين الرائحة الكبريتية المرة الراكدة على استعادة ذاكرتي.

«إيان، لست في مزاج مناسب للعب الكرة».

«قلت إن لديك كثيراً من الطاقة».

«من أجل العمل. لا من أجل لعب كرة القدم».

«لكن ويس وليلي سيشعران بالخيبة حقاً. لقد وعدتهما بلعبة نخوضها اثنين مقابل اثنين. لقد عملا بجهد كبير هذا الصباح حتى يستطيعان تحرير بعض الظهر من أجل اللعب. ».

قلت عندما كنا ننعطف عند آخر الممر: «لا تحاول أن تجعلني أشعر بالذنب». صرت الآن قادرة على رؤية الضوء الأزرق المنبعث من عدة مصابيح، ورأيت ظلالاً تتحرك أمام هذه المصابيح.

قال يناكفني: «أليس هذا عملاً؟ هيا يا جو، سوف يفيدك هذا».

شدني حتى دخلنا غرفة اللعب حيث رأيت ويس وليلي يتبادلان قذف الكرة من طرف الملعب إلى طرفه.

صاحت ليلي: «مرحباً يا جو. مرحباً يا إيان».

حذره ويس: «سوف أفوز في هذه اللعبة».

تمتم إيان يخاطبني: «لن تجعليني أخسر اللعبة أمام ويس، أليس كذلك؟»

«يمكنك أن تهزمهما وحدك».

«لكن هذا سيكون غشاً. لا أستطيع تقبل ذلك».

تنهدت مستسلمة: «لا بأس. لا بأس. فليكن».

احتضنني إيان بحماسة رأت ميلاني أنها زائدة عن الحد اللازم: «أنت أفضل شخص عندي في الكون كله».

تمتمت بصوت جاف: «شكراً».

صاح ويس محاولاً مضايقتنا: «هل أنت مستعدة لتلقّي الإذلال يا جو؟ لعلكم استوليتم على هذا الكوكب، لكنك ستخسرين هذه اللعبة»

ضحك إيان لكنه لم يجبه بشيء. أزعجتني هذه النكتة. كيف يستطيع ويس أن يمزح في هذا الأمر؟ إن البشر يفاجئونني دائماً.

كانت ميلاني في مثل حالتي. كانت في مزاج بائس مثلما كنت، لكنها شعرت بالإثارة على نحو مفاجئ.

قالت موضحة موقفها: «ما كنا قادرتين على اللعب في المرة الماضية». أحسست برغبتها في الجري. في الجري من أجل المتعة لا من أجل الهرب. كانت ميلاني تحب الجري. «لا نستطيع تعجيل عودتهما إذا جلسنا من دون أن نفعل شيئاً. وقد تكون محاولة تلهينا عن

الأمر شيئاً حسناً». لقد بدأت تفكر في استراتيجية اللعب منذ هذه اللحظة. كانت تدرس خصمينا.

سألتني ليلي: «هل تعرفين قواعد اللعبة؟».

أومأت برأسي: «أتذكّرها».

وبذهن شارد، ثنيت ركبتي إلى الخلف ممسكة بقدمي، ورحت أشد قدمي إلى الأعلى من خلف ظهري حتى تسترخي العضلات. كان هذا سلوكاً طبيعياً بالنسبة لجسدي. شددت الساق الأخرى أيضاً. سررت عندما شعرت بأنني وحدة متكاملة. كانت الكدمة في باطن فخذي قد صارت بلون أصفر باهت. كادت تختفي. صار جسمي الآن في وضع جيّد، وهذا ما جعلني أظن أن ضلعي لم يتعرض للكسر في حقيقة الأمر

غدا لون الكدمة على خدي أحمر داكناً. كانت كبيرة بحجم كفي تقريباً، وكانت مبرقعة في عشرات الأماكن عند حوافها. أزعج هذا المنظر ميلاني أكثر مما أزعجني.

قلت لإيان عندما تراجعت ليلي إلى الخلف ووقف ويس عند الكرة: «سوف أتولى المرمى». أعجبت ميلاني بهذا الترتيب. كانت تحب المنافسة.

ما عاد عندي وقت للتفكير منذ لحظة بدء اللعبة. كان ويس يقذف الكرة إلى ليلي ثم يندفع إلى الأمام ملتفاً حولي ليتلقى تمريرتها. ما كان الوقت كافياً إلا للإحساس. ولرُدود الفعل. كنت أرى جسد ليلي يتوتر عندما تقذف الكرة. وكنت أقيس في عقلي المدى الذي ستبلغه هذه الرمية. اعترضت سبيل ويس. اصطدمت به. فوجئ بسرعتي قذفت الكرة إلى إيان وجريت حتى وسط الملعب. كانت ليلي متقدمة كثيراً. لاحقتها حتى مرماها. وسبقتها. سدد إيان الكرة تسديداً محكماً فسجلنا الهدف الأول.

كان إحساسي بهذا جيداً: توتر العضلات وارتخاؤها. عرق الإجهاد. لا عرق الحرارة وحدها. التنسيق المشترك مع إيان. كنا

منسجمَيْن تماماً. كنت سريعة. وكانت تسديداته قاتلة. نضبت عبارات الاستفزاز عند ويس قبل أن يسجل إيان الهدف الثالث.

طلبت ليلي التوقف عندما سجلنا الهدف الحادي والعشرين. كانت تتنفس بصعوبة. أما أنا فكنت مرتاحة. كان شعوري طيباً. كانت عضلاتي حارة. مرتاحة.

أراد ويس أن نلعب جولة أخرى، لكن ليلي رفضت.

«واجه الأمر يا ويس، إنهما أفضل منا».

«لقد خُدعنا».

«لم يقل لك أحد إنها لا تستطيع اللعب».

«ولم يقل لي أحد أيضاً إنها محترفة».

سررت بهذا. جعلني كلامه أبتسم.

قالت ليلي وهي تمد يدها لتداعب بطن ويس على نحو عابث: «عليك ألا تشعر بالانزعاج بسبب الخسارة». أمسك أصابعها وشدها إليه. ضحكت بدورها وحاولت الابتعاد. لكن ويس جذبها نحوه وطبع قبلة قوية على فمها الضاحك.

أما أنا وإيان فتبادلنا نظرة سريعة مذعورة.

قال لها قبل أن يطلقها: «يسعدني أن أخسر اللعبة من أجلك».

ظهر شيء من الاحمرار على رقبة ليلي ووجنتيها بعد أن كان جلدها بلون الكراميل. استرقت نظرة صوبي وصوب إيان لترى ردّ فعلنا.

تابع ويس يقول: «والآن، سوف أذهب لجلب تعزيزات. سنرى ما تستطيع لاعبتك الصغيرة فعله في مواجهة كَايل. يا إيان». قذف الكرة صوب الزاوية المظلمة من الكهف فسمعتها تسقط في الجدول.

جرى إيان حتى يستعيد الكرة. أما أنا فتابعت النظر إلى ليلي متعجبة.

ضحكت ليلي عندما رأت تعبير وجهي. بدا عليها أنها تدرك ما يدور في رأسي فقالت: «أعرف. أعرف».

سألتها: «منذ متى. بدأ هذا؟».

ابتسمت ليلي.

«هذا ليس من شأني. آسفة».

«لا بأس. هذا ليس سراً. كيف يمكن أن يكون أي شيء سراً في هذا المكان؟ لكن الأمر جديد. جديد بالنسبة لي في الحقيقة. الذنب ذنبك أنت نوعاً ما». ابتسمت مع هذه الكلمات حتى أفهم أنها تمازحني.

لكني أحسست بشيء من الذنب. ومن الارتباك: «ماذا فعلت أنا؟».

طمأنتني: «لا شيء. كان ذلك بسبب ردّ فعل ويس. فوجئت بردّ فعله. ما كنت أعرف أن لديه هذا العمق. ما كنت منتبهة إليه أصلاً قبل تلك اللحظة. أوه، إنه يصغرني سناً بكثير، لكن ما أهمية هذا الأمر هنا؟». ضحكت من جديد. «غريب شأن الحياة والحب! ما كنت أتوقع هذا».

قال إيان: «صحيح! غريب كيف تحدث هذه الأمور!». لم أتنبه إلى عودته. وضع إيان ذراعه حول كتفي. «لكن الأمر لطيف أيضاً! ألا تعرفين أن ويس كان مفتوناً بك منذ وصوله إلى هنا؟».

«هكذا قال لي. لكنني لم ألاحظ».

ضحك إيان: «أنت الشخص الوحيد الذي لم يلاحظ ذلك. إذاً، ما رأيك يا جو في أن نلعب ريثما يعودْ ويس؟».

أحسست بحماسة ميلاني دون أن تتكلّم: «لا بأس!».

أعطاني الكرة. تركني أبدأ. وتركني أبلغ منطقة المرمى. مرت تسديدتي الأولى بينه وبين العارضة. سجلت هدفاً. وعندما قذف الكرة جريت سريعاً فاعترضتها. ثم سجلت هدفاً ثانياً.

زمجرت ميلاني: «إنه يتساهل معنا.. يتركنا نفوز عليه».

قلت له: «هيا يا إيان. العب».

«إنني ألعب».

«قولي له إنه يلعب مثل البنات».

قلت له: «أنت تلعب مثل البنات».

ضحك إيان. تمكنت من سرقة الكرة منه مرة ثانية. ما كان هذا الاستفزاز كافياً. خطرت في بالي فكرة. حاولت وضع الكرة في مرماه. خمنت أنها قد تكون المرة الأخيرة التي أفعل فيها هذا الشيء.

احتجت ميلاني: «لا تعجبني هذه الفكرة».

«اراهنك أنها ستنجح».

وضعت الكرة في وسط الملعب وقلت له: «إذا فزت، فسوف أدعك تنام في غرفتي ريثما يعودان». إنني في حاجة إلى التمكن من النوم ليلاً

قال: «أتحداك!». ثم قذف الكرة قذفة شديدة جعلتها تخترق مرماي وتختفي في البعيد مصطدمة بالجدار، غير مرئية، ثم تعود إلينا مرتدة.

سألت ليلي: «هل كانت خارج المرمى؟».

«لا، يبدو لي أنها أصابت الهدف».

قال إيان: «هذا هو الهدف الأول».

استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة حتى فاز إيان، لكنني اضطررت إلى بذل جهد كبير. تمكنت من إحراز هدف آخر. كنت فخورة به. توقفت ألهث طلباً للهواء فسرق الكرة مني وسجل هدفه الأخير.

كان مسروراً: «أترين. لقد فزت».

قلت لاهثة: «لعبة جيدة».

سألني. أحسست بالمبالغة في براءة نبرات صوته. أحسسته مضحكاً: «هل حل بك التعب؟». تمطى ثم قال: «أظن أنني في حاجة إلى النوم». وراح يتصنع التعب على نحو مبالغ فيه.

كشّرت.

«أوه يا ميلاني، تعرفين أنني أمزح. كوني لطيفة».

كانت ليلي تحدق فيه. مستغربة مسحورة.

قال لها إيان غامزاً بعينه: «إن ميلاني، حبيبة جارد، تعترض عليّ».

ارتفع حاجباها دهشة: «هذا... غريب».

تمتم إيان غير مهتم بردّ فعلها: «لا أعرف ما الذي يؤخر ويس كل هذا الوقت! هل نذهب لنرى؟ أحب أن أغسل وجهي أيضاً».

قلت موافقة: «وأنا أيضاً».

لم تتحرك ليلي من مكانها... كانت نصف مستلقية على الأرض. «ذهب ويس ليجلب بعض اللاعبين».

ذهبنا... وعندما صرنا في الممر الضيق وضع إيان ذراعه حول خصري.

قلت له: «أنت تعرف أن ليس من حق ميلاني أن تجعلك تعاني حين تكون غاضبة مني أنا».

«ومتى كان البشر منصفين؟».

«أنت محق».

«كما أن معاناتي تسعدها... إذا سمحت لها بالتسبب في معاناتي».

ضحك إيان.

قال: «لطيف وضع ويس وليلي... ألا تظنين ذلك؟».

«نعم. تظهر عليهما السعادة. يعجبني هذا».

«يعجبني أنا أيضاً. حصل ويس على فتاته أخيراً... هذا يمنحني شيئاً من الأمل». غمز بعينه لي ثم قال: «هل تظنين أن ميلاني يمكن أن تزعجك إذا قبلتك في هذه اللحظة؟».

تجمدتُ لحظة ثم استنشقت نفساً عميقاً. «على الأرجح».

«أوه، طبعاً»

«بكل تأكيد».

تنهد إيان.

سمعنا صوت ويس صائحاً في تلك اللحظة. جاء صوته من نهاية النفق، لكنه كان يقترب مع كل كلمة يقولها.

«لقد عادوا يا جو! لقد عادوا!» أدركت معنى كلامه خلال أقل من

ثانية. ثم اندفعت أجري. ومن خلفي سمعت إيان يدمدم شيئاً عن الجهود الضائعة!

اصطدمت بويس. كدت ألقيه أرضاً. سألته لاهثة: «أين؟».

«في الساحة».

انطلقت أجري من جديد. دخلت كهف الحقل الكبير. كانت عيناي تفتشان منذ اللحظة الأولى. ما كان العثور عليهم صعباً. رأيت جيمي واقفاً في مقدمة المجموعة قرب مدخل النفق الجنوبي.

صاح ملوحاً بيده: «مرحباً يا جو!».

رأيت ترودي ممسكة بذراعه أثناء التفافي حول زاوية الحقل، كما لو أنها تمسكه فتمنعه من الجري لملاقاتي.

أمسكته بكتفيه بكفي الاثنتين وشددته صوبي: «أوه، يا جيمي!».

«هل اشتقت إليّ؟».

«اشتقت إليك قليلاً! أين الجميع؟ هل عاد الجميع؟ هل هم بخير؟».

عدا جيمي، كانت ترودي الشخص الوحيد الموجود هنا من بين الذين ذهبوا إلى الغارة. أما بقية الأشخاص الموجودين هنا في هذا الجمع لوتشينا وروث آن وكَايل وترافيس وفيوليتا وريد. فكانوا يرحبون بهما.

طمأنتني ترودي: «عاد الجميع وهم بخير كلهم».

راحت عيناي تجولان في الكهف الكبير: «أين هم؟».

«آه. إنهم يغتسلون، ويفرغون الحمولة. .».

أردت أن أعرض مساعدتي. أي شيء يمكن أن يأخذني إلى حيث أرى جارد بعيني. أراه سالماً. لكنني عرفت أنهم لن يسمحوا لي برؤية المكان الذي تدخل منه المواد التي أتوا بها.

قلت لجيمي: «أنت في حاجة إلى حمام». مررت أصابعي في شعره القذر المشعث دون أن أفلته من يدي الأخرى.

قالت ترودي: «عليه أن يستلقي الآن».

تمتم جيمي وهو يقذفها بنظرة غاضبة: «ترودي!».

نظرت إليّ ترودي نظرة خاطفة ثم أشاحت بوجهها.

«يستلقي. ؟». نظرت إلى جيمي وتراجعت مبتعدة عنه حتى أراه جيداً. ما كان يبدو متعباً. كانت عيناه متألقتين وكان خداه متوهجين تحت سمرة وجهه. فتشت عيناي جسمه كله ثم توقفتا عند ساقه اليمنى.

رأيت ثقباً في بنطلونه، فوق الركبة بعدة سنتمترات. كان القماش من حول الثقب بنياً محمراً. انتشر ذلك اللون المشؤوم مشكلاً بقعة كبيرة على ساقه.

قالت ميلاني مذعورة: «دم!»

«جيمي! ماذا حدث؟».

«شكراً يا ترودي».

«اهدأ يا جيمي. أتظن أنها لن تلاحظ هذا؟ سوف نتحدث عندما تستلقي».

وضعت ترودي ذراعها تحت ذراعه وساعدته في القفز على ساق واحدة. تحرك ببطء حاملاً وزنه على ساقه اليسرى.

لففته بذراعي من الجهة الأخرى محاولة حمل ما أستطيع حمله من وزنه: «جيمي. أخبرني بما حدث!».

«كان هذا شيئاً غبياً. الذنب ذنبي أنا. كان يمكن أن يحدث هنا»

«أخبرني».

تنهد جيمي: «تعثرت فسقطت. وكنت أحمل سكيناً في يدي»

ارتجفت: «أليس علينا أن نأخذك في الاتجاه الآخر؟ أنت في حاجة إلى رؤية الطبيب».

«إنني آتٍ من عنده الآن. لقد ذهبت إليه أولاً».

«ماذا قال؟».

«قال إنني بخير. لقد نظف الجرح وضمّده وقال لي أن أذهب وأستلقي».

«وهل مشيت كل هذه المسافة؟ لماذا لم تبق في المستشفى؟».

كشر جيمي والتفت صوب ترودي، كأنه يطلب الإجابة منها.

قالت: «سوف يكون جيمي مرتاحاً أكثر في فراشه».

وافقها سريعاً: «نعم. من يريد الاستلقاء هناك على واحد من تلك الأسرّة المزعجة؟».

نظرت إليهما ثم نظرت خلفي. كان الجمع قد تفرق. سمعت أصواتهم تتردد آتية من الممر الجنوبي.

تساءلت ميلاني قلقة: «ما الأمر؟»

خطرت في بالي أن ترودي ما كانت أكثر مهارة مني في الكذب. عندما قالت إن بقية من كانوا في الغارة ذهبوا حتى يغتسلوا ويفرغوا الحمولة. ظهرت نبرة كاذبة في صوتها! تذكرت الآن أن عينيها التفتتا لحظة ناحية اليمين، في اتجاه ذلك النفق.

لحق بنا إيان: «مرحباً يا فتى! مرحباً يا ترودي!».

«مرحباً يا إيان». أجاباه في وقت واحد.

«ما الذي حدث هنا؟».

قال جيمي مطرقاً برأسه: «وقعتُ على سكين».

ضحك إيان.

قلت له بصوت متوتر: «لست أرى الأمر مضحكاً». أما ميلاني، فقد صارت متوترة الآن بسبب قلقها. فتخيلتني أصفعه على وجهه. لكني تجاهلتها!

قال إيان مسدداً لكمة خفيفة إلى ذراع جيمي: «يمكن أن يحدث هذا مع أي شخص».

تمتم جيمي: «صحيح».

«أين الجميع؟».

راقبت ترودي من زاوية عيني عندما بدأت تجيبه.

«إنهم. يجب أن ينتهوا من تفريغ المواد». في هذه المرة أشارت عيناها صوب النفق الجنوبي بحركة واضحة تماماً. تصلبت قسمات إيان. صارت غاضبة. نصف ثانية فقط. عند ذلك التفتت ترودي صوبي من جديد فرأتني أراقبها.

همست ميلاني: «شتتي انتباههما».

أسرعتِ فنظرت إلى جيمي وسألته: «هل أنت جائع؟».

«نعم».

قال إيان يمازحه: «متى لم تكن جائعاً؟» عاد وجهه مرتاحاً. مسترخياً من جديد. إنه مخادع أكثر مهارة من ترودي.

عندما وصلنا إلى غرفتنا، استلقى جيمي على فراشه الكبير.

سألته بصوت مختنق: «هل أنت واثق من أنك بخير؟».

«الأمر بسيط. حقاً. قال الطبيب إنني سأشفى في أيام قليلة».

هززت رأسي، رغم عدم اقتناعي.

تمتمت ترودي وهي تهم بالذهاب: «سوف أذهب لأغتسل».

استند إيان إلى الجدار. إنه لا يريد الذهاب.

قالت ميلاني: «اتركي رأسك مطرقاً إلى الارض عندما تكذبين».

حدقت باهتمام في ساق جيمي الملطخة بالدم: «إيان! هل يمكن أن تجلب لنا بعض الطعام؟ إنني جائعة أيضاً».

قال جيمي: «نعم. أحضر لنا بعض الطعام».

أحسست بعيني إيان مسلطتين في اتجاهي، لكني لم أرفع رأسي.

قال موافقاً: «طيب. سوف أعود سريعاً». أحسست أنه يؤكد على قصر الوقت.

ظل رأسي مطرقاً كما لو أنني أتفحص الجرح. بقيت في هذه الوضعية حتى صار وقع خطواته خافتاً من بعيد.

سألني جيمي: «ألست غاضبة مني؟».

«طبعاً لا».

«أعرف أنك ما كنت راغبة في ذهابي».

«أنت في أمان الآن؛ هذا هو المهم». رحت أربت على ذراعه شاردة الذهن. ثم نهضت على قدمي تاركة شعري. صار الآن طويلاً. يبلغ ذقني. تركته يسقط إلى الأمام ليخبئ وجهي.

«سوف أعود سريعاً. نسيت شيئاً أريد أن أقوله لإيان».

«ماذا؟» هكذا سألني جيمي وقد حيرته نبرة صوتي.

«هل ستكون بخير هنا وحدك؟».

قال وقد تشتت انتباهه: «طبعاً. طبعاً».

خرجت من الغرفة قبل أن يتمكن من طرح أي سؤال عليّ.

كان الممر خاوياً. لم أر إيان. عليّ أن أسرع الآن. أعرف أن إيان قد ارتاب في أمري. لقد لاحظ أنني شككت في تفسير ترودي المصطنع. الأخرق. لن يغيب إيان طويلاً

عندما مررت بالساحة الكبيرة سرت مسرعة، لكن من غير ركض. كأني ذاهبة في مهمة. ما كان في الساحة إلا أشخاص قليلون. رأيت ريد متجهاً صوب الممر المؤدي إلى غرفة الاستحمام. ورأيت روث آن وهيدي متوقفتين عند الممر الشرقي. تتحدثان. ورأيت ويس وليلي متشابكي الأيدي. لم يلق أحد إليّ بالاً مضيت في خط مستقيم كأنني لم أكن متجهة صوب الممر الجنوبي. لم أنعطف لأدخل الممر إلا في الثانية الأخيرة.

عندما صرت في الممر المظلم أسرعت خطواتي. رحت أعدو في هذا النفق المألوف.

أخبرتني غريزتي أن الأمر نفسه يتكرر. أن الأمر الآن ما كان إلا تكراراً لما حدث في المرة الماضية عندما عاد جارد والآخرون من غارتهم وكان الجميع محزونين. عندما ثمل الطبيب وامتنع الجميع عن الإجابة عن أسئلتي. الأمر ذاته حدث من جديد. شيء لا يريدون أن أعرفه.

شيء لا أريد معرفته. كما قال لي إيان. أحسست بوخزات في مؤخرة عنقي. ربما لا أحب معرفة ما يحدث.

«بل تحبين! وأنا أحب أن أعرف أيضاً».

«إنني خائفة».

«وأنا خائفة أيضاً».

رحت أجري في النفق المظلم بأقصى ما أستطيع من سرعة.

## الفصل الأربعون

# رعب

تباطأت قليلاً عندما سمعت أصواتاً. لم أكن قريبة من كهف المستشفى إلى حد يجعلني أسمع صوت الطبيب. كان عدد من الأشخاص عائدين من ذلك الكهف! التصقت بالجدار الصخري وزحفت متقدمة إلى الأمام بأقصى ما استطعت من الهدوء. كانت أنفاسي متقطعة بسبب الجري فسددت فمي بيدي حتى أخفي هذا الصوت.

سمعت صوتاً أنثوياً يقول بصوت متذمر: «. لماذا نواصل فعل هذا الأمر؟».

لم أكن متأكدة من هوية صاحبة الصوت. لم أكن أعرف صاحبته معرفة جيدة. لعلها فيوليتا؟ سمعت في صوتها تلك النبرة المنزعجة التي سمعتها قبل قليل. أزال هذا أي شك عندي في أنني أتخيل وجود شيء غريب.

«إن الطبيب لا يريد هذا أيضاً! لقد كانت فكرة جارد هذه المرة».

كنت واثقة من أن جيفري هو من تحدث هذه المرة رغم أن صوته جاءني مختلفاً قليلاً بفعل الانزعاج الواضح فيه. لقد كان جيفري مع ترودي في تلك الغارة طبعاً! إنهما يفعلان كل شيء معاً.

«ظننت أنه أشد المعارضين لهذا!».

كان هذا صوت ترافيس.. هكذا ظننت.

أجابه جيفري: «إن لديه دافعاً أكبر الآن». كان صوته هادئاً لكنني أحسست فيه غضباً تجاه أمرٍ لم أدركه.

مروا على مسافة شديدة القرب مني فانكمشت ملتصقة بالصخور تجمدت في مكاني حابسة أنفاسي.

تمتمت فيوليتا: «إنني أرى هذا شيئاً مريضاً. مقرفاً. لن ينجح الأمر أبداً».

ساروا ببطء. كان القنوط يثقل خطواتهم.

لم يجبها أحد منهم. لم يتحدث أحد حتى غابوا عن مسمعي ظللت من غير حركة حتى تلاشى وقع أقدامهم، لكني لم أستطع الانتظار حتى يغيب الصوت تماماً. قد يأتي إيان باحثاً عني في أي لحظة.

تسللت متقدمة بأقصى سرعة استطعتها ثم بدأت أجري من جديد عندما قررت أن الوضع صار آمناً.

رأيت أول مسحة من ضوء الشمس تلوح عند المنعطف الذي أمامي حاولت أن أجعل وقع خطواتي أكثر هدوءاً لكني تابعت التحرك سريعاً كنت أعرف أنني سوف أرى مدخل مقر الطبيب عندما ألتف حول ذلك القوس الذي أمامي. بلغت المنعطف فاشتد الضياء قبالتي.

صرت أتحرك حذرةً الآن. كنت أطأ الأرض بانتباه وحرص. كان الهدوء شديداً. تساءلت. لحظة فقط. إن كنت قد أخطأت. ربما لا أجد أحداً هنا. ثم رأيت مدخل المستشفى ملقياً مستطيلاً من ضياء الشمس على الجدار المقابل واستطعت سماع صوت بكاء هادئ.

سرت على أطراف أصابعي حتى وصلت إلى الباب ثم توقفت هناك. ورحت أصغي.

استمر البكاء. سمعت صوتاً آخر، صوت صدمات خفيضاً متوافقاً مع صوت البكاء.

سمعت صوت جيب وقد أثقله اضطرام مشاعره: «هيا، هيا. لا بأس، لا بأس، هوّن عليك أيها الطبيب».

سمعت صوت خطوات مكتوماً. أكثر من شخص. خطوات تتحرك عبر الغرفة. سمعت صوت قماش يتجعد. ثم صوت شيء يمسح

شيئاً آخر. ذكّرني هذا بالأصوات التي تصدر عن عملية التنظيف.

شممت رائحة لا علاقة لها بهذا المكان. رائحة غريبة. ليست رائحة معدنية تماماً، لكنها ليست بعيدة عن ذلك أيضاً. ما كانت رائحة مألوفة. كنت واثقة من أنني لم أشم هذه الرائحة من قبل. لكن، كان لدي شعور غريب بأنني يجب أن أعرفها.

خفتُ أن أتقدم فأتجاوز تلك الزاوية.

قالت ميلاني: «ما أسوأ ما يمكن أن يفعلوه بنا؟ هل يطردوننا من هنا؟».

«أنت محقة».

لقد تغيرت الأمور تغيراً كبيراً إن كان هذا أسوأ ما يمكن أن أخشاه من البشر الآن.

استنشقت نفساً عميقاً فلاحظت تلك الرائحة الغريبة من جديد. وسرتُ متجاوزة الحافة الصخرية. دخلت المستشفى.

لم يلاحظني أحد.

رأيت الطبيب جاثياً على الأرض دافناً وجهه بين يديه. كانت كتفاه تهتزان. ورأيت جيب منحنياً فوقه يربت على ظهره.

رأيت جارد وكَايل يضعان نقالة بدائية إلى جانب أحد الأسرّة في وسط الغرفة. كان وجه جارد قاسياً. . لقد عاد ذلك القناع إليه أثناء غيابه.

ما كانت الأسرّة فارغة كما هو شأنها عادة. رأيت على اثنين منها شيئين ملفوفين ببطانيتين خضراوين داكنتين. كان هذان الشيئان طويلين. غير منتظمي الشكل. لكن زواياهما وانحناءاتهما كانت مألوفة.

رأيت مكتب الطبيب موضوعاً عند رأسي هذين السريرين. كان في أفضل المناطق إضاءة في تلك القاعة. ورأيت مشارط وأدوات طبية قديمة تلمع بلون فضي. ما كنت أعرف أسماء هذه الأدوات.

ورأيت شيئاً فضياً آخر أكثر لمعاناً من أدوات الطبيب. رأيت قطعا متلألئة فضية اللون ملقاة على الطاولة. كانت مجعدة. معذبة. وكانت تنز منها خيوط فضية ضئيلة تسيل متلوية. ثم رأيت بقعاً من ذلك السائل الفضي تلطخ سطح الطاولة، والبطانيات، والجدران.

حطمت صرختي صمت الغرفة. تحطمت الغرفة كلها. فاجأني الصوت. أدارني. لفني ودار حولي مثل زوبعة ما كنت أعرف طريق الخروج منها. ارتفعت تلك الجدران، تلك الجدران الملطخة باللون الفضي فسدت سبل الهروب أمامي. لم أجد منفذاً أينما استدرت.

سمعت شخصاً يصرخ باسمي، لكني لم أعرف صاحبه. كان الصراخ شديداً مرتفعاً. آلم الصراخ رأسي. رأيت السائل الفضي ينز من الجدران الحجرية. رأيت تلك الجدران تنطبق عليّ. سقطت إلى الأرض أمسكت بي أيدٍ ثقيلة.

«ساعدنا يا دكتور!».

«ماذا أصابها؟».

«هل أصابتها نوبة؟».

«ماذا رأت؟».

«لا شيء. لا شيء. إن الجثث مغطاة!».

كان هذا كذباً! كانت تلك الأجساد مكشوفة على نحو مخيف. مقطعة. مشوهة على تلك الطاولة اللامعة. كانت أجساداً معذبة مشوهة.. مقسمة إلى أجزاء صغيرة.

بوضوح شديد رأيت الاستطالات الفضية الدقيقة ما زالت متصلة بقطعة مقطوعة من جسد طفل. طفل لا أكثر! طفل صغير! طفل صغير مقطع إلى أجزاء مشوهة ملقاة على تلك الطاولة الملطخة بدمه.

تقلّبت معدتي. جاشت. تقلّبتْ مع تقلّب الجدران ثم أحسست بشيء حامض الطعم يصعد حتى حنجرتي.

«جو؟ هل تستطيعين سماعي؟».

«هل فقدت وعيها؟».

«أظن أنها على وشك التقيؤ».

كانت العبارة الأخيرة صحيحة. أمسكت أيد قوية برأسي حين فاض ذلك السائل الحامضي فخرج عنيفاً منطلقاً من معدتي.

«ماذا نفعل يا دكتور؟»

«أمسكوا بها. لا تتركوها تؤذي نفسها».

سعلت.. حاولت التملص منهم. صار حلقي خالياً الآن.

تمكنت من النطق أخيراً: «اتركوني!». كانت كلماتي متقطعة.

«ابتعدوا عني! ابتعدوا! أنتم وحوش! قتلة!».

زعقت مجدداً من غير كلمات. تلوى جسدي محاولاً التخلص من الأيدي التي تمسكني.

سمعت صوت جارد: «اهدئي يا جو! اهدئي! لا بأس!». للمرة الأولى. لم أجد أهمية لأن صوت جارد هو الذي يحدثني.

زعقت به: «وحش!».

قال له الطبيب: «إنها في حالة هستيريا. انتظر قليلاً».

أحسست صفعة حادة شديدة على وجهي.

سمعت شهقة آتية من بعيد، من وسط هذه الفوضى.

زمجر إيان: «ماذا تفعل؟».

«لقد استولى عليها شيء ما يا إيان! إن الطبيب يحاول إيقاظها».

طنت أذناي، لكن ذلك لم يكن بفعل الصفعة. كان بفعل الرائحة. رائحة الدم الفضي المتقطر من الجدران. رائحة دم الأرواح. طارت الغرفة بي. تلوت... كما لو أنها حية. تلوى الضوء في أشكال غريبة، صوّر لي أشكال الوحوش التي رأيتها في الماضي كلها. فَرَدَ ضارٍ مفترسٌ جناحيه. وأنشب وحش مخالبه الثقيلة في وجهي.

ابتسم الطبيب واقتربت يداه مني. كان الدم الفضي يقطر من أطراف أصابعه.

دارت الغرفة مرة أخرى. . دارت بطيئة. . ثم ساد الظلام.

*

لم أغب عن الوعي فترة طويلة. لا بد أنني صحوت بعد ثوانٍ قليلة. صفا رأسي. عاد كل شيء واضحاً أمامي. ليتني أستطيع البقاء فاقدة الوعي!

كان كل شيء يتحرك. يتأرجح جيئة وذهاباً. كان الظلام شديداً يمنعني من الرؤية. لكن الرائحة الفظيعة خفّت. أحسست برائحة الكهوف الرطبة الثقيلة لطيفة كأنها عطر من العطور.

كان إحساسي بأن شخصاً يحملني. يحضنني بين ذراعيه. إحساساً مألوفاً. لقد انتقلت مسافات طويلة بين ذراعي إيان بعد ذلك الأسبوع الذي شهد محاولة كَايل قتلي.

سمعت جارد متمتماً: «. الظاهر أنها أدركت ما نفعله. يبدو أنني كنت مخطئاً!».

قاطعه صوت إيان القاسي في ذلك الممر الهادئ: «أتظن هذا ما حدث؟ أتظن الرعب أصابها لأن الطبيب كان يحاول استخراج أرواح أخرى؟ أتظن أنها خافت على نفسها؟».

مرت دقيقة قبل أن يجيبه جارد: «ألا تظن هذا؟».

صدر صوت غريب من أعماق حنجرة إيان: «لا لست أظن هذا إنني في غاية الاشمئزاز لأنكَ جلبت مزيداً من. . . الضحايا من أجل الطبيب. لأنك جلبتهم الآن!. صحيح أن هذا يثير تقززي، لكنه ليس بالشيء الذي أفزعها. كيف تستطيع أن تكون أعمى إلى هذه الدرجة؟ ألا يمكنك أن تتخيل كيف بدا لها المشهد هناك؟».

«أعرف أننا غطينا تلك الجثث قبل. .».

«لم نغط الجثث التي كان علينا أن نغطيها يا جارد. أوه، أعرف أن منظر الجثث البشرية سيكون مخيفاً بالنسبة لجو. . إنها شديدة الرقة؛ ليس العنف والموت جزءاً من عالمها الطبيعي. لكن، فكر في ما يمكن أن

تعنيه لها تلك الأشياء التي رأتها على الطاولة».

مضت لحظة قبل أن يستوعب جارد كلام إيان: «أوه».

«نعم. تخيل أنك أو أنني دخلت مختبراً تجري فيه تجارب على البشر ورأيت أشلاء بشرية. رأيت دماً بشرياً منتشراً في الغرفة كلها. لن يكون الأمر في مثل قسوة ما شاهدته جو. لقد رأينا من قبل أشياء كهذه. رأيناها حتى قبل أن يحدث الغزو. رأيناها في أفلام الرعب على أقل تقدير. لكنني واثق من أنها لم تشاهد أي شيء من هذا في أي حياة عاشتها».

بدأ الدوار يعاودني من جديد. أعادت كلماته المشهد كله إلى رأسي. عاد المشهد. وعادت الرائحة!

همست: «دعني. أنزلني».

«آسف. لم أقصد إيقاظك». جاءت كلماته محمومة، معتذرة عما يتجاوز إيقاظي.

«دعني».

«أنت لست على ما يرام. سوف آخذك إلى غرفتك».

«لا أنزلني إلى الأرض».

«جو. .».

صحت: «أنزلني الآن!». دفعت صدره بيدي حتى أبتعد عنه ورفست برجليّ فحررتهما في الوقت ذاته. فاجأته ضراوة مقاومتي. ما عاد قادراً على الإمساك بي فسقطت جاثية على الأرض.

نهضت واثبة وبدأت أجري.

«جو!».

«دعها تذهب».

«لا تلمسني! عودي يا جو!».

أوحى لي صوته بأنهما يتعاركان خلفي، لكنني لم أبطئ. إنهما يتقاتلان طبعاً إنهما بشريان. والعنف متعة في نظرهما.

لم أتوقف عندما صرت تحت الضوء من جديد. اندفعت عبر الكهف الكبير من دون أن أنظر إلى أي واحد من الوحوش الموجودة فيه أحسست أعينهم تنظر إليّ لكنني لم أكن لأبالي بها.

لم أكن أبالي بوجهتي أيضاً. لا أريد إلا مكاناً أستطيع البقاء فيه وحدي. تجنبت الأنفاق التي رأيت بشراً واقفين عند مداخلها واندفعت أجري في أول نفق خال عثرت عليه.

إنه النفق الشرقي. هذه هي المرة الثانية التي أندفع فيها عبر هذا النفق اليوم. كنت فرحة في المرة الماضية. وكنت مذعورة في هذه المرة. كان صعباً عليّ تذكر شعوري بعد الظهر. عندما عرفت أن عناصر الغارة قد عادوا. صار كل شيء مظلماً ومرعباً الآن، بما في ذلك عودتهم. بدت الحجارة والصخور من حولي آثمة شريرة أيضاً.

لكن هذا الممر هو الاختيار الصحيح الآن. لن يخطر في بال أحد أن يأتي إلى هنا. ثم إنه خاو أيضاً.

تابعت الجري إلى آخر نقطة في النفق، حتى وصلت إلى ظلمة قاعة اللعب الفارغة. هل استطعت حقاً أن ألعب الكرة معهم منذ هذا الوقت القصير فقط؟ هل صدقت تلك الابتسامات على وجوههم؟ ألم أستطع رؤية الوحوش الكامنة خلفها. .؟

تابعت تقدمي حتى تعثرت عندما غطست قدمي حتى الكاحل في مياه الجدول المظلم. تراجعت وقد مددت يدي مفتشة عن الجدار. وعندما وجدت حافة صخرية. نتوءاً حاداً تحت أصابعي. دسست نفسي في التجويف تحت ذلك النتوء. جمعت جسمي في كرة مشدودة فوق الأرض هناك.

«لم يكن الامر كما تصورنا. لم يكن الطبيب يحاول إيذاء احد عن قصد؛ لقد كان يحاول إنقاذ...».

صرخت: «اخرجي من رأسي الآن!».

عندما دفعتها بعيداً عني الآن. عندما خنقت صوتها حتى لا أعود

مضطرة إلى سماع تبريراتها. أدركت مدى ما أصابها من ضعف بعد هذه الأشهر كلها من الصداقة. أدركت كم كنت أتيح مجالاً لها. كم كنت أشجعها.

كان إسكاتها في غاية السهولة الآن. إنه سهل كما ينبغي له أن يكون منذ البداية.

صرت وحدي الآن. وحدي مع الألم والرعب اللذين لن أفلح في الفرار منهما أبداً. لن أفلح أبداً في التخلص من هذه الصورة في رأسي. لن أتحرر منها. صارت جزءاً أبدياً مني.

لا أعرف كيف يكون الحداد هنا! لا أستطيع الحداد وفق أسلوب البشر من أجل تلك الأرواح المهدورة التي ما كنت أعرف أسماءها. من أجل الطفل المقطع على الطاولة.

لم أكن في حاجة إلى الحداد عندما كنت في كوكب أوريجين. ما كنت أعرف كيف يكون الحداد هناك. في موطن أبناء جنسي الحقيقي. لذلك. قررت الحداد على طريقة الخفافيش. بدا لي هذا ملائماً لأن الظلام هنا يحاكي عمى الخفافيش. كان الصمت هو حدادها. كانت تمتنع عن الغناء أسابيع طويلة حتى يصبح ألم هذا الخواء الباقي بعد غياب الموسيقى أكثر عذاباً من التألم على الروح التي غابت. لقد عرفت الفقد هناك. قتل أحد أصدقائي في حادث تافه. سقطت عليه شجرة أثناء الليل. وجدوا أن الوقت قد تأخر كثيراً على إنقاذه. على إخراجه من الجسد المضيف. كان اسمه. شيئاً بمعنى. تناغم يدور إلى الأعلى. تلك هي الكلمات التي تعبر عن اسمه بلغة البشر. ليس هذا دقيقاً، لكنه أقرب ما أستطيعه! ما كان في موته رعب. كان فيه حزن فحسب. كان حادثاً!

كان خرير الجدول القريب مني شديد البعد عن أغانينا في تلك الأيام. وكنت قادرة على الصمت حداداً رغم خريره المتسق.

شددت ذراعيّ مطوقة كتفيّ على نحو محكم وبدأت الحداد على

الطفل وعلى الأرواح الأخرى التي ماتت معه. إنهم أقاربي. أسرتي لو تمكنت من العثور على طريق الإفلات من هذا المكان. لو تمكنت من إخطار الباحثين لما كانت أشلاؤهم الآن مبعثرة على تلك الصورة المخيفة في الغرفة المخضّبة بدمائهم.

وددت لو أبكي. أن أغرق في بؤسي. لكنها طريقة البشر في الحداد! لذلك أطبقت شفتيّ وانطويت في تلك الظلمة حابسة ألمي في داخلي.

لكن صمتي، وحدادي، سُرقا مني.

اقتضى الأمر عدة ساعات. ثم سمعتهم يبحثون عني. سمعت أصداء أصواتهم تتردد عبر تلك السراديب الطويلة. كانوا ينادون اسمي منتظرين إجابة مني. وعندما يئسوا من الإجابة. أحضروا المصابيح. لم يحضروا تلك المصابيح الزرقاء شحيحة الضوء التي لا تستطيع كشف مكان وجودي هنا مدفونة تحت هذا الظلام كله، بل أحضروا المصابيح الكاشفة ذات الضوء الأصفر الحاد. راحوا جيئة وذهاباً يمسحون الأماكن كلها بذلك الضوء. لكن، حتى في وجود الأضواء الكاشفة. لم يعثروا عليّ إلا عندما فتشوا الغرفة في المرة الثالثة. لماذا لا يستطيعون تركي وحيدة هنا؟

عندما اكتشفني ذلك الضوء الباحث أخيراً صدرت عن حامله زفرة ارتياح.

«وجدتها! قولوا للآخرين أن يعودوا إلى الداخل. إنها هنا!».

عرفت صوته، لكني لم أضع له اسماً. إنه وحش من هذه الوحوش

«جو! جو! هل أنت بخير؟».

لم أرفع رأسي ولم أفتح عيني. كنت في حالة حداد.

«أين إيان؟».

«هل نستدعي جيمي. هل تظن أننا يجب أن نأتي بجيمي؟».

«لا يجوز أن يأتي لأن ساقه مصابة».

جيمي. ارتعدت عندما سمعت اسمه. إنه جيمي. إنه وحش أيضاً. إنه واحد منهم. مثلهم. إنه جيمي. كان التفكير فيه مؤلماً. مؤلماً حتى بالمعنى الجسدي.

«أين هي؟».

«هناك يا جارد. إنها لا تجيب».

«لم نلمسها».

قال جارد: «هات. أعطني المصباح. والآن، اذهبوا كلكم. انتهت حالة الطوارئ. دعوها تتنفس».

سمعت صوت أقدام تتحرك، لكن الأقدام لم تذهب بعيداً.

«إنني أتكلم جاداً يا ناس. وجودكم هنا لا يساعدني. اذهبوا. اذهبوا جميعاً واخرجوا من هنا تماماً».

كان صوت الأقدام بطيئاً أول الأمر، لكنه صار أكثر سرعة. سمعت أصوات أقدام كثيرة تتلاشى عند آخر الغرفة ثم تختفي خارجها.

انتظر جارد حتى ساد الصمت من جديد.

«لا بأس يا جو، لم يبق هنا إلا أنت وأنا».

راح ينتظر إجابة مني. أي إجابة.

«اسمعي، أعرف أن الأمر كان. سيئاً جداً. ما كنا نريد أن تري ذلك أبداً. إنني آسف».

آسف؟ هل هو آسف؟ لقد قال جيفري إن الفكرة فكرة جارد. لقد أراد أن يقتلعني. أن يشرّحني إلى قطع صغيرة. أن يلطخ الجدران بدمي. كان مستعداً لتقطيعي إلى مليون جزء لو استطاع العثور على طريقة للإبقاء على حياة الوحش الذي يحبه من دوني. إنه مستعد لتشريحنا جميعاً إلى أجزاء صغيرة في سبيل ذلك الهدف.

ظل جارد هادئاً زمناً طويلاً. مازال ينتظر حركة مني.

«يبدو أنك تريدين البقاء وحيدة. لا بأس في ذلك. أستطيع أن أبقيهم بعيدين عنك إن كان هذا ما تريدين».

لم أتحرك.

أحسست شيئاً يلمس كتفي فانكمشت مبتعدة عنه ملتصقة بالصخور الحادة.

قال متمتماً: «آسف».

سمعته ينهض واقفاً ثم أحسست بالضوء. الضوء الأحمر عبر أجفاني المغمضة. يخفت مبتعداً مع ابتعاد جارد عني.

صادف جارد شخصاً عند مدخل الكهف.

«أين هي؟».

«إنها تريد البقاء وحيدة. دعها هناك وحدها».

«لا تقف في طريقي من جديد. هل فهمت؟».

«هل تظن أنها تريد مواساة منك؟ من كائن بشري؟».

«أنا لم أكن جزءاً مما تفعلون. . .».

أجابه جارد بصوت خفيض، لكنني كنت قادرة على سماع أصدائه «ليس في هذه المرة. أنت واحد منا يا إيان. أنت واحد من أعدائها. هل سمعت ما قالته هناك؟ كانت تصرخ قائلة «وحوش». هكذا ترانا الآن. إنها لا تريد مواساة منك».

«أعطني المصباح».

لم يتكلما بعد ذلك. مرت دقيقة ثم سمعت صوت خطوات شخص واحد تقترب عند زاوية الغرفة. أخيراً، استقر الضوء على جسدي. صار أحمر اللون خلف أجفاني من جديد.

شددت ذراعي على جسمي أشد من ذي قبل. توقعت أن يلمسني.

سمعت زفرة هادئة ثم سمعت صوت جلوسه على الأرض. ما كان شديد القرب مني كما توقعت.

سمعت صوت تكة ثم اختفى الضوء.

انتظرت زمناً طويلاً في ذلك الصمت. انتظرت أن يتكلم، لكنه ظل صامتاً مثلي.

أخيراً، توقفت عن الانتظار وعدت إلى حدادي. لم يقاطعني إيان. جلست في ظلمة الكهف الكبير. جلست على الأرض. استمر حدادي على تلك الأرواح الضائعة. وكان بشريٌّ جالساً إلى جانبي.

## الفصل الحادي والأربعون

# اختفاء

جلس إيان معي ثلاثة أيام في تلك الظلمة.

ما كان يغادرني إلا دقائق قليلة كل مرة حتى يحضر لنا طعاماً. كان إيان يأكل أول الأمر، أما أنا فلا. ثم، عندما أدرك أن امتناعي عن الطعام ما كان بسبب ضعف في شهيتي، توقف هو عن الأكل أيضاً.

كنت أستخدم لحظات غيابه القصيرة للتعامل مع حاجاتي الجسدية التي كان تجاهلها مستحيلاً. كان هذا ممكناً بفضل القرب الشديد للجدول ذي الرائحة الكريهة. ومع استمرار صيامي، تلاشت هذه الحاجات.

ما كنت قادرة على الامتناع عن النوم، لكني لم أكن أريح جسدي استيقظت في اليوم الأول فوجدت رأسي وكتفي في حضن إيان. ابتعدت عنه مرتعدة بعنف جعله يمتنع عن تكرار هذه البادرة. بعد ذلك صرت أنام على الصخور. حيث أنا. وعندما أستيقظ، كنت أعاود التكور على نفسي صامتة.

في اليوم الثالث. أظن أنه اليوم الثالث. ما من سبيل للتأكد من سرعة مرور الزمن في هذا المكان الصامت المظلم. همس إيان «أرجوك». كانت هذه أول كلمة يقولها.

كنت أعرف أن أمامي صينية من الطعام. دفع الصينية فقربها مني حتى لمست ساقي. ابتعدت عنها.

«أرجوك يا جو. أرجوك. كلي شيئاً».

وضع يده على ذراعي لكنه أبعدها سريعاً عندما انكمشت مبتعدة عنها.

«أرجوك لا تكرهيني. إنني آسف كثيراً. لو كنت أعرف. لأوقفتهم. لن أسمح لهذا بأن يحدث مرة أخرى».

لن يوقفهم. إنه ليس إلا واحداً من مجموعة كبيرة. ثم، كما قال جارد، ما كان لديه اعتراض على الأمر من قبل. أنا هو العدو. حتى تلك المساحة الصغيرة الضيقة من العطف كانت مقتصرة على بني البشر وحدهم.

كنت أعرف أن الطبيب لن يقدم عامداً على إلحاق الألم بأي شخص. كنت أشك حتى في قدرته على النظر إلى هذه الأشياء، فهو رقيق الشعور حقاً. لكن، ماذا عن إلحاق الأذى بدودة. بحشرة؟ لماذا يعاني بسبب عذاب مخلوق غريب؟ لماذا يزعجه أن يقتل طفلاً قتلاً بطيئاً. أن يقطعه إرباً إرباً. إن لم يكن لذلك الطفل فم بشري حتى يصرخ متألماً؟

همس إيان: «كان يجب أن أخبرك».

هل من أهمية للأمر حقاً. هل من أهمية لأن يخبرني بدلاً أن أرى تلك البقايا المعذبة بنفسي؟ هل يكون الألم أقل حدة عند ذلك؟

«أرجوك، كلي».

عاد الصمت. جلسنا حيناً من الزمن. لعلها ساعة.

نهض إيان ثم سار مبتعداً عني بخطى بطيئة.

ما كنت قادرة على تمييز مشاعري. في تلك اللحظة كرهت الجسد الذي يقيّدني. ما معنى أن يحزنني ابتعاد إيان عني؟ لماذا يؤلمني أن أحظى بالوحدة التي أتوق إليها؟ أردت أن يعود الوحش. هذا شيء خاطئ، بكل وضوح.

لم أبق وحدي زمناً طويلاً لست أدري إن كان إيان قد ذهب حتى

يحضره أو أنه كان ينتظر رحيل إيان. لكني عرفت صفير جيب المتأمل فور اقترابه من ظلمتي.

توقف الصفير على مسافة أقدام مني ثم سمعت صوت قرقعة مرتفع أحرق عينيّ شعاع ضوئي أصفر رفرفت بجفني في مواجهة ذلك الضوء

وضع جيب المصباح الكاشف أرضاً. أوقفه على عقبه. ألقى المصباح دائرة من الضوء على السقف المنخفض وصنع من حولها حيراً واسعاً من الضوء المشتت.

جلس جيب مستنداً إلى الجدار. إلى جانبي.

«أنت تجوِّعين نفسك إذاً؟ هل هذه هي خطتك؟».

رحت أحدق في الأرض الصخرية.

كنت أعرف أن حدادي قد انتهى. إن كنت صادقة مع نفسي. لقد حزنت وحددت كما ينبغي. لم أكن أعرف ذلك الطفل ولا الروح الأخرى التي شاهدتها مقتولة في كهف الرعب. لا أستطيع الحداد على أشخاص غرباء إلى الأبد. لا! إنني غاضبة الآن.

«أتريدين الموت؟ أتريدين الموت؟ ثمة طريق أكثر سهولة وسرعة».

كأنني لا أعرف ذلك!

قلت بصعوبة: «إذاً، قدمني إلى الطبيب».

لم يفاجأ جيب بسماع صوتي. هز رأسه لنفسه كأنه سمع مني ما كان يتوقع سماعه تماماً.

«هل تتوقعين منا أن نستسلم أيتها الجوالة؟». كان صوت جيب رصيناً. كان أكثر جدية من أي وقت مضى. «إن غريزة البقاء لديا أقوى من ذلك. ونحن نريد طبعاً أن نجد طريقة نستعيد بها عقولنا. يمكن أن تكون الضحية أي شخص منا. في أي يوم. ضاع أشخاص كثيرون نحبّهم. ليس الأمر على تلك الدرجة من السهولة. يكاد الطبيب يموت كلما فشل. لقد رأيت ذلك. لكن هذا واقعنا يا جو. هذا هو عالمنا!

لقد خسرنا الحرب. ونحن الآن على وشك الانقراض. إننا نحاول العثور على طريقة لإنقاذ أنفسنا».

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها جيب يحدثني كما لو أنني روح. لا بشرية. كان لدي دائماً إحساس بأن هذا الفارق واضح في ذهنه. لكنه كان وحشاً لبقاً.

ما كنت أستطيع إنكار الحقيقة في كلامه. ما كنت أستطيع إنكار المنطق. لقد زال أثر الصدمة. عدت أنا نفسي من جديد. إن من طبيعتي نفسها أن أكون منصفة.

يستطيع قليلون بين هؤلاء البشر أن يروا الأمور من وجهة نظري. إيان يستطيع ذلك على الأقل. لكنني، أنا أيضاً، أستطيع أن أفكر في الأمر من منظورهم. إنهم وحوش، لكن. لعل ثمة تبرير لما يقومون به.

من الطبيعي أن يروا في العنف حلاً. لن يستطيعوا تخيل أي حل آخر. هل أستطيع لومهم لأن برمجتهم الجينية تضع هذه الحدود الضيقة على قدرة حل المشكلات لديهم؟

تنحنحت، لكن صوتي ما زال جافاً بسبب قلة الاستخدام: «إن قتل الأطفال لا ينقذ أحداً يا جيب. لقد ماتوا كلهم».

ظل جيب هادئاً عدة لحظات: «نحن لا نستطيع التميز بين صغيركم وكبيركم».

«أعرف أنكم لا تستطيعون».

«كما أن بني جنسكم لم يوفروا أطفالنا أيضاً».

«لكننا لا نعذبهم. نحن لا نتعمد إيلام أحد».

«لكنكم تفعلون ما هو أسوأ من ذلك. إنكم تمحون ضحاياكم محواً».

«أما أنتم فتقومون بالأمرين معاً».

«نعم، نحن نفعل هذا. لأن علينا أن نحاول. علينا أن نستمر في المقاومة. هذه هي الطريقة الوحيدة التي نعرفها. إما أن نستمر في

المحاولة أو أن ندير وجوهنا إلى الجدار ونموت». نظر إليّ رافعاً أحد حاجبيه.

الظاهر أن هذا ما كنت أفعله أنا أيضاً.

تنهدت ثم أخذت زجاجة الماء التي تركها إيان قرب قدمي. أفرغتها في جوفي دفعة واحدة ثم سعلت وتنحنحت من جديد.

«لن ينجح هذا أبداً يا جيب. يمكنكم أن تستمروا في تقطيعنا قطعاً صغيرة، لكنكم لن تفعلوا إلا قتل المزيد والمزيد من الكائنات. من الجنسين معاً. نحن لا نقتل أحداً عن عمد، لكن أجسامنا ليست ضعيفة أيضاً. قد تبدو استطالاتنا وأهدابنا أشبه بشعر ناعم فضي اللون، لكنها أقوى من أعضاء أجسامكم. هذا ما تراه يحدث، أليس كذلك؟ لقد قام الطبيب بتقطيع أجسام أقاربي، لكن أهدابهم ظلت معلقة في أدمغتكم».

قال متفقاً معي: «إنها ممسكة بالأدمغة إمساكاً وثيقاً».

تابع يقول: «إنه أمر مفزع. إن الطبيب يعاني معاناة كبيرة بسبب ذلك. كلما ظن أنه توصل إلى حل ساءت الأمور من جديد. لقد حاول كل أمر خطر في باله، لكنه لم يستطع إنقاذهم من الموت. إن الأرواح لا تستجيب للحقن المخدرة. ولا للسموم».

الآن، خرج صوتي جافاً مرة أخرى بسبب هذا الرعب الجديد: «هذا طبيعي. إن تركيبنا الكيميائي مختلف تماماً».

«ذات مرة، يبدو أن روحاً أحست بما يجري. وقبل أن يستطيع الطبيب إفقاد الجسد البشري وعيه، قام ذلك الكائن الفضي بتمزيق دماغه من الداخل. لم نعرف ذلك حتى فتح الطبيب جمجمته. لقد انهار تماماً عندما رأى ذلك المشهد».

فوجئت تماماً. تأثرت على نحو غريب. لا بد أن تلك الروح كانت فائقة الشجاعة. ما كانت لدي شجاعة تكفيني لاتخاذ قرار من هذا النوع. حتى في البداية عندما كنت واثقة من أنهم في سبيلهم إلى تعذيبي من أجل انتزاع تلك المعلومات مني. لم أتخيل أبداً أنهم يمكن أن

يحاولوا تقطيعي من أجل الحصول على الإجابة بأنفسهم. إنه أسلوب محكوم بالفشل. محكوم بالفشل على نحو واضح تماماً. لم يخطر هذا في بالي أبداً.

«جيب، إننا مخلوقات صغيرة الحجم نسبياً. ونحن معتمدون اعتماداً كاملاً على أجساد مضيفينا غير المرحبة بنا. وما كان لنا أن نستمر طوال هذه الفترة لو لم تكن لدينا دفاعاتنا».

«لست أنكر أن من حق جنسكم أن يملك هذه الدفاعات. لكنني أقول لك إننا عازمون على الاستمرار في القتال. كيفما استطعنا. نحن لا نريد إيذاء أحد أو إيلام أحد. لكن مقاومتنا تؤلمكم. ونحن عازمون على الاستمرار في القتال».

رحنا نتبادل النظرات.

«إذاً، ربما كان عليك أن تجعل الطبيب يقطعني. ما فائدتي لكم غير ذلك؟».

«اسمعي الآن. لا تكوني سخيفة يا جو. نحن البشر لسنا منطقيين إلى هذه الدرجة. إن مجال الخير والشر لدينا أوسع مما هو لديكم. لا بأس، دعيني أقول إن مجال الشر لدينا أوسع مما هو لديكم».

أومأت برأسي موافقة. لكنه تجاهلني وتابع كلامه.

«إننا نحترم الفرد كثيراً. ولعلنا نبالغ في ذلك أحياناً. تصوري. تصوري كم من الناس. إذا فكرنا على نحو مجرد. تصوري. فلنقل إنها بيج. تصوري كم من الأشخاص يمكن أن تضحي بيج بهم حتى تحافظ على حياة آندي؟ لا معنى لهذا الأمر إذا كنا نعتبر جميع البشر متساوين! خذي طريقة احترامنا لك هنا. إنها عديمة المعنى إذا نظرنا إلى الأمر من منظور بشري أيضاً. لكن ثمة أشخاصاً هنا يمكن أن تكوني في نظرهم أهم من أي بشري غريب عنهم. وعليّ أن أعترف أنني واحد من هؤلاء. إنني أعتبرك صديقتي يا جو. لكن هذا لن ينجح طبعاً إذا كنت تكرهينني».

«لست أكرهك يا جيب. لكن. . .».

«ماذا؟».

«لكني لا أستطيع أن أرى كيف يمكنني الاستمرار في حياتي هنا. لا أستطيع الاستمرار في هذه الحياة وأنتم تواصلون تقطيع أقربائي في الغرفة الأخرى. كما أنني لا أستطيع المغادرة أيضاً. هذا واضح. إذاً هل تفهم قصدي؟ ما الذي يبقى أمامي إلا أن يستخدمني الطبيب في محاولاته اليائسة؟». قلت هذا وارتجفت.

أطرق برأسه جاداً وقال: «هذه فكرة وجيهة. ليس من المنصف أن أطالبك بالعيش وتحمّل ذلك».

أحسست معدتي تسقط إلى الأسفل: «إن كان لدي الخيار فأنا أفضل أن تطلق عليّ النار».

ضحك جيب: «مهلك هنا. مهلك يا عزيزتي. لن يطلق أحد النار عليك، ولن يقطعك أحد. أعرف أنك لست كاذبة يا جو. إن كنت تقولين إن ما نحاوله عقيم فسوف نعيد النظر في الأمر. سوف أخبر الشباب أن يتوقفوا عن جلب أي أرواح جديدة. كما أنني أرى أعصاب طبيبنا قد تلفت تماماً. إنه لا يستطيع الاستمرار في هذا أيضاً»

قلت أذكّره: «لكنك يمكن أن تكون كاذباً الآن. والأرجح أنني غير قادرة على اكتشاف كذبك».

«عليك أن تثقي بي إذاً. عليك أن تثقي بي لأنني لن أطلق عليك النار. ولن أسمح لك بتجويع نفسك حتى الموت أيضاً. كلي شيئاً يا طفلتي. هذا أمر».

أخذت نفساً عميقاً، محاوِلةً التفكير ما كنت واثقة من أننا قد توصلنا إلى اتفاق فعلاً. لا معنى لأي شيء في هذا الجسد. إنني أحب الناس هنا حباً كبيراً. إنهم أصدقائي. إنهم أصدقاء وحوش لا أستطيع رؤيتهم على نحو صحيح عندما أغرق في مشاعري.

التقط جيب قطعة من الخبز مغموسة بعسل مسروق ودفعها في يدي.

التصق ذلك الفتات اللزج بأصابعي. تشبث بها تنهدت من جديد وبدأت أنظف أصابعي بلساني.

«هذه هي فتاتي! سوف نتجاوز هذا الوقت العصيب. وسوف تتحسن الأمور هنا. سوف ترين. حاولي التفكير على نحو إيجابي».

«التفكير على نحو إيجابي». غمغمت بهذه الكلمات. كان فمي ممتلئاً بالطعام. رحت أهز رأسي غير مصدقة. وحده جيب.

عند ذلك عاد إيان. وعندما دخل دائرة الضوء رأى الطعام في يدي فارتسم على وجهه تعبير جعلني أشعر بالذنب. كان ذلك تعبير فرح وارتياح عارمين.

لا صحيح أنني لم أسبب لأحد ألماً جسدياً من قبل، لكنني سببت لإيان ألماً عميقاً من خلال محاولتي إيذاء نفسي. إن حياة البشر متداخلة على نحو غير معقول. يا للفوضى!

قال إيان بصوت خفيض مخنوق وهو يجلس قبالتنا. أقرب إلى جيب بعض الشيء: «ها أنت يا جيب. لقد توقع جارد أن تكون هنا».

جرجرت نفسي مقتربة منه قليلاً. آلمتني ذراعاي، فقد تيبستا بسبب انعدام الحركة طوال ذلك الوقت. وضعت يدي على يده وهمست: «آسفة».

قلب يده حتى يمسك بيدي: «لا تعتذري مني».

«كان يجب أن أعرف. جيب على حق! طبيعي أن تقاوموا وأن تقاتلوا. كيف أستطيع لومكم على هذا؟».

«لكن الأمر مختلف عندما تكونين هنا. كان يجب إن يتوقف».

لكن وجودي هنا هو ما جعل العثور على الحل ضرورة أكثر إلحاحاً. كيف يمكن اقتلاعي مع المحافظة على بقاء ميلاني هنا؟ كيف السبيل إلى إزالتي وإعادتها؟

تمتمت محاولة الابتسام: «كل الأشياء عادلة في الحرب».

ابتسم ابتسامة ضعيفة: «وفي الحب أيضاً. لقد نسيت ذلك الجزء».

غمغم جيب: «طيب، كفا عن هذا. لم أنته من كلامي بعد».

نظرت إليه مستغربة. ماذا يريد أن يقول أيضاً؟

«والآن». استنشق جيب نفساً عميقاً. «حاولي ألا تخافي مرة جديدة. اتفقنا؟». هكذا سألني وهو ينظر إليّ.

تجمدت في مكاني. شددت على يد إيان.

نظر إيان إليه قلقاً.

سأله: «هل تنوي إخبارها؟».

شهقت وقلت: «ماذا الآن؟ ماذا لديكم أيضاً؟».

لكن وجه جيب كان عصياً على التفسير من جديد: «إنه جيمي».

قلبت هاتان الكلمتان عالمي كله رأساً على عقب.

خلال الأيام الثلاثة الأخيرة كنت جوالة فحسب. كنت روحاً بين بني البشر. أما الآن فقد عدت جو من جديد. عدت روحاً حائرة. ضائعة تحت وقع المشاعر البشرية. مشاعر أقوى من أن أستطيع السيطرة عليها!

قفزت واقفة على قدمي جارة إيان معي. كانت يدي مطبقة على يده إطباقاً محكماً. ثم تمايلت في مكاني. دار رأسي.

«ششش. قلت لك ألا تخافي يا جو. جيمي بخير. لكنه قلق عليك كثيراً. لقد سمع بما حدث. وهو يسأل عنك. لقد ذهب القلق بعقله. ذلك الفتى. ولست أظن أن هذا جيد بالنسبة له. لقد أتيت إلى هنا حتى أطلب منك الذهاب لرؤيته. لكنك لا تستطيعين الذهاب بهذا الشكل. يبدو منظرك مرعباً. سوف يزعجه هذا ويحزنه من غير سبب اجلسي وكلي مزيداً من الطعام».

سألته: «كيف صارت رجله؟».

تمتم إيان: «فيها شيء من الالتهاب. لقد أمره الطبيب بالبقاء مستلقياً وإلا لجاء إلى هنا باحثاً عنك منذ زمن بعيد. لو لم يكن جارد يمسكه. يثبته في فراشه. بالمعنى الحرفي. لجاء إليك رغم أمر الطبيب».

قال جيب: «كاد جارد يأتي إلى هنا ليحملك بالقوة، لكني طلبت منه أن يدعني أتحدث إليك أولاً. لن يستفيد الصبي شيئاً إذا رآك في هذه الحالة».

أحسست أن جسدي صار مثل الثلج. لا بد أن هذا من فعل مخيلتي وحدها.

«وماذا تفعلون من أجله؟».

رفع جيب كتفيه: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً. إنه قوي البنية، وسوف يتغلب على المرض».

«لا تستطيعون فعل شيء! ما معنى ذلك؟».

قال إيان: «إنها عدوى بكتيرية. لم يعد لدينا مضادات حيوية».

«هذا لأنها غير نافعة. إن البكتيريا أكثر ذكاء من أدويتكم. يجب أن يكون لديكم شيء أفضل، شيء آخر».

قال جيب: «ليس لدينا شيء آخر! إنه قوي البنية. لا بد أن نترك الأمر يأخذ مجراه».

كررت كلمات جيب مذهولة: «يأخذ. مجراه».

قال إيان يستحثني: «كلي شيئاً. سوف تسببين له القلق إذا رآك على هذا الشكل».

فركت عيني محاولة أن أفكر على نحو واضح.

إن جيمي مريض. لا شيء هنا من أجل مداواته. لا خيار أمامهم إلا الانتظار لمعرفة إن كان جسده قادراً على شفاء نفسه بنفسه. ماذا إذا لم يكن قادراً على ذلك؟

شهقت: «لا».

أحسست أنني واقفة على حافة قبر وولتر من جديد. أحسست أنني أصغي إلى صوت التراب يسقط في تلك الحفرة المظلمة.

أننت مقاومة تلك الذكرى: «لا».

استدرت بحركة آلية وبدأت السير بخطوات متيبسة. توجهت صوب الباب.

قال إيان: «انتظري». لكنه لم يشدني من يدي التي ما زال يمسكها سار معي.

لحق بي جيب من الناحية الأخرى وراح يدس لقمات من الطعام في يدي الحرة.

قال: «كلي. من أجل الفتى».

رحت ألوك الطعام من دون أن أتذوقه. أمضغه دون تفكير ثم أبتلعه من غير أن أحس به يستقر في معدتي.

زمجر جيب: «كنت أعرف أنها ستبالغ في ردّ فعلها».

سأله إيان حانقاً: «لماذا أخبرتها إذاً؟».

لم يجبه جيب. عجبت لماذا لم يجبه. هل صار الوضع أسوأ حتى مما تخيلت.

سألتهما بصوت خال من أي تعبير. من أي انفعال: «هل هو في المستشفى؟».

طمأنني إيان مستعجلاً: «لا، لا إنه في غرفتك».

لكن هذا لم يشعرني بالراحة. كنت أكثر خدراً من أن أعرف هذا الشعور.

كنت مستعدة للذهاب إلى المستشفى من جديد من أجل جيمي حتى إذا كان الدم باقياً على جدرانها كما رأيته.

ما كنت أرى الكهوف المعروفة التي سرنا خلالها. ما كدت ألاحظ أن الوقت كان نهاراً. ما كنت قادرة على مقابلة أعين أي البشر من الذين توقفوا حتى ينظروا إلينا. ما كنت قادرة إلا على وضع قدم أمام الأخرى حتى وصلت إلى ممر غرف النوم.

رأيت عدداً من الناس المتجمهرين أمام الغرفة السابعة. ورأيت الستارة الحريرية مزاحة عن الباب. كان الناس يمطون أعناقهم لينظروا

داخل غرفة جارد. كنت أعرفهم جميعاً. أشخاص كنت أعتبرهم أصدقائي. أصدقاء جيمي أيضاً. ماذا يفعلون هنا؟ هل بلغت حالته حداً من عدم الاستقرار جعلهم في حاجة إلى الإكثار من تفقّده؟

قال أحدهم. أظن أنها هيدي: «هذه جو. إنها هنا».

قال ويس: «دعوها تمر». ربت بيده على كتف جيب قائلاً: «عمل جيد».

سرت عبر تلك المجموعة الصغيرة من البشر من دون أن أنظر إليهم. أفسحوا الطريق أمامي، ولو لم يفعلوا لاقتحمتهم اقتحاماً. ما كنت قادرة على التركيز على أي شيء. إلا تحريك نفسي إلى الأمام.

كان الضياء ساطعاً في الغرفة ذات السقف المرتفع. ما كانت الغرفة نفسها مزدحمة. لقد عمل الطبيب أو جارد على جعل الجميع يبقون خارج الغرفة. أحسست إحساساً غامضاً بوجود جارد هنا. كان مستنداً إلى الجدار البعيد ضاماً يديه أمامه. أعرف أنه لا يقف هذه الوقفة إلا عندما يكون قلقاً على نحو حقيقي. كان الطبيب منحنياً إلى جانب السرير الكبير حيث يرقد جيمي. حيث تركته تماماً.

لماذا تركته؟

كان وجه جيمي محمراً. متعرقاً. وكانوا قد قطعوا فردة بنطلونه اليمنى. وأزالوا الضماد عن ساقه أيضاً. ما كان الجرح كبيراً كما توقعت. ما كان مخيف المنظر كما تخيلت. إنه جرح صغير طوله خمسة سنتمترات. كانت حواف الجرح ملساء نظيفة. لكنها حمراء إلى حد مخيف. وكان الجلد على حافتي الجرح متورماً لامعاً.

قال جيمي عندما رآني: «جو! أوه. أنت بخير». ثم استنشق نفساً عميقاً.

تعثرت فسقطت على ركبتي إلى جانبه، ساحبة إيان معي. لمست وجه جيمي فأحسست الجلد يحترق تحت أصابعي. اصطدم مرفقي بالطبيب لكني لم أكد ألاحظ ذلك. ابتعد الطبيب عني، لكني لم أنظر إليه

لأرى ما ارتسم على وجهه من مشاعر. هل كانت مشاعر كره أم مشاعر ذنب؟

«جيمي، حبيي، كيف حالك؟».

قال مبتسماً: «إنني أحمق. إنني أحمق تماماً! هل تصدقين هذا؟». أشار إلى ساقه. «ما أسوأ حظي!».

وجدت خرقة مبتلة على وسادته فمسحت بها وجهه.

«سوف تتحسن». فوجئت بمدى عنف صوتي.

«سأتحسن طبعاً. إنه لا شيء. لكن جارد لم يسمح لي بالذهاب إليك». صار وجهه قلقاً على نحو مفاجئ. «القد سمعت عن. لكن يا جو، تعرفين أنني. .».

«ششش. لا تفكر في الأمر أبداً. لو كنت أعرف أنك مريض لأتيت في وقت أبكر».

«لست مريضاً فعلاً. هذا مجرد التهاب سخيف. لكن مجيئك أسعدني. يزعجني ألا أعرف مكان وجودك».

لم أستطع ابتلاع الغصة التي سدت حلقي. وحوش؟ هل جيمي وحش؟ أبداً!

قال جيمي مبتسماً، مغيراً الموضوع: «لقد سمعت أنك لقنت ويس درساً يوم عدنا من الغارة. ليتني رأيت ذلك. أراهن أن ميلاني كانت مسرورة بذلك الدرس».

«نعم، كانت مسرورة».

«هل هي بخير؟ أليست شديدة القلق؟».

همست: «إنها قلقة طبعاً». راحت عيني تراقب قطعة القماش تتحرك على جبينه كما لو أن يد أحد غيري يحركها.

إنها يد ميلاني!

أين هي الآن؟

رحت أفتش عن صوتها المألوف في رأسي. لم أجد غير الصمت. لماذا هي ليست هنا؟ كان جلد جيمي يشتعل ناراً حيث تمسه أصابعي. يجب أن يستطيع هذا الإحساس. هذه الحرارة المؤذية. أن يجعلها في مثل رعبي.

سألني جيمي: «هل أنت بخير يا جو؟».

«إنني. متعبة يا جيمي. آسفة. إنني. متعبة تاماً».

راح ينظر إليّ بانتباه: «لكن وضعك لا يبدو جيداً».

ماذا فعلت؟

«مرت عليّ فترة لم أغتسل».

«إنني بخير. أنت ترين هذا. عليك الذهاب لتنالي شيئاً من الطعام. أنت شاحبة».

«لا تشغل بالك بي».

قال إيان: «سوف أجلب لك بعض الطعام. هل أنت جائع يا فتى؟».

«آه. لا، لست جائعاً في الحقيقة».

عادت عيناي إلى جيمي. أعرف أن جيمي يكون جائعاً على الدوام.

قلت لإيان وأنا أشد على يده بقوة أكبر: «أرسل أحداً غيرك».

«بالتأكيد». كان وجهه هادئاً، لكني لمحت فيه دهشة وقلقاً. «ويس! هل تجلب لنا بعض الطعام؟ اجلب شيئاً من أجل جيمي أيضاً. لا بد أن شهيته ستعود إليه ريثما يصل الطعام».

رحت أتفحّص وجه جيمي. كان محمراً، لكن عينيه كانتا متألقتين. سوف يظل بخير إذا تركته هنا بضع دقائق.

«جيمي، هل يزعجك أن أذهب قليلاً حتى أغسل وجهي؟ أشعر أنني. متسخة».

عبس قليلاً عندما سمع تلك النبرة الزائفة في صوتي: «هذا لا يزعجني».

شددت إيان ونهضت: «سوف أعود سريعاً. أعني ما أقول هذه المرة».

ابتسم جيمي لهذه النكتة الباهتة.

أحسست بعينين تستقران عليّ أثناء مغادرتي الغرفة. لعلها عينا جارد أو الطبيب، لست أدري. لست أهتم أيضاً.

كان جيب واقفاً وحده في الباب المفتوح. أما الآخرون فقد ذهبوا. لعلهم اطمأنوا إلى أن جيمي في حال جيدة. مال رأس جيب جانباً وقد علته تلك النظرة الفضولية. كان يحاول تخمين ما أنا ذاهبة لفعله. لقد فوجئ هو أيضاً برؤيتي أترك جيمي وأغادر بعد هذا الوقت القصير وعلى هذا النحو المفاجئ. لقد أحس بزيف عذري، مثلما أحس جيمي.

أسرعت متجاوزة نظرته المتسائلة جارة إيان معي.

جررت إيان عبر الممر حتى وصلنا النقطة التي تتفرع منها ممرات غرف النوم مشكّلة مجموعة من الفتحات. وبدلاً من مواصلتي السير نحو الساحة الرئيسية شددته إلى واحد من تلك الممرات المظلمة. ممر لا على التعيين. كان الممر خاوياً.

«جو، ماذا...».

كان صوتي متوتراً. عصبياً: «أريد أن تساعدني يا إيان».

«سأفعل ما تريدين. أنت تعرفين هذا».

وضعت كفيَّ على جانبي وجهه محدقة في عينيه. لم يسمح لي الظلام إلا برؤية مسحة ضئيلة من زرقة عينيه.

«أريد أن تقبّلني يا إيان. الآن. أرجوك».

# الفصل الثاني والأربعون

# قسر

انفتح فم إيان دهشة: «أنت. ماذا؟».

«سوف أشرح لك بعد دقيقة واحدة. هذا ليس عادلاً بالنسبة لك، لكن. أرجوك. قبلني فقط».

«ألن يزعجك هذا؟ ألن تزعجك ميلاني؟».

قلت متذمرة: «إيان! أرجوك!».

ما زال حائراً، لكنه وضع يديه على خصري وشد جسدي إلى جسده. كان القلق ظاهراً على وجهه. هل يمكن أن ينجح الأمر؟ ما كنت في حاجة إلى الرومانسية. لكن، لعله في حاجة إليها.

أغمض عينيه عندما انحنى صوبي بحركة آلية. ضغط شفتيه على شفتي لحظة ثم ابتعد لينظر إليّ. ما زال القلق يكسو وجهه.

لا شيء!

«لا يا إيان. قبّلني قبلة حقيقية. كما لو أنك. تريد أن تتلقى صفعة على وجهك. هل تفهمني؟».

«لا ما الأمر؟ أخبريني أولاً».

لففت ذراعي حول عنقه. بدا الوضع غريباً لأنني ما كنت واثقة من أنني أقوم بالأمر على الوجه الصحيح. ارتفعت على أطراف أصابعي وشددت رأسه صوبي بالوقت نفسه حتى أستطيع الوصول إلى شفتيه.

لا يمكن أن ينجح هذا لدى جنس آخر من الكائنات. لا يمكن أن تطغى رغبات الجسد بهذه السهولة عند أي جنس آخر. إن للأولويات

ترتيباً أفضل عند الأجناس الأخرى. لكن إيان بشري. وقد استجاب جسده.

أطبقت بفمي على فمه ممسكة رقبته بذراعي بكل ما أوتيت من قوة عندما كان ردّ فعله الأولى هو دفعي بعيداً عنه. تذكرت كيف تحرك فمه على فمي في المرة الماضية فحاولت تقليد تلك الحركة الآن. فتحتْ شفتاي شفتيه فأحسست بنشوة نصر غريبة لنجاحي. أمسكت بشفته السفلى بين أسناني فسمعت صوتاً منخفضاً غريباً ينطلق من حنجرته.

عند ذلك ما عدت بحاجة إلى المحاولة مرة أخرى. أمسكتْ إحدى يديه بوجهي واستقرت الأخرى على ظهري تشدني إليه حتى صار الضغط على صدري أكبر من أن أستطيع التنفس. صرت ألهث. صار يلهث أيضاً. اتحدت أنفاسه مع أنفاسي. أحسست بالجدار الحجري من خلفي. ينضغط على ظهري. كان يضغطني عليه حتى يستطيع الاقتراب مني أكثر فأكثر. لم يبق أي جزء من جسدي إلا وصار ملتصقاً بجزء من جسده.

كنا وحدنا، ملتصقين، متحدين حتى كان يمكن اعتبارنا شخصاً واحداً.

كنا وحدنا. فقط.

ما كان معنا أحد غيرنا.

كنا وحدنا.

عندما أقلعت عن المحاولة شعر إيان بذلك. لا بد أنه كان ينتظر أن أقلع عنها. ما كان محكوماً بجسده على نحو كامل مثلما تخيلت. كفَّ عن تقبيلي عندما سقطت ذراعي عن عنقه، لكن وجهه ظل قريباً من وجهي. كان طرف أنفه يلمس أنفي.

أبعدت ذراعي فعبّ نفساً عميقاً. أفلتني من ذراعيه بحركة بطيئة ثم وضعهما على كتفي.

قال لي: «اشرحي لي».

همست: «إنها ليست هنا». ما زلت ألهث. «لا أستطيع العثور عليها. حتى في هذه اللحظة!».

«هل تتحدثين عن ميلاني؟».

«ما عدت أستطيع سماعها! إيان، كيف أستطيع أن أعود إلى جيمي؟ سوف يعرف أنني أكذب! كيف أستطيع إخباره أنني فقدت أخته الآن؟ إنه مريض يا إيان! لا أستطيع إخباره! سوف يحزنه هذا. سوف يجعل شفاءه أكثر صعوبة. إنني. .».

ضغط إيان إصبعاً على شفتي: «ششش، ششش. اهدئي. دعينا نفكر في الأمر. متى سمعت صوتها آخر مرة؟».

«أوه يا إيان! كان ذلك بعد أن رأيت. في المستشفى. وقد حاولت ميلاني الدفاع عنهم. لكني صرخت فيها. ثم. جعلتها تذهب! ثم لم أسمع صوتها منذ ذلك الوقت. لا أستطيع العثور عليها!».

قال من جديد: «ششش. اهدئي. الآن، ما الذي تريدينه حقاً؟ أعرف أنك غير راغبة في إحزان جيمي، لكنه سوف يشفى رغم كل شيء. إذاً، فكري الآن. هل يكون الوضع أفضل بالنسبة لك. إذا. .».

«لا! لا أستطيع أن أمحو ميلاني! لا أستطيع هذا. إنه شيء خاطئ! سوف يجعلني وحشاً بدوري!».

«طيب، طيب! علينا أن نجدها إذاً!».

هززت رأسي.

تنفس بعمق من جديد: «أنت الآن في حاجة إلى طغيان مشاعرك طغياناً حقيقياً! هل هذا صحيح؟».

«لست أفهم قصدك».

لكني خشيت من أنني أفهم قصده.

كان تقبيل إيان شيئاً. ولعله شيء ممتع لو لم أكن قلقة إلى هذا الحد. لكن أي شيء آخر. أي شيء أكثر عمقاً. هل أستطيع؟

سوف تجن ميلاني غضباً إن أنا استخدمت جسدها على ذلك النحو هل يكون عليّ أن أفعل ذلك حتى أعثر عليها؟ لكن، ماذا عن إيان؟ سيكون هذا ظلماً شديداً له.

قال يعدني: «سوف أعود سريعاً. ابقي هنا».

ضغطني على الجدار كأنه يؤكد كلماته ثم ذهب مبتعداً في الممر

كانت طاعة هذا الأمر شيئاً صعباً أردت أن ألحق به لأرى ما الذي يفعله. حتى أرى أين يذهب. علينا أن نتحدث في هذا الأمر. عليّ التفكير فيه ملياً. لكن، لا وقت لدي. جيمي ينتظرني. وعنده أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها كذباً. لا، إنه لا ينتظرني. إنه ينتظر شقيقته. ميلاني. كيف استطعت أن أفعل هذا؟ ماذا لو أنها ذهبت واختفت فعلاً؟

ميلاني، ميلاني، ميلاني، عودي يا ميلاني! ميلاني، جيمي في حاجة إليك. إنه ليس في حاجة إليّ... إنه في حاجة إليك أنت. إنه مريض يا ميلاني. ميلاني، هل تستطيعين سماعي؟ جيمي مريض!

كنت أتحدث مع نفسي. لم يسمعني أحد.

كانت يداي ترتعشان بفعل الخوف والتوتر. لن أستطيع الانتظار هنا وقتاً أطول. أحسست أن قلقي سوف يجعلني أنتفخ حتى أنفجر. وأخيراً سمعت صوت خطوات. سمعت أصواتاً أيضاً. ما كان إيان عائداً وحده اجتاحتني الحيرة.

كان إيان يقول: «عليك أن تنظر إلى هذا الأمر. كما لو أنه تجربة».

أجابه جارد: «هل أنت مجنون؟ هل هذه نكتة؟».

أحسست معدتي تهوي إلى الأرض.

هذا ما قصده إيان عندما تحدث عن طغيان المشاعر.

اندفع الدم حاراً إلى وجهي، حاراً مثل حُمّى جيمي. ما الذي يفعله إيان بي؟ أردت أن أجري. أن أختبئ في مكان بعيد. مكان أفضل من مكان اختبائي السابق. أردت أن أختبئ حيث لا يستطيع أحد أن

يجدني أبداً، مهما استخدموا من أنوار كشافة. لكن ساقيّ كانتا مرتجفتين ولم أستطع التحرك.

ظهر إيان وجارد عند مفترق الأنفاق. كان وجه إيان خالياً من أي تعبير كانت يده على كتف جارد. كان يقوده. يكاد يدفعه إلى الأمام. أما جارد فكان يحدق في إيان بنظرات كلها غضب وشك.

شجعه إيان مجبراً إياه على التقدم: «من هنا». ضغطت ظهري على الجدار الصخري.

رآني جارد. رأى تعابير وجهي المعذبة فتوقف.

«جو، ما الأمر؟».

ألقيت نظرة توبيخ حارقة على إيان ثم حاولت مقابلة عينَيْ جارد.

لم أستطع النظر في عينيه. نظرت إلى قدميَّ بدلاً من ذلك.

همست: «لقد أضعت ميلاني».

«أضعتها!».

أومأت برأسي بائسة.

جاءني صوته قاسياً غاضباً: «كيف؟».

لست واثقة. لقد جعلتها تسكت. لكنها تعود دائماً. كانت تعود دائماً. لا أستطيع سماعها الآن.. وجيمي. .».

«هل ذهبت ميلاني؟». ظهر عذاب أخرس في صوته.

«لست أدري. لا أستطيع العثور عليها».

«ولماذا يظن إيان أنني يجب أن أقبّلك؟».

قلت: «ليس أن تقبّلني أنا». كان صوتي خافتاً إلى حد كنت شبه عاجزة عن سماعه بنفسي: «قبلها هي! لا شيء يحزنها ويزعجها أكثر من تقبيلك إيانا. لم يكن شيء يجعلها تظهر على السطح أشد من ذلك. ربما. لا لست مضطراً لهذا. سوف أحاول العثور عليها بنفسي».

ما زلت أحدق في قدمي. رأيت قدمه تخطو صوبي.

«تظنين، إذا قبّلتها. ؟».

لم أستطع حتى الإيماء برأسي. حاولت ابتلاع ريقي.

أحسست بيدين مألوفتين على رقبتي تنحدران من الجانبين حتى الكتفين. خفق قلبي بصوت مرتفع حتى ظننته مسموعاً له.

كنت في غاية الحرج. كنت أجبره على لمسي بتلك الطريقة. ماذا إذا ظن أن الأمر خدعة. ماذا لو ظن أن الفكرة فكرتي أنا. لا فكرة إيان؟

تساءلت. هل ما زال إيان هنا. يراقبنا؟ كم يؤلمه هذا؟

تابعت إحدى يديه حركتها. كنت أعرف أنها ستفعل ذلك. تحركت نزولاً حتى معصمي تاركة خلفها أثراً من نار. أما اليد الأخرى فصارت تحت فكي.. أعرف أنها ستكون هناك. وشدت وجهي إلى الأعلى.

لمس خده خدي. احترق جلدانا عند هذا التماس. همس في أذني.

«ميلاني. أعرف أنك هنا. ارجعي إليّ».

انزلق خده عائداً ثم مالت ذقنه جانباً حتى صار فمه على فمي.

حاول أن يقبّلني قبلة رقيقة أول الأمر. أعرف أنه حاول ذلك. لكن محاولته باءت بالفشل. كما من قبل.

هبّت النار في كل مكان، لأنه كان في كل مكان. كانت يداه تجريان على جلدي. تحرقانه. تذوقتْ شفتاه كل نقطة في وجهي. راح الجدار الصخري يصطدم بظهري، لكني لم أحس ألماً. ما كنت قادرة على الإحساس بشيء، إلا ذلك الاحتراق.

انغرست أصابعي في شعره تشده صوبي كما لو أن ثمة وسيلة تجعلنا أكثر قرباً مما كنا. التفّت ساقاي حول خصره. ساعدني الجدار في ذلك. تلوى لسانه مع لساني. لم تترك الرغبة المجنونة التي استولت عليّ أي جزء من عقلي من دون أن تغزوه.

أبعد فمه عن فمي ثم ضغط شفتيه على أذني من جديد.

عودي إلي!».

هاجمت شفتاه شفتيّ من جديد.

«آآآآه!»، جاء أنين ميلاني ضعيفاً في رأسي.

لم أفكر في تحيّتها. كنت أحترق.

امتدت النار فوصلت إليها. وصلت تلك الزاوية القصية التي ارتمت شبه ميتة فيها.

قبضت يداي على قميص جارد. رفعتاه إلى الأعلى. كانت الفكرة فكرتهما. فكرة يديّ. لم أقل لهما أن تفعلا هذا. كانت يداه محرقتين على جلد ظهري.

همست ميلاني: «هل أنت جارد؟». حاولت أن تصحو، لكن العقل المشترك بيننا كان في حالة اضطراب شديد.

أحسست بعضلات بطنه تحت كفيّ. اندفعت يداي بين جسدينا.

قالت ميلاني بجهد: «ماذا؟ أين...»

ابتعدتُ عن فمه حتى أتنفس لكن شفتيه هبطتا إلى رقبتي فأحرقتاها. دفنت وجهي في رأسه متنشقة عبيره.

«جارد! جارد! لا!».

تركتها تتسلل إلى ذراعي. كنت أعرف أن هذا هو الشيء الذي أريد، مع أني ما كنت قادرة على الانتباه لأي شيء تقريباً. صارت اليدان اللتان على بطنه قاسيتين. غاضبتين. أنشبتا أظافرهما في جلده ثم دفعتاه بعيداً بأقصى ما استطاعتا من قوة.

صرخت ميلاني عبر شفتي: «لا!».

أمسك جارد بيديها ثم أمسكني فثبتني على الجدار قبل أن أقع. انهار جسدي مرتبكاً.. حائراً. بفعل التوجيهات المتضاربة التي يتلقاها.

«ميلاني؟ ميلاني!».

«ما الذي تفعله؟».

تنهد مرتاحاً: «كنت أعرف أنك قادرة على العودة! آه يا ميلاني!».

قبّلها من جديد. قبّل الشفتين اللتين صارت ميلاني مسيطرة عليهما. كنا قادرتين، معاً، على تذوق الدموع التي جرت على وجهه.

عضّته ميلاني.

قفز جارد إلى الخلف مبتعداً عنا. أما أنا فانزلقت إلى الأرض. تكومت عليها عاجزة عن الحركة.

بدأ يضحك: «هذه هي فتاتي. هل ما زالت موجودة يا جو؟».

قلت لاهثة: «نعم».

صاحت ميلاني في رأسي: «ماذا تفعلين يا جو؟».

«أين كنت؟ هل لديك أي فكرة عما عانيته حتى أعثر عليك؟».

«نعم، أرى أنك كنت تعانين حقاً».

قلت أعدها: «اوه، سوف اعاني... اعرف هذا. كنت أشعر بالمعاناة قادمة صوبي. مثل المرة الأولى.

كانت ميلاني الآن تبحث في أفكاري كلها بأسرع ما تستطيع. «ماذا عن جيمي؟».

«هذا ما أحاول إخبارك به. إنه في حاجة إليك».

«إذاً، لماذا لسنا معه الآن؟».

«لأنه في عمر لا يسمح له برؤية هذا النوع من الأشياء يحدث أمامه».

واصلت البحث في أفكاري: «واو! إيان ايضاً! يسعدني انني لم اكن حاضرة عند ذلك».

«كنت في غاية القلق. ما كنت أعرف ما يجب أن افعله...».

«طيب، هيا... فلنذهب».

سألني جارد: «أهي ميلاني؟».

«إنها هنا. إنها غاضبة جداً. وهي تريد رؤية جيمي».

وضع جارد ذراعه حولي فساعدني على القيام: «يمكنك أن تغضبي قدر ما شئت. لكن، ابقي هنا».

«كم مر على غيابي؟».

«ثلاثة ايام».

تضاءل صوتها على نحو مفاجئ: «اين كنت؟».

«الا تعرفين؟».

«لا أستطيع أن اتذكر... أي شيء».

ارتعدنا معاً.

سألني جارد: «هل أنت بخير؟»

«بعض الشيء».

«هل كان هذا صوتها قبل قليل؟ هل كانت تتحدث معي بصوت مسموع؟».

«نعم».

«هل يمكنها. هل يمكنك أن تجعليها تتحدث من جديد؟».

تنهدت. كنت مرهقة حتى النهاية: «أستطيع المحاولة». أغمضت عينيّ.

سألتها: «هل تستطيعين تجاوزي؟ هل تستطيعين التحدث معه؟».

«أنا... كيف؟ أين؟».

حاولتُ تصغير حجمي داخل رأسي. تمتمت: «هيا. هنا».

حاولتْ ميلاني المرور، لكنها لم تجد طريق الخروج.

انطبقت شفتا جارد على شفتي. قاسيتين. انفتحت عيناي من وقع الصدمة. رأيت عينيه الذهبيتين مفتوحتين أيضاً، على مسافة سنتمترات قليلة مني.

دفعت ميلاني رأسنا إلى الخلف: «كف عن هذا! لا تلمسها!».

ابتسم جارد وانتشرت حول عينيه تلك التجاعيد الصغيرة: «أهلاً يا حبيبتي».

«هذا ليس مضحكاً».

حاولت التنفس من جديد وقلت له: «إنها لا تضحك».

ترك جارد ذراعه ملتفة حولي. حولنا. سرنا خارجين من مفترق الأنفاق فلم نجد أحداً هناك. لم يكن إيان موجوداً.

قال جارد: «إنني في انتظارك يا ميلاني». ما زالت ابتسامته عريضة قال مناكفاً: «من الخير لك أن تظلي هنا. لا أضمن لك شيئاً بشأن ما يمكن أن أفعله حتى أجعلك تعودين».

ارتعشت معدتي.

«قولي له إنني سأخنقه إذا لمسك بتلك الطريقة مرة ثانية». لكن تهديدها كان مزاحاً أيضاً.

«إنها تهددك بالقتل الآن. لكني أظنها تحاول المزاح».

ضحك جارد مسروراً. مرتاحاً: «أنت في غاية الجدية دائماً يا جو».

تمتمت. لم أكن أخاطب نفسي: «إن مزاحكم ليس مضحكاً».

ضحك جارد من جديد.

قالت ميلاني: «ها! ها انت تعانين».

«سأحاول الا يرى جيمي معاناتي».

«أشكرك لانك أعدتني».

«لن امحوك ابداً يا ميلاني. إنني آسفة لانني لا استطيع إعطاءك اكثر من هذا».

«شكراً».

«ماذا تقول لك ميلاني؟».

«إننا. نتصالح».

«لماذا لم تكن قادرة على الكلام من قبل، عندما كنت تحاولين السماح لها بذلك؟».

«لست أدري يا جارد. ليس المكان كافياً لنا معاً. الظاهر أنني لا

أستطيع تنحية نفسي عن الطريق تماماً. إن الأمر يشبه. إنه لا يشبه أن تحبس أنفاسك. إنه يشبه أن تحاول إيقاف نبض قلبك. لا أستطيع أن أكف عن الوجود. لا أعرف كيف أفعل هذا».

لم يجبني. كان الألم ينبض في صدري. كم يكون سعيداً لو كنت قادرة على اكتشاف طريقة أمحو بها نفسي؟

أرادت ميلاني. لا أن تعارضني. بل أن ترفع معنوياتي. حاولتْ جاهدة أن تجد كلمات تلطف عذابي. لم تستطع التوصل إلى الكلمات المناسبة.

«لكن هذا سيدمر إيان. وسيدمر جيمي. وسوف يفتقدك جيب. إن لديك أصدقاء كثراً هنا».

«شكراً».

كنت سعيدة لأننا عدنا إلى غرفتنا الآن. كنت في حاجة إلى التفكير في شيء آخر قبل أن أبدأ البكاء. ليس الوقت مناسباً لرثاء النفس الآن. ثمة أمور أكثر أهمية من قلبي الذي تحطم من جديد.

## الفصل الثالث والأربعون

# اضطراب

راقبت ذلك من الخارج. بدوت ساكنة مثل تمثال. كانت يداي معقودتين أمامي، وكان وجهي من دون تعبير أما تنفسي فكان شديد الضحالة. لا يحرك صدري.

وفي داخلي، كنت أتمزق أشلاء. كأن أجزاء ذراتي تنقلب وتندفع متباعدة.

لم تنقذه استعادة ميلاني. فعلت ما أستطيع فعله، لكنه ما كان كافياً

كان الممر خارج غرفتنا مزدحماً. لقد عاد جارد وكَايل وإيان من غارتهم اليائسة بأيدٍ خاوية. وعاء تبريد فيه قطع من الجليد. هذا كل ما استطاعوا المجيء به. هذا كل ما غامروا بحياتهم ثلاثة أيام من أجله

كانت ترودي تضع كمادات على جبهة جيمي وعلى رقبته وصدره. حتى إذا كان الجليد قادراً على تبريد هذه الحمى الملتهبة المنفلتة من عقالها. فكم يدوم قبل أن يذوب كله؟ ساعة! أكثر! أقل! كم سيمضي من الوقت قبل أن يعود جيمي إلى الموت من جديد؟ يجب أن أكون أنا من يضع الجليد في كماداته، لكني ما كنت قادرة على الحركة. إذا تحركت. فسوف أقع وأتشظى إلى ملايين القطع المجهرية.

تمتم الطبيب: «لا شيء؟ هل بحثتم. .».

قاطعه كَايل: «بحثنا في كل مكان خطر في بالنا. ليس الأمر مثل الحصول على المسكنات. إن لدى كثير من الناس أسباباً تجعلهم يخفون الأدوية. ما كان أحد يخفي المضادات الحيوية من قبل. لكنها غير

موجودة الآن». كان جارد يحدّق في الطفل الذي احمرّ وجهه فوق ذلك السرير. ما كان يتكلم.

وكان إيان واقفاً إلى جانبه. همس: «لا تكوني هكذا. سوف يتجاوز المرض. إنه قوي».

ما كنت قادرة على الاستجابة لكلامه. ما كنت قادرة حتى على سماع كلماته حقاً.

ركع الطبيب إلى جانب ترودي وخفض ذقن جيمي إلى الأسفل. تأوّه وهو يسكب بعض الماء المثلج من وعاء التبريد. جعل الماء يجري في فم جيمي. سمعنا كلنا ذلك الصوت الكثيف المؤلم عندما ابتلع جيمي الماء. لكنه لم يفتح عينيه.

أحسست أنني لن أتمكن من الحركة مجدداً. أحسست أنني موشكة على التحول إلى جزء من الجدار الصخري. أردت أن أصبح صخراً.

إذا حفروا قبراً من أجل جيمي في تلك الصحراء الخالية فسوف يكون عليّ أن أرمي نفسي فيه أيضاً.

زمجرت ميلاني: «لكن هذا ليس كافياً».

كنت يائسة، وكان الغضب يملأها.

«لقد حاولوا».

«إن المحاولة لا تحل شيئاً. لن يموت جيمي. عليهم أن يذهبوا من جديد».

«لماذا يذهبون؟ حتى إذا وجدوا شيئاً من مضاداتكم الحيوية القديمة، فما فرصة أن تكون صالحة للاستعمال حتى الآن؟ إنها غير صالحة لزمن طويل... إنها متخلّفة. هو ليس في حاجة إلى أدويتكم. إنه في حاجة إلى ما هو أكثر منها... في حاجة إلى شيء فعّال حقاً...».

تسارعت أنفاسي. صارت أكثر عمقاً عندما لمعت الفكرة في رأسي.

قلت وقد أدركت الفكرة: «إنه في حاجة إلى أدويتنا».

صعقنا هول هذه الفكرة. صعقنا أنا وميلاني. صعقنا وضوحها. صعقتنا بساطتها.

انفرجت شفتاي الحجريتان: «إن جيمي في حاجة إلى أدوية حقيقية إنه في حاجة إلى الأدوية التي لدى الأرواح. علينا أن نجلبها له».

نظر الطبيب إليّ عابساً: «لكننا لا نعرف حتى كيف تعمل هذه الأدوية. لا نعرف مفعولها».

«وهل لهذا أهمية؟» تسلل شيء من غضب ميلاني إلى صوتي. «إنها تعمل. إنها قادرة على إنقاذه. ألا يكفينا هذا».

راح جارد ينظر إليّ. أحسست بعيني إيان عليّ أيضاً. أحسست بعينيَ كَايل وبأعين كل الموجودين في الغرفة. لكنني لم أر إلا جارد.

قال جيب: «لا نستطيع الحصول عليها يا جو». كان صوته ناضحاً بالهزيمة. مستسلماً. «لا نستطيع الدخول إلا إلى أماكن مهجورة. إن في المستشفيات مجموعة من بني جنسك دائماً. وهم موجودون أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. ثمة أعين كثيرة. لن يستفيد جيمي شيئاً إذا أمسكوا بنا».

قال كَايل بصوت قاس: «هذا مؤكد. سيكون الطفيليون سعداء تماماً بشفاء جسد جيمي إذا تمكنوا من العثور علينا هنا. سوف يجعلونه واحداً منهم. هل هذا ما ترمين إليه؟».

استدرت لأحدِّق غاضبة في ذلك الرجل المكشِّر الضخم. توتَّر جسدي وانحنيت إلى الأمام. وضع إيان يده على كتفي كما لو أنه يريد منعي من القيام. لا أظن أنني كنت موشكة على الإتيان بأي حركة عدائية تجاه كَايل، لكن. لعلي مخطئة. كنت بعيدة كل البعد عن حالتي الطبيعية.

عندما تكلمت كان صوتي متوازناً تماماً من غير أي تأثر «لا بد أن ثمة طريقة لفعل ذلك».

رأيت جارد يومئ برأسه: «قد نجد مكاناً صغيراً. سوف تصدر

البندقية ضجة كبيرة، لكن. إذا وُجد من جماعتنا عدد كافٍ للتغلب عليهم. يمكننا استخدام السكاكين».

«لا». انفتحت يداي. «لا لست أقصد هذا. لست أريد القتل. .».

ما كان أحد يصغي إليّ. كان جيب يجادل جارد.

«لا سبيل إلى هذا يا فتى. سوف يتصل أحدهم بالباحثين. وحتى إذا تمكنا من الدخول والخروج فسوف تؤدي هذه الغارة إلى جعلهم يأتون إلى هنا بقوّات كبيرة. كما أننا سنجد صعوبة كبيرة في الدخول والخروج أصلاً. وسوف يلحقون بنا».

«انتظر. ألا نستطيع. .».

ما زالوا ممتنعين عن الإصغاء إليَّ.

قال كَايل: «أنا لا أريد موت الصبي أيضاً، لكننا لا نستطيع المغامرة بأرواح الجميع من أجل شخص واحد. إن الناس يموتون؛ يحدث هذا. لا نستطيع أن نجنّ جميعاً حتى ننقذ صبياً واحداً».

وددت أن أخنقه. أن أمنع الهواء عنه حتى يتوقف عن إطلاق هذه الكلمات الهادئة. هذا ما وددته أنا. إنها ليست ميلاني. كنت أنا من أراد أن يجعل وجهه قرمزي اللون. كان شعور ميلاني مماثلاً لكني كنت أعرف مقدار العنف الذي ينبع مني هذه المرة.

قلت بصوت أكثر ارتفاعاً: «علينا إنقاذه».

نظر جيب إليّ: «عزيزتي، لا نستطيع أن نذهب إليهم طالبين الدواء».

في تلك اللحظة، لمعت في رأسي حقيقة أخرى، بسيطة وواضحة.

«لا تستطيعون الذهاب، لكني أستطيع».

ساد في الغرفة صمت مطبق.

أسَرَني جمال الخطة التي راحت تتكون في رأسي. أسرني كمالها. كنت أتحدث مع نفسي الآن، ومع ميلاني. كانت متأثرة. سوف ينجح هذا! نستطيع إنقاذ جيمي.

«إنهم لا يشكّون في أمري. لا يشكّون أبداً. حتى إذا كنت كاذبة فاشلة فلن يشكوا في أي شيء أبداً. لن ينظروا في كلامي بحثاً عن الأكاذيب. لن يفعلوا ذلك. أنا واحدة منهم. سوف يفعلون أي شيء من أجل مساعدتي. سأقول إنني أصبت أثناء رحلة تخييم. أو شيء من هذا القبيل. ثم أجد طريقة لأكون وحيدة فآخذ كل ما أستطيع إخفاءه فكروا في هذا! أستطيع أن أجلب أدوية تكفي لمعالجة الجميع هنا. أدوية تدوم سنوات. وسوف يتعافى جيمي! لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟ لعلي كنت قادرة على إنقاذ ولتر أيضاً».

عند ذلك رفعت رأسي. كانت عيناي مشعَّتَيْن. إنها خطة ممتازة!

خطة ممتازة. خطة صحيحة كل الصحة. خطة شديدة الوضوح في نظري. ما كان الزمن كله يكفيني حتى أفهم التعبير الذي ارتسم على وجوههم. ولو لم يكن كَايل واضحاً في كلامه لاستغرقني الأمر مدة أطول من الزمن نفسه.

الكراهية. الشك. الخوف.

ما كان وجه جيب نفسه، وجه لاعب البوكر، كافياً الآن. كانت عيناه ممتلئتين بالشك. بانعدام الثقة.

كان كل وجه يقول لي «لا».

«هل هم مجانين؟ ألا يستطيعون رؤية أن هذا مفيد لنا كلنا؟».

«إنهم لا يصدقوننا. يظنون أنني أريد إيذاءهم، إيذاء جيمي!».

همست: «أرجوكم. هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذه».

بصق كَايل هذه الكلمات: «إنها صبورة. أليست صبورة؟ لقد انتظرت حتى حانت فرصتها. ألا ترون هذا؟».

ومن جديد، قاومت رغبتي في خنقه.

قلت راجية: «دكتور؟».

لم ينظر الطبيب في عينيّ عندما تكلم: «حتى إذا سمحنا لك بالخروج يا جو، فإنني غير قادر على الثقة بأدوية لا أستطيع فهمها إن

جيمي متين البنية. سوف يتمكن جسمه من مقاومة المرض».

تمتم إيان: «سوف نذهب مرة أخرى يا جو! سوف نجد شيئاً. لن نعود قبل أن نجد شيئاً».

«لكن هذا لن يكفي» راحت الدموع تتجمع في عينيّ. نظرت إلى الشخص الوحيد الذي قد يكون ألمه مثل ألمي. «جارد. أنت تعرف. أنت تعرف أنني لن أسمح لشيء بإيذاء جيمي. تعرف أنني أستطيع أن أفعل ما أقول. أرجوك».

حدق جارد في عيني زمناً طويلاً. ثم نظر من حوله في الغرفة. نظر إليهم وجهاً وجهاً. جيب، الطبيب، كَايل، إيان، ترودي. ثم نظر إلى خارج الغرفة. نظر إلى الجمهور الصامت الذي كان وجه كَايل منعكساً في وجهه: شارون، فيوليتا، لوتشينا، ريد، جيفري، هيث، هيدي، آندي، آرون، ويس، ليلي، كارول. كان أصدقائي مختلطين مع أعدائي. وكانوا يحملون وجه كَايل جميعاً. حدق جارد في الصف الواقف خلفهم. ما كنت أستطيع رؤية ذلك الصف. وبعد ذلك نظر إلى جيمي. ما كان في الغرفة كلها صوت تنفس.

قال بصوت هادئ: «لا، لا يا جو».

صدرت زفرة ارتياح من الجميع.

تهاوت ركبتاي. هويت إلى الأمام. أبعدت نفسي عن يدي إيان عندما حاول إنهاضي. زحفت إلى جيمي فدفعت ترودي بمرفقي. كانت الغرفة الصامتة تراقب حركاتي. رفعت الكمادة عن رأسه وأعدت ملأها بالجليد الذائب. لم أنظر إلى تلك الأعين التي كان جلدي قادراً على الإحساس بتحديقها. ما كنت قادرة على رؤية أي منهم. سبحت دموعي أمام عيني.

رحت أهذل: «جيمي، جيمي، جيمي، جيمي، جيمي، جيمي».

ما كنت قادرة على فعل أي شيء إلا أن ألفظ اسمه منتحبة وألمس أكياس الجليد مرة بعد مرة منتظرة أوان تبديلها.

سمعتهم يذهبون. ذهبوا دفعات بعد دفعات. سمعت أصواتهم. كان أكثرها غاضباً. لكن أصواتهم تلاشت مع ابتعادهم. لم أستطع فهم شيء من كلماتهم.

«جيمي، جيمي، جيمي...».

«جيمي، جيمي، جيمي. .».

كان إيان راكعاً إلى جانبي عندما صارت الغرفة شبه فارغة.

همس لي: «أعرف أنك لن تحاولي إيذاءنا. لكن، يا جو، سوف يقتلونك إذا حاولت ذلك. فبعد ما حدث، في المستشفى. هم يخافون من أن لديك الآن سبباً وجيهاً لتدميرنا. لكنه سيشفى. يجب أن تثقي بهذا».

أشحت بوجهي عنه فابتعد عني.

قال جيب وهو يهم بالذهاب: «آسف يا طفلتي».

ذهب جارد أيضاً. لم أسمع صوت ذهابه، لكنني عرفت أنه ذهب بدا هذا صحيحاً في نظري. إنه لا يحب جيمي كما أحبه أنا. وقد أثبت ذلك. يجب أن يذهب.

بقي الطبيب يراقب الوضع من غير حَوْل. لم أنظر إليه.

تلاشى ضوء النهار شيئاً بعد شيء. تحوَّل إلى البرتقالي ثم صار رمادياً. ذاب الجليد وانتهى كله. بدأت حرارة جيمي ترتفع. صار يحترق حياً تحت يدي.

«جيمي، جيمي، جيمي. .» صار صوتي متقطعاً. خشناً الآن، لكنني ما كنت قادرة على التوقف. «جيمي، جيمي، جيمي. . .».

صارت الغرفة سوداء. ما عدت قادرة على رؤية وجه جيمي. هل يتركني في عتمة الليل؟ هل رأيت وجهه حقاً. هل رأيت وجه الراحل. للمرة الأخيرة؟

صار اسمه مجرد همسة على شفتي. صار همساً خفيضاً كنت قادرة معه على سماع شخير الطبيب الخافت.

مسحت جسد جيمي بالخرقة الفاترة. مسحته من غير توقف. إنّ تبخر الماء يخلق شيئاً من البرودة. انخفضت حرارته قليلاً. فبدأت أعتقد أنه لن يموت الليلة.

لكنني لن أكون قادرة على الاحتفاظ به إلى الأبد. سوف ينزلق ويضيع مني. غداً. في اليوم الذي يليه. وعندها سوف أموت أيضاً. لن أعيش من دون جيمي.

أنّت ميلاني: «جيمي، جيمي، جيمي...».

«لم يصدقنا جارد». كانت الحسرة حسرتين، حسرتي وحسرتها. جاءتنا هذه الفكرة في وقت واحد.

مازال الصمت مخيماً. لم أسمع شيئاً. لم ينبهني شيء.

ثم، صاح الطبيب فجأة. كانت صيحته مخنوقة على نحو غريب، كأنه يصرخ داساً وجهه في وسادته.

لم تستطع عيناي تمييز ذلك الشكل الغريب في الظلمة. كان الطبيب يتلوى على نحو غريب. بدا كبير الحجم. كأن له أذرعاً كثيرة. كان هذا مخيفاً! انحنيت فوق جسد جيمي الهامد حتى أحميه مما يحدث. ما كنت قادرة على الهرب وتركه مستلقياً لا حول له. راح قلبي يخفق فيضرب أضلاعي.

بعد ذلك، هدأت أذرع الطبيب. بدأ يشخر من جديد بصوت أعلى وأكثر كثافة من ذي قبل. رأيته ينقلب على الأرض ورأيت جسماً ينفصل عنه. كان جسماً آخر سحب نفسه مبتعداً عن الطبيب ووقف أمامي في الظلمة.

همس جارد: «فلنذهب. ليس لدينا وقت نضيعه».

كاد قلبي ينفجر

«إنه يصدقنا».

قفزت واقفة على قدميَّ مجبرة ركبتي المتيبستين على الانفكاك: «ماذا فعلت بالطبيب؟».

«كلوروفورم. لن يدوم تأثيره زمناً طويلاً».

استدرت سريعاً فصببت الماء الفاتر فوق جيمي. بللت ملابسه وفراشه. لم يتحرك. لعل هذا يبرده قليلاً ريثما يستيقظ الطبيب.

«اتبعيني».

سرت في أعقابه. تحركنا صامتين. لا نكاد نلمس الأرض. شبه راكضين. لكننا لم نكن نجري فعلاً كان جارد يسير مسرعاً ملتصقاً بالجدار. ففعلت مثله.

توقف جارد عندما وصلنا إلى ضياء القمر في غرفة الحقل. كانت الغرفة مهجورة. ساكنة.

استطعت رؤية جارد على نحو واضح للمرة الأولى. كانت البندقية معلقة على ظهره. رأيت سكيناً في غمده معلقاً على خصره. مد يديه فرأيت بينهما قطعة قماش طويلة. فهمت على الفور.

انطلقت من فمي كلمات مهموسة: «نعم، لا مانع عندي، اعصب عينيّ».

أومأ برأسه فأغمضت عينيَّ ريثما يربط قطعة القماش على رأسي سوف تظل عيناي مغمضتين على أي حال.

كانت العقدة سريعة محكمة. وعندما انتهى من ربط القماش رحت أدور حول نفسي مسرعة. دورة، دورتان.

أوقفتني يداه: «هذا يكفي». ثم أمسكني بقوة أكبر فرفعني عن الأرض. فاجأتني حركته فشهقت عندما رماني فوق كتفه. انطوى جسدي هناك. صار رأسي وصدري معلقين خلف ظهره، إلى جانب البندقية. أمسكتْ ذراعاه بساقيّ على صدره. بدأ الحركة على الفور. كنت أتأرجح مع خطوات جريه. وكان وجهي يمسّ قميصه مع كل خطوة.

ما كنت أعرف طريق سيرنا. ولم أحاول تخمين ذلك أو التفكير فيه أو الشعور به. كنت أركّز على حركة جريه. أعد الخطوت. عشرون، واحد وعشرون، اثنان وعشرون، ثلاثة وعشرون.

أحسست به ينحني عندما انحدر الطريق ثم ينتصب عندما ارتفع. حاولت ألا أفكر في هذا.

أربعمئة واثنا عشر، أربعمئة وثلاثة عشر، أربع مئة وخمسة عشر.

أدركت أننا صرنا في الخارج. شممت نسيم الصحراء النظيف الجاف. كان الهواء حاراً مع أن الوقت قارب منتصف الليل.

أنزلني جارد وأوقفني على قدميّ.

«إن الأرض مستوية هنا. هل تظنين أنك قادرة على الجري معصوبة العينين؟».

«نعم»

أمسك بمرفقي وانطلق يجري. كان مسرعاً. ما كان الأمر سهلاً! أمسكني مرة بعد مرة عندما كنت أوشك على السقوط. بدأت أعتاد الأمر بعد فترة. وصرت أحافظ على توازني فوق الحفر والنتوءات الصغيرة. استمر جرينا حتى صرنا نلهث معاً.

«إذا. استطعنا الوصول... إلى سيارة الجيب. فسوف نكون. قد نجحنا».

سيارة الجيب؟ أحسست بموجة غريبة من الحنين. لم تر ميلاني تلك السيارة منذ الخطوة الأولى من تلك الرحلة الكارثية إلى شيكاغو. لم تعرف أنها بقيت على قيد الحياة حتى الآن.

سألته: «وإذا لم. نتمكن؟».

«سوف يمسكون بنا. وسوف يقتلونك. كان إيان محقاً في هذا الشأن».

حاولت زيادة سرعة الجري. لا لإنقاذ حياتي بل لأنني الشخص الوحيد القادر على إنقاذ جيمي. تعثرت من جديد.

«سوف. أنزع العصابة. سوف. تكونين أكثر سرعة».

«هل أنت متأكد؟».

«لكن. لا تنظري من حولك».

«أعدك بهذا».

فك جارد العقدة خلف رأسي. وفور انزياح قطعة القماش عن وجهي ركزت نظري على الأرض عند قدميّ.

كان الاختلاف كبيراً. كان ضوء القمر ساطعاً وكان الرمل شاحباً ناعماً مستوياً. انطلق جارد يجري بسرعة أكبر من ذي قبل. صرت قادرة على مجاراته بسهولة الآن. إن جري المسافات الطويلة هو الرياضة المفضلة بالنسبة لجسدي. أستطيع الاستمرار على هذا النحو من غير نهاية.

سألني: «هل تسمعين. شيئاً؟».

أصغيت. لم أسمع إلا صوت زوجين من الأقدام فوق الرمل.

«لا».

لم يسمع شيئاً بدوره.

أظن أن هذا سبب قيامه بسرقة البندقية. لن يتمكنوا من إيقافنا من هذه المسافة البعيدة إلا إذا استخدموا البندقية.

استغرق الأمر نحو ساعة إضافية من الجري. بدأت سرعتي تنخفض. انخفضت سرعته أيضاً. صار فمي يحرقني طالباً الماء.

لم أكن قد رفعت نظري عن الأرض أبداً. لذلك، فوجئت عندما وضع يده فوق عينيّ. تعثرت قليلاً لكنه جعلني أبطئ فأتحول إلى سير عادي.

«لقد وصلنا الآن. إنها أمامنا. .».

رفع يده وغطى عيني ودفعني إلى الأمام. سمعت صوت أقدامنا يتردد فوق شيء مختلف. صارت الصحراء مستوية هنا.

«اركبي».

اختفت يده.

كان الظلام شديداً هنا كأنه لم يرفع يده عن عيني. إنه كهف آخر. ما كان كهفاً عميقاً. لو استدرت الآن فسوف أكون قادرة على رؤية الخارج. لم أستدر!

كانت سيارة الجيب واقفة أمامنا في الظلمة. بدت لي مثلما كنت أتذكرها. هذه السيارة التي لم أرها أبداً. قفزت من فوق بابها فجلست في المقعد.

جلس جارد في مقعده. انحنى صوبي فربط العصابة على وجهي من جديد. بقيت ثابتة حتى تكون المهمة أسهل عليه.

أفزعني صوت المحرك. بدا لي شديد الخطورة. ثمة أشخاص كثيرون لا يجوز أن يعثروا علينا الآن.

تحركت السيارة إلى الخلف مسافة قصيرة ثم أحسست بعصف الريح على وجهي. سمعت صوتاً غريباً خلف السيارة، شيئاً لم يكن يوافق ذكريات ميلاني.

قال لي: «إننا ذاهبون إلى توكسون. لم نقم بأي غارة فيها حتى الآن فهي قريبة جداً. لكننا لا نملك وقتاً للذهاب إلى أي مكان آخر. أعرف مكان مستشفى صغير. ليس في مكان بعيد داخل المدينة».

«لا تقل لي إنه مستشفى سانت ميري!».

سمع نبرة إنذار في صوتي: «ليس هو. لماذا؟».

«لأنني أعرف شخصاً هناك».

ظل جارد صامتاً دقيقة كاملة: «هل سيعرفونك؟».

«لا لن يعرف وجهي أحد. ليس لدينا. قوائم أو صور للأشخاص المطلوبين. ليس الأمر كما كان عندكم».

«لا بأس».

لكنه جعلني أفكر الآن. أفكر في مظهري. وقبل أن أتمكن من التعبير عما يشغلني أمسك جارد بيدي ووضع فيها شيئاً صغيراً جداً.

«فلتكن هذه في متناول يدك دائماً».

«ما هي؟».

«إذا أدركوا أنك. معنا، وإذا أرادوا. أن يضعوا شخصاً آخر في جسد ميلاني، فعليك أن تضعي هذه في فمك وأن تضغطي عليها بشدة».

«سم؟».

«نعم».

فكرت في ذلك لحظة. ثم ضحكت. لم أستطع منع نفسي من الضحك. لقد تلفت أعصابي من شدة القلق.

قال حانقاً: «هذه ليست نكتة يا جو. إذا كنت غير قادرة على هذا فسوف أكون مضطراً إلى إعادتك».

«لا، لا، بل أنا قادرة». حاولت ضبط نفسي. «أعرف أنني أستطيع وهذا ما يجعلني أضحك».

ظل صوته جافاً خشناً: «لم أفهم النكتة»

«ألست ترى؟ لن أكون قادرة على فعل هذا من أجل مليون من أبناء جنسي. ولست قادرة على فعله. من أجل أطفالي. كنت خائفة دائماً من ذلك الموت النهائي. لكنني أستطيع أن أفعل هذا من أجل طفل غريب». ضحكت من جديد. «هذا غير معقول إطلاقاً. لكن، لا تقلق أستطيع أن أموت لحماية جيمي».

«إنني واثق من قدرتك على هذا».

ساد الصمت فترة ثم تذكرت مظهري.

«جارد، إن مظهري غير مناسب. إنه غير مناسب لدخول مستشفى»

«إن لدينا ملابس أفضل مخبأة في. سيارات أقل إثارة للريبة. إننا متوجهون إليها الآن. بقي نحو خمس دقائق».

ما كنت أقصد هذا، لكنه كان محقاً. لن تفي هذه الملابس

بالغرض. تريثت قبل أن أحدثه عن بقية مظهري لكني كنت في حاجة إلى النظر إلى نفسي أولاً

توقفت سيارة الجيب فرفع العصابة عن عيني.

«لست في حاجة إلى مواصلة النظر إلى الأرض». هكذا قال لي عندما طأطأت رأسي بحركة تلقائية.

«ما من شيء هنا يشير إلى مكاننا. لقد جهزناه تحسباً لانكشافه».

لم يكن هذا كهفاً، بل كان موقع انزلاق صخري. لقد جرى تجريف بعض كتل الصخور الكبيرة على نحو حذر بحيث تترك فسحات مظلمة تحتها لا يتوقع أحد أن يجد فيها شيئاً إلا بعض التراب والصخور الصغيرة.

دخلتْ سيارة الجيب مكاناً ضيقاً. كانت الصخور تحف بها من الجانبين فاضطررت إلى النزول إلى الأرض عبر مؤخرة السيارة. رأيت شيئاً غريباً متصلاً بمصدم السيارة الخلفي. سلاسل وقطعتين من مشمع شديد القذارة. مهترئ. ممزق.

قال جارد: «هنا». سار أمامي صوب شق صغير تحت صخرة. كان ارتفاع الشق أقل من طول جارد. أزاح بيده قماشاً وسخ اللون وراح يبحث في كومة مخبّأة تحته. رأيته يخرج قميصاً ناعماً نظيفاً. ما زالت لصاقاته عليه. نزع اللصاقات ورمى القميص صوبي. راح يبحث من جديد حتى وجد بنطلوناً كاكي اللون. تأكد من مقاس البنطلون ثم رماه صوبي أيضاً.

«ارتدي هذه الملابس».

ترددت لحظة بينما كان ينتظرني مستغرباً ترددي. احمرّ وجهي ثم أدرت ظهري إليه. خلعت قميصي الممزق وارتديت القميص الجديد بأسرع ما استطاعت أصابعي المرتبكة.

سمعته يتنحنح: «أوه! سوف. أجلب السيارة». سمعت وقع خطواته المبتعدة.

خلعت بنطلوني القصير وارتديت البنطلون الجديد. كان حذائي في حالة سيئة أيضاً، لكنه ليس شيئاً ملحوظاً إلى حد كبير. ثم إن العثور على أحذية مريحة ليس أمراً سهلاً دائماً. أستطيع التظاهر بأنني أحب هذا الحذاء تحديداً!

سمعت صوت محرك سيارة أخرى. ضجيجه أقلّ من ضجيج محرك سيارة الجيب. استدرت فرأيت سيارة عادية متواضعة لا تلفت الأنظار تخرج من الظل العميق تحت إحدى الصخور الكبيرة. ترجّل جارد من السيارة وفك القماش المتّسخ العتيق عن مصدم سيارة الجيب وعلقه بمصدم السيارة الجديدة من الخلف.

بعد ذلك قادها إلى حيث أقف. عندما رأيت القماش يمسح آثار عجلات السيارة عن التراب فهمت الغاية منه.

مال جارد ففتح لي الباب. رأيت حقيبة ظهر على المقعد. كانت منبسطة. فارغة. فهمت الغاية منها. نعم، هذا ما أحتاج إليه.

«فلنذهب».

قلت: «انتظر لحظة».

انحنيت حتى أنظر إلى نفسي في مرآة السيارة الجانبية.

غير جيد. فردت شعري الواصل حتى ذقني فجعلته يغطي خدي، لكن هذا لم يكن كافياً. لمست خدي ثم عضضت على شفتي.

أشرت إلى الندوب الطويلة المتعرجة على وجهي: «جارد. لا أستطيع الذهاب بهذا الوجه».

سألني: «ماذا؟».

«لا يمكن أن يجد المرء ندوباً مثل هذه على وجه أي روح من غير علاج. سوف يتساءلون عن المكان الذي كنت فيه. وسوف يطرحون أسئلة».

اتسعت عيناه ثم توترتا: «ربما كان عليك التفكير في هذا قبل أن

أتسلل بك إلى الخارج. إذا عدنا الآن فسوف يظنون أن الأمر كله مؤامرة من صنعك حتى تعرفي طريق الخروج».

خرج صوتي أكثر قسوة من صوته: «لكننا لن نعود من غير أدوية من أجل جيمي».

ازداد صوته قسوة حتى يجاري قسوة صوتي: «ما الذي تقترحينه إذاً يا جو؟».

تنهدت: «إنني في حاجة إلى حجر. وسوف يكون عليك أن تضربني به».

## الفصل الرابع والأربعون

# شفاء

«جو. ماذا؟».

«لا وقت لدينا. إنني مستعدة لفعلها بنفسي، لكنني لا أستطيع توجيه الضربة على نحو صحيح. ما من سبيل آخر»

«لا أظنني أستطيع. فعل هذا».

«حتى من أجل جيمي؟». أسندت الجانب السليم من وجهي إلى ظهر المقعد وضغطته عليه ضغطاً جيداً ثم أغمضت عينيّ.

كان جارد ممسكاً ذلك الحجر الخشن البالغ حجم قبضة اليد. الحجر الذي وجدته. إنه يروزه الآن في يده. استمر خمس دقائق.

«عليك اختراق طبقات الجلد السطحية. يكفي أن تختفي الندبة التي على وجهي، هذا كل شيء. هيا يا جارد، علينا أن نسرع. إن جيمي. .».

«أخبريه أنني أقول له أن يفعل ذلك الآن. وأن يضرب ضربة قوية».

«تقول لك ميلاني أن تفعل ذلك الآن. وتقول لك أن تحرص على تحقيق الأثر الكافي. حققه بضربة واحدة».

صمت.

«هيا يا جارد!».

استنشق جارد نفساً عميقاً. شهق. أحسست بالهواء يتحرك فشددت على عيني المغمضتين.

صدر صوت تحطم وارتطام. كان هذا أول شيء ألاحظه. ثم زالت صدمة الضربة فأحسست بها أيضاً.

تأوّهت قائلة: «أووه!». ما كنت أقصد إصدار أي صوت. أعرف أن تأوهي يزيد الأمر صعوبة عليه، لكن ثمة الكثير مما هو غير إرادي في هذا الجسم. اندفعت الدموع من عيني فسعلت حتى أخفي بكائي. دوى طنين في رأسي. بعد الصدمة.

«جو؟ ميلاني؟ إنني آسف!».

احتضنتنا ذراعاه. غمرتانا في صدره.

همست: «لا بأس. نحن بخير. هل أزلت الندبة كلها؟».

لمستْ كفه ذقني فأدارت رأسي جانباً.

شهق مذعوراً: «آه! لقد حطمت نصف وجهك. إنني في غاية الأسف».

«لا، هذا جيد. هذا جيد. فلنذهب».

«صحيح». ما زال صوته ضعيفاً، لكنه أجلسني جيداً في مقعدي ثم انطلقت السيارة من تحتنا.

صفع وجهي هواء بارد مثل الثلج فصدمني. فاجأني. خدر خدي الدامي. لقد نسيت كيف يكون الشعور بمكيف الهواء في السيارة.

فتحت عينيّ. كنا نتحرك منحدرين عبر مجرى سيلٍ غير وعر.. كان أقل وعورة مما ينبغي أن يكون لأن يداً غيرته ليصير على هذا النحو. كان يسير.. نازلاً مبتعداً. ملتفاً حول الأجمة. ما كنت قادرة على الرؤية إلى مسافة بعيدة.

أنزلت المظلة الواقية من الشمس وفتحت المرآة فيها. رأيت وجهي باللونين الأسود والأبيض في ضوء القمر الخافت. كان اللون الأسود يغطي الجانب الأيمن. يسيل على ذقني ويقطر على رقبتي ثم ينتشر في ياقة قميصي النظيف الجديد.

ثارت معدتي.

همست: «عمل متقن».

«ما مدى ألمك؟».

قلت كاذبة: «ليس كثيراً. ثم إنه لن يستمر فترة طويلة. كم تبعد توكسون الآن؟».

وصلنا إلى الطريق المعبّد في تلك اللحظة. غريب كيف جعلت رؤيته قلبي يخفق مذعوراً. توقف جارد قبل أن تخرج السيارة من حماية الأجمة. ترجّل من السيارة فأزال المشمع والسلاسل عن المصدم الخلفي ووضع هذه الأشياء كلها في صندوق السيارة. جلس في مقعده وتقدم بالسيارة رويداً وهو ينظر بحرص ليتأكد من خلو الطريق. مد يده لإضاءة أنوار السيارة.

همست: «انتظر». ما كنت قادرة على الكلام بصوت أعلى. أحسست أنني مكشوفة تماماً هنا. «دعني أقود السيارة».

نظر إليّ مستغرباً.

«لا يجوز أن يبدو عليّ أنني ذاهبة إلى المستشفى مشياً بهذه الحالة سوف تكون الأسئلة كثيرة. عليّ أن أقود السيارة. أما أنت فاختبئ في الخلف ووجهني من هناك. هل لديك ما تستطيع الاختباء تحته».

قال ببطء: «طيب». تراجع بالسيارة حتى أعماق الأجمة. «طيب سوف أختبئ. لكن، إذا ذهبت بالسيارة خلاف ما أقول لك. .».

«أوه!». صدم شكّه ميلاني كما صدمني أنا.

قلت بصوت مسطح: «في هذه الحالة أطلق النار عليّ».

لم يجبني. نزل من السيارة وترك المحرك دائراً. انزلقت إلى مقعده سمعت صوت إغلاق صندوق السيارة. جلس جارد في المقعد الخلفي وفي يده بطانية سميكة خضراء.

قال: «اخرجي بالسيارة إلى الطريق واستديري يميناً».

كانت السيارة أوتوماتيكية، لكنني كنت غير واثقة من نفسي خلف

المفقود. تحركت إلى الأمام حذرة. ما زال الطريق خالياً. خرجت إلى الطريق. استجاب قلبي لذلك المجال الرحب المفتوح من جديد.

قال جارد: «أشعلي أضواء السيارة». جاءني صوته من الأسفل، من تحت البطانية على المقعد الخلفي.

بحثت حتى وجدت مفتاح الضوء ثم أدرت المفتاح. بدت أضواء السيارة شديدة إلى حد مخيف.

ما كنا بعيدين عن توكسون فقد كنت قادرة على رؤية ألق مصفرّ منعكس على السماء. إنها أضواء المدينة أمامنا. قال جارد: «يمكنك القيادة بسرعة أكبر قليلاً».

قلت محتجة: «لقد بلغت حد السرعة المسموح».

صمت لحظة: «ألا تسرع الأرواح؟»

ضحكت. كان صوت ضحكتي هستيرياً: «إننا نطيع القوانين كلها بما فيها قوانين السير».

صارت الأضواء أكثر من مجرد ألق منعكس على السماء. تحولت إلى نقاط محددة من الضياء. أخبرتني الإشارات الخضراء عن خيارات التوجه على الطريق.

«اسلكي طريق إينا».

نفّذت تعليماته. ظل صوته خفيضاً رغم أننا، في تلك السيارة المغلقة، كنا قادرين على الصياح إذا أردنا.

كان وجودي في هذه المدينة غير المألوفة أمراً صعباً. كان صعباً عليّ أن أرى المنازل والشقق والمحلات بلافتاتها المضاءة. أن أعرف أنني محاطة. محاصرة بأعداد تفوق عددنا بكثير. كيف يبدو هذا الشعور بالنسبة لجارد. كان صوته هادئاً إلى حد كبير. فقد فعل هذا من قبل مرات كثيرة.

صار على الطريق سيارات أخرى الآن. وعندما كانت أنوارها تقابلني كنت أنكمش على نفسي خوفاً.

«لا تنهاري الآن يا جو. عليك أن تكوني قوية من أجل جيمي. لن ينجح الأمر إذا لم تكوني قوية».

«أستطيع أن أكون قوية... أستطيع أن أفعل ذلك».

ركزت تفكيري على جيمي فصارت يداي أكثر ثباتاً على المقود.

راح جارد يوجهني عبر تلك المدينة التي مازالت نائمة. كان المرفق الصحي مكاناً صغيراً. لا بد أنه كان بناية طبّية ذات يوم. عيادات أطباء لا مستشفى حقيقي! كانت أكثر نوافذ البناء متلألئة بالأضواء. وكانت الأضواء تنير واجهته الأمامية الزجاجية. رأيت امرأة خلف مكتب الاستقبال. لم ترفع رأسها لتنظر إلى السيارة. قدت السيارة حتى أكثر المناطق ظلمة في ساحة وقوف السيارات.

زلقت ذراعي عبر حمالات الحقيبة الظهر. ما كانت حقيبة جديدة، لكنها في حالة جيدة. ممتاز. لكن، ثمة أمر آخر عليّ أن أفعله الآن.

«أسرع، أعطني السكين».

«جو.. أعرف أنك تحبين جيمي، لكني لا أعتقد حقاً أنك تستطيعين استخدام السكين. أنت لست مقاتلة».

«لا أريد السكين من أجلهم يا جو. إنني في حاجة إلى جرح».

«لديك جرح. وهو كاف!».

«أريد جرحاً يشبه جرح جيمي. لست أعرف شيئاً عن المعالجة علي أن أرى ما يفعلونه بالضبط حتى أستطيع فعله بنفسي. كان يمكن أن أجرح نفسي قبل الآن، لكني ما كنت واثقة من قدرتي على قيادة السيارة بعد ذلك».

«لا ليس من جديد».

«أعطني السكين الآن. سوف يلاحظنا أحد إذا لم أدخل المستشفى سريعاً».

فكر جارد في الأمر سريعاً. إنه الأفضل كما قال جيب... لأنه كان

قادراً على رؤية ما يجب فعله. وكان قادراً على فعله بسرعة. سمعت الصوت الفولاذي لخروج السكين من غمدها.

«انتبهي جيداً. حاولي ألا يكون الجرح عميقاً».

«هل تريد أن تفعلها بنفسك».

تنفس بحدة: «لا»

«لا بأس».

أمسكت السكين البشعة. كان مقبضها ثقيلاً. كانت حادة كثيراً. وكانت قمتها مدببة.

لم أترك نفسي أفكر في هذا. ما كنت أود أن أعطي نفسي فرصة لأن أكون جبانة. يجب أن أجرح ذراعي، لا ساقي. كان هذا الشيء الوحيد الذي توقفت لتقريره. ثمة ندبات على ركبتي. ولست أريد أن أضطر إلى إخفائها أيضاً.

مددت ذراعي اليسرى. كانت يدي ترتجف. أسندتها إلى الباب ثم أدرت رأسي حتى أستطيع عض مسند المقعد. أمسكت مقبض السكين على نحو أخرق، لكن على نحو محكم أيضاً. أمسكتها بيدي اليمنى. لمست جلد ساعدي برأس السكين حتى لا أخطئ الهدف ثم أغمضت عيني.

كان تنفس جارد ثقيلاً في الخلف. عليّ أن أسرع وإلا سوف يوقفني.

قلت لنفسي: «تظاهري أنك تغرسين مجرفة في الأرض».

دفعت السكين داخل ذراعي.

أخمد المقعد صراخي لأنني كنت أمسكه بأسناني، لكن صرختي ظلت مرتفعة رغم ذلك. سقطت السكين من يدي وتدحرجت على الأرض.

همس جارد: «جوا».

لم أستطع إجابته. حاولت ابتلاع الصرخات الأخرى التي كانت تندفع. كنت محقة في عدم فعل هذا الشيء قبل قيادة السيارة.

«دعيني أراها!».

قلت لاهثة: «ابق مكانك. لا تتحرك».

لكني سمعت البطانية تتحرك من خلفي رغم تحذيري. قرّبت ذراعي اليسرى من جسدي وفتحت الباب بيدي اليمنى. مسّت يد جارد ظهري عندما خرجت شبه منهارة من السيارة. ما كان يحاول إمساكي.. بل تهدئتي.

قلت متظاهرة بالسعال: «سوف أعود سريعاً». ثم ركلت الباب برجلي فأغلقته من خلفي.

سرت متعثرة عبر ساحة وقوف السيارات. كنت أقاوم الألم والإحساس بالغثيان. بدا كل شعور من هذين الشعورين يوازن الشعور الآخر... يمنعه من السيطرة الكاملة على جسدي. ما كان الألم شديداً... أو، ربما ما كنت قادرة على الإحساس بشدته بعد الآن. إنني في حالة صدمة. أنواع كثيرة من الألم.. أنواع متقاربة. انساب سائل حار على أصابعي وراح يقطر على الرصيف. هل أستطيع تحريك هذه الأصابع؟ كنت خائفة من المحاولة.

قفزت المرأة الجالسة إلى طاولة الاستقبال... قفزت على قدميها عندما دخلت من الباب الآلي... كانت في منتصف العمر، كان جلدها بلون الشوكولاته الداكنة... رأيت في شعرها الأسود بضع خصل فضية.

«أوه، لا!» أمسكت بالميكروفون فترددت كلماتها عبر مكبرات الصوت في السقف: «المعالجة نايت! أنت مطلوبة في الاستقبال! هذه حالة طارئة!».

حاولت التكلم بهدوء: «لا». لكني تمايلت في مكاني موشكة على السقوط. «إنني بخير... مجرد حادث».

وضعت المرأة الميكروفون وأسرعت إلى حيث كنت أتمايل واقفة. طوقت خصري بذراعها وقالت: «أوه يا عزيزتي، ماذا أصابك؟».

تمتمت: «إنه الإهمال. كنت في نزهة في الجبال.. وسقطت على الصخور. كنت أقوم بأعمال التنظيف بعد الطعام وكانت سكين في يدي...».

بدا ترددي هذا متناسباً مع حالة الصدمة التي أعيشها. لم تنظر المرأة إليّ نظرة شك أو نظرة سخرية كما يفعل إيان أحياناً عندما يسمعني أكذب. ما كان في نظرتها إلا القلق والاهتمام.

«عزيزتي المسكينة! ما اسمك؟».

قلت لها: «أبراج الزجاج». استخدمت اسماً حقيقياً لأحد الأشخاص الذين كانوا معي على كوكب الدببة.

«طيب، يا أبراج الزجاج. ها قد أتت المعالجة. سوف تكونين بخير بعد لحظات قليلة».

ما عدت أشعر بأي خوف. ربتت المرأة اللطيفة على كتفي. كانت شديدة اللطف... شديدة الاهتمام. لا يمكن أن تؤذيني أبداً.

كانت المعالجة امرأة شابة. كان لون شعرها وجلدها وعينيها بنياً. بدا منظرها الغريب.. موحداً. كانت ثيابها تعزز هذا الانطباع.

قالت: «واوا أنا المعالجة نايت فاير. سوف أصلح أمرك على الفور. ماذا حدث؟».

كررت قصتي من جديد بينما أخذتني المرأتان عبر الممر ودخلتا بي الباب الأول. جعلتاني أستلقي على سرير مغطى بالورق.

كانت الغرفة مألوفة الشكل. لم أزر مكاناً من هذا النوع إلا مرة واحدة. لكن طفولة ميلاني كانت مليئة بذكريات من هذا القبيل. رأيت صفاً قصيراً من الخزائن المزدوجة. ورأيت مغسلة كانت المعالجة تغسل يديها فوقها... ورأيت الجدران البيضاء النظيفة... اللامعة.

قالت المعالجة مبتسمة: «نبدأ بالأهم». فتحت إحدى الخزائن.

حاولت تركيز نظري عارفة أهمية الأمر. كانت الخزانة مملوءة بصفوف وصفوف من القوارير الأسطوانية البيضاء. تناولت المعالجة إحدى هذه القوارير. . . مدت يدها صوبها من دون بحث. كانت تعرف ما تريد رأيت لصاقة على تلك الزجاجة، لكنني لم أستطع قراءة ما كتب عليها «سوف يفيدك قليل من مسكن الألم، ألا تظنين هذا؟».

رأيت اللصاقة من جديد عندما فتحت المعالجة غطاء الزجاجة قرأت كلمتين على اللصاقة. مسكن الألم. هل هذا اسم الدواء؟

«افتحي فمك».

أطعتها. أخرجت من الزجاجة مربعاً صغيراً رقيقاً. بدا كأنه قطعة من منديل ورقي. ثم وضعت هذا المربع على لساني. ذاب المربع على الفور. ما كان له طعم. ابتلعته بحركة تلقائية.

سألتني المعالجة: «هل صرت أفضل؟».

كنت في حال أفضل حقاً. على الفور. صفا رأسي. صرت قادرة على التركيز من غير صعوبة. ذاب الألم واختفى مع ذوبان ذلك المربع الصغير. اختفى حقاً. رفرفت بعيني دهشة.

قلت لها: «نعم».

«أعرف كيف تشعرين الآن، لكن أرجوك. لا تتحركي. لم أعالج جراحك بعد».

«طبعاً».

«سيرولين، هل تحضرين لنا بعض الماء؟ إن فمها جاف».

«على الفور».

خرجت المرأة من الغرفة. استدارت المعالجة صوب الخزائن من جديد. فتحت خزانة أخرى. رأيت هذه الخزانة أيضاً ممتلئة بقوارير بيضاء. «ها هي». أخذت زجاجة من الرف العلوي ثم أخذت زجاجة أخرى من الجانب الآخر.

راحت تلتقط زجاجات أخرى وهي تقرأ ما كتب عليها كما لو أنها تحاول مساعدتي على أداء مهمتي.

«منظف. من الداخل ومن الخارج. شافي. مغلق الجروح. ثم. أين هو. مزيل الندوب. لا أريد أن تبقى ندبة على وجهك الجميل، أليس كذلك؟».

«آه. طبعاً»

«لا تقلقي. سوف تعودين جميلة من جديد».

«شكراً».

«أهلاً بك».

انحنت المعالجة فوقي حاملة أسطوانة بيضاء. انفتحت قمة الأسطوانة مصدرة صوتاً صفيراً ثم ظهرت من تحتها فوهة بخاخ. رشت المعالجة ذراعي أولاً فغطت الجرح بضباب شفاف لا رائحة له.

«لا بد أنك تشعرين بالرضا في مهنتك هذه». بدا لي صوتي كما يجب أن يكون. بدا فيه اهتمام، لكن من غير مبالغة. «لم أزر أي مركز علاجي منذ عملية الزرع. إن هذا مثير للاهتمام حقاً».

بدأت المعالجة ترشّ وجهي بتلك المادة وقالت: «نعم، أحب عملي».

«ماذا تفعلين الآن؟».

ابتسمت المعالجة. أظن أنني لست الروح الفضولية الأولى التي تزورها: «هذا منظف الجروح. وهو يضمن عدم بقاء أي جسم غريب في الجرح. وهو يقتل كل أنواع الجراثيم التي يمكن أن تسبب التهاب الجروح».

كررت لنفسي حتى أحفظ اسم الدواء: «منظف الجروح».

«ولدينا أيضاً منظف الجروح من الداخل. إنه يستخدم في حالة دخول أي شيء إلى نظام جسمك. استنشقي هذا من فضلك».

كانت في يدها زجاجة بيضاء مختلفة هذه المرة. كانت متطاولة

دقيقة. وكانت لها مضخة بدلاً من فوهة البخاخ. أطلقت المعالجة من ضباب الزجاجة فوق وجهي. استنشقت الهواء. بدا مذاق الضباب شبيهاً بمذاق النعناع.

تابعت المعالجة: «وهذا هو الشافي». فتحت غطاء الزجاجة فظهرت فوهة صغيرة من تحته. «إنه يدفع أنسجتك إلى الالتحام من جديد.. إلى النمو بطريقتها المعتادة».

صبّت مقداراً قليلاً من هذا السائل الرائق على الجرح الكبير في ذراعي ثم أغلقت الجرح وضغطت حافتيه. كنت أستطيع الشعور بلمستها، لكني لم أشعر بأي ألم.

«سوف أختم هذا الجرح قبل أن أنتقل إلى الإصابة الأخرى». فتحت عبوة أخرى. كانت أنبوباً طرياً عصرت منه مقداراً قليلاً من مادة هلامية كثيفة شفافة. وضعتها على إصبعها قائلة لي: «إنه شبيه بالغراء. وهو يختم الجرح ويترك الدواء الشافي يأخذ مفعوله». مسحت جرحي بهذه المادة بحركة سريعة واحدة. «لا بأس، إن ذراعك في أحسن حال الآن»

رفعت ذراعي لأراها. رأيت خطاً وردياً باهتاً مرئياً تحت المادة الهلامية اللامعة. ما زال الدم لم يجف على ذراعي، لكن تدفق الدم توقف. وبينما كنت أنظر إلى ذراعي، مسحتها المعالجة بقطعة قماش رطبة.

«أديري وجهك إلى تلك النّاحية من فضلك. هممم، لا بد أنك أصبت تلك الصخور إصابة شديدة. يا للفوضى».

«نعم. كان سقوطاً مخيفاً».

«لا بأس، من حسن الحظ أنك تمكنت من قيادة السيارة حتى وصلتِ إلى هنا».

كانت الآن تضع الدواء الشافي على وجنتي. وكانت تمسح نقاطه فوقها بأطراف أصابعها: «آه، أحب أن أراه يأخذ مفعوله. بدأ الجرح يتحسن منذ الآن. لا بأس. لنضع قليلاً على الأطراف أيضاً». ابتسمت

لنفسها. «فلنضع طبقة أخرى. أريد أن يزول هذا تماماً». استمرت في عملها مدة دقيقة أخرى ثم قالت: «لطيف جداً».

دخلت المرأة الأخرى من الباب قائلة: «أتيت ببعض الماء».

«شكراً يا سيرولين».

«إذا احتجت إلى شيء آخر. نادیني. سوف أكون على مكتبي».

ذهبت المرأة.

«تستطيعين الجلوس الآن. ما شعورك؟».

جلست: «رائع!». كان هذا صحيحاً. لم أشعر بهذا القدر الوافر من الصحة منذ زمن بعيد. كما أن هذا الانتقال السريع من الألم إلى الراحة جعل الإحساس أكثر قوة.

«هكذا يجب أن يكون الأمر. جيدا! فلنرشّ على جرحك شيئاً من مزيل الندوب».

فتحت الزجاجة الأخيرة ورشت منها في كفها مسحوقاً ملوناً. وضعت هذا المسحوق على وجنتي ثم وضعت كمية أخرى على ذراعي.

قالت معتذرة: «سوف يبقى هذا الخط الصغير على ذراعك دائماً. مثل الخط على رقبتك. إنه جرح عميق. .».

رفعت كتفيها. وبحركة تلقائية، أزاحت شعري عن رقبتي لتنظر إلى أثر الجرح فيها: «لقد تم شفاء جرحك بمهارة. من هو المعالج الذي فعل هذا؟».

قلت: «اممم. إنه الوجه الناظر إلى الشمس». كان هذا اسم أحد طلابي في الجامعة. «كنت في بلدة يوريكا في مونتانا. لكني لا أحب البرد. ولهذا انتقلت إلى الجنوب».

أكاذيب كثيرة! أحسست بشيء من القلق في معدتي.

قالت المعالجة دون أن تلاحظ أي اضطراب في صوتي: «بدأت حياتي في منطقة شمالية باردة أيضاً». ومع كلماتها هذه كانت تنظف رقبتي من الدم. «كان الجو شديد البرودة بالنسبة لي أيضاً. ما مهنتك؟».

«إنني أقدم الطعام في مطعم مكسيكي في. فينكس. أحب الطعام كثير التوابل».

«وأنا أحبه أيضاً». ما كانت تنظر إليّ بطريقة غريبة ساخرة. كانت تنظف وجهي الآن.

«لطيف جداً. لا تقلقي يا عزيزتي. صار وجهك رائعاً».

«شكراً أيتها المعالجة».

«هل تريدين بعض الماء؟».

«نعم من فضلك» حافظت على ابتسامتي. لا يصح أن أفرغ الكأس كلها دفعة واحدة كما كنت أريد. لكني ما كنت قادرة على منع نفسي من ذلك فقد كان الماء لذيذاً جداً.

«أتريدين المزيد؟».

«أنا. نعم، سيكون هذا لطيفاً. شكراً لك».

«سوف أعود سريعاً».

فور خروجها من الغرفة، انزلقتُ نازلة عن السرير. فرقع الغطاء الورقي من تحتي فجمدني صوته في مكاني. لم تعد المعالجة! أمامي ثوانٍ قليلة فقط. لقد غابت سيرولين عدة دقائق عندما جلبت الماء. لعل المعالجة تغيب الوقت نفسه. لعل الماء البارد موجود في مكان بعيد عن هذه الغرفة!

أنزلت الحقيبة عن كتفي وفتحتها. بدأت بالخزانة الثانية. كانت فيها صفوف من زجاجات الشافي. وضعت صفاً كاملاً في قعر حقيبتي. ماذا أقول إذا جاءت المعالجة فأمسكت بي؟ ما الكذبة التي يمكن أن أستخدمها؟

بعد ذلك أخذت من الخزانة الأولى مجموعة من منظف الجروح. من النوعين. وجدت صفاً آخر خلف الصف الأول فأخذت قسماً منه أيضاً. ثم ذهبت إلى مسكن الألم فأخذت صفين. كنت على وشك

الاستدارة لأتناول زجاجات خاتم الجروح عندما لمحت لصاقة جذبت اهتمامي.

مزيل الحرارة. أهو من أجل الحمى؟ ما كان عليه تعليمات. وحدها اللصاقة. أخذت صفاً من هذه الزجاجات. لا شيء هنا يؤذي الجسد البشري. إنني واثقة من هذا.

أخذت جميع زجاجات خاتم الجروح وأخذت علبتين من مزيل آثار الجروح. ما كنت أستطيع الاعتماد على حظي أكثر من ذلك. أغلقت الخزائن بهدوء ثم أدخلت ذراعي في أشرطة الحقيبة الظهرية. عدت فاستلقيت على الفراش فرقع الورق من جديد. حاولت أن أبدو مسترخية.

لم تعد المعالجة.

نظرت إلى الساعة. لم يمض على ذهابها إلا دقيقة واحدة. كم يبعد هذا الماء؟

دقيقتان.

ثلاث دقائق.

هل كانت أكاذيبي مفضوحة بالنسبة لها كما هي بالنسبة لي؟

بدأ العرق ينبع من جبهتي. مسحته بسرعة.

ماذا لو جاءت جالبة الباحثين معها؟

فكرت في الحبة الصغيرة الموجودة في جيبي. ارتجفت يداي. لكني أستطيع أن أفعل هذا. نعم. من أجل جيمي.

سمعت صوت خطوات هادئة. زوجين من الأقدام. كان الصوت آتياً من نهاية الممر.

## الفصل الخامس والأربعون

# نجاح

دخلت المعالجة الغرفة ومعها سيرولين. ناولتني كأساً طويلة من الماء. لم أشعر ببرودة الكأس مثلما شعرت ببرودة الكأس الأولى.
كانت أصابعي باردة بفعل ذعري الآن. كانت المرأة ذات الجلد الداكن تحمل لي شيئاً بدورها. ناولتني مستطيلاً مسطحاً له مقبض.

قالت المعالجة بابتسامة دافئة: «ظننت أنك ترغبين في رؤية نفسك».

زال التوتر مني. لم أر أي شك في عينيها. لم أر إلا مزيداً من اللطف من هذه الأرواح التي كرست أنفسها من أجل معالجة الناس. لقد أعطتني سيرولين مرآة.

حملت المرآة ونظرت فيها. حاولت كتم شهقتي.

رأيت وجهي كما أذكره من أيام سان دييغو. إنه الوجه الذي ألفته هناك. كان جلد خدي الأيمن سليماً ناعماً مخملياً. وعندما نظرت بانتباه رأيت أن الجلد في هذه المنطقة كان أكثر توردا من الجهة الأخرى.. السليمة.

إنه وجه الجوالة، الروح. إنه ينتمي إلى هذا المكان، إلى المدنية، حيث لا خوف ولا عنف.

أدركت عندئذ سبب سهولة الكذب على هذه الكائنات اللطيفة.

لقد كان إحساسي عند الكلام معهم صائباً. كنت أفهم قواعدهم وأساليب تواصلهم. كانت الكذبة تخرج من فمي. صادقة! يجب أن تكون لي مهمة أؤديها في مكان ما. سواء كانت تقديم الطعام في مطعم

سألتني المعالجة: «ما رأيك؟».

«يبدو هذا ممتازاً. شكراً لك».

«سررت بمعالجتك».

نظرت إلى نفسي من جديد فرأيت تفاصيل أخرى من خلف ذلك الكمال. كان شعري مشعثاً قذراً غير مشذب الأطراف ما كان فيه أي لمعان. هذا بسبب الصابون المصنوع يدوياً وبسبب سوء التغذية. صحيح أن المعالجة نظفت رقبتي من الدم. لكن بقايا الغبار الأرجواني ما زالت عالقة بها.

تمتمت: «أظن أن الوقت قد حان لإنهاء رحلة التخييم. إنني في حاجة إلى الاغتسال».

«وهل تذهبين إلى التخيم كثيراً؟».

«إنني أذهب كلما حظيت بوقت فراغ. الظاهر. أنني لا أستطيع الابتعاد عن الصحراء».

«لابد أنك شجاعة فأنا أجد المدينة أكثر راحة».

«لست شجاعة. إنني مختلفة فقط».

في المرآة، كانت عيناي دائرتين بنيتين مألوفتين. كان لونهما رمادياً داكناً من الخارج ثم تأتي دائرة من الخضرة الخفيفة ثم دائرة أخرى من البني المشقر حول البؤبؤ. وفوق هذا كله، طبقة رقيقة من الفضة تعكس الضوء. تكبره.

«جيمي؟». هكذا سألتني ميلاني على نحو مفاجئ. لقد بدأت تتوتر. إنني مرتاحة تماماً هنا. بدأت ميلاني ترى منطق الاتجاه الآخر أمامي فأصابها الذعر.

قلت لها: «اعرف من أنا».

رفّت عيناي ونظرت إلى الوجهين الودودين إلى جانبي.

قلت للمعالجة من جديد: «أشكرك. أظن أن عليّ الذهاب الآن».

«تأخر الوقت كثيراً. تستطيعين النوم هنا إذا أردت».

«لست متعبة. بل أحس... بأنني في وضع ممتاز».

ابتسمت المعالجة: «إنه مفعول المسكن».

مضت بي سيرولين حتى المدخل. وضعت يدها على كتفي عندما توقفت هناك.

صارت ضربات قلبي أكثر سرعة. هل لاحظت أن حقيبتي منتفخة الآن بعد أن كانت مسطحة؟

قالت وهي تربت على ذراعي: «كوني أكثر حذراً يا عزيزتي».

«سأكون أكثر حذراً. لا مزيد من النزهات في الليل».

ابتسمت ثم عادت إلى مكتبها.

حافظت على هدوء خطواتي وانتظامها أثناء سيري عبر ساحة وقوف السيارات. كنت أود أن أجري. ماذا لو نظرت المعالجة في خزائنها الآن؟ كم تحتاج من الوقت حتى تدرك سبب هذا النقص الكبير في الأدوية؟

ما زالت السيارة في مكانها... في ذلك الجيب المظلم بين عمودَيْ نور. بدت السيارة فارغة. تسارعت أنفاسي واضطربت. طبيعي أنها يجب أن تبدو فارغة. هذا هو المقصود! لكن رئتي لم ترتاحا من جديد حتى استطعت تمييز ذلك الشكل الغامض تحت البطانية على المقعد الخلفي.

فتحت الباب ووضعت الحقيبة على المعقد بجانبي. استقرت الحقيبة مصدرة قرقعة مطمئنة. جلست في مقعْدي وأغلقت الباب. ما من سبب يجعلني أقفل الباب من الداخل... تجاهلت الدافع الذي دعاني إلى ذلك.

همس جارد فور انطباق الباب: «هل أنت بخير؟». كان صوته لهاثاً متوتراً قلقاً.

قلت له: «ششش... انتظر». حاولت عدم تحريك شفتي.

قدت السيارة من أمام المدخل المضاء. لوحت لي سيرولين بيدها فأجبتها بتلويحة مماثلة.

«هل صار لك أصدقاء هنا؟».

صرنا على الطريق المظلم من جديد. ما كان أحد يراقبني الآن. استرخيت في مقعدي. بدأت يداي ترتجفان. صرت قادرة على السماح لهما بهذا. الآن بعد أن انتهى الأمر. لقد نجحت.

قلت له مستخدمة صوتي العادي: «إن الأرواح أصدقاء جميعاً».

سألني مرة أخرى: «هل أنت بخير؟».

«لقد شفيت»

«دعيني أرى».

رفعت يدي اليمنى قربتها منه حتى يستطيع رؤية الخط الوردي الواهي.

فوجئ فشهق.

تحركت البطانية. جلس جارد ثم جاء فجلس في المقعد الأمامي الأيمن ماراً عبر الفراغ بين المقعدين. أبعد الحقيبة من طريقه ثم وضعها في حضنه. أحس بوزنها.

نظر إليّ عندما كنا نمر تحت أحد مصابيح الشارع. شهق من جديد.

«وجهك!»

«لقد شفي أيضاً. هذا طبيعي».

رفع يده لكنه أوقفها في الهواء قرب خدي. كان غير واثق: «هل يؤلمك خدك؟».

«طبعاً لا أحس كأن شيئاً لم يصبه أصلاً».

داعبت أصابعه الجلد الجديد. دغدغتني هذه الحركة. عند ذلك عاد إلى الجد من جديد.

«هل شكّوا في أي شيء؟ هل تظنين أنهم يمكن أن يتصلوا بالباحثين؟».

«لا! قلت لك إنهم لن يشكوا في شيء. بل إنهم لم يتحقّقوا من عينَيّ أيضاً. لقد كنت مصابة، فعالجوني». رفعت كتفي.

سألني وهو يفتح الحقيبة: «ما الذي أتيت به؟».

«أتيت بما يلزم جيمي. إذا استطعنا الوصول في الوقت المناسب. .» استرقت نظرة إلى ساعة السيارة رغم أن الوقت الذي كانت تشير إليه كان عديم المعنى بالنسبة لي. «وجلبت المزيد من أجل المستقبل. لم آخذ إلا أدوية أفهمها».

قال: «سوف نعود في الوقت المناسب». راح ينظر إلى الزجاجات البيضاء. «مزيل الندبات؟».

«ليس هذا ضرورياً. لكني أعرف ما يستطيع فعله، لذلك. .».

أومأ جارد برأسه منقباً في الحقيبة. كان يقرأ أسماء الأدوية لنفسه «مزيل الألم؟ هل هو فعال حقاً؟».

ضحكت: «إنه مدهش. إذا طعنت نفسك بالسكين فسوف أريك مفعوله. . هذه نكتة».

«أعرف هذا».

كان ينظر إليّ بتعبير لم أستطع فهمه. كانت عيناه متسعتين، كأن شيئاً فاجأه فأدهشه كثيراً.

«ماذا؟». أظن أن نكتتي لم تكن سيئة إلى هذه الدرجة.

جاء صوته متعجِّباً: «لقد فعلت ذلك!».

«ألم تكن هذه فكرتنا؟».

«نعم، لكن. أظن أنني لَمْ أكن مقتنعاً حقاً بأننا قادرين على تنفيذها».

«لم تكن مقتنعاً! إذاً لماذا. .؟ لماذا تركتني أحاول؟».

أجابني بصوت يقارب الهمس: «رأيت أن الموت أثناء المحاولة أفضل من العيش بدون جيمي».

مرت لحظة أحسست فيها أن فيض المشاعر يخنقني. طغت المشاعر على ميلاني أيضاً. فأعجزتها عن الكلام. كنا أسرة واحدة في تلك اللحظة. كلنا.

تنحنحت. لا حاجة إلى الشعور بأشياء لا طائل منها.

«كان هذا شديد السهولة. لعل أي واحد منكم قادر على فعله. إذا تصرف على نحو طبيعي. لقد نظرت المعالجة إلى رقبتي». لمست رقبتي بحركة تلقائية. «إن الندبة على رقبتك بدائية جداً، لكن الطبيب يستطيع إصلاحها بهذه الأدوية التي جلبتها».

«أشك في أن أي واحد منا يستطيع التصرف بطريقة طبيعية في هذا الموقف»

هززت رأسي: «نعم. الأمر سهل بالنسبة لي. أعرف ما الذي يتوقعونه». ضحكت ضحكة صغيرة لنفسي. «إنني واحدة منهم. إذا وثقتم بي فربما أستطيع أن أحضر لكم أي شيء تريدونه في هذا العالم». ضحكت من جديد. كان هذا بسبب تلاشي التوتر. لقد استخفني الفرح. لكن الأمر كان غريباً بالنسبة لي أيضاً. هل يدرك جارد حقاً أنني مستعدة لفعل ما أقوله بالضبط؟ أي شيء في العالم. أي شيء يريده.

همس جارد: «إنني واثق بك. إنني أأتمنك على أرواحنا كلنا. إنني أثق بك».

لقد ائتمنني على كل روح بشرية موجودة. روحه، وروح جيمي. وأرواح الآخرين جميعاً.

أجبته هامسة: «شكراً لك»

عاد يقول متعجباً: «لقد فعلتِها حقاً!».

«سوف نتمكن من إنقاذه».

قالت ميلاني فرحة: «سوف يعيش جيمي. شكراً يا جو».

قلت لها: «أنا مستعدة لفعل أي شيء من أجلهما». قلت هذا ثم تنهدت لأني كنت صادقة تماماً.

وصلنا إلى مجرى السيل الجاف من جديد. أغلق جارد الحقيبة وتولى القيادة. كان يعرف الطريق. قاد السيارة أسرع مما كنت أقودها. جعلني أخرج من السيارة قبل أن يحشرها في مخبئها الضيق إلى حد غير

معقول تحت تلك الصخرة. انتظرت سماع اصطدام المعدن بالصخر، لكن جارد تمكن من إدخالها بسلام.

عند ذلك عدنا إلى سيارة الجيب. عدنا نطير عبر الليل. ضحك جارد ضحكة انتصار بينما كنا نندفع في تلك الصحراء الخالية. حملت الريح صوته بعيداً.

سألته: «أين عصابة العينين؟».

«لماذا؟».

نظرت إليه.

«اسمعي يا جو، لو أردتِ تسليمنا جميعاً، فقد سنحت لك الفرصة. لا يستطيع أحد إنكار أنك صرت واحدة منا الآن».

فكرت في الأمر: «أظن أن قلة منهم ما زالت غير قادرة على هذا التفكير. إذا عصبت عينيَّ فسوف يكون شعورهم أفضل».

«على هذه القلة أن تعيد التفكير».

هززت رأسي الآن متصورة كيفية استقبالنا: «لن يكون الأمر سهلاً. لن تكون العودة سهلة. تخيل ما يفكرون فيه الآن. تخيل ما الذي ينتظرونه. .».

لم يجبني جارد. توترت عيناه.

«جارد. إذا. إذا لم يقبلوا الإصغاء. إذا لم ينتظروا بدأت الحديث بسرعة. بدأت أشعر بضغط مفاجئ. رحت أحاول إعطاءه المعلومات قبل فوات الأوان. «أعط جيمي مزيل الألم أولاً ضع قطعة على لسانه. ثم استعمل بخاخ التنظيف العميق. عليه أن يستنشق رذاذه. وسوف يكون على الطبيب أن. .».

«انتظري. . انتظري! أنت من سيعطي هذه التعليمات هناك».

«لكن، دعني أخبرك كيف. .».

«لا يا جو. لن يسوء الأمر إلى هذه الدرجة. سوف أطلق النار على أي شخص يمسّك».

«جارد. . .».

«لا تخافي. سوف أطلق النار على أرجلهم وسوف تستطيعين استخدام الأدوية لمعالجتهم في ما بعد».

«هذه ليست نكتة. هذا ليس مضحكاً».

«لست أمزح يا جو».

«أين عصابة العينين؟».

شد على شفتيه.

لكن لديّ قميصي القديم. وسوف يفي بالغرض.

«سوف يجعل هذا من الأسهل عليهم أن يسمحوا لنا بالدخول». قلت هذه الكلمات وأنا أطوي القميص ليصير عصابة سميكة. «وهذا يعني وصولنا إلى جيمي بوقت أقصر». ربطت العصابة على عينيّ.

ساد الصمت فترة. كانت السيارة تقفز فوق الأرض غير المستوية. تذكرت ليالي مثل هذه الليلة عندما كانت ميلاني تجلس مكاني في هذا المقعد.

«إنني ذاهب إلى الكهوف مباشرة. ثمة مكان لإخفاء السيارة بشكل جيد مدة يوم أو يومين. هذا ما يجعلنا نصل في وقت أقل».

هززت رأسي. الوقت هو أهم شيء الآن.

قال بعد دقيقة: «وصلنا تقريباً». ثم قال: «إنهم في انتظارنا».

سمعت يده تعبث بشيء إلى جانبي. وسمعت طقطقة معدنية عندما رفع البندقية من المعقد الخلفي.

«لا تطلق النار على أحد».

«لا أعدك بشيء».

صاح أحدهم: «توقف!». انداح الصوت بعيداً في هواء الصحراء الخالية.

تباطأت السيارة ثم توقفت.

قال جارد: «هذا نحن فقط. نعم، نعم، انظر. هل ترى؟ ما زلت كما أنا!» أحسست تردداً من قبل الطرف الآخر.

«انظر. سوف أدخل السيارة في المخبأ. هل تفهمني؟ لقد جلبنا أدوية من أجل جيمي. ونحن في عجلة من أمرنا. لا يهمني ما تفكر فيه، لن أسمح لك بالوقوف في طريقي الليلة».

قفزت السيارة إلى الأمام. تغيّر صوتها. صار صداه يتردد من حولها عندما دخلت المخبأ.

«هيا يا جو. كل شيء على ما يرام. فلنذهب».

كانت الحقيبة على كتفي. هبطت من السيارة بحركات حذرة. ما كنت أعرف مكان الجدار. أمسك جارد بيديّ الباحثتين.

قال: «اصعدي»، ثم حملني فوق كتفيه من جديد.

ما كنت أشعر بأمان في هذه الوضعية فقد كان يمسكني بيد واحدة لا بد أن يده الأخرى ممسكة بالبندقية الآن. لم يعجبني هذا.

لكن قلقي جعلني ممتنة لوجود البندقية. فقد سمعت خطوات تجري مقتربة منا.

صاح كَايل: «جارد، أيها الأحمق! في أي شيء كنت تفكر؟».

قال جيب: «مهلاً يا كَايل».

سمعت صوت إيان يسأل: «هل هي مصابة؟».

قال جارد بصوت هادئ: «ابتعدوا عن طريقي. إنني في عجلة من أمري. جو ليست مصابة، لكنها أصرت على عصب عينيها. كيف هو جيمي؟».

قال جيب: «حرارته مرتفعة».

«لقد أحضرتْ جو ما يلزمنا». كان يسير سريعاً في هذه اللحظة. إنه الطريق المنحدر.

«أستطيع حملها بدلاً منك». إنه إيان. طبعاً.

«إنها مرتاحة حيث هي».

قلت لإيان: «إنني بخير يا إيان». كان صوتي يتماوج مع حركة جارد.

صعدت الطريق من جديد. لكن خطوات جارد ظلت مستقرة منتظمة رغم وزني. سمعت الآخرين يجرون معنا.

أدركت أننا وصلنا إلى الكهف الكبير     صارت الهمسات الغاضبة من حولنا في كل مكان.     صارت خليطاً من الأصوات.

زمجر جارد بصوت مرتفع: «ابتعدوا، ابتعدوا من طريقي. هل الطبيب عند جيمي؟».

لم أستطع تمييز الإجابة. يستطيع جارد أن ينزلني إلى الأرض الآن، لكنه مستعجل إلى حد لا يسمح له بالوقوف ولو لثانية واحدة.

ترددت الأصوات الغاضبة من خلفنا، صارت محصورة عندما دخلنا النفق الصغير. أحس وجهتنا الآن.     أستطيع متابعة المنعطفات في رأسي. لقد عبرنا مدخل غرف النوم. أكاد أستطيع أن أحصي الأبواب أثناء مرورنا بها..     من غير أن أراها.

توقف جارد على نحو مفاجئ فجعلني هذا التوقف أنزلق إلى الأرض هابطة عن كتفه. اصطدمت قدماي بالأرض فرفع جارد العصابة عن عينيّ.

كانت غرفتنا مضاءة بعدد من المصابيح الزرقاء الخافتة. رأيت الطبيب واقفاً متصلباً في وقفته كأنه هبّ على قدميه في هذه اللحظة. ورأيت شارون إلى جانبه. كانت راكعة بجانب جيمي تمسك بيدها قماشة مبللة. ما كدت أعرف وجهها لأنه كان مشوَّهاً بالغضب. رأيت ماغي تنهض واقفة. كانت إلى جانب جيمي من الجهة الأخرى.

مازال جيمي مستلقياً.     محمراً.     غير قادر على الحركة. رأيت عينيه مغمضتين. كانت حركة تنفسه غير مرئية تقريباً.

«أنتِ!». بصقت شارون هذه الكلمة ثم اندفعت إلى الأمام. وثبتْ صوب جارد كأنها قطة. كادت أظافرها تصيب وجهه.

أمسك جارد بيديها وأزاحها جانباً عنه ثم لوى ذراعيها خلف ظهرها.

أحسست أن ماغي موشكة على الانضمام إلى ابنتها لكن جيب تقدم إلى الأمام متخطياً شارون وجارد فوقف في مواجهتها.

صرخ الطبيب: «اتركها!».

تجاهله جارد: «جو. أسرعي لشفاء جيمي!»

تحرك الطبيب ليقف بيني وبين جيمي.

قلت بصوت مختنق: «يا دكتور». أخافني هذا العنف في الغرفة. أخافني قربه من جسد جيمي الساكن. «إنني في حاجة إلى مساعدتك. أرجوك. من أجل جيمي».

لم يتحرك الطبيب. ظلت عيناه معلقتين بشارون وجارد.

قال إيان: «هيا يا دكتور».

كانت الغرفة الصغيرة شديدة الازدحام. كانت تغص بالناس. تقدم إيان فوضع يده على كتفي: «هل تترك الطفل يموت من أجل كبريائك؟».

«ليست المسألة مسألة كبرياء. لا نعرف ما الذي يمكن أن تفعله به هذه المواد الغريبة».

«لا يمكن أن تسوء حالته أكثر من هذا، أليس كذلك؟».

قلت له: «يا دكتور. انظر إلى وجهي».

ما كان الطبيب الشخص الوحيد الذي استجاب لكلماتي هذه جيب. إيان. بل حتى ماغي. نظروا جميعاً ثم ظهر عليهم ردّ فعل مزدوج. أشاحت ماغي بوجهها سريعاً. غضبت من نفسها لأنها فعلت مثلما قلت.

سألني الطبيب: «كيف؟».

«سوف أريك. أرجوك. لا حاجة لأن يعاني جيمي».

تردد الطبيب ناظراً إلى وجهي، لكنه أطلق زفرة كبيرة. «إن إيان على حق. لن تسوء حالة جيمي أكثر من هذا. إذا قتله هذا الدواء. .» رفع كتفيه ثم أنزلهما. تراجع خطوة إلى الخلف.

صرخت شارون: «لا».

لم يكترث لها أحد.

ركعتُ إلى جانب جيمي وأنزلت الحقيبة عن كتفي ثم فتحتها بحثت حتى عثرت على مزيل الألم لمع ضوء ساطع إلى جانبي. انصبّ على وجه جيمي.

«إيان. ماء!»

فتحتُ الزجاجة فأخرجت مربعاً صغيراً. عندما أمسكت بذقن جيمي حتى أفتح فمه أحرقت حرارة جلده يدي. وضعت المربع على لسانه ثم مددت يدي من غير أن أرفع رأسي. وضع إيان كوب الماء في يدي.

وبحذر، صببت مقداراً من الماء في فم جيمي حتى يستطيع ابتلاع الدواء. كان صوت الابتلاع جافاً. مؤلماً.

أسرعت للبحث عن زجاجة البخاخ النحيلة. وعندما وجدتها فتحت غطاءها فاندفع الرذاذ في الهواء فوق رأس جيمي بحركة سريعة. انتظرت ورحت أراقب حركة صدغه. حتى استنشق الرذاذ.

لمست وجهه. كان شديد الحرارة! بحثت عن مزيل الحمى راجية أن يكون استخدامه سهلاً. نزعت الغطاء فوجدت في الزجاجة كمية من المربعات الرقيقة. إنها زرقاء هذه المرة. تنفست الصعداء ووضعت أحد هذه المربعات على لسان جيمي. أمسكت كوب الماء من جديد وصببت جرعة من الماء عبر شفتيه المتشققتين.

ابتلع الماء بحركة أكثر سرعة هذه المرة. وأقل صعوبة.

لمست يد أخرى وجه جيمي. عرفت أصابع الطبيب النحيلة الطويلة.

«دكتور هل لديك سكين حادة؟».

«لدي مشرط. هل تريدين أن أفتح الجرح؟».

«نعم. حتى أستطيع تنظيفه».

«لقد فكرت في محاولة ذلك. في محاولة تجفيفه. لكن الألم. .».

«لن يشعر بشيء الآن».

انحنى إيان إلى جانبي هامساً: «انظري إلى وجهه».

ما عاد وجه جيمي محمراً. عاد طبيعياً. معافى! ما زال العرق يلمع عند حاجبيه، لكني عرفت أن ذلك من بقايا العرق السابق. لمسنا جبهته في وقت واحد. أنا والطبيب.

«لقد بدأ مفعول الدواء... نعم!». غمرنا الارتياح، أنا وميلاني.

همس الطبيب: «مذهل!».

«لقد بردت الحمى، لكن العدوى يمكن أن تبقى في ساقه. ساعدني في تنظيف الجرح يا دكتور».

بدأ الطبيب يقول بذهن شارد: «شارون، هل تستطيعين مناولتي. »

رفع رأسه. «أوه. آه. كَايل، أعطني تلك الحقيبة على الأرض إلى جانبك؟».

انزلقتُ قليلاً إلى الأسفل حتى صرت إلى جانب ذلك الجرح المنتفخ. وجّه إيان الضوء إلى الجرح حتى أستطيع رؤيته على نحو واضح. رحت أفتش في حقيبتي وراح الطبيب يبحث في حقيبته، في وقت واحد. خرجت يد الطبيب حاملة مشرطاً طبياً. بعثتْ رؤية المشرط رعشة في ظهري. تجاهلت خوفي وأمسكت بزجاجة المنظف الكبيرة.

سألني الطبيب، متردداً: «ألن يشعر بالألم؟».

صاح جيمي: «هاي». كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما تجولان في الغرفة حتى عثرتا على وجهي: «مرحباً يا جو. ما الذي يجري؟ ما الذي يفعله الجميع هنا؟»

## الفصل السادس والأربعون

# إحاطة

بدأ جيمي يحاول الجلوس.

تقدم إيان ليضغط كتفيه على الفراش: «مهلك، مهلك يا فتى. كيف تشعر الآن؟».

«أشعر. وضعي جيد. ماذا يفعل الجميع هنا؟ لست أذكر. .».

«لقد كنت مريضاً. عليك أن تبقى ساكناً حتى نفرغ من معالجتك».

«هل لي ببعض الماء؟».

«طبعاً يا فتى. إليك الماء».

كان الطبيب يحدق إلى جيمي بعينين غير مصدقتين. أما أنا فكنت غير قادرة على الكلام تقريباً. أثقلت الفرحة حنجرتي فتمتمت: «إنه المسكن. إنه يعطي شعوراً رائعاً».

همس جيمي مخاطباً إيان: «لماذا يلوي جارد يدي شارون خلف ظهرها؟».

أجابه إيان هامساً أيضاً: «إنها في مزاج سيّئ».

حذره الطبيب: «عليك أن تبقى هادئاً تماماً يا جيمي. سوف. ننظف جرحك. اتفقنا؟».

قال جيمي موافقاً بصوت منخفض: «اتفقنا». لقد لاحظ المشرط في يد الطبيب. راح ينظر إلى المشرط قلقاً.

قال الطبيب: «إذا استطعت أن تشعر بهذا فأخبرني».

صححت قوله: «إذا شعرت بالألم».

وبمهارة عملية واضحة، مر الطبيب بمشرطه على الجلد المتورم بحركة طولية سريعة وحيدة. نظرنا معاً إلى وجه جيمي. كان ينظر إلى الأعلى، صوب السقف المظلم.

قال جيمي: «إنه شعور غريب. لكني لم أتألم».

هز الطبيب رأسه وتحركت يده بالمشرط من جديد فصنع شقاً عمودياً على الشق الأول. بدأ الدم الأسود والقيح الأصفر ينزان من الجرح.

فور انتهاء الطبيب من استعمال المشرط بدأت أرش الدواء المنظف فوق الشقين المتصالبين النازفين. وعندما بدأ الدواء يلمس المنطقة الملتهبة بدأ القيح الأصفر يتدفق بصمت. بدأ التورم يتراجع. كان ذلك مثل انفجار فقاعة أصابها رشاش من الماء. ذاب الورم تماماً. سمعت صوت تنفس الطبيب السريع من خلفي.

«انظروا إلى هذا».

رششت المنطقة مرتين حتى أضمن النتيجة. كان الاحمرار الداكن قد اختفى عن جلد جيمي. ما كان باقياً مكانه إلا لون الدم الأحمر الطبيعي المستمر في النزيف.

تمتمت: «والآن. الدواء الشافي».

أخرجت الزجاجة المطلوبة. وصببت منها فوق الجروح. تدفق السائل الرائق فغطى اللحم المكشوف بطبقة لامعة. توقف النزيف فور انتشار الدواء الشافي. صببت نصف الزجاجة. لا بد أن هذه الكمية تبلغ ضعفي الكمية اللازمة!

«والآن، اضغط حواف الجرح يا دكتور».

صار الطبيب عاجزاً عن الكلام عند هذه النقطة. كان فاغراً فمه فعل ما طلبته منه مستخدماً كلتا يديه لإغلاق الجرحين.

ضحك جيمي: «هذا يدغدغني».

جحظت عينا الطبيب في محجريهما.

وضعت الدواء الذي يغلق الجروح فوق الجرحين المتصالبين ورحت أنظر. برضا عميق. إلى حوافهما تندمل ويتحول لونها إلى اللون الوردي.

قال جيمي: «هل أستطيع النظر؟».

«دعه يا إيان. كدنا ننتهي».

رفع جيمي جسده على مرفقيه. عيناه كانتا لامعتين فضوليتين. كان شعره القذر المبلل بالعرق ملتصقاً برأسه. ما عاد منظر هذا الشعر طبيعياً الآن. إلى جانب ذلك التألق المعافى على جلده.

قلت: «انظر، إنني أضع هذا الدواء الآن». مسحت بيدي حفنة من مزيل الندوب فوق جراحه. «إنه يجعل الندوب تختفي تقريباً. مثل هذا». جعلته يرى مكان الجرح على ذراعي.

ضحك جيمي: «لكن، ألا تعجب الندوب الفتيات؟ من أين حصلت على هذه الأدوية يا جو؟ إنها أشبه بالسحر».

«لقد أخذني جارد في غارة».

«حقاً؟ هذا رائع».

لمس الطبيب بقية المسحوق اللامع على كفي ثم رفع إصبعه إلى أنفه.

قال جارد: «ليتك رأيتها. كانت شيئاً لا يصدق». فوجئت بسماع صوته قريباً خلفي. التفتّ بحركة تلقائية لأنظر إلى شارون فلمحت طرف شعرها الأحمر خارجاً من الباب. كانت ماغي تغادر في أعقابها.

شيء محزن! شيء مخيف! أن تكون ممتلئاً بالكراهية حتى تصبح عاجزاً حتى عن الفرح عند شفاء طفل. كيف يمكن أن يصل أحد إلى هذه النقطة؟

«لقد دخلت إلى أحد المستشفيات. توجهت فوراً إلى الغريبة الجالسة هناك وطلبت منها معالجة جروحها. بأقصى درجة من الشجاعة. ثم. عندما أداروا ظهورهم سرقت كل ما لديهم». جعل جارد الأمر

يبدو مثيراً. كان جيمي مستمتعاً بالحديث أيضاً. كانت ابتسامته كبيرة حقاً. «لقد خرجت من هناك حاملة من الأدوية ما يكفينا زمناً طويلاً تصوروا أنها لوّحت بيدها للطفيلية الجالسة على مكتب الاستقبال. عندما قادت السيارة مبتعدة عن المستشفى». ضحك جارد.

قالت ميلاني قانطة على نحو مفاجئ: «ما كنت قادرة على فعل هذا من أجلهم. أنت أكبر قيمة مني بالنسبة لهم».

قلت لها: «شششش». ما كان هذا وقت الأسى أو الغيرة. إنه وقت للفرح وحده.. «ما كنت لأستطيع أن أكون هنا لمساعدتهم من دونك أنت. أنت أنقذته أيضاً».

كان جيمي ينظر إليّ بعينين متسعتين.

قلت له: «ما كان الأمر مثيراً إلى هذا الحد في الحقيقة». أمسك جيمي بيدي وشدّ عليها فأحسست قلبي يمتلئ بالعرفان والحب. «كان هذا في غاية السهولة. إنني طفيلية أيضاً. بعد كل حساب».

بدأ جارد يعتذر: «لم أقصد. .».

لوّحت بيدي فأسكتّه. مبتسمة.

سألني الطبيب: «كيف بررت لهم وجود الندبة على وجهك؟ ألم يسألوك لماذا لم. .».

«كنت مضطرة إلى جعل جروحي تبدو جديدة بطبيعة الحال. لقد حرصت على عدم ترك أي شيء يحمّلهم على الشك. قلت لهم إنني سقطت وأنا أحمل سكيناً في يدي». لكزت جيمي بمرفقي. «يمكن أن يحدث هذا مع أي شخص».

كنت سعيدة فعلاً في هذه اللحظة. أحسست أن كل شيء حولي يتألّق من الداخل. القماش، والوجوه، بل الجدران نفسها. بدأ الحشد المجتمع داخل الغرفة وخارجها يتمتم ويطرح الأسئلة، لكن ذلك الصوت كان مثل الموسيقى في أذني. مثل رجع صوت الجرس بعد قرعه. شيئاً راقصاً في الهواء. ما كان شيء يبدو حقيقياً في نظري الآن إلا تلك

الدائرة الصغيرة من الأشخاص الذين أحبهم. جيمي وجارد وإيان وجيب. بل كان الطبيب نفسه ضمن هذه الدائرة في تلك اللحظة الرائعة.

سألني إيان بصوت مسطّح: «ماذا فعلت بجرحك؟».

حدقت فيه وقد فاجأني الغضب الظاهر في عينيه.

«كان الأمر ضرورياً. كان علي إخفاء الندبة. كان عليّ أن أتعلم كيف أعالج جيمي». أمسك جارد بمعصمي الأيسر وراح يمر بأصابعه فوق الخط الوردي الشاحب على ساعدي. «كان هذا مرعباً». اختفى المرح من صوته على نحو مفاجئ. «لقد كادت تقطع يدها. ظننت أنها لن تعود قادرة على استخدامها من جديد».

اتسعت عينا جيمي رعباً: «هل جرحت نفسك؟».

شددت على يده من جديد: «لا تقلق. لم يكن جرحاً كبيراً. وكنت أعرف أنه سيشفى سريعاً».

كرر جارد جملته: «ليتك رأيتها». ما زال يداعب ذراعي.

مر إيان بأصابعه على خدي. كان شعوراً لذيذاً. ملت نحوه فأسندت خدي إلى كفه عندما ظلت يده هناك. هل مفعول الدواء المسكن هو ما يجعلني أرى كل شيء دافئاً متألقاً. أم أنها فرحة إنقاذ جيمي؟

تمتم إيان: «لن تذهبي في غارات أخرى».

قال جارد بصوت مرتفع لأنه فوجئ بكلام إيان: «بل ستذهب طبعاً! لقد كانت استثنائية يا إيان. عليك أن ترى هذا حتى تفهمه حقاً. ما زلت حتى الآن غير قادر على التفكير في جميع الاحتمالات. .».

هبطت يد إيان من خدي إلى كتفي مارة برقبتي: «احتمالات؟». شدني لأصير أقرب إليه. وأبعد عن جارد. «لكن، ما كلفة هذا بالنسبة لها؟ لقد تركتها تقطع يدها تقريباً!». قبضت أصابعه بشدة على ذراعي مع تصاعد غضبه.

ما كان هذا الغضب متناسباً مع كل ذلك التألق: «لا يا إيان، ما كان الأمر هكذا. كانت فكرتي أنا. كنت مضطرة لفعل ذلك».

زمجر إيان: «أعرف أنها كانت فكرتك. أنت مستعدة لفعل أي شيء. لا حدود عندك عندما يتعلق الأمر بهذين الاثنين. لكن ما كان يجوز لجارد أن يتركك. .».

قال جارد مجادلاً: «ماذا كان أمامها غير ذلك يا إيان؟ ألديك خطة أفضل؟ أم أنك تظن أنها ستكون أسعد حالاً إذا لم يصبها الأذى. ويموت جيمي؟».

ارتجفت لتلك الفكرة الشنيعة.

جاء صوت إيان أقل عدوانية عندما أجاب: «لا لكني لا أفهم كيف استطعت أن تظل جالساً هناك تنظر إليها وهي تفعل هذا بنفسها». هز إيان رأسه ممتعضاً فتهدّلت كتفا جارد تحت وطأة كلماته. «أي رجل. .».

قاطعه صوت جيب: «إنه رجل عملي».

نظرنا إليه جميعاً. كان واقفاً فوقنا حاملاً صندوقاً ثقيلاً بين يديه.

«هذا ما يجعل جارد الرجل الأفضل في الحصول على كل م نحتاج إليه. لأنه يستطيع أن يفعل ما يجب فعله، أو يستطيع أن يراقب ما يجب فعله. حتى عندما تكون المراقبة أصعب من الفعل نفسه.

والآن، أعرف أننا تجاوزنا وقت العشاء وصرنا أقرب إلى وقت الفطور، لكني أظن أن عدداً منكم لم يأكل منذ فترة». هكذا غيّر جيب الموضوع تماماً من غير تمهيد. «هل أنت جائع يا فتى؟».

قال جيمي معترفاً: «آه. لسْت متأكداً. أشعر أنني فارغ تماماً، لكن ذلك الشعور ليس. سيئاً».

قلت: «هذا بسبب مزيل الألم. عليك أن تأكل».

قال الطبيب: «وأن تشرب أيضاً. أنت في حاجة إلى سوائل».

ترك جيب الصندوق الثقيل يسقط على الفراش: «أعتقد أننا سنقيم احتفالاً صغيراً. ابحث في الصندوق. . .».

قال جيمي دافعاً يده عبر الصندوق المليء بالوجبات المجففة من النوع الذي يستخدمه الرحالة: «واو، يا سلام!. سباغيتي. رائع».

قال جيب: «هذا دجاج بالثوم. إنني أفتقد الثوم منذ فترة طويلة. لكن أظن أن أحداً لا يشتاق إليه بسبب رائحة أنفاسي». قال هذا ثم ضحك.

كان جيب مستعداً فقد جلب زجاجات من الماء مع الأطعمة. بدأ الناس يتجمعون من حولنا. يتجمهرون في هذا المكان الضيق. صرت محشورة بين جارد وإيان. شددت جيمي فأجلسته في حضني. لقد صار كبيراً على الجلوس في الأحضان لكنه لم يعترض. أظنه يحس بمدى حاجتنا إلى هذا. كنا، ميلاني وأنا، في حاجة إلى الإحساس به حياً معافى بين ذراعينا.

بدا أن الحلقة المتوهجة بدأت تتسع فتضم كل الحاضرين في هذا العشاء المتأخر، جاعلة إياهم أصدقائي أيضاً. انتظر الجميع ريثما قام جيب بتحضير هذه الأطعمة اللذيذة غير المتوقعة. ما كان جيب مستعجلاً. حل الارتياح والفرح محل الخوف والتوتر. كان كَايل نفسه موضع ترحيب في هذه الدائرة. حشر نفسه في مكان ضيق إلى الجانب الآخر من شقيقه.

تنهدت ميلاني مرتاحة. كانت تحس إحساساً حياً شديداً بحرارة الصبي في حضني وبلمسة الرجل الذي ما زال يمسد ذراعي بيده. ما كانت منزعجة حتى من ذراع إيان التي التفّت حول كتفي.

قلت أضايقها: «إنك تحت تاثير مزيل الالم ايضاً».

«لا أظن أن الأمر نابع من تأثيره... لا عندي ولا عندك».

«صحيح، انت محقة. هذا أكثر من أي شيء أحصل عليه حتى الآن».

«هذا جزء كبير مما فقدته».

ما الذي يجعلني أكثر رغبة في هذا الحب البشري من حب بني جنسي؟ ألأنه حب متوتّر محفوف بالمخاطر؟ إن الأرواح تقدم الحب والقبول للجميع. أتراني أتوق إلى تحد أكبر؟ كان هذا الحب مخاتلاً. ما كان له قواعد واضحة. قد يقدم مجاناً. كما هي الحال مع جيمي؛

وقد يكتسب اكتساباً بفعل الوقت والاجتهاد. كما هي الحال مع إيان؛ أو قد يكون بعيداً عن متناول اليد. بعيداً كل البعد. بعيداً إلى حد يحطم القلب. مثل حبي لجارد.

أو لعل هذا الحب أفضل على نحو ما! أفضل لأن هؤلاء البشر يستطيعون الكره بكل هذا العنف. لعله الطرف الآخر من الطيف. لعل هذا ما يجعلهم قادرين على الحب بقلوب كبيرة مفعمة بالحماسة والنار!

ما كنت أعرف سبب توقي إلى هذا الحب، سبب هذا التوق الجارف. كل ما كنت أعرفه هو أنه، بعد أن صار في يدي الآن، يستحق كل مخاطرة. كل عذاب تحملته من أجله. كان حباً أفضل مما توقعت.

كان كل شيء.

نال التعب منا جميعاً الوقت الذي استغرقه إعداد الطعام والتهامه. تأخر الوقت كثيراً. أول لعله صار مبكراً كثيراً! بدأ الناس يخرجون من الغرفة المزدحمة متجهين صوب أماكن نومهم. اتسع المكان مع ذهابهم.

استلقى الباقون حيث هم بعد أن صار في الغرفة فسحة تكفي من أجل استلقائهم. ذبنا في أماكننا على نحو تدريجي، حتى صرنا في وضعية أفقية كلنا. انتهى رأسي مستقراً على بطن جارد. كانت يده تداعب شعري من حين إلى آخر. كان رأس جيمي على صدري وكانت ذراعاه ملتفتين حول عنقي. التفت ذراعي حولْ كتفيه. توسد رأس إيان بطني. كان ممسكاً بيدي الأخرى. عند وجهه. وكنت قادرة على الشعور بساق الطبيب الطويلة إلى جانبي. كان حذاؤه عند وسطي. كان الطبيب نائماً. وكنت أسمع شخيره. بل لعلني كنت ألمس كَايل أيضاً.

كان جيب مستلقياً على الفراش. تجشأ فضحك كَايل.

قال جيب: «هذه ليلة أكثر جمالاً ولطفاً مما كنت أتوقع. يسعدني أن التشاؤم لم يجد حظاً لدينا. شكراً يا جو».

غمغمت. شبه نائمة: «ممم».

قال كَايل المستلقي إلى جانب جسد جارد: «عندما تذهب جو في غارة مرة أخرى. . » قطع التثاؤب جملته. «عندما تذهب في غارة مرة أخرى. فسوف أذهب معها أيضاً».

أجابه إيان وقد توتر جسده: «لن تذهب مرة أخرى». داعبتُ وجهه بأصابعي محاولة تهدئته.

قلت أخاطبه: «لن أذهب طبعاً. لست في حاجة إلى الذهاب إلى أي مكان إلا إذا دعت الحاجة. لست أمانع في البقاء هنا».

بدأ إيان يوضح موقفه. منزعجاً: «لست أتحدث عن إبقائك سجينة هنا يا جو! نستطيع الذهاب كلما أحببت. نستطيع الذهاب للجري على الطريق الرئيسي إذا أحببت ذلك أيضاً. لكنك لن تذهبي في غارة. إني أتحدث عن المحافظة على سلامتك».

قال جارد بصوت أكثر قسوة مما أردت سماعه: «نحن في حاجة إليها».

«كنا في أحسن حال قبل مجيئها»

«حقاً! لولاها لمات جيمي. إنها قادرة على جلب أشياء لا يستطيع جلبها أحد منا».

«إنها شخص يا جارد. ليست أداة».

«أعرف هذا. لم أقل إنها أداة».

قاطع جيب جدلهما قبل أن أستطيع الكلام: «الأمر منوط بجو هذا رأيي».

كنت أحاول تهدئة إيان بيدي، وكنت أحس بجسد جارد متوتراً تحت رأسي كأنه يستعد للقيام. لكن كلمات جيب جمدتهما.

قال إيان معترضاً: «لا نستطيع أن نترك الأمر لها يا جيب».

«لم لا؟ أظن أن لها عقلاً. هل مهمتك أن تتخذ القرارات بدلاً عنها؟».

قال إيان غاضباً: «سوف أخبرك بالسبب. جو!».

«ماذا يا إيان؟».

«هل أنت راغبة في الذهاب إلى الغارات؟».

«إذا كنت قادرة على تقديم المساعدة، فعليّ أن أذهب طبعاً».

«ليس هذا ما أسألك عنه يا جو.».

بقيت صامتة عدة لحظات محاولة أن أتذكر سؤاله حتى أرى كيف أخطأت في الإجابة عنه.

«هل ترى يا جيب؟ إنها لا تأخذ رغباتها بعين الاعتبار إطلاقاً. لا تلتفت إلى سعادتها أو حتى إلى صحتها. سوف تفعل كل ما نطلبه منها، حتى لو أدى ذلك إلى مقتلها. ليس من الإنصاف أن نطلب منها أشياء، كما يطالب بعضنا بعضاً. إننا نتوقف قليلاً من أجل التفكير في أنفسنا. أما هي فلا تتوقف».

ساد الصمت. لم يردّ أحد على كلام إيان. استمر الصمت حتى أحسست أنني مجبرة على التعبير عن رأيي.

قلت: «هذا غير صحيح! إنني أفكر في نفسي طوال الوقت وأنا. أريد المساعدة. أليس لهذا أهمية؟ إنني سعيدة جداً لأنني تمكنت من مساعدة جيمي الليلة. ألا أستطيع تحقيق سعادتي بالطريقة التي تعجبني؟».

تنهد إيان: «هل فهمت ما أقصدهُ يا جيب؟».

قال جيب: «إنني لا أستطيع منعها من الذهاب إن كانت راغبة. إنها لم تعد سجينة هنا».

«لكن، يجب ألا نطلب منها ذلك».

كان جارد شديد الهدوء خلال هذا الحديث كله. كان جيمي هادئاً أيضاً، لكنني كنت واثقة من أنه نائم. وكنت أعرف أن جارد ليس نائماً. ما زالت يده ترسم خطوطاً عشوائية على صفحة وجهي... خطوطاً متوهجة. حارقة.

قلت: «لست مضطراً لمطالبتي يا إيان. إنني أتطوع من أجل هذا. لم يكن الأمر مخيفاً في الحقيقة. لم يكن مخيفاً أبداً. إن بقية الأرواح في غاية اللطف. لست خائفة منهم. كان الأمر شديد السهولة».

«هل كان سهلاً؟ هل كان سهلاً أن تجرحي ذراعك؟. . ».

قاطعت إيان بسرعة: «كانت هذه حالة طارئة. لن أكون مضطرة إلى فعل ذلك من جديد». توقفت عن الكلام لحظة ثم سألته: «صحيح؟».

تأوه إيان ثم قال مصمماً: «إذا ذهبت، فسوف أذهب أيضاً. يجب أن يتولى شخص حمايتها من نفسها».

قال كَايل مطلقاً ضحكة صغيرة: «أما أنا فسأذهب لحماية البقية منها». قال هذا ثم نخر فجأة: «آخ!».

كنت متعبة إلى حد منعني من رفع رأسي لأرى من الذي ضرب كَايل هذه المرة.

تمتم جارد: «وسوف أكون معكم أيضاً. . حتى أعود بكم أحياء كلكم».

## الفصل السابع والأربعون

# وظيفة

قال كَايل متذمراً: «هذا في غاية السهولة! ما عاد فيه شيء من المرح بعد الآن».

ذكّره إيان: «أنت الذي أراد المجيء».

كان جالساً مع إيان في القسم الخلفي المغلق من سيارة النقل الصغيرة. وكانا يعملان على ترتيب مواد البقالة سريعة العطب ومواد التنظيف والأغراض الأخرى التي أتيت بها من المخزن. كان الوقت منتصف النهار، وكانت الشمس ساطعة فوق قمة ويشيتا. ما كانت الحرارة هنا مثل حرارة صحراء أريزونا، لكن الرطوبة كانت أعلى. وكان الهواء يعبق بأسرابٍ من البعوض الصغير الطائر.

قاد جارد السيارة صوب الطريق السريع متجهاً إلى الخروج من البلدة. كان حريصاً على قيادة السيارة بأقل من السرعة القصوى المسموحة لكن هذا كان يزعجه على الدوام.

سألني إيان: «هل تعبتِ من التسوّق يا جو؟».

«لا... لست أمانع في الاستمرار».

«أنت تقولين هذا دائماً. ألست تمانعين في أي شيء؟».

«بل أمانع... أن أكون بعيدة عن جيمي. ولا يعجبني الوجود خارج الكهف، قليلاً... أثناء النهار خاصة. كأنها الحالة المعاكسة لرهاب الأماكن المغلقة. كل شيء متسع مفتوح إلى حد كبير. ألا يزعجك هذا أيضاً؟»

«أحياناً. لكننا لا نكثر من الخروج نهاراً».

دمدم كَايل: «إنها تحظى بفرصة لتحريك ساقيها على الأقل. لا أعرف ما الذي يجعلك تريد منها أن تتذمر».

«لأن تذمّرها نادر جداً. وهذا ما يجعله تغييراً لطيفاً بالمقارنة مع تذمّرك الدائم».

عليّ أن أسكتهما. ما إن يبدأ إيان وكَايل حتى يستمران فترة طويلة.

رحت أنظر في الخريطة. سألت جارد: «هل المدينة التالية هي أوكلاهوما سيتي؟».

«إضافة إلى بعض البلدات الصغيرة على الطريق. إذا كنت راغبة في التوقف فيها». هكذا أجابني. كانت عيناه ثابتتين على الطريق.

«أريد التوقف».

نادراً ما يفقد جارد تركيزه عندما يخرج في غارة. وهو لا يسترخي منغمساً في ثرثرة خالية البال كما يفعل إيان وكَايل كلما نجحت في إنجاز مهمّة. أبتسم عندما يستخدمون كلمة مُهِمّة! إنها تهويل للأمر. أما في الواقع فإن الأمر ليس إلا رحلة إلى المتجر، من أجل التسوق. تماماً كما فعلت عشرات المرات في سان دييغو عندما كنت مسؤولة عن إطعام نفسي فقط.

كما قال كَايل، كان الأمر شديد السهولة إلى حد يفقده كل إثارة. كنت أدفع عربة التسوق جيئة وذهاباً في الممرات. أبتسم للأرواح فتبتسم لي. أملأ العربة بأشياء قابلة للدوام فترة طويلة. كما كنت عادة ألتقط بضعة أشياء سريعة العطب. من أجل الرجال المختبئين في السيارة. كنت أجلب شطائر جاهزة وأشياء من هذا القبيل من أجل وجباتنا. وقد أجلب أيضاً نوعاً أو نوعين من الحلوى. إن إيان مولع بالآيس كريم مع رقائق الشوكولاته بنكهة النعناع. أما كَايل فيحب حلوى الكراميل. وكان جارد يأكل كل ما يقدَّم له. يبدو أنه أقلع عن تفضيل أي شيء منذ سنوات

طويلة متلائماً مع حياة لا ترحب بالرغبات الخاصة بل تستوجب أيضا إجراء تقييم دقيق للحاجات الحقيقية نفسها قبل تلبيتها. هذا سبب آخر يجعله ناجحاً في هذه الحياة. إنه يرى الأولويات من غير أن تشوشها الرغبات الشخصية.

في البلدات الصغيرة كان يحدث أحياناً أن يلاحظني أحد من الأشخاص فيتحدث معي. كنت قد حفظت بعض العبارات المحكمة لعلها كانت قادرة على خداع البشر أيضاً.

«مرحباً. هل أنت جديدة في البلدة؟».

«نعم. جديدة تماماً».

«وما الذي جاء بك إلى بايرز؟».

كنت أحرص دائماً على النظر إلى الخريطة قبل أن أترك السيارة حتى لا أنسى اسم البلدة.

«إن شريكي يكثر من السفر. إنه يعمل مصوراً».

«هذا رائع! إنه فنان. إن في هذه المنطقة الكثير من الأشياء الجميلة».

في الأصل، كنت أقول إنني أنا الفنانة. لكنني وجدت أن المسارعة إلى الإعلان عن وجود شريك لي تنقذني أحياناً عندما يكون المتحدث معي ذكراً.

«أشكرك جزيل الشكر على المساعدة».

«أهلاً وسهلاً بك! عودي قريباً».

كنت في حاجة إلى استشارة الصيدلي مرة واحدة. كان ذلك في سولت ليك سيتي. وبعد ذلك صرت أعرف ما أبحث عنه.

ابتسامة ناعمة: «لست واثقة من أنني أحصل على التغذية الصحيحة. والظاهر أنني لا أعرف تجنب الأطعمة الرديئة. إن لهذا الجسد قابلية كبيرة لتناول تلك الأطعمة».

«عليك أن تكوني حكيمة يا أوراق الزهرة. أعرف أن التراجع أمام

الرغبات ليس أمراً سهلاً، لكن عليك أن تحاولي التفكير في ما تأكلين. وفي أثناء ذلك عليك أن تتناولي بعض المتممات الغذائية».

اتضح أن اسم هذه المتممات الغذائية هو «الصحة». ما أوضح هذا الاسم على تلك الزجاجة! أحسست بسخافة سؤالي.

«أتريدينه بطعم الفراولة أم بطعم الشوكولاته؟».

«هل أستطيع التجريب؟».

عند ذلك تعطيني تلك الروح اللطيفة عبوتين كبيرتين.

ليس هذا صعباً على الإطلاق. ليس فيه أي تحدٍّ! كان الخوف الوحيد، أو الإحساس الوحيد بالخطر، الذي أحسسته يأتي عندما أفكر في حبة السيانيد الصغيرة التي أحتفظ بها دائماً في جيب يسهل الوصول إليه. من باب التحسّب.

قال جارد: «عليك أن تحصلي على ثياب جديدة في البلدة التالية».

«من جديد!».

«لقد بدأ التجعيد يظهر على ثيابك».

قلت موافقة: «طيب». ما كنت أحب الإفراط، لكن هذه الكمية المتنامية من الملابس المتسخة لن تذهب هدراً. إن ليلي وهيدي وبيج في مثل حجمي تقريباً. وسوف يكنّ مسرورات بالحصول على ملابس جديدة. نادراً ما يهتم الرجال بأشياء من قبيل الملابس عندما يذهبون في غارة. كانت كل غارة مسألة حياة أو موت بالنسبة إليهم. ما كانوا يعتبرون الملابس من بين أولوياتهم. وما كانت من بينها أيضاً أنواع الصابون اللطيفة التي كنت آخذها من كل متجر أدخله.

قال جارد متنهداً: «قد يكون عليك الاغتسال أيضاً. أظن أن هذا يعني وجوب ذهابنا إلى فندق في هذه الليلة».

ما كان الحفاظ على المظاهر أمراً يشغل بالهم من قبل. لكن، من الطبيعي الآن أن أكون في حاجة إلى الظهور بمظهر الانتماء إلى المدنية

عند النظر إليّ من مسافة قريبة. كان الرجال الآن يرتدون بنطلونات الجيز وقمصاناً داكنة قصيرة الأكمام. أشياء لا يظهر عليها الاتساخ سريعاً ولا تجذب الانتباه خلال اللحظات القصيرة التي قد يشاهدهم أحد فيها.

كانوا يكرهون المبيت في الفنادق الصغيرة على الطريق. كانوا يكرهون التخلي عن اليقظة داخل فم العدو نفسه! كان هذا يخيفهم أكثر من أي شيء آخر. قال إيان إنه يفضل الاشتباك مع باحث مسلح على النوم في هذه الفنادق.

أما كَايل فكان يرفض هذا الأمر بكل بساطة. كان غالباً ما ينام في السيارة نفسها أثناء النهار ثم يسهر ليلاً ليقوم بالحراسة.

أما بالنسبة لي فقد كان الأمر سهلاً مثله مثل التسوق في المتاجر كنت أسجل أسماءنا عند الموظف وأتحدث معه قليلاً. وكنت أسرد له قصة عن شريكي المصور وعن الصديق المسافر معنا (هذا من باب الاحتياط لأن يرانا أحد ندخل الغرفة نحن الثلاثة). كنت أستخدم أسماء حقيقية من كواكب بعيدة. كنت أستخدم أسماء الخفافيش أحياناً وأستخدم أسماء الأعشاب البحرية في أحيان أخرى. كنت أغير الأسماء في كل مرة لا لأن أحداً يمكن أن يحاول تعقبنا بل لأن هذا كان يجعل ميلاني تحس بمزيد من الأمان. كان هذا يشعرها بأنها تلعب دوراً في فيلم سينمائي بشري عن الجاسوسية.

أما الشيء الصعب، الشيء الذي كنت أكرهه حقاً. مع أني لا يمكن أن أقول هذا أمام كَايل لأنه يسارع دائماً إلى التشكيك في سلامة قصدي. فهو هذا الأخذ كله من غير تقديم شيء بالمقابل. ما كان التسوق في سان دييغو يزعجني إطلاقاً. كنت آخذ ما أحتاج من دون أي زيادة. ثم أمضي نهاري في الجامعة أقدم إلى المجتمع ما أملكه من معرفة. ما كانت هذه مهنة مرهقة، لكنها مهنة أؤديها على نحو جاد وكنت أيضاً أقوم بدوري في المهام الأقل جاذبية. كنت أقوم بجمع القمامة وتنظيف الشوارع. كلنا يفعل هذا

أما الآن فإنني آخذ الكثير الكثير ولا أعطي شيئاً في المقابل. كان هذا يبدو لي أنانياً. خاطئاً.

كانت ميلاني تذكُرني عندما تقلقني هذه الأفكار: «هذه الأشياء ليست لك. إنها من أجل الآخرين».

«لكني ما زلت أشعر أن الامر خاطئ. أنت تستطيعين الشعور بهذا ايضاً، اليس كذلك؟».

لكن حل هذه المعضلة عندها كان بسيطاً: «لا تفكري في الأمر إذاً».

كنت سعيدة لأننا صرنا على مشارف نهاية غارتنا الطويلة. سوف نذهب في الغد إلى مخزننا الذي كاد يمتلئ. إنه شاحنة نحتفظ بها مخبأة على مسيرة يوم واحد من مكان وجودنا. سنذهب إليها ونفرغ السيارة للمرة الأخيرة. سنذهب إلى بضع مدن أخرى. بضعة أيام أخرى في أوكلاهوما. ثم نذهب إلى نيومكسيكو ثم نقود السيارة عبر أريزونا من غير توقف.

سنعود أخيراً.

عندما كنا ننام في فنادق بدلاً من النوم في سيارة النقل الصغيرة المزدحمة. كنا ندخل الفندق بعد حلول الظلام ونغادره قبل الفجر حتى لا تتمكن الأرواح من رؤيتنا على نحو واضح. لكن هذا ما كان ضرورياً في حقيقة الأمر.

لقد بدأ جارد وإيان يدركان هذا الأمر. في هذه الليلة كانت سيارتنا ممتلئة تماماً لأن نهارنا كان ناجحاً حقاً. لم يبق لكَايل إلا مساحة صغيرة للنوم. وبما أن إيان كان مقتنعاً بأنني متعبة، فقد توقفنا في وقت مبكر. لم تكن الشمس قد غربت بعد عندما عدت إلى السيارة حاملة مفتاح الغرفة. كان المفتاح بطاقة بلاستيكية.

ما كان الفندق الصغير مزدحماً. أوقفنا السيارة على مقربة من غرفتنا. مضى إيان وجارد مباشرة من السيارة إلى الغرفة. كانت المسافة خمس خطوات أو ست خطوات. كانت عيونهما مسبلة إلى الأرض. وعلى رقبة

كل منهما من الخلف كان خط وردي صغير باهت. من أجل التمويه كان جارد يحمل حقيبة نصف ممتلئة. لم ينظر أحد صوبهم. ولا صوبي.

وفي الداخل، أسدلنا الستائر على النوافذ فاسترخى الرجلان قليلاً

استلقى إيان على السرير الذي سينام عليه مع جارد وبدأ يقلب محطات التلفزيون. أما جارد فوضع الحقيبة على الطاولة وأخرج منها طعامنا. شرائح الدجاج مع الخبز المحمص. لقد أخذتها من آخر متجر مررنا به. وزّع جارد الطعام. جلست قرب النافذة أسترق النظر إلى الخارج من زاويتها. ورحت أتناول طعامي.

قال إيان: «عليك الإقرار يا جو بأن لدينا، نحن البشر، برامج تلفزيونية أفضل».

رأيت على شاشة التلفزيون روحين. ممثلين. يؤدي كل منهما دوره على نحو واضح ويتحرك جسمه متخذاً وضعيات ممتازة. ما كان إدراك محتوى ونهاية القصة صعباً لأن النصوص التي تكتبها الأرواح ما كانت منوعة كثيراً. كانت هذه القصة تحكي حكاية روحين اجتمع شملهما بعد فراق طويل. كانت إقامة الرجل مع الأعشاب البحرية قد فرّقتهما، لكنه عاد فاختار أن يكون بشرياً من جديد لأنه توقع أن تنجذب شريكته المقيمة في كوكب الضباب إلى أجساد المضيفين ذوي الدم الحار على الأرض. ثم، ويا للأعجوبة، وجدها على كوكب الأرض.

كانت نهايات كل القصص سعيدة.

قلت له: «عليهم التفكير في الجمهور الذي توجه هذه البرامج إليه».

«صحيح. ليتهم يعرضون أفلاماً بشرية قديمة من جديد». راح يقلب القنوات ثم يعبس. «كنت أجد بعضاً منها أحياناً».

«كانت هذه الأفلام مزعجة! وكان لا بد من إلغائها لتحل محلها أشياء ليست على هذا القدر من. العنف».

«هل كان برنامج برادي بنش عنيفاً؟».

ضحكت. لقد رأيت هذا البرنامج في سان دييغو. وكانت ميلاني تعرفه منذ طفولتها: «إنه يسكت عن العدوان. أتذكر مرة قام فيها الطفل الصغير بضرب شخص شرير. لقد صوروا هذا العمل عملاً صحيحاً. كان في البرنامج دم أيضاً».

هز إيان رأسه غير مصدق، لكنه عاد إلى البرنامج الأول. صار يضحك عند المقاطع الباهتة، المقاطع التي افترض صانعو البرنامج أنها مؤثرة.

رحت أحدق من النافذة. أراقب شيئاً أكثر جاذبية من تلك القصة على التلفزيون.

رأيت حديقة على الجانب الآخر من الطريق. كانت تجاورها مدرسة من أحد جانبيها. وكان إلى جانبها الآخر حقل ترعى فيه مجموعة من الأبقار. كان في الحديقة بضع أشجار فتية ومجموعة ألعاب قديمة الطراز من أجل الأطفال. كان في الحديقة أرجوحة أيضاً. وكانت الشيء الوحيد المستخدَم في تلك اللحظة.

رأيت عائلة تستمتع بهواء الليل اللطيف. كان للأب شعر داكن اللون فيه بعض شعرات فضية عند صدغيه. أما الأم فبدت أصغر منه بسنوات كثيرة. كان شعرها البني المحمر طويلاً مربوطاً على رأسها على شكل ذيل حصان. وكان يقفز ويتلوى كلما تحركت. كان معهما طفل صغير لا يتجاوز عمره سنة واحدة. كان الأب يدفع الطفل في الأرجوحة من الخلف أما الأم فكانت واقفة أمامه. كانت تنحني فتقبّل جبهته كلما اقترب منها. وهذا ما كان يجعل الطفل يضحك. يقهقه بشدة جعلت وجهه المنتفخ الصغير أحمر اللون. جعلها هذا تضحك أيضاً. رأيت جسدها يهتز مع الضحك. . رأيت شعرها يتراقص.

«إلام تنظرين يا جو؟».

ما كان سؤال جارد قلقاً لأنه رآني ابتسم لرؤية هذا المشهد المفاجئ.

«إنه شيء لم أر له مثيلاً في أي حياة عشتها. إنني أنظر إلى. الأمل».

جاء جارد فوقف خلفي. راح يسترق النظر من فوق كتفي: «ماذا تقصدين؟». مسحت عيناه المباني والطريق من غير توقف عند الأسرة اللاهية.

أمسكت ذقنه فوجهت وجهه في الاتجاه الصحيح. لم يجفل لهذه اللمسة غير المتوقعة. وهذا ما جعل موجة غريبة من الدفء تغمرني. قلت: «انظر».

«إلى أين أنظر؟».

«إنه أمل البقاء الوحيد الذي رأيته عند أي جنس مضيف».

سألني حائراً: «أين؟» أحسست بإيان يقف من خلفنا الآن. كان مصغياً بصمت.

«انظر!». أشرت صوب الأم الضاحكة. «أترى كيف تحب طفلها البشري؟».

في تلك اللحظة اختطفت الأم ابنها عن الأرجوحة فضمّته إلى صدرها ضماً شديداً وغطت وجهه كله بالقبلات. تلوى الطفل وزقزق. إنه طفل صغير. ما كان بالغاً مصغَّراً مثلما تكون الحال لو أنه يحمل روحاً مزروعة في جسده.

شهق جارد: «هل الطفل بشري؟ كيف؟ لماذا؟ كم يمكن أن يستمر هذا؟».

رفعت كتفي: «لم أر شيئاً مثل هذا من قبل. لا أدري. لم تطلب الأم زرع روح في جسد ابنها. لا أتخيل إمكانية. إجبارها على ذلك. الأمومة مقدّسة عندنا! فإذا كانت غير راغبة. .» هززت رأسي. «لا أدري كيف يتم التعامل مع هذه الحالة. هذا لا يحدث في أماكن أخرى. إن مشاعر هذه الأجساد أقوى من أي منطق».

نظرتُ إلى جارد وإيان. كانا ينظران دهشين إلى تلك الأسرة المختلطة في الحديقة.

تمتمت لنفسي: «لا لا أحد يمكن أن يجبر الأبوين إذا أرادا بقاء الطفل على حاله. انظروا إليهم».

وضع الأب ذراعيه حول الأم والطفل. راح ينظر إلى ابن جسده المضيف برقة عجيبة في عينيه.

«إضافة إلينا نحن، هذا هو الكوكب الأول الذي نكتشف فيه ولادات حية. ليست طريقة ولادة البشر نظاماً سهلاً أو مرتفع الإنتاجية بكل تأكيد. لعل هذا هو الفرق. أو لعل السبب كامن في عجز صغار البشر. في أي مكان آخر، يتم التكاثر عن طريق نوع من البيوض أو البذور. بل إن كثيراً من الآباء لا يصادفون أبناءهم. لا أدري. .» سكتت. صارت أفكاري مليئة بالتخمينات.

رفعت الأم وجهها صوب زوجها فقبّل شفتيها. زقزق الطفل الصغير فرحاً.

«هممم. ربما، ذات يوم، يتمكن بعض أبناء جنسي وبعض أبناء جنسكم من العيش في سلام. ألن يكون هذا غريباً؟».

ما كان أي من الرجلين قادراً على إشاحة نظره عن تلك الأعجوبة التي أمامه.

بدأت الأسرة تغادر الحديقة. نفضت الأم الغبار عن بنطلونها في حين حمل الأب الصبي. ثم شبكا أيديهما. راحت ذراعاهما تتأرجح جيئة وذهاباً بينهما. سارا صوب بيتهما حاملين طفلهما البشري.

لم نتحدث طوال ما بقي من تلك الأمسية. كان كل منا غارقاً في ما رآه. مضينا إلى النوم باكراً حتى نستطيع النهوض باكراً لنعود إلى عملنا.

نمت وحدي في السرير البعيد عن الباب. وهذا ما جعلني غير مرتاحة. ما كان الرجلان الضخمان مرتاحين معاً في السرير الآخر. إن إيان يتقلب عندما ينام نوماً عميقاً. وما كان جارد يتأخر عن ضربه

عندما يفعل ذلك. سيشعر كل منهما بالراحة إذا شاركت أحد منهما. إنني أنام متكورة الآن. لعل اتساع الأماكن التي أتجول فيها نهاراً هو السبب في ذلك. هو ما يجعلني أتكور على نفسي ليلاً. أو ربما اعتدت التكور من أجل النوم في ذلك المكان الضيق على أرض السيارة. إلى درجة نسيت معها كيف أنام مسترخية الجسم.

لكنني أعرف السبب الذي جعلهما يمتنعان عن طرح فكرة نوم أحدهما إلى جانبي. في المرة الأولى التي أدرك فيها الرجلان حاجتي إلى الاستحمام في فندق سمعت إيان وجارد يتحدثان عني أثناء استحمامي. سمعت حديثهما رغم المروحة الصغيرة في الحمام.

سمعت إيان يقول: «. ليس من العدل أن نطلب منها الاختيار» كان يتحدث بصوت منخفض، لكن صوت المروحة ما كان مرتفعاً إلى حد يحجب صوته. كانت غرفة الفندق صغيرة جداً.

«لم لا؟ أيكون أكثر عدلاً أن نحدد لها مكان نومها؟ ألا تظن أن من الأدب. .».

«هذا صحيح لو كان شخص آخر في مكانها. لكن هذا السؤال سيعذبها. سوف تحاول إرضاءنا معاً. وسوف تجعل نفسها تعيسة جراء تلك المحاولة».

«هل تشعر بالغيرة من جديد؟».

«لا أشعر بالغيرة. ليس في هذه المرة. لكنني أعرف كيفية تفكيرها»

ساد الصمت. كان إيان محقاً. إنه يعرف كيفية تفكيري. لعله توقع أن أختار النوم مع جارد إذا رأيت لديه أي بادرة تشير إلى تفضيله ذلك. ثم سأبقى مستيقظة طوال الليل قلقة من أنني جعلت جارد تعيساً بسبب نومي إلى جانبه. كما أني أسأت إلى مشاعر إيان بذلك الاختيار.

قال جارد: «طيب. لكن، إذا تقلبت أثناء نومك. . فأنت تعرف ما سوف يصيبك».

ضحك إيان: «لا أريد أن أبدو مغروراً يا جارد. أريد أن أكون صادقاً فحسب. سوف أحاول عدم إزعاجك».

الأرجح أنني سأنام نوماً أفضل إذا كنت وحدي. رغم شعوري بشيء من الذنب بسبب إهدار هذه المساحة المتسعة كلها.

ما عدنا في حاجة إلى الذهاب إلى فندق مرة أخرى. بدأت الأيام تمر بسرعة أكبر كأن الثواني نفسها راحت تجري بنا صوب ديارنا. كنت أشعر بشيء غريب يجذب جسدي إلى تلك الوجهة. كنا تواقين جميعاً إلى العودة إلى كهفنا المظلم المزدحم.

غدا جارد نفسه قليل الانتباه.

كان الوقت متأخراً. اختفى ضياء الشمس خلف الجبال الغربية. ومن خلفنا كان إيان وكَايل يتناوبان قيادة الشاحنة الكبيرة المحملة بغنائمنا، تماماً مثلما كنا أنا وجارد نتناوب قيادة سيارة النقل المغلقة الصغيرة. كان عليهما قيادة الشاحنة الثقيلة بحذر أكبر من قيادة جارد سيارة النقل الصغيرة. سبقناهما. فتلاشى ضوء الشاحنة رويداً خلف الأفق حتى اختفى عند أحد منعطفات الطريق.

صرنا على مقربة الآن. صارت توكسون خلفنا. سوف أرى جيمي بعد ساعات قليلة. سوف نفرغ حمولتنا. وسوف تحيط بنا وجوه مبتسمة. إنه رجوع حقيقي إلى البيت.

أول رجوع لي!

هذه المرة لن يجلب الرجوع شيئاً إلا السعادة. إننا لا نحمل معنا رهائن محكومين بالموت!

ما كنت أفكر في شيء. كنت أترقب الوصول فقط. ما كنا نطوي الطريق بسرعة كبيرة. لا يمكن أن نطوي هذا الطريق بالسرعة الكافية التي نريدها.

ظهرت أنوار الشاحنة من خلفنا مرة أخرى.

تمتمت: «لا بد أن كَايل يقود الشاحنة. إنهما يلحقان بنا».

عند ذلك ظهرت أضواء حمراء وزرقاء من خلفنا على نحو مفاجئ. انعكست هذه الأضواء على جميع المرايا. وألقت بقعاً متراقصة من الضوء على سقف السيارة ومقاعدها وعلى وجهينا المتجمدين وعلى لوحة العدادات حيث كان مؤشر السرعة يبيّن أننا قد تجاوزنا حدود السرعة المسموحة بثلاثين كيلومتراً.

جاء صوت الصفارة الثاقب فبدّد هدوء الصحراء.

## الفصل الثامن والأربعون

# توقيف

جاءت الأضواء الزرقاء والحمراء مع زعيق الصفارة في وقت واحد.

قبل مجيء الأرواح إلى هذا الكوكب ما كان لهذه الأصوات والأضواء إلا معنى واحد. إنه القانون. حماة السلم.. الذين يعاقبون المخالفين.

والآن، من جديد، ما كان لهذه الأضواء اللامعة ولهذا الصوت الغاضب إلا معنى واحد. معنى شديد الشبه بسابقه. ما زال هؤلاء حماة السلم. ما زالوا هم الذين يعاقبون المخالفين.

إنهم الباحثون.

لكن هذا المشهد. هذا الصوت. ما كانا شائعين الآن كعهدهما في الزمن الماضي. ما عاد ثمة حاجة إلى قوات الشرطة إلا لتقديم المساعدة عند وقوع الحوادث أو غير ذلك من الحالات الطارئة. ما عادت مهمتهم إنفاذ القوانين. وما كان لدى أكثر الموظفين سيارات لها صفارات. اللهم إلا سيارات الإسعاف والإطفاء.

لكن هذه السيارة الرشيقة السريعة التي ظهرت من خلفنا ما كانت من أجل التعامل مع حوادث السير. إنها سيارة مصممة من أجل المطاردة. لم أر مثلها من قبل، لكنني عرفت معنى وجودها. عرفته تمام المعرفة.

تجمد جارد. ما زالت قدمه ضاغطة على دواسة السرعة. أدركت أنه يحاول التفتيش عن مخرج من هذا الوضع. عن طريقة تسمح له بأن يسبقهم في هذه السيارة العاجزة. أو عن طريقة تسمح له بتفاديهم.

هل يفكر في إخفاء هذه السيارة المرتفعة البيضاء الواضحة بين نباتات الصحراء القصيرة المتناثرة؟ إنه يحاول العثور على شيء ينقذنا منهم من غير أن يرشدهم إلى مكان اختبائنا. من غير التفريط بأرواح الآخرين. إننا على مقربة شديدة من جماعتنا الآن. وهم مختبئون، غير عارفين بشيء.

عندما أقلع جارد عن محاولته بعد ثانيتين من التفكير المحموم، خفف سرعة السيارة وتنهد بعمق.

همس لي: «آسف يا جو. لقد أفسدت كل شيء».

«جارد؟».

مد يده فأمسك بيدي ثم رفع قدمه عن دواسة البنزين فتباطأت السيارة.

قال بصوت مختنق: «هل حبتك جاهزة؟».

همست: «نعم».

«هل تستطيع ميلاني سماعي الآن؟».

«نعم... إنني أسمع». كانت تبكي.

قلت له: «إنها تسمعك».

كاد صوتي ينقلب إلى بكاء أيضاً.

«أحبك يا ميلاني. إنني آسف».

«وهي تحبك أيضاً. أكثر من أي شيء في العالم».

مرت لحظة صمت قصيرة مؤلمة.

«جو، إنني. إنني مهتم بك أيضاً. أنت شخص جيد يا جو وأنت تستحقين ما هو أفضل مما أقدمه لك الآن. أفضل من هذا».

كان بين أصابعه شيء صغير. غريب كيف يكون هذا الشيء الصغير قاتلاً إلى هذا الحد.

قلت لاهثة: «انتظر».

لا يجوز أن يموت.

«لا نستطيع المغامرة يا جو. لا نستطيع أن نسبقهم، ليس في هذه السيارة. إذا حاولنا الهرب فسوف يندفع ألف منهم خلفنا. فكري في جيمي».

كانت حركة السيارة تزداد تباطؤاً. كانت تنحرف صوب حافة الطريق.

قلت متوسلة: «دعني أحاول مرة واحدة» أسرعت أفتش عن الحبة في جيبي. أمسكتها بين أصابعي ورفعتها حتى يراها: «دعني أحاول الكذب عليهم علّنا نستطيع التخلص منهم. وسوف أبتلعها إذا سارت الأمور على نحو سيّئ».

«لن تستطيعي الإفلات من الباحثين بالكذب عليهم!».

«دعني أحاول. هيّا!» حللت حزام الأمان وقفزت نحوه فحللت حزامه أيضاً: «بادلني. أسرع. أسرع قبل أن يقتربوا فيرونا».

«جو. .».

«محاولة واحدة. أسرع!».

كان جارد أفضل الناس في اتخاذ القرارات السريعة. سرعان ما خرج من مقعده بحركة سلسة مندفعة. مر من فوق جسمي المتجمع المنكمش. انزلقت إلى مقعده فأخذت مكانه.

أمرته بصوت حازم: «ضع حزام الأمان. أغمض عينيك. أدر رأسك جانباً».

فعل ما قلته. كان الظلام شديداً لكن الندبة الجديدة الوردية الخفيفة على رقبته كانت واضحة عند النظر من هذه الزاوية.

وضعت حزام الأمان وأسندت رأسي إلى الخلف.

عليّ أن أكذب باستخدام جسدي، هذا هو الحل. المسألة مسألة حركات صحيحة. تقليد. كما يفعل الممثلون في برنامج تلفزيوني، إنما أفضل قليلاً. أي مثل البشر.

تمتمت: «ساعديني يا ميلاني».

«لا أستطيع مساعدتك على أن تكوني روحاً افضل يا جو. لكنك قادرة على فعل هذا. انقذيه... أعرف أنك قادرة على إنقاذه».

لست في حاجة إلى أن أكون روحاً أفضل. عليّ أن أكون أنا نفسي. فقط.

كان الوقت متأخراً، وكنت متعبة، لست في حاجة إلى تمثيل هذين الأمرين.

تركتُ جفنيَّ ينسدلان وتركت جسدي يسترخي على مقعد السيارة.

الإعياء. أستطيع أن أتظاهر بالإعياء. إنني أشعر بالإعياء حقاً.

انفتح فمي في تكشيرة مذعنة.

لم تتوقف سيارة الباحثين خلف سيارتنا كما توقعت ميلاني. لقد توقفت على الجانب الآخر من الطريق. على حافة الطريق. فصارت في عكس اتجاه السير على تلك الناحية. انبعث ضوء ساطع من نافذة سيارة الباحثين. رفرفت بعيني رافعة يدي لأغطي وجهي بحركة متمهلة بعض الشيء. أخيراً، رأيت من خلف ذلك الضوء المتوهج التماع عينين عبر الطريق.

سمعت صوت فتح باب سيارتهم. ثم سمعت صوت قدميّ شخص واحد. إنه يعبر الطريق. لم أسمع صوت خطوات على التراب أو الحصى فقد كان الباحث الذي ترجّل شخصاً آخر غير سائق السيارة. إنهم اثنان إذاً. على الأقل، لكن واحداً منهم جاء لاستجوابي. إنها إشارة جيدة. هذا يوحي بأنهم مرتاحون. واثقون. مطمئنون.

كان اللمعان الفضي في عينيّ ظاهراً. كأنه إشارة تعارف. كأنه بوصلة لا تخطئ الاتجاه. مثل نجم القطب. شيء لا سبيل إلى التشكيك فيه.

ما كان الكذب باستخدام جسدي مفتاح الأمر كما ظننت. إن قول الحقيقة، حقيقة وضع جسدي، أمر كافٍ تماماً. كان ثمة شيء مشترك

بيني وبين ذلك الطفل البشري الصغير في الحديقة: لم يعرف العالم شيئاً مثلي من قبل.

اقترب الباحث فحجب جسده الضوء الساطع المنبعث من السيارة الأخرى. صرت قادرة على الرؤية من جديد.

إنه رجل. لعله في منتصف العمر. كانت قسمات وجهه متضاربة. كان شعره أبيض اللون كله، لكن وجهه كان شاباً. غير مجعد. وكان يرتدي قميصاً قطنياً وبنطلوناً قصيراً، لكني رأيت مسدساً ضخماً معلقاً على خصره. كان ظاهراً بوضوح تام. رأيت يده مستقرة على مقبض المسدس. وفي يده الأخرى رأيت مصباحاً كاشفاً قاتم اللون. لم يكن يستخدم هذا المصباح.

عندما صار على مسافة خطوات قليلة مني قال: «هل لديك مشكلة يا آنسة؟ كنت مسرعة كثيراً. وهذا شيء غير آمن».

كانت عيناه قلقتين. متوثبتين. عاين تعبير وجهي بنظرة سريعة. آمل أن وجهي كان موحياً بالنعاس الشديد. ثم نظر إلى السيارة من أولها إلى آخرها ونظر إلى الظلمة من خلف السيارة ثم إلى المسافة الممتدة أمام السيارة. المسافة المضاءة بأنوارها. ثم عاد ينظر في وجهي. عادت عيناه فكررتا الجولة نفسها من جديد.

إنه قلق. جعلت هذه الملاحظة يديّ تتعرقان، لكني حاولت إبعاد تعبير الذعر عن صوتي.

قلت معتذرة بهمس منخفض: «إنني آسفة» ألقيت نظرة سريعة صوب جارد كأنني أريد الاطمئنان إلى أن كلماتنا هذه لم توقظه. «أظن. لا بأس، أظن أنني قد سهوت قليلاً. لم أدرك مقدار تعبي».

حاولت أن أبتسم ابتسامة نادمة. كنت أحس أن أدائي متوتر. متخشب بعض الشيء. كما يكون بعض الممثلين في التلفزيون.

عادت عينا الباحث تنقبان في السيارة ومن حولها مرة أخرى. توقفتا

هذه المرة عند جارد. قفز قلبي فاصطدم اصطداماً مؤلماً بأضلاعي. شددت أصابعي على الحبة القاتلة.

قلت مسرعة، محاولة الابتسام بعض الشيء: «إنه سلوك غير مسؤول من جانبي لأنني أقود السيارة منذ فترة طويلة من دون نوم. ظننت أننا نستطيع الوصول إلى فينيكس قبل أن أنال قسطاً من النوم. إنني آسفة فعلاً».

«ما اسمك يا آنسة؟».

ما كان صوته خشناً، لكنه ما كان دافئاً أيضاً. حافظ على انخفاض صوته كأنه لا يريد إيقاظ جارد.

قلت: «اسمي الأوراق المرتفعة». استخدمت الآن الاسم الذي استخدمته في آخر فندق حللنا فيه. هل يريد التحقق من صدق قوي؟ ربما أكون في حاجة إلى ذكر اسم الفندق.

قال مخمناً: «هل كنت واحدة من الأزهار المقلوبة؟». جالت عيناه جولتهما المعهودة مرة أخرى.

«هذا صحيح».

«لقد كانت زوجتي هناك أيضاً. هل كنت على الجزيرة؟».

قلت مسرعة: «لا بل كنت على البر. بين النهرين الكبيرين».

أومأ برأسه. لعل أمله قد خاب قليلاً.

سألته: «أتريدني أن أعود إلى توكسون؟ أظن أنني صحوت تماماً الآن. أم أنك تنصحني بأن أغفو إغفاءة قصيرة هنا في السيارة قبل أن أتحرك؟».

قاطعني بصوت أشد ارتفاعاً: «لا!».

قفزت في مكاني مجفلة. فأفلتت الحبة الصغيرة من بين أصابعي. تدحرجت على الأرضية المعدنية مصدرة صوتاً خافتاً. أحسست الدم قد غاض من وجهي كأنما بكبسة زر.

«لم أقصد إزعاجك». راح يعتذر مسرعاً. وعادت عيناه تكرران دورتهما القلقة. «لكن، لا يجوز أن تتوقفي هنا».

أفلحت في القول همساً: «لماذا؟».

«لقد حدثت... حالة اختفاء في الآونة الأخيرة».

«لست أفهم. حالة اختفاء؟».

«قد يكون الأمر حادثاً... لكن قد يكون...» تردد قليلاً غير راغب في نطق تلك الكلمة. «قد يكون في هذه المنطقة بعض البشر».

زعقت بصوت مرتفع: «بشر؟» لمس الباحث الذعر في صوتي فقاطعني سريعاً.

«ما من دليل يثبت ذلك حتى الآن يا عزيزتي. لم ير أحد أي شيء. لا تقلقي. لكن عليك متابعة الطريق إلى فينيكس من غير أي تأخير غير ضروري».

«صحيح. أو ربما أعود إلى توكسون! إنها أقرب».

«ما من خطر. يمكنك أن تتابعي طريقك».

«إذا كنت واثقاً من ذلك أيها الباحث...».

«إنني واثق تماماً. لكن، انتبهي ولا تخرجي عن الطريق... لا تتجولي في الصحراء». ابتسم. أنارت ابتسامته وجهه... صار دافئاً. لطيفاً. كان مثل بقية الأرواح التي تعاملت معها. ما كان قلقاً مني أنا. إنه قلق على سلامتي! ما كان يسمع الأكاذيب في كلامي. بل لعله ما كان قادراً على إدراكها... حتى إذا سمعها. إنه روح من الأرواح!

ابتسمت له: «لست أعتزم التجول في الصحراء. وسوف أكون أكثر انتباهاً. أعرف أنني لن أعود إلى النوم أثناء القيادة من جديد». نظرت إلى الصحراء عبر نافذة جارد... كان على وجهي تعبير من القلق حتى يعتقد الباحث أن الخوف جعلني أكثر انتباهاً وصحواً. لكن تعبير وجهي توتر فعلاً عندما لمحت في المرآة الجانبية أضواء سيارة تقترب من بعيد.

أحسست ظهر جارد يتوتر في اللحظة نفسها. لكنه حافظ على سكونه التام. بدا شكله شديد التوتر.

عادت عيناي إلى وجه الباحث.

قال لي. ما زال مبتسماً، لكنه ينظر إلى الأسفل الآن. إنه يحاول إخراج شيء من جيبه: «أستطيع مساعدتك بهذا».

لم ير الباحث التغير في تعبير وجهي. حاولت السيطرة على عضلات خدي. حاولت أن أجعلها ترتخي، لكنني كنت عاجزة عن التركيز الكافي.

اقتربت الأضواء في المرآة.

تابع الباحث يقول: «لا يجوز أن تكثري من استخدام هذا». صار يبحث في جيبه الآخر الآن. «إنه غير مؤذ بطبيعة الحال وإلا لما سمح لنا المعالجون باستخدامه. لكن، إذا استخدمه المرء على فترات متباعدة فإنه قادر على تغيير دورة النوم. آه. ها هو. إنه دواء الاستيقاظ».

تباطأت حركة السيارة المقتربة.

قلت متضرعة في ذهني: «تابعا طريقكما. لا تتوقفا. لا تتوقفا. لا تتوقفا».

أضافت ميلاني، قائلة هذه الكلمات كأنها دعاء: «ليت كَايل هو السائق الآن».

«لا تتوقفا. تابعا القيادة. لا تتوقفا. تابعا القيادة».

«يا آنسة!».

عدت إليه محاولة تركيز انتباهي: «آه. إنه دواء الاستيقاظ!».

«استنشقي هذا».

رأيت في يده علبة بخاخ بيضاء. أطلق نفثة منها في الهواء أمام وجهي. ملت قليلاً إلى الأمام واستنشقت ذلك الرذاذ لكن عيني كانتا متجهتين صوب المرآة في اللحظة نفسها.

قال الباحث: «إنه بنكهة العنب. لطيف. أليس كذلك؟».

«لطيف جداً». سرعان ما صار ذهني متنبهاً. مركزاً. حاداً.

تباطأت السيارة الشاحنة الكبيرة ثم توقفت خلفنا تماماً.

«لا!». صحنا في وقت واحد، أنا وميلاني. رحت أفتش في أرض السيارة المظلمة. نصف ثانية فقط. كنت أرجو أن أعثر على الحبة الصغيرة. لكني لم أستطع رؤية قدمي في ذلك الظلام.

التفت الباحث صوب السيارة الشاحنة وأشار لها بيده أن تتابع سيرها.

التفتّ لأنظر إلى الشاحنة أيضاً. أجبرتُ وجهي على الابتسام. لم أستطع رؤية السائق. عكست عيناي أضواء السيارة الشاحنة فأطلقتا حزمة من الضوء المنعكس الخافت في اتجاهها.

ترددت الشاحنة.

لوح لها الباحث بيده من جديد. كانت تلويحته أكثر وضوحاً هذه المرة. تمتم يقول لنفسه: «تحرك. تابع السير».

«تابع السير! تابع السير! تابع السير!»

ازداد توتر جارد النائم بجانبي.

تحركت الشاحنة بطيئاً فصارت بين سيارتنا وسيارة الباحثين. أظهر الضوء الكشاف الصادر عن سيارة الباحثين شخصين في السيارة. شبحين أسودين. كان وجهاهما ثابتين إلى الأمام. رأيت أنف السائق. كان مكسوراً.

تنفسنا الصعداء، أنا وميلاني.

«كيف تشعرين الآن؟».

قلت للباحث: «صاحية تماماً».

«سوف يزول تأثير الدواء بعد أربع ساعات تقريباً».

«شكراً لك».

أطلق الباحث ضحكة صغيرة: «شكراً لك يا عزيزتي. عندما

شاهدناك على الطريق ظننا أننا موشكون على الإيقاع ببعض البشر. كنت أتعرق، لكن ذلك لم يكن بسبب الحر!».

ارتجف جسدي.

«لا تقلقي. ستكونين في أمان تام. إذا أردت يمكننا أن نسير خلفك حتى فينيكس».

«لا شكراً. لا حاجة إلى تجشم هذه المشقة».

«سررت بلقائك. عندما تنتهي مناوبتي أستطيع الذهاب إلى البيت لأخبر زوجتي أنني قابلت زهرة أخرى مثلها. سوف يعجبها هذا».

«قل لها. شمس ساطعة ونهار طويل. .» قلت تلك الكلمات محاولة إعطاء أدق ترجمة أرضية للتحية الشائعة على كوكب الزهور.

«بالتأكيد. فلتكن رحلتك موفقة».

«فلتكن ليلتك هادئة».

تراجع الباحث فانصبّ الضوء القادم من السيارة الأخرى على وجهي من جديد. أغمضت عينيّ منزعجة.

قال الباحث: «أطفئ الضوء يا هانك». وضع كفه فوق عينيه واستدار مبتعداً صوب سيارته. انطفأ الضوء فعاد الليل أسود اللون من جديد أجبرتُ نفسي على ابتسامة جديدة وجهتها صوب الباحث غير المرئي الذي اسمه هانك.

أدرت محرك السيارة بيد مرتجفة.

كان الباحثون أسرع مني. سرعان ما سمعت صوت محرك السيارة السوداء الصغيرة ذات المصباح الساطع المحمول فوقها. دارت السيارة دورة حادة منطلقة في الاتجاه المعاكس. وسرعان ما اختفت في البعيد. اختفى الباحثان سريعاً في عتمة الليل.

قدت السيارة عائدة بها إلى الطريق. راح قلبي يضخ الدم عبر عروقي بنبضات صغيرة مؤلمة. أحسست بذلك النبض المتوتر في أطراف أصابعي.

همست من بين أسناني التي راحت تصطك على نحو مفاجئ: «لقد ذهبوا».

سمعت جارد يبتلع ريقه بصعوبة.

قال: «كادوا. يمسكون بنا».

«توقعت أن يتوقف كَايل».

«توقعت ذلك أيضاً».

ما كان أي منا قادراً على الحديث بما يتجاوز الهمس.

«لقد صدقك الباحث». ما زال فكاه مشدودين لشدة قلقه.

«نعم. صدَّقني».

«لو كنت مكانه لما صدقتك. لم يتحسن أداؤك كثيراً».

رفعت كتفي. كان جسدي متيبساً في هذه اللحظة. كان يتحرك كأنه قطعة واحدة: «لا يستطيع ألا يصدقني! ما أنا. هذا شيء مستحيل. شيء يستحيل وجوده».

قال موافقاً: «أنت شيء غير قابل للتصديق. شيء عجيب».

أذاب مديحه شيئاً من الجليد في معدتي. وفي أوردتي.

تمتمت لنفسي: «ليس الباحثون مختلفين كثيراً عن بقية الأرواح. ليس فيهم ما يثير خوفاً خاصاً».

راح جارد يهز رأسه إلى الأمام والخلف بحركة بطيئة: «ما من شيء تعجزين عن فعله، أليس كذلك؟».

ما كنت أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال.

تابع جارد يقول هامساً، كأنه يتحدث مع نفسه الآن: «سوف يغيِّر وجودك معنا كل شيء في حياتنا».

أحسست أن هذه الكلمات تحزن ميلاني، لكنها ليست غاضبة مني هذه المرة. إنها معترفة بالواقع.

تنهدت وقالت: «أنت قادرة على مساعدتهم. وأنت قادرة على حمايتهم أكثر مني».

لم أخف عندما رأيت الأضواء الخلفية للسيارة التي أمامنا عندما ظهرت من جديد. كانت مألوفة. مريحة. زدت السرعة قليلاً قليلاً فقط. ما زلت دون السرعة القصوى المسموحة بعدة كيلومترات تجاوزتهم.

أخرج جارد مصباحاً كشافاً من علبة السيارة. فهمت ما يريد فعله. يريد طمأنتهما.

وجه جارد الضوء صوب عينيه أثناء تجاوز الشاحنة. أما أنا فنظرت من خلفه، عبر النافذة الخلفية. أومأ كَايل برأسه مرة في اتجاه جارد ثم استنشق نفساً عميقاً. كان إيان منحنياً من خلفه ينظر قلقاً صوب سيارتنا كانت نظراته متركزة عليّ. لوّحت له بيدي فكشّر وجهه.

صرنا الآن على مقربة من طريقنا الفرعي المخفي.

«هل أتابع حتى فينيكس؟».

فكر جارد في الأمر ثم قال: «لا قد يرانا الباحثان أثناء عودتنا فيوقفانا من جديد. لا أظن أنهما يتبعاننا إن انتباههما منصبّ على الطريق».

«لا، لن يتبعانا». كنت واثقة من هذا كل الثقة.

«فلنذهب إلى ديارنا».

«إلى ديارنا». قلتها من كل قلبي.

أطفأت الضوء. وهكذا فعل كَايل من خلفي.

سوف نذهب بالسيارتين إلى الكهف في خط مباشر. وسوف نفرغهما سريعاً حتى يتم إخفاؤهما قبل الصباح. إن الوهدة الصغيرة عندما مدخل الكهف غير قادرة على حجبهما عن الأنظار.

رحت أفكر في طريق الخروج والدخول من الكهوف. إنه السر الكبير الذي لم أتمكن من حله بنفسي. إن جيب لخبيث حقاً!

إنه خبيث. مثلما هي خبيثة التعليمات التي قدمها إلى ميلاني. الخطوط التي حفرها على ظهر ألبوم الصور. ما كانت خطوطه تقود

صوب الكهف! لا كانت تجعل الشخص الذي يحاول اتّباعها يتجول جيئة وذهاباً أمام هذا المكان السري مانحاً ساكنيه فرصة كافية لاتخاذ قرارهم. فرصة كافية لتقرير قبول أو رفض الوافد الجديد.

سألني جارد مقاطعاً أفكاري: «ما الذي حدث برأيك؟».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد حالة الاختفاء التي تحدث عنها الباحث»

حدقت أمامي من غير فهم: «أليس المقصود اختفائي أنا؟».

«لا أظن أنه أشار إلى اختفائك عندما استخدم عبارة. في الآونة الأخيرة. ثم إنهم ما كانوا يراقبون الطريق قبل ذهابنا. إنه أمر حديث العهد. إن جماعتنا يبحثون عنا».

توترت عيناه. ضاقتا. أما عيناي فاتسعتا دهشة.

«ما الذي يفعلونه؟». انفجر جارد على نحو مفاجئ ضارباً حافة السيارة بكفه. فاجأتني حركته.

«أتظن أن جيب والآخرين فعلوا شيئاً؟».

لم يجبني. راح ينظر بعينين غاضبتين إلى الصحراء التي تضيئها النجوم.

لم أفهم. لماذا يفتش الباحثون عن البشر لمجرد أن شخصاً قد اختفى في الصحراء؟ الحوادث تحدث. فلماذا يقفزون إلى استنتاج محدد؟

ولماذا غضب جارد؟ من المستحيل أن تفعل أسرتنا في الكهوف أي شيء يمكن أن يجذب الانتباه إليها. إنهم أكثر حكمة من هذا. لن يخرجوا من الكهوف إلا عند وجود حالة طارئة أو شيء من هذا القبيل.

لعلهم شعروا بوجود شيء طارئ غريب. شيء ضروري.

هل حاول جيب والطبيب الاستفادة من غيابي؟

لقد وافق جيب على التوقف عن ذبح البشر والأرواح أثناء وجودي تحت سقفه. هل يعتبرونني غير موجودة الآن؟

سألني جارد: «هل أنت بخير؟».

كنت شبه عاجزة عن الإجابة. هززت رأسي. راحت دموعي تنهمر فوق خدي وتسقط في حضني.

«لعل من الأفضل أن أقود السيارة بنفسي».

هززت رأسي من جديد. رافضة. كنت قادرة على الرؤية على نحو كافٍ.

لم يجادلني جارد.

وصلنا إلى الجبل الصغير الذي يخفي الكهوف من خلفه. كنت مستمرة في قيادة السيارة. ما كان جبلاً كان تلاً فحسب. كومة لا أهمية لها من الحجارة البركانية. كومة مثل أكوام كثيرة غيرها منتشرة في هذا المكان تعلوها بعض نباتات الصبار القليلة. كانت آلاف الفتحات الصغيرة غير مرئية من الخارج. كانت ضائعة في ذلك الركام. ركام الصخور الأرجوانية. لا بد أن الدخان يتصاعد من مكان ما في هذه الآونة. سواد على سواد.

ترجلت من السيارة واستندت إلى الباب ومسحت عيني. جاء جارد فوقف إلى جانبي. تردد قليلاً ثم وضع يده على كتفي.

«آسف. ما كنت أعرف أنهم يعتزمون هذا. لم أكن أعرف أبداً. ما كان عليهم أن. . ».

لكنه لم يفكر على هذا النحو إلا لأنهم أمسكوا بأحد ما.

توقفت الشاحنة خلفنا. سمعتُ صوت إغلاق البابين. ثم سمعت صوت أقدام تجري صوبنا.

قال كَايل: «ماذا حدث؟».

كان إيان من خلفه. ألقى نظرة واحدة على تعبير وجهي. على الدموع التي ما زالت تجري فوق خديّ. وعلى يد جارد المستقرة فوق كتفي. ثم اندفع صوبي فلفَّني بذراعيه. شَدَّني إلى صدره. لا أعرف ما الذي جعل هذه الحركة تزيد من شدة بكائي. التصقت به وراحت دموعي تنهمر على قميصه.

«لا بأس. لا بأس. لقد كنت رائعة. لقد انتهى الأمر».

قال جارد بصوت متوتر: «ليست المشكلة في الباحثين يا إيان». ما زالت يده على كتفي رغم أنه صار مضطراً الآن إلى الانحناء قليلاً إلى الأمام حتى يبقيها في مكانها.

«ماذا؟».

«إنهم يراقبون الطريق لسبب محدد. يبدو أن الطبيب كان. كان يعمل أثناء غيابنا».

ارتعدت. شعرت للحظة واحدة أنني قادرة على الإحساس بطعم الدم الفضي في حلقي.

«لماذا. هؤلاء. الـ. .؟». غضب إيان غضباً شديداً جعله عاجزاً عن الكلام. لم يستطع إنهاء جملته.

قال كَايل بنبرة قرف: «يا سلام! يا للحمقى! نغيب أسابيع قليلة فيجعلون الباحثين يخرجون في دوريات بحثاً عنهم. كان في وسعهم أن يطلبوا منا. .».

قال جارد بصوت عنيف: «اسكت يا كَايل. ليس الأمر هكذا في هذه الآونة. علينا تفريغ الحمولة سريعاً. من يدري عدد الباحثين الذين يفتشون عنا؟ فلنحمل الآن ما نستطيع حمله. ولندخل حتى نأتي بمن يساعدنا».

أبعدت إيان عني حتى أستطيع المساعدة في الحمل. لم تتوقف دموعي. ظل إيان قريباً مني. أخذ مني صندوقاً ثقيلاً فيه عبوات أطعمة معلّبة وأعطاني بدلاً منه صندوقاً من المعكرونة. كان كبيراً، لكنه أخفّ وزناً.

بدأنا نسير في الطريق المنحدر. كان جارد في المقدمة. لم تزعجني الظلمة الدامسة. ما زلت لا أعرف الممر معرفة جيدة، لكنه لم يكن صعباً. إنه ممر يسير منحدراً في البداية ثم يصعد إلى الأعلى.

بلغنا منتصف الطريق عندما سمعنا صوتاً مألوفاً ينادي من بعيد. كان صداه يتردد في النفق. متكسراً.

إنه جيمي يصيح: «لقد عادوا. لقد عادوا!».

حاولت تجفيف دموعي. مسحت وجهي بذراعي، لكني لم أستطع إزالة الدموع كلها.

اقترب ضوء أزرق. كان يقفز مع جري حامله. ثم ظهر جيمي. أفزعني وجهه.

كنت أحاول تهيئة نفسي لتحيته مفترضة أنه سيكون سعيداً. ما كنت أريد إقلاقه أو إحزانه. لكن جيمي كان حزيناً. كان وجهه مبيضاً متوتراً. وكان من حول عينيه احمرار خفيف. رأيت بعض الغبار على خديه. وكانت الدموع قد رسمت مجاري لها في ذلك الغبار.

«جيمي؟». صحنا، أنا وجارد معاً، وألقينا ما نحمله على الأرض.

جرى جيمي صوبي في خط مستقيم. ارتمى عليّ وطوقني بذراعيه.

راح يبكي ويقول: «أوه يا جو! أوه يا جارد! لقد مات ويس! إنه ميت! لقد قتلته الباحثة!»

## الفصل التاسع والأربعون

# استجواب

أنا من قتل ويس.

يمكن أن تكون يداي هاتان. هاتان المغطاتان بالكدمات. المعفَّرتان بالغبار الأرجواني بسبب عملية تفريغ الحمولة. ملونتين باللون الأحمر. بلون دمه.

إن ويس ميت الآن. هذه خطيئتي. مثلما يكون قتله خطيئتي لو أنني ضغطت على الزناد.

اجتمعنا كلنا إلا خمسة منا في المطبخ الآن. بعد أن انتهى تفريغ الشاحنة. كنا نأتي على بعض المواد سريعة العطب التي جلبناها من آخر محطة في رحلة التسوق. جبن وخبز طازج وحليب. وكنا نصغي إلى الطبيب وإلى جيب أثناء شرحهما ما جرى لجارد وإيان وكَايل.

جلست منزوية عن الآخرين بعض الشيء. وضعت رأسي بين يدي. كان الحزن والإحساس بالذنب يغمرانني إلى حد منعني من طرح أسئلة كما كان زملائي يفعلون. كان جيمي جالساً معي. يربت على ظهري بين الفينة والأخرى.

لقد دفنوا ويس في تلك الحفرة المظلمة إلى جانب ولتر. إنه ميت منذ أربعة أيام. مات ليلة جلسنا أنا وجارد وإيان نرقب تلك الأسرة في الحديقة. لن أرى صديقي من جديد. لن أسمع صوته بعد الآن.

تساقطت دموعي على الصخور من تحتي فتسارع تربيت جيمي على ظهري.

ما كانت آندي هنا، ولا بيج.

لقد ذهبتا لإعادة الشاحنة والسيارة إلى مكان إخفائهما. ومن هناك، ستقودان سيارة الجيب إلى مخبئها المعتاد ثم تعودان مشياً بقية الطريق إلى هنا. وسوف تعودان قبل غروب الشمس.

ليلي ليست هنا أيضاً.

لقد قال لي جيمي متمتماً عندما رآني أمسح الغرفة بعيني باحثة عنها «إنها. ليست. في حال جيدة». ما كنت أريد معرفة المزيد. أستطيع تخيل حالتها.

وما كان آرون ولا براندت هنا.

إن في أعلى صدر براندت الآن ندبة دائرية وردية اللون. أخطأت الرصاصة قلبه ورئتيه بمسافة صغيرة ثم انحرفت عند عظم الكتف محاولة الخروج. وقد استخدم الطبيب قسماً كبيراً مما لديه من الدواء الشافي حتى يخرج هذه الرصاصة. لكن براندت بخير الآن.

أما رصاصة ويس فكانت أدقّ تصويباً. لقد اخترقت جبهته الزيتونية العالية وخرجت من مؤخرة رأسه. ما كان الطبيب قادراً على فعل شيء حتى لو كان معه في تلك اللحظة. حتى لو كانت معه كمية كبيرة من الدواء الشافي.

يحمل براندت الآن على خصره قراباً كبيراً فيه مسدس ثقيل ضخم غنمه من تلك المواجهة. إنه مع آرون الآن. وهما في النفق الذي نخزّن فيه غنائمنا عادة. لكن النفق مشغول اليوم. لقد عاد سجناً من جديد.

كأن خسارة ويس ما كانت كافية.

بدا شؤماً في نظري أن يكون عدد الموجودين في هذه الكهوف قد بقي ثابتاً كما كان. خمسة وثلاثون جسداً حياً، تماماً كما كان الوضع من قبل مجيئي إلى هذه الكهوف. لقد اختفى ويس وولتر، لكنني هنا.

والباحثة هنا الآن أيضاً.

باحثتي.

لو أنني أكملت مشواري إلى توكسون. لو أنني بقيت في سان دييغو. لو أنني تركت هذا الكوكب كله وذهبت إلى مكان آخر مختلف تماماً! لو أنني وهبت نفسي للأمومة كما تفعل أي واحدة بعد العيش في خمسة كواكب أو ستة. لو أنني، لو أنني، لو أنني. لو أنني ما أتيت إلى هنا، لو أنني لم أعط الباحثة دليلاً يجعلها قادرة على اللحاق بي. إذاً، لكان ويس حياً الآن. لقد استغرقتْ زمناً أطول مما استغرقتُ حتى تفهم ذلك الدليل، لكنها فهمته فما كانت في حاجة إلى الحَذَر. راحت تجوب الصحراء في سيارتها تاركة آثاراً جديدة على أديم هذه الأرض. كانت تقترب أكثر مع كل مشوار.

كان عليهم أن يفعلوا شيئاً. كان عليهم إيقافها.

أنا من قتل ويس!

«ان عليهم معاقبتي انا يا جو. انا التي اتيت بالباحثة إلى هنا... لا انت».

كنت أكثر بؤساً من أن أستطيع الرد عليها.

«ثم، لو اننا لم نأت إلى هنا لكان جيمي ميتاً الآن! وربما كان جارد ميتاً ايضاً. لولاك لمات اليوم».

موت في كل ناحية، موت في كل مكان. أينما نظرت.

قلت لنفسي بصوت مثل الأنين: «لماذا لحقت بي؟ لست اسبب اي اذى للارواح على هذا الكوكب! بل إنني انقذ عدداً منهم بوجودي هنا... بمنعي الطبيب من متابعة جهوده المشؤومة. لماذا كانت مصرة على اللحاق بي؟».

زمجرت ميلاني: «لماذا يبقون على حياتها؟ لماذا لم يقتلوها على الفور؟ أو... لماذا لم يجعلوها تموت موتاً بطيئاً... لست ابالي كيف. ما سبب بقائها حية حتى الآن؟».

انبعث الخوف مرفرفاً في معدتي. إن الباحثة على قيد الحياة. إن الباحثة هنا.

لا يجوز أن أكون خائفة منها.

من المعقول طبعاً أن أكون خائفة لأن اختفاءها يمكن أن يجعل باحثين غيرها يأتون إلى هنا. الجميع هنا خائفون من هذا. عندما كانوا يتجسسون على الباحثين الذين أتوا للبحث عني. شاهد البشر مدى إصرارها على قناعتها. كانت تحاول إقناع بقية الباحثين بوجود بشر مختبئين في هذه الصحراء. لكن أحداً منهم لم يقتنع بكلامها. لقد عادوا أدراجهم. أما هي، فكانت الوحيدة التي واصلت البحث.

لكنها اختفت الآن أثناء بحثها. وهذا يغير كل شيء.

جرى نقل سيارتها إلى مكان بعيد ثم تركت هناك في الصحراء بعد توكسون. يبدو الأمر كما لو أنها اختفت كما اعتقدوا أنني اختفيت من قبلها: تركوا في ذلك الموقع نتفاً من حقيبتها. وتركوا المأكولات التي كانت معها مبعثرة في الأرض. هل يمكن أن تقتنع بقية الأرواح بحصول هذه المصادفة؟

كنا نعرف منذ الآن أنهم لن يقبلوا ولن يقتنعوا. ليس تماماً. إنهم يبحثون! هل يغدو بحثهم أكثر إصراراً؟

أما أن أكون خائفة من الباحثة نفسها فهذا لا معنى له! إنها عديمة الحول في واقع الأمر. لعلها أصغر جسماً من جيمي. إنني أكثر قوة وأكثر سرعة منها. وأنا محاطة بالأصدقاء والحلفاء. أما هي، داخل هذه الكهوف على الأقل، فإنها وحيدة! ثمة سلاحان مصوبان إليها عند كل حركة. بندقية جيب ومسدسها نفسه. المسدس نفسه الذي كان إيان راغباً فيه. المسدس نفسه الذي قتل صديقي ويس. شيء واحد أبقاها على قيد الحياة حتى الآن. لكنه لن يستطيع إنقاذ حياتها مدة طويلة.

لقد رأى جيب أنني يمكن أن أكون راغبة في الحديث معها. هذا كل شيء.

والآن، بعد أن عدت، فهي محكومة بالموت خلال ساعات من الآن سواء تحدثت معها أو لم أتحدث.

إذاً، لماذا أرى نفسي في موقع الضعف؟ لماذا هذا التوجس الغريب من إمكانية خروجها ظافرة من هذه المواجهة؟

لم أقرر حتى الآن إن كنت راغبة في الحديث معها. هذا ما قلته لجيب على الأقل!

لست راغبة في الحديث معها. لست أشك في هذا أبداً. بل إنني خائفة حتى من رؤية وجهها مرة أخرى. ذلك الوجه الذي ما كنت قادرة على تخيل منظره خائفاً مذعوراً. مهما حاولت التخيل.

لكن إذا قلت لهم إنني لا أريد الحديث معها فسوف يقتلها آرون على الفور. وسوف يكون ذلك كأنني أعطي أمراً بإطلاق النار عليها. كأنني أضغط على الزناد بنفسي.

ولعل الطبيب يرغب في محاولة نزعها من ذلك الجسم البشري. ارتجفتُ عندما تذكرت ذلك الدم الفضي الذي رأيته يلطخ يدي صديقي.

راحت ميلاني تتلوى في رأسي غير مرتاحة. كانت تحاول تجاوز العذاب الذي في رأسي.

«اسمعي يا جو. إنهم يعتزمون إطلاق النار عليها... فلا تخافي».

هل يريحني هذا؟ ما كنت قادرة على الامتناع من تخيل ذلك المشهد. آرون. مسدس الباحثة في يده. جسد الباحثة يتهاوى بطيئاً إلى الأرض الصخرية. الدم الأحمر ينتشر من حولها.

«لست مضطرة إلى مشاهدة ذلك».

لكن عدم مشاهدتي لا يعني عدم حدوث الأمر.

صارت أفكار ميلاني متوترة الآن: «لكننا نريد موتها... اليس كذلك؟ لقد قتلت ويس! ثم، لا يمكن أن تبقى حية مهما يكن من أمر».

كانت ميلاني محقة في كل ما قالته لي. طبعاً. صحيح أن ما من مجال لبقاء الباحثة على قيد الحياة. سوف تبذل كل ما في وسعها حتى

تهرب من هنا إذا حبسوها. وإذا صارت حرة فسوف يكون هذا موتاً سريعاً لأسرتي كلها.

صحيح أنها قتلت ويس. كان شاباً محبوباً. لقد ترك موته حزناً حارقاً لدى الجميع. إنني أفهم مطالبة العدالة البشرية بحياتها مقابل حياته.

صحيح أنني أريد موتها أيضاً.

«جو! جو!».

هز جيمي ذراعي. مرت لحظة قبل أن أدرك أن ثمة من نادى باسمي. لعله ناداني عدة مرات.

عاد صوت جيب يقول من جديد: «جو!».

رفعت رأسي. رأيته واقفاً فوقي. كان وجهه خالياً من أي تعبير إنها تلك الواجهة الخالية التي تعني أن مشاعر قوية تهزه الآن. إنه وجه لاعب البوكر.

«يريد الفتيان أن يعرفوا ما إذا كنت تريدين طرح أسئلة على الباحثة».

وضعت يدي على جبيني محاولة حبس تلك الصور فيه: «وإذا كنت لا أريد طرح أسئلة؟».

«لقد تعبا من مهمة حراستها. إن الوقت صعب! إنهما يفضلان أن يكونا مع أصدقائهما الآن».

«طيب. أظن من الأفضل. أن أذهب لرؤيتها الآن». ابتعدت عن الجدار ونهضت واقفة على قدميّ. كانت يداي ترتجفان فشددت قبضتي حتى أخفي هذا الارتجاف.

«ليست لديك أسئلة».

«سوف أفكر في بعض الأسئلة».

«لماذا تطيلين ما هو محتوم الحدوث؟».

«لا أعرف».

«أنت تحاولين إنقاذها». هكذا اتهمتني ميلاني.. هكذا اتهمتني غاضبة.

«لا مجال لهذا».

«لا. لا مجال لهذا. كما أنك تريدين موتها أيضاً. دعيهم يطلقون النار عليها إذاً».

انكمشت خائفة.

سألني جيمي: «هل أنت بخير؟».

أومأت برأسي. لم أتكلم لأنني ما كنت واثقة في صوتي.

قال لي جيب. وكانت عيناه تمعنان النظر في وجهي: «لست مضطرة إلى الذهاب».

همست: «لا بأس».

شد جيمي قبضته على يدي، لكنني نزعت يدي من يده: «ابق هنا يا جيمي».

«سوف أذهب معك».

صار صوتي أكثر قوة الآن: «لا، لن تذهب معي».

رحنا نتبادل تحديقاً غاضباً. ثم كسبت تلك الجولة! رفع جيمي ذقنه معانداً، لكنه تراجع صوب الجدار.

أحسست أن إيان أيضاً يريد الذهاب معي. يريد الخروج من المطبخ معي، لكنني أوقفته بنظرة واحدة. راقبني جارد أثناء ذهابي. كانت تعابير وجهه غير مقروءة.

قال لي جيب بصوت منخفض أثناء اقترابنا: «إنها كثيرة الشكوى. ليست مثلك. إنها تريد المزيد دائماً. الطعام والماء والوسائد. وهي تطلق تهديدات كثيرة أيضاً. سوف يمسك بكم الباحثون. كلكم! وكلام من هذا القبيل. الأمر صعب على براندت خاصة. إنها تستفزه إلى أقصى حد».

أومأت برأسي. لم يفاجئني هذا على الإطلاق.

«لكنها لم تحاول الهرب أبداً. إنها تتكلم كثيراً ولا تفعل شيئاً. ما إن نشهر سلاحاً عليها حتى تتراجع على الفور».

أخافني هذا الكلام.

تمتم جيب يقول لنفسه: «أظن أنها تريد الحياة إلى أقصى حد».

سألته عندما بدأنا السير في النفق الأسود المتعرج: «هل أنت واثق من أن هذا هو المكان الأفضل لحبسها؟».

ضحك جيب: «لم تتمكني من العثور على طريق الخروج». هكذا قال يذكّرني. «أحياناً، يكون أفضل مكان للاختباء هو أوضح الأمكنة على الإطلاق». جاءت إجابتي مباشرة: «إن لديها دوافع للهرب أكثر مني».

«إن الشباب يراقبونها مراقبة شديدة. لا داعي للقلق».

كدنا نصل. استدار النفق منعطفاً في زاوية حادة.

كم مرة مشيت هنا بالقرب من هذه الزاوية؟ كم مرة جعلت يدي تسير ملامسة الجدار الداخلي لهذا المنعطف؟ لكني لم أجعلها تسير ملامسة للجدار الخارجي. كان جداراً خشناً فيه حجارة ناتئة تجرح اليد وتجعل المرء يتعثر! كما أن السير عند الجدار الداخلي هو السبيل الأقصر.

عندما جعلوني أرى أن هذا المنعطف الحاد ما كان منعطفاً. بل تشعباً. شعبتان تنطلقان من نفق آخر نفق المدخل. شعرت أنني كنت غبية تماماً. صحيح ما قاله جيب. إن إخفاء الأشياء على مرأى من الجميع يكون أحياناً أذكى طريقة لإخفائها. وعندما مرت بي أوقات من اليأس الشديد الذي جعلني أفكر في الهرب من الكهوف. كان عقلي يتجاوز هذا المكان. يحذفه من تفكيره. هذا هو كهف السجن. كان في عقلي. أكثر الأماكن ظلمة. أكثرها عمقاً تحت الأرض. إنه المكان الذي دفنت فيه.

حتى ميلاني، رغم كونها ماكرة أكثر مني، لم يخطر في بالها أبداً أنهم يحتفظون بي سجينة على بعد خطوات قليلة من المدخل.

لم يكن هذا هو المدخل الوحيد. لكن المدخل الآخر كان ضيقاً صغيراً لا يمكن المرور منه إلا زحفاً. لم أجد هذا المدخل الصغير لأنني

دخلت الكهوف منتصبة القامة. ما كنت أبحث عن ذلك النوع من المداخل. ثم إنني لم أفتش جدران مستشفى الطبيب على الإطلاق. لقد تجنبت ذلك المكان منذ البداية.

لكن صوتاً، مألوفاً رغم انتمائه إلى حياة أخرى، قاطع هذه الأفكار.

«لا أعرف كيف بقيتْ حية مع كل هذا الطعام. أوف!».

سمعت صوت شيء بلاستيكي يصطدم بالصخور.

استطعت رؤية الضوء الأزرق عندما اجتزنا المنعطف الأخير.

«ما كنت أعرف أن لدى البشر الصبر اللازم لتجويع أحد حتى الموت. تبدو هذه الخطة أكثر تعقيداً من أن تستطيع عقولكم المحدودة تنفيذها».

ضحك جيب: «عليّ القول إنني فوجئت بهؤلاء الشباب. فوجئت بصبرهم إلى هذا الحد».

وصلنا إلى نهاية النفق المغلقة. رأيت براندت وآرون جالسَيْن في أبعد نقطة ممكنة عن النهاية التي راحت الباحثة تتمشى فيها. كان كل منهما حاملاً سلاحه بين يديه. تنفسا الصعداء عندما شاهدانا مقتربين.

قال براندت: «أخيراً». ظهر ارتياح شديد على وجهه.

توقفت الباحثة عن المشي.

فوجئت عندما رأيت ظروف احتجازها. ما كانت محشورة في ذلك الثقب الضيق بل هي حرة نسبياً تذرع عرض النفق جيئة وذهاباً. رأيت فراشاً ووسادة على الأرض. على أرض النفق المستوية. ورأيت صينية بلاستيكية مستندة في وضع مائل إلى الجدار. ورأيت بعض الخضار متناثراً من حولها. ورأيت صحن الحساء أيضاً. كان شيء من الحساء قد تناثر من حول الصحن. هذا يفسر الصوت الذي سمعته قبل لحظة. لقد رمت طعامها. لكن الظاهر أنها أتت على معظمه قبل أن ترميه.

رحت أنظر إلى هذا الوضع الإنساني نسبياً فشعرت بألم غريب في معدتي.

تساءلت ميلاني غاضبة: «من قتلنا؟». لقد أزعجها هذا المشهد أيضاً

سألني براندت: «أتريدين الحديث معها؟». طعنتني الألم من جديد هل أشار لي براندت من قبل باستخدام ضمير المؤنث؟ لم أستغرب رأفة جيب بالباحثة، لكني أستغرب سلوك الآخرين!

أجبت براندت هامسة: «نعم».

حذرني آرون: «احذري. إنها غاضبة شرسة».

هززت رأسي.

ظل الجميع في أماكنهم. أما أنا فسرت صوب الباحثة.

وجدت صعوبة في رفع عيني إليها. في مقابلة نظراتها التي أحسستها مثل أصابع باردة تتلمس وجهي.

كانت الباحثة تحدّق في وجهي. وعلى وجهها تكشيرة بشعة تشوه ملامحها. لم أر هذا التعبير على وجه أي روح من قبل.

قالت ساخرة: «أهلاً، أهلاً يا ميلاني. لماذا تأخرت كل هذا الوقت قبل القدوم لزيارتي؟».

لم أجبها. سرت نحوها بخطوة بطيئة محاولة إقناع نفسي بأن هذا الكره المنبعث من جسدي ما كان يخصّني حقاً.

«هل ظن أصدقاؤك الحمقى أنني يمكن أن أتحدث معك؟ هل ظنوا أنني يمكن أن أبوح لك بأسراري لأن ثمة روحاً بائسة مزروعة في رأسك. لأن هذه الروح تنعكس في عينيك؟». أطلقت ضحكة جارحة.

توقفت قبل الوصول إليها بخطوتين. أراد جسمي الاستدارة مبتعداً عنها. لم تقم بأي حركة عدوانية تجاهي، لكني ما كنت قادرة على جعل عضلاتي تسترخي. كان الأمر مختلفاً عن مقابلة الباحثة في الطريق. ليس لديّ الآن ذلك الإحساس المألوف بالأمان الذي يغمرني عندما أكون محاطة بأبناء جنسي اللطفاء. لكن ذلك الحدس الغريب داهمني من

جديد. حدسي بأنها ستعيش بعد موتي.

«لا تكوني سخيفة. اطرحي أسئلتك. هل خطر في بالك أي سؤال؟».

قالت الباحثة بصوت كالفحيح: «ماذا تريدين إذاً؟ هل طلبت إذناً منهم حتى تقومي بقتلي بنفسك يا ميلاني؟».

قلت: «إنهم يدعونني باسم جو هنا».

أجفلت الباحثة قليلاً عندما فتحت فمي لأتكلم كأنها توقعت مني أن أصيح. لكن الظاهر أن صوتي المتوازن المنخفض كان مزعجاً لها أكثر من الصياح الذي كانت تنتظره.

رحت أتفحصها بينما كانت تحدق فيّ بعينيها الجاحظتين. كان وجهها قذراً ملطخاً بغبار أرجواني وعرق جاف. أما غير ذلك فما كانت أي علامة ظاهرة عليها. ومن جديد، جعلني هذا أشعر بألم غريب.

كررتُ من بعدي: «جو! طيب، ماذا تنتظرين؟ ألم يسمحوا لك؟ هل تعتزمين قتلي بيديك أم تريدين استخدام مسدسي؟».

«لست هنا حتى أقتلك».

ابتسمت ابتسامة صفراء: «أنت هنا من أجل استجوابي إذاً؟ أين هي أدوات التعذيب أيتها البشرية؟».

قلت مجفلة: «لا أريد إيذاءك».

لمع عدم الأمان في عينيها لكنه اختفى تحت تكشيرة جديدة: «لماذا يحتفظون بي إذاً؟ أيظنون أنهم قادرون على ترويضي. هل يتوقعون أن أصير حيواناً أليفاً مثلك؟».

«لا إنهم. ما كانوا يريدون قتلك قبل. سؤالي. ظنوا أنني أريد التحدث معك قبل ذلك».

أغمضت عينيها نصف إغماض. بدت عيناها أقل جحوظاً: «هل لديك ما تقولينه لي؟».

ابتلعت ريقي: «كنت أتساءل. .» ما كان لدي غير ذلك السؤال الذي عجزت عن معرفة الإجابة عنه بنفسي. «لماذا؟ لماذا لم تقبلي فكرة

موتي كما فعل الآخرون؟ لماذا كنت مصممة كل هذا التصميم على اصطيادي؟ لست أريد إيذاء أحد. لم أرد إلا أن أمضي في سبيلي».

قفزت واقفة على قدميها رافعة وجهها صوب وجهي. تحرك شخص من خلفي، لكن لم أسمع غير ذلك. كانت تصيح في وجهي.

زعقت: «لأنني كنت على حق! بل أكثر من ذلك! انظري إليهم جميعاً! وكر مليء بالقتلة. ينتظرون فرصتهم! تماماً كما ظننت، بل أسوأ مما ظننت! كنت أعرف أنك هنا معهم! كنت أعرف أنك واحدة منهم! أخبرتهم أن ثمة خطراً! لقد أخبرتهم!».

توقفتْ لاهثة ثم تراجعت خطوة إلى الخلف ناظرة إلى شيء خلفي. لم ألتفت لأرى الشيء الذي جعلها تتراجع. افترضت أنه على صلة بما قاله جيب عنها. ما إن يظهر السلاح حتى تتراجع! رحت أدرس تعابير وجهها ريثما هدأ تنفسها.

«لكنهم لم يصغوا إليك. وهذا ما جعلك تأتين وحدك».

لم تجبني الباحثة. تراجعت خطوة أخرى إلى الخلف. كان الشك يشوّه ملامح وجهها. بدت شديدة الهشاشة، إلى حد غريب، كما لو أن كلماتي هذه جرَّدتها من الدرع الذي كانت تختبئ خلفه.

قلت: «سوف يبحثون عنك. لكنهم لم يصدقوا شيئاً مما قلته لهم، أليس كذلك؟». كنت أراقب كيف تؤكد عيناها اليائستان كل كلمة مما أقول. جعلني ردّ فعلها واثقة تماماً. «وهكذا فإنهم لن يتوسعوا في البحث. وعندما يعجزون عن العثور عليك فسوف يتضاءل اهتمامهم بالأمر. أما نحن فسوف نكون حذرين كالعادة! لن يستطيعوا العثور علينا»

رأيت الآن رعباً حقيقاً في عينيها للمرة الأولى. إنها المعرفة المخيفة... معرفتها المخيفة. بأنني على حق. أحسست بالاطمئنان على وكر البشر هذا. على أسرتي الصغيرة. إنني على حق. سوف يبقون آمنين. لكني، ويا للغرابة، لم أشعر باطمئنان على نفسي.

ما كانت عندي أسئلة إضافية أوجهها إلى الباحثة. عندما أسير مبتعدة

ستموت! هل ينتظرون ريثما أبتعد حتى لا أسمع صوت إطلاق النار؟ هل من مكان في هذه الكهوف يبعد مسافة كافية؟

رحت أنظر إلى وجهها الغاضب الخائف، فأدركت مدى عمق كرهي لها. أدركت كم كنت غير راغبة في رؤية وجهها من جديد. ما حييت. إنه الكره الذي جعل سماحي بموتها أمراً مستحيلاً.

همست بصوت خفيض لا يستطيع البشر سماعه: «لا أعرف كيف أنقذك» لماذا بدا صوتي كاذباً في أذني؟ «لا أستطيع العثور على طريقة».

«ولماذا تريدين هذا؟ أنت واحدة منهم!». لكن شرارة أمل لمعت في عينيها. إن جيب على حق. كل هذا الوعيد. كل هذا التهديد. إنها لا تريد إلا البقاء على قيد الحياة!

هززت رأسي عندما سمعت اتهامها... كنت منشغلة عنها بعض الشيء لأنني كنت أحاول التفكير سريعاً: «لكنني ما زلت أنا. لا أريد. لست أريد. .».

كيف أنهي هذه الجملة؟ لست أريد. موت الباحثة؟ لا هذا غير صحيح.

ما كنت أريد. أن أكره الباحثة! ما كنت أريد أن أكرهها إلى حد يجعلني أريد موتها. ما كنت أريد موتها مع استمرار كرهي لها. ما كنت أريد أن تموت كأنها تموت بسبب هذا الكره.

لو أنني غير راغبة في موتها حقاً فهل كنت أستطيع التفكير في طريقة من أجل إنقاذها؟ أهو الكره ما يحجب الإجابة عني؟ هل أكون مسؤولة إذا ماتت؟

قالت ميلاني محتجة: «هل أنت مجنونة؟».

لقد قتلت الباحثة صديقي. أردته قتيلاً بطلقة في الصحراء. حطّمت قلب ليلي. لقد عرَّضت أسرتي للخطر. إنها خطر عليهم ما دامت حية. إنها خطر على إيان وعلى جيمي وعلى جارد. وسوف تفعل كل ما تستطيع فعله لتقتلهم.

«هذا مرجح». وافقتني ميلاني على هذه الأفكار.

«لكن، إذا ماتت، وكنت قادرة على إنقاذها إن أردت إنقاذها... فماذا أكون أنا؟».

«عليك أن تكوني عملية يا جو. هذه حرب. في اي جانب أنت؟».

«أنت تعرفين الإجابة».

«نعم، أعرفها. هذه حقيقتك يا جو».

«لكن... لكن، ماذا إن كنت قادرة على فعل الأمرين معاً؟ ماذا إن كنت قادرة على إنقاذ حياتها وعلى المحافظة على سلامة الجميع... في وقت واحد؟».

عصفت بمعدتي موجة جديدة من الغثيان عندما رأيت الإجابة التي كنت أحاول إقناع نفسي بعدم وجودها.

الآن. انهار الجدار الوحيد الذي أقمته بيني وبين ميلاني. انهار فصار تراباً.

قالت ميلاني: «لا!». ثم صرخت: «لا!»

إنها الإجابة التي كان عليّ أن أتوقع الوصول إليها. الإجابة التي تفسر حدسي الغريب.

لأنني أستطيع إنقاذ الباحثة. نعم. أستطيع إنقاذها طبعاً. لكن هذا سيكون مكلفاً بالنسبة لي. إنها مقايضة. ما العبارة التي قالها كَايل؟ حياة مقابل حياة.

كانت الباحثة تنظر إليّ بعينين تفيضان سماً.

## الفصل الخمسون

# تضحية

راحت الباحثة تتفرس في وجهي أثناء صراعي مع ميلاني.

«لا يا جو، لا!».

«لا تكوني حمقاء يا ميلاني. أنت، من بين جميع الناس، يجب أن تري الإمكانيات التي يحملها هذا الخيار. أليس هذا ما تريدين؟».

لكن، حتى عندما حاولت النظر إلى النهاية السعيدة، ما كنت قادرة على عدم رؤية الرعب في هذا الخيار. إنه السر الذي يجب أن أحميه بحياتي. إنها المعلومات التي كنت أحاول جاهدة حفظها في أمان مهما يكن التعذيب الذي أعانيه.

لكن هذا ما كان تعذيباً من النوع الذي توقعت: إنه أزمة ضمير شخصية زادها حبي لأسرتي البشرية تشوشاً وتعقيداً. إنه نوع مؤلم من التعذيب. رغم ذلك.

لن أستطيع الاستمرار في الزعم أنني مهاجرة إذا فعلت هذا. لا، سوف أكون خائنة فحسب.

صاحت ميلاني: «ليس من أجل الباحثة يا جو! ليس من أجلها!».

«أتريدين أن انتظر؟ أتريدين أن انتظر حتى يمسكوا روحاً أخرى؟... روحاً أخرى بريئة لا سبب يحملني على كرهها؟ عليّ أن أتخذ هذا القرار في وقت من الأوقات».

«ليس الآن! انتظري! فكري في الأمر!».

تخبطت معدتي من جديد. كنت في حاجة إلى تحريك جسمي

قليلاً وإلى التنفس عميقاً. أفلحت في منع نفسي من التقيؤ.

هتف جيب قلقاً: «جو!».

«كنت أستطيع أن أفعل هذا يا ميلاني. كنت أستطيع تبرير تركها تموت لو كانت واحدة من تلك الأرواح البريئة. عندها... كنت أستطيع أن أتركهم يقتلونها. كنت أستطيع أن أثق بأنني أتخذ قراراً موضوعياً».

«لكنها كريهة يا جو! إننا نكرهها!».

«تماماً. وهذا ما يجعلني غير قادرة على الثقة بنفسي. انظري كيف أنني أكاد أكون عاجزة عن رؤية الإجابة...».

«جو، هل أنت بخير؟».

رأيت الباحثة تنظر إلى ما يتجاوزني. تنظر صوب صوت جيب.

قلت لاهثة: «أنا بخير يا جيب». كان صوتي هامساً. متوتراً. عجيب كم يبدو صوتي تعيساً الآن!

جالت عينا الباحثة القاتمتان بيننا. غير واثقتين. ثم رأيتها تتراجع مبتعدة عني. تنكمش فتلتحم بالجدار. عرفت هذه الوضعية. تذكرت بالضبط كيف يكون الإحساس عند الالتحام بذلك الجدار.

هبطت يد لطيفة على كتفي وأدارتني إلى الخلف.

سألني جيب: «ما الذي يحدث معك يا عزيزتي؟».

قلت له مبهورة الأنفاس: «إنني في حاجة إلى دقيقة واحدة». نظرت مباشرة في عينيه الزرقاوين الباهتتين وقلت له شيئاً ما كان كاذباً على الإطلاق. «لدي سؤال آخر. لكنني في حاجة إلى دقيقة أخلو بها إلى نفسي. هل يمكنكم. الانتظار من أجلي؟».

«بالتأكيد، نستطيع الانتظار فترة أخرى. استريحي قليلاً».

هززت رأسي وسرت مسرعة قدر ما استطعت مبتعدة عن ذلك السجن. كانت ساقاي متيبستين رعباً في البداية، لكنني عثرت على خطواتي مع تحركي. وعندما تجاوزت آرون وبراندت كنت قد بدأت الجري.

سمعت آرون يهمس لبراندت بصوت ناطق بالحيرة: «ماذا حدث؟».

ما كنت أعرف أين أختبئ أثناء تفكيري. لكن قدميّ ساقتاني، مثلما يفعل الطيار الآلي بالطائرة. ساقتاني عبر تلك الممرات في اتجاه غرفة نومي. ليتني أجد الغرفة خالية.

كان الوقت ليلاً. ما كاد شيء من ضوء النجوم يتسرب عبر شقوق السقف. لم أر ليلي حتى تعثرت بها في تلك الظلمة.

كدت لا أعرف وجهها الذي شوهه البكاء. كانت متكورة على الأرض في وسط الممر. كانت عيناها متسعتين غير مدركتين تماماً لما تريان. لم تعرفني.

سألتني: «لماذا؟».

حدقت فيها غير قادرة على النطق.

«لقد قلت إن الحياة والحب مستمران. لكن لماذا يستمران؟ لا يجوز أن يستمرا بعد الآن. ما الغاية من الاستمرار؟».

«لست أدري يا ليلي. لست أعرف الغاية»

سألت من جديد: «لماذا؟». ما كانت تتحدث معي. كانت عيناها الزجاجيتان تنظران من خلالي.

تجاوزتها بخطوات حذرة فأسرعت إلى غرفتي. إن لدي سؤالي الخاص. ولا بد من الإجابة عنه.

أراحني أن أجد الغرفة خالية. رميت بنفسي منبطحة على الفراش حيث أنام مع جيمي.

عندما قلت لجيب إن لدي سؤالاً واحداً آخر، كان ذلك صحيحاً. لكن السؤال ما كان من أجل الباحثة. إنه سؤال أطرحه على نفسي.

لقد كان السؤال: هل أفعلها؟ لم يكن السؤال. هل أستطيع فعلها؟

كنت قادرة على إنقاذ حياة الباحثة. أعرف هذا الآن. لن يكون هذا

خطراً على الأرواح التي هنا. إلا روحي أنا. عليّ أن أقوم بتلك المقايضة.

«لا». حاولت ميلاني أن تكون حازمة رغم ذعرها.

«أرجوك، دعيني أفكر».

«لا».

«هكذا هو الأمر يا ميلاني. إنه شيء محتم. أستطيع رؤية ذلك الآن. كان عليّ أن أراه منذ زمن بعيد. الأمر واضح تماماً».

«لا، إنه ليس كذلك».

تذكرت الحديث الذي جرى بيننا أثناء مرض جيمي. عندما كنا نتصالح. لقد قلت لها إنني لن أمحوها. وإنني آسفة لأنني لا أستطيع إعطاءها المزيد.

ما كانت تلك كذبة بل كانت جملة غير مكتملة. ما كنت أستطيع إعطاءها أكثر مما أعطيتها. مع بقائي حية.

أما الكذبة الفعلية فهي ما قلته لجارد. قلت له، بعد ثوانٍ قليلة من ذلك، إنني لا أعرف كيف أجعل نفسي غير موجودة. كنت صادقة. ضمن سياق ذلك الحديث. ما كنت أعرف كيف أختفي فأذوب بعيداً. داخل جسد ميلاني. لكنني أشعر بالدهشة الآن لأنني لم أدرك الكذبة الواضحة في ذلك الكلام. لم أر في تلك اللحظة ما أستطيع رؤيته الآن. نعم. إنني أعرف كيف أجعل نفسي غير موجودة.

كل ما في الأمر هو أنني لم أعتبر هذا الخيار أمراً معقولاً لقد رأيته خيانة مطلقة لكل روح على هذا الكوكب.

ما إن يعرف البشر أنني أملك الإجابة، الإجابة التي قتلوا أشخاصاً من أجلها، مرة بعد مرة، حتى يكون عليّ أن أدفع ثمن هذا.

«لا يا جو!».

«ألا تريدين حريتك؟».

حل صمت طويل.

أجابت أخيراً: «ما كنت لأطلب هذا منك. وما كنت لأفعل هذا من أجلك. وأنا واثقة تماماً من أنني لا أريد أن أفعل هذا من أجل الباحثة».

«لست في حاجة إلى طلب ذلك مني. أظن أنني قد تطوعت لهذا الأمر... في النهاية».

سألتني وقد شارف صوتها على البكاء: «لماذا تظنين هذا؟». كنت أتوقع أن يفرحها قراري.

«لقد اتخذت هذا القرار، جزئياً، من أجلهما... جارد وجيمي. أستطيع إعطاءهما العالم كله... كل ما يريدان. أستطيع إعادتك إليهما. ربما كنت سأدرك هذا الأمر... يوماً ما. من يدري؟ ربما يطلبه مني جارد. تعرفين أنني لن أقول له لا».

«إن إيان على حق. أنت شديدة الميل إلى التضحية. ليست لديك أي حدود. أنت في حاجة إلى حدود يا جو!».

قلت بصوت حزين: «آه! إيان!». اجتاحني ألم جديد. ألم قريب من قلبي. إلى حد مفاجئ.

«سوف تأخذين منه العالم كله. سوف تأخذين منه كل ما يريده».

«لن ينجح الأمر مع إيان أبداً. لن ينجح في هذا الجسد... حتى إذا أحبه. إن هذا الجسد لا يحبه».

«جو... أنا...» كانت ميلاني تحاول يائسة أن تعثر على الكلمات. لكن الفرحة التي توقعت أن تصيبها لم تظهر! حزّ هذا في نفسي من جديد. «لا أظنني قادرة على تركك تفعلين هذا. أنت أكثر أهمية من هذا. وإذا نظرنا إلى الصورة الكبيرة فإن قيمتك بالنسبة لهم أكبر من قيمتي أنا. أنت قادرة على مساعدتهم... قادرة على إنقاذهم. أما أنا فلا أستطيع فعل شيء من ذلك. يجب أن تبقي».

«لا أستطيع رؤية أي طريق آخر يا ميلاني. أستغرب كيف لم أر هذا الأمر قبل الآن. إنه يبدو شديد الوضوح الآن. يجب أن أذهب. يجب أن أعيدك إلى نفسك. أدرك تماماً أن مجيئنا... نحن الأرواح... إلى هذا

الكوكب... كان أمراً خاطئاً. وهذا ما لا يترك لي أي خيار الآن إلا أن أقوم بالأمر الصحيح... أن أذهب. لقد عشتم جميعاً من دوني في سابق الأمر. وسوف تفعلون ذلك من جديد. لقد صرتم تعرفون أشياء كثيرة عن الأرواح... تعرفون ذلك مني... وسوف تساعدونهم. ألا ترين هذا؟ هذه هي النهاية السعيدة. هكذا يجب أن تنتهي القصة. أستطيع أن أمنحهم الأمل. أستطيع أن أعطيهم... ليس مستقبلاً... ربما لا أستطيع ذلك... لكني أستطيع إعطاءهم كل ما في وسعي... كل ما أستطيع».

«لا يا جو، لا».

بكت ميلاني. تشوشت. جعل حزنها الدموع تنهمر من عيني. ما كنت أظن أنها مهتمة بي إلى هذا الحد. مثل اهتمامي بها تقريباً. ما كنت أعرف أن واحدتنا تحب الأخرى.

حتى لو لم يطلب مني جارد أن أفعل هذا. حتى لو لم يكن جارد موجوداً أصلاً. فإن عليّ أن أسير في هذا الدرب بعد أن اتضح أمامي أني أحب ميلاني.. إلى هذا الحد.

لا عجب في أن نسبة النجاح مع الأجساد المضيفة المقاومة كانت متدنية إلى هذا الحد على كوكب الأرض. بعد أن نتعلم محبة مضيفنا البشري. فما الأمل الباقي أمامنا. نحن الأرواح؟ لا نستطيع الاستمرار في الوجود على حساب من نحب! لا تفعل الروح هذا. لا تستطيع الروح أن تعيش على هذا النحْو.

انقلبت على ظهري ورحت أنظر إلى جسدي على ضوء النجوم.

كانت يداي قذرتين. ملؤهما الخدوش، لكن. تحت هذا الاتساخ السطحي. كانتا جميلتين. كان لون جلدهما أسمر لوّحته الشمس. حتى الآن، تحت ضوء النجوم الشاحب، كان لون جلدي جميلاً. كانت أظافري مقضومة قصيرة لكنها نضرة ناعمة. كان لكل منها هلال صغير أبيض عند قاعدته. رحت أحرك أصابعي. أراقب العضلات تدفع العظام. تحركها في أشكال رشيقة. جعلت أصابعي

ترقص من فوقي. . صارت سوداء على خلفية السماء المرصعة بالنجوم.

مرَّرت أصابعي في شعري. لقد طال شعري. وصل حتى كتفيَّ. إن ميلاني نحب هذا. بعد عدة أسابيع من الاستحمام بالشامبو واستخدام الفيتامينات في الفنادق، صار شعري لامعاً ناعماً من جديد.

فتحت ذراعَيَّ. مططتهما إلى أقصى ما تستطيعان. جعلت أوتارهما تشدّ وتتوتر حتى طقطقت مفاصلي. شعرت بذراعيّ قويتين. إنهما قادرتان على التسلق بي على سفح جبل منحدر. إنهما قادرتان على حمل أوزان ثقيلة. قادرتان على فلاحة الحقل. لكنهما طريتان ناعمتان أيضاً. إنهما قادرتان على احتضان الطفل. ومواساة صديق. قادرتان على الحب. لكن هذا ليس لي أنا.

استنشقت نفساً عميقاً. تدفقت دموع من زاويتَيْ عينيّ وانحدرت على صدغي ثم على شعري.

شددت عضلات ساقيّ. أحسست بقوتهما. بسرعتهما. رغبت في الجري. رغبت في أن يكون أمامي حقل مفتوح أستطيع الجري فيه. لمجرد أن أرى مقدار سرعتي في الجري. وددت أن أجري حافية حتى أستطيع أن أشعر بملمس التراب تحت قدمي. رغبت في الإحساس بالريح تتخلل شعري. تطيّره. وددت أن تمطر السماء حتى أشم رائحة المطر في الهواء أثناء جريي.

راحت قدماي تنبسطان وتنقبضان بحركة بطيئة مسايرة حركة تنفسي. إلى الداخل. إلى الخارج. انقباض. انبساط. هذا لطيف.

جرت أطراف أصابعي على وجهي. كانت دافئة فوق جلدي. فوق جلدي الجميل الناعم. يسعدني أن أعيد إلى ميلاني وجهها كما استلمته منها. أغمضت عينيّ ورحت أداعب أجفاني.

لقد عشت في أجساد كثيرة، لكنني لم أشعر بهذا الحب نحو أي منها. لم أكن معجبة بأي جسد قدر ما أعجبت بهذا الجسد. لكنه الجسد الذي أجد نفسي الآن مضطرة إلى التنازل عنه.

جعلتني هذه المفارقة أضحك. رحت أركز على إحساسي بالهواء المندفع في فقاعات صغيرة خارجاً من صدري عبر حنجرتي. إن الضحك مثل النسيم العليل. إنه ينظف الجسم كله. يجعل كل شيء جيداً. لطيفاً. هل تملك الأجناس الأخرى شيئاً يشبه هذا العلاج الشافي البسيط؟ لا أتذكر شيئاً من هذا.

لمستُ شفتيّ فتذكرت طعم قبلة جارد. تذكرت الإحساس بقبلة إيان. لقد أتيح لي تقبيل كثير من هذه الأجساد الجميلة. كثير. حتى في هذه الحياة القصيرة.

إنها حياة قصيرة حقاً! لعلها سنة الآن. لست متأكدة تماماً. إنها مجرد دورة سريعة واحدة لذلك الكوكب الأزرق المخضر. دارها حول نجم أصفر عادي. هذه أقصر حياة عشتها.

الحياة الأقصر. الأكثر أهمية. الأكثر إثارة. إنها الحياة التي شكلتني وصاغتني إلى الأبد. إنها الحياة التي قيَّدتني أخيراً إلى نجم واحد. إلى كوكب واحد. إلى مجموعة صغيرة واحدة. من الغرباء.

قليل من الوقت أيضاً. هل هذا شيء خاطئ؟

همست ميلاني: «لا. ابقي معي وقتاً إضافياً... وإن يكن قصيراً».

همستُ أجيبها: «لا يعرف المرء أبداً مقدار ما بقي له من الوقت».

لكنني أعرف. أعرف تماماً مقدار ما بقي لي من الوقت. لا أستطيع أخذ أي وقت إضافي. لقد انتهى وقتي! إنني ذاهبة في جميع الأحوال. عليّ أن أفعل الشيء الصحيح. أن أكون نفسي حقاً. خلال ما بقي لي من وقت.

تنهدتُ. بدا تنهّدي قادماً عبر جسدي كله. من أخمص قدميّ. من راحتي يدي. نهضت واقفة.

لن ينتظرني آرون وبراندت إلى الأبد. ولديّ الآن مجموعة من

الأسئلة أريد إجابات عنها. لكن هذه الأسئلة ستكون موجهة إلى الطبيب هذه المرة.

كانت الكهوف مملوءة بالعيون الحزينة المسبلة. كان سهلاً أن أنزلق عابرة هؤلاء الأشخاص من غير أن يلاحظني أحد. ما كان أحد مهتماً بما أفعله الآن. اللهم إلا جيب وبراندت وآرون. لكنهم ليسوا هنا.

ما كان عندي الآن حقل مفتوح. ما كان عندي الآن مطر. لكن أمامي النفق الجنوبي الطويل. عى الأقل. كان الظلام شديداً يمنعني من الجري كما أحببت، لكني مضيت في النفق مهرولة. كان شعوراً لطيفاً أن أحسّ بالحرارة تنساب في عضلاتي.

توقعت أن أجد الطبيب هناك، لكني سأنتظره إذا لزم الأمر. سوف يكون وحيداً. يا للطبيب المسكين. هكذا هي حاله الآن.

إن الطبيب ينام وحيداً في المستشفى منذ الليلة التي أنقذت فيها حياة جيمي. لقد أخذت شارون أمتعتها من غرفتهما وانتقلت للعيش مع أمها لم يرد الطبيب الاستمرار في النوم وحيداً في تلك الغرفة الفارغة!

ما أكبر هذه الكراهية! تفضل شارون أن تقتل سعادتها. هذا أهون عندها من مسامحته على مساعدتي في شفاء جيمي.

صار وجود شارون وماغي غير محسوس في هذه الكهوف. صارتا تنظران فلا تريان أحداً. كما كانتا تنظران صوبي فلا تريانني. هل يتغير هذا عندما أذهب؟ أم أن ما في نفسيهما من ضغينة صار غير قادر على الزوال؟

ما أغبى هذا الأسلوب في تضييع الوقت!

للمرة الأولى منذ مجيئي، بدا لي النفق الجنوبي شديد القصر. قبل أن أشعر بأنني وصلت إلى منتصف الطريق صرت قادرة على رؤية ضوء مصباح الطبيب مشعاً. خافتاً. من المدخل المقوس الذي أمامي. إنه هنا.

صرت أمشي مشية عادية قبل أن أصل إليه. ما كنت أريد إفزاعه. ما كنت أريد أن أجعله يظن أن ثمة حالة طارئة.

لكنه أجفل عندما ظهرت مبهورة الأنفاس قليلاً عند المدخل الحجري.

قفز الطبيب من خلف مكتبه.

سقط الكتاب الذي بين يديه على الأرض.

«جو، هل ثمة خطب؟».

قلت: «لا يا دكتور. كل شيء بخير».

«هل يحتاج إليّ أحد؟».

«أنا فقط». ابتسمت ابتسامة ضعيفة.

دار الطبيب حول مكتبه ليلاقيني. كان الفضول ظاهراً في عينيه. توقف قبل نصف خطوة مني ونظر إليّ متسائلاً.

كان وجهه البيضوي المتطاول لطيفاً. ما كان فيه إحساس بالخطر. يصعب عليّ الآن أن أتذكر كيف رأيت فيه وحشاً منذ فترة.

بدأت أقول: «أعرف أنك رجل يفي بوعده».

هز الطبيب رأسه وفتح فمه ليتكلم، لكني رفعت يدي وقلت محذرة: «لن يختبر أحد صدق وعدك كما سوف أختبره الآن».

راح ينتظر تتمة الكلام. كانت عيناه حائرتين قلقتين.

استنشقت نفساً عميقاً. أحسست الهواء يوسع رئتيّ.

«أعرف كيف أفعل ما كنت تزهق أرواحاً كثيرة من أجل اكتشافه. أعرف كيف أُخرج الأرواح من أجسادكم من دون إيذاء أحد من الطرفين. أعرف هذا طبعاً! كلنا يعرف هذا. من أجل حالات الطوارئ! بل إنني فعلت ذلك بنفسي في حالة طارئة حدثت ذات مرة عندما كنت على كوكب الدببة».

نظرتُ إليه منتظرة ردّ فعله. استغرقه الأمر لحظة طويلة. كانت الإثارة تكبر في عينيه مع كل ثانية.

لهث يقول أخيراً: «لماذا تقولين لي هذا؟».

«لأنني. سوف أعطيك المعرفة التي تريدها». رفعت يدي لأسكته من جديد. «لكن أشترط عليك أن تعطيني ما أريده في المقابل. أحذّرك منذ الآن، لن يكون إعطائي ما أريده سهلاً عليك. ولن يكون إعطاؤك ما تريده سهلاً عليّ أيضاً».

صار وجهه أكثر احتقاناً وتوتراً: «ما هي شروطك؟».

«لا يجوز لك أن تقتلهم. أقصد الأرواح التي تنتزعها من الأجساد. يجب أن تعطيني كلمتك. أن تعدني. أن تتعهد لي. أنك سوف تؤمن للأرواح سبيلاً آمناً إلى حياة أخرى. هذا يعني ضرورة تحمّل بعض المخاطر. يجب أن يكون لديك حاويات مبردة، وسيكون عليك أيضاً أن تضع هذه الأرواح على متن رحلات فضائية تغادر الكوكب. عليك أن ترسلها إلى عالم آخر حتى تعيش فيه. لكنها لن تتمكن من إيذائك. عندما تصل الأرواح إلى الكوكب المقصود سيكون أحفادك قد ماتوا».

هل تستطيع هذه الشروط التي أضعها أن تخفف من إحساسي بالذنب؟ نعم. فقط إذا كنت أستطيع الثقة بالطبيب.

كان منغمساً في تفكير عميق أثناء شرحي. رحت أراقب وجهه لأرى ما يستنتجه من شروطي. لم يظهر عليه الغضب، لكن عينيه ظلتا متوترين.

قال مخمناً: «أنت لا تريدين أن نقتل الباحثة؟».

لم أجب عن هذا السؤال لأنه لن يستطيع فهم إجابتي. إنني أريدهم أن يقتلوها، هذه هي المشكلة كلها. بدلاً من الشرح، تابعت كلامي.

«سوف تكون هي الأولى. الاختبار الأوّل. أريد أن أتأكد، وأنا لا أزال هنا، من أنك تتقيد بشروطي. سوف أقوم بعملية الفصل بنفسي. وعندما تصير الباحثة في أمان، سوف أعلمك كيف تقوم بالأمر».

«على من؟».

«على أرواح تختطفونها. تماماً كما كان الأمر من قبل. لا أستطيع أن أضمن لك عودة عقل الجسد البشري. لا أعرف إن كان ما تم محوه يستطيع العودة. سوف نرى عندما نجرب العملية على الباحثة».

قال الطبيب: «ماذا تقصدين بعبارة. بينما لا تزالين هنا؟ هل أنت ذاهبة؟»

حدقت فيه، منتظرة أن يفهم قصدي. لكنه راح يحدق في عينيّ غير فاهم شيء مما أقول.

همست: «ألا تدرك ما الذي أقدمه إليك؟».

وأخيراً ظهر على تعابير وجهه أنه بدأ يفهم.

عدت أتكلم سريعاً قبل أن يتمكن من الحديث: «سأطلب منك شيئاً آخر يا دكتور. لا أريد أن. لن تنقلوني إلى كوكب آخر. هذا الكوكب كوكبي. إنه كوكبي حقاً. لكن. لا محلّ لي فيه. لذلك، أعرف أن هذا يمكن أن. يحزن بعض الآخرين. لا تقل لهم إذا رأيت أنهم يمكن أن يمنعوك من فعل ذلك. اكذب عليهم إذا اضطررت إلى الكذب لكني أريد أن أُدفن إلى جانب وولتر وويس. هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلي؟ لن أحتل مساحة كبيرة». ابتسمت ابتسامة ضعيفة من جديد.

«لا!... لا، لا، لا...» هكذا صاحت ميلاني.

قال الطبيب معترضاً أيضاً وقد علا وجهه تعبير من الصدمة: «لا يا جو».

همستُ وأنا أغالب الاحتجاج في رأسي لأنه صار أكثر حدة الآن: «أرجوك يا دكتور! لا أظن أن ويس أو وولتر يمانعان في هذا».

«ليس هذا ما أقصده! لا أستطيع قتلك يا جو. أوف! لقد سئمت الموت. سئمت قتل أصدقائي». قطع البكاء صوت الطبيب.

وضعت يدي على ذراعه النحيلة. «إن الناس يموتون هنا. هذا يحدث». لقد قال كَايل شيئاً بهذا المعنى. غريب أنني أستشهد بكَايل دوناً عن جميع الناس. أستشهد به مرتين في ليلة واحدة.

سألني الطبيب بصوت مصدوم: «ماذا عن جارد وجيمي؟».

«ستكون لديهما ميلاني. سوف يكونان بخير»

«وماذا عن إيان؟».

قلت عبر أسنان مطبقة: «ستكون حاله أفضل من دوني».

هز الطبيب رأسه وهو يمسح عينيه: «يجب أن أفكر في هذا يا جو».

«ليس لديك وقت طويل. لن ينتظروا طويلاً قبل أن يقتلوا الباحثة».

«ليس هذا ما أقصده. إنني موافق على شروطك. لكنني لا أظنني قادراً على قتلك».

«إنها الفرصة أمامك الآن، إما أن تقبل بالأمر كله يا دكتور أو ترفضه كله. عليك أن تتخذ قرارك. ثم. . » أدركت عند ذلك أن عندي طلباً آخر «لا يحق لك أيضاً أن تخبر أحداً عن الجزء الأخير من اتفاقنا. لا أحد إطلاقاً. هذه هي شروطي. لك أن تقبلها كلها أو أن ترفضها كلها. هل تريد أن تعرف كيف تُخرج الروح من الجسد البشري؟».

هز الطبيب من جديد: «دعيني أفكر».

«أنت تعرف الإجابة منذ الآن يا دكتور. هذا ما كنت تفتش عنه».

استمر الطبيب في هز رأسه جيئة وذهاباً.

تجاهلت حركته هذه لأننا كلانا عرفنا أن القرار قد اتخذ.

قلت: «سوف أحضر جارد. سنقوم بغارة سريعة من أجل الحصول على حاويات التبريد. عليك أن توقف الآخرين. قل لهم. قل لهم الحقيقة. قل لهم إنني عازمة على مساعدتك على إخراج الباحثة من ذلك الجسد».

# الفصل الحادي والخمسون

## استعداد

وجدتُ جارد وجيمي في غرفتنا. كانا ينتظران مجيئي. وكان القلق ظاهراً على وجهيهما. لا بد أن جارد تحدث مع جيب.

سألني جارد في حين وثب جيمي ولف خصري بذراعيه: «هل أنت بخير؟».

ما كنت أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال. ما كنت أعرف الإجابة: «جارد، أريد مساعدتك».

صار واقفاً على قدميه فور انتهاء جملتي. مال جيمي إلى الخلف حتى ينظر إلى وجهي. لم أقابل عينيه. ما كنت واثقة من مقدار احتمالي لهذه اللحظة.

سألني جارد: «ماذا تريدين مني أن أفعل؟».

«سوف أذهب في غارة. وسوف تكون مساعدتك مفيدة لي».

«لماذا تذهبين؟». كان متوفزاً. مستعداً. لقد انتقل إلى حالة العمل.

«سوف أشرح لك في الطريق. ليس لدينا وقت كثير».

قال جيمي: «هل أستطيع المجيء معكما؟».

«لا!» قلناها معاً أنا وجارد.

تجهَّم وجه جيمي. تركني أذهب. جلس على الفراش متربعاً. دفن وجهه بين كفيه وصمت حزيناً. لم أستطع النظر إليه على نحو مباشر

قبل أن أخرج من الغرفة. كنت أتوق إلى الجلوس بجانبه. إلى احتضانه ونسيان هذه الفوضى كلها.

لحق بي جارد عندما اتخذت طريقي صوب الممر الجنوبي.

سألني: «لماذا نذهب من هنا؟».

«إنني. . .» سوف يكتشف الأمر إذا حاولت الكذب عليه أو تفادي الإجابة عن السؤال. «لا أريد أن أصادف أحداً. لا أريد مصادفة جيب أو آرون أو براندت تحديداً».

«لماذا؟».

«لا أريد أن أشرح شيئاً لهم. ليس الآن».

ظل جارد صامتاً. كان يحاول إدراك معنى إجابتي.

غيّرت الموضوع: «هل تعرف أين هي ليلي؟ أظن أن من غير الجائز أن تبقى وحدها. إنها تبدو. . .».

«إن إيان معها».

«هذا جيد. إنه ألطف الناس هنا».

يستطيع إيان مساعدة ليلي. إنه الشخص الذي تحتاج إليه الآن. لكن، من يستطيع مساعدة إيان عندما. ؟ هززت رأسي مبعدة تلك الفكرة عني.

سألني جارد: «ما الشيء الذي نسرع من أجل الحصول عليه؟».

استنشقت نفساً عميقاً قبل أن أجيبه: «حاويات التبريد».

كان النفق الجنوبي مظلماً. ما كنت قادرة على رؤية وجه جارد. لم يتغير شيء في صوت خطواته إلى جانبي، ولم يقل شيئاً. ظل صامتاً عدة دقائق. وعندما تحدث من جديد أدركت أنه يركز تفكيره كله على الغارة. إنه يركز تفكيره عليها وحدها منحّياً كل الفضول الذي انتابه الآن ريثما ينتهي من وضع خطة الغارة على نحو يرضيه ويطمئن إليه.

«من أين نحصل عليها؟».

«يجري تخزين الحاويات الفارغة خارج المستشفيات إلى أن تنشأ

حاجة إليها. وبما أن الأرواح التي تأتي إلى الأرض أكثر من الأرواح التي تغادرها فسوف نجد فائضاً من الحاويات الفارغة. لن يحرس أحد هذه الحاويات. ولن يلاحظ أحد اختفاء بعضها».

«هل أنت واثقة من هذا؟ من أين حصلت على هذه المعلومات؟».

«رأيتها في شيكاغو. أكوام وأكوام من الحاويات. حتى في المستشفى الصغير الذي ذهبنا إليه في توكسون كان ثمة مستودع صغير من أجل الحاويات. إنها موضوعة في صناديق عند بوابة التحميل».

«إذا كانت الحاويات ضمن صناديق فكيف تكونين واثقة من أنها. . ».

«ألم تلاحظ ولعنا بوضع ملصقات على كل شيء؟».

قال: «لست أشكك في كلامك. لكني أريد فقط أن أتأكد من أنك فكرت ملياً في الأمر كله».

سمعت معنى مزدوجاً في كلماته!

«لقد فكرت ملياً».

«فلنذهب إذاً».

كان الطبيب قد ذهب من المستشفى. إنه الآن مع جيب. لم نره في طريقنا. لا بد أنه خرج فور مغادرتي. ليتني أعرف كيف استقبل الآخرون الأخبار التي عند الطبيب. آمل أنهم لن يكونوا حمقى إلى حد يجعلهم يناقشون الأمر أمام الباحثة. هل تفجر الباحثة دماغ مضيفها البشري إذا توقعت ما أريد فعله؟ هل تعتقد أنني غدوت خائنة بكل معنى الكلمة؟ هل تعتقد أنني سوف أعطي البشر ما يريدون الحصول عليه. من غير قيود؟

لكن، أليس هذا ما أفعله حقاً؟ عندما أذهب، فهل سيهتم الطبيب بحفظ وعده؟

نعم، سوف يحاول ذلك. أنا مؤمنة بهذا. عليّ أن أكون مؤمنة بهذا. لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وحده. فمن يساعده يا ترى؟

تسلّقنا حتى الفتحة الضيقة المظلمة المؤدية إلى الجهة الجنوبية من التلة الصخرية. عند منتصف الطريق إلى القمة تقريباً. كان الأفق الشرقي يتحول إلى لون رمادي مع مسحة خفيفة من اللون الوردي تنتشر عند الخط الفاصل بين السماء والصخور.

ظلت عيناي معلقتان بقدميّ أثناء هبوطي السفح المائل. كان هذا ضرورياً. ما من طريق هنا. كما أن الصخور متقلقلة إلى حد يجعلها غير آمنة. لكن، حتى لو كان الطريق سهلاً ممهداً.. لما استطعت رفع عيني. أحسست أن كتفَيَّ أيضاً متهدِّلَتَيْن إلى الأسفل.

إنني خائنة. لست شخصاً في غير مكانه الصحيح. لست جوالة. بل خائنة. إنني أضع حياة إخوتي وأخواتي بين أيدٍ غاضبة سيئة الدوافع. بين أيدي أسرتي البشرية الجديدة.

إن لدى البشر حقاً كاملاً في كراهية الأرواح. هذه حرب، وأنا أعطي البشر سلاحاً. أعطيهم طريقة يقتلون بها الأرواح من غير عقاب.

رحت أفكر في هذا أثناء جرينا في الصحراء تحت تباشير أضواء الفجر. كنا نجري لأننا لا يجوز أن نخرج في النهار مع وجود الباحثين الذين يرصدون المنطقة.

عندما أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية. عندما أنظر إلى خياري لا باعتباره تضحية بل باعتباره محاولة تسليح البشر بهذه المعرفة مقابل حياة الباحثة. كنت أعرف أنه خيار خاطئ. فإذا كنت أحاول إنقاذ الباحثة فقط فإن هذا الوقت المناسب لأن أغير رأيي وأعود أدراجي. إنها لا تستحق أن أبيع الآخرين من أجلها. أظن أنها توافقني على هذا. حتى هي نفسها توافق.

هل توافقني حقاً؟ هكذا تساءلت على نحو مفاجئ. لا يبدو أن هذه الباحثة. ما الكلمة التي استخدمها جارد؟ لا يبدو أنها غيريّة. ليست غيريّة مثل بقية الأرواح. لعلها ترى حياتها أهم من حياة كثيرين.

لكن الوقت قد فات على تغيير رأيي. لقد تجاوز تفكيري إنقاذ

الباحثة وحدها. سوف يحدث هذا من جديد. . لا محالة. سوف يقتل البشر أي روح يستطيعون قتلها إلا إذا أعطيتهم خياراً آخر. ثم إنني عازمة على إنقاذ ميلاني أيضاً. وهذا أمر يستحق التضحية. سوف أنقذ جارد وجيمي أيضاً. وربما أنقذ الباحثة المقيتة أيضاً!

لقد أخطأت الأرواح في المجيء إلى هذا الكوكب. إن هؤلاء البشر يستحقون عالمهم. لا أستطيع إعادة الكوكب إليهم الآن، لكني أستطيع أن أعطيهم هذا. ليتني أستطيع الثقة بأنهم لن يكونوا قساة أجلافاً.

ليس عليّ إلا أن أثق بالطبيب. وأن أثق بالأمل.

ولعل من الأفضل أن أنتزع الوعد نفسه من حفنة من أصدقائي أيضاً. تحسباً لعدم قدرة الطبيب على الوفاء بوعده منفرداً.

أتساءل عن عدد الأجساد البشرية التي سأنقذها. عن عدد الأرواح التي سأنقذها أيضاً. أما الروح الوحيدة التي لا أستطيع إنقاذها. فهي أنا.

تنهدت تنهيدة ثقيلة سمعها جارد رغم صوت تنفسنا اللاهث. وبطرف عيني رأيت وجهه يستدير صوبي. أحسست بعينيه تخترقانني، لكني لم أرفع رأسي لأقابل عينيه. بقيت محدقة في الأرض.

وصلنا إلى مكان اختباء سيارة الجيب قبل ارتفاع الشمس فوق القمم الشرقية، لكن السماء صارت زرقاء مضيئة منذ الآن. دخلنا الكهف الصغير لحظة كانت الشمس موشكة على بسط أول أشعتها وتلوين رمل الصحراء باللون الذهبي!

أمسك جارد زجاجتين من الماء موضوعتين على المقعد الخلفي وقذف واحدة منهما صوبي ثم استند إلى الجدار. أفرغ نصف زجاجته في فمه ثم مسحه بظاهر كفه قبل أن يتكلم.

«يمكنني إخبارك كيف تستطيعين الخروج من هنا في حالة الاستعجال، لكننا مضطرين للانتظار حتى الظلام إذا كنا نريد العودة».

ابتلعت جرعة من الماء: «لا بأس. أنا واثقة بأنهم سيتظرونا الآن»

راحت عيناه تنقبان في وجهي.

قال لي مراقباً ردّ فعلي: «لقد رأيت باحثتك. إنها. شديدة الحيوية».

أضفت: «وكثيرة الكلام أيضاً».

ابتسم جارد: «يبدو أنها غير راضية عن المكان الذي أعددناه من أجلها».

نظرت إلى الأرض وقلت مغمغمة: «يمكن أن يكون الأمر أسوأ من هذا». تسرب إلى صوتي ألم الغيرة الغريب الذي لم أرد إظهاره.

وافقني بصوت منخفض: «هذا صحيح».

همست: «ما الذي يجعلهم على هذه الدرجة من اللطف معها؟ ألم تقتل ويس؟».

«الحقيقة هي أن الذنب ذنبك أنت».

رفعت رأسي ناظرة إليه. فوجئت برؤية ظل ابتسامة على شفتيه؛ إنه يمازحني!

«ذنبي أنا؟».

اختفت الابتسامة عن وجهه: «لا يريد الشباب أن يكونوا وحوشاً بعد الآن. إنهم يحاولون التعويض عما فعلوه من قبل. ولو جاء هذا متأخراً بعض الشيء. ولو كان هذا مع روح لا تستحق هذا اللطف. ما كنت أتوقع أن يجرح هذا الأمر مشاعرك. ظننت أنك تفضلينه على هذا النحو».

«هذا صحيح». لا أريد أن يؤذي البشر أحداً. «من الأفضل دائماً أن يكون المرء لطيفاً. لكني. .» استنشقت نفساً عميقاً. «لكني سعيدة بمعرفة سبب لطفهم».

إن لطفهم هذا من أجلي أنا، ليس من أجلها. أحسست بالقوة في كتفي من جديد.

«ليس شعوراً جيداً أن يعرف المرء في قرارة نفسه أنه يستحق لقب

وحش. أن يكون المرء لطيفاً رحوماً أفضل من أن يشعر بالذنب». ابتسم جارد من جديد ثم تثاءب. أعداني تثاؤبه.

قال: «كانت ليلة طويلة. وسوف تكون ليلتنا القادمة طويلة أيضاً علينا أن ننام».

أسعدني هذا الاقتراح. كنت أعرف أن لديه أسئلة كثيرة عن سبب هذه الغارة وعن معناها. وكنت أعرف أيضاً أنه قد استنتج أموراً كثيرة بنفسه. لكني ما كنت راغبة في مناقشة أي شيء منها في هذه اللحظة.

استلقيت على الرمل الناعم إلى جانب السيارة. فوجئت بمجيء جارد واستلقائه إلى جانبي. إلى جانبي تماماً. التصق بي واتخذ جسمه شكل انحناءة ظهري.

قال: «هاك». مد يده وأدخل أصابعه تحت وجهي ثم رفع رأسي عن الأرض وجعل ذراعه تمتد تحته صانعاً منها وسادة لرأسي. ترك ذراعه الأخرى مرتاحة على خصري.

مرت عدة ثوانٍ قبل أن أتمكن من الاستجابة: «شكراً».

تثاءب جارد. أحسست بأنفاسه حارة على رقبتي: «نالي شيئاً من الراحة يا جو».

سرعان ما سقط جارد نائماً. نام محتضناً جسدي على نحو لا يمكن اعتباره إلا عناقاً. هكذا هو دائماً. إنه قادر على النوم في أي لحظة. حاولت الاسترخاء مع وجود ذراعه حول جسمي، لكن هذا استغرق زمناً طويلاً.

جعلني عناقه أتساءل عن مدى ما تمكن من استنتاجه بنفسه حتى الآن.

راحت أفكاري المتعبة تتشابك وتتلوى. إن جارد على حق. كانت الليلة الماضية شديدة الطول. لكن طولها لم يكن كافياً. أما بقية أيامي ولياليّ فسوف تطير طيراناً كأنها دقائق، لا أكثر.

غفوت. فلم أشعر إلا بيد جارد تهزني حتى أستيقظ. صار الضياء في الكهف الصغير شحيحاً. برتقالي اللون. إنه وقت الغروب.

شدّني جارد فأوقفني على قدميّ ثم ناولني وجبة معلبة مما يستخدمه الرحالة. هذه هي الوجبات التي يحتفظون بها في سيارة الجيب دائماً. أكلنا. ثم شربنا ما بقي من الماء. كنا صامتين. كان وجه جارد جدياً. مركزاً.

سألني عندما جلسنا في السيارة: «هل ما زلت مستعجلة؟».

كلا. أريد أن يمتد الوقت إلى الأبد.

لكنني قلت: «نعم». ما الفائدة من التأجيل؟ ستموت الباحثة، وسوف يموت جسدها، إذا تأخرت كثيراً. وسوف يكون عليّ أن أتخذ القرار نفسه مرة أخرى.

«إذاً، سنتجه إلى فينيكس. من المنطق ألا يلاحظوا هذا النوع من الغارات. لا معنى لأن يسطو البشر على عبوات التبريد. فماذا يمكن أن نفعل بها؟».

ما كانت كلماته هذه مجرد كلمات. أحسست بنظراته تنقّب في وجهي من جديد. لكني ظللت محدّقة إلى الأمام. إلى الصخور. لم أقل شيئاً.

بعد حلول الظلام بوقت قصير وصلنا إلى السيارة الأخرى فانتقلنا إليها. صرنا على الطريق العام. انتظر جارد عدة دقائق. كانت مصابيح السيارة مطفأة. أحصيت مرور عشر سيارات ثم جاء انقطاع طويل فخرج جارد بالسيارة إلى الطريق.

كانت رحلتنا إلى فينيكس شديدة القصر رغم أن جارد كان محافظاً على سرعة أقل من السرعة القصوى المسموحة. أحسست أن الوقت يمضي بسرعة شديدة، كما لو أن دوران الأرض صار أسرع من ذي قبل.

صرنا في وسط زحمة السير. نسير مع غيرنا على الطريق الذي يمضي ملتفاً حول المدينة الكبيرة. رأيت المستشفى من الطريق. سرنا

خلف سيارة أخرى وخرجنا من الطريق الرئيسي، متحركين حركة منتظمة، من غير إسراع.

دخلت السيارة ساحة الوقوف الرئيسية أمام المستشفى.

سألني جارد متوتراً: «أين نذهب الآن؟».

«دعنا نرى إن كان هذا الطريق يتابع الالتفاف خلف المستشفى. سوف نجد العبوات المبردة هناك».

قاد جارد السيارة ببطء. كان من حولها كثير من الأرواح. داخلين إلى المستشفى وخارجين منه. كان بعضهم يرتدي ملابس الأطباء. إنهم المعالجون. لم يولنا أحد انتباهاً خاصاً.

اقترب الطريق من الرصيف المبلط ثم انحنى ملتفاً جهة الشمال ماضياً إلى الخلف.

«انظر. ها هي سيارات النقل. اتجه إليها».

مررنا بين صف المباني المنخفضة وساحة وقوف السيارات. رأينا شاحنات كثيرة تفرغ مواد طبية... لا شك في هذا. كانت واقفة عند بوابات الدخول. نظرت إلى الصناديق التي على الرصيف. كانت تحمل ملصقات. كلها.

«تابع السير. رغم أننا سنحاول الحصول على شيء من هذه المواد الطبية. إذا أمكننا ذلك. انظر. الدواء الشافي. دواء الحمى. دواء السكون! لا أعرف هذا الدواء!».

أعجبني أن أرى هذه المواد كلها متروكة هنا من غير حراسة. مع الملصقات التي تشير إلى نوع كل منها. لن تبقى أسرتي من غير المواد اللازمة لها بعد أن أذهب. بعد أن أذهب. أحسست أن هذه العبارة تتسلل إلى كل فكرة من أفكاري الآن.

درنا من خلف مبنى آخر. أسرع جارد بالسيارة قليلاً لكنه ظل محدقاً إلى الأمام. ثمة أشخاص هنا. أربعة أشخاص يفرغون شاحنة على الرصيف. لفتت نظري دقة حركاتهم. ما كانوا يحركون الصناديق الصغيرة

بخشونة. بل على العكس، كانوا يضعونها بعناية شديدة على الرصيف الإسمنتي المرتفع قرابة متر واحد عن الأرض.

ما كت في حاجة إلى قراءة الملصقات حتى أتأكد. لكن أحد هؤلاء الأشخاص استدار قليلاً فرأيت الأحرف السوداء الكبيرة رؤية مباشرة.

«هذا هو المكان المقصود. إنهم يفرغون حاويات تحمل أرواحاً. لن تكون الحاويات الفارغة بعيدة. آه! ها هي. على الجانب الآخر. تحت تلك السقيفة. إنها نصف ممتلئة. أظن أن بقية السقائف المغلقة ملأى كلها».

تابع جارد قيادة السيارة بالسرعة نفسها، والتفّ بها حول زاوية المبنى.

نخر غاضباً بصوت هادئ.

سألته: «ماذا؟».

«ثمة أشخاص. انظري!».

أشار بذقنه صوب اللافتة على ذلك المبنى.

كان هذا جناح الأمومة.

قلت: «آه. طيب، أنت تعرف دائماً أين يجب أن تنظر، أليس كذلك؟».

استدارت عيناه صوب وجهي بحركة سريعة عندما قلت هذه الكلمات ثم عادتا إلى الطريق.

«علينا الانتظار بعض الوقت. يبدو أنهم على وشك الانتهاء».

دار جارد حول المستشفى من جديد. ثم أوقف السيارة في ساحة الوقوف الكبيرة بعيداً عن الأضواء.

أطفأ المحرك واستند مرتاحاً في مقعده.

مد يده فأمسك بيدي. عرفت ما هو موشك على قوله فحاولت تحضير نفسي.

«جو!».

«ماذا؟».

«إنك تعتزمين إنقاذ الباحثة، أليس كذلك؟».

«نعم، أعتزم هذا».

قال مخمناً: «لأن هذا هو الشيء الصحيح الذي يتعين عليك القيام به!».

«هذا أحد الأسباب».

ظل صامتاً فترة من الزمن.

«هل تعرفين كيفية إخراج الروح من غير الإضرار بالجسد؟».

نبض قلبي نبضة شديدة. كان عليّ أن أتريث قليلاً قبل إجابته.

«نعم. لقد فعلت هذا من قبل. كانت حالة طارئة. في كوكب آخر».

سألني: «أين؟ وما هي الحالة الطارئة؟».

كانت تلك قصة لم أذكرها من قبل. لأسباب واضحة. لكنها واحدة من أفضل قصصي. فيها كثير من الإثارة. لو سمعها جيمي لأحبها. تنهدت وبدأت أتكلم بصوت منخفض.

«كان ذلك على كوكب الضباب. كنت مع صديق لي يدعى سلاسل النور. وكان معنا دليل. لا أذكر اسم الدليل. كان اسمي حياة النجوم على ذلك الكوكب. وكنت معروفة هناك بعض الشيء».

ضحك جارد.

«كنا ذاهبين في جولة عبر حقل الجليد الكبير الرابع لرؤية مدن الكريستال الشهيرة. كان الطريق آمناً.. هكذا افترضنا. وهذا ما جعلنا نذهب بهذا العدد الصغير. ثلاثة فقط.

إن الوحوش ذات المخالب تحفر حفراً في الثلج لتدفن أنفسها فيها. إنه نوع من التمويه. كمين.

في لحظة من اللحظات، ما كان من حولنا إلا الثلج المستوي من

غير نهاية. ثم، بدا أن ذلك الحقل الأبيض انفجر كله مندفعاً صوب السماء.

يقارب حجم الدب البالغ حجم الجاموس. أما الوحش ذو المخالب فيقارب حجم الحوت الأزرق. كان هذا الوحش أكبر من بقية أفراد بني جنسه.

ما عدت قادرة على رؤية الدليل. لقد هاجمنا الوحش مندفعاً بيننا ففصلنا عن الدليل واتجه إلى حيث أقف أنا وصديقي. إن الدببة أسرع من هذه الوحوش، لكن هذا الوحش استفاد من المفاجأة. هوت مخالبه فشقّت جسد صديقي نصفين قبل أن أدرك ما يجري»

مرت سيارة بحركة بطيئة إلى جانب ساحة الوقوف. بقينا صامتَيْن حتى ذهبت.

«ترددت. كان عليّ أن أبدأ الجري فراراً، لكن صديقي كان يموت هنا على الجليد. كان يمكن أن أموت بسبب هذا التردد لو أن انتباه الوحش لم يتشتت. اكتشفت في ما بعد أن دليلنا. ليتني أستطيع تذكر اسمه! هاجم الوحش من الخلف آملاً أن يمنحنا فرصة للهرب. كان هجوم الوحش قد جعل كمية كبيرة من الثلج تتناثر وكان هذا الثلج يسقط إلى الأرض من جديد مثل عاصفة ثلجية. إن الثلج يقلل الرؤية. وهذا ما يمكن أن يساعدنا على الفرار. لكن الدليل ما كان يعرف أن صديقي ما عاد قادراً على الهرب.

استدار الوحش صوب الدليل فأصابتنا قائمته الثانية اليسرى أثناء حركته. قذفتنا طائرين في الهواء. سقط الجزء العلوي من جسم صديقي إلى جانبي. بدأ الدم يذيب الثلج من حوله».

توقفت قليلاً وارتجفت.

«كان ما فعلته من غير معنى في البداية لأنني ما كان لدي جسد آخر أضع فيه صديقي. كنا في منتصف الطريق بين مدينتين. وكانت المسافة كبيرة في الاتجاهين. بل كان من القسوة أيضاً أن أخرجه من ذلك الجسد

من غير وجود دواء مسكن للألم. لكني لم أستطع احتمال تركه يموت داخل هذا الجسد المقطوع إلى نصفين.

استخدمت ظاهر يدي. الجهة التي تقطع الجليد. كان نصلها عريضاً. أحدثت في جسد الدب جرحاً كبيراً. تمنيت ألا أسبب ألماً كبيراً لصديقي.

وباستخدام باطن يدي. الجهة الناعمة. أخرجت صديقي من دماغ الدب!

ما زال حياً. لم أتوقف إلا لحظة حتى أتأكد من أنه حيّ. ثم وضعته في جيب البيض عند وسط جسمي. بين القلبين الحارين. سوف يمنعه الدفء من الموت بسبب البرد، لكنه لن يعيش إلا دقائق قليلة من غير جسد مضيف. أين أستطيع العثور على جسد مضيف آخر في هذا السهل الخاوي؟

فكرت أن أضعه في جسمي أنا. أن أجعله يشاركني هذا الجسد المضيف، لكنني شككت في قدرتي على البقاء من غير فقدان الوعي أثناء هذه العملية. أثناء وضعه في رأسي. كما أنني سوف أموت سريعاً هنا من غير وجود الدواء الشافي. فمع هذه القلوب كلها. تنزف الدببة دمها بسرعة كبيرة.

زمجر الوحش من جديد فأحسست بالأرض تهتز تحت وقع أقدامه. ما عدت أعرف أين صار دليلنا. ما عدت أعرف إن كان حياً. ما كنت أعرف كم من الوقت سيمضي قبل أن يكتشفني الوحش هنا نصف مدفونة تحت الثلج. كنت إلى جانب النصف العلوي من الدب. وكان الدم منتشراً على الثلج من حوله. سوف يجذب أنظار الوحش.

ثم جاءتني فكرة مجنونة».

توقفت عن الكلام وضحكت في نفسي.

«ليس لدي جسد دب هنا لأضع صديقي فيه. ما كنت قادرة على

استخدام جسدي أيضاً. وقد مات دليلنا. أو لعله فر. لكن ثمة جسداً آخر هنا. في حقل الجليد.

كان هذا جنوناً، لكني ما كنت قادرة على التفكير في شيء غير إنقاذ صديقي. ما كنا صديقين مقربين تماماً، لكني كنت أعرف أنه يموت موتاً بطيئاً. هنا في جيبي. بين قلبيّ. لا أستطيع احتمال هذا.

سمعت زئير الوحش الغاضب فجريت صوب ذلك الصوت. سرعان ما رأيت فراءه الأبيض الكثيف. اتجهت سريعاً صوب قائمته الثالثة اليسرى ثم وثبت فأمسكت بها في أعلى نقطة تمكنت من الوصول إليها. كنت ماهرة في القفز. استخدمت الأيدي الست التي أملكها. كنت أستخدم الجانب القاطع منها حتى أتسلق خاصرة الوحش. زأر الوحش من جديد ودار حول نفسه، لكن هذا لم ينفعه. تصورْ كلباً يستدير محاولاً الإمساك بذيله! إن أدمغة هذه الوحوش صغيرة جداً. ذكاؤها محدود تماماً.

تسلقت حتى ظهر الوحش ثم جريت على طول عموده الفقري. كنت أحفر طريقي بالسكاكين التي على أطرافي حتى لا يتمكن من قذفي عن جسمه.

لم يستغرق الأمر إلا ثواني قليلة. وصلت إلى رأس الوحش. لكن. هنا كانت الصعوبة الكبيرة. ما كان طول النصال التي تقطع الجليد. النصال التي على ظاهر يدي. ما كان طولها أكثر من طول ساعدك على ما أظن. أما سماكة جلد ذلك الوحش فكانت ضعفي هذا المقدار. هويت على رقبته بذراعي بأقصى ما استطعت من قوة فشققتها. شققت الطبقة الأولى من الفراء والجلد. جأر الوحش وأقعى على قائمتيه الخلفيتين. كدت أقع.

ثبتُّ أربعاً من قوائمي في جلده. راح يصرخ ويتلوى. استخدمت اليدين الباقيتين في مواصلة توسيع الفتحة التي صنعتها في رقبته. كان الجلد سميكاً. قاسياً. لم أكن واثقة من قدرتي على النفاذ عبره.

جن جنون الوحش. راح ينتفض انتفاضاً عنيفاً فما عدت قادرة إلا

على التشبث بجسمه حتى لا أسقط عنه. لكن الوقت يمر وسوف يموت صديقي. دفعت يدي داخل تلك الفتحة محاولة توسيعها.

عند ذلك رمى الوحش بنفسه إلى الخلف. فوق الجليد. الصدمة كانت شديدة لكن السقوط ساعدني في واقع الأمر كانت نصال يدي داخل الجرح في رقبته وعندما اصطدمت بالأرض جعلت الصدمة نصال يدي تمضي عميقاً داخل جلده. عميقاً. أكثر مما يلزمني.

ذهلنا معاً؛ كدت أختنق. أعرف أن عليّ فعل شيء في هذه اللحظة، لكني ما كنت قادرة على تذكّر هذا الشيء. أما الوحش فبدأ يتقلب في مكانه. ذاهلاً. صحا ذهني بفعل الهواء البارد فتذكرت صديقي.

أخرجته. حملته بين يديّ محاولة حمايته من البرد القارس فوضعته في رقبة الوحش.

نهض الوحش على قوائمه وقفز من جديد. جعلني أطير في هذه المرة. كنت قد أفلتُّ فراءه حتى أضع صديقي في الفتحة. كان الوحش في غاية الغضب. ما كان الجرح الذي في رقبته قادراً على قتله. لكنه أزعجه وآلمه.

كان تساقط الثلج الذي أثارته حركة الوحش قد خف قليلاً فصرت واضحة له. مرئية تماماً. خاصة بعد أن اصطبغ جسدي كله بدم الوحش. إنه دم ساطع اللون. لونه لا نظير له هنا على الأرض. رفع الوحش مخالبه ومدها صوبي. ظننتُ أن النهاية قد حانت. شعرت بشيء من الراحة لأنني حاولت إنقاذ صديقي قبل أن أموت.

لكن المخالب ضربت الأرض بالقرب مني. لا أصدق أن ضربة الوحش أخطأتني! نظرت إلى ذلك الوجه الضخم البشع لكن غادرني الشعور بالخوف، بل كانت مشاعري متناقضة. كان الوجه القبيح ممزقاً. موزعاً بين الارتباك والدهشة والألم. لم يظهر هذا التعبير على وجه أي وحش من بني جنسه قبل الآن.

مضت بضع دقائق حتى تمكن صديقي من ربط نفسه جيداً إلى دماغ

الوحش. إنها منطقة متسعة حقاً. كان عليه أن يبذل جهداً كبيراً. لكنه صار مسيطراً عليه الآن. لكنه كان مرتبكاً. بطيئاً. ما كان لدى الوحش دماغ كبير حتى يستعمله صديقي، لكن دماغه كان كافياً حتى يعرف أنني صديقته.

كنت مضطرة إلى ركوبه لأذهب إلى مدينة الكريستال. أغلقت جرحه بنفسي وبقيت ممسكة به حتى وصلت إلى المدينة. إلى المعالجين. أثار وصولي ضجة كبيرة. مرت فترة من الزمن أطلقوا عليّ خلالها اسم راكبة الوحش. لكن هذا الاسم لم يعجبني. لقد جعلتهم يعودون إلى اسمي القديم».

كنت أتحدث ناظرة أمامي. صوب أضواء المستشفى وصوب الأرواح التي تمر بيني وبين هذه الأضواء. أما الآن فقد نظرت إلى جارد للمرة الأولى. كان فاغراً فمه. كانت عيناه متسعتين.

كانت تلك واحدة من أفضل قصصي حقاً. يجب أن أجعل ميلاني تعدني بأن تقصّها على جيمي عندما.

قلت لجارد مسرعة: «لعلهم انتهوا من تفريغ الشاحنة. ألا تعتقد ذلك؟ دعنا ننتهي من عملنا ونعود إلى بيتنا».

ظل ينظر إليّ لحظة ثم هز رأسه بحركة بطيئة.

«نعم، فلننجز عملنا يا جوالة، يا راكبة الوحش. فلنسرق بعض الحاويات. لن تكون سرقتها تحدياً كبيراً بالنسبة لك، أليس كذلك؟»

## الفصل الثاني والخمسون

# فصل

جلبنا غنائمنا وأدخلناها عبر الفتحة الجنوبية رغم أن هذا كان يعني ضرورة نقل سيارة الجيب قبل بزوغ الفجر. كان تحفظي على استخدام المدخل الكبير نابعاً من احتمال سماع الباحثة الضجة الناجمة عن وصولنا. ضجة لا بد منها. ما كنت أعرف إن كانت لديها فكرة عما أعتزم فعله ولم أرد إعطاءها أي سبب يحملها على قتل نفسها وقتل مضيفها. كانت تسكن أفكاري تلك القصة التي رواها لي جيب عن أحد الأسرى الذين جاؤوا بهم. ذلك الذي فجرت الروح دماغه.

ما كان المستشفى فارغاً. فعندما حشرت نفسي في المقطع الأخير من النفق الضيق حتى أخرج منه إلى الغرفة الكبيرة وجدت الطبيب يستعد للعملية. كانت طاولته جاهزة. وكان مصباح الغاز منتظراً هناك. إنه أقوى مصباح لدينا. رأيت المشارط تلمع تحت الضياء الشحيح الصادر عن المصباح الأزرق.

عرفت قبل ذهابي أن الطبيب موافق على شروطي، لكن رؤية استعداداته جعلت موجة من الاضطراب تعتريني. أو لعل ذلك كان بسبب ذكرى اليوم الذي أصابني بالرعب. عندما ضبطت الطبيب بيديه ملوثتين بالدم.

قال لي مرتاحاً: «لقد عدتما». أدركت أنه كان قلقاً علينا، تماماً كما يقلق الجميع عندما يغادر أي شخص أمان هذه الكهوف.

قال جارد وهو يخرج من الفتحة بعدي: «لقد جلبنا لك هدية».

انتصب واقفاً ومد يده إلى الفتحة فأخرج صندوقاً ثم رفعه إلى الأعلى مبتهجاً عارضاً اللصاقة المثبتة على جانبه.

صاح الطبيب فرحاً: «الدواء الشافي! كم جلبتما منه؟».

«جلبنا صندوقين. وقد وجدنا أيضاً طريقة لتجديد مخزوننا من الأدوية، طريقة أفضل بكثير من قيام جو بطعن نفسها».

لم يضحك الطبيب لنكتة جارد، بل استدار فحدَّق بي بنظرة ثاقبة. لا بد أننا نفكر، كلانا، في الشيء نفسه: شيء مناسب، لأن جو لن تكون هنا.

سألنا الطبيب بصوت أكثر انخفاضاً: «هل جلبتما الحاويات؟».

لاحظ جارد نظرة الطبيب وتوتره. التفت صوبي. كانت قراءة تعابير وجهه مستحيلة تمام الاستحالة.

أجبت الطبيب: «نعم. جلبنا عشر حاويات. لا تستطيع السيارة أن تحمل أكثر».

أثناء قولي هذه الكلمات شد جارد حبلاً من خلفه فخرج من الفتحة صندوق الدواء الثاني ثم لحقت به الحاويات متساقطة على الأرض من خلفه. قرقعت الحاويات مصدرة صوتاً يشبه صوت اصطدام المعدن بالصخر رغم أنها مصنوعة من عنصر لا وجود له على هذا الكوكب. لقد قلت لجارد إن هذه الحاويات تتحمل المعاملة الخشنة. إنها مصممة للصمود تحت ظروف شديدة القسوة. أقسى بكثير من سحبها بحبل عبر نفق صخري. صارت الحاويات تتلألأ على الأرض الآن. كانت لامعة لم يصبها سوء.

التقط الطبيب إحدى الحاويات بعد أن فك الحبل عنها أدارها بين يديه.

«عشر حاويات؟». يبدو أن هذا الرقم فاجأه. أيظنه رقماً كبيراً؟ أم يراه صغيراً غير كافٍ؟. «هل استخدامها صعب؟».

«لا، أبداً. إنه في غاية السهولة. سوف أريك كيفية استخدامها»

هز الطبيب رأسه وراحت عيناه تتفحصان تلك البنية الغريبة.

أحسست أن جارد يراقبني لكني أبقيت نظري منصبة على الطبيب.

سألته: «ماذا قال لك جيب وبراندت وآرون؟».

رفع الطبيب رأسه ناظراً في عيني: «إنهم. موافقون على شروطك».

هززت رأسي غير مقتنعة: «لن أريك شيئاً حتى أصدق ما تقول».

«هذا من حقك».

راح جارد ينظر إلينا قانطاً. حائراً.

سألني الطبيب على نحو حذر: «ماذا قلت لجارد؟».

«قلت له إنني عازمة على إنقاذ الباحثة». استدرت لأنظر في اتجاه جارد من دون أن أنظر في عينيه. «لقد وعدني الطبيب بأنكم سوف توفرون للأرواح انتقالاً آمناً إلى حياة أخرى على كوكب آخر إذا علّمته كيفية إجراء عملية الفصل. لا قتل إطلاقاً!».

أومأ جارد برأسه مفكراً. ونظر نظرة سريعة إلى الطبيب: «أستطيع الموافقة على هذه الشروط. وأستطيع أن أضمن تقيّد الآخرين بها. لكني أفترض أن لديك خطة لنقل الأرواح إلى خارج الكوكب؟».

«لن يكون الأمر أكثر خطورة مما فعلناه اليوم. لكنه في الاتجاه المعاكس. سوف نضيف حاويات جديدة إلى مجموعة الحاويات بدلاً من أخذ حاويات منها».

«لا بأس».

سألني الطبيب: «هل في ذهنك. برنامج زمني؟». حاول أن يبدو كلامه عادياً، لكني استطعت سماع التوق والاستعجال خلف نبراته.

إنه يريد الحصول على الإجابة التي تنفلت من بين يديه منذ فترة طويلة. هكذا حاولت أن أقول لنفسي. إنه ليس مستعجلاً على قتلي.

«يجب أن أنقل سيارة الجيب إلى المخبأ. هل تستطيعان انتظاري؟ أرغب في مشاهدة هذا».

قال الطبيب موافقاً: «طبعاً يا جارد».

«لن أغيب زمناً طويلاً». هكذا وعدنا جارد وهو يلج الفتحة خارجاً من الكهف.

هذا ما كنت واثقة منه. لن يستغرق جارد وقتاً طويلاً. لن يستغرق وقتاً كافياً على الإطلاق.

لم نستأنف كلامنا حتى غاب صوت زحف جارد في النفق.

سألني الطبيب بصوت رقيق: «ألم تقولي له شيئاً عن. ميلاني؟».

هززت رأسي: «أظن أنه يرى الوجهة التي تمضي إليها الأمور. لا بد أنه خمن خطتي».

«لكنه لا يستطيع تخمينها كلها. إنه لن يسمح. .».

قاطعت الطبيب بحدة: «لن أطلب رأيه. إما كل شيء أو لا شيء يا دكتور». تنهَّد الطبيب. وبعد لحظة من الصمت التفت صوب مدخل المستشفى: «سوف أذهب للحديث مع جيب. حتى يكون كل شيء جاهزاً».

مد يده فأخذ زجاجة عن الطاولة. إنها زجاجة الكلوروفورم. لا بد أن لدى الأرواح شيئاً أفضل منها. عليّ محاولة الحصول على هذا الشيء من أجل الطبيب، قبل أن أذهب.

«من الذين يعرفون بالأمر؟».

«إنهم جيب وآرون وبراندت فقط. إنهم جميعاً يريدون مشاهدة العملية».

لم يفاجئني هذا. سيكون آرون وبراندت متشككين: «لا تخبر أحداً آخر. ليس في هذه الليلة».

أومأ الطبيب برأسه ثم اختفى في الممر المظلم.

ذهبت لأجلس قرب الجدار. بعيداً عن طاولة العمليات الجاهزة. بعيداً قدر الإمكان. سوف يأتي دوري على هذه الطاولة. سوف يأتي قريباً جداً.

رحت أحاول التفكير في شيء آخر غير هذه الحقيقة الكالحة.

أدركت عند ذلك أنني لم أسمع صوت ميلاني منذ.    متى كان آخر حديث لها معي؟ هل كان ذلك عندما أبرمت الاتفاق مع الطبيب؟ فوجئت الآن عندما تذكرت أن طريقة نومنا، أنا وجارد، عند سيارة الجيب في هذه الليلة لم تثر أي ردّ فعل عندها.

«ميلاني؟».

لا إجابة.

ما كان الأمر مثل المرة الماضية؟ لذلك لم يصبني الذعر. أستطيع أن أشعر بوجودها في رأسي، لكنها كانت.    تتجاهلني؟ ماذا تفعل؟

«ميلاني؟ ما الذي يجري؟».

لا إجابة.

«هل أنت غاضبة مني؟ إني آسفة بشأن ذلك... بشأن النوم عند السيارة. لكنني لم أفعل شيئاً... أنت تعرفين هذا... ليس من الإنصاف...».

قاطعتني مستثارة: «أوه. توقفي، أنا لست غاضبة منك. اتركيني وحدي».

«لماذا لا تريدين الحديث معي؟».

لا إجابة.

تابعت الإلحاح آملة أن أستطيع التقاط اتجاه أفكارها. لكنها حاولت إبعادي عنها.    حاولت وضع ذلك الجدار الفاصل بيننا. لكن الجدار كان ضعيفاً لقلة استخدامه. رأيت خطتها! حاولتُ مخاطبتها بنبرة هادئة.

«هل فقدت عقلك؟».

«نعم، بعض الشيء». كانت تحاول مضايقتي.    غير متحمسة.

«أتظنين أنك تستطيعين إيقافي إذا جعلت نفسك تختفين عني؟».

«ما الذي أستطيع فعله غير هذا من أجل إيقافك؟ إن كانت لديك فكرة أفضل فأرجو أن تطلعيني عليها».

«ليست لدي فكرة أفضل يا ميلاني. ألا تريدين العودة إلى جارد

وجيمي؟ ألا تريدين أن تكوني مع جارد من جديد؟ مع جيمي؟».

كانت ميلاني تقاوم وضوح الإجابة في ذهنها: «نعم... أريد. لكن... لا أستطيع...» صمتت لحظة حتى تستعيد هدوءها. «لا أستطيع أن أكون سبباً في موتك يا جو. لا أستطيع تحمّل هذا».

رأيت عمق ألمها، فطفرت الدموع من عيني.

«إنني أحبك أيضاً يا ميلاني. لكن ما من مكان لنا معاً هنا. لا في هذا الجسد ولا في هذا الكهف... ولا في حياة هؤلاء الناس».

«إنني أخالفك الرأي».

«اسمعي، حاولي التوقف عن إلغاء نفسك... هل تفهمين؟ لأنني إذا رأيت أننا نستطيع أن ننجز الأمر فسوف أجعل الطبيب يخرجني اليوم. أو سأقول لجارد. تخيلي فقط ما الذي سيفعله جارد».

رحت أصور الأمر لها، مبتسمة بعض الشيء من خلال دموعي، «هل تذكرين؟ قال جارد إنه لا يقدم أي ضمانات بشأن ما يمكن أن يفعله... أو ما يمكن أن لا يفعله... حتى يحتفظ بك هنا». رحت أفكر في تلك القبل الملتهبة في الكهف. فكرت أيضاً في قبلٍ أخرى. وفي ليال أخرى أخذتها من ذاكرتها. شعرت بالحرارة والاحمرار في وجهي.

«أنت تستخدمين طرقاً قذرة لمحاربتي».

«نعم... إنني أستخدمها».

«لكني لن أستسلم».

«لقد حذرتك. إياك والتزام الصمت من جديد».

عند ذلك، رحنا نفكر في أشياء أخرى، أشياء غير مؤلمة. فكرنا مثلاً في المكان الذي نرسل إليه الباحثة! كانت ميلاني متحمسة لإرسالها إلى كوكب الضباب بعد أن سمعت قصتي الليلة، لكني رأيت أن كوكب الزهور يمكن أن يكون مناسباً أكثر. لا وجود لكوكب أكثر رتابة من هذا الكوكب في الكون كله. إن الباحثة في حاجة إلى عمر لطيف طويل تمضيه في أكل ضوء الشمس.

فكرنا في ذكرياتي أيضاً، في ذكرياتي الجميلة. فكرنا في قلاع الجليد وفي الموسيقى الليلية والشموس الملونة. كانت تلك الذكريات أشبه بحكايات خرافية بالنسبة لميلاني. وقد قصّت عليّ حكاياتها أيضاً. حذاء زجاجي، وتفاحة مسمومة، وحوريات أردن أن يصبحن بشراً.

لكن ما كان لدينا وقت لرواية كثير من الذكريات.

عادوا كلهم معاً. لقد عاد جارد عبر المدخل الرئيسي. لم تستغرق عودته إلا وقتاً قصيراً جداً. لعله اكتفى بقيادة سيارة الجيب حتى الجهة الشمالية حيث خبأها داخل الكهف هناك. إنه مستعجل.

سمعت أصواتهم قادمين. كانت أصواتاً خافتة. جدية. عرفت من نبرة صوتهم أن الباحثة كانت معهم. عرفت أن الوقت قد حان. وقت المرحلة الأولى من موتي.

«لا».

«كوني يقظة. عليك أن تتعلمي كيفية مساعدتهم في فعل هذا الأمر عندما...».

«لا!».

لكنها ما كانت تعترض الآن على تنفيذ أمري. إنها تعترض على مؤدى أفكاري فحسب.

رأيت جارد حاملاً الباحثة بين يديه. دخل الغرفة قبلهم، وتقاطر الآخرون من خلفه. رأيت آرون وبراندت بسلاحيهما جاهزين للاستعمال. لعلهم يظنون أنها تتصنع فقدان الوعي. لعلهم حسبوا أنها موشكة على القفز ومهاجمتهم بيديها الضعيفتين. جاء جيب والطبيب في آخر المجموعة. توقعت أن تستقر عينا جيب الفاحصتان على وجهي ما مقدار ما فهمه حتى الآن بذكائه الثاقب المجنون؟

حصرت تركيزي في المهمة التي أنا موشكة على أدائها.

وضع جارد الباحثة الغائبة عن الوعي على السرير برقة استثنائية. لعل هذه الرقة كانت تزعجني من قبل، لكنها أثّرت في نفسي الآن. كنت

البداية.

«أين مزيل الألم يا دكتور؟».

تمتم الطبيب: «سوف أحضره».

حدقتُ في وجه الباحثة، ورحت أنتظر الطبيب متسائلة كيف يمكن أن يبدو وجهها عندما يتحرر هذا الجسد من الروح التي فيه. أيبقى شيء من هذه البشرية؟ أم يكون الجسد المضيف فارغاً؟ أم أن مالكته الحقيقية يمكن أن تستعيد نفسها؟ أيصبح هذا الوجه أقل تنفيراً في نظري عندما يطل إدراك آخر من هاتين العينين؟

«ها هو». وضع الطبيب العلبة في يدي.

«شكراً».

أخرجت مربعاً رقيقاً صغيراً وأعدت العلبة إلى الطبيب.

وجدت نفسي مترددة في لمس الباحثة، لكني أرغمت يدي على التحرك سريعاً فشددت ذقنها إلى الأسفل فاتحة فمها ووضعت المربع على لسانها. كان وجهها شديد الصغر. بدت كفّاي كبيرتين بالمقارنة معه. إن ضآلة حجمها تزعجني دائماً. تبدو هذه الضآلة غير مناسبة لها.

أغلقت فمها من جديد. كان فمها رطباً. سوف يذوب الدواء سريعاً.

قلت: «جارد، هل تقلبها على بطنها من فضلك؟».

فعل جارد ما قلت له. برقّة. من جديد. في تلك اللحظة، انبعث ضوء المصباح الغاز. صار الكهف ساطع الضياء على نحو مفاجئ. صار الضوء فيه مثل ضوء النهار تقريباً. نظرت إلى الأعلى بحركة تلقائية فرأيت أن الطبيب قد غطى الفتحات الصغيرة في الكهف حتى يمنع الضوء من الخروج. لقد أنجز كثيراً من التحضيرات في غيابنا!

كان الهدوء مخيماً على الغرفة. كنت أسمع تنفس الباحثة المستقر. شهيق. ثم زفير. وكنت أسمع التنفس الأكثر سرعة،

الأكثر توتراً، الصادر عن الرجال الموجودين معي في هذه الغرفة. نقل أحدهم وزنه من رجل إلى أخرى فسمعت صرير الرمل فوق الصخر تحت قدمه. كان ثقل نظراتهم محسوساً على جلدي.

ابتلعت ريقي آملة أن أستطيع التكلم بصوت عادي: «دكتور، إنني في حاجة إلى الدواء الشافي والمنظف ومغلق الجروح ومزيل الندبات».

«ها هي كلها».

أزحت شعر الباحثة الأسود الخشن عن رقبتها فكشفت ذلك الخط الوردي الصغير عند قاعدة جمجمتها. رحت أنظر إلى جلدها الزيتوني. وترددت.

«هل تفتح الجلد يا دكتور؟ أنا لست. لست أريد أن أفعل هذا».

«لا مشكلة يا جو».

لم أر إلا يديه عندما جاء فوقف قبالتي. وضع صفاً صغيراً من القوارير البيضاء على حافة السرير المجاور لكتف الباحثة. لمع المشرط في الضوء الشديد. انعكس الضوء على وجهي.

«أمسكي شعرها حتى يبقى بعيداً».

استخدمت كلتا يدي لأزيح الشعر عن رقبتها تماماً.

تمتم الطبيب لنفسه: «ليتني أستطيع تعقيم يدي». من الواضح أنه يشعر بنقص استعداداته.

«ليس هذا ضرورياً في الحقيقة. لدينا الدواء المنظف».

قال متنهداً: «أعرف هذا» ما كان يريده حقاً هو أسلوب عمله التقليدي. يريد التطهير الذهني الذي عوّدته عليه تقاليد مهنته.

سألني متردداً وقد صار رأس المشرط على مسافة سنتمترات قليلة من جلدها: «ما حجم الفتحة اللازمة؟».

كنت أشعر بحرارة الأجسام الأخرى الواقفة من خلفي. الواقفة قريباً حتى يرى أصحابها كل ما يجري. لكنهم كانوا حذرين فلم يلمسوا أحداً منا.

«بطول الخط الوردي فقط. هذا يكفي».

لكنه لم ير هذا كافياً فيما يبدو: «هل أنت متأكدة؟».

«نعم. أوه. انتظر».

تراجع الطبيب إلى الخلف.

أدركت أنني أقوم بهذا كله بطريقة خاطئة. إنني لست معالجة. لست مصنوعة من أجل هذا. كانت يداي ترتجفان. ما كنت قادرة على إبعاد نظري عن جسد الباحثة.

«جارد، هل تجلب واحدة من تلك الحاويات؟».

«طبعاً».

سمعته يتحرك بضع خطوات وسمعت القرقعة المعدنية الخافتة عندما اصطدمت الحاوية التي أمسك بها ببقية الحاويات.

«ماذا الآن؟».

«ثمة دائرة على قمة الغطاء. اضغطها».

سمعت الصوت المنخفض الصادر عن حاوية التبريد عندما بدأت عملها. تمتم الرجال وتحركوا في أماكنهم، مبتعدين عن الحاوية.

«والآن. تجد مفتاحاً على جانبها. إنه شبيه بالقرص في الواقع. هل تراه؟».

«نعم».

«أدره إلى الأسفل».

«فعلت ذلك».

«ما لون الضوء في رأس الحاوية؟».

«إنه. إنه يتحول من البنفسجي إلى الأزرق الساطع. صار لونه أزرق باهتاً الآن».

استنشقت نفساً عميقاً. إن الحاوية تعمل على نحو صحيح.

«عظيم. افتح الغطاء وانتظرني».

«كيف؟».

«ثمة قفل تحت شفة الغطاء».

«رأيته». سمعت صوت انفتاح القفل ثم سمعت أزيز الآلة. «إنها باردة!».

«هذه وظيفتها!».

«كيف تعمل؟ ما هو مصدر الطاقة؟».

تنهدت قائلة: «كنت أعرف الإجابة عندما كنت عنكبوتاً. لكني لا أذكرها الآن. دكتور، يمكنك البدء. إنني مستعدة».

همس الطبيب: «فلنبدأ».

شق الطبيب الجلد بالمشرط بحركة بارعة رشيقة. تدفق الدم على رقبة الباحثة وتجمع فوق المنشفة التي وضعها الطبيب تحتها.

«أعمق قليلاً تحت الحافة. هنا. .».

«نعم، أرى ذلك». كان تنفس الطبيب سريعاً. مستاراً.

ظهر اللون الفضي تحت حمرة الدم.

«هذا جيد. الآن. أمسك شعرها».

احتل الطبيب محلي بحركة سريعة سلسة. إنه بارع في عمله. يمكنه أن يكون معالجاً جيداً.

لم أحاول إخفاء ما أفعله عن الطبيب. إن الحركات المطلوبة أدق بكثير من أن تسنح له فرصة رؤيتها. لن يتمكن من فعل هذا بنفسه حتى أشرح الأمر له.

جعلت طرف إصبعي ينزلق بحركة حذرة على امتداد الجانب الخلفي لذلك المخلوق الفضي الصغير حتى كاد إصبعي كله يختفي داخل الجرح الحار المفتوح في رقبة الجسد المضيف. تلمست طريقي حتى الاستطالة الأمامية فأحسست بالخطوط المشدودة. أحسست باستطالات الروح متوترة مشدودة مثل أوتار القيثارة. متغلغلة عميقاً داخل الرأس.

ثنيت إصبعي حول الحافة السفلية لجسد الروح. مضيت حتى

الصف الثاني من الاستطالات. كانت متصلبة. كثيرة. مثل شعرات الفرشاة.

تحسست أماكن ارتباط هذه الأوتار المشدودة بجسم الروح. تحسست تلك المفاصل الصغيرة التي لا يتجاوز واحدها حجم رأس الدبوس. زلقت إصبعي إلى الأمام حتى ثلث المسافة تقريباً كان في وسعي أن أعد الاستطالات، لكن هذا يستغرق وقتاً طويلاً جداً. إنها الاستطالة السابعة عشرة بعد المئة، لكن ثمة طريقة أخرى للعثور عليها! ها هي. عند ذلك النتوء الذي يجعل هذا المفصل أكبر من غيره بقليل. أكبر من رأس الدبوس. كان النتوء صقيلاً تحت إصبعي.

ضغطت على النتوء ضغطاً لطيفاً. رحت أدلكه تدليكاً ناعماً. اللطف هو أسلوب الأرواح دائماً إننا لا نستخدم العنف أبداً.

قلت هامسة: «استرخي»

صحيح أن الروح ما كانت قادرة على سماعي، لكنها فعلت ما قلته لها. استرخت الأوتار المشدودة.. كنت قادرة على الإحساس بها .تنسحب بحركات لينة. وكنت قادرة على الإحساس بالانتفاخ الطفيف الذي طرأ على الروح عندما امتصت تلك الأوتار إليها. لم تستغرق العملية إلا نبضات قليلة من قلبي. حبست أنفاسي حتى شعرت بالروح تنبض تحت لمسة يدي. حتى شعرت بها تتلوى منعتقة من ذلك الجسد.

تركتها تتلوى قليلاً ثم طويت أصابعي برفق حول جسدها الضئيل الهش. حملتها. فضية لامعة. رطبة بفعل الدم الذي كان ينزلق سريعاً عن غلافها الصقيل. احتضنتها في يدي.

كانت جميلة. كانت تلك الروح التي لم أعرف اسمها تتلوى مثل موجة فضية في يدي. مثل شريط ريشي جميل.

ما كنت قادرة على كره الباحثة في صورتها هذه. أحسست نحوها بحب يكاد يكون حباً أمومياً.

همست لها: «نامي يا صغيرتي».

استدرت صوب الطنين الخافت الصادر عن الحاوية. إلى يساري رأيت جارد ممسكاً بها مائلة. منخفضة، كان سهلاً عليّ أن أضع الروح داخل ذلك الهواء البارد الذي انبعث من فوهة الحاوية. تركتها تنزلق داخل الفراغ الصغير ثم أغلقت الغطاء خلفها بإحكام.

أخذت الحاوية من جارد بحركة سلسة. لم أجذبها جذباً أدرتها بحذر حتى صارت شاقولية ثم حضنتنها إلى صدري. كان السطح الخارجي للحاوية بمثل حرارة الغرفة. احتضنتها إلى جسدي. أحميها كما تفعل كل أم.

نظرت من جديد إلى تلك الغريبة الممددة فوق الطاولة. رأيت الطبيب يرش الدواء الذي يزيل الندوب. يرشه فوق الجرح الذي أغلق. كنا فريقاً جيداً. واحد يعتني بالروح. والآخر يعتني بالجسد. تمت العناية بالجانبين.

رفع الطبيب رأسه ناظراً إليّ. كانت عيناه مليئتين بالفرح والعجب قال متمتماً: «مدهش. كان هذا شيئاً لا يصدق».

همستُ أجيبه: «عمل متقن»

سألني الطبيب: «متى تظنين أنها تستيقظ؟».

«هذا معتمد على كمية الكلوروفوم التي استنشقتها».

«ليست كثيرة».

«علينا أن ننتظر لنرى إن كانت ما تزال هنا».

قبل أن أفلح في طلب شيء منه، حمل جارد المرأة التي لا نعرف اسمها. حملها برقة فوضعها على ظهرها على سرير آخر. على سرير نظيف. لم تؤثر هذه الرقة في مشاعري. إنها رقة موجهة إلى بشرية. رقة من أجل ميلاني.

ذهب الطبيب معه. راح يتفقد نبضها وينظر تحت جفنيها. سلّط مصباحه الكاشف على عينيها الغائبتين عن الوعي وراح يراقب بؤبؤيها

يستعيدان شكلهما. لم ينعكس الضوء عن البؤبؤين. تبادل الطبيب وجارد نظرة طويلة.

قال جارد بصوت منخفض: «لقد... نجحتْ في فعل هذا!»

قال الطبيب: «نعم».

لم أسمع صوت اقتراب جيب مني. قال بصوت خفيض: «إنها صغيرة جداً يا طفلتي».

رفعتُ كتفي ولم أقل شيئاً.

«إن مشاعرك متضاربة الآن، أليس كذلك؟»

لم أجبه.

«نعم. وأنا أيضاً يا عزيزتي... وأنا أيضاً».

سمعتُ آرون وبراندت يتحدثان من خلفي. ارتفع صوتاهما مستثارين. كان كل منهما يجيب عن أفكار الآخر قبل أن يُخرج سؤالاً من فمه. لكنهما ما كانا مختلفين.

«انتظر حتى يسمع الآخرون بهذا!».

«فكر في...».

«علينا أن نذهب لنحضر بعض...».

«الآن... إنني مستعد...».

تكلم جيب مقاطعاً براندت: «كفا عن هذا. لن نختطف أي روح حتى تصبح هذه الحاوية في طريقها نحو الفضاء الخارجي. أليس ما أقوله صحيحاً يا جو؟».

أجبته بصوت حازم: «صحيح!» واحتضنت الحاوية إلى صدري بشدة أكبر من قبل.

تبادل براندت وآرون نظرات غاضبة.

إنني في حاجة إلى مزيد من الحلفاء. إن جارد وجيب والطبيب ثلاثة أشخاص... لا أكثر... صحيح أنهم الأكثر تأثيراً هنا، لكنهم في حاجة إلى مزيد من المساندة.

كنت أعرف معنى هذا.

يعني هذا أن لا بد من التحدث مع إيان.

لا بد من التحدث مع الآخرين بطبيعة الحال، لكن يجب أن يكون إيان واحد منهم. أحسست بقلبي يهبط في صدري. أحسسته يتكور على نفسه ضعيفاً. لقد فعلت أشياء كثيرة ما كنت راغبة في فعلها منذ انضمامي إلى هؤلاء البشر لكنني لا أستطيع أن أتذكر ألماً أصابني يشبه هذا الألم الحاد. حتى ألم قرار مقايضة حياة الباحثة بحياتي. كان ذلك قراراً كبيراً مؤلماً. كان ميداناً من الألم، ميداناً شاسعاً من الألم، لكنه كان شيئاً أستطيع السيطرة عليه لأنه مرتبط بصورة أكبر. أما وداع إيان فهو شيء جارح مثل نصل السكين. ليتني أعثر على سبيل. أي سبيل. يسمح لي بتجنيبي هذا الألم. لكن ما من سبيل آخر.

لن يكون أسوأ من هذا إلا وداع جارد. سيكون هذا مؤلماً. حارقاً سيكون مؤلماً لأن جارد لن يشعر بالألم. ستكون فرحته أكبر كثيراً من أي أسف بسيط قد يحسه تجاهي.

أما جيمي. فلست أعتزم مواجهة وداعه على الإطلاق.

سمعت صوت الطبيب حاداً: «جو!»

أسرعت إلى السرير الذي كان الطبيب منحنياً فوقه. وقبل أن أصل إليه استطعت رؤية تلك اليد الزيتونية الصغيرة تنقبض ثم تنبسط. هناك. على حافة السرير

«آه». جاء صوت الباحثة المألوف يئن خارجاً من ذلك الجسم البشري. «آه».

ساد الغرفة صمت مطبق. نظر الجميع إليّ، كأنني كنت الخبيرة ببني البشر. بينهم كلهم.

لكزت الطبيب بمرفقي. ما زالت يداي ممسكتين بالحاوية همستُ: «تحدث معها».

«هممم. مرحباً! هل تستطيعين سماعي. يا آنسة؟ أنت في أمان الآن. هل تفهمين ما أقول؟».

أنت: «آه». انفتحت عيناها. تركزتا على وجه الطبيب. ما كان أي انزعاج ظاهراً على تعبير وجهها. لا بد أن الدواء يجعلها تشعر بأنها في أحسن حال. كانت عيناها سوداوين تماماً. تجولتا في الغرفة حتى وجدتاني. عرفتاني. فعبس وجهها. أشاحت بعينيها بعيداً. عادت إلى وجه الطبيب.

قالت بصوت مرتفع واضح: «لطيف هذا الإحساس. لطيف إحساسي بأنني استعدت رأسي. شكراً».

## الفصل الثالث والخمسون

# محكومة

كان اسم صاحبة جسد الباحثة ليسي. اسم جميل، رقيق، أنثوي. ليسي. إنه اسم لا يناسبها في رأيي. مثلما لا يناسبها حجم جسدها إن هذا يشبه إطلاق اسم لطيف على ثور هائج.

كانت ليسي كثيرة الصخب، تماماً مثل الباحثة. وكثيرة التذمر أيضاً

قالت مصرة، غير تاركة لنا أي خيار: «عليكم أن تغفروا لي كثرة كلامي. إنني أصرخ منذ سنوات من غير أن أتمكن من التعبير عن نفسي' لدي الكثير مما أقوله. .»

ما أروع حظنا! أكاد أشعر بالسرور لأنني ذاهبة من هنا

أما في ما يخص إجابتي عن سؤال طرحته سابقاً على نفسي، فإن إجابتي هي النفي. لا كان وجهها الآن منفراً مثلما كان قبل أن يحل فيه هذا الوعي الجديد. هذا لأن الوعي الجديد ما كان شديد الاختلاف عما كان من قبله.

«هذا هو السبب في عدم حبنا لك». قالت لي هذه الكلمات منذ الليلة الأولى. لم تفرّق بين الحاضر والماضي. لم تفرّق بين المفرد والمثنى. «عندما أدركت الروح أنك تسمعين صوت ميلاني مثلما كانت تسمع صوتي، جعلها هذا تشعر بخوف عظيم. ظننت أنك يمكن أن تكشفي مشكلتها. كنت أنا. سرها العميق القاتم». أطلقت ضحكة بصوت يشبه الصرير. «ما كانت قادرة على إسكاتي. وهذا ما جعلها تصبح باحثة لأنها كانت تأمل العثور على طريقة أفضل للتعامل مع

الأجساد المضيفة المتمردة. وبعد ذلك طلبت تكليفها بمتابعة وضعك حتى تتمكن من مراقبة سلوكك. حتى تتمكن من مراقبة كيفية تعاملك مع ميلاني. كانت تشعر بالغيرة منك. أليس هذا شيئاً يدعو إلى الرثاء؟ أرادت أن تكون قوية مثلك. لقد أصبنا بصدمة حقيقية عندما ظننا أن ميلاني انتصرت عليك. أظن أن هذا لم يحدث. أظن أنك انتصرت عليها. إذاً، لماذا أتيت إلى هنا؟ لماذا تساعدين المتمردين؟».

شرحت لها، غير راغبة، أن ميلاني وأنا صديقتان. لكن هذا لم يعجبها.

قالت تسألني: «لماذا؟».

«لأنها شخص جيد».

«لكن، لماذا تحبك؟».

«للسبب نفسه».

«تقول إنها تحبني للسبب نفسه».

نخرت ليسي قائلة: «هل غسلت دماغها؟».

«واو! إنها أسوأ من الباحثة».

قلت لميلاني: «صحيح، أستطيع أن أرى الآن السبب الذي جعل الباحثة تبدو بغيضة إلى هذا الحد! هل تتخيلين أن يكون هذا في رأسك طوال الوقت؟».

لكني ما كنت الشيء الوحيد الذي تعترض عليه ليسي.

«أليس لديكم مكان للعيش أفضل من هذه الكهوف؟ إن المكان قذر هنا! أليس لديكم منزل في مكان ما؟ ماذا تقصدون بأن علينا تقاسم الغرف الموجودة؟ ما تقصدون بجدول المهام؟ لست أفهم هذا. هل عليّ أن أعمل. أنا؟ لا أظن أنكم تفهمون. .».

في اليوم التالي، أخذها جيب في الجولة المعتادة محاولاً أن يشرح لها، عبر أسنانه المطبقة، كيفية عيشنا هنا. وعندما مرّا بي. وقد كنت أتناول طعامي في المطبخ مع إيان وجيمي. رماني جيب بنظرة كان فيها

سؤال واضح: لماذا لم أترك آرون يطلق النار عليها عندما كان ذلك خيارا ممكناً؟

لكن تلك الجولة كانت مزدحمة بالناس أكثر من جولتي. كان الجميع راغبين في رؤية الأعجوبة بأنفسهم. ما كان يظهر على أكثرهم أي اهتمام بأنها. صعبة. منفّرة. كانت موضع ترحيب. بل أكثر من ترحيب ومن جديد، شعرت بشيء من تلك الغيرة المرة. لكن هذا سخف. إنها بشرية. إنها تمثّل أملهم. إنها تنتمي إليهم. وسوف تظل هنا بعد ذهابي بزمن طويل.

همست ميلاني متهكمة: «أنت محظوظة».

ما كان التحدث مع جيمي وإيان عما جرى صعباً أو مؤلماً كما كنت أتوقع.

كان هذا لأنهما، لأسباب مختلفة، ما كانا يعرفان شيئاً. لم يدرك أي منهما أن هذه المعرفة الجديدة تعني اقتراب رحيلي.

كنت أفهم أسباب جيمي. لقد قبلنا أنا وميلاني معاً. أكثر من أي شخص آخر. وكان قادراً، بعقله الفتيّ المنفتح، على إدراك حقيقة شخصيتنا المزدوجة. كان يعاملنا باعتبارنا شخصين لا شخصاً واحداً كانت ميلاني حقيقية تماماً. حاضرة بالنسبة له. تماماً مثلما كانت حقيقية حاضرة بالنسبة لي. ما كان يفتقدها، لأنها موجودة معه. ما كان يرى ضرورة للفصل بيننا.

لكني ما كنت أعرف سبب عدم فهم إيان. هل هذا بسبب شدة ذهوله إزاء الإمكانيات التي انفتحت الآن؟ إزاء التغيرات التي سيحملها هذا إلى مجتمعهم البشري هنا؟ كانوا جميعاً واقعين في قبضة فكرة مفادها أن الإمساك بأي واحد منهم يعني نهايته. لكنهم أدركوا الآن أن هذه ليست نهاية محتومة. ثمة سبيل للعودة الآن. بدا سلوكي من أجل إنقاذ الباحثة سلوكاً طبيعياً بالنسبة له. كان سلوكاً منسجماً مع فكرته عن شخصيتي لعله لم يفكر في الأمر أكثر من هذا الحد.

أو، لعل إيان لم يحظ بفرصة التفكير في الأمر كله. لم يحظ بفرصة رؤية النهاية الواضحة. لم يحظ بها قبل أن يتحول انتباهه إلى شيء آخر. قبل أن يتحول انتباهه ويجن غضباً.

صاح إيان عندما كنا نجهّز حوائجنا من أجل الغارة. غارتي الأخيرة. حاولت عدم الاتكال على هذه الحقيقة: «كان عليّ أن أقتله منذ سنوات. لا، كان على أمنا أن تغرقه لحظة مولده!».

«إنه شقيقك يا إيان!».

«لا أعرف ما الذي يجعلك مصرّة على تكرار هذا. هل تحاولين جعل شعوري أكثر سوءاً؟».

كان الجميع غاضباً من كَايل. التحمت شفتا جارد في خط متوتر واحد لشدة غضبه. وراح جيب يمسِّد على ماسورة بندقيته أكثر من المعتاد.

كان جيب متحمساً. كان يعتزم الانضمام إلينا في هذه الغارة المشهودة. إنها غارته الأولى منذ قدومي لأعيش هنا كان متلهفاً على نحو خاص. متلهفاً لرؤية مطار المكوك الفضائي عن قرب. أما الآن، بعد أن وضعَنا كَايل في الخطر كلنا، فقد صار جيب يرى أن عليه البقاء هنا. من باب الاحتياط. كان عدم حصول جيب على ما يريده قد جعله في مزاج بالغ السوء.

قال مدمدماً لنفسه مدلِّكاً ماسورة بندقيته من جديد: «عليّ الآن أن أبقى هنا مع تلك المخلوقة». ما كان سعيداً أبداً بهذه الوافدة الجديدة على مجتمعه الصغير. بصق على الأرض وقال: «ستفوتني تلك المتعة كلها».

كنا نعرف جميعاً أين ذهب كَايل. فبمجرد معرفته أن الباحثة ـ الدودة قد تحولت بسحر ساحر إلى ليسي ـ البشرية خلال الليل حتى اختفى متسللاً من المخرج الخلفي. كنت أتوقع أن يقود الجماعة المطالبة بموت الباحثة (كنت أحتفظ بالحاوية بين ذراعي دائماً. كنت أنام نوماً خفيفاً

وكانت يدي تلمس الحاوية باستمرار أثناء نومي)، لكنه الآن ما عاد هنا أما جيب فقد تغلّب على المقاومة بسهولة في غياب كَايل.

كان جارد هو من اكتشف اختفاء سيارة الجيب. وكان إيان هو أول من ربط بين اختفائها واختفاء كَايل.

زمجر إيان قائلاً: «لقد ذهب من أجل جودي. ماذا غير ذلك؟».

إنه الأمل واليأس. لقد أعطيتهم الأمل. أما كَايل فقد أعطاهم اليأس. هل يخذلهم جميعاً حتى قبل أن يفلحوا في الاستفادة من هذا الأمل؟

أراد جيب وجارد تأجيل الغارة حتى نعرف إن كان كَايل قد نجح أو فشل. سوف يستغرق الأمر ثلاثة أيام في أفضل الأحوال، إذا كانت جودي ما تزال مقيمة في أوريغون. حتى إذا استطاع العثور عليها هناك.

كان ثمة مكان آخر، كهف آخر نستطيع الفرار إليه. لكنه كهف صغير جداً ليس فيه ماء. لا نستطيع الاختباء فيه طويلاً جرى نقاش حول ما إذا كان يجب ترحيل الجميع إلى ذلك الكهف أو الانتظار.

لكني كنت في عجلة من أمري. كنت أرى طريقة نظر الآخرين إلى الحاوية الفضية بين ذراعي. لقد سمعت همساتهم. كلما طال بقاء الباحثة هنا زادت فرصة قتلها على يد واحد منهم. لقد بدأت أشفق على هذه الباحثة بعد أن تعرفت على ليسي. إن الباحثة تستحق حياة لطيفة جميلة مع الأزهار.

يا للمفارقة! كان إيان هو من وقف إلى جانبي فساعدني على الإسراع في الانطلاق إلى هذه الغارة. ما زال غير قادر على رؤية ما يؤدي إليه هذا كله.

لكني كنت مرتاحة لأنه ساعدني على إقناع جارد بأن الوقت لدينا كافٍ من أجل القيام بالغارة والعودة إلى هنا قبل اتخاذ القرار في ما يخص كَايل. كنت مرتاحة أيضاً لأنه عاد إلى لعب دور حارسي الشخصي. كنت أعرف أنني أستطيع الثقة به. أنني أستطيع ائتمانه على الحاوية اللامعة

أكثر من أي شخص آخر. إنه الشخص الوحيد الذي سمحت له بحملها عندما كنت في حاجة إلى يدي. إنه الشخص الوحيد الذي استطاع أن يرى، في تلك الحاوية الصغيرة، حياة لا بد من حمايتها. كان يستطيع اعتبار هذه الأسطوانة صديقة له، شيئاً يستطيع أن يحبه. إنه أفضلهم جميعاً. كنت شاكرة لإيان حقاً. وكنت شاكرة أكثر لتلك الغفلة التي تجنبه الألم. .الآن. ولو إلى حين.

علينا أن نسرع. فقد يفسد كَايل كل شيء. مضينا إلى فينيكس من جديد، إلى واحدة من تلك التجمعات المنبثقة عن المدينة المركزية. كان ثمة مطار كبير لمكوك الفضاء في المنطقة الجنوبية الشرقية، في بلدة اسمها ميزا. وكان من حول ذلك المطار عدد من المراكز الصحية. هذا ما كنت في حاجة إليه. يجب أن أعطيهم كل ما أستطيع قبل أن أذهب. إذا استطعنا القبض على أحد المعالجين فقد يكون قادراً على الاحتفاظ بذاكرة الروح في الجسد المضيف. قد نحصل على من يفهم جميع الأدوية واستخداماتها. شخص يعرف أفضل الطرق للحصول على الأدوية من مخازن غير محروسة. سوف يكون الطبيب سعيداً بهذا. أستطيع أن أتخيل مقدار الأسئلة التي يموت شوقاً للحصول على إجاباتها.

علينا الذهاب إلى المطار أولاً

حزنتُ لأن جيب لم يتمكن من القدوم معنا. لكن. ستسنح له فرص كثيرة في المستقبل. كانت الظلمة مخيمة، لكن صفاً طويلاً من مكوكات الفضاء ذات الأنوف المفلطحة كان يقترب من المطار من أجل الهبوط. مكوكاً بعد مكوك. وكان صف آخر يقلع من المطار في تيار لا ينتهي.

قدت سيارة النقل القديمة في حين اختبأ الآخرون في مؤخرتها. كان إيان حاملاً الحاوية بطبيعة الحال. درت في المطار. كنت حريصة على البقاء بعيدة عن البوابات المحلية المزدحمة. كان من السهل العثور على المركبات البيضاء الرشيقة الكبيرة التي تسافر خارج الكوكب. ما كان

تواتر إقلاعها مثل تواتر إقلاع المركبات الصغيرة. لم أر منها إلا مركبات واقفة غير مستعدة للسفر على الفور.

قلت للآخرين المختفين في ظلمة السيارة: «كل شيء يحمل ملصقاً يدل عليه. والآن، هذا أمر مهم. تجنبوا المركبات الذاهبة إلى كوكب الخفافيش. وتجنبوا خاصة المركبات الذاهبة إلى أعشاب البحر إن كوكب أعشاب البحر موجود في منظومة نجمية قريبة. لا تستغرق الرحلة إلا عشر سنوات. ذهاباً وإياباً. هذا زمن قصير جداً. أما كوكب الزهور فهو أبعد الكواكب، وكذلك الدلافين والدببة والعناكب. كلها تستغرق قرناً من السنين على الأقل حتى يصل المرء إليها. لا ترسلوا الحاويات إلا إلى هذه الكواكب».

قدت السيارة ببطء، مقتربة من المركبات الفضائية.

«سيكون هذا سهلاً إن لديهم مختلف أنواع الشاحنات هنا، وسوف يكون الدخول بينها يسيراً. أوه! أرى الآن شاحنة حاويات مبردة. إنها تشبه الشاحنة التي رأيناها تفرغ حمولتها في المستشفى يا جارد. ثمة رجل يراقب أكداس الحاويات. إنه يضعها على عربة نقالة. وسوف يضعها في المكوك الفضائي. .» قدت السيارة مقتربة أكثر من ذي قبل محاولة أن أرى جيداً. «نعم، إنه يضعها في المركبة الفضائية. يضعها في تلك الفتحة. سوف أقوم بدورة بالسيارة ثم أعود لأضع الحاوية عندما يدخل المركبة الفضائية».

تجاوزت ذلك المكان ورحت أتابع النظر إلى المشهد في مراه السيارة. رأيت لافتة مضاءة إلى جانب الأنبوب الواصل بين رأس المركبة الفضائية والبوابة. ابتسمت عندما قرأت الكلمات مقلوبة. سوف تذهب هذه السفينة إلى كوكب الزهور. إنها السفينة المطلوبة.

قمت بدورة بطيئة. أما الرجل فاختفى داخل جسم السفينة الفضائية.

همست وأنا أوقف السيارة في ظل الجناح الأسطواني للسفينة الفضائية المجاورة: «استعدوا». ما كنت أبعد أكثر من أمتار قليلة عن

شاحنة الحاويات. رأيت بضعة فنّيين يعملون قرب المركبة الذاهبة إلى كوكب الزهور وعند مقدمتها. وكذلك في نقطة أبعد على مدرج المطار. لن أكون إلا شخصاً آخر في هذا الظلام.

أطفأت المحرك وترجّلت من مقعد السائق محاولة أن أتحرك حركة عادية كما لو أنني أقوم بعملي. لا أكثر مضيت إلى مؤخرة السيارة وفتحت الباب فتحة صغيرة. كانت الحاوية أمامي تماماً، وكان الضوء في أعلاها أحمر اللون مشيراً إلى وجود الروح فيها. حملتها بحرص وأغلقت الباب.

مشيت مشية عادية صوب مؤخرة الشاحنة. لكن تنفسي راح يزداد سرعة. بدا لي هذا أكثر خطورة من دخولي إلى المستشفى. وهذا ما أقلقني. هل يحق لي انتظار مخاطرة رفاقي البشر بحياتهم على هذا النحو؟

«سوف أكون هنا. سوف أنفذ المهمة بنفسي، تماماً مثلما تفعلين. هذا إن سنحت لك فرصة تنفيذ ما في رأسك».

«شكراً يا ميلاني».

كان عليّ إجبار نفسي على عدم الالتفات من فوق كتفي صوب السفينة الفضائية حيث اختفى الرجل. وضعت الحاوية برفق مع أقرب مجموعة من الحاويات على الشاحنة. كانت إضافة بسيطة. حاوية واحدة بين مئات الحاويات. لا سبيل إلى ملاحظتها.

همست لها: «مع السلامة. أرجو لك حظاً أفضل مع مضيفك التالي».

عدت إلى سيارتي بالخطوات البطيئة نفسها. بخطوات بطيئة قدر ما استطعت.

كان الصمت مطبقاً داخل السيارة عندما تراجعت بها من تحت السفينة الفضائية. عدت في الطريق التي أتينا منها. كان قلبي ينبض سريعاً سريعاً. وفي مرايا السيارة، ظلت فتحة السفينة الفضائية فارغة. لم أر الرجل يظهر من جديد إلى أن غابت السفينة عن نظري.

شق إيان طريقه إلى المقعد الذي بجانبي: «لا يبدو هذا شديد الصعوبة».

«كان حظنا موفوراً من ناحية التوقيت. قد يتوجب الانتظار فترة أطول حتى تسنح الفرصة المناسبة في المرة القادمة». مد إيان يده فأمسك بيدي «أنت حظنا الجيد يا عزيزتي».

لم أجبه.

«هل تشعرين براحة أكبر الآن بعد أن صارت تلك الروح في أمان؟»

«نعم».

رأيت رأسه يستدير صوبي بحدة عندما سمع الكذبة في صوتي. لم أقابل عينيه.

قلت له: «فلنذهب حتى نمسك ببعض المعالجين».

ظل إيان صامتاً مفكراً بينما قدت السيارة مسافة قصيرة حتى وصلنا إلى مركز صحي صغير.

كنت أظن أن المهمة الثانية ستكون تحدياً. خطراً. كانت خطتنا هي أن أحاول. إن سمحت الظروف. أن أستدرج باحثاً أو اثنين خارج المركز الصحي بذريعة وجود صديق مصاب في السيارة. إنها حيلة قديمة، لكنها ستنطلي على المعالجين الذين لن يشكوا في شيء.

لكن ما حصل هو أنني لم أكن في حاجة إلى دخول المركز الصحي وصلت إلى تلك النقطة فرأيت معالجين في منتصف العمر. رجلا وامرأة مرتديين ثياب الأطباء. يهمّان بركوب السيارة. انتهت نوبة عملهما وهما ذاهبان إلى البيت الآن. كانت السيارة بعيدة عن المدخل، خلف الزاوية. ما كان أحد يظهر على مرمى النظر.

أومأ إيان برأسه متوتراً.

أوقفت سيارتي خلف سيارتهما تماماً. نظرا صوبي مستغربين.

فتحت الباب وانزلقت خارجة من السيارة. كان صوتي كثيفاً.

مثقلاً بالدموع. وكان الألم يعتصر وجهي. هذا ما ساعدني على خداعهما.

«صديقي في السيارة. لا أعرف ماذا أصابه».

استجاب المعالجان باهتمام شديد، كما توقعت. أسرعت لأفتح باب السيارة الخلفي فسارا مسرعين ورائي تماماً. دار إيان حول السيارة من الجانب الآخر. كان جارد مستعداً وفي يده الكلوروفورم.

لم أنظر إلى ما حدث.

لم يستغرق الأمر إلا ثواني قليلة. سحب جارد الجسدين فاقدي الوعي إلى مؤخرة السيارة أما إيان فأغلق الباب خلفهما. نظر إيان إلى عينيّ المتورمتين من البكاء. نظرة ثانية واحدة ثم جلس في مقعد السائق.

كنت مضطربة تماماً. أمسك إيان بيدي من جديد.

«آسف يا جو. أعرف أن هذا الأمر صعب عليك».

«نعم». ليست لديه فكرة عن مدى صعوبته. لأسباب كثيرة مختلفة.

شد إيان على أصابعي: «لكن الأمر سار على ما يرام، على أقل تقدير كان سحرك رائعاً».

سار الأمر على نحو جيد جداً. تم إنجاز المهمتين إنجازاً كاملاً، وبسرعة كبرى. إن القدر يندفع بي سريعاً.

قاد إيان السيارة عائداً بها إلى الطريق العام. وبعد دقائق قليلة رأيت لافتة مضيئة مألوفة من بعيد. أخذت نفساً عميقاً ومسحت عيني.

«إيان، هل أستطيع أن أطلب منك معروفاً؟».

«طبعاً. ماذا تريدين؟».

«أريد وجبة سريعة».

ضحك إيان: «لا مشكلة».

تبادلنا المقاعد في ساحة الوقوف ثم قدت السيارة إلى نافذة الطلبات.

سألت إيان: «ماذا تريد أن تأكل؟».

«لا شيء. إنني مسرور لأنك طلبت شيئاً من أجل نفسك. لا بد أن هذه هي المرة الأولى».

لم أبتسم لهذه النكتة. ففي نظري، كان هذا يشبه الوجبة الأخيرة. تحقيق الأمنية الأخيرة لمحكوم بالموت. لن أغادر الكهوف بعد الآن.

«جارد، ماذا تريد أنت؟».

«أريد اثنتين مما تطلبين».

طلبت ثلاث شطائر من الجبن وثلاثة أكياس من البطاطا المقلية وثلاثة أكواب من المثلجات بطعم الفراولة.

بعد أن حصلت على طعامي تبادلت المقاعد مع إيان من جديد حتى أستطيع أن آكل أثناء قيامه بقيادة السيارة.

نظر إليّ إيان مستغرباً عندما رآني أغمس رقاقة من البطاطا المقلية في كوب المثلجات.

«عليك أن تجربها. إنها لذيذة» أطعمته قطعة منها.

رفع كتفيه والتهمها. راح يمضغها وقال: «شيء ظريف».

ضحكت: «ميلاني تراها شيئاً فظيعاً». هذا ما جعلني أصر على الاعتياد عليها في البداية. غريب كم كنت مستعدة لفعل أشياء غير مألوفة حتى أزعجها.

ما كنت جائعة في حقيقة الأمر. لكنني أردت تذوق نكهات لها ذكرى عندي، مرة أخرى قبل أن أموت. أجهز إيان على نصف شطيرتي بعد أن شبعت.

عدنا من غير أي حادث. لم نر أي شيء يشير إلى وجود الباحثين لعلهم قبلوا مصادفة ضياع الباحثة في الصحراء. لعلهم رأوا في الأمر شيئاً حتمياً. تجول في الصحراء كثيراً. وسوف يصيبك شيء سيّئ. كان لدينا قول مثل هذا على كوكب الضباب: أكثر من التجوال وحيداً في

السهول الثلجية. وسوف تصبح وجبة لأحد الوحوش. هذه ترجمة تقريبية. فالعبارة تبدو أحسن سبكاً في لغة الدببة.

كان جمعٌ كبير من الناس ينتظر وصولنا.

ابتسمت لأصدقائي من غير حماسة: ترودي وجيفري وهيث وهيدي. إن عدد أصدقائي الحقيقيين في تضاؤل مستمر. لا وجود لوولتر، ولا وجود لويس. لست أعلم أين هي ليلي الآن. وهذا ما أحزنني. لعلي ما عدت أريد العيش في هذا الكوكب الحزين الذي فيه هذا الموت كله. لعل العدم أفضل منه.

أحزنني أيضاً، وأنا في هذه الحالة من رثاء الذات. أن أرى لوتشينا واقفة إلى جانب ليسي ومعهما ريد وفيوليتا واقفتان إلى جانبهما. كنّ يتحدثن على نحو ودّي. يطرحن أسئلة. هكذا بدا لي. رأيت ليسي حاملة ابن لوتشينا. ما كان يبدو شديد الاستمتاع بذلك، لكنه كان مسروراً إذ رأى نفسه مشاركاً في حديث الكبار فلم يحاول الانزلاق من بين يديها.

لم يكن مسموحاً لي أبداً أن أقترب من الأطفال، لكن ليسي واحدة من هؤلاء الناس. إنها بشرية مثلهم. موضع ثقتهم.

مضينا نحو النفق الجنوبي من غير توقف. كان جارد وإيان يحملان المعالجين. كان إيان يحمل أثقلهما وزناً. الرجل. رأيت العرق يتصبب على وجهه الأشقر جعل جيب الآخرين يتوقفون عند مدخل النفق ثم لحق بنا.

كان الطبيب ينتظرنا في المستشفى. رأيته يفرك يديه شارد الذهن. كما لو أنه كان يغسلهما.

ازدادت سرعة الزمن. أضيء المصباح الساطع. أُعطي المعالج الدواء المسكن ووُضع على السرير. وجهه إلى الأسفل. شرح جارد لإيان كيفية تشغيل الحاوية المبردة. كانت الحاويتان جاهزتين. رأيت دهشة

إيان لشدة البرودة في الحاوية. وقف الطبيب فوق الأنثى حاملا مشرطه. كانت الأدوية مصفوفة. في متناوله.

سألني: «هل أنت مستعدة؟».

تقلص قلبي على نحو مؤلم: «هل تقسم يا دكتور؟ هل تقسم على قبول جميع شروطي؟ هل تعدني. هل تقسم بحياتك؟».

«نعم، أقسم. سوف ألبّي جميع شروطك يا جو. أقسم على هذا»

«جارد؟».

«نعم. لا قتل على الإطلاق. أبداً».

«إيان؟».

«سوف أحمي الأرواح بحياتي يا جو».

«جيب؟».

«هذا منزلي. وكل من لا يستطيع الالتزام بهذا الاتفاق عليه أن يرحل».

أطرقت برأسي. تجمعت الدموع في عيني: «هيا إذاً. فلننجز عملنا».

فتح الطبيب رقبة المعالجة حتى صار قادراً على رؤية اللمعان الفضي داخلها. وضع المشرط جانباً بحركة سريعة ثم قال: «والآن ماذا؟».

وضعت يدي على يده.

«تحسس الحافة الخلفية. هل تستطيع الشعور بهذا؟ تحسس شكل المقاطع. إنها تزداد صغراً مع التقدم صوب القسم الأمامي. عند النهاية يجب أن تجد ثلاثة أشياء ناتئة صغيرة. هل تشعر بها؟».

قال لاهثاً: «نعم».

«ممتاز. هذه هي الاستطالات الأمامية. ابدأ من هناك. والآن، برقة شديدة، دع إصبعك تتغلغل تحت جسم الروح. هل وجدت صف الاستطالات هناك؟ إنها مشدودة، مثل الأسلاك».

هز الطبيب رأسه.

جعلته يحرك إصبعه منتقلاً بها ثلث المسافة باتجاه الأسفل. علّمته كيف يَعُدّ إذا لم يكن واثقاً من المنطقة. ما كان لدينا وقت للعد الآن لأن الدم يتدفق من الجرح. لا بد أن هذه المعالجة ستكون قادرة على مساعدتنا في هذا الأمر إذا استعادت وعيها. لا بد من وجود طريقة لمنع تدفق الدم. ساعدت الطبيب على الوصول إلى النتوء الكبير.

«والآن، دلِّك ذلك النتوء بلطف. حرك إصبعك فوقه بخفة».

ازداد صوت الطبيب حدة. صار فيه شيء من الخوف الآن: «إنها تتحرك».

«هذا جيد. يعني هذا أن عملك صحيح. امنحها بعض الوقت حتى تتمكن من سحب الاستطالات. انتظر حتى تنتفخ قليلاً ثم أمسكها بيدك».

«لا بأس». تغير صوته.

استدرت صوب إيان: «أعطني يدك».

أحسست بيد إيان تلتف حول يدي. قلبتها إلى الأعلى وطويت أصابعها قليلاً لتصير مثل الوعاء. قربت يده من الطبيب.

«أعط الروح لإيان. برفق، أرجوك»

يصلح إيان لأن يكون مساعد جراح ممتاز. مَن غيره يمكن أن يبدي هذا القدر من العناية تجاه أقاربي الصغار هؤلاء؟

وضع الطبيب الروح في يد إيان المنتظرة ثم استدار سريعاً ليشفي الجسد البشري.

راح إيان ينظر إلى الشريط الفضي في يده. كان وجهه ناطقاً بالعجب، لا بالنفور. أحسست بدفء في صدري عندما رأيت ردّ فعله.

همس إيان مدهوشاً: «إنها جميلة». بصرف النظر عن شعوره نحوي، فإنه يتوقع في هذه اللحظة رؤية شيء طفيلي. حشرة. وحشاً. لم يكن يتوقع رؤية هذا الجمال.

«إنها جميلة فعلاً. دعها تنزلق داخل الحاوية».

ظل إيان حاملاً الروح في يده لحظات قليلة كأنه يريد حفظ شكلها وملمسها ثم تركها تنزلق في تلك البرودة، بحركة متأنية.

علّمه جارد كيفية إغلاق الحاوية.

سقط عبء كبير عن كتفيّ.

انتهى الأمر الآن. فات الأوان على تغيير خطتي. لم يبد لي الأمر مخيفاً كما كنت أنتظر. هذا لأنني شعرت بالثقة بأن هؤلاء البشر الأربعة قادرون على رعاية الأرواح والاهتمام بها. مثلي. بعد أن أذهب.

صاح جيب فجأة: «انتبهوا!». رفع البندقية بين يديه وسددها إلى مكان واقع خلفنا.

التفتنا صوب مصدر الخطر فسقطت حاوية جارد من بين يديه عندما قفز صوب المعالج الذي صحا من التخدير ونهض الآن على ركبتيه فوق سريره محدقاً نحونا. مصدوماً. أما إيان فقد منعه حضور ذهنه من إسقاط الحاوية من بين يديه.

أمسك إيان بالمعالج وصاح: «كلوروفورم». ثبت المعالج على السرير. لكن الوقت قد فات.

كان المعالج ينظر إليّ على نحو مباشر. كان وجهه طفولي المظهر لشدة حيرته ودهشته. عرفت السبب الذي جعله يثبت عينيه في اتجاهي. كانت أشعة ضوء المصباح تنعكس عن عينيه وعن عيني، راسمة أشكالاً مضيئة على الجدار.

سألني: «لماذا؟».

عند ذلك، خلا وجهه من أي تعبير، وتهاوى جسده على السرير من غير مقاومة. سال من منخريه خطان من الدم.

صرخت مرتمية صوب جسده الساكن: «لا!». لكنني كنت أعرف أن أوان إنقاذه قد فات. «لا!»

## الفصل الرابع والخمسون

# نسيان

سألتها: «ما اسمك؟ أليزابيث؟ آن؟ كارين؟ ما اسمك؟ هيا. أعرف أنك تعرفينه».

ظل جسد المعالجة راقداً على السرير من غير حركة. لقد مر وقت طويل. كم مر من الوقت؟ لست أدري. إنها ساعات وساعات. لم أنم حتى الآن رغم ارتفاع الشمس في كبد السماء. لقد تسلق الطبيب الجبل ليزيل القماش المشمع الذي وضعه على الفتحات فصارت أشعة الشمس تنفذ الآن عبر تلك الفتحات في السقف. حارة فوق جلدي. حركت سرير المرأة التي لا اسم لها حتى أبعد وجهها عن أشعة الشمس.

لمست وجهها برقة ومسدت شعرها الناعم البني الموشى بخصلات بيضاء. أزحته عن وجهها.

«جولي؟ بريتاني؟ أنجيلا؟ باتريشيا؟ هل أقترب من الاسم الصحيح؟ تحدثي معي. أرجوك!».

لقد ذهب الجميع إلا الطبيب وهو راقد الآن يشخر شخيراً هادئاً في أقل الزوايا إضاءة داخل غرفة المستشفى. ذهب الجميع منذ ساعات. ذهب بعضهم لدفن الجسد الذي خسرناه. ارتعشت عندما فكرت في سؤاله الحائر. عندما تذكرت كيف خبا وجهه على نحو مفاجئ.

لقد سألني: «لماذا؟».

تمنّيتُ لو أن الروح انتظرت الإجابة. لو انتظرت لشرحت لها. لعلها كانت قادرة على فهمي. فما من شيء أهم من الحب. في نهاية

المطاف. أليس الحب جوهر كل شيء عند الأرواح؟ سيكون الحب إجابتي. إنني أفعل هذا بسبب الحب.

ربما، لو انتظرتني، لرأت الصدق في إجابتي. لو فهمتني حقاً لتركت الجسد البشري حياً. إنني واثقة من هذا.

لكن مطالبة المعالج بالإبقاء على حياة الجسد البشري ما كانت لتكون مطالبة ذات معنى في نظره. إن الجسد جسده. إنه ليس كياناً مستقلاً هكذا كان انتحاره في نظره. ما كان جريمة قتل أبداً. لقد كان ينهي حياة واحدة. حياته! لعله كان مصيباً!

لكن الروحين ظلتا حيتين. كان المصباح الصغير على حاوية المعالج مشعاً بضوء أحمر خافت إلى جانب حاوية المعالجة. ما كنت أستطيع المطالبة بدليل أكبر من هذا على التزام أصدقائي البشر باتفاقنا. لقد حفظوا روح المعالج.

«هل اسمك ميري؟ مارغريت؟ سوزان؟ جيل؟».

كان الطبيب نائماً. وكنت وحدي، لكني كنت أحس أصداء التوتر الذي تركه الآخرون من خلفهم.. ما زال هذا التوتر معلقاً في الهواء. هنا.

استمر التوتر هنا لأن المرأة لم تستيقظ عندما زال تأثير الكلوروفورم لم تتحرك. ما زالت تتنفس.. ما زال قلبها ينبض، لكنها لم تستجب لمحاولات الطبيب إنعاشها.

هل فات الأوان؟ هل فقدناها؟ هل ماتت؟ هل هي الآن ميتة مثلما مات جسد رفيقها؟

هل الجميع هكذا؟ هل ثمة قلة صغيرة جداً، مثل ليسي، جسد الباحثة، وميلاني. المتذمرون الصاخبون، والمقاومون. هل هم وحدهم من يستطيع العودة؟ هل ضاع كل من عداهم؟

هل كانت ليسي حالة شاذة؟ هل تعود ميلاني مثلما عادت ليسي. أم أن هذا موضع شك أيضاً؟

«لستُ ضائعة. إنني هنا». لكن صوت ميلاني كان ذا نبرة دفاعية متوجسة. إنها قلقة أيضاً.

قلت لها: «نعم، أنت هنا. وسوف تبقين هنا».

تنهدتُ وعدت إلى محاولاتي. إلى محاولاتي العقيمة. هل هي عقيمة؟

قلت للمرأة: «أعرف أن لك اسماً. هل هو ريبيكا؟ ألكساندرا؟ أوليفيا؟ هل هو أبسط من هذه الأسماء؟ جين؟ جوان؟».

كان هذا أفضل من لا شيء. هكذا قال لي قنوطي. لقد أعطيتهم، على الأقل، وسيلة تساعدهم إذا ألقي القبض على أي منهم. لقد استطعت مساعدة المقاومين إن لم أستطع مساعدة غيرهم.

لكن هذا لا يبدو كافياً.

تمتمت: «أنت لا تتركين لي مجالاً لأن أفعل شيئاً». أمسكت يديها بين كفيّ ورحت أفركهما برقّة. «ليتك تبذلين بعض الجهد. سوف يحزن أصدقائي كثيراً. إنهم في حاجة إلى أخبار طيبة. كما أن كَايل قد ذهب أيضاً. سيكون إجلاء الجميع صعباً. فكيف إذا اضطررنا إلى حملك أيضاً؟ أعرف أنك تريدين مساعدتنا. هذه أسرتك هنا. أنت تعرفين هذا. هؤلاء بنو جنسك. إنهم لطيفون إلى حد كبير. معظمهم. سوف تحبينهم».

كان ذلك الوجه اللطيف خالياً من أي علامة من علامات الوعي. كانت جميلة على نحو خفي. كانت تقاطيعها شديدة التناظر على وجهها البيضوي. خمسة وأربعون عاماً. أو أكثر قليلاً. أو أقل. صعب أن يعرف المرء هذا من غير أي حركة في الوجه.

تابعت كلامي. صرت أتوسل الآن: «إنهم في حاجة إليك. تستطيعين مساعدتهم. أنت تعرفين أشياء كثيرة لا أعرفها. لقد بذل الطبيب جهداً كبيراً وهو يستحق شيئاً من المساعدة. إنه رجل طيب. أنت تعملين معالجة منذ فترة، ولا بد أن شيئاً من هذه العناية بالآخرين يمكن أن يستمر

موجوداً عندك. سوف تحبين الطبيب. أظن هذا. هل اسمك سارة؟ إميلي؟ كريستين؟».

لمست وجنتها الناعمة، لكن ما من استجابة. أمسكت يدها بين كفيّ من جديد. حدقت في السماء الزرقاء عبر فتحات السقف المرتفع. سرح ذهني!

«أتساءل ماذا يمكن أن يفعلوا إذا لم يرجع كَايل. إلى متى يمكن أن يختبئوا؟ وهل يكون عليهم العثور على موطن جديد في غير هذا المكان؟ إن عددهم كبير. لن يكون هذا سهلاً ليتني أستطيع مساعدتهم، لكن حتى إذا استطعت البقاء فأنا لا أملك أي إجابة. لعلهم يبقون هنا. على نحو ما!. قد لا يفسد كَايل الأمر كله».

ضحكت من غير مرح مفكرة في احتمال أن يحدث ذلك. ليس كَايل بالرجل الحريص المنتبه. مع ذلك، هم في حاجة إلى وجودي ريثما يتضح الأمر. قد يكونون في حاجة إلى عينيّ الفضيتين إذا جاء الباحثون إلى هنا. قد يستغرق الأمر زمناً طويلاً. جعلتني هذه الفكرة أحس بحرارة أكثر من حرارة الشمس على جلدي. جعلتني أشعر بالامتنان لتهور كَايل وأنانيته. كم يطول الأمر حتى نتأكد من أننا ما زلنا في أمان؟

«كيف يكون الوضع هنا عندما يصبح الجو بارداً؟ لا أكاد أستطيع تذكر الإحساس بالبرد. ماذا إن أمطرت؟ لا بد أنها تمطر أحياناً، أليس كذلك؟ ومع وجود كل هذه الثقوب في السقف لا بد أن يتبلل كل شيء هنا. أين ينام الناس في تلك الحالة». تنهدت. «ربما أعرف الإجابة وربما لا أعرفها أيضاً. أليس عندك فضول لمعرفتها؟ قد تحصلين على الإجابات إذا استيقظت من هذا السبات. إن الفضول يستبد بي. قد أسأل إيان عن هذه الأمور. من الممتع أن أتخيل كيف تتغير الأمور هنا. أظن أن الصيف لا يمكن أن يستمر على الدوام».

أحسست بارتعاش أصابعها في يدي. ثانية واحدة فقط.

فاجأني هذا لأن ذهني كان شارداً. بعيداً عن هذه المرأة على

السرير. لأن ذهني بدأ يغرق في حالة من السوداوية. حالة أراها شديدة القرب مني دائماً في هذه الأيام.

نظرت إليها فلم أر تغيراً. كانت يدها هامدة في يدي. وكان وجهها ساكناً. فارغاً. لعلي تخيلت تلك الحركة.

«هل قلت شيئاً أثار اهتمامك؟ ما الذي كنت أقوله؟». رحت أفكر سريعاً مراقبة وجهها. «هل كان المطر؟ أم أنه فكرة التغير؟ التغيير؟ لديك كثير من التغيرات أمامك. ألا تعرفين هذا؟ لكن عليك أن تستيقظي أولاً!».

ما زال وجهها فارغاً. ما زالت يدها من غير حركة.

«أنت لا تهتمين بالتغير إذاً. لا أستطيع أن ألومك. أنا لا أريد التغير أيضاً. هل أنت مثلي؟ هل تتمنين أن يستمر هذا الصيف؟».

لو لم أكن أراقب وجهها عن كثب لما رأيت تلك الرفة البسيطة في جفنيها.

سألتها آملة أن يكون هذا صحيحاً: «أنت تحبين الصيف، أليس كذلك؟».

ارتعشت شفتاها.

«الصيف؟».

ارتجفت يدها.

«هل هذا هو اسمك. صيف؟ صيف؟ هذا اسم جميل».

رأيت يدها تتكور. شدت على قبضتها. وانفرجت شفتاها.

«تعالي يا صيفي! أعرف أنك تستطيعين هذا. استمعي إليّ يا صيفي. افتحي عينيك يا صيفي».

رفرفت عيناها بحركة سريعة.

ناديت من فوق كتفي: «دكتور! استيقظ».

«هاه! ماذا؟».

«أظن أنها بدأت تصحوا!». استدرت إليها من جديد. «تابعي

استيقاظك يا صيف. أنت قادرة على هذا. أعرف أن الأمر صعب. افتحي عينيك يا صيف».

تقلص وجهها. هل تتألم؟

«أحضر مزيل الألم يا دكتور. أسرع».

شدّت المرأة على يدي وانفتحت عيناها. ما كانت نظراتها مركزة أول الأمر. راحت تجول في ذلك الكهف المضيء. يا للمكان الغريب غير المتوقع الذي تراه الآن.

«سوف تكونين بخير يا صيف. سوف تكونين بخير. هل تستطيعين سماعي يا صيف؟».

عادت عيناها إليّ. حدّقت في وجهي. راحت تستوعب ملامحه لكنها انكمشت مبتعدة عني وانثنت فوق السرير محاولة الفرار. صدرت عنها صرخة ذعر عميقة.

صاحت باكية: «لا، لا، لا لا ليس من جديد».

«دكتور!».

صار الطبيب واقفاً عندي. على الناحية الأخرى من السرير كما كان واقفاً من قبل. أثناء العملية.

راح يحاول طمأنتها: «لا بأس عليك يا سيدتي. لن يؤذيك أحد هنا».

كانت المرأة قد أغمضت عينيها إغماضاً شديداً وتكورت على نفسها على الفراش الرقيق.

«أظن أن اسمها صيف».

نظر الطبيب إليّ ثم تغيرت تعابير وجهه. همس: «عيناك يا جو!»

أدركت عند ذلك أن الشمس كانت تضيء وجهي. صرخت: «أوه» وسمحت للمرأة بأن تسحب يدها من يدي.

راحت تتوسل: «لا تفعلوا هذا، أرجوكم. ليس من جديد».

همس الطبيب: «ششش! ششش يا صيف! إنني الطبيب. لن يفعل أحد بك شيئاً. سوف تكونين بخير».

ابتعدت عنهما. إلى الظلال.

قالت المرأة باكية: «لا تنادني بهذا الاسم! إنه ليس اسمي إنه اسمها. اسمها هي! لا تقله مرة ثانية!».

لقد توصلت إلى الاسم، لكنه ليس بالاسم الصحيح.

احتجت ميلاني على شعوري بالذنب: «أنت لم تخطئي في شيء».

قال الطبيب للمرأة: «لن أقوله مرة ثانية. ما اسمك أنت؟».

«أنا. أنا.. لا أعرف!». راحت تنوح. «ماذا حدث؟ من أنا؟ لا تجعلوني شخصاً آخر من جديد».

راحت تتلوى وترتجف فوق السرير.

«اهدئي. سوف يكون كل شيء بخير. أعدك. لن يجعلك أحد شخصاً آخر. لن تكوني إلا أنت. وسوف تتذكرين اسمك. سوف يعود اسمك إليك».

قالت تسأله: «من أنتم؟ من هي؟ إنها مثل. مثلما كنت أنا. لقد رأيت عينيها!».

«إنني الطبيب. إنني بشري مثلك. هل ترين؟». قرّب وجهه من شعاع الشمس وفتح عينيه أمامها. «إننا بشر.. أنا وأنت. ثمة كثير من البشر هنا. وسوف يسعدهم لقاؤك».

انكمشت على نفسها من جديد: «بشر! إنني أخاف البشر».

«لا، أنت لا تخافين البشر. إن. الشخص الذي كان في جسدك يخاف البشر. لقد كانت روحاً. هل تذكرين هذا؟ حاولي أن تتذكري ما كان قبلها، قبل أن تصير في جسمك! لقد كنت بشرية آنذاك. وها أنت بشرية من جديد».

قالت له بصوت مذعور: «لا أستطيع تذكّر اسمي».

«أعرف. لكنه سيعود».

«هل أنت طبيب؟».

«نعم، أنا طبيب»

«لقد كنت. هي كانت. طبيبة أيضاً. كانت. معالجة. أي طبيبة! كان اسمها أغنية الصيف. فمن أنا؟».

«سوف نكتشف ذلك. أعدك بأننا سنكتشفه».

حاولتُ التحرك صوب مدخل الغرفة. سوف تكون ترودي شخصاً مناسباً لمساعدة الطبيب الآن. أو هيدي. أريد شخصاً له وجه هادئ.

همست المرأة مستعجلة تخاطب الطبيب.. تعلقت عيناها بحركة جسمي: «إنها ليست بشرية!».

«إنها صديقة فلا تخافي. لقد ساعدتني على استرجاعك».

«أين هي أغنية الصيف؟ لقد كانت خائفة. كان هناك بشر. .».

أسرعت خارجة من الباب أثناء انشغالها بهذه الأسئلة.

سمعت الطبيب يجيب عن سؤالها: «سوف تذهب إلى كوكب جديد. هل تتذكرين الكوكب الذي كانت فيه قبل مجيئها إلى الأرض؟».

كنت أستطيع توقع إجابتها. أستطيع استنتاجها من اسم الروح التي كانت فيها.

أجابته المرأة: «لقد كانت. خفاشاً! كانت تستطيع الطيران. تستطيع الغناء. إنني أذكر لكنها كانت. ليست هنا. أين أنا؟»

أسرعت أجتاز الممر حتى أجد من يساعد الطبيب. فوجئت عندما رأيت الضوء قادماً من الكهف الكبير أمامي. فوجئت لأن الهدوء كان مخيماً عليه. يستطيع المرء عادة أن يسمع الأصوات قبل رؤية الضوء! كان الوقت منتصف النهار. يجب أن يكون بعض الناس موجودين في الكهف الكبير. حتى لو كانوا عابرين فقط.

دخلت الكهف الكبير المضاء فوجدت ذلك المكان الفسيح خاوياً تماماً.

كانت أوراق نباتات البطيخ داكنة الخضرة، داكنة أكثر من التراب الجاف من تحتها. إن الأرض جافة تماماً رأيت برميل السقاية جاهزاً هناك. رأيت خراطيم المياه ممدودة على امتداد الأثلام. لكن أحداً لم يكن هناك ليقوم بعملية الري. جلست وحدي عند حافة الحقل.

جلست في سكون تام محاولة أن أسمع شيئاً. كان الكهف الكبير ساكناً، وكان هذا السكون مشؤوماً. أين ذهب الجميع؟

هل أخلوا الكهوف من غيري؟ اجتاحتني نوبة من الذعر والألم. لكنهم لن يذهبوا من غير الطبيب طبعاً. لن يتركوه أبداً. وددت أن أندفع عائدة عبر النفق الطويل لأتأكد من عدم اختفاء الطبيب أيضاً.

«لن يذهبوا من دوننا أيضاً يا حمقاء. لن يذهب جارد وجيمي وإيان ويتركوننا هنا».

«أنت محقة... أنت محقة. دعينا... ننظر في المطبخ».

هرعت أعدو في الممر الساكن. ازداد قلقي مع تواصل الصمت. لعل مخيلتي المجنونة والدويّ المصمّ لنبض قلبي في أذني هو السبب في عدم سماعي شيئاً. لا بد أن ثمة ما يمكن سماعه. ليتني أستطيع الهدوء قليلاً واستعادة أنفاسي حتى أتمكن من سماع الأصوات.

لكني بلغت المطبخ فوجدته خاوياً أيضاً. كان خاوياً من الناس. أما على الطاولات فقد رأيت وجبات نصف مأكولة تركها أصحابها وذهبوا. رأيت زبدة الفستق ورأيت ما بقي من الخبز الطازج الطري. رأيت تفاحاً وعلباً من الصودا.

ذكّرتني معدتي بأنني لم آكل شيئاً في يومي هذا، لكنني ما كدت أنتبه إلى قرصة الجوع هذه. كان رعبي أكثر قوة منها!

«ماذا لو... ماذا لو أننا لم نتمكن من إخلاء الكهوف في الوقت المناسب؟».

شهقت ميلاني: «لا! لا... لو كان الأمر كذلك لسمعنا شيئاً! لو كان الأمر كذلك لفعل أحد... أو لكان هناك... لكانوا هنا... يبحثون عنا! لن

يقلعوا على البحث حتى يتفقدوا جميع الأماكن. إذاً، يستحيل أن يكون الأمر كذلك».

«إلا إذا كانوا يبحثون عنا الآن».

عدت صوب الباب. كانت عيناي تنقبان في الظلال من حولي.

عليّ أن أذهب إلى الطبيب. علينا الخروج من هنا إذا كنا آخر اثنين باقيين.

«لا! لا يمكن أن يكونوا قد ضاعوا!». جيمي وجارد. كان وجهاهما شديدي الوضوح في رأسي، كأن صورتيهما محفورتان على باطن جفني.

وجه إيان أيضاً. أضفت صورة إيان إلى تلك الصورتين. وجيب وترودي وليلي وهيث وجيفري. «سوف نستعيدهم كلهم. أتعهد بهذا! سوف نصطادهم واحداً واحداً ونعود بهم إلى الكهف. لن أسمح لهم بأخذ عائلتي».

لو كان عندي أدنى شك في انتمائي لكانت هذه اللحظة كفيلة في إزالته تماماً. لم أشعر بهذا العنف في أي حياة عشتها. شددت على أسناني. أطبقت فمي بصوت مسموع.

عند ذلك، سمعت صوتاً. سمعت أصواتاً كنت أصغي مستميتة من أجل سماعها. راحت أصداؤها تتردد عبر الممر قادمة إلينا فتجمدت أنفاسي. انزلقت صوب الجدار بحركة صامتة وضغطت نفسي في الظل هناك. رحت أصغي.

«الصوت قادم من الحديقة الكبيرة. هذا واضح من الأصداء».

«يظهر أنها مجموعة كبيرة».

«صحيح. لكن... هل هي من جماعتك أم من جماعتي؟».

صححت ميلاني قولي: «من جماعتنا أم من جماعتهم».

مضيت نحو القاعة الكبيرة. حرصت على ملازمة المنطقة الظليلة صارت الأصوات أكثر وضوحاً الآن. كان بعض الأصوات مألوفاً. هل

يعني هذا شيئاً؟ كم يمكن أن يستغرق الباحثون المدربون في إنجاز عملية الزرع؟

بعد ذلك، عندما بلغت فتحة الكهف الكبير، صارت الأصوات أكثر وضوحاً فأحسست بارتياح شديد تخلل جسدي كله لأن ضجيج الأصوات كان شديد الشبه بما سمعته في أول يوم لي هنا. ضجيج غاضب إلى حد قاتل.

لا يمكن أن تكون هذه الأصوات إلا أصواتاً بشرية.

لابد أن كَايل قد عاد.

راح ارتياحي يصارع ألمي عندما أسرعت فدخلت منطقة ضياء الشمس في الكهف حتى أرى ما يجري. ارتياح لأن أسرتي. لأن البشر ما زالوا سالمين. وألم لأن كَايل قد عاد الآن سالماً. إذاً.

«ما زالوا في حاجة إليك يا جو. إنهم في حاجة إليك أكثر من حاجتهم إليّ».

«أعرف أنني أستطيع المضي في اختلاق الأعذار إلى الأبد يا ميلاني. أستطيع أن أجد سبباً للتأجيل دائماً يا ميلاني».

«إذاً... ابقي هنا».

«هل أبقى وأتركك سجينة معي؟».

توقفنا عن هذا الجدل عندما فهمنا معنى الضجة في الكهف.

لقد عاد كَايل. كان التعرف إليه بين هذا الجمع سهلاً فهو أطولهم جميعاً. وهو الوحيد الذي في مواجهتي. كان محشوراً عند الجدار البعيد. محشوراً أمام الجمع الغاضب. صحيح أنه كان سبب هذه الضجة الغاضبة لكنه ما كان مصدراً لها. كان وجهه مسالماً. راجياً. رأيته باسطاً ذراعيه جاعلاً كفّيهما إلى الخلف كما لو أنه يحاول حماية شيء خلفه.

«اهدأوا فقط... اهدأوا!». كان صوته أعلى من ذلك الهرج والمرج. «تراجع يا جارد. إنك تخيفها!».

رأيت لمحة من شعر أسود خلف مرفقه. رأيت وجهاً غير مألوف له عينان سوداوان متسعتان خوفاً. كانت هاتان العينان تسترقان النظر إلى جمع الناس.

كان جارد أقرب الناس إلى كَايل. رأيت رقبته من الخلف. كانت حمراء لامعة. رأيت جيمي متعلقاً بذراعيه يحاول شده إلى الخلف ورأيت إيان واقفاً إلى جانبه الآخر طاوياً ذراعيه على صدره. كانت عضلات كتفيه مشدودة متوترة. ومن خلفهما اجتمع البشر كلهم إلا الطبيب وجيب. اجتمعوا كلهم في عصبة واحدة غاضبة. كانوا واقفين من خلف جارد وإيان يطرحون أسئلة غاضبة بأصوات مرتفعة.

«فيم كنت تفكر؟».

«كيف تجرؤ؟».

«لماذا عدت أصلاً؟».

كان جيب واقفاً في الزاوية الخلفية، مكتفياً بالمراقبة.

لفت نظري شعر شارون الأحمر اللامع. فوجئت برؤيتها. مع ماغي.. تماماً في وسط هذا الحشد. كانت مشاركتهما في الحياة هنا شبه معدومة منذ ساعدت الطبيب على شفاء جيمي. لم أرهما قط في خضم أي حدث.

قالت ميلاني: «إنه الشجار. ما كانتا مرتاحتين في حالة السعادة والهناء. أما الآن فهما في أحسن حال... في هذا الغضب كله».

لعلها على حق. إن هذا. مزعج فعلاً.

سمعت صوتاً حاداً يطرح بعض الأسئلة الغاضبة فعرفت فيه صوت ليسي. كانت مشاركة في هذا الحشد أيضاً.

«جو!». جاءني صوت كَايل عبر هذا الضجيج من جديد. نظرت إليه فرأيت عينيه الزرقاوين الداكنتين معلقتين بي. «ها أنت هنا! هل تستطيعين المجيء لمساعدتي قليلاً. من فضلك؟»

## الفصل الخامس والخمسون

# اتصال

فتح جيب لي طريقاً في الحشد.. راح يدفع الناس جانباً بماسورة بندقيته كأنهم أغنام. كأن البندقية عصا يحملها في يده.

زمجر مخاطباً من احتجوا على ذلك: «يكفي هذا. ستكون لكم فرصة الحديث معه في ما بعد. سوف نتحدث معه كلنا. دعونا ننتهي من هذا الأمر أولاً! دعوني أمر».

ومن زاوية عيني رأيت شارون وماغي تنسحبان إلى آخر الحشد ثم تغيبان أمام خطاب العقل هذا. كانتا تنسحبان احتجاجاً على مشاركتي في حقيقة الأمر، أكثر من شيء آخر. أطبقت كل منهما فمها وراحت تحدق غاضبة في كَايل.

كان جارد وإيان آخر من دفعهما جيب جانباً. لمست ذراع كل منهما أثناء مروري علّ هذا يهدئهما قليلاً.

قال جيب وهو يضرب ماسورة البندقية على كفه: «اسمع يا كَايل! لا تحاول التماس الأعذار لنفسك لأنك لن تجد عذراً مقبولاً على الإطلاق. إني حائر الآن بين الرغبة في طردك والرغبة في إطلاق النار عليك».

راحت صاحبة الوجه الصغير، الوجه الشاحب رغم سمرة جلدها، تسترق النظر من تحت مرفق كَايل ولاحت خصلة من شعرها الطويل المجعد الأسود. كان فمها مفتوحاً لشدة ذعرها. كانت عيناها القاتمتان ذاهلتين. أحسست أنني أرى لمعاناً خافتاً في عينيها. مسحة من اللون الفضي تظهر من خلف ذلك السواد.

«أما في هذه اللحظة، فعلينا تهدئة الجميع». استدار جيب موجهاً بندقيته إلى الناس فصار، على نحو مفاجئ، كأنه يحمي كَايل والوجه الصغير المختبئ خلفه. راح جيب يحدق في المجتمعين. «إن لدى كَايل ضيفة. وأنتم تخيفونها كثيراً يا ناس. أظن أنكم قادرون على إبداء شيء من حسن السلوك. والآن. اذهبوا من هنا جميعاً. اذهبوا وافعلوا شيئاً مفيداً. إن حقل البطيخ يموت من العطش. فليقم أحد منكم بسقايته. هل تسمعون؟».

انتظر جيب ريثما تفرَّق الحشد الغاضب بطيئاً. صرت قادرة على رؤية وجوههم الآن. كان واضحاً عليهم أنهم بدأوا يتجاوزون الأمر أكثرهم! ما كان هذا أمراً شديد السوء. ما كان شديد السوء إذا قورن بما كانوا يخشونه خلال الأيام الأخيرة. نعم، إن كَايل أحمق لا يرى إلا نفسه. لكن وجوههم بدت مرتاحة لأنه عاد. لأن الأذى لم يصب أحداً. لا إخلاء للكهوف. لا خطر من جانب الباحثين. لا شيء أكثر من المعتاد. لقد جلب معه دودة جديدة. لكن، أليست الكهوف مليئة بدودات مثلها هذه الأيام؟

ما كان الأمر سبباً للإحساس بالصدمة كما كان من قبل.

عاد كثير منهم إلى واجباتهم التي لم تنتهِ. وعاد غيرهم إلى برميل السقاية. وعاد آخرون إلى غرفهم. سرعان ما خلا المكان إلا من جارد وإيان وجيمي الواقفين إلى جانبي. نظر جيب إلى هؤلاء الثلاثة غاضباً فتح فمه ليتكلم. لكن، قبل أن يفلح في أمرهم بالرحيل أمسك إيان بيدي وأمسك جيمي بيدي الأخرى. أحسست بيد أخرى تمسك معصمي. فوق يد جيمي. إنه جارد.

نظر جيب مستغرباً إلى هؤلاء الثلاثة يشبكون أنفسهم بي حتى يتجنبوا طردهم ثم أدار ظهره إلينا.

قال كَايل: «شكراً يا جيب».

«اخرس يا كَايل. احرص على إبقاء فمك مطبقاً. كنت جاداً كل

الجد عندما قلت إنني أريد إطلاق النار عليك. أيها الحقير التافه».

صدر صوت خائف من خلف كَايل فقال: «لا بأس يا جيب. لكن هل تستطيع تأجيل هذا التهديد بقتلي حتى نكون وحدنا؟ لقد نالت ما يكفيها من الخوف. هل تذكر كيف كانت هذه الأمور تخيف جو؟».

ابتسم كَايل لي فشعرت بصدمة. ثم استدار إلى الفتاة المختبئة خلفه وعلى وجهه تعبير رقيق لم أره عليه من قبل. «أرأيت يا ساني؟ هذه هي جو. إنها الفتاة التي حدثتك عنها. سوف تساعدنا. لن تسمح لأحد بإيذائك. ولن أسمح أنا أيضاً».

نظرت الفتاة إليّ. لعلها امرأة! إنها ضئيلة الحجم، لكن انحناءات جسدها أوحت بقدر من النضج ما كان يُستدل عليه من حجمها. كان الرعب ملء عينيها. طوّق كَايل خصرها بذراعه فتركته يشدها إلى جانبه. تعلقت به كما لو أنه مرساة لها. كأنه مستقرها الآمن.

«إن كَايل على حق». لم أتخيل يوماً أنني يمكن أن أقول إنه على حق. «لن أسمح لأحد بإيذائك. اسمك ساني. أليس كذلك؟».

رفعت المرأة عينيها صوب وجه كَايل.

«لا بأس. لا يجوز أن تخافي من جو. إنها مثلك». استدار كَايل صوبي. «اسمها الحقيقي أطول من هذا. شيء له علاقة بالجليد».

همست المرأة تخاطبني: «ضوء الشمس من خلال الجليد».

رأيت عيني جيب تتسعان دهشة. إن فضوله لا حدود له.

قال كَايل مؤكداً: «لكنها لا تنزعج من مخاطبتها باسم ساني. قالت لي إنه يعجبها».

هزت ساني رأسها. راحت عيناها تتنقلان بين وجهي ووجه كَايل. كان بقية الرجال صامتين تماماً، ساكنين تماماً. جعلها هذا الهدوء ترتاح قليلاً. لابد أنها قادرة الآن على تحسس التغير في الجو المحيط. ما كان فيه أي كراهية أو عداء تجاهها، على الإطلاق.

قلت لها محاولة جعلها أكثر راحة: «لقد كنت دباً أيضاً يا ساني.

كانوا يطلقون عليّ اسم حياة في النجوم في ذلك الوقت. أما هنا فاسمي هو الجوالة».

همستْ وقد اتسعت عيناها قليلاً: «حياة في النجوم. راكبة الوحش!».

كتمتُ أنيني: «إذاً، أظن أنك كنت تعيشين في المدينة الكريستالية الثانية».

«نعم. لقد سمعت قصتك مرات كثيرة. .».

سألتها مسرعة: «هل أعجبك أن تكوني أحد الدببة هناك يا ساني؟»

ما كنت أريد الآن الخوض في تاريخي الخاص. «هل كنت سعيدة هناك؟».

تغضّن وجهها لسماع سؤالي. تعلقت عيناها بوجه كَايل وامتلأتا بالدموع.

«إنني آسفة». اعتذرت فوراً ونظرت إلى كَايل طالبة تفسيراً لبكائها.

ربّت على ذراعها: «لا تخافي. لن يؤذيك أحد. أعدك بهذا».

أجابت بهمس غير مسموع تقريباً: «لكني أحب هذا المكان. أريد أن أبقى هنا».

جلبت كلماتها غصة ثقيلة إلى حنجرتي.

«أعرف يا ساني. أعرف». وضع كَايل يده خلف رأسها. وأسند وجهها إلى صدره بحركة رقيقة بطريقة جعلتني أحس بوخز مؤلم في عيني.

تنحنح جيب فأجفلت ساني وانكمشت على نفسها خائفة. من السهل تصور مدى إرهاق أعصابها في هذه اللحظة. ليست الأرواح مؤهلة للتعامل مع العنف والغضب.

تذكرت زمناً بعيداً. عندما استجوبني جارد. سألني إن كنت مثل بقية الأرواح. ما كنت مثل بقية الأرواح. وما كانت مثلها الروح الأخرى التي تعاملوا معها. باحثتي! لكن ساني بدت تجسيداً لبني

جنسي. تجسيداً للطفهم وجبنهم؛ لا نكون أقوياء إلا عندما تكون أعدادنا كبيرة.

قال جيب: «آسف يا ساني. ما قصدت إخافتك. لعل علينا أن نخرج من هنا». جالت عيناه في الكهف فرأى بضعة أشخاص يتلكأون عند بابه. يسترقون النظر إلينا. نظر غاضباً صوب ريد ولوتشينا فأسرعتا في الاختفاء في الممر المؤدي إلى المطبخ. «لعل عليّ الذهاب لرؤية الطبيب». هكذا واصل جيب كلامه مطلقاً زفرة صغيرة، ملقياً نظرة عابرة صوب المرأة المذعورة. أظن أنه حزين لأنه لن يستمع إلى قصص جديدة في هذه اللحظة.

قال كَايل: «سنذهب» ظلت ذراعه ملفوفة بإحكام حول خصر ساني النحيل. جرّها معه صوب النفق الجنوبي.

سرت خلفهما جارّة الآخرين. ما زالوا متعلّقين بي.

توقف جيب فتوقفنا جميعاً معه. مس ورك جيمي بأخمص بندقيته وقال: «أليس لديك مدرسة يا فتى؟».

«آه! أرجوك يا عم جيب! أرجوك. لا أريد أن أفوّت. .».

«اذهب إلى مدرستك».

نظر إليّ جيمي بعينين متألمتين، لكن جيب كان محقاً. هذا شيء لا أريد لجيمي أن يراه. هززت رأسي لجيمي.

سألته: «هل تستطيع أن تقول لترودي أن تأتي؟ إن الطبيب في حاجة إليها».

تهدّلت كتفا جيمي وسحب يده من يدي. انزلقت يد جارد فاحتلت مكان يده.

قال جيمي حزيناً أثناء استدارته ليذهب في الاتجاه المعاكس: «تفوتني رؤية كل شيء».

همست عندما صار جيمي بعيداً غير قادر على سماعي: «شكراً يا جيب».

كان النفق الطويل أكثر ظلمة من ذي قبل لأنني كنت أشعر بالرعب مشعاً من المرأة السائرة أمامي.

همس كَايل لها: «لا بأس. لن يؤذيك شيء هنا. ثم إنني موجود معك».

من هو هذا الرجل الغريب؟ الرجل الذي جاء بدلاً من كَايل! هل تحققوا من عينيه؟ لم أصدق أنه يحمل هذا اللطف كله داخل جسده الضخم الغاضب.

لا بد أن هذا هو أثر استعادة جودي. أثر إحساسه بأنه شديد القرب مما أراد. فاجأني كَايل. أعرف أن هذا الجسد جسد جودي. لكني فوجئت بقدرة كَايل على إبداء هذا اللطف تجاه الروح التي فيه. كنت أظن أن هذه المشاعر تتجاوز قدراته.

سألني جارد: «كيف حال المعالجة؟».

قلت: «لقد صحت قبل مجيئي بحثاً عنكم».

سمعتُ تنهد الراحة يصدر عن أكثر من شخص في الظلمة.

حذرتهم جميعاً: «لكنها مشوشة الذهن. وهي خائفة جداً. لا تستطيع تذكّر اسمها. إن الطبيب يحاول تحسين وضعها. سوف يزداد خوفها عندما تراكم كلكم معاً. حاولوا أن تكونوا هادئين وأن تتحركوا ببطء».

همست أصواتهم في الظلمة: «نعم، نعم».

«وهل تظن، يا جيب، أنك قادر على التخلي عن البندقية؟ إنها خائفة من البشر قليلاً».

أجابني جيب: «آه. نعم. طبعاً».

تمتم كَايل: «أهي خائفة من البشر؟».

قال إيان وهو يشد على يدي: «تذكّري أننا الأشرار».

شددت على يده بدوري. كنت سعيدة بحرارة لمسته، بضغط أصابعه.

كم بقي لي من الوقت حتى أشعر بضغط يد ودفئها على يدي؟ متى تكون آخر مرة أسير عبر هذا النفق؟ أهي هذه المرة؟

همست ميلاني: «لا... ليس بعد».

فجأة، صرت أرتجف. ضغطت يد إيان على يدي من جديد، وكذلك فعلت يد جارد.

سرنا صامتين بضع دقائق.

سمعت صوت ساني الوجل يسأل: «كَايل؟».

«ماذا؟».

«لا أريد العودة إلى كوكب الدببة».

«لست مضطرة إلى الذهاب إليه. يمكنك الذهاب إلى مكان آخر».

«ألا يمكنني البقاء هنا؟».

«لا. إنني آسف يا ساني».

سمعت اضطراباً بسيطاً في تنفسها. كنت سعيدة بالظلمة المحيطة بنا. لن يستطيع أحد رؤية الدموع التي بدأت تنهمر هابطة على وجهي. ما كانت لدي يد حرة أمسحها بها. تركتها تتساقط فوق قميصي.

بلغنا نهاية النفق أخيراً. انسكب ضوء الشمس من باب المستشفى منعكساً على دقائق الغبار المتراقصة في الهواء. سمعت صوت الطبيب متمتماً في الداخل.

كان يقول: «هذا جيد جداً. تابعي التفكير في التفاصيل. أنت تعرفين عنوانك القديم. لا يمكن أن يكون اسمك بعيداً الآن! كيف تشعرين بهذا؟ أليس لطيفاً؟».

همست لمن معي: «انتبهوا».

توقف كَايل عند الباب تماماً. مازالت ساني متعلقة به. أشار لي أن أدخل قبلهم.

استنشقت نفساً عميقاً ودخلت غرفة الطبيب بخطى بطيئة. أعلنت عن حضوري بصوت منخفض متوازن: «مرحباً».

أجفلت المعالجة وصدرت عنها صرخة صغيرة شاهقة.

قلت أطمئنها: «هذه أنا عدت من جديد».

ذكّرها الطبيب: «هذه جو».

بدأت المرأة تجلس الآن. كان الطبيب جالساً بقربها واضعاً يده على ذراعها.

«إنها الروح»، همست المرأة قلقة تخاطب الطبيب.

«نعم، لكنها صديقة».

راحت المرأة تنظر إليّ نظرة شك.

«دكتور! لديكم بعض الزائرين. أيزعجكم هذا؟».

نظر الطبيب إلى المرأة: «إنهم أصدقاء كلهم! إنهم عدد من البشر الذين يعيشون معي هنا. لن يخطر في بال أحد منهم أن يؤذيك. هل أسمح لهم بالدخول؟».

ترددت المرأة ثم هزت رأسها حذرة وهمست: «لا بأس».

قلت: «هذا إيان». وأشرت له بالدخول. «وهذا جارد. وهذا جيب». واحداً بعد آخر، راحوا يدخلون الغرفة ويقفون إلى جانبي. «وهذا كَايل. وهذه ساني».

جحظت عينا الطبيب دهشة عندما رأى كَايل يدخل الغرفة ورأى ساني سائرة إلى جانبه.

همست المرأة: «هل ثمة مزيد من البشر؟».

تنحنح الطبيب محاولاً لملمة شتات نفسه: «نعم. ثمة كثير من الناس هنا. يعيشون هنا وجميعهم. بل معظمهم من البشر». هكذا أضاف محدقاً في ساني.

قلت للطبيب: «إن ترودي قادمة إليك. قد تستطيع ترودي أن. .» نظرت إلى ساني وكَايل. «. تجد مكاناً. لها حتى ترتاح!».

هز الطبيب رأسه. ما زالت عيناه متسعتين: «قد تكون هذه فكرة جيدة».

همست المرأة: «من هي ترودي؟».

«إنها في غاية اللطف. سوف تهتم بك وترعاك».

«هل هي بشرية، أو أنها مثل تلك؟». أومأت برأسها صوبي.

«إنها بشرية».

يبدو أن هذه الإجابة خففت من قلق المرأة.

«أوه»، شهقت ساني من خلفي.

استدرت لأراها محدقة في حاويات التبريد التي فيها روحا المعالجين. كانت الحاويتان واقفتين على طاولة الطبيب. وكان مصباحاهما يشعان بلون أحمر خفيف. وعلى الأرض، أمام الطاولة، كانت الحاويات السبع الفارغة الباقية مكومة من غير ترتيب.

ظهرت الدموع في عيني ساني من جديد فدفنت رأسها في صدر كَايل.

«لا أريد الذهاب! أريد البقاء معك»، هكذا كانت تقول للرجل الضخم الذي كان موضع ثقتها الكاملة كما يبدو.

همست: «أريد أن أتحدث معها دقيقة يا كَايل».

هز كَايل رأسه وقد اضطرب وجهه قليلاً ثم شد الفتاة المتمسكة به فأبعدها عنه قليلاً.

قالت راجية: «لا، لا».

قلت لها: «لا بأس، لن يذهب كَايل من هنا. أريد أن أسألك بعض الأسئلة فقط».

جعلها كَايل تستدير فتواجهني فطوقتني بذراعيها. مضيت بها حتى الزاوية البعيدة من الغرفة، إلى أبعد نقطة ممكنة عن المرأة التي لا اسم لها. ما كنت أريد لحديثنا هذا أن يخيف المعالجة أو يشوّشها أكثر مما هي خائفة مشوشة.

مضى كَايل خلفنا. كان شبه ملتصق بنا. جلسنا على الأرض في مواجهة الجدار.

تمتم كَايل: «ما كنت أظن أن الأمر هكذا. هذا سيّئ فعلاً».

سألته: «كيف عثرت عليها يا كَايل؟ كيف أمسكت بها؟». لم تبدُ على الفتاة الباكية أي استجابة عندما رحت أسأله. تابعت بكاءها فوق كتفيّ. «ماذا حدث؟ وما الذي جعلها في هذا الوضع؟».

«ظننت أنها قد تكون في لاس فيغاس. ذهبت إلى هناك في البداية، قبل أن أذهب إلى بورتلاند. لقد كانت جودي شديدة القرب من أمها. وكانت أمها، دوريس، تعيش في بورتلاند. وعندما فكرت في تعلقك بجارد وجيمي قلت في نفسي إنها قد تذهب إلى هناك حتى ولو أنها لم تعد جودي نفسها. كان ظني صحيحاً! وجدتهم جميعاً هناك في منزل دوريس القديم: دوريس وزوجها وارن. لهما الآن اسمان آخران طبعاً. لكني لم أسمع هذين الاسمين على نحو واضح. ووجدت معهما ساني. راقبتهم طوال اليوم حتى حلّ الليل. كانت ساني وحيدة في غرفة جودي القديمة. تسللت إلى المنزل بعد نومهم بساعات. حملت ساني ووضعتها على كتفي ثم جريت وخرجت من النافذة. ظننت أنها موشكة على الصراخ فأسرعت صوب سيارة الجيب. بعد ذلك خفت لأنها لم تبدأ الصراخ. كانت هادئة تماماً! خفت أنها قد. أنت تدركين قصدي. مثل الشخص الذي أمسكناه ذات مرة».

شهقت متألمة. إن لديّ ذكرى أكثر حداثة عن هذه الحالة.

«أنزلتها عن كتفي فوجدتها حية. كانت تنظر إليّ بعينين متسعتين. ما زالت لا تصرخ. حملتها إلى السيارة. كنت أعتزم تقييدها، لكنها. لكنها لم تظهر أي انزعاج. ما كانت تحاول الهرب، على الأقل. وهكذا ثبتها بحزام الأمان في السيارة وبدأت القيادة. ظلت محدقة بي فترة طويلة ثم قالت أخيراً: أنت كَايل! فقلت لها: نعم. فمن أنت؟ فأخبرتني باسمها. ما هو اسمها. لقد نسيته؟».

همست ساني بصوت متكسر: «ضوء الشمس عبر الجليد. لكني أحب اسم ساني رغم ذلك. إنه جميل».

تنحنح كَايل ثم قال: «على أي حال، لن ترفض الحديث معي أبداً. ما كانت خائفة كما توقعت أن تكون. وهكذا رحنا نتحدث». ظل صامتاً عدة لحظات. «كانت سعيدة برؤيتي».

همست ساني تخاطبني: «كنت أحلم به كل يوم. كل ليلة. كنت آمل أن يتمكن الباحثون من العثور عليه. لقد اشتقت إليه كثيراً. وعندما رأيته ظننت أنني أحلم من جديد».

ابتلعت ريقي بصوت مسموع.

مد جارد يده فوضعها على خدها.

«إنها طفلة لطيفة يا جو. ألا نستطيع إرسالها إلى كوكب جيد فعلاً؟».

«هذا ما كنت أريده سؤالها عنه. أين عشت من قبل يا ساني؟».

كنت أسمع، على نحو غامض، أصوات الآخرين المنخفضة ترحب بوصول ترودي. كانت ظهورنا إليهم. أردت أن أرى ما يحدث هناك، لكني كنت مسرورة أيضاً بأن انتباهي لم يتشتت بفعل ذلك. حاولت التركيز على الروح الباكية أمامي.

«عشت هنا وفي كوكب الدببة فقط. لقد عشت في ذلك الكوكب خمس مرات متوالية. لكني أحب هذا الكوكب أكثر. لم أكمل فيه ربع حياة واحدة حتى الآن!».

«أعرف هذا. صدقيني. أفهمك. هل ثمة مكان آخر ترغبين في الذهاب إليه؟ كوكب الزهور مثلاً؟ إنه لطيف لقد عشت فيه!».

غمغمتْ وهي تدس وجهها عند كتفي: «لا أريد أن أكون نبتة!».

عدت أقول من جديد: «إن العناكب. .» لكن صوتي انقطع. ما كان كوكب العناكب مكاناً مناسباً لساني.

«إنني أكره البرد. وأحب الألوان».

تنهدت: «أعرف هذا. لم أذهب إلى كوكب الدلافين، لكني سمعت أنه جميل أيضاً. ألوان وحركة وأسرة. .».

«لكنها كواكب بعيدة كلها. عندما أصل إلى هناك، سوف يكون كَايل قد. سوف يكون. .» غصت ساني بكلماتها وعادت تبكي من جديد.

سألني كَايل قلقاً: «أليس لديك خيارات أخرى؟ أليس لديكم كواكب كثيرة أخرى؟».

كنت أسمع صوت ترودي متحدثة مع المعالجة، لكني حاولت تجاهل كلماتها. فليهتم البشر بالبشر في هذه اللحظة.

هززت رأسي وقلت له: «ما من كواكب أخرى تذهب إليها المركبات الفضائية. ثمة كواكب كثيرة، لكن حفنة منها فقط. الكواكب الجديدة غالباً. ما زالت مفتوحة أمام الاستيطان. ثم إنني آسفة يا ساني، لكن عليّ أن أرسلك إلى كوكب بعيد حقاً يريد الباحثون العثور على أصدقائي هنا وسوف يعيدونك إذا استطاعوا حتى يجعلوك ترشدينهم إلى هذا المكان».

راحت ساني تبكي: «لكني لا أعرف الطريق. لقد عصب كَايل عيني». بللت دموعها كتفي كلّها.

راح كَايل ينظر إليّ كأنني قادرة على اجتراح أعجوبة تجعل الأمر يسير على أحسن نحو. مثل أعجوبة الأدوية التي أتيت بها. شيء من السحر. لكني عرفت أن سحري قد نضب. ما عادت لدي نهايات سعيدة. من أجل نصف المعادلة على الأقل. من أجل الأرواح.

نظرت إلى كَايل نظرة يائسة: «ليس لدينا إلا كوكب الدببة، والزهور، والدلافين. لن أرسلها إلى كوكب النار».

ارتعدت المرأة الصغيرة عندما سمعت اسم هذا الكوكب.

«لا تخافي يا ساني. سوف تحبين كوكب الدلافين. إنها كائنات لطيفة. سوف يكون المكان لطيفاً».

ازداد بكاؤها.

تنهّدت، لكني تابعت.

«ساني، أريد أن أسألك عن جودي».

أحسست بكَايل يتيبس إلى جانبي.

غمغمت ساني: «ماذا عنها؟».

«هل هي. هل هي موجودة في رأسك معك؟ هل تستطيعين سماع صوتها؟».

نشقت ساني بأنفها ونظرت إليّ: «لا أفهم قصدك».

«هل تحدثت جودي معك؟ هل تشعرين بأفكارها؟».

«هل تتحدثين عن جسدها. عن أفكارها؟ ليس لديها أفكار. إنني وحدي في هذا الجسد الآن».

رحت أهز رأسي بحركة بطيئة.

همس كَايل: «هل هذا أمر سيّئ؟».

«لست أعرف الكثير عن الأمر حتى أقول لك. لكنني أظن أنه ليس جيداً».

توترت عينا كَايل.

«كم سنة مضت على وجودك في هذا الجسد يا ساني؟».

عبس وجهها. راحت تفكر: «كم مر من الوقت يا كَايل؟ خمس سنوات؟ ست؟ لقد اختفيت قبل أن أعود إلى المنزل».

قال كَايل: «ست سنوات».

سألتها: «كم يبلغ عمرك؟».

«إنني في السابعة والعشرين».

فاجأني هذا. إنها تبدو صغيرة جداً. هكذا تبدو. لم أصدق أنها أكبر من ميلاني بست سنوات.

سألني كَايل: «ما الذي يجعل هذا مهماً؟».

«لست واثقة. لكن يبدو لي أنه كلما زاد الزمن الذي يمر على المرء في صورته البشرية قبل أن يصبح روحاً، زادت فرصة. إمكانية العودة. كلما زادت نسبة الزمن الذي يمضيه المرء في صورته البشرية، كان لديه

ذكريات أكثر، صلات أكثر. كلما مر عليه زمن أطول وهو يسمع الناس يدعونه باسمه الحقيقي. لست أدري».

سألني بصوت قانط: «هل تظنين واحداً وعشرين عاماً مدة كافية؟».

«أظن أننا سنكتشف ذلك».

راحت ساني تنوح: «هذا ليس عدلاً! لماذا تبقين أنت هنا؟ لماذا لا أستطيع البقاء؟»

صار ابتلاع ريقي صعباً: «لن يكون هذا عدلاً، أليس كذلك؟ لكنني لن أبقى هنا يا ساني! عليّ الذهاب أيضاً. عليّ الذهاب قريباً! قد نسافر معاً». قد يسعدها قليلاً إذا جعلتها تظن أنني ذاهبة معها إلى كوكب الدلافين. وعندما تدرك أن الأمر ليس كذلك، ستكون قد حلت في جسد مضيف آخر له مشاعر مختلفة. ليس له ارتباط بهذا الإنسان الواقف إلى جانبي. ربما يكون الأمر هكذا. لكن الوقت سيكون قد فات. «علي أن أذهب يا ساني. مثلك تماماً. عليّ إعادة هذا الجسد إلى صاحبته أيضاً!».

عند ذلك، جاءني صوت إيان قاسياً، مسطحاً، فحطم الصمت مثل فرقعة سوط: «ماذا تقولين؟»

## الفصل السادس والخمسون

# التحام

حدّق إيان غاضباً حدّق فينا، ثلاثتنا، بحنق شديد جعل ساني ترتجف مذعورة. كان هذا أمراً غريباً. كما لو أن إيان قد استعار وجه كَايل. لكن وجه إيان ما زال تاماً، غير مكسور. ما زال جميلاً رغم ثورة غضبه.

سأله كَايل حائراً: «إيان. ما الأمر؟».

نطق إيان من بين أسنانه المطبقة: «جو!» هكذا زمجر وهو يرفع يده مفتوحة. بدا أنه يعاني الكثير حتى يبقيها مفتوحة. حتى لا يشد عليها. حتى لا تصير قبضة مستعدة للضرب.

صاحت ميلاني في رأسي: «أوه... أوه!».

اجتاحني البؤس. ما كنت أريد وداع إيان. أما الآن فقد صرت مضطرة لوداعه. نعم إنني مضطرة لوداعه. لقد كنت مضطرة لوداعه منذ البداية. لا يصح أن أتسلل في الليل مثل اللصوص وأترك مهمة الوداع لميلاني.

تعب إيان من الانتظار. أمسك بذراعي وجرّني. رفعني عن الأرض. أحسست أن ساني موشكة على الارتفاع عن الأرض مثلي. كانت تواصل تمسكها بي. هزني إيان حتى أفلتت يدها عني.

سأله كَايل: «ماذا أصابك؟».

أرجع إيان ركبته إلى الخلف وضرب وجه كَايل بقدمه ضربة قوية.

قلت محتجة: «إيان!».

رمت ساني نفسها أمام كَايل الذي أمسك بأنفه. كان يحاول الوقوف على قدميه. كانت ساني تحاول حمايته بجسدها الضئيل. لكن كَايل فقد توازنه وسقط على الأرض مصدراً أنيناً.

زمجر إيان وشدّني من غير التفات: «هيا!».

«إيان. . ».

شدني إيان بخشونة جعلت الكلام مستحيلاً. لكن هذا جيد. لست أدري ما أقول.

رأيت وجوه الجميع المصدومة تمر أمامي على نحو غائم. خشيت أن يزعج إيان المرأة التي لا اسم لها. أن يخيفها. ما كانت معتادة على الغضب والعنف.

عند ذلك توقفنا. كان جارد واقفاً يسد المدخل أمامنا.

«هل فقدت عقلك يا إيان؟» هكذا سأله مصدوماً غاضباً «ما الذي تفعله بها؟».

أجابه إيان صائحاً وهو يدفعني في مواجهة جارد ويهزني: «هل كنت تعرف بهذا الأمر؟». سمعت لغطاً من ورائي.

«سوف تؤذيها!».

زمجر إيان من جديد: «هل تعرف ما الذي تخطط له؟».

حدق جارد في إيان وقد خلا وجهه من أي تعبير. لم يجبه.

لكن هذا كان إجابة كافية بالنسبة لإيان.

اصطدمت قبضته بوجه جارد بسرعة جعلتني لا أراها. أحسست الصدمة تنتقل عبر جسده ورأيت جارد يترنح متراجعاً إلى داخل القاعة المظلمة.

قلت راجية: «توقف يا إيان».

زمجر يجيبني: «توقفي أنت».

جرّني عبر المدخل فصرنا في النفق ثم مضى بي شمالاً كنت مضطرة إلى الجري تقريباً حتى أستطيع مجاراة خطواته الواسعة.

صاح جارد من خلفنا: «تباً لك!».

صاح إيان من فوق كتفه من غير إبطاء سيره: «هل تراني أريد إيذاءها؟ هل أريد إيذاءها؟ أنت أيها الخنزير المنافق!».

ما عاد من خلفنا إلا الصمت والظلام. تعثّرت في هذا الظلام محاولة مجاراة إيان.

عند ذلك بدأت أحس بالألم تحت قبضة إيان. كانت يده مشدودة مثل ملزمة على ذراعي. كانت أصابعه الطويلة محيطة بذراعي إحاطة كاملة. بل أكثر. بدأ الخدر يتسرب إلى يدي.

جرّني بسرعة أكبر. قطع أنين أنفاسي اللاهثة. كان ذلك أشبه بصرخة ألم.

جعل هذا الصوت إيان يتوقف على الفور. كان تنفسه لاهثاً خشناً في تلك الظلمة.

«إيان، إيان، أنا. .» اختنقت بكلماتي غير قادرة على إنهائها. ما كنت أعرف ما أقول لأنني كنت أرى في ذهني صورة وجهه الغاضب.

حملتني ذراعاه على نحو مفاجئ. ارتفعت رجلاي عن الأرض. لكنه أمسك بي قبل أن أقع. بدأ يجري إلى الأمام من جديد. إنه يحملني الآن. ما كانت يداه قاسيتين أو غاضبتين كما كانتا من قبل. لقد احتضنني فوق صدره.

مر إيان بالساحة الكبيرة جارياً متجاهلاً الوجوه التي علتها الدهشة، بل الارتياب أيضاً. ثمة الكثير الكثير من الأشياء غير المألوفة، غير المريحة، التي تجري في الكهوف هذه الأيام. رأيت البشر في هذا الكهف. فيوليتا وجيفري وآندي وبيج وآرون وبراندت. وآخرين لم أستطع رؤيتهم أثناء مرورنا السريع. رأيتهم متجمدين في أماكنهم. لقد أقلقتهم رؤية إيان جارياً بكل هذه السرعة، غاضب الوجه، وهو يحملني بين ذراعيه.

لكنهم صاروا خلفنا الآن. لم يتوقف إيان حتى وصلنا باب غرفته.

رفس الباب برجله ففتحه. اصطدم الباب بالجدار مصدراً ضجة شديدة الأصداء. ألقاني إيان على الفراش على الأرض.

صار الآن واقفاً فوقي. كان صدره خافقاً باللهاث والإجهاد والغضب. استدار ثانية واحدة فأعاد الباب إلى مكانه بحركة سريعة. ثم راح يحدق بي غاضباً من جديد.

استنشقت نفساً عميقاً ونهضت على ركبتيّ رافعة يدي إلى الأعلى. فتحت كفيّ متمنية أن يظهر فيهما سحر! أن يظهر فيهما شيء أستطيع إعطاءه إياه. شيء أستطيع قوله. لكن يديّ كانتا فارغتين.

«لن تتركيني». كانت عيناه متوقدتين أكثر بكثير من أي وقت مضى. لهب أزرق.

همست: «إيان. يجب أن ترى أن. أنني لا أستطيع البقاء يجب أن ترى هذا».

صاح بي: «لا!».

انكمشت على نفسي متراجعة، لكن إيان هوى إلى الأمام فجأة. سقط على ركبتيه. سقط عليّ. دفن وجهه في بطني وطوقت خصري ذراعاه. كان يرتجف. يرتجف ارتجافاً شديداً. ومن صدره جاء نشيج مرتفع قانط.

قلت راجية: «لا، لا يا إيان». كان هذا أسوأ من غضبه. «لا تفعل هذا أرجوك. أرجوك لا تفعل هذا».

«جو!». كان صوته أنيناً.

«أرجوك يا إيان. لا أريد أن يكون شعورك هكذا. إنني آسفة. أرجوك».

كنت أبكي أيضاً. أهتز أيضاً. لكن، لعل اهتزازي كان بفعل اهتزاز جسده.

«أنت لا تستطيعين الذهاب».

«عليّ أن أذهب. عليّ أن أذهب». رحت أبكي.

ثم بكينا زمناً طويلاً، من غير كلام.

جفّت دموعه قبل أن تجف دموعي. نهض على ركبتيه أخيراً وشدني فغمرني بذراعيه من جديد. انتظر حتى صرت قادرة على الكلام.

همس لي: «آسف. لقد كنت وضيعاً».

«لا، لا إنني آسفة، كان عليّ أن أخبرك عندما رأيت أنك لم تخمّن الأمر وحدك. لكنني. لم أستطع. ما كنت أريد إخبارك. ما كنت أريد إيذاءك. إحزانك. كان هذا أنانية مني».

«علينا أن نتحدث في هذا الأمر يا جو. ليس الأمر مقضياً. لا يمكن أن يكون مقضياً».

«بل هو مقضيٌّ فعلاً».

هز رأسه وشد على أسنانه: «منذ متى؟ منذ متى تخططين لهذا الأمر؟».

همست: «منذ. الباحثة».

هز رأسه. . يبدو أنه توقع هذه الإجابة: «إذاً فقد رأيتِ أن عليك البوح بسرك من أجل إنقاذها. أفهم هذا. لكن هذا لا يعني وجوب ذهابك. لمجرد أن الطبيب يعرف الآن. هذا لا يعني شيئاً. لو خطر في بالي لحظة واحدة أنه يعني شيئاً. أن هذا مكافئ لذاك. لما وقفت هناك من دون أن أفعل شيئاً. لما تركتك تشرحين له العملية. لن يجبرك أحد على الاستلقاء على طاولة العمليات! سوف أكسر يده إذا حاول أن يمسّك!».

«أرجوك يا إيان».

«لا يستطيعون إجبارك يا جو! هل تسمعين هذا؟». كان يصرخ من جديد.

همست: «لا أحد يجبرني على هذا. لم أعلّم الطبيب كيف يقوم

بعملية الفصل حتى أتمكن من إنقاذ الباحثة. لكن وجودها جعلني مضطرة إلى اتخاذ القرار، على نحو أسرع. لقد اتخذت هذا القرار من أجل إنقاذ ميلاني يا إيان».

ارتعش منخراه، لكنه لم يقل شيئاً.

«إنها محبوسة هنا يا إيان. إن هذا سجن. بل أسوأ من سجن. لا أستطيع حتى أن أصفه. إنها مثل شبح. لكني أستطيع تحريرها أستطيع إعادتها إلى نفسها».

«وأنت تستحقين الحياة يا جو. أنت تستحقين البقاء».

«لكني أحبها يا إيان».

أغمض عينيه وشحبت شفتاه تماماً. همس: «لكني أحبك. أليس هذا مهماً؟».

«بل هو مهم طبعاً. مهم كثيراً. ألا ترى؟ لكن هذا يجعل الأمر أكثر. ضرورة».

انفتحت عيناه فجأة: «أيكون حبي لك غير محتمل إلى هذا الحد؟ هكذا إذاً؟ أستطيع إبقاء فمي مطبقاً يا جو. لن أقول شيئاً. لك أن تكوني مع جارد إن كان هذا ما تريدين. أريدك أن تبقي هنا فقط».

«لا يا إيان!». احتضنت وجهه بين كفي. بدا جلده قاسياً. مشدوداً فوق عظامه. «لا إنني؟ إنني أحبك أيضاً. أنا أحبك. أنا الدودة الفضية القابعة في مؤخرة رأسها. لكن جسدي لا يحبك. إنه لا يستطيع أن يحبك. لا أستطيع أن أحبك في هذا الجسد يا إيان. هذا يمزقني و. لا أستطيع احتماله!».

كنت قادرة على احتمال هذا التمزق. لكني ما كنت قادرة على رؤية معاناته بسبب القيود التي يفرضها عليّ جسدي. لا أستطيع احتمال هذا.

أغمض عينيه من جديد. رأيت الدموع في أهدابه السوداء الكثيفة. رأيتها تلمع هناك.

تنهدت ميلاني. جاءني صوتها جافاً: «أوه! هيا... افعلي ما تريدين. أما أنا فسوف... سوف أدخل الغرفة الأخرى».

«شكراً».

طوقت عنقه بذراعي وقربت جسدي منه حتى التقت شفاهنا.

طوقني بدوره وجذبني بقوة أكبر إلى صدره. تحركت شفاهنا معاً. انصهرت كأنها لن تفترق أبداً. كأن الفراق ما كان أمراً لا سبيل إلى تفاديه. أحسست بطعم الدموع المالح. دموعنا. دموعنا معاً.

بدأ شيء يتغير.

عندما يتلامس جسدا ميلاني وجارد تنشب بينهما نار مجنونة. اشتعال سريع يجري على أديم الصحراء فيحرق كل ما يجده في سبيله.

لكن الأمر مختلف مع إيان. مختلف كثيراً لأن ميلاني ما كانت تحبه مثلي. عندما لمسني، كان الأمر أكثر عمقاً وأكثر بطئاً من تلك النار المجنونة.. كان شيئاً مثل حركة الصخور المنصهرة عميقاً تحت سطح الأرض. كانت حركة عميقة إلى حد يحجب حرارتها، لكن تلك الحمم المصهورة كانت تتحرك في اندفاع جارف مغيرة أسس الأرض نفسها مع تقدمها.

صار جسدي غير الراغب ضباباً يقف بيننا. ستارة سميكة، لكنها شفافة إلى حد يسمح لي بالرؤية عبرها. يسمح لي برؤية ما كان يحدث.

لقد غيرني هذا. لم يغيرها هي. كان الأمر أشبه بعملية تعدينية تجري عميقاً في قلب ما كنته.. كانت شيئاً بدأ منذ زمن بعيد. شيئاً كاد يكتمل! لكن هذه القبلة الطويلة أكملت هذا الشيء. كانت قبلة عميقة حادة الزوايا. أكملت هذا الخلق الجديد. جعلت تلك الصخور الذائبة تصل الماء البارد فتتشكل فيه. صخوراً قاسية. نهائية. غير قابلة للتحطم.

بدأت أبكي من جديد مدركة أن هذا قد غيّره أيضاً. قد غيّر هذا الرجل الذي يحمل من الرقّة ما يكفي لأن يكون روحاً. لكن لديه من القوة ما لا يملكه إلا كائن بشري.

حرك شفتيه نحو عيني، لكن الوقت قد فات. لقد انتهى الأمر «لا تبكي يا جو. لا تبكي. سوف تبقين هنا».

«عشت حياة كاملة ثماني مرات»، همست قبالة وجهه بصوت متقطع. «عشت ثماني مرات، لكني لم أجد أحداً يجعلني أبقى في كوكب واحد من أجله. لم أجد أحداً أتبعه عندما يرحل. لم أجد شريكاً لي. لماذا يحدث هذا الآن؟ لماذا أنت؟ أنت لست من جنسي. كيف يمكن أن تكون شريكي؟»

تمتم إيان: «غريب هذا الكون!».

قلت متذمرة، مكررة كلمات ساني: «هذا ليس عدلاً». ما كان هذا منصفاً على الإطلاق. كيف أستطيع العثور على هذا. كيف أستطيع أن أجد الحب. الآن. في الساعة قبل الأخيرة؟ ثم كيف يكون عليّ أن أتركه وأمضي؟ أهو عدل أن يعجز جسدي وروحي عن التفاهم؟ أهو عدل أن أحب ميلاني أيضاً؟

أهو عدل أن يعاني إيان؟ إن كان أحد في الدنيا كلها يستحق السعادة. فهو إيان. ليس هذا عدلاً ولا حقاً. ولا عقلاً. كيف أستطيع أن أفعل هذا به؟

همست له: «أحبك».

«لا تقوليها كمن يقول كلمة وداع».

لكن، كان عليّ أن أقول هذا: «أنا.. الروح المدعوّة جوالة. أحبك أنت. أنت البشري إيان. لن يتغير هذا أبداً كيفما تحولت أنا. كيفما صرت». تعمّدت صياغة الكلمات على نحو حذر حتى لا يكون كذب في صوتي. «إذا صرت دلفيناً أو دباً أو زهرة فلا أهمية للأمر سوف أحبك دائماً. وأذكرك دائماً. أنت شريكي الوحيد».

تجمدت ذراعاه حولي ثم عادتا تطوقاني بقوة أكبر. أحسست الغضب فيهما من جديد. صار التنفس صعباً.

«لن تتجولي في أي مكان. سوف تبقين هنا».

«إيان. . .».

لكن صوته صار مختلفاً الآن. إنه غاضب، لكنه عمليّ أيضاً: «الأمر غير متعلق بي وحدي. أنت جزء من هذه الجماعة، ولن يقوم أحد بطردك من هنا من غير نقاش. أنت كبيرة الأهمية بالنسبة لنا جميعاً. حتى بالنسبة لمن هم غير مستعدين للإقرار بهذا. نحن في حاجة إليك».

«لا أحد يطردني يا إيان».

«لا لن يطردك أحد. ولن تطردي نفسك أيضاً يا جوالة».

قبّلني من جديد. كان فمه أكثر خشونة مع الغضب الذي عاد إليه. انقبضت يداه ممسكتين بشعري. رفع وجهي فأبعده قليلاً عن وجهه.

سألني: «جيد أم سيّئ؟».

«جيد!».

«هذا ما ظننت». صار صوته عميقاً الآن.

قبّلني من جديد. كانت ذراعاه مشدودتين على أضلاعي. كان فمه عنيفاً على فمي. سرعان ما أصابني الدوار وصرت ألهث طلباً للهواء. خفف ضغط ذراعيه وانزلقت شفتاه صوب أذني.

«فلنذهب».

«أين؟ أين نذهب؟». لن أذهب إلى أي مكان. كنت أعرف هذا. لكن. ما أغرب قفزة قلبي عندما فكرت في الذهاب. إلى أي مكان. مع إيان. إنه لي. إنه لي. على نحو لا يمكن أن يكون مع جارد. إنه لي مثلما لا يستطيع هذا الجسد أن يكون له.

«لا تسببي لي أي متاعب في هذا الأمر يا جوالة. إنني شبه مجنون الآن». شدني فوقفنا على أقدامنا.

قلت مصرة: «أين؟».

«سوف تذهبين عبر النفق الشرقي، بعد الحقل، حتى النهاية».

«إلى صالة الألعاب؟».

«نعم. وسوف تنتظرين هناك حتى أعود مع الآخرين».

«لماذا؟». بدت كلماته جنوناً. أيريد أن يلعب الكرة حقاً؟ هل يريد هذا حتى يخفف التوتر من جديد؟

«ستذهبين لأن الأمر في حاجة إلى نقاش. سوف أدعو إلى انعقاد محكمة أيتها الجوالة. وسوف يكون عليك الالتزام بقرارها».

## الفصل السابع والخمسون

# اكتمال

كانت محكمة صغيرة هذه المرة. ما كانت مثل محكمة كَايل. لم يحضر مع إيان إلا جيب والطبيب وجارد. عرف من غير أن أقول له أن عليه عدم إحضار جيمي. أن عليه عدم السماح له بمعرفة شيء مما يجري هنا.

سيكون على ميلاني أن تودّعه بدلاً مني. ما كنت أستطيع مواجهة هذا الوداع. لا أستطيع وداع جيمي، لا أبالي بأن يكون هذا جبناً مني. لن أفعله.

كان في الكهف مصباح أزرق واحد. وكان هذا المصباح يلقي دائرة من الضوء الخافت على الأرض الحجرية. جلسنا عند حافة هذه الدائرة. كنت وحدي، وكان الرجال الأربعة جالسين قبالتي. بل إن جيب أحضر معه بندقيته أيضاً كأن هذا الرمز يمكن أن يجعل الأمر أكثر رسمية!

أعادت لي رائحة الكبريت ذكرى الأيام المؤلمة، أيام حدادي. ثمة ذكريات لن أندم على فقدانها عندما أذهب.

سألت الطبيب مستعجلة عندما جلسوا، قبل أن يتمكنوا من البدء: «كيف هي الآن؟». كانت هذه المحكمة مضيعة للوقت، للوقت القليل الباقي عندي. إنني مشغولة البال بأشياء أكثر أهمية.

سألني الطبيب بصوت متعب: «أي واحدة؟».

حدقت فيه ثواني قليلة ثم اتسعت عيناي دهشة: «هل ذهبت ساني. منذ الآن؟».

«رأى كَايل أن من القسوة تركها تعاني زمناً أطول. لقد كانت. تعيسة».

تمتمت في نفسي: «ليتني تمكنت من وداعها. ليتني تمكنت أن أتمنى لها حظاً طيباً». رفعت صوتي: «وكيف هي جودي؟».

«لم تستجب حتى الآن».

«وماذا عن جسد المعالجة؟».

«لقد أخذتها ترودي. أظن أنهما ذهبتا لتناول شيء من الطعام. وهما تعملان الآن للعثور على اسم مؤقت يعجبها حتى نستطيع أن نناديها باسم بدلاً من مناداتها باسم. الجسد». قال هذا وابتسم مرهقاً.

قلت، محاولة تصديق كلماتي: «سوف تكون بخير. أنا واثقة من هذا. وجودي أيضاً. سوف تكون بخير وسوف ينجح الأمر».

لم يعلق أحد على كذبي. كانوا يعرفون أنني أقول هذه الأشياء لنفسي.

تنهد الطبيب: «لا أريد الابتعاد عن جودي زمناً طويلاً. قد تحتاج إلى شيء».

قلت موافقة: «صحيح. فلننته من هذا الأمر». كلما أسرعنا كان الوضع أفضل. لا أهمية لما يقال هنا؛ لقد وافق الطبيب على شروطي. لكن ثمة جزءاً أحمق مني ظل متمسكاً بالأمل. الأمل في العثور على حل يجعل كل شيء في أحسن حال ويتركني أظل هنا مع إيان وميلاني وجارد على نحو لا يحمل معاناة لأحد منا. من الأفضل أن يتحطم هذا الأمل المستحيل سريعاً.

قال جيب: «لا بأس. جو. ماذا تقولين؟».

«سوف أعيد ميلاني». هكذا. جملة حاسمة قصيرة. من غير تقديم أسباب يستطيعون مجادلتي فيها.

«إيان، ماذا تقول؟».

«إننا في حاجة إلى جو هنا».

جملة حاسمة قصيرة. إنه يقلّدني.

هز جيب رأسه: «هذا وضع شائك. جو، ما الذي يجعلني أتفق معك؟».

«لو كنتَ مكانها، لأردت استعادة جسدك. لا تستطيع إنكار هذا الأمر على ميلاني».

قال جيب: «إيان؟».

«علينا أن ننظر إلى المصلحة العامة يا جيب. لقد حققت جو لنا حتى الآن صحة وأماناً لم نحظ بهما من قبل. إنها شديدة الأهمية لبقاء هذه الجماعة. بل هي مهمة للبشر جميعاً. لا يحق لشخص واحد أن يقف في مواجهة هذا».

قالت ميلاني: «إنه على حق».

«لم يطلب أحد رأيك».

تحدث جارد: «جو، ماذا تقول ميلاني؟».

قالت ميلاني: «هاه... جاء دوري».

حدقت في عيني جارد فحدث شيء في غاية الغرابة. اختفى كل ذلك الذوبان الذي عشته مع إيان قبل قليل. اختفى في جزء صغير جداً مني. في الزاوية الصغيرة التي أتمتع بسيطرة جسدية عليها. أما بقيتي، فكانت تتوق إلى جارد بذلك الحنين اليائس نفسه. بذلك الجوع نصف المجنون الذي أحسسته منذ أن رأيته هنا أول مرة. لا يكاد هذا الجسد يخصني، أو يخص ميلاني. إنه يخص جارد.

الأمر حقيقي. لا مكان لنا نحن الاثنتين هنا!

«إن ميلاني تريد استعادة جسدها. وهي تريد استعادة حياتها أيضاً».

«كاذبة. قولي لهم الحقيقة».

«لا».

قال إيان: «كاذبة. أستطيع رؤيتها تجادلك الآن. أراهن أنها متفقة معي. إنها إنسانة طيبة. وهي تعرف مقدار حاجتنا إليك»

«تعرف ميلاني كل ما أعرفه أنا. وسوف تكون قادرة على مساعدتكم مثلي. كما أن المعالجة قادرة على مساعدتكم أيضاً فهي تعرف أكثر مما أعرف. سوف تكونون في أحسن حال. كنتم بخير قبل مجيئي. وسوف تستمرون. كما كان الأمر من قبل».

نفخ جيب عابساً: «لست أدري يا جو. إن رأي إيان وجيه».

حدقت غاضبة في الرجل العجوز فرأيت جارد يفعل مثلي. أشحت بوجهي لألقي نظرة قاتمة صوب الطبيب.

لاقت عيناه عيني فتقلص وجهه ألماً. لقد فهم ما أذكّره به. لقد وعدني. لا تستطيع هذه المحاكمة تغيير تعهده.

كان إيان يراقب جارد. لم ير تبادل النظرات بيني وبين الطبيب.

قال جارد محتجاً: «جيب! ثمة قرار واحد هنا وأنت تعرف هذا».

«هل الأمر هكذا يا فتى؟ يبدو لي أن ثمة قرارات كثيرة».

«لكنه جسد ميلاني!».

«وهو جسد جو أيضاً».

اختنقت الكلمات في حنجرة جارد فكان عليه أن يبدأ من جديد: «لا نستطيع ترك ميلاني محبوسة هناك. هذه جريمة قتل يا جيب».

مال إيان إلى الأمام. داخل الضوء. صار وجهه غاضباً من جديد: «وما الذي تفعله بجو في هذه الحالة يا جارد؟ ماذا تراك فاعلاً ببقيتنا. إذا أخرجتها؟».

«أعرف أنك لا تبالي بأحد غير نفسك! أنت لا تريد إلا المحافظة على جو على حساب ميلاني. لا يهمك شيء غير هذا».

«وأنت تريد استعادة ميلاني على حساب جو. لا يهمك غير هذا! إذاً، مع تساوي بقية العوامل. يكون العنصر الحاسم هو الصالح العام».

«لا! العنصر الحاسم هو ما تريده ميلاني! هذا جسدها!».

كان الرجلان في وضع بين الجلوس والقيام الآن. تكورت قبضات أيديهما. شوه الغضب وجهيهما.

أمرهما جيب: «هدوءاً يا شباب! اهدأوا الآن. هذه محكمة. وسوف نحافظ على هدوئها، وعلى صفاء عقولنا. علينا التفكير في كل جانب».

بدأ جارد يقول: «جيب. .».

«اسكت». راح جيب يلوك شفتيه بعض الوقت. «لا بأس، هكذا أرى الأمر. جو محقة. .».

هبّ إيان واقفاً.

«مهلك يا إيان! اجلس. دعني أنتهي من كلامي».

انتظر جيب ريثما جلس إيان الذي صارت عروق رقبته متوترة منتفخة.

قال جيب: «جو محقة. إن ميلاني في حاجة إلى استعادة جسدها. لكن. .» أضاف هذا سريعاً لأن إيان توتر من جديد. «لكن، لست أوافق على بقية الكلام يا جو. أظن أننا في حاجة حقيقية إليك يا طفلتي. لدينا باحثون هناك. يبحثون عنا. وأنت قادرة على التحدث معهم. أما نحن فلا نستطيع هذا. لقد أنقذت حياة عدة أشخاص. عليّ أن أفكر في مصلحة بيتي».

قال جارد عبر أسنانه المطبقة: «إذاً. نأتي لها بجسد آخر. هذا واضح».

ارتفع وجه الطبيب الواجم. أما حاجبا جيب الكثيفان فكادا يلمسان شعره. تقلصت عينا إيان وانطبقت شفتاه. راح ينظر إليّ. مفكراً.

هززت رأسي بحدة: «لا! لا!».

سألني جيب: «لم لا يا جو؟ لا تبدو هذه الفكرة سيئة في نظري».

ابتلعت ريقي واستنشقت نفساً عميقاً حتى لا يخرج صوتي هستيرياً: «جيب! أصغ إليّ بانتباه يا جيب. لقد تعبت من كوني طفيلية. هل تفهم هذا؟ أتظنني أريد أن أذهب إلى جسد آخر وأن يبدأ هذا كله من جديد؟

أيكون عليّ أن أشعر بالذنب إلى الأبد لأنني أخذت الحياة من شخص ما؟ هل عليّ دائماً أن أكون موضع كراهية أحد الأشخاص؟ بل إنني لم أعد روحاً تقريباً... إنني أحب عالمكم البشري العنيف حباً شديداً. إن وجودي هنا غير صحيح... وأنا أكره هذا الإحساس».

استنشقت نفساً آخر وتابعت الحديث عبر دموعي المتساقطة: «ثم ماذا لو تغيرت الأمور؟ ماذا لو وضعتموني في جسد شخص آخر. لو سرقتم من أجلي حياة أخرى. ثم لم ينجح الأمر؟ ماذا لو شدني ذلك الجسد الجديد خلف حب آخر... ماذا لو شدني فأعادني إلى الأرواح؟ ماذا لو صرتم عاجزين عن الثقة بي بعد ذلك؟ ماذا لو خنتكم في اليوم التالي؟ لا أريد إيذاءكم!».

كان القسم الأول من كلامي حقيقة صافية لا تشوبها شائبة، لكنني كنت كاذبة تماماً في القسم الثاني. لعلهم لا يسمعون الكذب في صوتي. ربما يساعدني اختلاط كلماتي. ودموعي التي تحولت إلى نشيج مرتفع. لن أؤذيهم أبداً... مهما حدث. إن التحول الذي أصابني هنا تحول دائم... إنه جزء من كل ذرة من ذرات جسدي الصغير. لكن ربما، إذا أعطيتهم سبباً يجعلهم يخشونني، فقد يقبلون ما يجب أن يكون.

لقد نجحت أكاذيبي هذه المرة. رأيت نظرة قلق يتبادلها جارد وجيب. لم يفكرا في هذا من قبل... لم يفكرا في احتمال تحوّلي إلى شخص غير موثوق... تحوّلي إلى خطر. أما إيان فقد مال صوبي واحتضنني بذراعيه. جفف دموعي على صدره.

«لا بأس يا حبيبتي. لست مضطرة لأن تكوني شخصاً آخر. لن يتغير شيء».

قال جيب وقد غدت عيناه الذكيتان أكثر حدة على نحو مفاجئ: «انتظري يا جو. كيف يمكن أن يساعدك الذهاب إلى أي كوكب آخر؟ سوف تظلين طفيلية هناك يا طفلتي».

انزعج إيان من استخدام جيب لتلك الكلمة.

انزعجت أنا أيضاً لأن جيب كان فطناً حقاً. . . كعهده دائماً.

انتظر الجميع إجابتي، لكن الطبيب، الذي كان يعرف الإجابة الحقيقية، ما كان ينتظر شيئاً. ما كان ينتظر سماع تلك الإجابة التي لن أبوح بها.

حاولت أن أقول أشياء صحيحة فقط: «الأمر مختلف على الكواكب الأخرى يا جيب. ما من مقاومة هناك. كما أن المضيفين أنفسهم مختلفون عنكم. ليست لديهم الصفة الشخصية الفردية كما هو الحال عند البشر. . كما أن عواطفهم أكثر اعتدالاً بكثير. لا يبدو الأمر هناك سرقة لحياتهم. لا يبدو هناك كما يبدو هنا. لن يكرهني أحد. وسوف أكون بعيدة بعداً لا يسمح لي بإيذائكم. سوف تكونون في أمان أكبر. . .».

أحسست أن الكذب صار شديد الوضوح في الجزء الأخير من كلامي، فجعلت صوتي يكف عن هذا الكذب.

نظر جيب إليّ عبر عينيه المتفكرتين فأشحت بوجهي مبتعدة عن نظراته.

حاولت عدم النظر إلى الطبيب، لكني لم أستطع الامتناع عن التفاتة صغيرة لأتأكد من أنه يفهمني. تعلقت عيناه بعيني. . . كان البؤس واضحاً في عينيه. . . أدركت أنه يفهمني.

خفضت بصري سريعاً عندما رأيت جارد يحدّق في الطبيب. هل رأى هذا التواصل الصامت بيننا؟

تنهد جيب: «إنها مسألة. . . صعبة». كشّر وجهه كله عندما راح يمعن التفكير في هذه المعضلة.

قال إيان وجارد معاً: «جيب. . .» لكنهما سكتا وراح كل واحد يتفرس في الآخر حانقاً.

كان هذا كله مضيعة للوقت. . . وما كان عندي إلا ساعات قليلة. ساعات قليلة فقط. إنني واثقة من هذا الآن.

قلت بصوت ناعم: «جيب». كان صوتي غير مسموع تقريباً بسبب خرير الجدول في ذلك الكهف، لكنهم استداروا جميعاً صوبي. «لست مضطراً إلى اتخاذ القرار الآن. في هذه اللحظة. إن الطبيب يريد الذهاب لتفقد جودي، وأنا أريد رؤيتها أيضاً. ثم إنني لم أتناول طعاماً طوال هذا اليوم. لماذا لا نؤجل الأمر إلى الغد؟ نستطيع استئناف كلامنا من جديد. لدينا وقت طويل للتفكير».

أكاذيب. هل أحسوا بها؟

«هذه فكرة جيدة يا جو. أظن أننا في حاجة إلى استراحة. كلنا. اذهبي وكلي. وسوف نستأنف نقاشنا في الصباح».

حرصت حرصاً شديداً على عدم النظر إلى الطبيب الآن، رغم أنني تحدثت إليه: «سوف أذهب إليك لمساعدتك على العناية بجودي بعد أن أتناول طعامي. أراك هناك يا دكتور».

قال الطبيب بصوت جاف: «لا بأس».

لماذا لا يستطيع الطبيب إبقاء نبرة صوته عادية؟ إنه بشري. يجب أن يكون كاذباً ماهراً.

تمتم إيان: «هل أنت جائعة؟».

أومأت برأسي وتركته يساعدني على النهوض. ظل ممسكاً بيدي. عرفت أنه سيحرص الآن على الإمساك بي دائماً. لكن هذا لم يقلقني فهو ينام نوماً شديد العمق. مثل جيمي.

عند خروجنا من الغرفة المظلمة أحسست بعينين تنغرزان في ظهري. ما كنت أعرف صاحب هذين العينين على وجه التحديد.

ما زال لدي بضعة أشياء أنجزها. ثلاثة أشياء على وجه التحديد. ثلاث مهام أخيرة عليّ القيام بها.

أولاً يجب أن آكل.

لن يكون تصرفاً لطيفاً مني أن أترك جسد ميلاني وهو يعاني الجوع. ثم إن الطعام صار أفضل حالاً هنا منذ صرت أذهب إلى الغارات. صار

الطعام شيئاً ينتظره المرء بدلاً من كونه ضرورة لا بد للمرء من تحمّلها!

جعلت إيان يجلب الطعام لي في مخبئي بين سيقان القمح القصيرة التي حلت محل محصول الذرة. أخبرته بالحقيقة حتى أجعله يساعدني: إنني أتجنب جيمي! ما كنت أريد إخافة جيمي بهذا القرار. سيكون الأمر أصعب وقعاً عليه مما هو بالنسبة لجارد أو إيان. يتعامل كل منهما مع جزء مني فحسب، أما جيمي فيحبني كلني. يحبنا معاً. وسوف يتمزق بين الاثنتين.

لم يجادلني إيان. أكلنا صامتين. كانت ذراعه ملفوفة بإحكام حول خصري.

ثانياً، عليّ الذهاب لرؤية ساني وجودي.

توقعت رؤية ثلاث حاويات ملأى على طاولة الطبيب. لكني فوجئت عندما لم أر إلا حاويتي المعالجين فوق تلك الطاولة. رأيت الطبيب وكَايل منحنيين فوق السرير الذي تستلقي عليه جودي غائبة عن الوعي. سرت مسرعة صوبهما. أوشكت أن أسألهما عن ساني، لكني عندما اقتربت، رأيت حاوية ملأى يحضنها كَايل تحت ذراعه.

همست: «عليك أن تكون حريصاً على الحاوية!».

رأيت الطبيب يلمس معصم جودي. يعدّ نبضاتها. شد على شفتيه عندما سمع صوتي. كان عليه أن يبدأ العد من جديد.

قال كَايل من دون أن تفارق نظارته وجه جودي: «أعرف. أخبرني الطبيب بهذا». رأيت كدمتين متماثلتين تحت عينيه. هل كسر أنفه من جديد؟ «إنني حريص عليها. لكني. لا أريد تركها وحيدة هناك. لقد كانت شديدة الحزن. شديدة اللطف والعذوبة».

«ستكون شاكرة لك على هذا الصنيع، إذا علمت به».

أومأ برأسه وهو يواصل تحديقه في جودي: «هل ثمة ما يفترض أن أفعله من أجلها الآن؟ هل من طريقة لمساعدتها؟».

«تحدث معها. قل اسمها. تحدث عن أشياء يمكنها أن

تذكرها. حدثها عن ساني أيضاً. لقد كان هذا مفيداً مع جسد المعالجة».

صحح الطبيب قولي: «اسمها ماندي. تقول إنه ليس كذلك تماماً، لكنه قريب من هذا الاسم!».

كررت الاسم من بعده. لا حاجة بي إلى تذكر هذا الاسم: «ماندي. أين هي الآن؟».

«إنها مع ترودي. وهذا أمر مناسب حقاً. ترودي هي الشخص الصحيح لهذه المهمة. أظن أنها أخذتها لتنام قليلاً».

«جيد. سوف تكون ماندي بخير».

ابتسم الطبيب من غير أن يفارق الحزن وجهه: «آمل هذا. لدي أسئلة كثيرة أطرحها عليها».

نظرت إلى المرأة الضئيلة. ما زلت غير قادرة على تصديق أنها أكبر سناً من الجسد الذي أشغله الآن. كان وجهها مسترخياً خالياً من أي تعبير. أخافني هذا بعض الشيء. كانت شديدة الحيوية أثناء وجود ساندي فيها. هل ستمكن ميلاني من العودة؟

«إنني هنا».

«أعرف! ستكونين بخير».

«مثل ليسي». نفرت ميلاني من هذه الفكرة، كما نفرت أنا.

«لن تكوني مثل ليسي أبداً».

لمست ذراع جودي برقة. إنها شديدة الشبه بليسي من أوجه كثيرة. جلد زيتوني اللون وشعر أسود وجسد صغير. يمكن أن تكونا شقيقتين لولا أن وجه جودي العذب اللطيف لا يمكن أبداً أن يبدو منفراً مثلما تبدو ليسي.

كان كَايل منعقد اللسان. ممسكاً بيدها.

قلت له: «افعل مثلي يا كَايل».

مسّدت ذراعها من جديد: «جودي! جودي. هل تستطيعين سماعي؟ كَايل ينتظرك يا جودي. لقد خاض متاعب كثيرة حتى يأتي بك

إلى هنا. كل من يعرفه يريد أن يضربه ضرباً مبرحاً بسبب ذلك».

ابتسمت قلقة. نظرت إلى الرجل الضخم فرأيت زاويتي شفتيه ترتفعان إلى الأعلى مبتسمتين لكنه لم يرفع رأسه لأرى ابتسامته كلها.

قال إيان: «لا أظن الدهشة تصيبك لسماع هذا الكلام. فمتى لم يكن الأمر هكذا يا جودي؟ لطيف أن أراك من جديد يا عزيزتي. لكني لا أعرف إن كان هذا هو شعورك أيضاً. لا بد أن غيابك كان استراحة لطيفة من وجود هذا الأحمق معك».

لم يكن كَايل قد لاحظ وجود أخيه قبل أن يتكلم. لم يكن قد لاحظه متعلقاً بذراعي.

«أنت تذكرين إيان. طبعاً. لم ينجح أبداً في مضاهاتي في أي شيء. لكنه يواصل المحاولة. مرحباً يا إيان».

تابع كَايل يقول من دون أن يرفع رأسه: «أتريد أن تقول لي شيئاً يا إيان؟».

«لا».

«إني أنتظر اعتذاراً منك».

«فلتبق منتظراً».

«أتصدقين أنه رفسني في وجهي يا جودي؟ من غير سبب على الإطلاق».

«ومن يحتاج إلى سبب لضرب كَايل. يا جودي؟».

كان هذا شيئاً لطيفاً على نحو غريب. هذا الهذر بين الشقيقين. جعل وجود جودي شجارهما اللفظي هذا خفيفاً. لطيفاً. طريفاً. لو كنت مكانها لاستيقظت. لو كنت مكانها لابتسمت في هذه اللحظة.

همست: «تابع المحاولة يا كَايل. هذا هو الأسلوب الصحيح. سوف تستيقظ جودي».

ليتني أستطيع البقاء لمقابلتها، لأرى كيف تكون عندما تستيقظ. لا أستطيع الآن إلا تصور تعبير وجه ساني.

كيف يكون الأمر بالنسبة للجميع هنا عندما أذهب؟ كيف تكون مقابلة ميلاني للمرة الأولى؟ وهل ستبدو في نظرهم كما تبدو الآن. من غير فرق؟ هل سيدركون حقاً أنني ذهبت؟ هل يمكن أن تلعب ميلاني الدور الذي كنت ألعبه؟

ربما يجدونها مختلفة كل الاختلاف. وربما يكونون في حاجة إلى التآلف معها والتعرف عليها من جديد. ربما تنجح في الاندماج معهم على نحو لم أستطع تحقيقه أبداً! تصورتها. كنت كأنني أتصور نفسي. تصورتها محاطة بوجوه صديقة ودودة. تصورتها حاملة ابن هايدي بين ذراعيها وتصورت كل هؤلاء البشر الذين لم يتمكنوا من الثقة بي ينظرون إليها مبتسمين. مرحبين.

لماذا يجعل هذا التصور الدموع تندفع إلى عيني؟ هل كنت شيئاً تافهاً إلى هذا الحد؟

قالت ميلاني تطمئنني: «لا... بل سوف يفتقدونك... سوف يفتقدونك طبعاً. سيشعر الجميع هنا بخسارتك».

أحسست أنها قد تقبّلت قراري. أخيراً.

قالت مصححة: «لم أتقبل القرار. لكنني لا أرى سبيلاً لمنعك من ذلك. وأنا أشعر بمدى دنو الأمر الآن. إنني خائفة أيضاً. أليس هذا غريباً؟ إنني مذعورة تماماً».

«أنا مذعورة أيضاً».

قال كَايل: «جو!».

«ماذا؟»

«إنني آسف».

«آه. لماذا؟».

قال بنبرة عادية: «لأنني حاولت قتلك. أظن أنني كنت مخطئاً».

شهق إيان: «أرجوك يا دكتور، قل لي إن لديك آلة تسجيل هنا».

«آسف يا إيان. لا أملك آلة تسجيل».

هز إيان رأسه: «علينا تسجيل هذه اللحظة. لم أتوقع أبداً أن أعيش حتى أرى كَايل يعترف بغلطة ارتكبها. هيا يا جودي. لا بد أن هذه المفاجأة قادرة على إيقاظك».

ضحك كَايل: «جودي، حبيبتي، ألا تريدين الدفاع عني؟ قولي لإيان إنني لم أفعل شيئاً خاطئاً في حياتي».

كان هذا أمراً لطيفاً. لطيف أن أعرف أنني فزت بقبول كَايل قبل أن أذهب. ما كنت أتوقع هذا كله.

ما عاد عندي شيء أفعله هنا. لا معنى للبقاء. إما أن تعود جودي أو لا تعود، لكن النتيجة لن تغير طريقي الآن.

وهكذا، قمت بالشيء الأخير كذبت.

ابتعدت عن السرير وأخذت نفساً عميقاً ثم مططت ذراعي.

قلت: «إنني متعبة يا إيان».

أهي كذبة حقاً؟ لم يبدُ كلامي كاذباً في مسمعي. لقد كان هذا اليوم. يومي الأخير. طويلاً شاقاً. وقد ظللت مستيقظة طوال الليل. لم أنم منذ عودتي من الغارة الأخيرة. لا بد أنني منهكة تماماً.

هز إيان رأسه: «لا بد أنك مرهقة. هل سهرت طوال الليل مع المعالجة. أقصد. مع ماندي؟».

قلت متثائبة: «نعم».

قال إيان وهو يسير بي صوب المدخل: «ليلة سعيدة يا دكتور. حظاً طيباً يا كَايل. سوف نعود جميعاً في الصباح».

تمتمت: «تصبح على خير يا كَايل. إلى اللقاء يا دكتور».

نظر الطبيب إليّ حانقاً، لكن إيان كان قد استدار فلم ير نظرته. وكان كَايل ينظر إلى جودي. قابلت نظرة الطبيب بنظرة ثابتة.

سار إيان معي عبر النفق الطويل المظلم. لم يقل شيئاً. سرَّني أنه ما كان راغباً في الكلام. ما كنت قادرة على التركيز الآن. كانت معدتي تتقلص وتتقلب. وتتلوى على نحو غريب.

أنجزت مهامي كلها. إنني جاهزة الآن. ليس عليّ إلا الانتظار قليلاً ولا أستسلم للنوم. صحيح أنني في غاية التعب لكني لم أكن خائفة من السقوط في النوم من دون أن أنتبه. كان قلبي ينبض مثل قبضة مشدودة تدق أضلاعي من الداخل.

لا تأجيل بعد الآن. يجب أن يتم الأمر الليلة. كانت ميلاني تعرف هذا أيضاً. بيّن لي ما حدث اليوم مع إيان أن بقائي فترة أطول سوف يسبب مزيداً من الدموع والجدل والشجار. وسوف تزداد فرصة أن يزل لساني، أو لسان غيري، فيكتشف جيمي الحقيقة. فلأترك ميلاني تشرح له الأمر في ما بعد. هذا أفضل.

قالت ميلاني: «أشكرك كثيراً». جاءت كلماتها مندفعة سريعة. كان ذعرها يغطي سخريتها وتهكمها.

تنهدت وقالت: «كيف أرفض لك طلباً؟ سأفعل كل ما تطلبينه مني يا جو!».

«احرصي عليهم واهتمي بهم... من أجلي».

«سأفعل هذا من غير أن تطلبي».

«إيان أيضاً».

«إذا سمح لي... أحس انه لن يحبني كثيراً».

«حتى إذا لم يسمح لك...».

«سأفعل من أجله كل ما أستطيع فعله يا جو... أعدك بهذا».

توقف إيان أمام باب غرفته الأحمر والرمادي. نظر إليّ متسائلاً فأومأت برأسي. فلأدعه يظن أنني ما زلت مختبئة من جيمي. إنها الحقيقة.

فتح إيان الباب الأحمر فدخلت ومضيت مباشرة إلى الفراش الأيمن. تكوّرت على ذلك الفراش وعقدت يدي المرتجفتين فوق قلبي الهادر محاولة إخفاء ذلك كله خلف ركبتي المثنيتين إلى صدري.

تكوّر إيان إلى جانبي واحتضنني إلى صدره. لا بأس بهذا. أعرف

أنه سيستلقي فارداً ذراعيه وساقيه فور إغفائه. لكن الأمر السيئ هو أنه يستطيع الإحساس بارتجافي الآن.

«سينتهي كل شيء على خير يا جو. أعرف أننا سنجد حلاً».

«أحبك حقاً يا إيان». كانت هذه الطريقة الوحيدة التي أستطيع وداعه بها. الطريقة الوحيدة التي يقبلها. أعرف أنه سوف يتذكر هذه العبارة في ما بعد. وسوف يدرك أنها وداعي له. «أحبك بروحي كلها».

«وأنا أحبك أيضاً يا جوالتي».

دس وجهه في وجهي إلى أن عثر على شفتي. راح يقبّلني على نحو بطيء. رقيق. جاء تدفق الصخور المصهورة مندفعة اندفاعاً جباراً في ظلمة قلب الأرض. حتى تباطأ ارتجافي.

«نامي يا جو. نامي حتى الصباح».

أومأت برأسي وتنهدت.

كان إيان متعباً مثلي. ما كان عليّ أن أنتظر وقتاً طويلاً رحت أحدّق في السقف. لقد تحركت النجوم فوق هذه الشقوق. أرى الآن ثلاثاً منها. حيث ما كنت أرى إلا اثنتين من قبل. راقبت هذه النجوم تومض وتنبض في الفضاء الأسود. ما كانت تناديني. ما كانت عندي رغبة في الذهاب إليها.

سقطت ذراعا إيان عني. انقلب على ظهره متمتماً في نومه. لم أجرؤ على الانتظار. كم كنت أريد البقاء! كم أردت أن أسقط نائمة إلى جانبه. أن أسرق لنفسي يوماً آخر!

تحركت بحذر. لكن إيان ما كان ليستيقظ الآن أبداً. لا خطر من هذا! صار تنفسه مستقراً. عميقاً. لن يفتح عينيه حتى الصباح.

مسست جبهته بشفتي ثم نهضت وانزلقت خارجة من الباب.

لم يكن الوقت متأخراً. ما كانت الممرات خالية من الناس. كنت أسمع أصواتهم. أسمع أصداءها الغريبة قادمة من كل مكان. لكني لم أبصر أحداً منهم حتى بلغت الكهف الكبير. رأيت جيفري وهيث وليلي

عائدين من المطبخ. أبقيت عيني مسبلتين إلى الأرض رغم فرحي برؤية ليلي. سمحت لنفسي بنظرة سريعة فقط فرأيتها واقفة هناك منتصبة الكتفين. إنها قوية صلبة. مثل ميلاني. سوف تجتاز محنتها أيضاً.

أسرعت صوب الممر الجنوبي وأحسست بالراحة عندما صرت في أمان ظلمته، أحسست بالراحة والذعر معاً. نعم، لقد انتهى الأمر الآن.

همست لميلاني: «إنني خائفة كثيراً».

قبل أن تفلح ميلاني في الإجابة، أحسست بيد ثقيلة تهبط على كتفي في تلك العتمة.

«أين تذهبين؟»

## الفصل الثامن والخمسون

# نهاية

كنت متوترة مشدودة الأعصاب إلى حد جعلني أصرخ ذعراً عندما أحسست بتلك اليد. لكن خوفي بلغ درجة جعلت صرختي تخرج من فمي صوتاً ضئيلاً.

أحاطت ذراع جارد بكتفيّ، محاولاً تهدئتي: «آسف! إنني آسف. لم أقصد إخافتك».

سألته. ما زلت مبهورة الأنفاس: «ماذا تفعل هنا؟».

«ألاحقك. إنني أتبعك طوال الليل».

«لا بأس، توقف عن متابعتي الآن».

كان في الظلام تردد، لكن ذراعه لم تتحرك من حولي. تملّصت منها، لكنه أمسك بمعصمي. كانت قبضة يده ثابتة قوية. لن أتمكن من الإفلات بسهولة.

سألني: «أأنت ذاهبة لرؤية الطبيب؟». ما كان في هذا السؤال أي التباس. كان واضحاً أنه لا يتحدث عن مجرد زيارة اجتماعية.

«طبعاً، إنني ذاهبة إليه». همست هذه الكلمات همساً حتى لا يتمكن من سماع رعبي في صوتي. «وما عساني أستطيع أن أفعل غير هذا بعد اليوم؟ لن يتحسن الوضع إطلاقاً. ليس هذا قراراً يتخذه جيب».

«أعرف! إنني في صفك».

غضبتُ عندما اكتشفت أن هذه الكلمات ما زالت قادرة على

إيلامي. على جعل الدموع تحرق عينيّ من جديد. حاولت التمسك بصورة إيان. إنه مرساتي، كما هو كَايل بالنسبة إلى ساني. لكن هذا كان صعباً مع وجود يد جارد. تلمسني. مع وجود رائحته في أنفي. كان هذا يشبه محاولة أداء أغنية بكمان وحيد في حين تعزف بقية الفرقة أغنية أخرى.

«إذاً، دعني أذهب يا جارد. اذهب عني. أريد أن أكون وحدي».

خرجت الكلمات حادة سريعة قاسية. كان من السهل إدراك أنها ليست أكاذيب.

«عليّ الذهاب معك».

قلت بحدة: «سوف تعود ميلاني إليك سريعاً. لست أطلب منك إلا دقائق قليلة يا جارد. ألا تعطيني هذا؟».

ساد صمت قصير. لم يخفف قبضة يده.

«جو، أريد المجيء حتى أكون معك».

انسابت دموعي. كنت شاكرة للظلمة التي سترتها.

همست: «لن أحس أنك معي أنا. لا فائدة من المحاولة» من الطبيعي أنني ما كنت قادرة على السماح بوجود جارد هناك. لا أستطيع الثقة إلا بالطبيب. لم يقطع لي أحد وعداً إلا الطبيب. أنا لن أغادر هذا الكوكب. لن أذهب لأكون دلفيناً أو زهرة. لا أريد أن أتحسر أبد الدهر على الحب الذي تركته خلفي. على من أحببتهم. على من سيكون الموت قد طواهم قبل أن أفتح عينيّ من جديد. إن كانت لي عينان. هذا هو كوكبي. لن يستطيعوا جعلي أغادر هذا الكوكب. أريد البقاء هنا في التراب، في الحفرة المظلمة مع أصدقائي. أريد قبراً بشرياً يضم هذه الإنسانة التي صرتها.

«لكن يا جو، إنني. ثمة أشياء كثيرة أريد قولها لك».

«لا أريد شكرك ولا عرفانك يا جارد. صدقني!».

همس جارد بصوت متوتر مختنق: «فماذا تريدين إذاً؟ سأعطيك أي شيء».

«أريدك أن تهتم بعائلتي. لا تسمح للآخرين بقتلهم».

«سوف أعتني بهم طبعاً. لكنني أقصدك أنت. ما الذي أستطيع تقديمه لك؟».

«لا أستطيع أن آخذ شيئاً معي يا جارد».

«ولا حتى ذكرى يا جو؟ ماذا تريدين؟».

مسحت دموعي بيدي الحرة لكن دموعاً غيرها حلّت محلها سريعاً.

لا، لا أستطيع أن آخذ معي حتى الذكريات.

قال ملحّاً: «ماذا أستطيع إعطاءك يا جو؟».

استنشقت نفساً عميقاً وحاولت المحافظة على استقرار صوتي: «أعطني كذبة يا جارد. قل لي إنك تريد بقائي».

ما كان لديه أي تردد هذه المرة. التفّت ذراعاه حولي في الظلام. شدتاني إلى أمان صدره. ضغط بشفتيه على جبهتي. أحسست بأنفاسه تبعثر خصلة من شعري عندما تكلم.

كانت ميلاني حابسة أنفاسها في رأسي. كانت تحاول دفن نفسها من جديد. تحاول منحي حريتي في هذه الدقائق الأخيرة. لعلها كانت خائفة من الاستماع إلى هذه الأكاذيب. إنها لا تريد الاحتفاظ بهذه الذكرى بعد ذهابي.

«ابقي هنا يا جو. معنا. معي. لا أريد أن تذهبي. أرجوك. لا أستطيع تخيل ذهابك. لا أستطيع رؤية هذا. لا أعرف كيف. كيف. .» تقطّع صوته.

إنه كاذب شديد المهارة! ثم. لا بد أنه شديد الثقة بثبات قراري حتى يجرؤ على قول هذه الكلمات.

استرحت فوق صدره لحظات، لكني أحسست بالزمن يشدني بعيداً عنه. لقد انتهى زمني. انتهى زمني.

همست: «شكراً لك». ثم حاولت تحرير نفسي.

اشتد ساعداه من حولي: «لم أنته بعد».

كانت سنتمترات قليلة تفصل بين وجهينا. اجتاز هذه المسافة سريعاً. حتى في هذه اللحظة. على مشارف لحظاتي الأخيرة في هذا الكوكب. لم أستطع عدم الاستجابة. بنزين، ونار عارية. انفجرنا معاً من جديد.

لكن الأمر ما كان كما كان من قبل. استطعت أن أشعر بهذا. إنه يقبّلني أنا هذه المرة. لقد همس باسمي عندما احتضنني. عندما احتضن هذا الجسد. كان، في هذه اللحظة، يعتبر هذا الجسد جسدي أنا. يعتبرنا شيئاً واحداً. استطعت أن أشعر بهذا الفرق. وللحظة واحدة ما كان في العالم أحد غيرنا نحن الاثنين، الجوالة وجارد، يحترقان معاً.

ما كان أحد قادراً على الكذب كما كذب جارد بجسده في دقائقي الأخيرة هذه. وهذا ما كنت ممتنة له. ما كنت قادرة على أخذ هذه الذكرى معي لأنني ما كنت ذاهبة إلى أي مكان. لكن هذا خفف شيئاً من ألم ذهابي. استطعت تصديق هذه الكذبة. استطعت تصديق أنه سيفتقدني كثيراً. إلى حد قد يلقي ظلاً على فرحته. ما كان يجوز لي أن أرغب في هذا، لكني شعرت بالراحة لتصديقه على أي حال.

ما عدت أستطيع تجاهل الزمن. كانت الثواني تمر تباعاً مثل ساعة توقيت. حتى عندما كنت داخل النار، كنت أستطيع الإحساس بالثواني تشدني. تسحبني عبر ذلك الممر المظلم. تأخذني بعيداً. بعيداً عن هذه الحرارة وعن هذه المشاعر.

أفلحت في إبعاد شفتيَّ عن شفتيه. لهث جارد في الظلام. كانت أنفاس كل منا حارة على وجه الآخر.

قلت مجدداً: «شكراً».

«انتظري. . .».

«لا أستطيع الانتظار. لا أستطيع. الاحتمال أكثر من هذا».

همس: «لا بأس».

«أريد شيئاً واحداً فحسب. دعني أفعل هذا وحدي. من فضلك!».

«إذا. إذا كنت واثقة من أنك تريدين هذا. .» توقف جارد عن الكلام. غير واثق.

«هذا ما أريده يا جارد».

قال بصوت أجش: «إذاً. سأبقى هنا».

«سوف أرسل الطبيب لإحضارك عندما ينتهي الأمر».

ما زالت ذراعاه تطوقان خصري بإحكام.

«تعرفين أن إيان سيحاول قتلي لأنني سمحت لك بفعل هذا! لعل عليّ أن أدعه يقتلني! وجيمي أيضاً. لن يسامح أياً منا».

«لا أستطيع الآن التفكير في أي منهما. أرجوك. دعني أذهب».

وبحركة بطيئة، بتردد واضح أشاع شيئاً من الدفء في ذلك الخواء البارد في قلب جسدي، ترك جارد ذراعيه تنزلقان مبتعدتين عني.

«أحبك يا جو».

تنهدت: «أشكرك يا جارد. أنت تعرف كم أحبك. من كل قلبي».

قلب وروح. ليسا شيئاً واحداً في حالتي أنا. لقد مر على انقسامي زمن طويل. حان وقت الحصول على شيء واحد كامل من جديد. الحصول على شخص واحد متكامل. حتى إن كان معنى هذا هو استبعادي.

كانت الثواني المتلاحقة تشدني صوب النهاية. أحسست بالبرد عندما كف عن احتضاني. ازدادت البرودة مع كل خطوة خطوتها مبتعدة عنه.

إنها مخيلتي فحسب. ما زال الوقت صيفاً هنا. سيكون صيفاً على الدوام بالنسبة لي.

همست: «ماذا يحدث هنا عندما تمطر يا جارد؟ أين ينام الناس؟».

ظل دقيقة قبل أن يجيبني. أحسست بالدموع في صوته: «إننا. .» ابتلع ريقه. «إننا ننتقل كلنا إلى صالة الألعاب. ينام الجميع هناك. معاً».

هززت رأسي. كيف يكون الجو آنذاك؟ لا بد أنه يكون غريباً مع كل تلك الشخصيات المختلفة المتضاربة أم لعل الأمر طريف! لعله تغيير! شيء يشبه حفلة في الهواء الطلق.

همس جارد: «لماذا تسألين؟».

«أريد فقط أن. أتخيل. أريد أن أتخيل كيف يكون الأمر» سوف تستمر الحياة، وسوف يستمر الحب. حتى إن كان هذا الاستمرار من دوني. أفرحتني هذه الفكرة. «وداعاً يا جارد. ميلاني تقول لك إنها ستراك قريباً».

قالت ميلاني: «أنت كاذبة».

«انتظري. يا جو. .».

أسرعت مبتعدة عبر النفق، مبتعدة عن أي احتمال لأن تقنعني أكاذيبه اللطيفة بالبقاء، بعدم الذهاب. ما كان من خلفي غير الصمت.

لم يجرحني ألمه كما جرحني ألم إيان. فبالنسبة لجارد، سرعان ما يزول هذا الألم. ما كانت الفرحة تبعد عنه إلا دقائق معدودة. إنها النهاية السعيدة.

أحسست أن طول النفق الجنوبي صار أمتاراً قليلة فحسب. استطعت رؤية المصباح الساطع مضيئاً أمامي. عرفت أن الطبيب ينتظرني.

دخلت الغرفة التي طالما أخافتني. لكني دخلتها بكتفين منتصبتين. كان الطبيب قد حضر كل شيء. وفي الزاوية البعيدة، رأيت سريرين متجاورين. كان كَايل يشخر نائماً على واحد منهما، لكن ذراعه كانت تطوق جسد جودي الساكن. أما ذراعه الأخرى فما زالت محتضنة حاوية ساني. لو كانت تعي ذلك لأفرحها. ليت عندي طريقة لإخبارها.

همست: «مرحباً يا دكتور».

رفع الطبيب أنظاره عن الطاولة التي كان يجهز الأدوية فوقها. كانت الدموع موشكة على الانهمار من عينيه. وفجأة. صرت شجاعة. تباطأ نبض قلبي إلى معدله الطبيعي. استرخت أنفاسي وصارت أكثر عمقاً. لقد اجتزت الجزء الأكثر صعوبة.

لقد فعلت هذا من قبل. فعلته مرات كثيرة. لقد أغمضت عينيّ ورحلت بعيداً أكثر من مرة. كنت أعرف دائماً أن عينين جديدتين ستفتحان على النور. لكن، مع ذلك. هذا أمر مألوف عندي. لا شيء يخيفني الآن.

مضيت إلى طاولة العمليات وقفزت فجلست عليها. مددت يدي صوب الدواء المسكن وفتحت غطاء العلبة بكفّين ثابتتين. وضعت المربع الصغير على لساني. تركته يذوب عليه.

لم ألحظ أي تغيير. لست متألمة الآن. لست أعاني أي ألم جسدي.

«قل لي شيئاً يا دكتور. ما هو اسمك الحقيقي؟».

أردت الحصول على إجابات كل الألغاز الصغيرة قبل أن تأتي النهاية.

نشق الطبيب بأنفه ومسح أسفل عينيه بظاهر يده.

«اسمي أوستاس. هذا اسم عائلتي. لقد كان أهلي أشخاصاً قساة القلوب».

ضحكت. ثم تنهدت: «إن جارد ينتظر هناك في الكهف الكبير. وعدته بأن أطلب منك الذهاب إليه عندما ينتهي الأمر. انتظر فقط. ريثما. ريثما. أتوقف عن الحركة. هل فهمتني؟ سيكون الوقت قد فات لأن يفعل جارد أي شيء في ما يخص قراري».

«لا أريد أن أفعل هذا يا جو».

«أعرف يا دكتور. أشكرك على هذا. لكنني أطلب منك أن تفي بوعدك».

«أرجوك!».

«لا  لقد وعدتني. وقد نفّذت نصيبي من الاتفاق. أليس كذلك؟».

«نعم.  لقد فعلت ذلك».

«إذاً، نفّذ ما يخصك. دعني أبقى مع ويس وولتر».

تغضّن وجهه عندما حاول كتم بكائه.

«هل.  ستتألمين؟».

قلت كاذبة: «لا يا دكتور. لن أشعر بشيء».

انتظرت قدوم شعور الانفراج والفرحة التي يخلقها الدواء المسكن. انتظرت أن يجعل الدواء كل شيء متألقاً كما حصل في المرة الماضية. لكني لم ألاحظ أي فرق.

لا بد أن هذا لم يكن أثر الدواء المسكن على الإطلاق.  كان هذا لأنني شعرت بحب أصدقائي. تنهدت من جديد.

تمددت على طاولة العمليات منبطحة على بطني. أدرت وجهي صوب الطبيب.

«خدّرني يا دكتور».

انفتحت الزجاجة. سمعته يهزها ويصبّ شيئاً منها على قطعة قماش في يده.

«أنت أكثر من عرفتهم نبلاً ونقاءً. وسوف يكون هذا الكون أكثر ظلاماً من دونك». همس الطبيب يودعني.

كانت هذه كلماته عند قبري.  تأبينه لي.  أسعدني أن أتمكن من سماع هذه الكلمات قبل موعدها.

«شكراً لك يا جو... يا أختي. لن انساك أبداً».

«كوني سعيدة يا ميلاني، استمتعي بحياتك كلها. تذوقي لذة الحياة من اجلي».

قالت تعدني: «سافعل هذا».

قلنا بصوت واحد: «وداعاً».

وضع الطبيب قطعة القماش برفق على وجهي. شممتها بعمق متجاهلة تلك النكهة الكثيفة المزعجة. ومع النفس الثاني رأيت تلك النجوم الثلاثة من جديد. ما كانت النجوم تناديني. كانت تتركني أذهب. تودعني. تتركني أمضي صوب الكون الأسود الذي تجولت فيه مرات كثيرة. حياة بعد حياة. انجرفت إلى تلك الظلمة، لكنها غدت أكثر نوراً، ثم أكثر نوراً. ما كانت سوداء على الإطلاق. كانت زرقاء دافئة متألقة حية. اندفعت فيها من غير خوف على الإطلاق.

## الفصل التاسع والخمسون

# ذكرى

يكون الإحساس بالبداية مثل الإحساس بالنهاية.  هكذا أخبروني.

أما في هذه المرة فقد كانت النهاية مفاجأة كبيرة، أكبر من كل مرة. أكبر من أي نهاية أذكرها في تسع مرات عشتها. أكبر من القفز في بئر المصعد، ما كنت أتوقع مزيداً من الذكريات.  مزيداً من الأفكار. ما هذه النهاية الغريبة؟

الشمس مائلة صوب الغروب... الألوان وردية كلها، وهي تجعلني افكر في صديقتي... ماذا يمكن أن يكون اسمها؟ لا بد أن اسمها... تموجات. تموجات وتموجات وتموجات. إنها زهرة جميلة. لكن الأزهار هنا مملة لا حياة فيها. الروائح هي الشيء الأفضل في هذا المكان.

أسمع وقع خطوات من خلفي. هل تتبعني «سائحة الفيوم» من جديد؟ لست أريد سترة فالچو دافئ هنا... أخيراً!... أريد أن أحس الهواء على جلدي. لن أنظر إليها. لعلها تظن أنني لم أسمعها فتعود من حيث أتت. إنها شديدة العناية بي، لكني أكاد أصبح كبيرة الآن. ليس لها أن تكون أماً لي إلى الأبد.

قال صوت لم أعرفه: «عذراً».

استدرت لأنظر إليها لكني لم أعرف وجهها أيضاً. إنها جميلة.

أعادني هذا الوجه في ذاكرتي إلى نفسي من جديد. إنه وجهي! لكني لا أتذكر هذه.

قلت لها: «مرحباً».

ابتسمت لي: «مرحباً. اسمي ميلاني. أنا جديدة في البلدة و... أظن أنني تائهة».

«أوه! أين تريدين الذهاب؟ سوف أصطحبك. إن سيارتنا واقفة هناك...».

«لا، ليس المكان بعيداً. لقد خرجت لأتمشى قليلاً لكنني الآن غير قادرة على العثور على طريق العودة إلى شارع بيكر».

إنها جارة جديدة... هذا لطيف. أحب الأصدقاء الجدد.

قلت لها: «أنت قريبة جداً من ذلك الشارع. اذهبي في هذا الطريق واسلكي المنعطف الثاني إلى اليمين، لكنك تستطيعين أيضاً الذهاب إليه مباشرة عبر هذا الممر الصغير هناك. سوف يوصلك إلى شارعك فوراً».

«هل تريني الطريق؟ إنني آسفة... ما اسمك؟».

«سأصطحبك طبعاً! تعالي معي. اسمي ورقات الوردة المفتوحة على القمر، لكن أسرتي غالباً ما تناديني باسم بيت. من أين أنت يا ميلاني؟».

ضحكت وقالت: «هل تقصدين سان دييغو أم العالم المغنّي يا بيت؟».

ضحكت أيضاً... لقد أحببت ابتسامتها: «هذا أو ذاك... لا فرق. ثمة خفاشان يقيمان في هذا الشارع. إنهما يسكنان البيت الأصفر الذي فيه أشجار السرو».

همست، لكن صوتها تغير، توتر قليلاً: «يجب أن أذهب للسلام عليهما». إنها تنظر إلى الممر ذي الإنارة الخافتة كأنها تتوقع ظهور شيء هناك.

لكن ثمة شيء هناك فعلاً. ثمة شخصان، رجل وفتى. إن الفتى يمرر أصابعه في شعره الأسود الطويل، كأنه متوتر الأعصاب. لعله متوتر لأنه تائه أيضاً. إن عينيه الجميلتين متسعتان... مستثارتان. أما الرجل فهو شديد الهدوء.

جيمي. جارد. قفز قلبي، لكن هذا الإحساس غريب. خاطئ. شيء شديد الصغر يرفرف مثل فراشة.

قالت لي ميلاني: «إنهما صديقاي يا بيت».

«أوه! أوه... مرحباً». مددت يدي إلى الرجل... كان أقربهما.

مد يده... إن قبضة يده شديدة القوة.

شَدَّني إلى الامام، صوب الصبي. لست أفهم هذا. أحس أن هذا غير صحيح... لا أحب هذا الإحساس.

ينبض قلبي بسرعة أكبر... إنني خائفة. لم اخف مثل هذا الخوف من قبل. لا افهم.

ارتفعت يده إلى وجهي فلهثت. استنشقت ذلك الضباب الخفي المتصاعد من يده... غيمة فضية مذاقها مثل التوت البري.

«ماذا...» أردت أن أسأل، لكنني ما عدت قادرة على رؤيتهم الآن. لا ارى اي شيء...

لم أر شيئاً بعد ذلك.

سألني صوت مألوف: «جو! هل تستطيعين سماعي يا جو؟».

ليس هذا اسمي. هل هو اسمي؟ لم تستجب أذناي لهذا الاسم، لكن شيئاً استجاب. أليس اسمي ورقات الوردة المفتوحة على القمر؟ هل هو بيت؟ أهو كذلك؟ لكن هذا لا يبدو صحيحاً أيضاً. تسارع نبض قلبي مردداً أصداء الخوف في ذكرياتي. ملأت رأسي صورة امرأة لها شعر مخطط بالأبيض والأحمر ولها عينان خضراوان حانيتان. أهي أمي؟ لكن. هي ليست أمي. هل هي أمي؟

تردد صوت منخفض من حولي: «جو. عودي يا جو.. اصحي يا جو. لن نتركك تذهبين».

كان صوتاً مألوفاً، لكنه غير مألوف أيضاً. بدا هذا الصوت. مثل صوتي.

أين هي ورقات الوردة المفتوحة على القمر؟ لم أعثر عليها. ليس عندي إلا ألف ذكرى فارغة. منزل ملؤه الصور، لكنه من غير سكان.

قال صوت: «استخدم دواء الإنعاش». لم أعرف هذا الصوت.

أحسست شيئاً يلمس وجهي. مثل لمسة الضباب. أعرف هذه الرائحة. إنها رائحة العنب.

استنشقت نفساً أعمق. صفا ذهني على نحو مفاجئ.

أستطيع الإحساس الآن بأنني مستلقية على ظهري. لكن هذا يبدو خاطئاً أيضاً. أحسست أن جسمي صغير. كأنني تقلصت.

كانت كفّاي أكثر دفئاً من بقية أجزاء جسمي لأن أكفاً كثيرة كانت ممسكة بهما. كانت أكف كبيرة تمسك بيدي. تبتلعهما.

بدت الرائحة غريبة. مثل هواء مكتوم. أذكر هذه الرائحة. لكني واثقة من أنني لم أشمها في حياتي كلها.

لم أر شيئاً إلا لوناً أحمر خفيفاً. هذا باطن جفنيّ. أردت أن أفتح عيني فمضيت أبحث عن العضلات التي تفتح العينين.

«يا جوالة! إننا ننتظرك كلنا يا عزيزتي. افتحي عينيك».

كان هذا الصوت، هذه الأنفاس الحارة عند أذني، شيئاً مألوفاً تماماً. سرى في عروقي إحساس غريب مع سماع هذا الصوت، إحساس لم أشعر به أبداً قبل الآن. جعل هذا الصوت أنفاسي تتوقف. جعل أصابعي ترتجف.

أردت أن أرى وجه صاحب هذا الصوت.

تدفق لون جديد في ذهني. لون راح يناديني من حياة بعيدة. لون أزرق لامع متوهج. كان الكون كله أزرق لامعاً

عرفت اسمي أخيراً. نعم، هذا صحيح. اسمي جوالة. إنني الجوالة. جو. أذكر هذا الآن.

أحسست لمسة رقيقة على وجهي. ضغطاً خفيفاً دافئاً فوق

شفتي. فوق جفني. آه. هذان هما جفناي. أستطيع أن أجعلهما ينفتحان. الآن بعد أن عثرت عليهما.

هدل صوت مستثار: «إنها تستيقظ!».

جيمي. جيمي هنا. نبض قلبي نبضة مرتعشة أخرى.

مرت لحظة قبل أن يصفو نظري. كان اللون الأزرق الذي هاجم عينيّ غير صحيح أيضاً. إنه شديد الشحوب، ليس هو اللون الأزرق الذي أريد.

لمست يد وجهي: «يا جوالة!».

نظرت إلى ذلك الصوت. بدت حركة رأسي فوق رقبتي شديدة الغرابة. لم يكن إحساسي بها كما كان من قبل، لكنه كان الإحساس نفسه أيضاً. هكذا أحس دائماً.

عثرت عيناي الباحثتان على اللون الأزرق الذي أفتش عنه. الزرقة والثلج وظلام الليل.

«إيان! إيان. أين أنا؟». أخافني سماع الصوت الذي خرج من حنجرتي. صوت مرتفع. راقص. صوت مألوف، لكنه ليس صوتي. «من أنا؟».

قال إيان: «أنت هي أنت. وأنت موجودة حيث تنتمين».

حررت إحدى يديّ من كَفٍّ ضخمة ممسكة بها. أردت أن ألمس وجهي لكن يداً لا أعرف صاحبتها امتدت صوبي فتجمدت.

تجمدت تلك اليد فوقي بدورها.

حاولت تحريك يدي من جديد، لأحمي نفسي، لكن اليد الغريبة تحركت من فوقي. بدأت أرتجف، وارتجفت تلك اليد أيضاً.

أوه.

فتحت تلك اليد ثم أغلقتها. رحت أنظر إليها بانتباه.

هل هي يدي؟ هذه اليد الصغيرة؟ إنها يد طفل. باستثناء تلك الأظافر الطويلة الوردية البيضاء ذات الحواف الناعمة المعتنى بها. كان

جلد تلك اليد أشقر اللون فيه شيء من لمعة فضية. وكثير من الشامات الذهبية.

كان هذا المزيج القديم من الذهبي والفضي هو ما جعلني أستعيد تلك الصورة: أرى الآن وجهي منعكساً في مرآة!

جعلتني استعادة تلك الصورة أتشتت بعض الشيء لأنني ما كنت معتادة على تلك المدنية كلها. لكن، في الوقت ذاته، ما كنت أعرف شيئاً غيرها. طاولة زينة صغيرة عليها مختلف الأشياء الرقيقة الناعمة. عليها صف من زجاجات أنيقة تحوي العطور التي أحب. أهي العطور التي أحب؟ أم هي العطور التي تحبها؟ على الطاولة أزهار أيضاً. وعليها مشطان فضيان.

كانت المرآة الكبيرة المستديرة محاطة بإطار من الأزهار المعدنية الكثيفة. كان الوجه الذي رأيته في المرآة مدوراً أيضاً. لم يكن بيضوياً تماماً. إنه وجه صغير. رأيت على جلد ذلك الوجه اللمعة الفضية نفسها التي رأيتها على الجلد. لون فضي مثل ضوء القمر. رأيت أيضاً مجموعة من الشامات الذهبية حول الأنف. ورأيت عينين رماديتين متسعتين. كانت المسحة الفضية فيهما تلوح خافتة من خلف ذلك اللون الهادئ محاطة برموش ذهبية كثيفة. شفتان ورديتان شاحبتان قليلاً ممتلئتان. شبه مدورتين. مثل شفتَيْ طفل. ومن خلف تلك الشفتين رأيت أسناناً صغيرة منتظمة بيضاء. ورأيت غمّازة في ذقن ذلك الوجه. وفي كل مكان. في كل مكان. كانت موجات الشعر الذهبي محيطة بوجهي مثل هالة متألقة. كان شعري ينسكب طويلاً خلف ظهري فيتجاوز حدود ما أراه في المرآة.

وجهي أم وجهها؟

إنه وجه مثالي بالنسبة لزهرة ليلية. شيء يشبه ترجمة دقيقة للزهرة إلى الشكل البشري.

سأل صوتي الجديد المرتفع الحاد: «أين هي؟ أين بيت؟». أخافني

غيابها. لم أر في حياتي كلها مخلوقاً عديم الحول أكثر من هذه الفتاة ـ الطفلة بوجهها القمري وشعرها الشمسي.

قال الطبيب يطمئنني: «إنها هنا. في حاوية جاهزة للرحيل. ظننا أنك قادرة على تحديد المكان الأنسب لحياتها الجديدة».

نظرت في اتجاه صوته. رأيته واقفاً في ضياء الشمس، حاملاً حاوية التبريد بين يديه، فاجتاحتني موجة من ذكريات حياتي السابقة.

همست بذلك الصوت الضئيل الهش: «دكتور! دكتور. لقد وعدتني! لقد أقسمت لي يا أوستاس! لماذا؟ لماذا لم تفِ بوعدك؟».

مسّني انعكاس باهت لألمي وبؤسي. لم يشعر هذا الجسد عذاباً مثل هذا من قبل. انكمشت مبتعدة عن تلك اللسعة.

«لا يملك الإنسان، مهما يكن شريفاً صادقاً، إلا أن يتراجع أمام الخطر».

«الخطر!». قال هذه الكلمة صوت آخر مألوف إلى حد محير.

«أظن أن سكيناً على العنق تعتبر خطراً يا جارد».

«لكنك كنت تعرف أنني لا يمكن أن أستخدمها».

«لم أكن أعرف هذا. لقد كنت مقنعاً إلى حد كبير».

ارتجف جسدي كله: «سكين؟».

تمتم إيان: «ششش. لا بأس الآن». جعلت أنفاسه بعض خصلات صغيرة من شعري تندفع فوق وجهي فأزحتها بيدي. إنها حركة مألوفة. «هل ظننت حقاً أنك قادرة على تركنا بهذه الطريقة يا جو؟». تنهد إيان لكن شكله كان مبتهجاً.

إنه سعيد! جعلتني هذه المعرفة أشعر بتراجع قلقي على نحو مفاجئ. صار القلق أسهل احتمالاً

همست: «قلت لك إنني لا أريد أن أظل طفيلية».

سمعت صوتي القديم يقول آمراً: «دعوني أمرّ!». ثم رأيت وجهي. وجهي الطويل ذا الجلد الذي لوّحته الشمس. ورأيت

الحاجبين المستقيمين فوق تلك العينين اللوزيتين البنيتين. رأيت الوجنتين المرتفعتين. رأيت هذا كله رؤية مباشرة. ما كان انعكاساً أراه في مرآة كما كنت أراه من قبل.

«استمعي إليّ يا جو. أعرف تمام المعرفة أنك لا تريدين هذا. لكننا بشر. ونحن أنانيون. نحن لا نفعل الأشياء الصائبة دائماً. لن نتركك تذهبين. عليك أن تتعاملي مع هذا الواقع».

جعلتني طريقة كلامها. نبرتها وإيقاع كلماتها، لا صوتها نفسه، أستعيد تلك الأحاديث الصامتة كلها. أستعيد الصوت الذي كان في رأسي. صوت أختي.

«ميلاني! ميلاني. هل أنت بخير؟».

ابتسمت ميلاني وانحنت عليّ فاحتضنتني. كانت أكبر حجماً مما أذكر.

«نعم. أنا ميلاني طبعاً. ألم يكن هذا هدفك من تلك الدراما كلها؟ سوف تكونين في أحسن حال أيضاً. لسنا حمقى من هذه الناحية. لم نذهب لنلتقط أول جسد بشري نصادفه».

دس جيمي نفسه إلى جانب ميلاني: «دعوني أخبرها. دعوني أقص عليها الحكاية!». كان المكان شديد الازدحام حول سريري. صار السرير يتأرجح. غير مستقر.

أمسكتُ بيد جيمي. شددت عليها. أحسست أن يدي ضعيفة جداً. هل يستطيع جيمي الإحساس بضغطها على يده؟

«جيمي!».

«مرحباً يا جو! هذا رائع، أليس كذلك؟ أنت أصغر مني الآن!». ابتسم ابتسامة انتصار.

«لكني ما زلت أكبر منك سناً. أبلغ. .». توقفت عند ذلك غيرت جملتي تغيراً مفاجئاً. «سيحل عيد ميلادي بعد أسبوعين».

قد أكون مشوَّشة حائرة الآن، لكنني لست حمقاء. لم تذهب تجارب

ميلاني وخبراتها هدراً. لقد تعلمت منها. إن إيان إنسان محترم، مثل جارد، ولن أعاني ما عانته ميلاني من خيبة وانزعاج.

كذبت فأعطيت نفسي سنة إضافية: «سأبلغ ثمانية عشر عاماً».

ومن زاوية عيني، رأيت ميلاني وإيان يتجمدان دهشة. يبدو هذا الجسد أصغر سناً بكثير من عمر صاحبته الحقيقي، فهي على مشارف عامها السابع عشر.

كانت هذه الكذبة، هذا العجب الذي رأيته على وجه إيان، سبباً في معرفتي أنني باقية هنا. سوف أبقى مع إيان ومع بقية أفراد عائلتي. أحسست أني موشكة على البكاء.

ربت جيمي على وجهي محاولاً استعادة انتباهي. فوجئت بضخامة كفه على وجنتي: «لقد سمحوا لي بالمشاركة في الغارة التي جاءت بك».

تمتمت: «أعرف هذا. أتذكر هذا. لقد رأيتك هناك». نظرت غاضبة إلى ميلاني فاكتفت برفع كتفيها.

قال جيمي: «لقد حاولنا ألا نخيفك. إنك. إنها. تبدو شديدة الضعف والهشاشة. وهي تبدو شديدة اللطف أيضاً. لقد وقع اختيارنا عليها. كلنا! لكن، كان عليّ اتخاذ القرار! قالت ميلاني إن علينا البحث عن فتاة صغيرة السن، لكنها يجب أن تكون غير صغيرة كثيراً. يجب أن تكون قد أمضت نسبة معقولة من حياتها مع الروح التي فيها. ما كانت تريدك صغيرة جداً لأنها تعرف أنك لا تريدين أن تصبحي طفلة. وقد أحبّ جارد هذا الوجه وقال إن أحداً لا يستطيع عدم. الثقة به. لا يبدو شكلك خطيراً على الإطلاق. قال جارد إن من شأن كل من يراك أن يحس برغبة في حمايتك. أليس هذا صحيحاً يا جارد؟ لكن الكلمة الأخيرة كانت لي أنا لأنني كنت أبحث عن شخص يبدو شكله مثلك أنت. أظن أنها تبدو مثلك أنت لأنها تشبه ملاكاً. أنا أعتبرك ملاكاً! يجب أن تكون جميلة أيضاً فأنا أعرف أنك جميلة». عند ذلك، ابتسم جيمي ابتسامة كبيرة وتابع يقول: «لم يذهب إيان معنا! ظل هنا جالساً

معك. قال إنه غير مهتم بشكلك. وقال إنه لن يسمح لأحد بلمس حاويتك. لن يسمح حتى لميلاني! لكن الطبيب سمح لي برؤية العملية هذه المرة. كان ذلك رائعاً يا جو! لست أعرف السبب الذي جعلك تمنعينني من رؤية العملية! لكنهم لم يسمحوا لي بمساعدتهم رغم ذلك. لم يسمح إيان لأحد غيره بلمسك».

ضغط إيان على يدي وانحنى فهمس عبر شعري الكثيف. كان صوته شديد الانخفاض. ما كان أحد غيري قادراً على سماعه: «حملتك بين يدي يا جو. وقد كنت في غاية الجمال».

صارت عيناي مبللتين. صرت مضطرة لأن أنشق بأنفي.

سألني جيمي بصوت فيه شيء من القلق الآن: «لقد أعجبك هذا، أليس كذلك؟ أنت لست غاضبة! ما من أحد معك هناك. في الداخل، أليس كذلك؟».

همست: «لست غاضبة تماماً. وأنا. أنا غير قادرة على العثور على أحد غيري في هذا الجسد. لا أرى إلا ذكريات بيت. إن بيت مقيمة في هذا الجسد منذ. لا أتذكر وقتاً لم تكن فيه هنا! لا أستطيع تذكر أي اسم آخر».

قالت ميلاني بصوت حازم وهي تلمس شعري فترفع خصلة منه تاركة ذلك الذهب ينساب بين أصابعها: «أنت لست طفيلية! صحيح أن هذا الجسد لم يكن ملكاً لبيت. لكن صاحبته غير موجودة. لقد انتظرنا حتى نتأكد من الأمر يا جو. ظللنا نحاول إيقاظها وقتاً طويلاً. يقارب الوقت الذي أمضيناه في محاولة إيقاظ جودي».

«جودي! ماذا حدث لجودي؟» هكذا صحت وقد ارتفع صوتي زاعقاً كأنه صوت عصفور مذعور. حاولت النهوض فشدني إيان إلى الأعلى وأجلسني. لم يستدع هذا أي جهد منه. لم يستدع أي قوة لتحريك جسدي الجديد الضئيل. كانت ذراعه تسندني. عند ذلك صرت قادرة على رؤية جميع الوجوه.

رأيت الطبيب. ما عاد في عينيه دموع. رأيت جيب يسترق النظر من خلف الطبيب. كانت تعابير وجهه مشعة بالرضا والفضول في وقت واحد. وإلى جانبه رأيت امرأة لم أعرفها في البداية لأن وجهها كان فيه حياة لم أرها من قبل. إنها ماندي. التي كانت معالجة. وإلى جانبها رأيت جيمي بابتسامته المتألقة العريضة ورأيت إلى جانبه ميلاني ومن خلفها جارد واضعاً يديه على خصرها. كنت أعرف أن يديه لن تجدا مكانهما الصحيح حتى تلمسا جسدها. جسدي! أعرف الآن أنه سيحاول دائماً البقاء قريباً منها. سيكره أي مسافة تفصل بينهما. أصابني هذا بألم جارح ممض. ارتعش القلب الرقيق الذي في صدري. لم يتحطم قلبي قبل الآن، وهو غير قادر على فهم هذه الذكرى.

أزعجني إدراكي أنني ما زلت أحب جارد. لم أتخلص من هذا الحب. لم أتخلص من غيرتي من الجسد الذي يحبه جارد. عادت نظراتي إلى ميلاني فرأيت ذلك الالتواء في شفتيها اللتين كانتا لي. أدركت أنها تفهمني.

تابعت النظر سريعاً في مجموعة الوجوه المتحلّقة حول السرير. أما الطبيب فقد أجابني على سؤالي بعد صمت قصير.

رأيت جيفري وترودي وهيث وبيج وآندي. بل رأيت براندت أيضاً.

«لم تستجب جودي لمحاولاتنا. لقد تابعنا المحاولة أطول وقت ممكن».

هل ذهبت جودي؟ راح قلبي غير المجرب ينبض متألماً. إنني أجعل هذا القلب الضعيف يمر بمرحلة استيقاظ شاقة!

رأيت هيدي وليلي. رأيت ليلي تبتسم ابتسامة متألمة صغيرة. زادت ابتسامتها من ألمي.

«كنا قادرين على مواصلة الحفاظ على حياتها. لكننا ما كنا قادرين على تغذيتها. خشينا موت عضلاتها ودماغها. .».

صار الألم في قلبي الجديد أكثر شدة من قبل. راح قلبي يتألم

على امرأة ما عرفتها أبداً. لكن نظراتي واصلت جولتها على الوجوه المحتشدة. ثم تجمدت فجأة.

رأيت جودي متعلقة بذراع كَايل. رأيتها تنظر صوبي.

ابتسمت لي ابتسامة مترددة فعرفتها.

«أنت ساني!».

قالت: «لقد اضطررت إلى البقاء». بدت راضية بهذا. نظرت ساني إلى وجه كَايل الذي صار الآن أكثر لطفاً مما عهدته. استحال صوتها حزيناً. «اضطررت إلى البقاء. مثلك أنت. لكني ما زلت أحاول. إنني أبحث عنها. وسوف أواصل المحاولة»

تابع الطبيب كلامه بصوت هادئ: «جعلنا كَايل نعيد ساني عندما صرنا موشكين على خسارة جودي».

حدقت في كَايل وساني لحظة مسحورة من الزمن، ثم تابعت جولتي.

كان إيان يراقبني بمزيج غريب من الفرحة والعصبية. كان وجهه أكثر ارتفاعاً مما يجب أن يكون. أكثر كبراً مما كان في السابق. لكن عينيه ما زالتا زرقاوين كما أتذكرهما. إنهما المرساة التي تربطني إلى هذا الكوكب.

سألني: «هل أنت مرتاحة في هذا الجسد؟».

قلت معترفة: «إنني. لست أدري. لدي إحساس شديد الغرابة. لا تقل غرابة الوضع الآن عما يكون عند الانتقال إلى جنس آخر. لا أعرف».

ارتعش قلبي من جديد عندما نظرت في هاتين العينين. ما كان هذا ذكرى حب من حياة أخرى! جفّ فمي وارتجفت معدتي. وحيث كانت ذراعه تمس ظهري. أحسست بحياة أكثر حرارة من حياة من بقية جسدي.

سألني هامساً: «لا يزعجك البقاء هنا زمناً طويلاً، أليس كذلك يا جو؟ أتظنين أن هذا شيء تستطيعين احتماله؟».

شد جيمي على يدي ووضعت ميلاني يدها فوق يده ثم ابتسمت عندما أضاف جارد يده إلى هذه الكومة من الأيدي. ربّتت ترودي على قدمي ورأيت جيفري وهيث وهيدي وآندي وبيج وبراندت. بل حتى ليلي. يبتسمون لي جميعاً. اقترب كَايل فرأيت ابتسامة تمتد فوق وجهه. ابتسمت ساني لي ابتسامة تآمرية.

ما مقدار ما أعطاني الطبيب من مزيل الألم؟ إن كل شيء من حولي يتوهّج ساطعاً.

أزاح إيان غيمة الشعر الذهبي عن وجهي ووضع يده على خدي. كانت يده شديدة الضخامة. غطى كفها المساحة الممتدة من فكي إلى جبيني. جعلت هذه اللمسة موجة كهربائية تسري في جلدي. أحسست بالتنميل بعد تلك الموجة. أحسست بالتنميل في معدتي أيضاً.

أحسست موجة من الاحمرار تغزو وجنتي. لم يتحطّم قلبي من قبل، لكن المشاعر لم تغمره على هذا النحو أيضاً. أخجلني هذا. أمضيت وقتاً صعباً قبل أن أعثر على صوتي من جديد.

همست له: «أظن أنني قادرة على البقاء. إن كان هذا يسعدك».

قال معترضاً: «لكن هذا لا يكفي. يجب أن تكوني سعيدة بالبقاء هنا. أنت أيضاً».

لم أستطع مقابلة عينيه إلا ثواني قليلة. جعل الخجل. الذي كان جديداً مربكاً بالنسبة لي. جعل أنظاري تسقط مرتدة إلى حضني مرة بعد مرة.

قلت موافقة: «أظن أن هذا. أظن أنه يجعلني شديدة السعادة».

سعيدة حزينة، متألقة بائسة، آمنة خائفة، محبوبة مرفوضة، صبورة غاضبة، مسالمة متوحشة، كاملة فارغة. ذلك كله معاً. سوف أشعر بهذه الأشياء كلها. ستكون لي كلها.

رفع إيان وجهي ليجعلني أنظر في عينيه فازداد احمرار خديّ.

«إذاً. أنت باقية».

قبّلني. قبّلني هنا أمام الجميع، لكني نسيتهم كلهم سريعاً. كان هذا سهلاً، كان صحيحاً. لا انقسام، لا تشوش، لا اعتراض. أنا وإيان فقط. بدأت الصخور المنصهرة تتحرك في هذا الجسد الجديد. تصوغه مرة أخرى.

قلت: «أنا باقية».

وهكذا. بدأت حياتي العاشرة.

## خاتمة

# استمرار

استمرت الحياة واستمر الحب في هذا المعقل الأخير للبشرية على كوكب الأرض. لكن الأشياء لم تبق كما كانت تماماً.

لم أبق كما كنت تماماً.

كانت هذه المرة الأولى التي أولد فيها مرة أخرى في جسد من الفصيلة نفسها. وجدت هذا التحول أكثر صعوبة بكثير من تبديل الكواكب لأنني كنت أحمل توقعات كثيرة جداً في ما يخص حياتي البشرية. ثم إنني ورثت أشياء كثيرة من أوراق الزهرة المفتوحة على القمر. ما كان كل شيء من تلك الأشياء مصدر مسرّةٍ لي.

ورثت عنها حنيناً كبيراً لصديقي. ورحت أفتقد أماً لم أعرفها أبداً. وحزنت لمعاناتها الآن. لعل من المستحيل على هذا الكوكب وجود فرحة من غير حزن وألم يوازنانها؟ على مقياس لا أعرفه.

ورثت عنها أيضاً قيوداً ما كنت أتوقعها. كنت معتادة على جسد قوي سريع طويل القامة. على جسد يستطيع الجري أميالاً يستطيع البقاء من دون طعام أو ماء أياماً. ويستطيع حمل أوزان ثقيلة. جسد قادر على بلوغ رفوف مرتفعة. أما هذا الجسد فكان ضعيفاً. ليس من الناحية الجسدية وحدها. كان عاجزاً بعض الشيء بفعل حياء غريب يجتاحه كلما كنت غير واثقة من نفسي. وهذا ما بدا لي وضعاً غالباً في هذه الأيام.

ورثت عنها أيضاً دوراً مختلفاً في الجماعة البشرية. صار الناس يحملون الأشياء من أجلي الآن. صاروا يجعلونني أدخل قبلهم إلى أي غرفة. صاروا يعطونني المهام الأكثر سهولة. وصاروا، في أوقات كثيرة، يأخذون عني هذا العمل البسيط أيضاً. وأسوأ من هذا كله هو أنني كنت في حاجة إلى هذا العون فعلاً كانت عضلاتي رقيقة غير معتادة على الكدح. كنت أتعب بسرعة كبيرة وما كانت محاولاتي لإخفاء هذا قادرة على خداع أحد من الناس. لعلي ما كنت قادرة على الجري ميلاً واحداً من غير توقف من أجل الاستراحة.

لكن شيئاً إضافياً كان كامناً خلف هذه المعاملة الرقيقة. شيئاً غير ضعفي الجسدي. صحيح أنني كنت معتادة على أن يكون وجهي جميلاً، لكنه كان من قبل وجهاً يستطيع الناس النظر إليه بخوف وقلة ثقة. وبكراهية أيضاً. أما وجهي الجديد فكان يمنع هذه المشاعر تماماً.

صار الناس يكثرون من لمس وجنتي أو من وضع أصابعهم تحت ذقني حتى يرفعوا وجهي إلى الأعلى لرؤيته على نحو أفضل. وكثيراً ما كان الناس يربّتون على رأسي (كان قريب المتناول لأنني ما كنت أكثر طولاً إلا من الأطفال)، وكانوا يمسّدون على شعري كثيراً إلى حد جعلني أكف عن ملاحظة الأمر أصلاً عندما يحدث. أما الأشخاص الذين لم يستطيعوا قبول وجودي سابقاً فصاروا يفعلون هذه الأشياء، مثلهم مثل أصدقائي. بل إن لوتشينا نفسها لم تظهر إلا اعتراضاً شكلياً عندما بدأ ولداها يلحقان بي مثل جروَيْن مخلصين. كان فريدوم خاصةً يتكور في حضني كلما سنحت الفرصة له. كان يدفن وجهه في شعري. أما أشعيا فكان كبيراً على هذا النوع من إظهار المشاعر، لكنه كان يحب أن يمسك يدي التي كانت في حجم يده تقريباً. ويحب خوض أحاديث مثيرة معي عن العناكب والتنانين وعن كرة القدم والغارات. لكن الطفلين ظلا غير راغبَيْن في الاقتراب من ميلاني فقد بث والدتهما في نفسيهما خوفاً شديداً منها. وما عاد يمكن تغيير الأمر الآن.

وحتى ماغي وشارون ما عادتا قادرتين على المحافظة على تصلبهما القديم في حضوري رغم استمرار محاولتهما عدم النظر صوبي.

لم يكن التغير الجسدي هو التغير الوحيد فقد جاءت الرياح الموسمية متأخرة إلى هذه الصحراء. وكنت سعيدة بمجيئها.

لم أشم من قبل رائحة المطر على الصبار الصحراوي. كنت قادرة على تذكّر هذه الرائحة فحسب. ذكرى غائمة من ذكرياتي التي أحملها عن ذكريات ميلاني. والآن. انداحت تلك الرائحة في الكهوف الرطبة فجعلتها تفوح برائحة منعشة. شبه معطرة. التصقت تلك الرائحة بشعري ولحقت بي في كل مكان. صرت أشمها حتى في أحلامي.

كانت أوراق الزهرة المفتوحة على القمر قد عاشت حياتها في مدينة سياتل الشمالية. وكانت هذه السماء الزرقاء الواسعة وحرارة الصحراء اللاسعة أمراً معذباً لجسدي مثلما تكون سماء غائمة دائماً أمراً مرهقاً لمن اعتاد سكنى الصحراء. كانت الغيوم مثيرة الآن. كانت تغيراً عن تلك السماء الزرقاء الصافية. كان في الغيوم عمق. وحركة! وكانت ترسم أشكالاً وصوراً في السماء.

الآن. ثمة عمل كثير في كهوف جيب. إنها حركة الانتقال إلى صالة الألعاب الكبيرة التي ستصبح مهجعاً مشتركاً لنوم الجميع في الشتاء. إنها مقدمة لتغيرات كبيرة سوف تليها.

صار ثمة حاجة إلى كل مكان فما كنا قادرين على ترك غرف النوم فارغة. لكن، رغم ذلك، جرى السماح للقادمتين الجديدتين: كاندي، التي أفلحت في تذكّر اسمها الحقيقي أخيراً، وليسي. أن تسكنا في غرفة ويس القديمة. أشفقت على كاندي من رفقة ليسي، لكنها لم تظهر أي قدر من عدم الرضا بهذه القسمة.

وعندما انتهى المطر، انتقل جيمي إلى زاوية شاغرة في كهف براندت وآرون. كان جارد وميلاني قد طردا جيمي من غرفتهما إلى غرفة إيان قبل

أن أعود من جديد. ما كان جيمي صغيراً إلى حد يجبرهما على التماس أعذار لإقناعه بقبول طرده.

أما كَايل فكان يعمل الآن على توسيع الكهف الصغير الذي كان غرفة نوم وولتر حتى يصبح جاهزاً عندما تعود الصحراء إلى جفافها من جديد. ما كان المكان كبيراً حتى يتسع لأكثر من شخص واحد، لكن كَايل لن يقيم هناك وحده!

أثناء الليل في غرفة الألعاب كانت ساني تنام متكورة عند صدر كَايل مثل قطيطة صادقت كلباً ضخماً. كلباً شرساً محضته ثقتها. كانت ساني ترافق كَايل على الدوام. لا أذكر أنني رأيتهما منفصلين منذ أن فتحت هاتين العينين الرماديتين الفضيتين للمرة الأولى.

أما كَايل فبدا مذهولاً على الدوام. مذهولاً بهذه العلاقة المستحيلة التي لم يستطع ذهنه هضمها ليلتفت إلى أمور أخرى. لم يكن قد تخلى عن أمله في استعادة جودي، لكن ساني تعلقت به فضمّها إليه بيدين حانيتين.

احتُلت الأماكن كلها قبل مجيء المطر فبقيت مع الطبيب في المستشفى الذي ما عاد يخيفني. ما كانت أسرّة المستشفى مريحة لي لكن المكان كان مثيراً للاهتمام. راحت كاندي تتذكر تفاصيل حياة أغنية الصيف أفضل من تذكّرها تفاصيل حياتها نفسها. إن المستشفى مكان للمعجزات في هذه الأيام.

لن يستمر الطبيب في إقامته في المستشفى بعد المطر. ففي الليلة الأولى لمبيتنا في صالة الألعاب جرّت شارون فراشها فوضعته إلى جانب فراش الطبيب من غير أن تنبس ببنت شفة لتوضيح تصرفها. لعل افتتان الطبيب بالمعالجة هو ما حمل شارون على هذا التصرف. لكني أشك في أن الطبيب قد لاحظ أصلاً مدى جمال تلك المرأة التي شارفت سن الكهولة. كان افتتانه منصباً على معارفها الاستثنائية. أو لعل شارون نفسها صارت الآن مستعدة للصفح والنسيان. آمل أن يكون الأمر هكذا! لطيف

أن يفكر المرء في أن الناس، حتى لو كانوا مثل شارون وماغي، يمكن أن ترقّ قلوبهم مع الزمن.

وأنا بدوري. لن أواصل إقامتي في المستشفى أيضاً.

لعل ذلك الحديث الحاسم الذي جرى بيني وبين إيان ما كان ليجري بيننا لولا جيمي. يجف فمي وتتعرق كفاي كلما فكرت في إثارة هذا الموضوع. ماذا لو كانت تلك المشاعر التي عشتها في المستشفى. تلك اللحظات القليلة من الثقة الكاملة بعد استيقاظي في هذا الجسد. ماذا لو كانت كلها سراباً؟ ماذا إن كنت أذكرها على نحو خاطئ؟ أعرف أن شيئاً لم يتغير من جانبي، لكن. كيف أتأكد من أن مشاعر إيان ظلت على حالها؟ ما زال الجسد الذي وقع في حبه موجوداً هنا!

توقعت أن أجد إيان في حالة غير مستقرة. هكذا كنا جميعاً. فإذا كان الأمر صعباً عليّ أنا. أنا الروح التي اعتادت هذه التغيرات. فكم يجب أن يكون صعباً على واحد من بني البشر؟

كنت أعمل جاهدة على إزالة آخر ما بقي من الغيرة والأصداء المحيّرة للحب الذي ما زلت أكنه لجارد. ما كنت أريدها. وما كنت راغبة فيها! إيان هو الشريك المناسب. لكني كنت أضبط نفسي أحياناً محدقة في جارد فأشعر بالحيرة. سبقت لي رؤية ميلاني تلمس يد إيان أو ذراعه فتبتعد مجفلة كأنها تذكرت فجأة من هي الآن. بل إن جارد نفسه. جارد الذي ما من سبب لديه يدعوه إلى الحيرة. كان يلاقي نظراتي المرتبكة الحائرة أحياناً بنظرة باحثة مستفهمة من عينيه. أما إيان. نعم، لا بد أن الأمر كان أصعب عليه. إنني أفهم هذا.

كنا معاً، مثلما كان كَايل وساني، تقريباً. كان إيان يلمس وجهي وشعري دائماً. يمسك يدي دائماً. لكن، من عساه يستطيع الامتناع عن الاستجابة لهذا الجسد على هذا النحو؟ ألم تكن تلك المشاعر أفلاطونية عند الآخرين جميعاً؟ لماذا لم يقبّلني مرة أخرى، مثلما قَبّلني في يومي الأول؟

لعله غير قادر على حبي في هذا الجسد رغم الجاذبية التي يتمتع بها. التي أراها في سلوك البشر هنا. جميعاً.

كان هذا القلق ثقيلاً على قلبي ليلة حمل إيان سريري الذي ما كنت قادرة على حمله فنقله إلى قاعة الألعاب الكبيرة المظلمة.

*

هطل المطر للمرة الأولى منذ أكثر من ستة أشهر راح الناس يضحكون ويتذمرون وينفضون حوائجهم التي بللها المطر ثم يرتبونها في أماكنها. رأيت شارون مع الطبيب. فابتسمت.

ناداني جيمي ملوّحاً لي بيده مشيراً إلى حيث وضع فراشه بجانب فراش إيان: «تعالي هنا يا جو. ثمة مكان يتسع لنا. لثلاثتنا الآن».

كان جيمي الشخص الوحيد الذي استمر في معاملتي كما كان يعاملني من قبل تماماً. صحيح أنه تخلى عن بعض الأشياء بسبب هشاشتي الجسدية الآن، لكنه لم يكن يبدي أي دهشة عندما يراني داخلة إحدى الغرف ولم يكن يبدي أي صدمة عندما تنساب كلمات الجوالة من بين شفتي هاتين.

«أظنك لست في حاجة إلى السرير يا جو، أليس كذلك؟ أراهن أننا سنكون مرتاحين تماماً إذا وضع كل منا فراشه ملاصقاً لفراش الآخر». نظر إليّ جيمي مبتسماً وهو يقرب الفراش فيجعله ملتصقاً بالفراش الآخر من غير أن ينتظر موافقتي. «أنت لا تشغلين حيزاً كبيراً الآن».

أخذ السرير من إيان فوضعه مقلوباً على جانبه، في مكان منزوٍ. وبعد ذلك استلقى على طرف الفراش البعيد مديراً ظهره صوبنا.

قال من غير أن يلتفت: «أوه. اسمع يا إيان. لقد تحدثت مع آرون وبراندت. أظن أنني سأنتقل للعيش معهما. لا بأس. إنني متعب كثيراً. تصبحان على خير».

حدقت زمناً طويلاً في جسد جيمي الساكن. كان إيان ساكناً مثله. لا

يعقل أن يكون الآن مصاباً بنوبة رعب. مثلي. هل كان يفكر في طريقة يخلص بها نفسه من هذا الموقف؟

صاح جيب من طرف الغرفة الآخر: «حان وقت إطفاء الضوء. اسكتوا جميعاً حتى أستطيع النوم». ضحك الناس لكنهم نفذوا أمره. كشأنهم دائماً. تلاشى ضوء المصابيح الأربعة، واحداً بعد الآخر، فغرقت الغرفة في الظلام.

عثرت يد إيان على يدي؛ كانت حارة. هل لاحظ مقدار برودة جلدي وتعرّقه؟

هبط على ركبتيه فوق الفراش فشدني معه برفق. استلقيت فوق الحد الفاصل بين الفراشين. ظل إيان ممسكاً يدي.

همس لي: «هل أنت مرتاحة هكذا؟». كانت من حولنا أحاديث هامسة كثيرة تجري في الظلام، لكن كلماتها لم تكن مفهومة بسبب صوت الجدول الكبريتي.

أجبته: «نعم. شكراً».

انقلب جيمي فهز الفراش واصطدم بي فقال متمتماً: «أوف. آسف يا جو». ثم سمعته يتثاءب.

ابتعدت عنه بحركة تلقائية. كان إيان أقرب مما ظننت. شهقت بصوت خفيض عندما اصطدمت به ثم رحت أحاول إعطاءه شيئاً من الفسحة لكن ذراعاه طوّقتاني فجأة. شدّتاني إلى جسده.

كان هذا شعوراً شديد الغرابة. ذراعا إيان من حولي على هذا النحو غير الأفلاطوني الذي ذكّرني، على نحو غريب، بتجربتي الأولى مع الدواء مزيل الألم. كان الأمر كما لو أنني كنت متألمة دون أن أدرك ألمي فأزالت لمسة هاتين اليدين ألمي كله على نحو غير منتظر.

محا هذا الشعور خجلي. استدرت فواجهته. شد ذراعيه حولي أكثر من ذي قبل.

همست مكررة سؤاله: «هل أنت مرتاح هكذا؟».

قبّل جيني: «بل أكثر من مرتاح».

ظل صامتاً بضع دقائق. تلاشت أصوات معظم الأحاديث الهامسة من حولنا.

انحنى فصارت شفتاه عند أذني وهمس لي بصوت أخفض من ذي قبل: «جو. هل تظنين. ؟» ثم سكت.

«ماذا؟».

«الظاهر أن الغرفة بقيت لي وحدي الآن. هذا وضع غير صحيح».

«أنت محق. لا توجد أماكن كثيرة تسمح بأن تعيش وحدك».

«لا أريد أن أعيش وحيداً، لكن. .».

ماذا يريد أن يقول؟ «لكن ماذا؟».

«هل سمح لك الوقت بالتفكير؟ لا أريد أن أستعجلك. أعرف أن الأمر مربك. مع وجود جارد. .».

مرّت لحظة قبل أن أفهم كلماته. وعندما فهمتها ضحكت بصوت هادئ. ما كانت ميلاني ضحوكاً حقاً، لكن بيت كانت كذلك. . لقد خذلني جدها في هذه اللحظة غير المناسبة.

سألني: «ماذا؟».

شرحت له هامسة: «كنت أمنحك وقتاً للتفكير. ما كنت أريد استعجالك. لأنني أعرف أن الوضع مربك. مع وجود ميلاني هنا».

فوجئ إيان تماماً: «هل ظننت. .؟ لكن ميلاني ليست أنت. لم يربكني هذا الأمر أبداً».

كنت أبتسم في الظلمة الآن: «جارد ليس أنت أيضاً».

أجابني بصوت متوتر قليلاً: «لكنه ما زال جارد. لم يتغير. وأنت تحبين جارد».

هل داهمته الغيرة من جديد؟ لا يجوز أن تسرّني هذه المشاعر السلبية! لكن، عليّ الاعتراف بأن هذا شجعني.

«جارد جزء من الماضي. من حياة أخرى. أنت هو حاضري».

ظل إيان هادئاً بعض الوقت. وعندما تكلم من جديد كان صوته نابضاً بالمشاعر: «ومستقبلك أيضاً إن كنت تريدين ذلك».

«نعم. أريده»

عندئذٍ قبّلني إيان على نحو غير أفلاطوني إلى أقصى درجة يسمح بها ازدحام المكان. كم كنت سعيدة لأنني كذبت قليلاً فأخفيت عمري الحقيقي.

سوف ينتهي المطر وعندما ينتهي سنكون معاً، أنا وإيان. سنكون شريكين بكل معنى الكلمة. كان هذا وعداً وواجباً على نحو لم أعرفه قبل الآن في أي حياة عشتها جعلني التفكير في هذا الوعد أشعر بالفرحة والقلق والخجل ونفاد الصبر. كل هذا في وقت واحد. جعلني أشعر بأنني صرت بشرية.

*

بعد هذا الاتفاق صرنا معاً دائماً. لذلك، عندما حان وقت اختبار أثر وجهي الجديد على بقية الأرواح، كان إيان معي بطبيعة الحال.

كانت هذه الغارة راحة لنفسي المرهقة بفعل أسابيع طويلة من القلق والانزعاج. كان من المزعج بما فيه الكفاية أن أعيش في هذا الجسد الجديد الضعيف إلى حد يكاد يجعله عديم النفع في هذه الكهوف. لم أستطع تصديق الأمر عندما أراد الناس منعي من الاستفادة من هذا الجسد على النحو الوحيد الذي يصلح له على أحسن حال.

كان جارد تحديداً قد وافق على اختيار جيمي بسبب هذا الوجه البريء الصغير الذي لا يستطيع أحد الشك فيه. وبسبب هذا التكوين الرقيق الذي يجعل أي شخص راغباً في مد يد المساعدة لصاحبته. لكن جارد نفسه تردد كثيراً قبل أن يضع نظريته موضع التطبيق. كنت واثقة من أن ذهابي في غارة جديدة سيكون في مثل سهولة ذهابي في الغارات

السابقة، لكن جارد وجيب وإيان. والآخرين أيضاً. راحوا يحاولون العثور على طريقة تجنبهم الاستفادة مني على هذا النحو كان هذا سخفاً.

رأيتهم ينظرون إلى ساني. يفكرون في إرسالها. لكنها لم تجتز أي اختبار بعد. لم تصبح موضع ثقة حقاً. وفوق هذا ما كانت ساني راغبة على الإطلاق في الخروج من الكهف. كانت كلمة غارة وحدها كفيلة بجعلها تنكمش على نفسها مذعورة! لن يذهب كَايل معنا الآن لأن ساني أصيبت برعب هستيري عندما سمعته يتحدث عن الذهاب.

وفي النهاية، فاز المنطق العملي. إنهم في حاجة إلى ذهابي.

لطيف أن يشعر المرء بحاجة الآخرين إليه.

كانت المؤونة في تضاؤل. وسوف تكون هذه الغارة رحلة طويلة شاملة. كان جارد قائد الغارة كالعادة. وكان معنى هذا أن تذهب ميلاني أيضاً. تطوع للذهاب كل من آرون وبراندت. ما كنا في حاجة إلى عضلات إضافية؛ لقد ضاقا ذرعاً بالبقاء في الكهوف.

سوف نذهب مسافة طويلة صوب الشمال هذه المرة. كنت مسرورة برؤية أماكن جديدة. مسرورة لأنني سأحس بالبرد من جديد.

كان ضبط الإثارة صعباً في هذا الجسد. وكنت متوثبة متوترة ليلة ذهابنا إلى المخبأ الذي نخفي فيه الشاحنتين. الكبيرة والصغيرة. راح إيان يسخر مني لأنني كنت شبه عاجزة عن الصبر ريثما نحمّل الملابس والأطعمة المجففة التي سوف نكون في حاجة إلى اصطحابها معنا في الشاحنة المغلقة الصغيرة. أمسك بيدي قائلاً إنه يحاول أن يشدني إلى الواقع من جديد.

هل كان صوتي مرتفعاً أكثر مما يجب؟ هل نسيت الوضع المحيط بنا؟ لا، ما كان الأمر هكذا إطلاقاً. ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً. كان هذا فخاً، وقد فات أوان تراجعنا منذ لحظة وصولنا.

تجمدنا جميعاً عندما انطلق شعاع ضوئي من الظلمة نحو وجهي

جارد وميلاني. أما وجهي، وعيناي، والأشياء التي يمكن أن تساعدنا، فقد ظلت في الظلمة. ظلت في ظل ظهر إيان العريض.

لم يصب توهج الضوء عيني بالعمى. كان ضوء القمر كافياً حتى أرى الباحثين الذين كانوا أكثر منا عدداً. كانوا ثمانية. وكنا ستة فقط! كان الضوء كافياً حتى أرى الأسلحة تلمع في أيديهم. مرفوعة. مسددة صوبنا. كانت مصوبة إلى جارد وميلاني وإلى براندت وآرون. وكانت فوهة أحدها عند صدر إيان تماماً. أما سلاحنا الوحيد فما زال في غمده.

لماذا تركته يأتي معي؟ لماذا يموت هو أيضاً؟ ترددت أصداء سؤال ليلي المعذب في رأسي: لماذا تستمر الحياة.. ولماذا يستمر الحب؟ ما الفائدة من هذا؟

تحطم قلبي الصغير الهش. تشظى فصار مليون جزء. رحت أبحث عن الحبة القاتلة في جيبي.

صاح الرجل الواقف في مركز مجموعة الباحثين: «هدوء الآن. اهدأوا جميعاً. انتظروا، انتظروا، لا تبتلعوا شيئاً! تمالكوا أنفسكم! انظروا!».

صوّب الرجل الضوء إلى وجهه.

كان وجهه أسمر ملوحاً بالشمس. كان محفّراً مثل صخرة حتّها هبوب الريح. وكان شعره أسود اللون لكن الشيب قد غزا صدغيه. كان شعره مرسلاً، شعثاً، خلف أذنيه. أما عيناه. فكانتا بنيتين داكنتين. بنيتين داكنتين فحسب، ولا شيء غير ذلك.

قال: «أرأيتم؟ والآن. لا تطلقوا النار علينا. لن نطلق النار عليكم. هل فهمتم؟». وضع بندقيته على الأرض قائلاً: «هيا يا فتيان». وضع الآخرون أسلحتهم في أماكنها. على خصورهم أو أكتافهم أو ظهورهم. ما أكثر أسلحتهم!

«لقد عثرنا على مخبئكم هذا. عثرنا على هذا المخبأ الذكي. كنا محظوظين بالعثور عليه فقررنا الانتظار هنا حتى نتعرف عليكم. لا يعثر المرء على خلية من المتمردين كل يوم». ضحك الرجل ضحكة فرِحة خرجت من مكان عميق في صدره. «انظروا إلى وجوهكم! ماذا؟ هل ظننتم أنكم وحدكم من يواصل المقاومة؟». ضحك الرجل من جديد.

لم يتحرك أي منا قيد أنملة.

قال رجل آخر: «أظن أنهم ما زالوا تحت تأثير الصدمة يا نيت».

قالت امرأة: «لقد جعلناهم يموتون خوفاً. ماذا تتوقع غير هذا؟».

ظلوا واقفين منتظرين ينقلون وزن أجسادهم من قدم إلى أخرى. أما نحن فظللنا متجمدين في أماكننا.

كان جارد أول من أفلح في الكلام. قال هامساً: «من أنتم؟».

ضحك زعيمهم من جديد: «اسمي نيت. وأنا سعيد بلقائكم رغم أنكم لم تشعروا بسعادة مماثلة حتى الآن. وهذا هو روب. وهذا إيفان وبليك وتوم وكيم وراشيل». كان يشير بيده إلى الأشخاص أثناء حديثه. وكان كل منهم يومئ برأسه عند ذكر اسمه. لكنني لاحظت رجلاً واقفاً إلى الخلف قليلاً لم يذكر نيت اسمه. كان ذا شعر أشقر داكن منتصب. وكان أطول أفراد المجموعة. بدا لي أنه الشخص الوحيد غير المسلح بينهم. ورأيته ينظر صوبي نظرة اهتمام فأشحت بوجهي عنه. تابع نيت قائلاً: «يبلغ عددنا اثنين وعشرين شخصاً».

مد نيت يده لجارد.

استنشق جارد نفساً عميقاً ثم تقدم صوبه. وعندما تحرك استرد كل واحد من أفراد مجموعتنا الصغيرة أنفاسه.

«اسمي جارد». قال هذا وهو يصافح نيت ثم راح يبتسم قائلاً: «هذه ميلاني. وهذا آرون وبراندت وإيان. وجو عددنا سبعة وثلاثون شخصاً». عندما نطق جارد اسمي تململ إيان قليلاً محاولاً إخفائي بجسده

عن أبصار هذه المجموعة من البشر. في تلك اللحظة فقط أدركت أنني معرضة لخطر كبير. معرضة للخطر نفسه الذي من شأنه أن يحيق برفاقي لو أن هؤلاء الناس كانوا من الباحثين. تماماً مثلما كان الأمر في البداية! حاولت أن أبقى ساكنة تماماً.

فوجئ نيت بالرقم الذي ذكره جارد واتسعت عيناه دهشة: «واو! هذه هي المرة الأولى التي أعثر فيها على مجموعة تفوقنا عدداً».

فوجئ جارد الآن: «هل من مجموعات أخرى؟».

«ثمة مجموعات ثلاث انفصلت عن مجموعتنا. أحد عشر شخصاً مع جيل وسبعة مع راسل وثمانية عشر شخصاً مع ماكس. إننا على اتصال دائم. بل إننا نتبادل بعض اللوازم من وقت لآخر». أطلق تلك الضحكة العميقة من جديد. «قررت إيلين الموجودة ضمن مجموعة جيل أنها تريد ملاقاة إيفان. وأما كارلوس فقد وقع في غرام سيندي المقيمة مع مجموعة راسل. وبطبيعة الحال، لا أحد منا قادر على الاستغناء عن خدمات بيرنز. .» كف عن الكلام فجأة وراح يتلفت منزعجاً كما لو أنه قال شيئاً ما كان يجوز له قوله. استقرت عيناه لحظة صغيرة على الرجل الطويل الواقف في الخلف. كان الرجل مستمراً في النظر صوبي.

قال رجل قصير داكن اللون واقف إلى جانب نيت: «لعل علينا توضيح الأمر لهم».

ألقى نيت نظرة شك على مجموعتنا الصغيرة: «لا بأس. روب على حق! فلننته من هذا الأمر». استنشق نفساً عميقاً وتابع يقول: «والآن، افتحوا آذانكم واستمعوا إليّ جيداً. بهدوء من فضلكم. إن هذا يزعج بعض الناس أحياناً».

«بل دائماً»، دمدم الرجل القصير، روب. وامتدت يده إلى قراب مسدسه.

سأله جارد بصوت خالٍ من التعبير: «ماذا؟».

تنهد نيت ثم أشار إلى الرجل الطويل ذي الشعر الأشقر المحمر تقدم الرجل وعلى وجهه ابتسامة قلقة. كانت له شامات. مثلي. لكنها أكثر من شاماتي. بالآلاف! كانت شديدة الكثافة على وجهه فجعلته يبدو قاتم اللون رغم شقرته. كانت عيناه داكنتين. لعلهما زرقاوان. زرقة البحر الداكنة.

«هذا هو بيرنز. إنه معنا. فلا تتركوا الجنون يصيبكم. إنه صديقي المفضل. وقد أنقذ حياتي مئات المرات. إنه واحد من أفراد أسرتنا. لا يكون رد فعلنا لطيفاً على الإطلاق عندما يحاول أحد قتله».

رأيت إحدى النساء تشهر مسدسها بحركة بطيئة وتجعله مسدداً صوب الأرض.

تحدث بيرنز للمرة الأولى. كان صوته لطيفاً. عميقاً: «لا بأس يا نيت! هل ترى؟ إن لديهم شخصاً مثلي». أشار بيده صوبي فتوتر جسد إيان. «الظاهر أنني لست الشخص الوحيد الذي صار واحداً من البشر».

ابتسم بيرنز لي ثم سار فاجتاز المسافة الفاصلة. الأرض المحرمة بين القبيلتين. كانت يده ممتدة صوبي.

خطوت ملتفة حول إيان متجاهلة تحذيره الهامس. صرت واثقة مرتاحة على نحو مفاجئ.

أعجبتني عبارة بيرنز: الشخص الوحيد الذي صار واحداً من البشر!

توقف بيرنز قبالتي وأنزل يده قليلاً ليعوض الفارق الكبير في الطول بيني وبينه. صافحت يده. كانت قاسية خشنة بالمقارنة مع جلد يدي الرقيق. هززت يده.

قدم نفسه: «اسمي حارق الأزهار الحية».

فوجئت بسماع هذا الاسم. إنه من عالم النار. هذا غير متوقع إطلاقاً.

قلت له: «اسمي الجوالة».

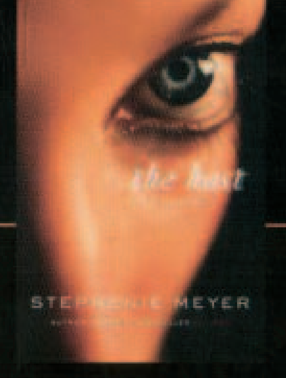
«رائع. أن أقابلك يا جوالة. تصوري أنني ظننت نفسي فريداً في هذا العالم».

قلت: «لست فريداً أبداً». كنت أفكر في ساني القابعة هناك في الكهوف. لعلنا لسنا من نوع نادر مثلما تصورنا.

قال بيرنز «أحقاً؟ جيد. لعل لهذا الكوكب أملاً!».

همست: «إنه عالم غريب» قلت هذه الكلمات لنفسي أكثر مما كنت أوجهها إليه.

قال يوافقني: «عالم غريب جداً».







# الجسد المضيف

اجتاحت ستيفاني ماير عالم النشر اجتياح العاصفة عندما خرجت بسلسلة "الشفق" الباهرة الموجهة إلى الشباب فحظيت بنجاح هائل في مختلف أنحاء العالم وسحرت القراء العرب أيضاً.

وأما روايتها "الجسد المضيف" فهي أول رواية من جزء واحد موجهة للكبار، رواية تأخذك من جديد إلى عالم خيالي ساحر... عالم الأرواح الغازية والأجساد المضيفة؛ لكنها تقدم لك في الوقت عينه روايةً بشريةً تماماً عن الحب والصداقة والوفاء والأسرة. إنها رواية فريدة تحرك القلوب وتستكشف مجالاً واسعاً من المشاعر البشرية، وهي تتناول معنى أن يكون المرء بشرياً ومعنى الهوية والفردانية.

وفوق هذا كله فإن "الجسد المضيف" روايةٌ عن طبيعة الحب، الحب الرومانسي، حب الأسرة، حب الأصدقاء. وهي تؤكد ما جاء في إهداء ستيفاني ماير الموجه إلى أمها التي "علمتها أن الحب هو الجزء الأفضل في كل قصة".








المركز الثقافي العربي